عجائب المقدور في نوائب تيمور

لابن عربشاه

أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي
(المتوفى سنة ٨٥٤هـ)

تحقيق
أحمد فايز الحمصي

مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

UNIV.
LIBRARY
BEIR.

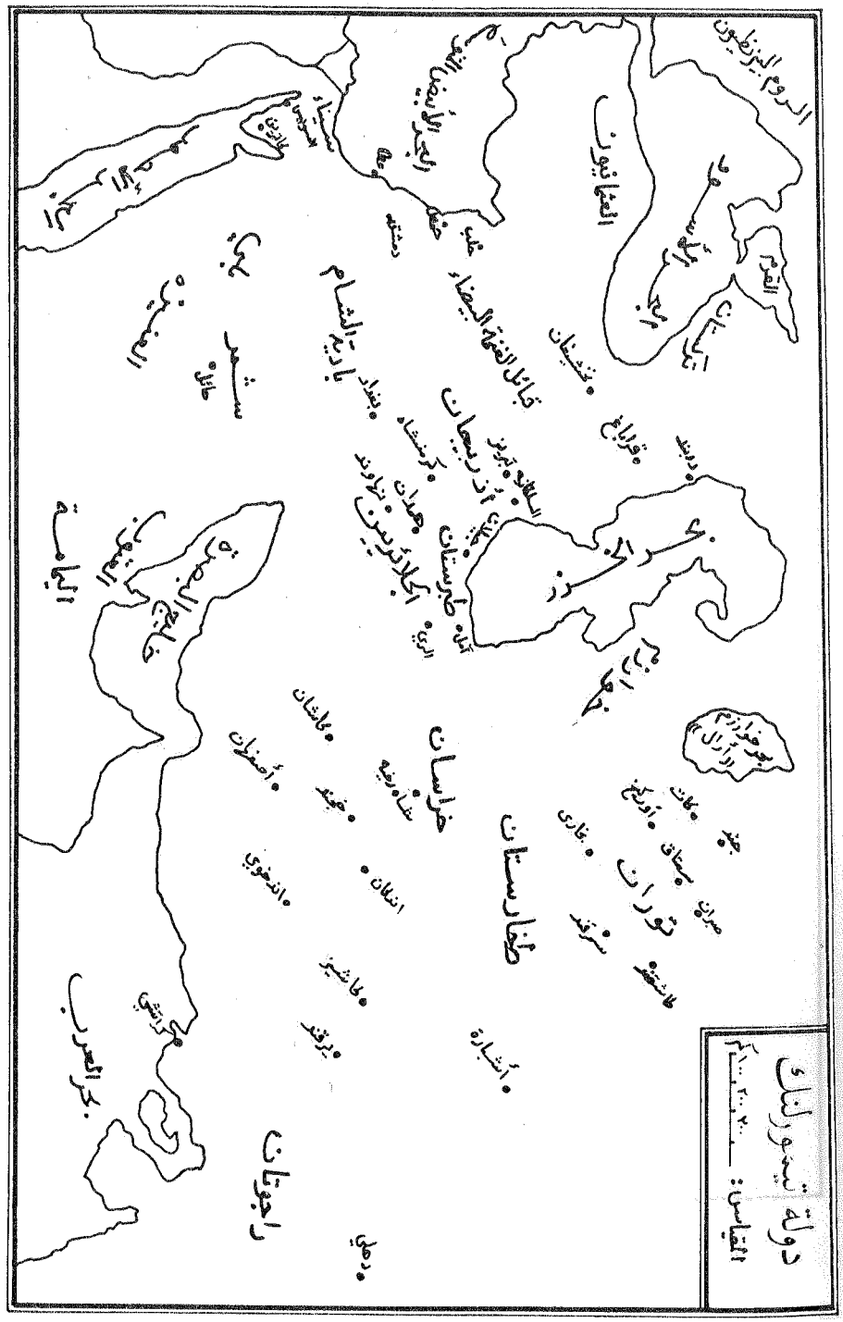

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل سنوات حين كنتُ أقوم باعداد كتاب عن دمشق ومبانيها التاريخية وتراثها المعماري بذلتُ جهودي في التعرف على كل دراسة أو كتاب يتعلق بمدينة دمشق وخاصة حينما حاولت العثور على مصادر للتعريف بالأمير المملوكي بتخاص السودوني الذي نُسب إليه بناء التربة في سوق ساروجة والتي تشتهر حالياً باسم مسجد بلبان فاهتديتُ إلى أن تيمورلنك حين غزا دمشق نزل بالقصر الأبلق ثم تحول الى بيت الأمير بتخاص وأمر بالقصر أن يهدم ويحرق.

وقد أشار إلى ذلك المؤرخ الدمشقي ابن عربشاه في كتابه «عجائب المقدور في نوائب تيمور». وبدأت أقوم بدراسة هذا الكتاب بادىء الأمر في طبعته الحجرية عام ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م. وأدركت منذ ذلك الوقت أهمية هذا الكتاب فنحن أبناء دمشق لا نزال نشعر بالألم لما أصاب مدينتنا من جنوده الحاقدين.

وبدأت أدقق فيما كتبه ابن عربشاه عن شجاعة أهل دمشق وغيرها من المدن في مقاومتهم هذا الطاغية. ولكن السياسة الخرقاء التي انتهجها المماليك في أمر تيمور كانت هي المسؤولة عن نكبة دمشق. وتتلخص هذه السياسة بما يلي:

١ ــ الاختلاف والتطاحن والصراع على السلطة بين أمراء المماليك وعدم الاستعداد الكامل لقتال تيمور وانسحاب السلطان مع الأمراء من دمشق. وتيمور رابض أمام أسوار المدينة. وفي هذا يقول ابن تغري بردي (فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى [٨٠٣هـ] ركب الأمراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج [وكان صغيراً في العاشرة من عمره] على حين غفلة، وساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عَقَبة دُمَّر يريدون الديار المصرية. وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع... وقد تركوا دمشق أكلة لتيمور، وكانت يوم ذلك أحسن مدن الدنيا وأعمرها).

٢ ــ عدم الاستفادة من قوة أحمد بن أويس صاحب بغداد .

٣ ــ عدم الاتفاق مع السلطان العثماني بيازيد في قتال تيمور ، حين أرسل سفراءه الى القاهرة لاجتماع الكلمة ، على أن يكون العثمانيون والمماليك يداً واحدة في قتال تيمور . وكان جواب أمراء المماليك ، فليقاتل عن بلاده ، ونحن نقاتل عن بلادنا .

ورغم كل الظروف الصعبة التي أحاطت بمدينة دمشق . وتيمورلنك مع جيوشه الجرارة يحاصر المدينة قاوم أهل دمشق ، واستماتت القلعة في الدفاع ، وسطّرت في صفحات التاريخ مواقف الشرف . يقول ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة عن أهل دمشق (ولما أصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب غلّقوا أبواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد ، فتهيأ أهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم تيمور بعساكره ، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال ، وردّوهم عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق ، وأخذوا من خيولهم عدّة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الألف ، وأدخلوا رءوسهم إلى المدينة . وصار أمرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرهم ، وعلم أن الأمر يطول عليه ، فأخذوا في مخادعتهم ، وعمل الحيلة في أخذ دمشق منهم .

وبينما أهل دمشق في أشد ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم ، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بُعد : (الأمير يريد الصلح ، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك) ....

وحين قابل تيمور قاضي القضاة ابن مفلح : (وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه ، وتلطّف معه في القول ، وترفق له في الكلام ، وقال له : هذه بلدة الأنبياء والصحابة ، وقد اعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عني وعن أولادي) ... وأعطى تيمور الأمان لأهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصة ، وقرىء الفرمان على منبر الجامع الأموي بدمشق .

وقد انطلى ذلك على أهل دمشق وكانت النتيجة أنها خدعة ومكر . أما القلعة فأبت حاميتها إلا القتال لتسجل للأجيال ، صفحة من صفحات المجد والصمود . وطال حصار تيمور للقلعة لمدة ثلاثة وأربعين يوماً [حسب رواية ابن عربشاه] وهي تقاوم سيول تيمور البشرية وصواعقه . يقول ابن تغري بردي : (ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق ، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار ... وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا

تدخل تحت حصر ، يكفيك أن التريّة من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب ، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة ، رمى أهل قلعة دمشق نفطاً فأحرقوها عن آخرها ، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة .

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلا نفر يسير دون الأربعين نفراً)....

ولم يستطع أهل القلعة الاستمرار بالمقاومة أكثر من ثلاثة وأربعين يوماً لنفاذ مؤنهم ، ويئسوا من النجدة وطلبوا الأمان .

وكانت البطولة التي فاجأت تيمور . ذلك البطل الدمشقي شهاب الدين أحمد الزردكاش الذي كان من أشجع المقاتلين وقتل من جنود تيمور عدداً كبيراً ، وكان في حدود التسعين من عمره وقد احدودب . فحين رحل تيمور عن دمشق أخذه أسيراً الى سمرقند وفي هذا يقول ابن عربشاه عما فعله تيمور به (فلما رآه قابله بالسخط والغضب . وقال له : إنك أفنيت صاغيتي ، وحصيت غاشيتي ، وقصيت حاشيتي ، فان قتلتك مرة واحدة لا يشفي عليلي ، ولا يبرد غليلي ، ولكن أعذبك على كبر سنك ، وأزيدك كسراً على كسرك ، ووهناً على وهنك ، فقيّده بقيد من فوق ركبتيه ، زنته سبعة أرطال ونصف رطل بالدمشقي ، وقصد بذلك التشديد عليه ، فلم يزل مقيداً ، مكتوباً على قيده مخلداً أبداً ، حتى مات تيمور ....)

ثم ماذا كان من الصلح الذي عرضه تيمور على أهل دمشق ، والمرسوم الذي تُلي في الجامع الأموي يعطي الأمان لأهل دمشق وأموالهم ...

كانت النتيجة فاجعة لم تشهد دمشق مثلها في تاريخها كله . ثم سار تيمورلنك (بعدما أقام على دمشق ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت أبوابه ، وتفطّر رخامه ، ولم تبق غير جُدُره قائمة . وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها ، وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ، ولم يبق بها [دابة تدب] إلا أطفال يتجاوز عددهم [الاف] فيهم من مات ، وفيهم من سيموت من الجوع).

وبعد دراستي لهذا الكتاب القيّم «عجائب المقدور في نوائب تيمور» قررت إعادة طبعه بعد تحقيقه وتدقيقه ووضع الشروح والتعليقات اللازمة ، لتوضيح هذه

الفترة الهامة . وقد اعتمدت في ذلك على السُبل المتوفرة لدي ، لاخراج هذا الكتاب في أفضل ثوب علمي . وكانت الوسائل المتوفرة هي :

آ ـــ نسخة كتبت بخط نسخي جيد ، وتقع هذه النسخة في ١٩٨ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطراً ، وهي من محفوظات المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٦٨٩٣ وتوجد حاليا في مكتبة الاسد ، عليها في الآخر مايفيد الى مراجعتها في شهر شعبان سنة ٨٩٨ هـ من قبل القاضي احمد بن محمد الشارعي المالكي ، وقد تَرْجَمَ له الغزي في الكواكب السائرة (١/ ١٢٤) ، وهي نسخة مضبوطة بالحركات وعنوان هذه المخطوطة (عجائب المقدور في تاريخ تيمور) . وقد أشرت إليها في التعليق برمز المخطوطة القديمة للظاهرية

ب ـــ نسخة كتبت بخط نسخي ، وتقع هذه النسخة في ٢٦٩ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطراً ، متوسط عدد الكلمات في كل سطر ٧ كلمات ، وهي من محفوظات المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٧١٣٣ وتوجد حاليا في مكتبة الاسد ، عليها في أولها واخرها مايفيد الى كاتبها عمر بن محمود حيدر الذي ذكر انه كتبها لنفسه ولمن شاء من بعده ، سنة ١١٩٣ هـ ، وعنوان هذه المخطوطة (عجائب المقدور في نوائب تيمور) . وهذا العنوان ما أثبتناه لهذا الكتاب لأنه هو ما صرَّح به المؤلف ابن عربشاه كما سيأتي فيما بعد .

ج ـــ نسخة طبعت في مصر عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩م وهي تعد أفضل الطبعات التي صدرت لهذا الكتاب قام بتحقيقها الدكتور علي محمد عمر ، ولكن هذه الطبعة رغم محاولة المحقق أن تخرج بثوب بعيد عن الخطأ لكن هذه الطبعة رغم ذلك وقعت فيها أخطاء لأسباب ذكرها المحقق وقد اعتمد المحقق على النسخ التالية :

١ ـــ نسخة كتبت بخط نسخي جيد بآخرها ما يفيد أن المؤلف طالعها ، والورقة الأولى منها بخط جديد يخالف خط الكتاب ، ومضبوطة بالحركات ، وبهامشها تقييدات ، وبها ترقيع . وتقع هذه النسخة في ١٨١ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطراً ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٧٤ .

٢ ـــ نسخة كتبت بخط نسخي ، عليها في الآخر ما يفيد أنها نقلت من خط

المؤلف ، ومضبوطة بالحركات ، وبها ترقيع . وتقع هذه النسخة في ١٩٧ ورقة . ومسطرتها ١٧ سطراً ، متوسط عدد الكلمات في كل سطر ١٢ كلمة . وهي محفوظة بدار الكتب المصرية ، برقم ٦٥٨ .

٣ ـــ نسخة كتبت بخط نسخي جميل سنة ٨٥٢هـ ، كتبها اسماعيل ابن عبد الرحمن الأصفهاني ، بأولها فهرست تفصيلي لمحتويات الكتاب . وتقع هذه النسخة في ٢٠٤ ورقة ، ومسطرتها ١٧ سطراً . وهي محفوظة بمعهد المخطوطات ، جامعة الدول العربية ، برقم ٧٣٥ .

٤ ـــ نسخة كتبت بخط نسخي قرأها المؤلف . وتقع في ٢٥٧ ورقة ، كتبت سنة ٨٥٠هـ ، وهي محفوظة بمعهد المخطوطات برقم ٣٢٩ .

٥ ـــ نسخة كتبت سنة ١٢٦٨هـ في ٢٥١ ورقة ، محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٨٨ تاريخ طلعت .

٦ ـــ نسخة كتبت سنة ١٢٧١هـ في ٣٠١ ورقة ، محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥١٣ الزكية .

٧ ـــ نسخة كتبت سنة ١٢٩٥هـ في ٢٣٢ ورقة ، محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٨٧ تاريخ طلعت .

٨ ـــ وقد تخير المحقق مما طُبع سابقاً نسخة قريبة من الصحة ، وهي المطبوعة في العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ .

د ـــ نسخة طبعت سنة ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م في مطبعة وادي النيل في القاهرة .

هـ ـــ كتاب تيمور للدكتور مظهر شهاب الذي أعده اطروحة لنيل دكتوراه دولة من جامعة القديس يوسف في بيروت عام ١٩٨١ وهو لم يطبع حتى الآن . ويعد أفضل كتاب علمي عن عصر تيمورلنك وحياته وأعماله . تشيع منه غزارة البحث والمصادر العديدة .

م ـــ أهم الكتب المساعدة :

ـــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المجلد (١٢) لابن تغري بردي المتوفى ٨٧٤هـ ١٤٦٩م .

ـــ المنهل الصافي لابن تغري بردي .

ـــ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن أياس المتوفى سنة ٩٣٠هـ = ١٥٢٤م

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ = ١٦٧٨م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ = ١٤٩٦م
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ = ١٤٤١م

منهج العمل في الكتاب

اتبعت في اخراج الكتاب الخطوات التالية :

١ ـــ قمت بمعارضة المخطوطتين على النسخ المطبوعة سابقاً للتأكد من خلو السقط والتحريف .

٢ ـــ لم استعمل الرموز لكل نسخة وذلك لكثرة النسخ المعتمد عليها في إخراج هذا الكتاب فقمتُ بذكر الفروق الطفيفة جداً بين النسخ في الحاشية بكلمة (وردت في .....) .

٣ ـــ استكمالاً لفوائد الكتاب ونظراً لأن المؤلف يتبع الاسلوب اللغوي في عصره وقد التزم اسلوب السجع الذي كان يُضعف أحياناً العرض التاريخي قمتُ بايضاح مايحتاج للايضاح وذلك من أقوال علماء ذلك العصر لتسهيل سبيل الفائدة .

كذلك اجتهدت في زيادة الايضاح فأشرتُ إلى ما كتبه المؤرخون حول الوقائع والمواقع .

٤ ـــ وضعتُ تعريفاً بالرجال المشهورين الذين ذكرهم المؤلف في كتابه من خلال كتب التراجم .

٥ ـــ وضعتُ شروح بعض الكلمات الغريبة او التي لها مفهوم خاص مما اصطلح عليه أهل العلم وذكرتُ ايضاً موقع الاماكن والمواقع التي ذكرها المؤلف كما أوردها المؤرخون والجغرافيون .

٦ ـــ أضفتُ الى نهاية الكتاب ملاحق هامة كتبها المؤرخون للتعريف بتيمورلنك مما يزيد من أهمية هذا الكتاب .

وبعد ، فهذا ما وفّقتُ اليه في إخراج الكتاب ، فإن أصبتُ فبفضل الله وعونه ،

وإن أخطأتُ فمن تقصيري ، على أن من الواجب عليَّ أن أسجل الشكر لكل من كان له فضل في اخراج الكتاب .

ومن المفيد دراسة حركة هذا الغازي التتري الذي توغلت جيوشه بعيداً في الصين شرقاً وبلغت موسكو و دمشق غرباً . وكانت لحركته آثار كبيرة في التاريخ . هذه الآثار التي تجاوزت أقطار العالم الإسلامي الى غيرها من الأقطار .

وقد كتب عنه المؤرخون التيموريون الذين رأوا فيه ملكاً صالحاً ووليّاً يعمل بما يلهمه الله ليعيد الحق إلى نصابه ، أما المؤرخون الاخرون فهم لم يروا في تيمور إلا سفاحاً وداهية جرت على يديه المصائب والويلات ، ودكت عروش الممالك ، وسالت دماء الأبرياء .

وكان لا بد من تقديم صورة عن تيمورلنك ، كتبها شاهد عيان عاش الأحداث واطلع على الوثائق ، كتاب يُعرِّف العالم العربي بهذه المصيبة التي حلت به حتى يرى فيها درساً للمستقبل ، لأن أعداء هذه الأمة يخرجون في كل يوم بثوب جديد وهم في الحقيقة عدوٌّ واحد حاقد .

والله أسأل الصدق في عملي وهو حسبي ونعم الوكيل .

دمشق في ١٩٨٥/١٠/٢٥

أحمد فائز الحمصي

ميزة هذا الكتاب

تيمورلنك هذا المغامر الذي استولى على نصف قارة آسيا، واجتاح كالوباء أكثر من مملكة واحدة غنية لها تاريخ قديم وحضارة زاهرة، ممتطياً فرسه شاهراً سيفه على المدافعين والآمنين ليقود جنده إلى فتوحات وصفها بأقصى القسوة والهمجية في سبيل غايته التي يسعى إليها حتى يكون كما يريد فاتح العالم (جهانكير).

تيمورلنك بهذا الغازي التتري، قد خرّب بلاداً كثيرة وأحرق ودمّر كل شيء أثناء اجتياحه... وبخاصة شيراز ودهلي [دلهي] ودمشق وبغداد.

ولا تزال آثار تيمور الدامية في البلاد والمدن التي فتحها على جدران تلك المدن، كما أن الدموع والقلوب التي احترقت أسى وحزناً لا تزال حتى الآن تسيل في وجدان التاريخ. إن همجية هذا الغازي التتري قد اساءت للانسانية إساءات لا يمكن أن تُنسى وتمحوها الأيام... فهو حين غزا العالم العربي، كان هذا العالم يعيش في ظل الحضارة الاسلامية وهي في أوج ازدهارها فاندفع يُدَمِّر كل شيء ويحرق كل حياة، وقد أساء للاسلام الذي كان يدعي اعتناقه له، كما أنه ساهم الى حد كبير في عملية افقار العالم الاسلامي، ليس بما قام به من عمليات السلب والنهب والمجازر وحسب، وانما بنقله القسري الفنانين والعمال المهرة وأرباب الحرف الى سمرقند.

لقد أجهد تيمور شعبه بالسير وراء فكرة السيطرة على العالم، ليحقق لبلاده فيما وراء النهر عهداً مزدهراً، ولكنه دمَّر في سبيل طموحه الانسانية.

ولا نستطيع أبداً أن نتجاهل ما اقترفه تيمور في غربي آسيا من أعمال التدمير والتخريب على نطاق واسع حتى أتت هذه الجموع المغولية في اجتياحها على كثير من بقايا الحضارة الاسلامية. لقد عاث في الأرض فساداً واستغل قوته استغلالا جائراً عنيفاً.

يروي كلافيجو[١] أن ميرانشاه آمر يوما بهدم دور كثيرة ومساجد وغيرها من المنشآت، بحجة أنه ابن أعظم رجل في الدنيا لا بد وأن يشتهر بشيء، ففعل ذلك لكي يذكره الناس على الأقل بأنه دمَّر هذا أو ذاك من المنشآت. ويحاول مؤرخو تيمور أن يبرروا سلوكه هذا بأنه أصيب بخلل في قواه العقلية على أثر سقوطه من فوق فرسه.

يعد كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور الكتاب الوحيد باللغة العربية عن حياة تيمور والكتاب لمؤرخ دمشقي معاصر للفاتح المغولي هو أحمد بن محمد بن عربشاه الذي شهد النكبة التي حلت بالعثمانيين في معركة انقرة على يد تيمور عام ٨٠٤ هـ = ١٤٠٢ م واستقر ابن عربشاه في سمرقند حيث اتقن هناك الفارسية والتركية والمغولية اضافة الى براعته في لغته العربية، ولذلك لقب « ملك اللغات الثلاثة » أو « ملك العرب » [عربشاه] .

قام ابن عرب شاه بتأليف كتابه عن تيمور عام ٨٤٠ هـ = ١٤٣٦ م كما ذكر هو في مؤلفه وذلك خلال اقامته في دمشق التي كانت لا تزال آثار الدمار قائمة فيها الى ذلك التاريخ من همجية ذلك الغزو. وقد سماه « عجائب المقدور في نوائب تيمور »[٢].

---

(١) كان سفير ملك اسبانيا لبلاط تيمور وقد وضع عن رحلته الى سمرقند كتاباً ترجم الى الانكليزية عام ١٩٢٨ تحدث فيه عن مشاهداته.

(٢) هذه التسمية هي ما صرح بها المؤلف وأشار الى ذلك في كتابه «سيرة السلطان الملك الظاهر جقمق» حيث ورد في ص ٢٢ منها قوله: «وكنت قبل هذا التأليف صنفت تاريخاً سميته، بعجائب المقدور في نوائب تيمور».

كما صرح المؤلف بهذه التسمية مرة ثانية في إجازته التي كتبها بخطه للمؤرخ جمال الدين يوسف ابن تغري بردي، والتي جاء فيها: «ومن مصنفاتي المنشورة تاريخ تيمورلنك، عجائب المقدور في نوائب تيمور». انظر المنهل الصافي ج ١ ص ٣١٨ مخطوط بدار الكتب في القاهرة برقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور ـــ نقلاً عن محمد علي عمر ـــ عجائب المقدور ص ٥ وورد ايضاً في ترجمة ابن عربشاه عند السخاوي في الضوء اللامع ١٢٨/٢ (عجائب المقدور في نوائب تيمور) ويراجع ايضاً شذرات الذهب ٢٨٣/٧ وقد ورد في النسخة الأولى المطبوعة عام ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م، والطبعة الثانية عام ١٣٠٥هـ = ١٨٨٨م تحت عنوان «عجائب المقدور في اخبار تيمور» ←

يعتبر كتاب عجائب المقدور من أخطر الوثائق التي دونت سيرة تيمور كما أنه يمتاز بدقته، ويشير الى حوادث تيمور الأولى بروح المتشكك في صحتها. ويورد أحياناً للقصة الواحدة روايتين أو ثلاث.

وقد أخذ بعض الباحثين على ابن عربشاه حقده على تيمور ولكن الحقيقة أن هذا المؤرخ الدمشقي يتصف بالانصاف والدقة للحقائق التي يذكرها في كتابه فهو على الرغم من أنه قد ذهب في شتائمه لتيمورلنك شوطاً كبيراً ونعته بالاجرام والغدر والاحتيال وشبهه بالافعى والكلب لكنه في الوقت نفسه أشار الى العديد من المزايا التي رأى أن تيمور يتحلى بها ولقد غالى في ذلك، فوصفه بالشهامة والرزانة وحب الصدق والشجاعة، وها هو المؤرخ أرمينوس فامبري صاحب كتاب تاريخ بخارى وهو ممن كان معجباً بتيمور يقول في كتابه المذكور عن مدينة آمل: (ولم تستسلم آمل إلا بعد قتال عنيف. وهذه المدينة ـــ وهي أهم موضع في مناطق ايران الجبلية... وقد نزل بأبطالها جزاء دفاعهم الجسور عنها مذبحة بشعة يعجز عن وصفها حتى قلم المؤرخ الشرقي)[1].

إن هذا الكتاب يروي بعض الجرائم الجماعية والاجتياحات الساحقة التي قام بها ويقول فامبري ايضاً عن بشاعة أفعاله (وعبر تيمور السند في الأيام الأولى من القرن التاسع الهجري، ثم واصل سيره الى دهلي قصبة السلطان محمود... ورأى ذلك الغازي أن يتخفف من حشود الأسرى الذين كانوا يسيرون في ركابه فيعوقون من حركته فأمر بقتل مائة الف من هؤلاء التعساء. ودعى كل فرد في الجيش الى المشاركة في تنفيذ هذا الأمر القاسي)[2].

وكذلك يقول فامبري عن تيمورلنك انصافاً للمؤرخ ابن عربشاه: (وما اتسمت به حروبه من اغراق في سفك الدماء قد بعث الرعب في نفوس معاصريه من

كذلك وردت نفس هذه التسمية في مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٦٨٩٣ أما المخطوطة الثانية المحفوظة أيضاً في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٧١٣٣ فقد ورد فيها العنوان كما صرّح به المؤلف: (عجائب المقدور في نوائب تيمور).

(١) النسخة المطبوعة من عجائب المقدور عام ١٩٧٩ ص ٣٩١

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥

الاسيويين حتى لا نملك هنا إلا أن ننصف مؤرخه العربي أحمد بن عربشاه بعض الشيء، برغم اشتهاره بعدائه الشديد للغازي التتري)[1].

★ ★ ★

يبدأ الكتاب بذكر نسب تيمور وولادته، فذكر أنه ولد بالقرب من كش من أعمال ما وراء النهر، ثم تتبع بعد ذلك ما قيل في منشئه، ثم بيّن كيف غدا تيمور، صاحب الكلمة في بلخ، وكيف أنه جعل من سمرقند قاعدة لملكه عام ٧٧١هـ.

ولم يلبث أن ضم خوارزم، ثم غزا بلاد فارس، فبدأ بخراسان فدانت له وذلك في عام ٧٨٢هـ. ثم فتح جرجان ومازندران وسجستان.

وأغار تيمور كذلك على القفجاق عام ٧٩٧هـ ثم سار الى الهند عام ٨٠٠هـ. فاستولى على دهلي ونهبها وخربها.

ويعني المؤلف عناية خاصة بغزوات تيمور لبلاد الشام عام ٨٠٣هـ، فيذكرها في شيء من التفصيل وما ارتكب تيمور ببلاد ابن عربشاه من سفك الدماء، ونهب البيوت واحراقها، وسبي النساء، كما يورد مادار بين علمائها من الجدل الفقهي.

كذلك يفيض ابن عربشاه في تلك المعارك التي دارت بين تيمور وبين السلطان بيازيد العثماني عام ٨٠٤هـ، والتي انتهت بأسر السلطان العثماني، وقد وضعه تيمور في قفص من حديد، مبالغة في إذلاله واهانته.

كما يتعرض المؤلف الى حالة امبراطورية تيمورلنك بعد وفاته، كذلك يتعرض الى شخصية تيمور، ممتدحاً صفاته المتميزة في فصل خاص قبل أن يختم كتابه. وان كان قد صور لنا تيمور في مطلع هذا الكتاب طاغية فاجراً قاسياً.

ويختم المؤلف كتابه بوصف قيِّم لمدينة سمرقند والحياة العلمية فيها[2].

على أن أهم ما يميز هذا الكتاب تلك المراسلات التي تم تبادلها بين الفاتح التتري وبين السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية وابنه السلطان فرج. وكذلك الرسائل التي تبادلها تيمور والسلطان العثماني بيازيد، وغير ذلك من المراسلات. وتعتبر هذه الوثائق على جانب كبير من الأهمية، لأن المؤلف نقلها عن

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٠

(٢) مقدمة الدكتور علي محمد عمر على كتاب تيمور طبع ١٩٧٩ ص ٦

أصولها التركية والفارسية الوثيقة بفضل اجادته للتركية والفارسية وقد أصبحت هذه الوثائق من أهم العناصر في تحقيق سيرة تيمور ، وتحليل شخصيته وصفاته[١]

التزم ابن عربشاه اسلوب السجع الذي يضعف أحياناً قوة العرض التاريخي[٢] ولكنه في الوقت نفسه لا يخلو من رونق وجمال يضفي على هذه الكتابة قيمة أدبية ، فضلاً عن القيمة التاريخية[٣].

ونظراً لأهمية الكتاب فقد طبع طباعة حجرية في مصر مرتين ، الأولى عام ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م والثانية في عام ١٣٠٥هـ = ١٨٨٨م . ولكنه طبع في اوربا في تاريخ أسبق ، عام ١٠٤٦هـ = ١٦٣٦م في ليدن مع ترجمة له الى اللغة اللاتينية ، كما طبع مرة ثانية في فرانكفورت عام ١١٨١ هـ = ١٧٦٧م مع ترجمة لاتينية أخرى وتعليقات للمستشرق مانجر (Manger) [٤] كما أنه تُرجم أيضاً إلى اللغة التركية[٥].

وطبع مؤخرا في مصر عام ١٩٧٩ طبعة علمية تعد أفضل الطبعات التي صدرت حول هذا الكتاب الهام .

وإني أقدم للقارىء العربي هذه الطبعة التي دُقِّقَتْ على النسخ المطبوعة سابقاً مع مخطوطتي[٦] المكتبة الظاهرية بدمشق وقد أشرت الى بعض الاختلافات الطفيفة في النصوص ، وتتميز هذه الطبعة بالشروح والتعليقات التي زادت من أهمية الكتاب وقيمته .

---

(١) المصدر السابق ص ٧

(٢) عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٢٥ ــ نقلا عن شهاب في المقدمة ص٧

(٣) شهاب ص٧

(٤) عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية القاهرة ١٩٣١ ص ١٢٣

(٥) العزاوي : التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص ٢٣١ (شهاب المقدمة VIII)

(٦) توجد في المكتبة الظاهرية بدمشق مخطوطتان للكتاب الأولى تحت رقم ٦٨٩٣ وعدد أوراقها ١٩٨ ورقة والثانية برقم ٧١٣٣ وعدد أوراقها /٢٦٩/ ورقة .

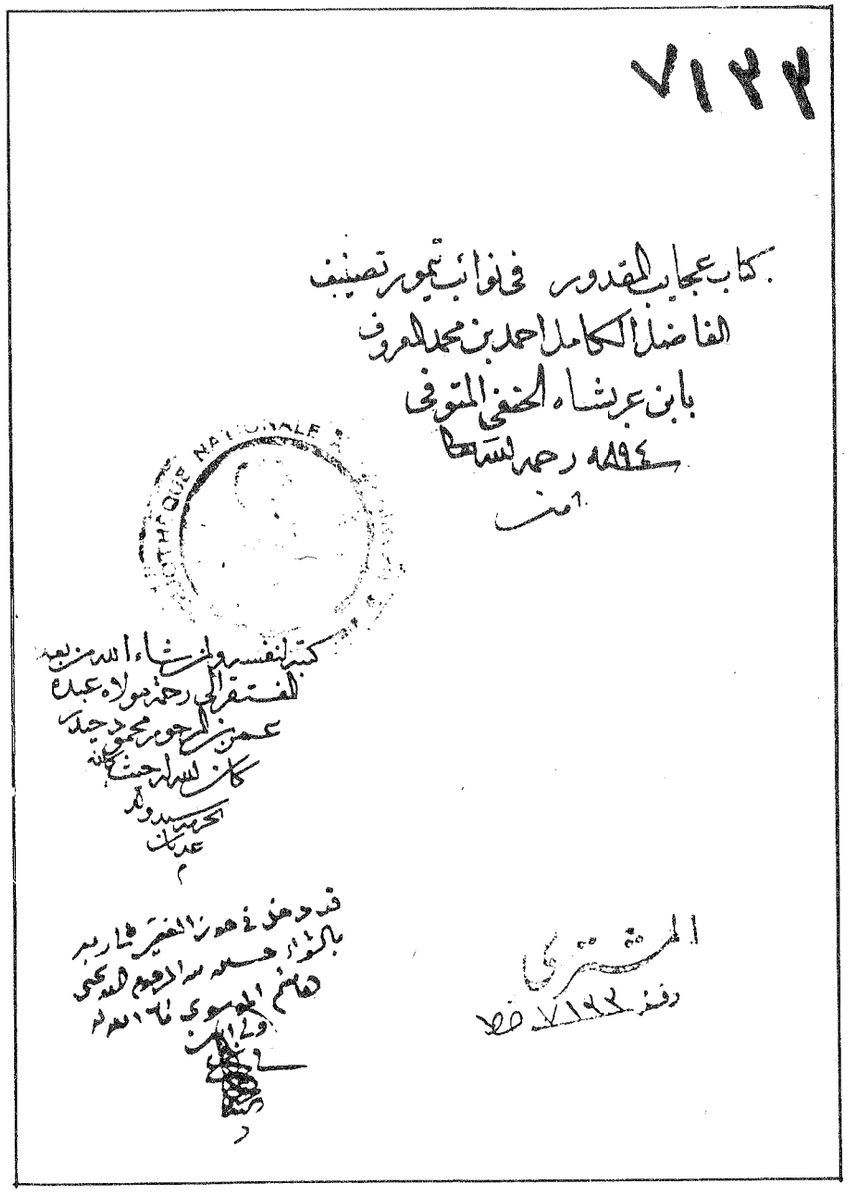

ورقة من المخطوطة الثانية في الظاهرية بدمشق ، والمسجلة برقم ٧١٣٣ وعليها ما يفيد أنه كتبها عمر بن محمود حيدر سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على منوال ارادته وتدبير نسج مقاطع الامور • ومن ينبوع قضائه الذي قدره يجري تيار الاعصار والدهور • اذاق بعض بني آدم بأس بعض ليبلوهم ايتهم احسن عملا وهو العزيز الغفور • وارسل عليهم في القرن الثامن من الهجرة بحارا فتن اقبلت كقطع الليل المظلم لم يدر احد ما هي فاذا هي ثمرة احد حمد من كان على شفا حفرة من نارها فانقذه منها • واشكره شكر من ورطه فيها عدله فانجته ايادي فضله منها • واشهد ان لا اله الا الله الحكم العدل الذي يقتص للمظلوم من [illegible] يوم الفصل • واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي ارسله رحمة للعالمين • وجعله

رسول الله وخاتم النبيين • واخبر صلى الله عليه وسلم عن الترامي صون • ونبأ بما كان في الازل وما يكون الى يوم يبعثون • واستعاذ من غلبة الدين وقهر الرجال ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال • صلى الله عليه صلاة تذكي المسك الاذفر في صدور الكتب والتواريخ وتدني لقائلها في دار الجزاء ثمرات الحسنات من اعلا الشاريخ • وعلى اله وصحبه الذين افاضوا سيوف الفتح في الاقاليم فمرروها • وشيدوا اركان الاسلام وانارو الارض بالايمان وعمروها اكثر مما عمروها وسلم تسليما غزيرا • دائما كثيرا • امّا بعد فلما كان في التواريخ عبرة لمن اعتبر • وتنبيه لمن افتكر واعلام ان قاطن الدنيا على سفر • واحضار لصورة حال من مضى وغبر • كيف قدروا قدر • ونهوا وبنى وعمر • ونخل وختر • وغلب وقهر • وكسر وجبر • وجمع وادخر • وتكبر وفخر • وكيف عبس وبسر • وضحك واستبشر • وتقلب في اطواره من الطفولية الى الكبر • الى ان قبلته ايدي الغير واختطفه

ورقة من المخطوطة القديمة في الظاهرية بدمشق ، والمسجلة برقم ٦٨٩٣ وفي خاتمتها ما يشير إلى مراجعتها سنة ٨٩٨هـ = ١٤٩٢م

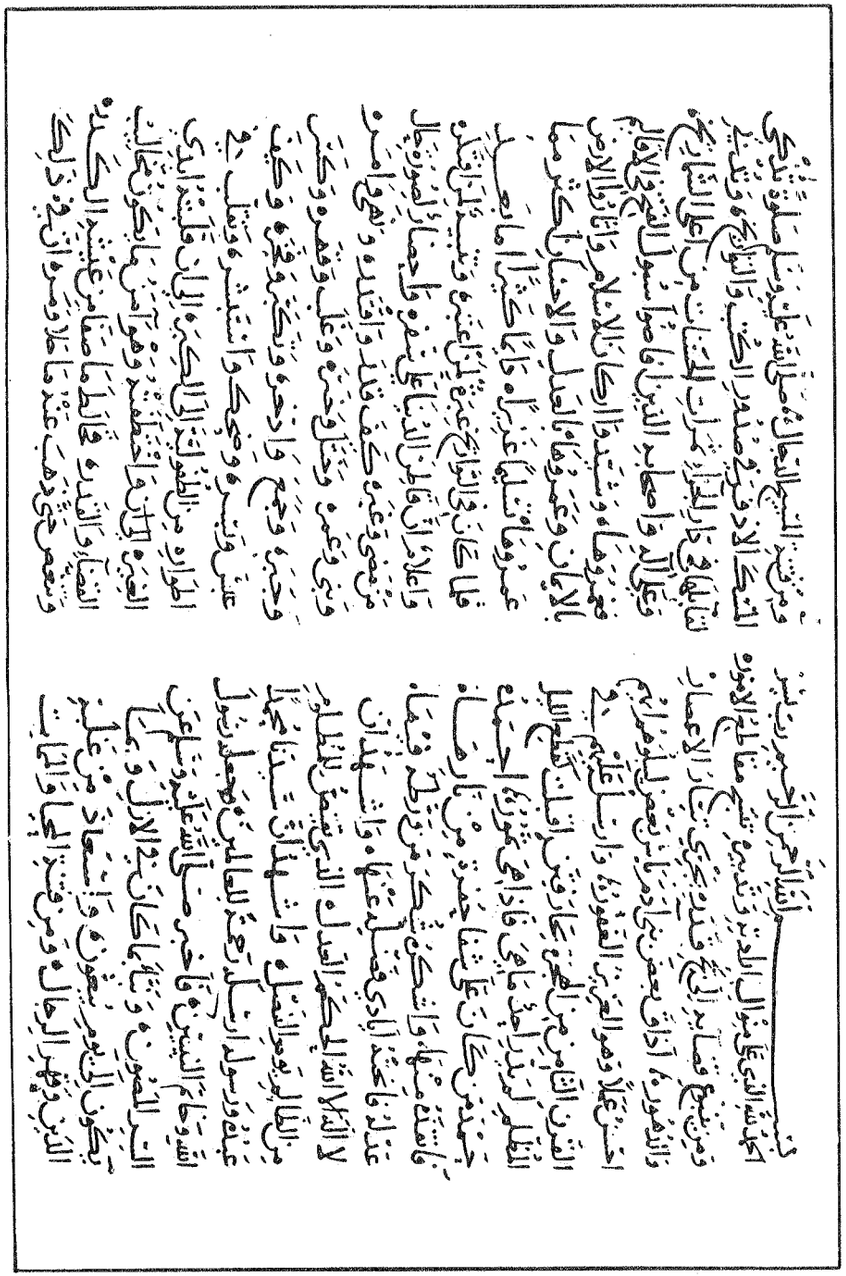

ترجمة المؤلف

أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن أبي نصر محمد بن عرب شاه... شهاب الدين أبو العباس. قال ابن تغري بردي: الامام العالم العلامة المفنن الأديب الفقيه اللغوي النحوي المؤرخ الدمشقي المعروف بابن عربشاه كان امام عصره في المنظوم والمنشور[1]

وقال السخاوي صاحب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع[2] في ترجمة ابن عربشاه: ولد في ليلة الجمعة منتصف ذي القعدة سنة احدى وتسعين وسبعمائة بدمشق ونشأ بها... ثم تحول في سنة ثلاث وثمانمائة في زمن الفتنة [فتنة تيمورلنك] مع اخوته وأمهم وابن أخته عبد الرحمن بن ابراهيم بن خولان الى سمرقند ثم [سافر] بمفرده الى بلاد الخطا وأقام ببلاد ما وراء النهر للاشتغال والأخذ عن من هناك...

وبرع في فنون واستفاد اللسان الفارسي والخط الموغولي واتقنهما واجتمع في بلاد المغل بالبرهان الاندكاني والقاضي جلال الدين السيرامي وأخذ عنه وقرأ النحو على حاجي تلميذ السيد، ثم توجه الى خوارزم فأخذ عن نور الله وأحمد ابن شمس الأئمة... وكان يقال له ملك الكلام الفارسي والتركي والعربي، ثم الى بلاد الدشت وسراي، وحاجي ترخان... ثم الى قرم، ثم قطع بحر الروم الى مملكة ابن عثمان فأقام بها نحو عشر سنين فترجم فيها للملك غياث الدين أبي الفتح محمد بن أبي يزيد بن مراد بن عثمان كتاب جامع الحكايات ولامع الروايات من الفارسي الى التركي في نحو مجلدات وتفسير أبي الليث السمرقندي القادري بالتركي نظماً. وباشر عنده ديوان

(١) شذرات الذهب ٢٨٠/٧ وذكر ابن العماد الحنبلي شيئاً من شعره ونثره نقلاً عن ابن تغري بردي.

(٢) ١٢٦/٢

الانشاء وكتب عنه الى ملوك الأطراف عربياً وشامياً وتركياً فبالعجمي لقرا يوسف ونحوه وبالتركي لأمراء الدشت وسلطانها وبالمغلي لشاروخ وغيره، وبالعربي للمؤيد شيخ[1] ... فلما مات ابن عثمان رجع الى وطنه القديم فدخل حلب فأقام بها نحو ثلث سنة ثم الشام وكان دخوله لها في جمادى الاخرة سنة خمس وعشرين [وثمانمائة] فجلس بحانوت مسجد القصب[2].

وتقدم في غالب العلوم وانشاء النظم الفائق والنثر الرائق وصنف نظماً ونثراً مرآة الأدب في علم المعاني والبيان والبديع وسلك فيه اسلوباً بديعاً ...، ومقدمة في النحو وعقود النصيحة والرسالة المسماة العقد الفريد في التوحيد، ونثراً تاريخ تمرلنك سماه عجائب المقدور في نوائب تيمور[3] وفاكهة الخلفاء الظرفاء وخطاب الأهاب الناقب وجواب الشهاب الثاقب والترجمان المترجم بمنتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب.

وكان أحد الأفراد في إجادة النظم باللغات الثلاث العربية والعجمية والتركية ، جيد الخط جيد الاتقان والضبط عذب الكلام ....

ومات بالخانقاه [الصلاحية في القاهرة] في يوم الاثنين منتصف رجب سنة أربع وخمسين ودفن بتربتها .... فقد كان من محاسن الزمان. وترجمه بعضهم فقال: العلامة أحد أفراد الدهر في الفضل والسجع وعلم المعاني والبيان والبديع والنحو والصرف والنظم والنثر ... وجال ببلاد الشرق ورجع الى دمشق فأقام بها مدة ... وقدم القاهرة في سنة أربعين وصنف عجائب المقدور في نوائب تيمور من ابتدائه الى انتهائه أبان فيه عن فضل كبير وملكة للسجع وغزارة اطلاع ....

(١) سلطان المماليك المؤيد شيخ

(٢) مسجد القصب: في محلة مسجد الأقصاب ويعرف حالياً: جامع السادات

(٣) الكتاب الذي نحن بصدده

عجائب المقدور في نوائب تيمور

لابن عربشاه

أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي

(المتوفى سنة ٨٥٤هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب تمِّم ، الحمد لله تعالى

إجمال ما في هذا الإسجال[1] ، من أحوال الأعرج الدجال ..

صفحة

٣٩ فصل في ذكر نسبه ، وتدريج استيلائه على الممالك وسببه .
٥٠ ذكر عبوره جيحون على فترة ، وما أجرى من عبرات بهذه العبرة .
٥١ ذكر ما جرى له من خبطه ، في دخوله إلى قرشي وخلاصه من تلك الورطة .
٥٢ ذكر من استرقه ذلك الجاف ، واستعبده من أحرار ملوك الأطراف .
٥٣ ذكر نهوض المغل على السلطان ، وكيف تضعضعت منه الأركان .
٥٤ ذكر الحيلة التي صنعها ، والخديعة التي ابتدعها .
٥٦ ذكر توجهه إلى بلخشان ، واستنصاره بمن فيها على السلطان .
٥٨ ذكر وثوب توقتاميش خان ، سلطان الدشت وتركستان .
٦١ ذكر علي شير مع تيمور ، وما وقع بينهما من المخالفة والشرور .
٦٢ ذكر ما جرى لدعار سمرقند والشطار ، مع تيمور وكيف أحلهم دار البوار .
٦٣ فصل في تفصيل ممالك سمرقند ، وما بين نهري بلخشان وخجند .
٦٥ فصل في ذكر إبتداء ما فعله من التسلط بالقهر ، بعد استصفائه ممالك ماوراء النهر .
٦٦ ذكر تصميمه العزم ، وقصده الأطراف وأولا ممالك خوارزم .
٦٧ ذكر عوده ثانياً ، إلى خوارزم ثانياً .
٦٨ ذكر مراسلته الملك غياث الدين سلطان هراة ، الذي خلصه من الصلب وراود فيه أباه .

---

(١) هذا الفهرس من وضع المؤلف .

٧٠ ذكر إجتماع ذلك الجافي، بالشيخ زين الدين أبي بكر الخوافي.
٧٢ ذكرعوده إلى خراسان، وتخريبه ولايات سجستان.
٧٤ ذكر قصد ذلك الغدار، ممالك سبزوار، وانقيادها إليه، وقدوم واليها عليه.
٧٤ ذكر ما جرى لذلك الداعر في سبزوار، مع الشريف محمد رأس طائفة الدعار.
٧٧ ذكر مراسلة ذلك الشجاع، سلطان عراق العجم أبا الفوارس شاه شجاع.
٨١ ذكر توجه تيمور مرة ثالثة، إلى خوارزم بالعساكر العائثة العابسة.
٨٣ ذكر توجه ذلك الباقعة، إلى خوارزم مرة رابعة.
٨٤ ذكر ما كان ذلك الجان، راسل به شاه ولي أمير ممالك مازندران.
٨٤ ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق، وما وقع في ذلك من الشقاق وعدم الاتفاق.
٨٦ ذكر ما جرى لأبي بكر الشاسباني، من الوقائع مع ذلك الجاني.
٨٨ ذكر توجه تيمور إلى عراق العجم، وخوض شاه منصور غمار ذلك البحر الخضم.
٩١ ذكر دقيقة تصدت فجلت ونقضت ما أبرمه شاه منصور من عقد حين حلت.
٩٢ ذكر ما نقل عن شاه منصور، مما أوقع بعسكر تيمور، من الحرب والويل، تحت جنح الليل.
٩٧ ذكر ما وقع من الأمور والشرور، بعد واقعة شاه منصور.
٩٨ ذكر ماصنع الزمان، عند حلوله بأصبهان.
١٠٢ ذكر ضبطه طرف المغل والجتا، وما صدر منه في تلك الأماكن وأتى.
١٠٤ ذكر عودة ذلك الأفعوان، إلى ممالك فارس وخراسان. وفتكه بملوك عراق العجم، واستصفائه تلك الممالك والأمم.
١١٠ سبب دخوله إلى عراق العرب، وإن كان إيذاؤه لا يحتاج إلى علة وسبب.
١١٢ سكون ذلك الزعزع الثائر، وهدوء ذلك البحر المائر، لتطمئن منه الأطراف فيحطمها كما يريد ويدير بها الدوائر.

١١٣ أنموذج مما كان يغور الظلوم الكفور، من عساكره في بحور، ويغوص على أمور، ثم يفور بشرور. ومن جملة ذلك غوصه مما وراء النهر، وخروجه من بلاد اللور.
١١٥ إبتداء تخريب ذلك الخرب، أذربيجان وممالك عراق العرب.
١١٩ صفة قلعة النجا.
١٢٢ ذكر أخبار صاحب بغداد، وأسماء آبائه والأجداد، وكيفية دخوله إلى هذه البلاد.
١٢٤ ذكر ما افتعله من الخديعة والمكر، في بلاد أرزنجان وديار بكر.
١٢٦ ذكر ما جرى لسلطان ماردين عيسى الملك الظاهر، من المحنة والبلاء مع ذلك الغادر الماكر.
١٢٨ إيضاح ما أخفاه من الحيلة، وصلود زند تلك الأفكار الوبيلة.
١٣٤ ذكر رجوعه من ديار بكر والعراق، وتوجهه إلى مهامه قبجاق، ووصف ملوكها وممالكها، وبيان أوضاعها ومسالكها.
١٤١ وصول ذلك الطوفان، وجحفه أمم الدشت بعد كسره توقتاميش خان.
١٤٢ ذكر ما وقع من الخلاف، في عساكر توقتاميش وقت المصاف.
١٤٥ ذكر أيدكو وما صنعه، وكيف خلب تيمور وخدعه.
١٤٧ تتمة ما جرى في نواحي الشمال، بين توقتاميش وأيدكو من جدال وقتال، إلى أن تغير أمر كل منهما وحال.

١٥١ رجعا إلى ما كنا فيه، من أمور تيمور ودواهيه.
١٥٢ إبتداء ثوران ذلك القتام، فيما يتعلق بممالك الشام.
١٥٥ ذكر ما أجاب به السلطان، أبو يزيد بن عثمان، القاضي برهان الدين أبا العباس، سلطان ممالك سيواس.
١٦٠ ذكر توجه العساكر الشامية، لدفع تلك الداهية.
١٦٢ ذكر رجوع ذلك الكنود، وقصده استخلاص بلاد الهنود.
١٦٥ ذكر ما فعله ذلك المحتال، من الخديعة في اجفال الأفيال.

١٦٩ وصول ذلك الخبر إلى ذلك العقوق، بوفاة الملك أبي العباس أحمد والملك الظاهر برقوق.
١٧٤ معنى كتاب وفد وهو في الهند عليه، زعموا أن ابنه أميران شاه أرسله إليه.
١٧٩ ذكر ما وقع من الفتن والبدع وما سل للشرور من حسام، بعد موت سلطاني سيواس والشام.
١٨١ ذكر نبذة من أمور القاضي، وكيفية استيلائه على سيواس وتلك الأراضي.
١٨٤ ذكر محو قرايلوك عثمان، آثار أنوار برهان الدين السلطان، بسبب ما أضمره من العدوان، وأظهره حالة العصيان، وقبض عليه لما غدر به الدهر وخان.
١٨٥ ذكر ما كان نواه قرايلوك من الرأي المصيب، ورجعه عنه لسوء طويته شيخ نجيب.
١٩٠ ذكر ما وقع من الفساد في الدنيا و الدين، بعد قتل قرايلوك السلطان برهان الدين.
١٩١ ذكر مشاورة الناس، من أهل سيواس، أنى يسلكون، ومن يملكون.
١٩٣ ذكر قصد ذلك الغدار، سيواس وما يليها من هذه الديار.
١٩٤ ذكر انسجام صواعق ذلك البلاء الطام، من غمام العرام، على فرق ممالك الشام.
١٩٧ ذكر ما أرسل من كتاب، وشنيع خطاب، إلى النواب، بحلب وهو في عين تاب.
١٩٩ ذكر ما تمالأ عليه النواب، وهم في حلب وتيمور في عين تاب.
٢٠٤ ذكر ما صبه من صواعق البيض واليلب، على العساكر الشامية عند وصوله إلى حلب.
٢١١ زيادة إيضاح لهذه المحنة، مما نقلته من تاريخ ابن الشحنة.
٢٢٣ ذكر ورود هذا الخبر الذي أقلق، ووصول إسنبغا الدوادار وعبد القصار إلى جلق.
٢٢٥ ذكر خروج السلطان الملك الناصر، من القاهرة بجنود الإسلام والعساكر.
٢٤٠ ذكر واقعة وقعت، ومعركة صدعت، لو أنها نفعت.

٢٤٣ ذكر ما إفتعله سلطان حسين، إبن أخت تيمور من المكر والمين.
٢٤٥ ذكر ما نجم من النفاق، بين العساكر الإسلامية وعدم الاتفاق.
٢٤٩ ذكر خروج الأعيان، بعد ذهاب السلطان، وطلبهم من تيمور الأمان.
٢٧٢ ذكر ما صنعه بعض الأكياس من الناس، خوفاً من أن يحل به الباس، ووقى بنفائسه النفوس والأنفاس.
٢٧٦ ذكر معنى كتاب أرسل إليه، على يد بيسق بعد ما فروا من بين يديه.
٢٨٣ ذكر إلقائهم النار، في البلد لمحو الآثار.
٢٨٧ إقلاع هاتيك الرزايا، وإقشاع غمام تلك الدواهي والبلايا، عن بلاد الشام بما تحمله من أوزار وخطايا.
٢٩٠ ذكر ما جرى في مصر وسائر الأقطار، عند سماعهم هذه الأخبار، واستيقانهم هذه الأهوال والأخطار.
٢٩١ ذكر من أصيب من سهام القضاء بالرشق، ووقع في مخالب أسره من أعيان دمشق.
٢٩٥ ذكر ما أباد، بعده الجراد.
٢٩٨ ذكر وروده ماردين بالهيبة، وصدوره عنها بعد المحاصرة بالخيبة.
٢٩٩ صفة هذه القلعة.
٣٠٠ ذكر تركه في المحاصرة، العناد والمكابرة، وتوجهه بمارديه ذوي الفساد، عن ماردين إلى بغداد.
٣٠٢ ذكر ما فعله السلطان أحمد بن الشيخ أويس، لما بلغه أنه توجه إليه ذلك النحيس.
٣٠٦ ذكر رجوع ذلك الطاغي، وإقامته في قراباغ.
٣٠٧ ذكر مراسلة ذلك المريد، سلطان الروم يلدرم بايزيد.
٣١٤ ذكر طيران ذلك البوم، وقصده خراب ممالك الروم.
٣١٩ ذكر ما عزم ابن عثمان عليه، عند انصباب ذلك الطوفان إليه.
٣٢٠ ذكر مافعله ذلك الخداع المكار، ونمقه في تفخيذه عن ابن عثمان جنود التتار.

٣٢٢ ذكر ما صنعه ابن عثمان من الفكر الوبيل، وتوجهه إلى ملاقاة تيمور بطود عسكره الثقيل.
٣٢٤ ذكر ما فعله ذلك الساقطة، مع ابن عثمان وعسكره من المغالطة.
٣٣١ ذكر ما وقع من الخباط، بعد وقعة ابن عثمان في كل ثغر ورباط.
٣٣٤ ذكر أولاد ابن عثمان، وكيف شتتهم ثم أبادهم الزمان.
٣٣٧ عودا إلى ما كنا فيه، من أمور تيمور ودواهيه.
٣٣٩ ذكر ما فعله مع ابن عثمان من نكاية، غدت بأوصافه القبيحة على مر الزمان حكاية.
٣٤٠ ومن تمام إساءته لابن عثمان، إحسانه لأولاد ابن قرمان.
٣٤١ ذكر وفود أسفنديار عليه، ومثوله سامعاً مطيعاً بين يديه.
٣٤٦ ذكر فتح قلعة أزمير وحتفها، ونبذة من عجيب وضعها ووصفها.
٣٤٨ ذكر ما صنعه من أمر مروم، وهو في بلاد الروم، من قصده بلاد الخطا، وإستخلاص ممالك الترك والجتا، وافتكاره وهو في الغرب مشغول، في استصفائه سائر ولايات الشرق والمغول، وكيف عانده القضاء المبرم، بنازل ألهب فؤاده وأضرم، فصادمه الزمان وعكس غرضه، وهذه كالجملة المعترضة.
٣٤٩ ذكر حلول غضب ذلك الصياد، على أللّه داد، ونفيه إياه إلى أقصى البلاد.
٣٥١ نموذج يدل على عمق ذلك البحر المحيط، وما كان يصل إليه غواص فكره النشيط.
٣٥٢ ذكر ما فعله ذلك المكار، عند تنجيزه أمر الروم من الغدر بالتتار.
٣٥٧ ذكر ارتفاع ذلك الغمام، بصواعق بلائه عن ممالك الأروام.
٣٥٨ ذكر انصباب، ذلك العذاب، ماء ونارا، على ممالك الكرج وبلاد النصارى.
٣٦٣ ذكر سبب أخذه لهذا الحصن المنيع، وبيان معاني ما جرى في ذلك من صنع بديع.
٣٦٥ تتمة ما جرى لكرج، مع تيمور شيخ العرج.
٣٦٦ ذكر طلب الكرج الأمان، واستشفاعهم إلى ذلك الجان، بجارهم الشيخ

إبراهيم حاكم شروان.
٣٦٨ ذكر ثنى عنانه، إلى أوطانه، وقصده بلاده، بعد استكماله فساده.
٣٦٩ ذكر نهوض ملوك الأطراف لاستقباله، ووفودها عليه مهنئة له بحسن مآله.
٣٧١ ذكر توزيعه التتار ارسالا، شرقاً وغرباً ويميناً وشمالا.
٣٧٣ ذكر ما إبتدعه من منكراته، وطبع بخاتمه خواتيم سيئاته، ووافى باستيفائه رائد وفاته.

٣٨٢ ذكر بعض حوادث متقدمة لمتعلقات ذلك العائث.
٣٨٤ ذكر عزمه كما كان على الخطا، ومجيئه سكرة الموت بالحق وكشفه عنه الغطا، ثم انتقاله من سفره إلى سقره.
٣٨٩ ذكر مرسوم أرسله إلى أللّه داد، بت فيه منه الأكباد، وفت القلوب والأعضاد، وزاد ما خبله فيه من هموم بأن كاد.
٣٩١ ذكر سبب انكسار ذلك الجبار، وانتقاله إلى دار البوار، واستقراره في الدرك الأسفل من النار.
٣٩٨ فصل في ذكر ما وقع بعد وفاة تيمور، من حوادث وأمور، وما ظهر من سرور وشرور.
٣٩٩ ذكر من ساعده البخت، واستولى بعد تيمور على التخت.
٤٠١ ذكر خلاص العساكر من البند، وقفولهم مع عظامه إلى سمرقند.
٤٠٢ ذكر ما أضمره وزراء تيمور، وأخفاه كل منهم في التامور.
٤٠٧ ذكر وصول خليل سلطان، بما ناله من سلطان إلى الأوطان.
٤٠٨ ذكر مواراة ذلك الخبث، وإلقائه في قعر الجدث.
٤٠٩ فصل في اعتدال الزمان، وأخبار خليل سلطان.
٤١٠ ذكر من أظهر العناد والمراء، وتشبث بذيل المخالفة والعصيان من الأمراء والوزراء.
٤١٠ ذكر أخبار أللّه داد صاحب أشبارة، وإخلائه إياها وقصده دياره، وما صنعه في تدبير الملك وأثاره قولا وفعلا وإشارة، إلى أن أدرك في ذلك دماره وبواره.

٤١٢ ذكر ورود مكتوبين إلى أالله داد، من خليل سلطان وخدايداد، تخالفت معانيهما، وتصادمت فحاويهما.
٤١٣ ذكر من خلفه أالله داد بأشبارة من الطوائف، وما وقع بعده بينهم من التناكر والتخالف.
٤١٤ ذكر ما تم لأالله داد، مع خدايداد، وكيف ختله وخلبه، واسترق عقله وسلبه.
٤١٥ ذكر ورود كتاب من خليل، فيه لفظ رقيق لحل أمر جليل.
٤١٧ ذكر لحوق أالله داد بخليل سلطان، وحلوله مكرماً معززاً في الأوطان.
٤١٨ ذكر تنبه خدايداد بأن أالله داد، خبل عقله بأنكال وأنكاد.
٤١٩ ذكر ما وقع في توران، بعد موته من حوادث الزمان.
٤٢٠ ذكر نهوض أيدكو بالتتار، وقصده ما وراء النهر وتلك الديار.
٤٢٠ ذكر بيرمحمد حفيد تيمور ووصيه، وما جرى بينه وبين خليله ووليه.
٤٢٢ ذكر تجهيز خليل سلطان بسلطان حسين لمناصرته، وخروجه عن خليل سلطان وقبضه على أمرائه ومخالفته.
٤٢٣ ذكر خداع أالله داد سلطان حسين، وتلافيه تلافه بالمكر والمين.
٤٢٥ ذكر أخذ سلطان حسين على الأمراء الميثاق، ومشيه على خليل سلطان وهم معه في الإيثاق.
٤٢٥ تبريز خليل سلطان من سمرقنده، لملاقاة سلطان حسين بطوائف جنده، ورجوع سلطان حسين مما يرومه بخفي حنين.
٤٢٦ بقية ما جرى لبير محمد مما قصده من فرح وهم، وكيف آل ذلك إلى وبال وحزن فنقص وما تم.
٤٢٧ ذكر مقابلة العساكر الخليلية، جنود قندهار بصدق نية، وإلقائهم بهزيمتهم إياهم في شر بلية.
٤٢٩ ذكر خروج عسكر العراق على خليل سلطان، ومجاهرتهم بالخروج وقصدهم الأوطان.
٤٣٠ ذكر ما فعله بير محمد بعد انكساره، وما صنعه بعد وصوله إلى قندهاره.

٤٣١ ذكر توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان ثاني كرة، وما حصل عليه في ذلك من كرة وفرة، وتوليته الدبر كما بدا أول مرة.
٤٣٢ ذكر ما صنعه بير محمد من حيلة، عادت عليه بأفكاره الوبيلة، لأن جدواها كانت قليلة.
٤٣٢ ذكر اعتراف بير محمد أنه ظلم، وطلبه الصلح وإلقائه السلم.
٤٣٣ ذكر مخالفة ونكد، وقعت بين بير علي وبير محمد، أزاحت ثوب الحياة عنهما، وأراحت مخالفيهما منهما.
٤٣٤ ذكر ما وقع من حوادث الزمان، في غيبة خليل سلطان.
٤٣٤ ذكر تجريد خليل سلطان الأجناد، وتوجهه إلى شيخ نور الدين وخدايداد.
٤٣٥ ذكر إيقاد شيخ نور الدين وخدايداد، نارا للخليل ليحرقاه، فأطفأها الله تعالى ووقاه.
٤٣٦ ذكر مفارقة شيخ نور الدين خدايداد، وتقاسمهما تلك البلاد.
٤٣٦ ذكر رجوع شيخ نور الدين إلى الاعتذار، والتنصل عند خليله مما كان منه وصار.
٤٣٧ ذكر أمر خليل سلطان، ببناء ترمذ التي خربها جنكيزخان، وتجهيزه العساكر لهذا الشان.
٤٣٨ ذكر ما فعله شاه رخ من جهة خراسان، في مقابلة ما فعله خليل سلطان.
٤٣٩ إشارة إلى ما حدث في أقاليم إيران، وما جرى من سيول الدماء عند نضوب ذلك الطوفان.
٤٤٠ ذكر خروج الناس من الحصر، وطلبهم أوطانهم مما وراء النهر.
٤٤٠ ذكر ما أثار الزمان الغدار، من دمار وبوار، ألقى به الخليل في النار.
٤٤٢ ذكر ما إفتكره أالله داد، ودبره في مراسلة خدايداد.
٤٤٣ ذكر ما قصده خدايداد من الكيد، ووقوع خليل سلطان في قنص الصيد.
٤٤٥ ذكر ما جرى من الفساد، بسمرقند عند قدوم خدايداد.
٤٤٥ ذكر بلوغ هذه الأمور، شاه رخ بن تيمور، وتلافيه تلك الحوادث، وحسمه مادة هذه العوائث.

٤٤٦ ذكر ما جرى بسمرقند بعد خروج الجنود الجندية، وقبل وصول الشواهين الشاه رخية.
٤٤٧ ذكر بدور الدولة الشاه رخية، في سماء ممالك ما وراء النهر بعد غروب شمس الخليلية.
٤٤٨ ذكر ما قصده خدايداد، من إتمام النكد والفساد، وكيف آل ذلك النكال إلى أن جرى عليه وبال.
٤٤٨ تتمة ما جرى من خليل وخدايداد من المعاقدات، وتأكيد العهود والمودات، إلى أن أدركهما هادم اللذات.
٤٤٩ ذكر عود خليل سلطان من ممالك أندكان، وقصده عمه شاه رخ، ولعبه بالنفس مع ذلك بالرخ.
٤٥٠ فصل في صفات تيمور البديعة، وما جبل عليه من سجية وطبيعة.
٤٦٦ فصل في ذكر نسائه وأولاده وأحفاده وأجناده ونوادر غريبة ولطائف عجيبة.
٤٧٣ فصل في ذكر عسكره وطرائق سلوكهم، وكيف كانوا على دين ملوكهم، وما يتبع هذه الفصول، من وضع الشطرنج الكبير ورسم قلم المغول.
٤٨٨ خاتمة في سبب وضع الكتاب، والله أعلم بالصواب.

رحم الله مؤلفه وناظمه، ومن عليه بحسن الخاتمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ملاحق الكتاب

٤٩٧ **الملحق الأول** :
٥٤٣ **الملحق الثاني** : تيمورلنك عند السخاوي
٥٤٩ **الملحق الثالث** : تيمورلنك عند ابن العماد الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي على مِنوال إرادته تنسج مقاطع الأمور، ومن ينبوع قضائه إلى لجج قدره يجري تيار الأعصار والدهور أذاق بعض بني آدم بأس بعض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور، وأرسل عليهم في القرن الثامن من الهجرة بحار فتن أقبلت كقطع الليل المظلم لم يدر أحد ما هي فإذا هي تمور

أحمده حمد من كان على شفا جرف من نارها فأنقذه منها، وأشكره شكر من ورَّطه فيها عدله فأنجته أيادي فضله عنها.

وأشهد أن لا إله إلا الله[1] الحكم العدل، الذي يقتصُّ للمظلوم من الظالم يوم الفصل وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أرسله رحمة للعالمين وجعله رسول الله وخاتم النبيين، فأخبر ﷺ عن السِّر المصون، ونَبَّأ بما كان في الأزل وبما يكون إلى يوم يُبعثون، واستعاذ من غلبة الدَّين وقهر الرجال، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال صلى الله عليه صلاة تُذْكي المسك الأذفر في صدور الكتب والتواريخ، وتدني لقائلها في يوم الجزاء ثمرات الحسنات من أعلى الشماريخ.

وعلى آله وصحبه الذين أفاضوا سيول الفتح في الأقاليم فغمروها، وشيَّدوا أركان الاسلام وأثاروا الأرض بالايمان، وعَمروها بالعدل والاحسان أكثر مما عمروها. وسَلِّم تسليماً غزيراً. دائماً أبداً كثيراً.

أما بعد فلما كان في التواريخ عِبرة لمِن اعتبر، وتنبيه لمن افتكر، واعلام أن فاطن الدنيا على سفر، وإحضار لصورة حال مَنْ مضى وغبر، كيف قدر واقتدر، ونهى وأمر، وبنى وعمر، وختل وختر[2] وغلب وقهر، وكسر وجبر، وجمع

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أشهد أن لا إله إلا هو الحكم العدل.
(٢) ختر : غدر.

وادخر ، وتكبَّر وفَجر[1]،، وكيف عبس وبسر[2]، وضحك واستبشر ، وتقلَّب في أطواره من الطفولية إلى الكبر ، إلى أن قلبته أيدي العبر ، واختطفته وهو آمن[3] ما يكون مخاليب القضاء والقدر ، فخالط ما صفا من عَيْشه الكدر ، وتنغَّصَ حتى ذهب عنه ما حَلا ومرّ . إن في ذلك لعبرة لمن اعتبر . وتذكرة لمن ادَّكر . وتبصرة لمن استبصر .

وكان من أعجب القضايا بل من أعظم البلايا ، الفتنة التي يحار فيها اللبيب ، ويدهش في دُجى حُندسها[4] الفطن الأريب ويسفه فيها الحليم ، ويذل فيها العزيز ويُهان الكريم قضية[5] تيمور ، رأس الفساق ، الأعرج الدجال الذي أقام الفتنة شرقاً وغرباً على ساق .

أقبلت الدنيا الدنية عليه فتولى وسعى في الأرض فأفسد فيها وأهلك الحرث والنسل . وتيمَّم حين عَمَّته النجاسة الحُكمية صعيد[6] الأرض ، فَغَسل بسيف الطغيان كل أغرّ مُحجل[7] فتحققت نجاسته بهذا الغسل .

أردتُ أن أذكر ما رأيته ، وأقصُّ في ذلك ما رويته . إذ كانت إحدى الكبر وأمَّ العبر والداهية التي لا يرضى القضاء في وصفها بذا القدر .

والله أسأل إلهام الصدق وسلوك طريق الحق إنه ولي الاجابة ومُسدِّد سهم المرام إلى غرض الاصابة . وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(١) وردت في إحدى النسخ وفخر

(٢) بسر وجهه : كالح

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مما يكون

(٤) الحندس : بكسر الحاء والدال : الليل الشديد الظلمة .

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وقصة تيمور

(٦) الصعيد : التراب (من قوله تعالى : وتيمموا صعيداً طيباً).

(٧) جمع أغر : أي ذوي غرة ، وأصلها : لمعة بيضاء تكون في جبهة الفرس . ومحجل من التحجيل ، أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والأقدام . وهو من حديث الرسول ﷺ « إن أمتي يدعون يوم القيامة غُرًّا محجلين من آثار الوضوء ..» أخرجه الشيخان . ويراد بها : بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة .

فصل في ذكر نسبه . وتدريج استيلائه على الممالك وسببه

اسمه تيمور بتاء مكسورة مثناة فوق وياء ساكنة مثناة تحت وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهملة .

هذه طريقة إملائه وفي التصريف زنة بنائه ، لكن كرة الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولجان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء أوزانها ، ودحرجها كيف شاء في ميدان لسانها ، فقالوا في هذا تارة (تمور) وأخرى (تمرلنك)[1] ولم يجر عليهم في ذلك حرج ولا ضنك . وهو بالتركي الحديد[2] ابن ترغاي بن أبغاي .

ومسقط رأس ذلك الغدَّار قرية تسمى : خواجة إيلغار . وهي من أعمال كش[3]. فأبعدها الله من حِش[4].

---

(١) يقول ابن تغري بردي : (فنقول : هو تمرلنك وقيل تيمور ، كلاهما بمعنى واحد ، والثاني أفصح وهو باللغة التركية الحديد بن أيتمش قنلغ بن زنكي بن سنيا بن طارم طر بن طغريل بن قليج بن سنقور بن كنجك بن طغرسبوقا بن التاخان المغولي الأصل التركي من طائفة جغتاي الطاغية تيمور ، كوركان ، أعني باللغة الأعجمية صهر الملوك مولده سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بقرية تسمى خواجا أيلغار من عمل كش أحد مدائن ما وراء النهر ، وبُعد هذه البلدة عن مدينة سمرقند يوم واحد) النجوم الزاهرة ٢٥٤/١٢ .

(٢) يرى ابن عربشاه أن اسم تيمور أعجمي الأصل ويعني الحديد . ويؤكد القلقشندي الذي يعطي للفظ تيمور المعنى ذاته بأن الكلمة من أصل تركي (صبح الأعشى ٣٠٧/٧).

(٣) كِش : (شهري سيز) إحدى مدن ما وراء النهر قال ابن حوقل : هي مدينة مقدارها نحو ثلث فرسخ في مثله ، وبناؤها طين وخشب ، وهي مدينة خصيبة جداً تدرك فيها الفواكه أسرع مما تدرك في سائر ما وراء النهر (قاموس الأمكنة والبقاع ص ١٣٢ ، صبح الأعشى ٤٣٥/٤). وفي تاريخ جرجان ص ٤٦٢ : إنها قرية على الجبل على ثلاثة فراسخ من جرجان (النجوم الزاهرة ٢٥٤/١٢). مدينة صغيرة في وادي الصغد على أطراف حوض نهر كشقادريا وقد مر بها ابن بطوطة عام ٧٣٣ هـ = ١٣٣٣ م قبل مولد تيمور بثلاثة أعوام وقال عنها : إنها مدينة صغيرة تحف البساتين والمياه بها (ابن بطوطة ص ٣٥٤).

وإلى جوار الكش كانت قرية خواجه أيلغار مسقط رأس تيمور . وكان تيمور يحب كِش ويقضي فيها فصل الشتاء في بعض الأحيان ، وبنى فيها قصراً دعاه آمد سراي (القصر الأبيض) لا تزال آثاره قائمة إلى اليوم . وجاء في مذكرات تيمور أن كِش قد ←

وكش مدينة من مدن ما وراء النهر[1] عن سمرقند بنحو من ثُلث عُشر شهر .
قيل : رُؤى ليلة وُلد كأن شيئاً شبيه الخوذة تراءى طائراً في عنان الجو ثم سقط

← دعيت منذ سنة ٧٦٢ هـ = ١٣٦١ م « شهري سيز » (المدينة الخضراء) لأنها أرض كانت خضراء في الربيع (شهاب ص ١٠).

(٤) الحِش : البستان ، ووردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : (وحش)

(١) ما وراء النهر : هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون والمؤرخون العرب على البلاد والمناطق التي تلي نهر جيحون من ناحية إيران الشمالية الشرقية . وقد عرفت عند بعضهم بتسمية أخرى هي بلاد الهيطل نسبة إلى شعب آسيوي يحمل هذا الاسم قدمت بعض جماعات منه إلى المنطقة واستقرت فيها ويشير ياقوت الحموي إلى أن تسمية بلاد الهيطل هي التسمية التي كانت شائعة قبل بلوغ الفتح العربي تلك المنطقة وانتشار الاسلام فيها (معجم البلدان ٤٥/٥ وأبو الفداء : تقويم البلدان ص ٤٨٤). واستعمل المؤلفون الفرس إلى جانب هذه التسمية التي أخذوها عن العرب تسمية أخرى هي بلاد توران (توران زمين) واستعمل يزدي هذا التعبير في ظفر نامه في مواضع كثيرة . وقال ياقوت في تعريف (توران) أنها اسم لبلاد ما وراء النهر بمجموعها (معجم البلدان ٥٧/٢). وقد اقتصرت تسمية (ما وراء النهر) بعد الفتح المغولي ، على المناطق القريبة من نهر جيحون وهي مناطق الصغد وفرغانة والشاش وخوارزم والأراضي الواقعة عند المجرى الأعلى لهذا النهر وهي المناطق التي ظلت متحضرة من حوضي جيحون وسيحون بعد موجة الزحف المغولي .

وأطلق منذ ذلك العصر على ما تبقى من بلاد توران ، اسم تركستان ، وهي لفظة فارسية تعني « أرض الأتراك » وكانت تضم بالاضافة إلى ما وراء النهر المناطق الأخرى التي سكنها الأتراك ، وتمتد إلى ما وراء نهر سيحون ، وهي كما ذكرها إبن الأثير : كاشغر وبلاساغون (حوض نهر جو حالياً) وخوتان وطراز وغيرها مما يجاورها .

وتتحدث بعض الدراسات الحديثة عن « ما وراء النهر » عند حديثها عن جغرافية الاتحاد السوفيتي . وتطلق عليها مع المناطق المجاورة تعبيرات مختلفة ، مثل « آسية الوسطى » التي تمتد من بحر قزوين في الغرب إلى حدود الصين في الشرق .. ويعتبر البعض الآخر من الدراسات الحديثة ، ما وراء النهر من المناطق الملحقة بآسية العليا ، التي تشمل في نظرهم على منغوليا وتركستان الصينية والتيبت ، والتي تمتد إلى جهة الغرب حتى تقف عند شواطىء نهر جيحون وتشكل بلاد ما وراء النهر اليوم جزءاً من الاتحاد السوفيتي (مظهر شهاب : تيمورلنك ص ٤).

إلى فناء الدَوّ[1] ثم انبث على الأرض وانتشر وتطاير منه مثل الجمر والشرر ، وتراكم حتى ملأ البدو والحضر .

وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط . كانت كفّاه مملوءتين من الدم العبيط[2] فسألوا عن أحواله الزواجر والقافة وتفحصوا عن تأويل ذلك من الكهنة وأهل العيافة[3]

---

(١) الدو : المفازة .

(٢) العبيط من الدم : الخالص الطري . يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٢٥٥/١٢) أنه رؤي يوم ولد كأن شيئاً يشبه الخوذة تراءى طائراً في جو السماء ، ثم وقع إلى الأرض في فضاء كبير ، فتطاير منه جمر وشرر حتى ملأ الأرض . وقيل إنه لما خرج من بطن أمه وجدت كفّاه مملوءتين دماً ، فوجدوه أنه تسفك على يديه الدماء . قلت وكذا وقع .

ويذكر المؤرخ التونسي ابن خلدون الذي كان ضمن وفد دمشق الذي فاوض تيمورلنك : أن المنجمين تنبأوا بظهور هذا « الثائر العظيم » من ناحية الشمال الشرقي ، وقال أنه سمع عن ظهور هذا الثائر منذ أن كان في المغرب ، وأنه سيظهر من أمة بدوية تسكن الخيام وينقل هذا المؤرخ التونسي قصة أحد مشايخ المغرب هو « أبو يعقوب البادسي » الذي يصفه بأنه كبير أولياء المغرب بأن الرجل بعد أن انتهى من إحدى صلواته التفت وحدّث من كان يصلي خلفه أنه في هذا اليوم ولد ذلك الثائر العظيم . ويحدد ابن خلدون تاريخ القصة بأنها إحدى سنوات العقد الرابع من القرن الثامن الهجري (ابن خلدون : التعريف، ص ٣٧١).

وهو العقد الذي ولد فيه تيمور . ويتابع ابن خلدون قوله بأن أمره قريب ولا بد إن عشت أن تراه .

ويظهر أن ما ذهب إليه ابن عربشاه في تعليل انتشار الشائعات عن ظهور تيمور قبل اشتهاره ، هو أمر معقول لأن ابن خلدون الذي أورد أقوال منجمي المغرب في هذا الموضوع ، أضاف أن هؤلاء المنجمين كانوا يتوقعون ظهور الثائر العظيم في عام ٧٦٦ هـ = ١٣٦٥ م وأن أخباره سوف تنتشر عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ م . ويسمح هذا الأمر بالاعتقاد بأن الشائعات التي كان يطلقها تيمور بين أصدقائه في مقتبل عمره ، عن سعيه لحكم العالم قد وجدت لها طريقاً إلى سكان المغرب ، وسمع بها ابن خلدون وغيره عام ٧٨٤ هـ ، وكان تيمور قد حقق قدراً كبيراً من الشهرة في ذلك التاريخ .. (شهاب ١١٤).

(٣) العيافة : نوع من الكهانة

فقال بعضهم : يكون شرطياً . وقال بعض ينشأ لصاً حرامياً ، وقال قوم : بل يكون قصاباً سفاكاً ، وقال آخرون : بل يصير جلاداً بتاكاً[1].

وتظافرت هذه الأقوال ، إلى أن آل أمره إلى ما آل ، وكان هو وأبوه من الفدادين[2]. ومن طائفة أوشاب[3] لا عقل لهم ولا دين ، وقيل كان من الحشم[4] الرحالة والأوباش البطالة ، وكان ما وراء النهر مأواهم ، وتلك الضواحي مَشْتَاهم ، وقيل : كان أبوه اسكافاً فقيراً جداً ، وكان هو شاباً حديداً جلداً ، ولكنه لما كان به من القلة يتجرم ، وبسببه تلك الأصرام[5] تتضرر وتتضرم .

ففي بعض الليالي سرق غنمة واحتملها فضربه الراعي في كتفه بسهم فأبطلها ، وثنى عليه بأخرى في فخذه فأخطلها[6]، فازداد كسراً على فقره ، ولؤماً على شره ، ورغبة في الفساد ، وحنقاً على العباد والبلاد ، وطلب له في ذلك الاضراب والنظراء ، وعشا[7] عن ذكر الرحمن فقيَّض له من الشياطين القرناء ، مثل عباس وجاهنشاه ، وقماري وسليمان شاه ، وأيدكو تيمور وجاكو وسيف الدين ، نحو أربعين لا دنيا لهم

(١) البتك : القطع .

(٢) فداد : شديد الصوت .

(٣) الأوشاب من الناس : الأوباش .

(٤) الحشم : الخدم

(٥) الصرم : بالكسر ، أبيات من الشعر مجتمعة ، وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الأضرام .

(٦) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٢٥٥/١٢) (وقيل : إن أول ما عُرف من حال تيمور أنه كان يتجرم ، فسرق في بعض الليالي غنمة وحملها ليهرب بها ، فانتبه الراعي وضربه بسهم فأصاب كتفه ثم ردفه بآخر فلم يصبه ، ثم بآخر فأصاب فخذه وعمل فيه الجرح الثاني الذي في فخذه حتى عرج منه ، ولهذا سمي تمرلنك ، لأن « لنك » باللغة الأعجمية أعرج ، وأما اسمه الحقيقي فَـ (تمر) بلا (لنك)، فلما عرج (تمر) أضيف إليه (لنك).

ولما تعافى أخذ في التجرم على عادته وقطع الطريق ، وصحبه في تجرمه عدتهم أربعون رجلاً .

(٧) من قول الله تعالى في القرآن الكريم سورة الزخرف رقم ٤٣ الآية ٣٦ (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقيض له شيطاناً فهو له قرين).

ولا دين ، وكان مع ضيق يده وقلة عَدَده وعُدَده ، وضعف بدنه وحاله وعدم ماله ورجاله يذكر لهم أنه طالب المُلك ومُورد ملوك الدنيا موارد الهلك ، وهم في ذلك يتناقلون عنه هذا النقل وينسبونه إلى كثرة الحماقة وقلة العقل ، ويدنونه منهم ويقبلون إليه ليسخروا منه ويضحكوا عليه[1] :

إن المقادير إذا ساعدتْ ألحقت العاجز بالحازم

فشرع فيما يقصده والقضاء يرشده والقدر ينشده :

لا يؤيسنك من مجد تباعده فإن للمجد تدريجاً وترتيباً[2]

إن القناة التي شاهدت رفعتها تنمو فَتَنْبتُ أنبوباً فأنبوبا

وكان في بلد كش[3] شيخ يسمى شمس الدين الفاخوري ، وهو مُعْتَقَد تلك البلاد وعليه لكل من قَصَدَ شيئاً من أمر الدين والدنيا الاعتماد ، فذكر أن تيمور وهو فقير عاجز بين عزٍّ موهوم وذلٍّ ناجز ، لم يكن له سوى ثوب قطن وأنه باعه واشترى بثمنه رأس ماعز . وقصد الشيخ المشار إليه وعوَّل فيما قصده عليه ، وقد ربط بطرف حبل عنق ذلك العَنَاق[4]. وربق عنق نفسه بالطرف الآخر من ذلك الرباق[5] وجعل يتشحط على عصى من جريد حتى دخل على ذلك الشيخ المفيد فصادفه هو والفقراء مشغولين بالذكر مستغرقين فيما هم فيه من الوجد والفكر ، فلا زال قائماً حتى أفاقوا من حالهم وسكتوا عن قالهم[6] فلما وقع نظر الشيخ عليه سارع إلى تقبيل يديه ، وأكَبَّ على رجليه ، فتفكَّر الشيخ ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الجماعة وقال كأنَّ هذا الرجل بذل عِرْضَه وعُروضه واستمدنا في طلب مالا يساوي عند الله تعالى جناح بعوضة ، فنرى أن نمدَّه ولا نحرمه ولا نردّه . فأمدُّوه بالدعاء إسعافاً لما

(١) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢٥٦/١٢ (وكان تيمورلنك يقول لهم في تلك الأيام : لا بد أن أملك الأرض وأقتل ملوك الدنيا ، فيسخر منه بعضهم ، ويصدقه البعض ، لما يرونه من شدة حزمه وشجاعته).

(٢) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وتدريباً .

(٣) كِش إحدى مدن ما وراء النهر .

(٤) العَناق : بفتح ففتح : الأنثى من ولد المعز .

(٥) الرباق : حبل فيه عدة عرى .

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥هـ : مقالهم .

طلبه فأشبهت قصته قضية ثعلبة[1]. ورجع من عند الشيخ وخرج ، وعرج بعدما عرج إلى ما عرج[2].

وقيل إنه كان في بعض تجرُّماته فَضلَّ الطريق صورة ، كما ضلَّها معنى وسيرة ، وكاد يهلك عطشاً وجوعاً ، وسار على ذلك أسبوعاً فوقع في أثناء ذلك على خيل السلطان[3]. فتلقاه الجُشاري[4] باللطف والاحسان . وكان تيمور ممن يعرف خصائص الخيل بسماتها ويفرق بين هجانها[5] وهجينها بمجرد النظر إلى هيآتها ، فَأطَّلع الجُشاري على ذلك منه وأخذ علم ذلك عنه وزاد فيه رغبة ، وطلب منه دوام الصحبة . وجهَّزه إلى السلطان مع أفراس له طلبها منه وأخبره بفضيلته وما شاهده عنه . فأنعم السلطان عليه ووصى به الجُشاري وردّه إليه ، فلم ينْشِبْ[6] الجشاري أن مات فتولى تيمور وظيفته . ولا يزال يترقى عند السلطان حتى تزوج شقيقته . ثم أنه غاضبها في بعض مكافحاته ومقاله فعيَّرته بما كان عليه من أول أمره وحاله[7].

(١) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي نزلت في قضيته الآية (٧٧,٧٦) من سورة التوبة (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) تفسير ابن كثير (٣٧٣/٢).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ما هرج .

(٣) السلطان حسين كرت حاكم هيرات

(٤) الجشاري : الراعي . يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢٥٦/١٢ (إنه تاهَ في بعض تجرماته عدة أيام إلى أن وقع على خيل السلطان حسين المقدم ذكره ، فأنزله الجشاري صاحب مرج الخيل عنده ، وعطف عليه وآواه وأتى إليه بما يحتاجه من طعام وشراب . وكان لتيمور معرفة تامة في جياد الخيل فأعجب الجشاري منه ذلك ، فاستمر به عنده إلى أن أرسل معه بخيول إلى السلطان حسين وعرَّفه به ، فأنعم عليه وأعاده إلى الجشاري ، فلم يزل عنده حتى مات ، فولاه السلطان حسين عَوضه على جُشاره ، ولا زال يترقى بعد ذلك من وظيفة إلى أخرى حتى عظم وصار من جملة الأمراء).

(٥) هجان الشيء : خياره .

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فلم يلبث ، ونَشب الشيء في الشيء بالكسر (نشوباً) أي علق فيه .

(٧) يقول ابن تغري بردي (وتزوج بأخت السلطان حسين ، وأقام معها مدة إلى أن وقع بينهما

فسلَّ السيف وَنحاها على أنها تفر من بين يديه . فلم تكترث به ولم تلتفت إليه . فضربها ضربة أزهق بها نَفْسها وأسكنها رمسها ثم لم يسعه إلا الخروج والعصيان والتمرد والطغيان إلى أن كان من أمره ما كان .

وكان السلطان اسمه حسين ، وهو من بيت الملك ونافذ الكلمتين ، وتخت ملكه مدينة بلخ وهي من أقصى بلاد خراسان ، ولكن كانت بحار أوامره جارية في ممالك ما وراء النهر إلى أطراف تركستان .

وقيل : كان أبوه أمير مائة عند السلطان المذكور ، وهو بالجلادة والشهامة بين أضرابه مشهور . ويمكن الجمع بين هذه الأقاويل باعتبار اختلاف الزمان وتنقل الأحوال والحدثان . والأصح أن أباه ترغاي[1] المذكور كان أحد أركان دولة السلطان .

ورأيت في ذيل تاريخ فارسي يدعى « المنتخب » وهو من بدء الدنيا إلى زمان تيمور وهو شيء عجب ، نسباً[2] يتصل منه تيمور إلى جنكيز خان[3] من جهة النساء حبائل الشيطان .

في بعض الأيام كلام ، فعيَّرته بما كان عليه من سوء الحال ، فقتلها وخرج هارباً ، وأظهر العصيان على السلطان حسين ، واستفحل أمره ، واستولى على ما وراء النهر ، وتزوج ببنات ملوكها فعند ذلك لقب بـ (كوركان) [أي صهر الملوك] ولا زال أمره ينمو وأعماله تتسع إلى أن خافه السلطان حسين ، وعزم على قتاله ، وبلغه ذلك فخرج هارباً).

(١) بقي ترغاي حياً حتى عام ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م وقد أقام ابنه تيمور فيما بعد سنة ٧٧٥ هـ = ١٣٧٤ م لترغاي مقبرة ضخمة في مدينة كِش بجوار المسجد الكبير فيها (شهاب ص ١١٢).

(٢) إن النسب العريق الذي وضعه مؤرخو تيمور كان لإضفاء السمو والعظمة على الأصول التي انحدر منها تيمور لتبرير استيلائه على السلطة فيما وراء النهر (شهاب ١١٢).

(٣) جنكيز خان : القائد المغولي الذي تم تنصيبه خاناً أعظم (خاقان) على القبائل المغولية في منغولية سنة ٦٠٣هـ = ١٢٠٦ م وأسس امبراطورية كبيرة تمتد من غرب الصين إلى أواسط إيران وكانت سياسته تتطلع إلى احتلال العالم .

وقد اندفع تيمور يترسم خطى جنكيز خان في السعي لاقامة دولة تحكم العالم كله حيث كانت الدولة التيمورية حسب وثائقها تربط نسب تيمورلنك بجنكيز خان . وقد ورد هذا الرأي على نقش حجري كتب على شاهدة قبر تيمور في سمرقند وجاء في هذا النقش

ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الأقران ، تزوج بنات الملوك فزادوه في ألقابه : كُوركان ، وهو بلغة الموغول: الختن لكونه صاهر الملوك وصار له في بيتهم حركة وسكن .

الذي كتب باللغة العربية سلسلة نسب طويلة ترقى بنسبه إلى شخص يدعى تومانه خان (Tumanah- Khan) الذي ترد الاشارة إليه في هذا النص على أنه الجد الثامن لتيمور ، والذي يلتقي به أيضاً نسب الفاتح المغولي جنكيز خان . ويتابع النقش النسب إلى أن يصل به إلى امرأة ، ذكرت عن نفسها أنها حملت بولدها ـــ وهو الجد الثالث عشر لتيمور ـــ من نور دخل عليها من أعلى الباب ، وتمثَّل لها بشراً ، وذكر بأنه من أبناء علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع . وقد جاء في الكتابة التي نقشت على شاهدة قبر تيمور ما يلي : (هذا مرقد السلطان الأعظم الخاقان الأكرم أمير تيمور كوركان بن الأمير ترغاي ، بن الأمير بُركل ، بن الأمير ايلنكير ، بن الأمير إيجل ، بن قراجار نويان ، بن الأمير سوغوجيجن ، بن الأمير إيرد مجي بارولا بن الأمير قجولاي بن تومناي خان . وبهذا يشعب نسب جنكيز خان من هذا الأصل ، وحصل إلى السلطان الأمجد المدفون في هذا المرقد غاية الشرف ، فإن جنكيز خان بن الأمير بيسوكاي بهادر بن الأمير برتل بن قبول خان بن تومناي خان المذكور ، وهو ابن الأمير بايسنغر بن قيدو خان بن الأمير توتومن بن الأمير بوقا بن الأمير بوذنجر ، ولم يعرف والد لهذا الماجد ، إلا أن أمه الانغ ـــ غوا حكت وكانت شيمتها الصدق والعفاف ولم تك بغياً ، أنها حملته من نور دخل عليها من أعلى الباب فتمثل لها بشراً سوياً ، وذكر أنه من أبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) مظهر شهاب ص ١٠٤ نقلاً عن Blochet: OP. cit. P. 61 ومن المعلوم إلى أن انتماء تيمور إلى أحد من أبناء علي بن أبي طالب الذي يعتبر أعرق البيوت الاسلامية نسباً هو تعزيز لمكانة تيمور في نظر رعاياه المسلمين ، دون الخروج على تعاليم شريعة الياسا المغولية ، التي كانت قد نصت على ضرورة معاملة أبناء علي بن أبي طالب بالرعاية والاحترام (المقريزي : الخطط ٢/٢٢١ ـــ ٢٢٢) شهاب ص ١٠٧ .

إن الرأي الرسمي في أصول تيمور كما ذكرها المؤرخون التيموريون توضح صلة النسبة الجامعة بين تيمور وجنكيز خان ثم بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب . بينما يذكر مؤرخو الشام ومصر في ترجمة تيمور أنه كان من منشأ وضيع ، فكان أبوه راعياً وإسكافياً فنشأ ابنه تيمور مجرماً وفقيراً . وهذا الذكر يحمل طابع الكراهية لتيمور لما قام به عند اجتياحه بغداد وحلب ودمشق . ويرى العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ = ١٤٤٨ م أن تيمور كان فلاحاً في أول حياته ، ونشأ خامل الذكر ، مارس الاجرام والسرقة (إنباء الغمر بأنباء العمر ←

وكان للسلطان المذكور من الوزراء أربعة عليهم مدار المضرة والمنفعة هم أعيان الممالك ، وبرأيهم يقتدي السالك[1].

والترك لهم قبائل وشُعَبْ ، تكاد توازي قبائل العرب ، وكل واحد من هؤلاء الوزراء كان من قبيلة لِسَراج آرائه في بيوت تعميرها فتيلة طويلة ، قبيلة أحدهم تسمى الرلات ، وقبيلة الثاني تدعى جلائر ، وقبيلة الثالث يقال لها : قاوجين ، وقبيلة الرابع اسمها بَرْلاس ، وكان تيمور ابن رابعهم في الناس فنشأ شاباً لبيباً ، مصراعاً هماماً حازماً جلداً أريباً ، وكان يصاحب نظراءه من أولاد الوزراء ويعاشر أضرابه من فتيان الأمراء ، إلى أن قال لهم في بعض الليالي وقد اجتمعوا في مكان خالٍ وأخذت منهم العِشْرة والنشاط وارتفعت أستار الأسرار وامتد للبسط بساط : أن جدتي فلانة وكانت من ذوي العيافة[2] والكهانة رأت مناماً ماذاقت منه أحلاماً وعبَّرته بأنه يظهر لها من الأولاد والأحفاد من يُدَوِّخ البلاد ويملك العباد ويكون صاحب القران ويذل له ملوك الزمان ، وذاك هو أنا وقد قَرُب الوقت ودنا ، فعاهدوني أن تكونوا لي ظهراً وعضداً وجناحاً ويداً وأن لا تستحيلوا عني أبداً ، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وتقاسموا أن يكونوا في السراء والضراء معه لا عليه ، ولم يزالوا يتجاذبون أطراف هذا الكلام في كل مقام ويتفاوضون فيض غدير هذا الغدر من غير احتشام واكتتام حتى آنس برقه قاطن كل مصر وشام وخاض في حديثه كل قديم هجره من خاص وعام وشعر به السلطان وعلم أن خلافه[3] في دوح المملكة بان فأراد أن يرد كيده في نحره ويريح الدنيا من شره والعباد والبلاد من عاره وعُرّه ويعمل بموجب ما قيل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدم

فأخبره بذلك بعض الناصحين فخرج وهوى إلى حضيض العصيان وهو سالم

١٧/١) وورد هذا القول ابن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٥هـ = ١٤٧٠ م في النجوم الزاهرة (٢٥٥/١٢) فقال (وقيل إن والده كان إسكافاً .. وقيل إن أول ما عرف من حال تيمور أنه كان يتجرم ..) كما ذكر ذلك السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥ م في تاريخ الخلفاء ص ٥٠٢ ـــ شهاب ص ١٠٩

(١) في بعض النسخ : تقتدى المسالك .

(٢) العيافة : نوع من الكهانة ، وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : (القيافة).

(٣) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : غرس خلافه .

فعرج . ويمكن أنه في بعض هذه الأوقات وأثناء هذه الحالات توجَّه إلى الشيخ شمس الدين المشار إليه واستمده كما ذكر فيما عول عليه فإنه كان يقول جميع ما نلته من السلطنة وفتحته من مستغلقات الأمكنة ، إنما كان بدعوة الشيخ شمس الدين الفاخوري[1] وهمة الشيخ زين الدين الخوافي[2]، وما لقيتُ بركة إلا بالسيد بركة . وسيأتي ذكر زين الدين وبركة . ثم قال تيمور : ما فتحت أبواب السعادة والدولة علي ولا ضحكت عروس فتوحات الدنيا إليَّ إلا من سهام سجستان[3] ومن حين أصابني ذلك النقصان أنا في ازدياد إلى هذا الأوان[4] .

والظاهر أن بدّو[5] أمره وخروجه في تلك الفئة كان فيما بين الستين والسبعين والسبعمائة

وقال لي شيخي الامام العالم العامل الكامل المكمل الفاضل فريد الدهر وحيد

(١) إن سعي تيمور للتقرب من رجال الدين هو بلاشك رؤيته فيهم السلطة الوحيدة التي كانت تتمتع بصفة الثبات والاستمرار في تلك المرحلة المضطربة . وبالنفوذ على عامة الناس . وكان رجال الدين بدورهم يبحثون في ذلك الوقت ، عن شخصية قادرة تعينهم على تثبيت سلطانهم المعنوي على الناس ، وتساعدهم على نشر الإسلام بين البداة الأتراك الجغتائيين ، الذين لا تزال أعداد كبيرة منهم على ديانتها الوثنية . وكان حصول تيمور على ثقة رجال الدين كافيا في نظره على الأقل ليجعل منه مساوياً لبقية الأمراء الذين تستند سلطاتهم إلى ما يمتلكونه من قوات تدعم نفوذهم . وعلى ما يظهر فان المسلك الذي اختطه تيمور لنفسه بالتقرب من رجال الدين ، قد جعله في نظر المضطهدين من الناس في ذلك الوقت ، البطل الذي تنتظر البلاد الخلاص على يديه . وقد دعا الشيخ شمس الدين الفاخوري لتيمور بالتوفيق والنجاح وبشّره بالنصر المرتقب . شهاب ص ١١٩ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن على أبو بكر الخوافي ثم الهروي الحنفي ويعرف بزين الدين .. ولد في أوائل سنة ٧٥٧هـ .. وصار له صيت وشهرة ، قال التقي بن قاضي شهبة : اجتمعت به فرأيته شيخاً كبيراً ابن ثمانين سنة وهو ببلاد تيمور .. وهو عالم كبير جليل المقدار ذو علوم كثيرة .. وعَمّر حتى مات في يوم السبت غرة شوال سنة ٨٣٨ هـ (الضوء اللامع ٩/٢٦٠).

(٣) سجستان : هو إقليم مقسم حالياً بين إيران وأفغانستان .

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الزمان .

(٥) البدوّ : بالتشديد : الظهور .

العصر علَّامة الورى أستاذ الدنيا علاء الدين شيخ المحققين والمدققين قطب الزمان مرشد الدوران أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البخاري[1] نزيل دمشق أدام الله تعالى أيام حياته ، وأمدَّ الاسلام والمسلمين بميامن بركاته في شهور سنة ست وثلاثين وثمانمائة : أن تيمور قتل السلطان حسيناً المذكور في شعبان سنة إحدى وسبعين وسبعمائة . ومن ذلك الوقت استقل بالملك وكانت وفاته في شعبان سنة سبع وثمانمائة على ما سيأتي فمدة استيلائه مستقلاً ست وثلاثون سنة . وذلك خارجاً عن مدة خروجه وتجرّمه إلى حين استيلائه .

ولما خرج صار هو ورفقاؤه ، يتجرمون في بلاد ما وراء النهر ويعاملون الناس بالعدوان والقهر فتحرك لدفعهم كل ظاعن وساكن وضيقوا عليهم تلك المغاني والأماكن فقطعوا جيحون وصَفَرَ منهم ذلك المكان فاشتغلوا بالتجرّم في بلاد خراسان[2]، خصوصاً في ضواحي سجستان .

ولا تسأل عما أفسد في فدافد خراسان ومفاوز باورد[3] وماخان[4] فذهب بعض الليالي وقد أضرَّ بهم السَّغب . واشتعل فيهم من الجوع اللهب فدخل حائطاً من حوائط سجستان قد أوى إليه بعض رعاء الضأن ، فاحتمل منها رأساً وأدبر فشعر به الراعي وأبصر فأتبعه للحين للحين[5] وضربه بسهمين أصاب بأحدهما فخذه وبالآخر كتفه فلله دره ساعدا .

إذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفه ثم أدركه واحتمله ، وإلى سلطان هراة[6]

(١) هو بن محمد بن محمد العلاء أبو عبد الله البخاري العجمي الحنفي . ونقل عنه ابن قاضي شهبة أنه ولد في حدود سنة ٧٧٠ هـ ببلاد العجم ونشر العلم في الهند ، ثم قدم مكة فجاور بها ، ثم قدم القاهرة فأقام بها سنين .. وقد حج ورجع مع الركب الشامي إلى دمشق سنة ٨٣٢ هـ فانقطع بها ولازمه ابن عرب شاه حتى مات في دمشق بقرية المزة ودفن بسطحها سنة ٨٤١ هـ . (الضوء اللامع ٩/٢٩٠)

(٢) خراسان : اليوم في شمال شرق إيران وجنوب روسية وغرب أفغانستان .

(٣) باورد هي ابيورد في خراسان .

(٤) في خراسان .

(٥) الحين بالفتح : الهلاك ، وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فأتبعه للحين .

(٦) بلدة اليوم في أفغانستان .

المسمى بملك حسين أوصله فبعد ضربه أمر بصلبه ، وكان للسلطان ابن رأيه غير متين يدعى مَلك غياث الدين[1]، فشفع فيه واستوهبه من أبيه فقال له أبوه : إنه لم يصدر عنك ما يدل على صلاحك ويسفر عن نجابتك وفلاحك ، وهذا جغتائي حرامي مادة الفساد لئن أبقى ليهلكن العباد والبلاد .

فقال ابنه : وما عسى أن يصدر من نصف آدمي وقد أصيب بالدواهي وَرُمى ، ولا شك أن أجله قد اقترب فلا تكونن في موته السبب ، فَوَهَبَهُ إياه فوكّل به من داواه إلى أن اندمل جرحه وبرىء قرحه ، فكان في خدمة ابن سلطان هراة من أعقل الخدم وأضبط الكفاة ، فتوفرت عنده حرمته وارتفعت درجته وسمعت كلمته ، فعصى من نواب السلطان نائبه المتولي على سجستان ، فاستدعى تيمور أن يتوجه إليه فأجابه إلى ذلك وعوَّل عليه وأضاف إليه طائفة من الأعوان ، فوصل إلى سجستان وقبض على نائبها المتمادي في العصيان[2] واستخلص أموال تلك البلاد ، وأخذ من أطاعه من الأجناد ، وتلا آية العصيان بالجهر ، وارتحل بمن معه إلى ما وراء النهر . وقيل : بل كان في خدمة ابن السلطان إلى أن ودَّع أبوه الحياة وانتقل ، واستقر ولده في الملك واستقل .

فعند ذلك هرب تيمور إلى ما وراء النهر وقد قوي منه الرأس والظهر وكان إذ ذاك قد اجتمع عليه رفقاؤه وانحاز إليه أصحابه المتجرمون[3] وعشراؤه فأرسل غياث الدين الطلب وراءهم وقصد أن يكفي المسلمين شرَّهم وعناءهم وهيهات فقد كان سبق العذل السيف . وَضيَّع اللبن في الصيف .

ذكر عبوره جيحون على فترة وما أجرى من عبرات بهذه العبرة

فوصل تيمور وجماعته إلى جيحون[4] وكان إذ ذاك مثلهم طاغياً ولم يمكنهم التواني

(١) هو سلطان هراة (هيرات) الملك معز الدين حسين وهو من آل كرت (٧٣٢هـ ــ ٧٧١هـ = ١٣٣٢ ــ ١٣٧٠ م) وبعد وفاته ورث العرش ابنه غياث الدين بير علي (شهاب ١٨٥).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الطغيان .

(٣) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : المتحزبون .

(٤) تشكل بلاد ما وراء النهر حوضاً مغلقاً ، لان معظم مياهه تنصرف إلى بحر مغلق هو بحر

لأن الطلب كان شبيههم باغياً[1] فقال تيمور لأصحابه النجاء النجاء ليتعلق كل منكم بعنان فرسه ومعرفته وليلق نفسه في الماء وتواعدوا إلى مكان ، وقال : توجهوا من غير توان فمن لم يأت الموعد يُعْلم أنه قد فُقِد فتهافتوا هم وخيولهم في ذلك الماء العجاج والتيار الزخار والأمواج تهافت الفراش على السراج ولم يعلم واحد منهم حال الآخر ، ولا اطلَّع من تقدم منهم على أمر من تأخر ، وكابدوا أحوال الموت وشاهدوا أهوال الفوت ، فنجوا ولم ينقص منهم واحد ، واجتمعوا إلى ذلك الموعد ، وذلك بعد أن أَمِنَت منهم البلاد ، واطمأن في مسالكها[2] كل رائح وغاد ، فجعلوا يتجسسون الأخبار ، ويتتبعون الآثار ، ويحاربون الله ورسوله ، ويؤذون عباده ويقطعون سبيله ، ولم يزل على ذلك يجري ويمشي . إلى أن وصل مدينة قرشي[3] .

ذكر ما جرى له من خبطه في دخوله إلى قرشي وخلاصه من تلك الورطه

فقال يوماً لأصحابه ، وقد أضرَّ به الدهر وأضرى به ، وأخصب منهم ربع الفساد وأعشب أن بالقرب منا مدينة نخشب مدينة أبي تراب النخشبي رحمة الله عليه، مدينة مصونة ، مُسوَّرة مكنونة لئن ظفرنا بها لتكونن لنا ظهراً وملاذاً وملجأ ومعاذا ، وان حاكمها موسى لو حَصَّلناه . وأخذنا ماله وقتلناه ، لتقوينا بما لَهُ من خيول وعدة ، ولحصل لنا الفرج بعد الشدَّة ، وأنا أعلم لها من ممر الماء درباً هَيِّن الوصول واسعاً رحباً . فشمَّروا ذيلهم وتركوا في مكان خيلهم واستعملوا في نيل مرادهم ليلهم .

قزوين . والثروة المائية الأولى في البلاد تتمثل في نهري سيحون وجيحون (سيرداريا وأمودايا) العظيمين وروافدهما ، ثم بنهري الصغد وكشقادريا .

وبالموازنة بين سيحون وجيحون تظهر أن جيحون هو أطول النهرين (١٨٥٠ كم و ١٥٠٠ كم). ولكنه أقل غزارة وعمقاً منه ولذلك فهو أقل منه فائدة .

وقد شاع اسم النهرين سيحون وجيحون عند أغلب الجغرافيين والكتاب المسلمين وسمّى بعضهم النهرين بأسماء المدن التي كانا يمران منها . فأطلقوا على جيحون (نهر بلخ) ودعوا سيحون (نهر الشاش) والشاش هي التسمية القديمة لمدينة طاشقند (شهاب ص ١٤)

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : كان خلفهم ساعياً .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : في ممالكها .

(٣) هي مدينة نسف في روسية

ودخلوا حَبْس المدينة وقصدوا بيت الأمير ، ورفعوا أيديهم فصادفوا يدهم والحصير .

وكان الأمير في البستان خارج البلد ، فأخذوا ما وجدوا له من أسلحة وَعُدد وركبوا خيله ، وقتلوا من وجدوا من الأكابر غيلة ، فاجتمع عليهم أهل البلد وأرسلوا إلى الأمير فأدركهم بالمدد ، فتراكم عليهم البلاء باطناً وظاهراً فلم يجدوا لهم سوى الاستسلام ناصرا . فقال له أصحابه : لقد ألقينا بأنفسنا إلى حقيقة الهلاك من هذا المجاز فقال : لا عليكم ففي مثل هذه المواطن يمتحن الرجل وَيُراز ، فَأَجْمِعُوا كيدكم ثم إئتوا صفاً واندفعوا نحو باب المدينة يداً واحدة زحفاً ، حاطمين على العدو ، من غير توان ولا هدو ، فإني أظن أنه لا يثبت لكم شيء ، ولا يقف أمامكم حيّ ، فامتثلوا أمره ورفعوا الصوت ، وقصدوا الباب خائضين غمار الموت ، وهجموا على العساكر هجوم الليث واندفقوا ولا اندفاق الغيث ، ففتح لهم عند فتح الباب ، لأمر يريده مُسبِّب الأسباب فلم يَلْو أمامهم أحد على أحد ولا نفعه ما هو فيه من العَدَد والعُدد .

ثم انثنوا إلى مكانهم سالمين . ولم يزالوا على ذلك عائثين عابثين[1] واجتمع عليهم أصحابهم ، وانحاز إليهم في الفساد أضرابهم ، فصاروا نحواً من ثلاثمائة ، ولِمن يتحيز إليهم من أهل الشرِّ فئة .

فأرسل السلطان إليهم عسكراً غير مكترث بهم فكسروه ، واستولوا على حصن من الحصون فجعلوه معقلاً لكل ما ادَّخروه .

قلت : لا تحقرن شأن العدو وكيده فلربما صرع الأسود الثعلب

وقيل : إن البعوضة تدمي مقلة الأسد .

وقيل : ولربما قمرت بالبيدق الشاه .

ذكر من استرقه ذلك [2] الجاف واستَعبْده من أحرار ملوك الأطراف

وأرسل تيمور إلى ولاة بلخشان[3]، وكانت الولاية بها لأخوين وهما بها مستقلان

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : (عائثين غانمين).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ذكر من أسر في فتنة ذلك الجاف .

(٣) بلخشان : من ولايات سمرقند وقد ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وراسل تيمور ولاة بلخشان .

تلقيا ذلك عن أبيهما . وكان السلطان نزعها من أيديهما ثم أقرَّهما فيها على أن يكونا من تحت أمره ، واسترهن أولادهما عنده ، فصارا أسيري قهره ، فلما راسلهما تيمور على طاعته أجاباه ودخلا تحت كلمته[1] .

ذكر نهوض المغل على السلطان وكيف تضعضعت منه الأركان

ثم إن الموغول نهضت من جهة « الشرق »[2] على السلطان حسين فاستعدَّ لهم وقطع جيحون ، ووقع الحرب بين الجهتين ، فانكسر السلطان فراسلهم أيضاً ذلك الجان . واسم حاكمهم قمر الدين خان فأجابوه مراده واقتفوا ما أراده وسلَّطوه على السلطان ليستخلص من يده البلاد . وواعدوه بمصاهرتهم وأمدّوه بمظاهرتهم . ورجعوا إلى بلادهم وقد أسلموه زمام قيادهم ، فقويت بذلك شوكته وسكنت القلوب هيبته . فلم يسع السلطان إلا بذل الجهد والامكان في إطفاء ثائرته وقطع دابرته فجعله نصب عينيه وتوجَّه بنفسه إليه ، بعسكر جرَّار كالبحر الزخار حتى انتهى إلى مكان يسمى قاغلغا[3] وهو صُدُفَان[4] بينهما مضيق هو الجادة العظمى والطريق ، يسير المار في ذلك مقدار ساعة وفي وسط الدرب باب إذا أُغلق وأحمِي فلا شيء مثله في المناعة ، وحواليه جبال كل منها عرنينه[5] قد شمخ وقدمه قد غاص ثبوتاً

(١) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢٥٧/١٢ في حديثه عن تيمور (ثم قوي أمره بعد سنة ستين وسبعمائة . فلما كثر عسكره بعث إلى ولاة بلخشان وكانا أخوين قد ملكا بعد موت أبيهما يدعوهما إلى طاعته ، فأجاباه ، وكانت المُغل قد نهضت من جهة الشرق على السلطان حسين ، وكان كبيرهم الخان قمر الدين فتوجه السلطان حسين إليهم وقاتلهم ، فأرسل تيمور يدعوهم إليه ودخلوا تحت طاعته ، فقويت بهم شوكته) .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : المشرق .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قاغلغار

(٤) الصَّدف : كل شيء مرتفع عظيم كالهدف والحائط والجبل . الصَّدُف ما بين الجبلين ، جمع أصداف ، أصدفة .

(٥) العرنين : الأنف .

ورسخ . فصحَّ أن يقال فيه : أنف في السماء واسّت[1] في الماء . فأخذ العسكر فم ذلك الدربند[2] من جهة سمرقند . وتيمور على الجانب الآخر وهو كالمضايق والمحاصر .

ذكر الحيلة التي صنعها والخديعة التي ابتدعها

فقال تيمور لأصحابه إني أعرف هنا جادة خفية مسالكها أبية لا تطؤها الخطا ولا يهتدي إليها القطا ، فهلم نسري ليلنا ونقود في المسرى خيلنا فنصبِّحهم من ورائهم وهم آمنون ، فإن أدركناهم ليلاً فنحن الفائزون . فأجابوه إلى ذلك وشرعوا في قطع تلك الوعور والمسالك ، وساروا ليلهم أجمع وبلغ الفجر المطلع فأدركهم الصباح ولم يدركوا الجيش ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتنكد لهم العيش ولم يمكنهم الرجوع وأذنت الشمس بالطلوع ، فوصلوا إلى العسكر وقد أخذ في التحميل وعزم على الرحيل . فقال أصحابه بئس الرأي فعلنا في قبضة العدو حصلنا ، لقد وقعنا في الأشراك وألقينا بأيدينا أنفسنا إلى الهلاك . فقال تيمور : لا ضرر ، توجهوا نحو العسكر وانزلوا بمرأى منهم على خيلكم واتركوها ترعى ، واقضوا من وِرد النوم والراحة ما فاتكم في ليلكم ، فترامَوا عن خيلهم كأنهم صرعى وتركوا خيولهم ترعى :

وإذا السلامة أحرستك[3] عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان

فجعل العسكر يمرُّ بهم ويخال أنهم من حزبهم[4] حتى إذا استراحوا ركبوا خيولهم وصاحوا ووضعوا السيف في أعدائهم راكبين أكتافهم من ورائهم ، فقتلوهم قتلاً

(١) الاست : جمع أستاه ومصغرها ستيهة : العجز . ويستعار للدهر ، فيقال است الدهر واسُّه ويراد به قدمه ووجهه .. ويقال تركته باست الأرض أي عديماً فقيراً لا شيء عنده .
(٢) دَرْبَند : هو باب الأبواب .
(٣) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وإذا السعادة لاحظتك .
(٤) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أحزابهم .

ذريعاً[1] وغادروهم جريحاً وصريعاً ، وعمَّ الخطب المدلهم[2] ولم يعلم أحد البلاء كيف دهم . واتصل الخبر بالسلطان وقد خرج التلافي عن حيز الامكان ، فهرب إلى بلخ وقد سلخ من المملكة أي سلخ . وشرع تيمور في النهب والغارات والسلب . ثم ضبط الأثقال وجمع الأموال ولَمَّ رعاع الناس والمداره وأطاعوه وهم ما بين راضٍ وكاره . واستولى على ممالك ما وراء النهر . وتسلط على العباد بالغلبة والقهر ، وأخذ في ترتيب الجنود والعساكر واستخلاص الحصون والدساكر .

(١) القتل الذريع : السريع .
(٢) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة في حديثه عن تيمور (٢٥٧/١٢) (ثم قصده السلطان حسين ثانياً في عسكر عظيم حتى وصل إلى ضاغلغًا ، وهو موضع ضيق يسير الراكب فيه ساعة ، وفي وسطه باب إذا أغلق وأحمى لايقدر عليه أحد ، وحوله جبال عالية ، فَملَك العسكر فَمْ هذا الدَرْبَند من جهة سمرقند ، ووقف تيمور بمن معه على الطريق الآخر ، وفي ظن العسكر أنهم حصروه وضيّقوا عليه ، فتركهم ومضى في طريق مجهولة ، فسار ليلة في أوعار مشقة حتى أدركهم في السحر وقد شرعوا في تحميل أثقالهم ، على أن تيمور قد انهزم وهرب خوفاً منهم ، فأخذ تيمور يكيدهم بأن نزل هو ومن معه عن خيولهم وتركوها ترعى في تلك المروج وناموا كأنهم من جملة العسكر فمرّت بهم خيولهم وهم يظنون أنهم منهم قد قصدوا الراحة ، فلما تكامل مرور العسكر ركب تيمور بمن معه أقفيتهم ، وهم يصيحون وأيديهم تدقهم دقاً بالسيوف ، فاختبط الناس وانهزم السلطان حسين بمن معه ، حتى وصل إلى بلخ فاحتاط تمرلنك على ما كان معه ، ولَمَّ من بقي من العسكر عليه ، فعظم جمعه ، وكثر ماله ، واستولى على الممالك ، ولا زال حتى قبض على السلطان حسين بعد أن أمَّنَه وقتله ، فهذا أول عظمته .

ويقول ابن تغري بردي في رواية المنهل الصافي عن تيمور (واستولى على ممالك ما وراء النهر ورتب جنوداً ، وكتب إلى شيره علي نائب السلطان حسين بسمرقند بتسليمها له فمال إليه على أن تكون المملكة بينهما نصفين ، فاقتسما تلك الأعمال . ثم قدم عليه شيره علي ، فأكرمه ومضى على ما وافقه عليه ثم سار يريد بلخشان فتلقاه ملكها بالهدايا والتحف وأمده بعسكر ومضى معه إلى بلخ فنزل عليها وحصرها وبها السلطان حسين إلى أن ضعف حاله وسَلَّم نفسه فقبض عليه وردّ صاحب بلخشان إلى عمله مكرماً مبجلاً . ثم عاد إلى سمرقند ومعه السلطان حسين فنزلها واتخذها دار ملكه ، ثم قتل السلطان حسين وأقام عوضه رجلاً من ذرية جنكيز خان يقال له ضرغتمش وجعله السلطان ، ولم يجعل له شيئاً من الأمر) هامش (١) على النجوم الزاهرة ٢٥٨/١٢ .

وكان نائب سمرقند وأحد الأركان شخصاً يدعى علي شير من جهة السلطان ، فكاتبه تيمور على أن تكون الممالك بينهما نصفين ويكون معه على السلطان حسين . فرضي علي شير بذلك . وقاسمه الولايات والممالك ، وتوجه إليه وتمثل بين يديه ، فزاد في إكرامه وبالغ في احترامه .

ذكر توجهه إلى بلخشان واستنصاره بمن فيها على السلطان

ثم إنه ترك علي شير بعدما ركن إليه وقصد بلخشان ، فاستقبله مَلِكاها وتمثَّلا بين يديه وأتحفاه بالهدايا والخدم وأمدَّاه بالجيوش والحشم ، فسار وهما معه من بلخشان قاصدين بلخ لمحاصرة السلطان[1]، فتحصَّن منهم ، فأحاطوا به من كل مكان ، فأخرج أولادهما الذين كانوا عنده في الرهان فضرب أعناقهم بمرأى من أبويهم ، ولم يرق لهم ولا مَنَّ عليهم .

ثم إنه ضعف حاله وقلَّ عنه خيله ورجاله ، فنزل مُستسلماً للقضاء والقدر راضياً بما ذهب في قضاء الله بما حَلا ومرّ ، فقبض عليه تيمور وضبط الأمور ثم ردَّ أميري بلخشان إليها مُكرَّمين . وتوجه إلى سمرقند ومعه السلطان حسين . وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين ، بعدما خلا من الهجرة سبعمائة سنين .

ووصل إلى سمرقند واتخذها دار ملكه ، وشرع في تمهيد قواعد الملك ونظمها في نظام سياسته وسلكه ، ثم إنه قتل السلطان . وأقام من جهته شخصاً يدعى سيُورْغاتمش[2] من ذرية جنكيز خان .

وقبيلة جنكيز خان هم المتفردون باسم الخان والسلطان لأنهم قريش[3] الترك ، لا

(١) السلطان حسين تراجع الصفحات السابقة .

(٢) في رواية المنهل الصافي عند ابن تغري بردي ذكر أنه صرغتمش هامش (١) في النجوم الزاهرة ٢٥٨/١٢ هو الأمير « سيورغتمش » بن دانشماندجة . وكان والده دانشماندجة قد رفع إلى العرش ليلعب دور الخان الدمية نفسه في أيام الأمير قازغن عام ٧٤٧هـ = ١٣٤٦م . (شهاب ص ١٦٦) .

(٣) قريش كانت سيدة قبائل العرب ومنها كان النبي محمد ﷺ ثم أصبحت الخلافة بعد النبي في قريش .

يقدر أحد أن يتقدم عليهم ولا تمكَّن أحد من انتزاع ذلك الشرف من يديهم . ولو قدر أحد على ذلك لكان تيمور الذي استخلص الممالك وسلك المسالك . فرفع سيُورْغاتمش دفعاً للمطاعن وقطعاً للسان سنان كل طاعن . وإنما لقب تيمور : الأمير الكبير ، وإن كان في أسره كل آمر منهم ومأمور[1] والخان في أسره كالحمار في الطين وشبيه الخلفاء بالنسبة في هذا الزمان إلى السلاطين[2] .

واستمر علي شير نائباً في سمرقند فكان يكرمه . ويستشيره في أموره ويقدمه

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وإن كان في أمره كل مأمور منهم وأمير .

(٢) حين احتل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله اخر الخلفاء العباسيين في بغداد ، بقي العالم الإسلامي بدون خليفة حتى رجب سنة ٦٥٩ هـ حين حضر من بغداد إلى مصر شخص من ذرية بني العباس يقال له الإمام أحمد وهو ابن الخليفة المستنصر بالله ابن الخليفة الناصر لدين الله ابن الخليفة المنتصر بالله العباسي . فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس سلطان المماليك قدومه خرج إلى تلقيه وزينت له القاهرة وكانت الخلافة شاغرة يقول ابن إياس صاحب بدائع الزهور (١٠١/١) (فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الا أشهر فأمر الملك الظاهر بعقد مجلس في قاعة الأعمدة وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الأولياء وسائر الأمراء وأرباب الدولة ... فلما ثبت نسب الإمام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ثم ان الإمام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة ... وأثنى على فضل الملك الظاهر الذي ردَّ الخلافة لبني العباس ... ثم إن السلطان أخذ في أسباب تجهيز الإمام أحمد وعوده إلى بغداد ... وسار الإمام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية فلما وصل إلى الفرات ... هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا به فما نجا منهم الامن طال عمره ... وأما الإمام أحمد فلم يُعلم له خبر ولا وقف له على أثر ...)

ويقول ابن اياس (١٠٢/١) (ثم دخلت سنة ستين وستمائة فيها جاءت الأخبار بأن شخصاً من ذرية بني العباس يقال له الإمام أحمد أيضاً قد وصل إلى الديار المصرية فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج إلى تلقيه ... فعقد له الملك الظاهر مجلساً ثانياً وجمع فيه القضاة وفعل به كما فعل أولاً ... هذا الإمام أحمد هو ابن علي بن أبي بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر ابن الخليفة المقتدي ابن محمد الذخيره العباسي الهاشمي فثبت ذلك على يد قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وحكم بصحة ذلك ثم ان القضاة بايعوا الإمام أحمد بالخلافة ولقبوه الحاكم بأمر الله وثبت نسبه وتولى في ذلك المجلس الخلافة . ثم ان الإمام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانياً وبايع أعيان الدولة على قدر ←

ذكر وثوب توقتاميش خان سلطان الدشت وتركستان

ثم إن توقتاميش[1] خان سلطان الدشت والتتار لما رأى ماجرى بين تيمور والسلطان حسين[2] فارَ دم قلبه وغار ، وذلك لعلّة النَّسب وَالجوار[3] وهَيَّأ العسكر الجرّار والجيش الزخار وتوجه إلى مصاف تيمور من جهة سغناق[4] وانزار ، فخرج اليه تيمور من سمرقند ، وتلاقيا بأطراف تركستان قريباً من نهر خجند . وهو نهر سيحون . وسمرقند بين نهري سيحون وجيحون[5] . فقامت بين العسكرين سوق

طبقاتهم ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها وينقش على الدنانير والدراهم اسمهما وان يقدم اسم الخليفة في الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ... ورتب له ما يكفيه في كل يوم هو وعياله وأمره بأن يصعد إلى القلعة في أول كل شهر ويهنيء السلطان بالشهر فهو أول خلفاء بني العباس بمصر وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد إلى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس وهذا من جملة فضائله ..) .

ويقول ابن اياس في حوادث سنة ٩٠١ هـ (فيها توفي الخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله وكانت وفاته في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعمائة ... وأقام في الخلافة نيفاً وأربعين سنة وهو أول خلفاء بني العباس بمصر).

وكان سلاطين المماليك يعزلون الخليفة متى أرادوا وليس له من السلطة سوى الاسم حتى قدم السلطان العثماني سليم فاتحاً إلى القاهرة بعد أن قضى على دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م وأخذ معه إلى إستانبول آخر خلفاء بني العباس في القاهرة وهو المتوكل على الله . وأصبح السلطان العثماني خليفة المسلمين .

وقد شبه ابن عرب شاه سيورغتمش ثم ابنه محمود من بعده حالهما بحال الخلفاء العباسيين المعاصرين لابن عرب شاه مع سلاطين المماليك . فلم يكونا يتمتعان بأي سلطات حقيقية وكانا عند تيمور كالأسيرين .

(١) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢٥٨/١٢) (تقتمش) وفي المنهل الصافي « تقتميش ».

(٢) لم يرد اسم حسين في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

(٣) وردت في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : لعلة النسب وسبب الجوار .

(٤) سغناق : مدينة في ما وراء النهر ، وهي في روسية حالياً

(٥) نهري سيحون وجيحون (سيرداريا وآمودايا) من أشهر أنهار بلاد ما وراء النهر .

المحاربة ولم ينفق بينهم فيها سوى معاملات المضاربة ، ولا زالت رحى الحرب تدور إلى أن انطحن عسكر تيمور ، فبينا عسكره قد فَلّ وعقد جنوده انحلّ واذا برجل يقال له السيد بركة قد أقبل فقال له تيمور وهو في غاية الضرر : ياسيدي السيد جيشي انكسر ، فقال له السيد : لاتخف . ثم نزل السيد عن فرسه ووقف وأخذ كَفًّا من الحصباء وركب فرسه الشهباء ونَفَخها في وجه عدوهم المردي وصاح بقوله « ياغي قاجدي[1] » فصرخ بها تيمور تابعاً ذلك الشيخ النجدي وكان عباسي الصوت[2] فكأنه دعى الإبل الظمأى بـ :جوت جوت[3] .

فعطفت عساكره عطفة البقر على أولادها ، وأخذت في المجالدة مع أضدادها وأندادها ولم يبق في عسكره من جذع ولاقارح الا وهو بقوله[4] (ياغي قاجدي) صائح ، ثم إنهم كَرُّوا كَرَّة واحدة بهمة متعاقدة ونهمة متعاضدة

فرجع[5] جيش توقتاميش منهزمين وولُّوا على أعقابهم مدبرين ، فوضع عسكر تيمور فيهم السيوف وسقوهم بهذا الفتوح كاسات الحتوف[6] وغنموا الأموال والمواشي وأسروا أوساط الرؤوس والحواشي[7] .

وسيحون : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وحاء مهملة وآخره نون ، نهر كبير مشهور فيما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند ، يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل .

جيحون : بالفتح وهو اسم أعجمي : نهر كبير مشهور تصب فيه أنهار كثيرة يجمد في الشتاء فإذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل .

(١) يعني باللغة التركية العدو هرب أو العدو يهرب (النجوم الزاهرة ٢٥٨/١٢) .

(٢) يقصد به أنه جهوري الصوت تشبيهاً بصوت عم الرسول العباس بن عبد المطلب .

(٣) جوت جوت ـــ مثلثة الآخر ـــ دعاء للابل إلى الماء .

(٤) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : إلا وهو يقول .

(٥) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : فتراجع .

(٦) الحتف : الموت .

(٧) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢٥٨/١٢ عن بداية عظمة تيمور لنك (والثانية واقعته مع تقتمش خان ملك التتار ، فإنه لما واقعه بأطراف تركستان قريباً من نهر خُجند ، واشتدت الحرب بينهما وكثرت القتلى في عسكر تيمور حتى كادت تفنى وعزم تيمور على الهزيمة ، فإذا هو بالمعتقَد السيد شريف بركة قد أقبل على تيمور ، فقال له تيمور وقد جهده البلاء : ياسيدي جيشي انكسر ، فقال له السيد الشريف بركة المذكور : لا

ثم رجع تيمور إلى سمرقند وقد ضبط أمور تركستان وبلاد نهر خجند وعظم لديه السيد بركة[1] وحَكَّمه في جميع ما استولى عليه وملكه .

وهذا السيد اختلف القول فيه فمن قائل : إنه كان مغربياً بمصر حجاما فذهب إلى سمرقند وَتسيَّد بها وعلا قدره وتسامى ، ومن قائل : أنه كان من أهل المدينة الشريفة ، ومنهم من يقول : إنه من أهل مكة المنيفة ، وعلى كل حال فإنه كان من أكبر الأعيان في بلاد ما وراء النهر وخراسان ، ولا سيما وقد أمدَّ تيمور بهذه النجدة

تخف ، ثم نزل عن فرسه وتناول كفاً من الحصى ثم ركب فرسه ورمى بها في وجوه جيش تقتمش وصرخ قائلاً بأعلى صوته « ياغي قجتي » يعني باللغة التركية العدو هرب ، فصرخ بها أيضاً تيمور كمقالة الشريف بركة فامتلأت آذان التمرية بصرختهما وأتوه بأجمعهم بعد ما كانوا ولّوا هاربين ، فكَرَّ بهم تيمور ثانياً في عسكر تقتمش خان وركبت التمرية أقفيتهم وغنموا منهم من الأموال ما لا يدخل تحت حصر ، فاستولى على غالب بلاد تقتمش خان).

(١) يقول ابن العماد الحنبلي صاحب شذرات الذهب (٤٣/٧) في حوادث سنة ٨٠٤ وفيها توفي (بركة السيد الشريف المعتَقَد المعروف بالشريف بركة قال في المنهل الصافي كان لتيمور فيه إعتقاد كثير إلى الغاية وله معه مجريات من ذلك : أن تيمور لما أخذ السلطان حسين صاحب بلخ سنة إحدى وسبعين وسبعمائة ثم سار لحرب القان تقتمش ملك التتار وتلاقيا على أطراف تركستان واشتد الحرب بينهما حتى قتل أكثر أصحاب تيمور . وهَمَّ تيمور بالفرار وظهرت الهزيمة على عسكره ووقف في حيرة وإذا بالسيد هذا قد أقبل على فرس فقال له تيمور : ياسيدي انظر حالي . فقال : لاتخف ثم نزل عن فرسه ووقف على رجليه يدعو ويتضرَّع ثم أخذ من الأرض ملء كفه من الحصباء . ورمى بها وجوه عسكر تقتمش خان وصرخ بأعلى صوته ياغي قجتي ومعناه باللغة التركية العدو هرب ، فصرخ بها معه تيمور وعسكره وحمل بهم على القوم فانهزموا أقبح هزيمة وظفر تيمور بعساكر تقتمش . وقتل وأَسَرَ على عادته القبيحة وله معه أشياء من هذا النمط . ولهذا كانت منزلته عند تيمور إلى الغاية وبقي معه إلى أن قدم دمشق سنة ثلاث وثمانمائة . وقد اختلف في أصل هذا الشريف فقيل أنه كان مغربياً حجاماً بالقاهرة ثم سافر إلى سمرقند وادعى أنه شريف علوي . وقيل أنه من أهل المدينة المنورة وقيل من أهل مكة . وعلى كل حال فأنا لا أعتقد عليه لمصاحبته واعانته لتيمور على اغراضه الكفرية فأمره إلى الله تعالى . إنتهى باختصار (شذرات الذهب ٤٣/٧).

وخلصه بهذه اللطيفة المصادفة للقضاء والقدر في هذه الشدة ، فقال تيمور : تَمنَّ علي واحتكم لديّ ، فقال له : يامولانا الأمير إن أوقاف الحرمين الشريفين في الأقاليم كثير ومن جملة ذلك (اندخوى) من ممالك خراسان ، وأنا وأولادي من جملة مستحقي ذلك الاحسان وإذا أقيم أصل ذلك وخصمه وعُلم قضمه وخضمه[1] وضبطت أوقافه ومصارف ذلك وصرافه ، ماكانت حصتي وحصة أولادي أقل من هذه القصبة في هذا الوادي فأقطعني إياها ، فأقطعه إياهامع مُضافاتها وأعمالها وقراها ، وهي إلى الآن في يد أولاده[2] . وأسباطه وأحفاده .

ذكر علي شير مع تيمور وما وقع بينهما من المخالفة والشرور

ثم ان تيمور وقع بينه وبين علي شير[3] مخالفة ، وانحاز إلى كل منهما طائفة فاغتاله تيمور وختله ، ثم قبض عليه وقتله ، فصفت الولايات والممالك لتيمور بعض الصفا ، وهرول إلى طاعته من الناس كل وجه ورأس كانافي التأبي وقفا .

---

(١) القضم : الأكل بأطراف الاسنان والخضم الأكل بجميع الفم .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بني أولاده .

(٣) يقول ابن تغري بردي عن واقعة تيمور مع علي شير (والثالثة واقعته مع شيره علي صاحب مَازَنْدان وكيلان وبلاد الري والعراق وكسره وقبض عليه وقتله وملك جميع بلاده) (النجوم الزاهرة ٢٥٩/١٢). وكانت بلاد علي شير التي استولى عليها تيمور هي : مَازَنْدان : اسم لولاية طبرستان (معجم البلدان ٣٦٣/٧) .

ـــ كيلان : تسمى أيضاً الجيل وجيلان . وكيلان من جهة الغرب شيىء من أذربيجان وبعض بلاد الري ويحيط بها من جهة الجنوب قزوين وجزء من أذربيجان وبعض الري . ويحيط بهما من جهة الشرق بقية بلاد الري وطبرستان . ويحيط بهما من الشمال بحر الخزر ، وهي غربي طبرستان (تقويم البلدان ص ٤٢٦) .

ـــ الري : كانت مدينة عظيمة ببلاد الجبال إسمها القديم راغة ، ومنه إشتق الاسم العربي . وهي حالياً أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران تعرف باسم مشهد عبد العظيم . (فهرست معجم الخريطة التاريخية ٥١) .

ذكر ما جرى لدُعَّار سمرقند والشطار مع تيمور وكيف أحلَّهم دار البوار

وكان في سمرقند[1] طائفة من الدعار[2] كثيرون وهم أنواع ، فمنهم : مصارعون ومنافقون وملاكمون ومعالجون ، وهم فيما بينهم فرقتان كالقيس واليمن[3] : والعداوة والمقاتلة بينهم قائمة على مرّ الزمن ، ولكل طائفة منهم رؤس . وظهور وأعضا وضروس .

وكان تيمور مع أُبهته يخافهم لما كان يظهر له عنادهم وخلافهم . فكان إذا قد جانبا أقام له في سمرقند نائبا . فاذا بَعُدَ عن المدينة خرج من تلك الجماعة طائف فخلعوا النائب أو خرجوا مع النائب وأظهروا المخالفة فما يرجع تيمور الا وقد انفرط[4]

(١) بفتح أوله وثانيه ويقال لها سُمران : بلد معروف مشهور ، قيل : إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة الصُّغد مبنية على جنوبي وادي الصُّغد مرتفعة عليه .

وقد اتخذ تيمور سمرقند عاصمة له ، وهذا ما دفعه إلى الاهتمام بالمدينة . فمن الناحية العمرانية أمر في هذه الحقبة ببناء مسجد كبير فيها ، ورباط للزهاد ينقطعون فيه للعبادة . وقد هدف تيمور من أعماله في المدينة إزالة ما حلَّ بها من خراب خلال حوادث الصراع مع المغول .

ويتحدث ابن عربشاه عن قمع تيمور لمجموعات الدعار والمصارعين الملاكمين الذين كانوا يقيمون في سمرقند . وكان هؤلاء حزبين متنافسين . وكثيراً ما كانت تقع المصادمات بينهما ، ولا سيما عندما يكون تيمور خارج سمرقند . ويقول إن مشاغبات هؤلاء وثوراتهم قد تكررت في المدينة مرات عديدة ، مما اضطر تيمور للتفكير للتخلص منهم . ولذلك دعا إلى حفل عام يقام في المدينة حضره السكان ، وكان من جملة من حضر : هؤلاء الملاكمون الذين كان يستدعي كل واحد منهم على حدة ، بحجة الانعام عليه ، ثم يرسل به إلى ناحية معينة وهناك كان يتلقاه أنصار تيمور ويعملون على قتله على الفور (شهاب ١٧٠).

(٢) من دَعَرَ : فَجَرَ وفَسَدَ وخَبُثُ وفَسَقَ ، فهو داعر . ودعار جمع دُعَّار .

(٣) كذا وصوابه : القيسية واليمانية ، ويشبه هاتين الفرقتين مثل القيسية واليمانية والصراع الذي كان بينهما في بلاد الشام .

(٤) ورد في إحدى النسخ : انفرد .

نظامه وتخبطت أموره وتشوش مقامه فيحتاج إلى تجديد تمهيد[1] وتخريب وتشييد فيقتل ويعزل ويعطي ويجزل ثم يتوجه لتمهيد ممالكه وتوطيد مسالكه فيعودون إلى عكرهم[2] ويثوبون إلى ختلهم ومكرهم ، وتكررت هذه القضية نحواً من تسع مرار .

فَضَاقَ تيمور ذرعاً بالاشرار والدعار فأعمل الحيلة في اغتيالهم ، وكف أذاهم واستئصالهم ، فصنع سورا ودعا اليه الخلائق كبيرا وصغيرا وصنّف الناس أصنافاً ، وجعل كل ذي عمل إلى عامله مضافا وميز أولئك الدعار مع رؤسائهم على حدة ، وفعل معهم ما فعله أنوشروان بن كيقباد بالملاحدة ، وأرصد له في أحد الأطراف أنصارا وقرر معهم أن كل من أرسله اليهم يولونه دمارا ، ويكون إرساله اليهم على قتله شعارا ، ثم إنه جعل يدعو رؤس الناس ويسقيهم بيده الكاس ويخلع عليهم أفخر اللباس ، واذا أفضت النوبة من أولئك الدعار إلى أحد سقاهُ كأسه وخلع عليه وأشار أن يتوجه به إلى نحو الرصد ، فاذا وصل إليهم خلعوا عنه خلعته بل وَثَوْب الحياة فهتكوه وسكبوا عسجد[3] قالبه في بوتقة الفناء فسبكوه . إلى أن أتى على آخرهم واستوفى بذلك قطع دابرهم ، ومَحَا آثارهم ، وأَطْفأ نارهم ، فصفت له المشارع وخلا ملكه من مجاذب ومنازع . ولم يبق له فيما وراء النهر ممانع ولا مدافع .

فصل في تفصيل ممالك سمرقند وما بين نهري بلخشان وخجند

فمن ذلك سمرقند وولاياتها وهي سبعة تومانات وَانْدكان وجهاتها وهي تسعة تومانات : والتومان . عبارة عما يخرج عشرة آلاف مقاتل وفيما وراء النهر من المدن المشهورة والأماكن المعتبرة المذكورة سمرقند ومُسَوَّرُها[4] قديماً على مازعموا اثنا عشر فرسخاً وكان ذلك على عهد السلطان جلال الدين قبل جنكيز خان .

ورأيت حد مسورها من جهة الغرب قصبة بناها تيمور وسماها : دمشق . ومسافتها عن سمرقند نحو من نصف يوم . والناس إلى الآن يحفرون سمرقند العتيقة

(١) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : تجديد وتمهيد .

(٢) أي إلى أعمالهم السيئة والشغب .

(٣) العسجد : الذهب .

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : سورها .

ويخرجون دراهم وفلوساً سِكَّتها بالخط الكوفي فيسبكون الفلوس ويخرجون منها فضة .

ومن مدن ما وراء النهر : مرغينان[1] وهي التخت التي كانت قديما . وبها كان إيلك خان . ومنها خرج الشيخ الجليل العلامة برهان الدين المرغيناني[2] صاحب الهداية رحمه الله، وَخُجَنْدُ[3] وهي على ساحل سيحون ، وترمذ[4] وهي على ساحل جيحون . وَنَخْشَبُ وهي قرشي المذكورة ، وكش ، وبخارى[5] وأندكان[6] وهي أماكن مشهورة وغير ذلك . ومن الولايات بلخشان ، وممالك خوارزم ، واقليم صَغَانيان[7] ، إلى غير ذلك من الأطراف الواسعة والأكناف الشاسعة . وفي عرفهم ما وراء النهر[8] إلى جهة الشرق : توران[9] وما كان في هذا الطرف إلى جهة الغرب : إيران .

---

(١) بالفتح ثم السكون وغين معجمة مكسورة وياء ساكنة ونون واخره نون أخرى ، بلدة في ما وراء النهر من أشهر البلاد من نواحي فرغانة . المعجم ١٠٨/٥ .

(٢) الشيخ علي بن أبي بكر بن عبد الجليل برهان الدين المرغيناني توفي سنة ٥٩٣ هـ (تاج التراجم ص ٤٢).

(٣) خجندة : بلدة مشهورة في ما وراء النهر على شاطىء نهر سيحون ، في وسطها نهر جار (معجم البلدان ج ٤٩٢/٣).

(٤) ترمذ : المتداول على لسان أهل تلك المدينة بفتح التاء وكسر الميم والذي كنَّا نعرفه قديماً بكسر التاء والميم جميعاً ، مدينة مشهورة من أمهات المدن ، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي . معجم متن اللغة ٢٦/٢ .

(٥) بُخارى : بالضم من أعظم مدن ما وراء النهر وهي حالياً في روسيا . معجم متن اللغة ٣٥٦/١ .

(٦) أندكان : بضم الدال المهملة ، وهي من قرى فرغانة . وأيضاً من قرى سرخس . معجم متن اللغة ٢٦٢/١ .

(٧) صغانيان : بالفتح وبعد الألف نون ثم ياء مثناة من تحت وآخره نون ، والعجم يبدلون الصاد جيماً فيقولون : جغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ . معجم متن اللغة ٤٠٨/٣ .
وردت في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : ما وراء جيحون .

(٨) توران : بالراء والألف والنون بلاد ما وراء النهر بأجمعها تسمى بذلك ، ويقال

(٩) لملكها : توران شاه . معجم متن اللغة ٥٧/٢ .

ولما اقتسم كيكاوس وافراسياب البلاد[1] كانت توران لافراسياب ، وإيران لكيكاوس بن كيقباد ، وعراق هو معرب إيران .

(فصل في)[1] ذكر ابتداء ما فعله من التسلط بالقهر بعد استصفائه ممالك ما وراء النهر

ولما صَفتْ له ممالك ما وراء النهر وذلَّت لأوامره جوامح الدهر ، شرع في استخلاص البلاد واسترقاق العباد وجعل ينسج بأنامل الحيل الأشراك ، والأوهاق ، ليصطاد بذلك ملوك الأقاليم وسلاطين الآفاق[3] فأول ما صاهر المغول وصافاهم وهادنهم وهاداهم . وتزوج ببنت قمر الدين[4] ملكهم ، وصار آمناً من تُبَعَتِهم ودَرَكهم ، وهم جيرانه من جهة الشرق ولا تباين بينه وبينهم ولا فرق ، إذ العلة وهي الجنسية والمصاهرة والمجاورة حاصلة للجهتين ، والمِلّة هي التوراة الجنكيز خانية مُمَشَّاة في كلتا الدولتين ، فَأَمِن شرهم . وكُفِي كيدهم وضرّهم .

---

(١) ملوك الفرس يراجع كتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم لأبي منصور الثعالبي ص ١١١ ففيه اختلاف عن هذا .

(٢) ما بين القوسين لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

(٣) امتدت أعمال تيمور العسكرية على مساحات واسعة بين دمشق وازمير والفولغا في الغرب ، إلى نهر الغانج وأواسط آسية في الشرق . واستغرقت القسم الاكبر من حياته بعد وصوله إلى الحكم ولم يكن في حروبه يجني سوى السلب والنهب والتخريب والقتل العام . وقد فاق في هذا المجال جنكيز خان . وكان هدفه ورغبته السيطرة على العالم : تلك الفكرة التي انحدرت إليه من الفاتح المغولي جنكيز خان لذلك فقد كان يرى أن أي عمل حربي يقوم به إنما يخدم تلك الفكرة الرئيسية وهي فكرة السيطرة على العالم . وقد نُسب إليه القول الذي قاله الإسكندر المكدوني من قبل « إن العالم كله لايستحق أن يملكه حاكمان » شهاب ص ١٨٣ .

(٤) كانت الأوضاع في خانية جغتاي الشرقية ، قد تبدلت خلال المرحلة التي كانت الأحداث في ما وراء النهر ، تنجلي عن استقرار تيمور في منصب السلطة العليا . وقد استطاع أحد أفراد قبيلة « دوغلات » ويدعى « قمر الدين » أن يستأثر بالحكم لنفسه وأن يحمل لقب الخان : بعد أن قتل الخان الشرعي الياس خواجا بن تغلق تيمور خان عام ←

ذكر تصميمه العزم وقصده جمع الأطراف وأولاً ممالك خوارزم

فحين أَمِنَ مكرهم وسدَّ بالمصالحة ثغرهم صَمَّمَ العزم على التوجه إلى ممالك خوارزم . وهم مجاوروه غرباً بشام . ومباينوه بتمشية قواعِد الاسلام . وتختهم مدينة جُرجان[1]وهي من أعظم البلدان . وهذه المملكة ذات مدن عظيمة وولايات جسيمة ، تختها مجمع الفضلاء ومحط رحال العلماء ومقر الظرفاء والشعراء ومورد الأدباء والكبراء ومعدن جبال الاعتزال وينبوع بحار أهل التحقيق من أرباب الهدى والضلال ، نِعَمها كثيرة وخيراتها غزيرة ، ووجوه فضائلها مستنيرة ، واسم سلطانها حسين صوفي[2] وهو من الاعتقادات الباطلة قد عوفي ، ومدن ما وراء النهر وضع بعضها قريب من بعض لأنها كلها مبنية باللبن والآجرّ على الأرض

وأهل خوارزم كأهل سمرقند في اللطافة وأفضل من أهل سمرقند في الحشمة والظرافة يتعانون المشاعرة والأدب ، ولهم في فنون الفضل ، والمحاسن أشياء عجب ، خصوصاً

---

٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م . وكان لقبيلة دوغلات المغولية المتتركة دور كبير في تسيير الأمور في خانية جغتاي الشرقية . وقد حاول تيمور التخلص من قمر الدين فقد لاحقه إلى مناطق بعيدة في وسط آسية ، فبلغ ضفاف بحيرة « آيسيق كول » وشواطىء نهر « ايلي ». ولكن تيمور لم يحصل من عدوه قمر الدين في تلك المرحلة من الحروب سوى أن يتزوج من إحدى بناته (شهاب ١٧٧).

(١) جُرجان : بلدة تاريخية من أعمال مازندران في بلاد العجم لها شأن كبير في التاريخ العلمي الإسلامي ونبغ منها طائفة من العلماء ، وقد أفل نجم جرجان من وقت طويل فبقيت بلدة لا أهمية لها ــ من تاريخ جرجان للسهمي ــ طبع بيروت ١٩٨١ .

(٢) كانت السيطرة على خوارزم مسألة أساسية بالنسبة لتيمور ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبرون أن حكم ما وراء النهر لم ينتظم ولم يستقر إلا منذ أن أخضع هذه المنطقة لحكمه . وكانت تحكم خوارزم في تلك الآونه أسرة آل صوفي . التي تنتمي إلى قبيلة مغولية متتركة هي قبيلة غوتكرات . ومؤسس الأسرة هو حسين صوفي الذي وصل إلى حكم خوارزم سنة ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م خلال الفترة التي كانت ما وراء النهر تعاني من وطأة الاحتلال المغولي . وكانت أسرة آل صوفي تتمثل المدنية الإسلامية أكبر مما كان عليه الحال لدى الأتراك الجغتائيين في ما وراء النهر . وكان تيمور وأتباعه الأتراك الجغتائيين ــ ينظر إليهم سكان خوارزم على أنهم وثنيون (شهاب ١٧٢ ــ ١٧٣) .

في معرفة الموسيقى والأنغام ، ويشترك في ذلك منهم الخاص والعام ، ومما هو مشهور عنهم أن الطفل في المهد منهم إذا بكى أو قال آه فان ذلك يكون في شعبة دوكاه .

فلما وصل تيمور إلى خوارزم كان حسين صوفي غائباً عنها ، فنهب حواليها وما وصلت يده اليه منها ولم يقدر عليها ، فلم يكترث بها ولا التفت إليها ، ثم لَمَّ أطراف حاشيته . وعاد إلى مملكته[1].

ذكر عوده ثانياً الى خوارزم

ثم إنه شدّ حزام الحزم . وكر ثانياً الى خوارزم[2] باستعداد تام وجيش طام . وكان سلطانها أيضاً غائبا وأقام لجميلة بكرها خاطبا[3]، فحاصرها وضاجرها وشدد على أعناق مسالكها التلابيب وكاد أن يتشبَّث بأذيالها منه المخاليب . فخرج اليه رجل من أعيانها وكان تاجرا وله قدم صدق عند سلطانها يقال له : حسن سوريج ، والتمس أن

---

(١) وهي الحملة الأولى على خوارزم سنة ٧٧٣ هـ = ١٣٧٢ م ونجح تيمور في الاستيلاء على عديد من مدن خوارزم ودارت بالقرب من العاصمة معركة شديدة كانت الهزيمة من نصيب أهل خوارزم ومات حسين إثر الهزيمة فأسرع شقيقه يوسف صوفي الذي خلفه في الحكم إلى استرضاء تيمور الذي حكم خوارزم وكيلاً عن محمد بن جها نكير بن تيمور . ثم عاد تيمور إلى سمرقند (شهاب ١٧٣).

(٢) عاد تيمور الى خوارزم على رأس حملة ثانية في رمضان سنة ٧٧٤ هـ = ١٣٧٣ م وذلك بعد أن شعر بعدم اخلاص السلطان يوسف في تعهده . وعلى اثر وصول تيمور على رأس جيوشه إلى خوارزم فطلب يوسف الأمان وتم الاتفاق وعاد تيمور الى سمرقند .

(٣) كانت إحدى وسائل الاتفاق والتقرب من تيمور هو زواج الأميرة خان زاده ابنة أخ يوسف من ابن تيمور محمد جهانكير . وقد أرسل يوسف ابنة أخيه الأميرة خان زاده محملة بالهدايا إلى سمرقند كبرهان على عزمه على اتمام الزواج المقترح وتم عقد قران محمد جهانكير على الأميرة بمظاهر الشرف والتعظيم في سمرقند وفق أحكام الشريعة الاسلامية . وكان تيمور قد أرسل في شوال عام ٧٧٥ هـ ــ ١٣٧٤ م وفداً من ثلاثة أمراء محملين بالهدايا إلى خوارزم ، لمصاحبة الأميرة العروس إلى سمرقند، ولما اقترب موكب خان زاده من ضواحي سمرقند، كان عدد كبير من السيدات من قريبات تيمور ومعهن عدد كبير من الأمراء في استقبال الموكب . بناء على توجيهات من تيمور (شهاب ١٧٥).

يرفع عنهم ذلك الأمر المريج[1]. وأن يبذل له ما طلب في مقابلة مايريد من أسر وسلب فطلب منه حمل مائتي بغل فضة، ترفع الى خزائنه نضة. فلم يزل يراجعه ويلاطفه ويمانعه حتى صالحه على ربع سؤاله وأقام المصالح بذلك من ماله وصُلْب حاله، ووزن له ذلك في الحال وأخذ تيمور في الترحال. وكفّ عن الاذى شياطين جنده وعزم على التوجه الى سمرقنده.

ذكر مراسلته ملك غياث الدين سلطان هراة الذي خلصه من الصلب وراود فيه أباه

ثم إنه راسل سلطان هراة[2] ملك غياث الدين الذي كان مُغيثه عملا بقوله كتب الله على كل نفس خبيثة وطلب منه الدخول في ربقة الطاعة وحَمْل الخدم والتقادم اليه بحسب الاستطاعة والا قَصَد دياره وبَلغه دماره.

فأرسل ملك غياث الدين يقول صحبة الرسول: أما كنتَ خادماً لي وأحسنتُ اليك

(١) المريج: المضطرب.

(٢) انصرف تيمور خلال المرحلة الأولى من حروبه في ايران بين عامي ٧٨٢ ــ ٧٨٦ هـ ــ ١٣٨٠ ــ ١٣٨٤ م للاستيلاء على القسم الشرقي من هذه البلاد. وكانت خطوة تيمور الأولى ــ في عالم التاجيك ــ نحو هيرات وضد حكامها آل كرت وكان الملك معز الدين حسين ألمع شخصيات أسرته الحاكمة وبعد موته سنة ٧٧١ هـ ــ ١٣٧٠ م تولى عرش هيرات ابنه غياث الدين بير علي الذي أرسل رسولاً إلى تيمور يعلمه بذلك وحمل اليه بهذه المناسبة الهدايا الكثيرة، وعاد رسوله من عند تيمور بالخلعة وبرسالة يعزيه فيها بوفاة والده ويهنئه بجلوسه على عرش هيرات.

وقد أورد ابن عرب شاه سوء العلاقة بين تيمور وغياث الدين، فقد أرسل تيمور الى غياث الدين يطالبه بالاقرار بالتبعية له، وبإرسال الأموال المترتبة عليه كتابع لسيد ما وراء النهر. وعلى الرغم مما كان لغياث الدين من فضل على تيمور عندما كان يهيم مشرداً في خراسان في حقبة سابقة من حياته. فقد حُمل تيمور جريحاً بعد فشل محاولته لسرقة غنمة من سجستان، إلى الملك معز الدين حسين، أمر بصلبه. ولكن غياث الدين بن الملك حسين طلب العفو له فأجيب على طلبه، وعولج من جراحه حتى شفي ثم دخل في خدمة غياث الدين (ابن عرب شاه ص ٩) وشهاب ١٨٦.

وأسبلت ذيل احساني ونعمتي عليك؟ فختلت وقتلت وفتكت وفتلت[1] وفعلت فعلتك التي فعلت، وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب، فان لم تكن انسانا تعرف الاحسان فكن كالكلب.

فَعَبر جيحون[2] وتوجه اليه فلم يكن لغياث الدين قوة الوقوف بين يديه، فأرسل الى حشمه وسكان قراه فاجتمعوا هم ومواشيهم حول هراة. وحفر خندقاً حول البساتين، محيطاً بالرعاع وضعفة المساكين، وحصر نفسه في القلعة، وحسب أن يكون له بذلك منعة، وذلك لركاكة رأيه أولا وآخراً وجمود قريحته وقلة عقله وانعكاس فكره ودولته.

قلت:

من لم يصادف سعده تقديره ... يخطفه في تدبيره تدميره

فلم يكترث تيمور له بقتال وحصار، ولكن أحاطت به العساكر دائرا مادار. ومكث تيمور في الأمن والدعة، وعدوّه في الضيق بعد السّعة، فاضطربت الرؤوس والحواشي ومارت الانعام والمواشي، وغصّ البلد بالزحام، وهلكت الخواص والعوام، وأضناهم (الوصب وأنضاهم) السَّغب[3] وعلاهم الصراخ والصخب. فأرسل اليه السلطان يطلب منه الأمان وعلم أنه اختنق بسببه وأنه أعانه أولا فَبُلي به. فذكره سابقة العرفان وما أسداه اليه من احسان، وطلب منه تأكيد الأمان بالأَيْمان فحلف له تيمور أنه يحفظ له الذمام[4] القديم وأن لا يراق له دم ولا يمزق له أديم. فخرج اليه ودخل عليه وتمثل بين يديه فدخل تيمور الى المدينة وصعد الى قلعتها الحصينة وصحبته السلطان، وقد أحاطت به جنود هراة والأعوان. فأشار واحد من أبطال

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فللت.

(٢) لما عبر تيمور جيحون اتجه الى مرو حيث قدّم له الملك محمد حاكم سرخس، وشقيق غياث الدين خضوعه. وعلل تيمور قدومه بنفسه بازدياد غرور غياث الدين. وربط تيمور ــ على عادته ــ قدومه لاحتلال ايران بأهداف دينية، وقصد أن يظهر غياث الدين بمظهر الطاغية المكروه من رعيته، وأن تيمور قدم الى خراسان وقتاله لآل كرت، انما كان على طلب من رجال الدين في المنطقة (شهاب ١٨٦).

(٣) ما بين القوسين لا يوجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٤) الذمة والعهد.

صاحب هراة على السلطان أن يقتل تيمور ويجعل نفسه فداه وقال له ما معناه: أنا أفدي المسلمين بنفسي ومالي وأقتل هذا الأعرج ولا أبالي، فلم يجبه الى اشارته واستسلم لقضاء الله تعالى وارادته وقال: إن لله تعالى تصريفا في عباده ولا بدّ أن ينفذ فيهم سهم مراده. ولا مفرّ من القضا. ولا محيد[1] عما قدر الله وقضى.

واذا أتاك من الأمور مُقدّر وفررت منه فَنَحْوه تتوجه

وهذا سرّ لا بد من ظهوره فلا تبحث عن حقيقة أموره فَمَنْ غَالَب القضاء غُلِبْ ومن ناهب الزمان سُلب، ومن قاوى تيار المقدور غرق ومن استلذ بالغفلة في مشارب[2] اللهو شرق، وذكر عند ذلك الوقت[3] مقالة أبيه له واطلع على تحقيقه ولكن السهم خرج فما أمكن ردّه الى فوقه.

ذكر اجتماع ذلك الجافي بالشيخ زين الدين أبي بكر الخوافي

وكان في بعض قَدماته خراسان سمع أن في قصبة خواف[4] رجلا قد منحه الله تعالى الألطاف، عالماً عاملا كبيراً، فاضلا ذاكرامات ظاهرة وولايات باهرة وكلمات زاهرة ومقامات طاهرة ومكاشفات صادقة ومعاملات مع الله تعالى بالصدق ناطقة، يدعى الشيخ زين الدين أبا بكر[5]، الطائر اجتهاده في حظيرة القدس أعلى وكر. فقصد تيمور رؤيته وتوجه اليه وجماعته فقالوا للشيخ إن تيمور قادم عليك وواصل اليك يقصد رؤيتك ويرجو بركتك، فلم يفه[6] الشيخ بلفظة ولا رفع لذلك لحظه

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ولا مجير.
(٢) في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م :ومن استلذ بالغفلة مشارب اللهو.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وذكر في ذلك مقالة أبيه له.
(٤) خواف: من مدن خراسان ذكرها المؤرخون. بفتح أوله، وآخره فاء، قصبة كبيرة من أعمال نيسابور بخراسان.
(٥) الشيخ زين الدين أبو بكر تيابادي أحد كبار العلماء المتورعين وقد بذل لتيمور النصيحة وتذكر المذكرات التي أشارت إلى تلك المقابلة أن الشيخ زين الدين قد ذكر لتيمور أن الملائكة قد وضعت مفتاح خراسان في يده وقال له: سوف تخلّص هذه الامارة من طغيان السلطان غياث الدين (شهاب ١٨٧).
(٦) يتفوه.

فوصل تيمور اليه ونزل عن فرسه ودخل عليه، والشيخ مشغول بحاله على عادته، جالس في فكره على سجادته، فلما انتهى اليه قام الشيخ فاحدودب تيمور مُنكباً على رجليه، فوضع الشيخ على ظهره يديه، قال تيمور: لولا أن الشيخ رفع يديه عن ظهري بسرعة لخلته انرض[1] ولقد تصورت أن السماء وقعت على الأرض وأنا بينهما رُضِضْتُ أشد رضّ.

ثم إنه جلس بين يدي ذلك المنتخب على ركبتي الأدب، وقال له بالملاطفة في المحاورة على سبيل الاستفهام لا المناظرة:

يا سيدي الشيخ لِمَ لا تأمرون ملوككم بالعدل والانصاف وأن لا يميلوا الى الجور والاعتساف؟ فقال له الشيخ:

أَمَرْناهم وتقدمنا بذلك اليهم فلما يأتمروا فَسَلَّطانك عليهم[2] فخرج من فوره من عند الشيخ وقد قامت منه الحدبة وقال: ملكتُ الدنيا وربّ الكعبة، وهذا الشيخ هو الموعود بذكره، ثم إن تيمور قبض على ملك هراة واحتاط على ما ملكت يداه وضبط ولاياتها جانبا جانباً، وقرر لكل جانب نائبا. وتوجّه الى سمرقند قافلا بما أمكنه، وحبس السلطان في المغذنة[3] وأوصد عليه بابها ووكل بحفظه أصحابها وأضاف اليهم لشدة[4] الحفاظ الزبانية الشداد الغلاظ وذلك لحلفه أن لا يريق دمه وأن يحفظ له ذمه، فلم يرق له دماً ولكنه قتله في الحبس جوعاً وظما[5].

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : إنقضّ.
(٢) ويربط تيمور دوماً قدومه إلى هراة لأهداف دينية. فقد قدم تيمور إلى خراسان وقتاله غياث الدين بناء على طلب الشيخ زين الدين ورجال الدين في المنطقة (شهاب ١٨٧).
(٣) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وحبس السلطان في المدينة.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وأضاف إليهم أسدة الحفّاظ الزبانية الشداد...
(٥) لم يستطع غياث الدين مقاومة تيمورلنك الذي احتل هيرات في المحرم سنة ٧٨٣ هـ ـــ ١٣٨١ م ويفهم من كلام ابن عربشاه أن تيمور نقل غياث الدين مباشرة بعد احتلال المدينة أسيراً الى سمرقند وتشير المصادر التاريخية أن غياث الدين فرَّ الى مدينة مجاورة. ثم قبل اعتذار غياث الدين وعفى عنه وأعاده الى حكم مدينته. (شهاب ١٨٧).

ذكر عوده الى خراسان وتخريبه ولايات سجستان

ثم عاد الى خراسان[1] وقد عزم على الانتقام من سجستان[2] فخرج اليه أهلها طالبين الصلح والصلاح فأجابهم الى ذلك على أن يمدّوه بالسلاح فأخرجوا اليه ما عندهم من عدّة ورجوا بذلك الفرج من الشدة[3] فحلفهم وكتب عليهم قسامات بالغة أن مدينتهم غدت من السلاح فارغة، فلما تحقق ذلك منهم وضع السيف فيهم فأضاف بهم جنود المنايا عن بكرة أبيهم ثم خرّب المدينة فلم يبق بها شجر ولا مدر ومحاها فلم يَبِنْ لها عين ولا أثر، ورحل عنها وليس بها داع ولا مجيب، وما فعل ذلك بهم الا لأنه أولا منهم أصيب.

وذكر لي الشيخ الفقيه زين الدين عبد اللطيف بن محمد بن أبي الفتح الكرماني الحنفي نزيل دمشق بالمدرسة الجقمقية[4] في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة. أن الذين تخلصوا من القتل من أهل سجستان بهزيمة أو غيبة أو بنوع لطيفة من الله تعالى

---

(١) خراسان: اقليم من أكبر الأقاليم الفارسية (في ايران) صبح الأعشى ٣٨٩/٤، فهرس معجم الخريطة التاريخية ص ٤٢.

(٢) سجستان: هي سيستان. ذكرها الجغرافيون الذين كتبوا بالعربية. انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٤ و ٣٩٨ وقال عنها ياقوت أن عاصمتها « زرنج » وتقع جنوب هيرات على مسيرة عشرة أيام. انظر ياقوت الحموي ج ٣ ص ١٩٠.
وذكر سايكس الذي زار سجستان (سيستان) إن بعض آثار التخريب منذ أيام تيمور لا تزال باقية، وأضاف غروسيه أن بعثة للتنقيب الأثري زارت سيستان سنة ١٩٣٦ ولما عثرت على بقايا إحدى المدن القديمة وجدتها مغطاة بتلال من الرمال بسبب التدمير والتخريب الذي لحق بالموقع في عهد تيمور (شهاب ١٩٠).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: من تلك الشدة.

(٤) المدرسة الجقمقية: تنسب الى نائب السلطنة المملوكية سيف الدين جقمق الذي تولى حكم دمشق سنة ٨٢٢ هـ وعمّر هذه المدرسة وقتل سنة ٨٢٤ هـ (الدارس للنعيمي ٤٨٩/١) وتقع هذه المدرسة شمال الجامع الأموي والى الشرق من المدرسة الظاهرية وتربة صلاح الدين وهي الآن مقر لمتحف الخط العربي بدمشق.

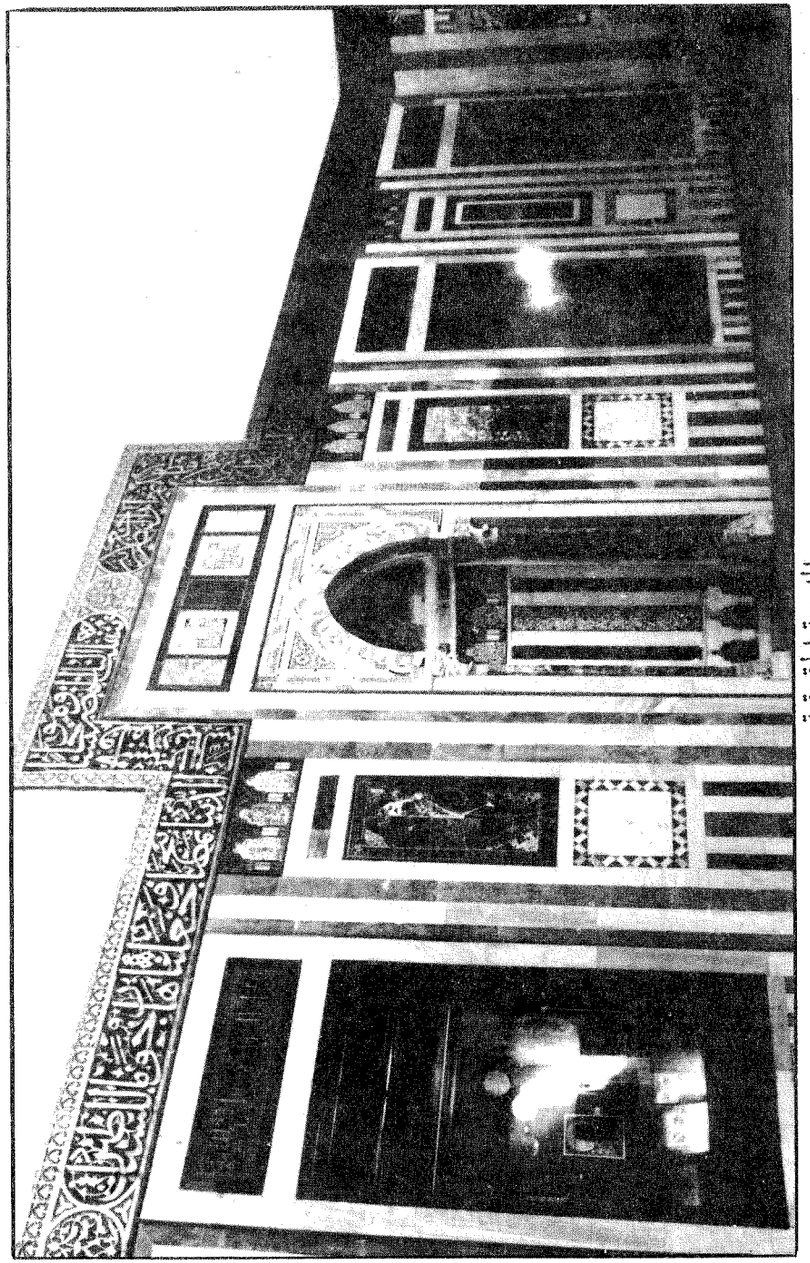

المدرسة الجقمقية

المنان[1]. لما تراجعوا اليها بعد رجوع تيمور عنها أرادوا أن يجمعوا[2] بها فأضلوا يوم الجمعة وما اهتدوا اليه، حتى أرسلوا الى كرمان من دلّهم عليه.

ذكر قصد ذلك الغدّار ممالك سبزوار وانقيادها اليه وقدوم واليها عليه

ثم لما أثار بسجستان ما أثار قصد بعساكره مدينة سبزوار[3]، وكان واليها يدعى حسن الجوري مستقلا بالامارة وهو رافضي، فما أمكنه الا الاطاعة واستقباله من الهدايا والخدم بما استطاعه، فَأَقَرّه على ولايته. وزاد في رعايته.

(**فصل**) — وكان من عادة تيمور وفكره[4] أنه كان في أول أمره اذا نزل بأحد مستضيفا استنسبه وحفظ اسمه ونسبه، وقال له: إذا بلغك أني استوليت وعلى الممالك استقليت، فأتني بعلامة كذا فإني أكافئك إذا، فلما انتشر ذكره وشاع أمره وفشا في الدنيا خَبَره وخُبْره[5] هرعت الناس بالعلائم اليه، ووفدت من كل فج عميق عليه وكان يُنْزِل كل أحد منزلته ويحله مرتبته.

ذكر ما جرى لذلك الداعر في سبزوار مع الشريف محمد رأس طائفة الدعار

وكان في مدينة سبزوار رجل شريف من الشطار يدعى السيد محمد السربدال،

(١) وردت كلمة المَنّان في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) أن يجمعوا بها: أن يُصَلّوا صلاة الجمعة في يوم الجمعة فلم يعرفوا يوم الجمعة من أيام الأسبوع.

(٣) وصل تيمور بجيوشه الى سبزاور في رمضان سنة ٧٨٥ هـ — ١٣٨٣ م. ولما اقتحم المدينة أوقع السيف في أهلها، وعمد الى تكديس ألفين من الأسرى الأحياء فوق بعضهم البعض ووضع بينهم الطين والآجر، وأقام من هذا الخليط أبراجاً، ليظهر سطوته لمن تسوس له نفسه بالثورة، والى أي حد يمكن أن يصل اليه انتقام تيمور في مثل هذه الحالات (شهاب ١٩٠).

(٤) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ومكره.

(٥) الخبر: بضم فسكون: العلم بالشيء.

معه جماعة من الرجال كلهم دُعّار يسمون السربدالية يعني الشطار[1]، وكان هذا السيد رجلا مشهورا بالمآثر والفضائل مذكورا، فقال تيمور: عليَّ به فإني ماجئت إلا بسببه، وقد كنت متشوفاً اليه ومتشوقاً لعلم ما لديه، فدعوه له فدخل عليه فقام اليه واعتنقه وقابله ببشرة منطلقة، وأكرمه وأدناه.

وقال في جملة فحواه: يا سيدي السيد قل لي كيف أستخلص ممالك خراسان وأحويها وأني أحوزها أقاصيها وأدانيها. وماذا أفعل حتى يتم لي هذا الأمر وأرتقي هذا المسلك الصعب الوعر؟ فقال له السيد: يامولانا الأمير أنا رجل فقير وقير[2]، من آل الرسول من أين أنا وهذا الفضول، وإني وان قيل لي شريف، رجل عاجز ضعيف لاطاقة لي بموارد الهلك، ومن أنا حتى أتشاوف لمصالح الملك، ومَنْ داخل الملوك أو خارجهم أو عَارضهم في أمورهم أو مازجهم كان كالعائم في مجمع البحرين، وكالجاثم في منتطح الكبشين، والخارج عن لغته لحان وشتان ما بين المأمون والطحان، فقال له لا بد أن تدلني على الطريقة وتخبرني عن المجاز الى هذه الحقيقة ولولا أنني تفرست فيك ذلك وتكهّنت أن برأيك تُقتدى المسالك، ولولا أنك أهل لهذه المعرفة ما فَهت[3] لك ببنت شفة، ولا استغنيت عنك استغناء التفه عن الرفه، فإن فراساتي أياسية[4] وقضاياي كلها قياسية.

فقال ذلك المشير: أيها الأمير أو تسمع في هذا مقالتي وتتبع اشارتي؟ فقال: ما استشرتك إلا لأتبعك ولا جاريتك إلا لأمشي معك. فقال: إن أردت أن يصفو لك المشرب وتنال الممالك من غير أن تتعب فعليك بخواجة علي بن المؤيد الطوسي قطب فَلَكْ هذه الممالك ومركز دائرة هذه المسالك فان أقبل عليك بظاهره لم يكن بباطنه الا معك وإن ولّى عنك بوجهه فلن يفيدك غيره ولن ينفعك. فكن على استجلاب خاطره وحضوره اليك أبلغ جاهد فإنه رجل صلب، وظاهره وباطنه واحد، وإن طاعة

(١) الشطّار: مفرده شاطر وهو من أعيا أهله ومؤدِّبه خبثاً ومكراً. وهو مأخوذ من شطر عنهم إذا بعد مراغماً.

(٢) الوقير: القطيع من الغنم أو صغارها، وفقير وقير: تشبيه بصغار الشاء.

(٣) ما تفوهت ولا تكلمت بكلمة.

(٤) نسبة الى اياس بن معاوية القاضي، وكان ذكياً ذا فراسة صادقة وتولى القضاء أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

الناس منوطة بطاعته وأفعال الكُلّ مربوطة باشارته. فما فَعل فَعلوا فإن حَطَّ حَطُّوا وإن رحل رحلوا.

وكان هذا الرجل أعني خواجه علي المذكور رجلا شيعياً. موالياً علياً[1] يضرب السّكة[2] باسم الاثنى عشر إماماً ويخطب بأسمائهم، وكان شهماً هماماً. ثم قال السيد: يا أمير ادع خواجه علي فان لبّى دعوتك وحضر حضرتك فلا تترك من أنواع الاحترام والتوقير، والاكرام والتكبير شيئاً إلا وأوْصِلْهُ إياه، فإنه يحفظ لك ذلك ويرعاه، وأنزله منزلة الملوك العظام في التعظيم والتوقير والاحترام ولا تدع معه شيئاً مما يليق بحشمتك فإن ذلك كله عائد الى حرمتك وعظمتك.

ثم خرج السيد من عند تيمور، وجهَّز قاصده الى الخواجة علي المذكور يقول له: إنه قد مهَّد له الأمور فإن جاءه قاصده فلا يتوقف عن الطاعة ولا يقعد عن التوجه اليه ولا ساعة، ويكون منشرح البال آمناً سطواته في الحال والمآل. فاستعدَّ خواجه علي لقدوم الوارد وورود القاصد، وهيَّأ الخدمات والتقادم والحمولات، وضرب باسمه واسم مُتَولّاه الدرهم والدينار، وخطب باسمهما في جوامع الأمصار وقعد لأمره منجزاً وأقام للطلب مستوفزا. واذا بقاصد تيمور جاء منه بكتاب فيه من ألطف كلام وألين خطاب يستدعيه مع انشراح الصدر وتوفير التوقير وتكثير البرّ فنهض من ساعته ملبياً بلسان طاعته ولم يلبث غير مسافة الطريق وقدم بأمل فسيح وعهد وثيق، فلما أخبروه بوفوده جهَّز لاستقباله أساورة جنوده وسُرَّ سرورا شديدا وكأنه استأنف مُلكاً جديدا، فلما وصل قدَّم هدايا فاخرة وتحفاً متكاثرة وطرائف ملوكية وذخائر كسروية فعظَّمه تعظيماً بالغاً وأولاه إنعاماً سائغاً وأسبل على قامة رجائه من خلع اعزازه وإكرامه ذيلا سابغاً واستمرّ به على ولايته وزاد في برّه وكرامته.

فلم يبق في خراسان أمير مدينة. ولا نائب قلعة مكينة ولا من يُشار اليه إلا وقَصَد تيمور وأقبل عليه، فمن أكابرهم: أمير محمد حاكم بَاوَرْد[3] وأمير عبد الله حاكم

(١) من الموالين للامام علي بن أبي طالب.
(٢) من سك النقود والدراهم فينقش عليه أسماء أئمة الشيعة الاثنى عشر.
(٣) باورد: بفتح الواو وسكون الراء، وهي أبيورد: بلد بخراسان بين سرخس ونسا.

سرخس[1]، وانتشرت هيبته في الآفاق وبلغت سطوته مازندران[2] وكيلان[3] وبلاد الري[4] والعراق، وامتلأت منه القلوب والاسماع وخافه القريب والبعيد وعلى الخصوص شاه شجاع. وكل هذا في مدة قصيرة وأيام قلائل يسيرة، نحوا من سنتين. بعد قتله السلطان حسين.

ذكر مراسلة ذلك الشجاع سلطان عراق العجم أبا الفوارس شاه شجاع

ولما صَفَتْ له بلاد خراسان وأذعن لطاعته كل قاص ودان، راسَل شاه شجاع سلطان شيراز[5] وعراق[6] العجم يطلب منه الطاعة والانقياد وارسال الأموال والخدم. ومن جملة كتابه وفحوى خطابه: إن الله تعالى سلطني عليكم وعلى ظَلمة[7] الحكام والجائرين من ملوك الأنام ورفعني على من باراني[8] ونصرني على من خالفني وعاداني، وقد رأيتَ وسمعت فإن أجبتَ وأطعت فبها ونعمت والا فاعلم أن في

(١) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الخاء المعجمة وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومَرو.
(٢) مازندران: بعد الزاي نون ساكنة، ودال مهملة وراء وآخره نون: اسم لولاية طبرستان (معجم البلدان ٣٦٣/٧).
(٣) كيلان: وتسمى جيلان. وهي من جهة الغرب شيء من أذربيجان وبعض بلاد الري وهي غربي طبرستان (تقويم البلدان ص ٤٢٦).
(٤) كانت بلاد واسعة اسمها القديم راغة وتوجد أطلالها على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران تعرف باسم مشهد عبد العظيم (فهرست معجم الخريطة التاريخية ٥١).
(٥) شيزار: مدينة في بلاد فارس جنوباً. وكانت قاعدة عماد الدولة بن بويه. وفيها قبر سيبويه (صبح الأعشى ٣٤٤/٤) فهرست معجم الخريطة ٦٥.
(٦) يذكر المؤرخون العراقين عراق العرب وعراق العجم. وعراق العرب وعاصمتها بغداد، وعراق العجم، وهي بلاد الجبل. ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ويحيط بها من جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ويحيط بها من جهة الشمال بلاد الديلم وقزوين (تقويم البلدان ٤٥٨).
(٧) ظلمة الحكام: الحكام الظالمين.
(٨) في بعض النسخ ناوأني، والمثبت في النص من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

قدومي[1] ثلاثة أشياء، الخراب والقحط والوباء وإثم كل ذلك عائد عليك، ومنسوب اليك.

فلم يسع شاه شجاع[2] الا مهادنته ومهاداته ومصاهرته ومصافاته وزَوَّج ابنته بابن تيمور[3] ولم يتم ذلك السرور لحدوث الشرور فانقبضت تلك المباسطة بواسطة افساد الواسطة وتثريب[4] الخاطبة وتخريب الماشطة. قلت بديها: مضمنا:

اذا انتخبتَ لأمر عن[5] واسطة ... فاحزر دهاه وكن منه على وجلْ
واعلم بأن طباع الانس قد جُبلت ... من الجفاء ومن مكر ومن دَخَلْ
فلا تثق أبداً منهم بواسطة[6] ... واشرع بنفسك فيه غير مُتّكل
فانما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول في الدنيا على رَجُل

ومدَّ عنان الكلام في هذا المقام يخرجنا عن المرام. ولكن تمت رياض المحبة زاهرة وأرباض المودة عامرة، وقفول المراسلة والمصادقة بين الطرفين سائرة واستمروا على ذلك

(١) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: في قدمي.

(٢) لم يبق في ايران الغربية إلا آل المظفر الذين لم يقروا بالتبعية المباشرة لتيمور. وكان شاه شجاع المظفري قد أرسل في عام ٧٨٤ هـ ــ ١٣٨٢ م رسولاً محملاً بالهدايا الى تيمور وأجاب تيمور برسالة ضمنها عواطفه وتأكيد المودة بينهما (شهاب ١٩٤).

(٣) اقترح تيمور برسالة الى شاه شجاع أن يتزوج حفيده « بير محمد بن عمر شيخ » بابنة شاه شجاع، لتأكيد المودة بين الطرفين وتمَّ هذا الزواج في بلخ عند قدوم تيمور إلى خراسان سنة ٧٨٥ هـ ــ ١٣٨٣ م (شهاب ١٩٤). وقد أشار ابن عرب شاه الى أن الزواج كان بين ابنة شاه شجاع وابن تيمور وليس حفيده ولم يذكر اسم الابن. وقد ذكر ذلك ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة فقال عن تيمور: (ثم قصته مع شاه شجاع صاحب شيزار وتزوّج بنت شاه شجاع لابن تيمور، ومهادنة شاه شجاع له إلى أن مات شاه شجاع ...) النجوم الزاهرة ٢٥٩/١٢.

(٤) التثريب: التعيير والاستقصاء في اللوم (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) سورة يوسف.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عز.

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فلا تثق منهم يوماً بواسطة.

من غير نزاع الى أن توفي شاه شجاع[1].

وكان شاه شجاع هذا[2] رجلًا عالماً فاضلًا يقرر الكشاف تقريراً شافياً كاملا وله شعر رائق، وأدب فائق فمن شعره العربي على ما قيل:

ألا إن عهدي بالغرام يطول ... وأسباب صبري لا تزال تزول
أصون هواها كلما ذرّ شارق ... ولكن مابي[3] قد ينم نحول
ومن لم يذق صبر الصبابة في الصبا ... علمت يقينا أنه لجهول

ومن شعره الفارسي

اي بكام عاشقان حسنت جميل ... كي كزينم ديكري برتوبديل
كر زيادت غافلم عيشم حرام ... ورزجورت دم زنم خونم سبيل
هركسي تدبير كاري مكند ... مارها كرديم بانعم الوكيل[4]

وهو شاه شجاع بن محمد بن مظفر وأبوه كان[5] من أفراد الناس ومن أهل البر يسكن ضواحي يزد وأبرقوه، ذا بأس شديد يخافه القريب والبعيد ويرجوه. وكان قد نبغ بين يزد وشيراز حرامي من عرب آل خفاجة[6] سدَّ على سالكي الطريقة حقيقة المجاز يدعى جمال لوك أفقر الغني وأباد الصعلوك، لا يبالي بالرجال قلَّت أو كثرت ولا يكترث بكواكب النبال اذا الكواكب على رأسه انتثرت، فأباد طائفة من

(١) توفي في ٢١ شعبان عام ٧٨٦ هـ ــ ٨ إيلول ١٣٨٤ م وقد ظلت العلاقات طيبة بين تيمور وشاه شجاع حتى وفاته (شهاب ١٩٤).

(٢) لم يرد ما بين قوسين في بعض النسخ.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولكن بما بي.

(٤) ترجمة هذه الأبيات على الترتيب:
ــ يا من يرغب العشاق في حسنك فكيف أرغب في أحد سواك.
ــ إذا غفلت عن ذكرك فعيشي حرام وإذا اشتكيت من جورك فدمي مهدر.
ــ وكل يدبر أمراً لكننا تركناه لله ونعم الوكيل (ترجمة الأستاذ نصر الله الطرازي رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية).

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وكان أبوه.

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عربي من آل خفاجة.

البلاد وأهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، فَكَمنَ له أبو شاه شجاع في بعضَ وهد أويفَاع[1] ثم قابله مواجهة، وكافحه مشافهة ونازله فصرعه وقطع رأسه وانتزعه وقصد برأسه السلطان فقدّمه على سائر الأعوان وأقطعه أماكن عدّة وقرّبه وجعله عدّة لكل شدّه وكان له عدة أولاد وأقارب وأحفاد كل منهم رئيس مطاع. فمن أولاده شاه مظفر وشاه محمود وشاه شجاع فصار كل منهم ذا كلمة نافذة ويد معطية[2] آخذة ولم يكن للسلطان ولد ينقر[3] وراءه في أمور الملك أو ينقب.

فلما أقبل عليه رائد المنية أجابه وولّى مدبراً ولم يُعقب وكان إذ ذاك وقد ثبتت أوتاد محمد بن مظفر فتقدم في السلطنة ومن سواه تأخر، فصار في ممالك عراق العجم الملك المطاع واستقل من غير تشاق ونزاع وتصرف في الممالك كيف يشاء ورداه الله خلعة (قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء)[4] ومات في حياته ولده شاه مظفر المذكور وخلف ولده شاه منصور، ثم جرى بين شاه شجاع وبين أبيه من النزاع والشرور مالا خير فيه وقبض على أبيه وقهره وفجعه بكريمتيه وأعدمه بصره، وتمكن من السلطنة واستقر وكان به مرض جوع البقر بحيث إنه كان لايقدر على الصوم لا في السفر ولا في الحضر وكان كثيراً ما يدعو الله الغفور ألا يجمع بينه وبين تيمور.

فلما أدركه الأجل وطوى فراش الموت منه بساط الأمل أحضر ماله من أقارب وأولاد وقسم عليهم الممالك والبلاد فولّى ابنه لصلبه زين العابدين[5] شيراز، وهي

(١) ورد في إحدى النسخ بقاع. والوهد: جمع وهدة وهي المكان المطمئن أما اليفاع فما ارتفع من الأرض.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يد مطيعة.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولد يبقى.

(٤) سورة آل عمران الآية٢٦.

(٥) وقد وجد شاه شجاع ـــ قبيل وفاته ـــ أن من مصلحته وليجنب بلاده خطر اجتياح الجيوش التيمورية لها أن يرضي تيمور، بالاضافة إلى الاقرار له بالتبعية، بوضع ابنه زين العابدين تحت حمايته. وقد أشار إلى ذلك في وصيته التي أرسل يبلغ تيمور بنصها، وقد جاء في هذا النص كما أورده ابن عربشاه أن شاه شجاع قد أوصى أن يحكم شقيقه أحمد منطقة كرمان، ويُعطي ابن شقيقه الأول يحيى مدينة (يزد) ويعطي ابن شقيقه الثاني « شاه منصور » مدينة اصبهان.

كرسي الملك ومقصد الوافدين، وأقطع أخاه السلطان أحمد ولايات كرمان وأعطى ابن أخيه شاه يحيى يزد، وابن أخيه شاه منصور، أصبهان، وأسند وصيته بذلك الى تيمور وخَلَّد ذلك في رق منشور[1]. وأشهد على ذلك من حضرمجمعه. فكان كمن سلم الريح لزوبعة[2].

ولما أدمج الموت ثوب عمر شاه شجاع، انتشرت بين أقاربه شقق الشقاق والنزاع، فقصد شاه منصور زين العابدين وقبض عليه[3] واستولى على شيراز وفجعه بكريمتيه، وخالف عمه ونقض حبل عهده وفعل مع ابنه ما فعله أبوه بجدّه، وحبل هذه القصة ممدود والاشتغال بنقضه وابرامه يخرج عن المقصود فانمحض تيمور وامتعص وتجرع الغصص وارتهص، ولكن ارتقب في ذلك انتهاز الفرص.

ذكر توجه تيمور مرة ثالثة الى خوارزم بالعساكر العائثة العابثة

ثم إن تيمور جدد الحزم وصمم العزم على التوجه الى خوارزم[4]، فتوجه الى تلك

(١) في كتاب مخطوط ومكتوب، والرَق بالفتح: جلد رقيق يكتب عليه.

(٢) والزوبعة اسم شيطان أو رئيس الجن ومنه سمي الاعصار زوبعة وأم زوبعة. ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كمن سلم الريح لأبي زوبعة.

(٣) قامت الخلافات بين أفراد الدولة المظفرية عقب وفاة شاه شجاع، وعلى أثر محاولات شاه منصور وسعيه لضم جميع أملاك الأسرة إلى بعضها تحت سيطرته.

وعلى الرغم من أن زين العابدين لم يَحدْ عن سياسة والده في مصانعة تيمور فقد أحب تيمور، أن يستغل وصية والده شاه شجاع الذي منحه حق الوصاية على ابنه زين العابدين فأرسل تيمور إلى زين العابدين رسولاً يذكره بالتحالف والصداقة التي كانت قائمة بينه وبين والده وأنه من الضروري تجديد هذا التحالف ولذلك فسوف يُقبل موكب تيمور على ممالك المظفريين ليظهر للناس مقدار ما يكنُّه من عواطف لزين العابدين. ولكن زين العابدين اعتقل موفد تيمور الذي اتخذ من هذا العمل ذريعة للاغارة على أملاك المظفريين وتقدمت جيوش تيمور بقيادته في خريف سنة ٧٨٩ هـ ـــ ١٣٨٧ م إلى أصفهان وعسكر في ظاهر المدينة وكانت مذبحة أصفهان على يد جيوش تيمور. ثم توجه تيمور إلى شيراز فهرب زين العابدين لاجئاً إلى ابن عمه شاه منصور في تستر (في خوزستان) ولكن شاه منصور اعتقل ابن عمه وصفّده بالقيود (شهاب ١٩٥).

(٤) لم يذكر ابن عرب شاه وغيره من المؤرخين سبباً لسير تيمور للمرة الثالثة على خوارزم في ←

البلاد من خراسان على طريق استراباد، وكان سلطانها أيضاً غائبا فأراد أن يولي عليهم من جهته نائبا، فخرج اليه حسن المذكور وصالحه واشترى منه الشرور والمقابحة، وقال له: يا مولانا الأمير كلنا عندك أسير ولكن سلطاننا غائب وإذا أقيم علينا من جهتك نائب ثم رجع الينا السلطان، فلا بد أن يقع بينهما شنآن[1]، واذا كان الأمر كذا فربما يصل اليَّ منه أذى، فيكون ذلك سبب تأكيد العداوة ويزداد بينكما الجفا والقساوة فيفيض حنقك على المسلمين ويقع فساد والله لا يحب المفسدين، وَهَبْ أن حسين صوفي صار نائبك فكل الخلق يجب عليه أن يراعي خدمتك وجانبك، ورأيك أعلى واتباع مرسومك أولى.

فسمع تيمور كلامه وقَبِلَ قوله وفوّض للرحيل خيامه، وكان لحسن المذكور ابن غير فالح له عمل غير صالح فكأنه فتك بحظية من حظايا السلطان وذاع ذلك في المكان وفاح ذفره في أنف الزمان، فلم يتقيد بذلك الفعل القبيح حسن، وقال: إن لي على السلطان، مناً وأي منن، حيث حَمَيْتُ بلده من كل ظلوم كفار، وبذلت في ذلك مالي ووجاهتي ثلاث مرار، فلا بد أن يقابل هذه المصالحة بالعفو عن جريمة ولدي والمسامحة.

فلما آب[2] السلطان من سفره واطَّلع على حقيقة الأمر وخبره قبض على حسن وولده وقتلهما وألقاهما بين يدي أسد قهره فأكلهما، وخرَّب ديارهما ونقل إلى خزائنه شعارهما ودثارهما. ثم لم يلبث حسين صوفي أن توفي، وولي بعده يوسف صوفي، وكان تيمور قبل ذلك قد صاهرهم وناصرهم على مخالفيهم وظاهرهم، وزوّج ابناً له يدعى جهانكير عقيلة منهم ذات قدر كبير وأصل خطير ووجه مستنير أحسن من شيرين وأظرف من ولّادة، ولكونها من بنات الملوك كانت تدعى خانزاده[3]، فولدت

ربيع سنة ٧٧٧ هـ ـــ ١٣٧٦ م وكان يرافقه في هذه المرة ابنه محمد جهانكير. ولما بلغ كات إحدى مدن خوارزم الرئيسية جاءه الخبر من حاكم سمرقند بأن جماعات من قبيلة جلاير تحاول الاغارة على سمرقند، فأعاد تيمور ابنه على رأس قوة لاعتراض المغيرين وعاد فورا إلى سمرقند (شهاب ١٧٥).

(١) شنآن: بغض وكراهية.

(٢) آب: رجع.

(٣) خان زاده: تزوجت ابن تيمور محمد جهانكير في سنة ٧٧٥ هـ ـــ ١٣٧٤ م.

له محمد سلطان وكان في نجابته واقباله ساطع البرهان، فلما شاهد تيمور في شمائله مخايل السعادة وقد فاق في النجابة أولاده وأحفاده أقبل دون الكل عليه وعهد مع وجود أعمامه اليه، لكن عاند الدهر ذلك الظلوم فتوفي قبله في آق شهر من بلاد الروم[1]. وسيأتي ذكر ذلك.

ذكر توجه ذلك الباقعة[2] إلى خوارزم مرة رابعة

فلما سمع تيمور ما جرى على حسن من الشرور تحنَّق وشدَّ الأزم ووجه ركاب الغضب الى خوارزم[3] فأخذها وقتل سلطانها وهدَّم أركانها وخرَّب بنيانها[4]، وولَّى على

(١) يطلق علماء الجغرافيا من العرب اسم بلاد الروم وأرض الروم على شبه جزيرة الأناضول (آسية الصغرى).

(٢) الباقعة: الداهية.

(٣) عاد تيمور مرة رابعة الى خوارزم عام ٧٨٠ هـ ـــ ١٣٧٨ م ليفرض سلطته على يوسف صوفي الذي عاد الى سياسة التعالي، وحاول أن يستغل انشغال تيمور بصد غارات القبجاق عن بلاده في العام الماضي. وربما كان لوفاة محمد جهانكير ابن تيمور الذي كان متزوجاً من ابنة أخ يوسف صوفي الأميرة خان زاده سنة ٧٧٧ هـ ـــ ١٣٧٥ م. واعتقاد يوسف صوفي بانقطاع الصلة التي كانت تربطه بتيمور، أثَّر في دفعه الى التطاول الى حد دفعه الى سجن موفد تيمور. وكان هذا الموفد قدجاء ليذكره بضرورة التمسك بالاتفاق الذي كان قائماً بينه وبين تيمور. وسار تيمور على رأس قواته حتى وصل الى قرب أوركنج فتراجع يوسف صوفي عن عناده عندما رأى جيوش تيمور تجتاح بلاده. ويشير المؤرخون الى كثرة ضحايا الطرفين في المعركة التي وقعت بالقرب من أسوار المدينة، وتمكن تيمور من حصار العاصمة وقصف جنوده قصر يوسف صوفي بالمنجنيقات، وبعد ثلاثة أشهر من الحصار تمكنت جيوش تيمور من اقتحام المدينة. وقام الجنود التيموريون بالقتل والنهب. وتوفي يوسف الصوفي بعد احتلال المدينة. (شهاب ١٧٦).

(٤) يشير المؤرخون إلى أن جيوش تيمور بعد اقتحامها المدينة جعلت عاليها سافلها وكان السلب والنهب على نطاق واسع حتى أن ابن عربشاه قد شبَّه تدمير خوارزم بتخريب وهلاك دمشق على يد جيوش تيمور. وقد أخذ تيمور أعيان المدينة أسرى إلى مدينة كِش، وعاد هو إلى سمرقند (شهاب ١٧٦).

مابقي منها نائباً من عنده ونقل جميع ما أمكنه نقله منها إلى ممالك سمرقنده، وتاريخ خراب خوارزم (عذاب). كما أن تاريخ خراب دمشق (خراب).

ذكر ما كان ذلك الجان راسل به شاه وَلي أمير ممالك مازندران

ثم إنه لما كان توجه الى خراسان راسَلَ شاه ولي[1] أمير ممالك مازندران[2]، وكاتَبَ الأمراء المستقلين بذلك المكان، فمنهم اسكندر الجلايي وارشيوند وابراهيم القمي، واستدعاهم الى حضرته كما هو جاري عادته بالضرورة فأجابه ابراهيم وارشيوند واسكندر، وتأبى عليه شاه ولي ذلك الغضنفر ولم يلتفت إلى خطابه وخشن له في جوابه.

ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق وما وقع في ذلك من الشقاق وعدم الاتفاق

ثم أرسل شاه ولي إلى شاه شجاع سلطان عراق العجم وكرمان وإلى السلطان أحمد بن الشيخ أويس متولي عراق العرب[3] وأذربيجان يخبرهما بورود خطابه وصدور

(١) اندفع تيمور إلى مدينة « اسفرايين » وكانت تحت حكم أكبر إمارات خراسان الغربية التي كان يحكمها أمير ولي (شاه ولي)، من عاصمته « استرباد » في مقاطعة مازندران (جنوب شرق قزوين) وكان هذا القائد المسن قد وصل إلى الحكم عام ٧٥٤ هـ ـــ ١٣٥٣ م على إثر مقتل السلطان الايلخاني « طُغاي تيمور »، واستطاع شاه ولي فيما بعد من بسط سلطته على بعض مدن خراسان الغربية « بسطام، دامغان، سمنان، فيروزكوه بالاضافة الى استرباد).

وتذكر المصادر التيمورية هذا الحاكم بلقب « أمير ولي » فإن ابن عرب شاه ومؤرخي العرب الذين كانوا يعطفون عليه، بسبب مقاومته لتوسع تيمور، يطلقون عليه لقب شاه ولي. (العسقلاني ٣٦/١ والضوء اللامع للسخاوي ٤٦/٣ ، شهاب ١٨٨).

(٢) مازندران : اسم لولاية طبرستان (معجم البلدان ٣٦٣/٧).

(٣) يطلق المؤرخون لفظ العراقين. ويقصد بها عراق العرب، وعاصمتها بغداد، وعراق العجم وهي بلاد الجبل (تقويم البلدان ٤٥٨).

جوابه، ثم قال : أنا ثغركما[1]. وان انتظم أمري انتظم أمركما، وان نزل بي منه بائقة فانها بمالككما لاحقة، فإن ساعدتماني بمدد كفيتكُما هذا النكد والا فتصيران كما قيل :

من حُلِقتْ لِحية جارٍ له فليسكب الماء على لحيته

فأما شاه شجاع فأطرح[2] قوله ورماه وهادن تيمور كما ذكر وهاداه. وأما السلطان أحمد فأجاب بجواب مهمل وقال : هذا الاشلّ الاعرج الجغتائي[3] ما عساه أن يفعل ؟ ومن أين ومن أين للأعرج الجغتائي[4] أن يطأ العراقين ؟ وان بينه وبين هذه البلاد لخرط القتاد[5]، ولكم بين مكان ومكان فلا يخل العراق كخراسان.

ولئن عقدت على التوجه الى ديارنا نِيَّتُه، لتحلن به منيته، ولترتحلنَّ عنه أمنيته، فإنا قوم لنا البأس والشدة والعُدة والعدة[6] والدولة والنجدة ولنا يصلح التشامخ والتأبي حتى كأنه قال فينا المتنبي :

نحن قوم ملجنّ في زي ناس فوق طير لها شخوص الجمال

فلما علم ذلك منهم شاه ولي وأيقن أن كلا منهما عن شجوه خلى قال أما أنا فوالله لأوافقنه بعزم صادق ونفس مطمئنة فلئن ظفرت به لأنددنّ بكما في الأمصار، ولأجعلنكما عبرة لأولي الأبصار، وإن ظَفر بي فلا علي مايصل اليكما فلينزلنَّ القضاء الطام والبلاء العام عليكما، ثم استدّ للقائه واستسلم لقدر الله تعالى وقضائه[7]، ولماتراءى الجمعان، واتصلت المراشقة بالضراب والطعان ثبت شاه ولي ساعة لما نابه

(١) ثغر : كل موضع في أرض العدو يكون في بطن وادٍ أو فرجة جبل.

(٢) اطّرح : بتشديد الطاء : أبعد.

(٣) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٤) الجغتائي : نسبة الى بلاد جغتاي. فحين أسس جنكير خان امبراطوريته التي يحكمها المغول والتي تمتد من غرب الصين إلى أواسط إيران قسَّم هذه الامبراطورية الشاسعة بين أولاده الأربعة فكانت بلاد ما وراء النهر من نصيب جغتاي وقد ضمت حصته أيضاً المناطق الممتدة من جبال الطاي حتى نهر جيحون، وأطلق اسم جغتاي فيما بعد على كل هذه المناطق وعرفت ببلاد جغتاي (شهاب ٦٧).

(٥) القتاد : ورد له شوك، وخرط القتاد : إزالة شوكه.

(٦) العدة : بكسر العين : العدد، وبضمها : أدوات الحرب.

(٧) تمكن تيمور من القضاء على كل حكام خراسان السابقين ولم يبق من هؤلاء الحكام ←

من شره وهرّه، ثم ولى الدُّبر لما حطمه مارأى من كرٍّ وفَرّ وتبع السنة في الفرار مما لايطاق وتوجه الى الري إذ ما أمكنه التوجه الى العراق، وكان بها أمير مستقل يدعى محمد جوكار متصرفاً بحكومته في تلك القرى والأمصار، وكان كريماً شجاعاً وملكاً مطاعاً ومع ذلك فإنه دارى تيمور وراعى منه بعض الأمور وخاف سطوته وبأسه فقتل شاه ولي وأرسل الى تيمور رأسه.

ذكر ما جرى لأبي بكر الشاسباني مع ذلك الجاني

وكان في بعض ولايات مازندران، رجل يسمى أبا بكر من قرية تدعى شاسبان، وكان في الحروب. كالأسد الغضوب. وكان قد أباد وأبار[1] الجمّ الغفير من عساكر التتار، اذا انتمى في المجال لا تثبت له الرجال وإن وضع العمامة، أقام فيهم القيامة، ولازال يكمن بين الروابي والجبال، ويجندل الجنود والأبطال، حتى صارت تضرب به الأمثال وترعد منه الفرائص ولو في طيف الخيال، فكان القائل منهم يقول لمركوبه

القدامى إلا شاه ولي الذي اضطر إلى إعلان ولائه لتيمور، وأرسل اليه الأموال والهدايا مرات عديدة. إلا أن تيمور كان لا يرتاح إلى إخلاصه لذلك كان الهدف الرئيسي لعبوره الرابع لنهر جيحون، هو القضاء على حاكم مازندران... وكان شاه ولي يتوقع هجوماً من تيمور لذلك حشد قواته على حدود أملاكه الشرقية وأقام في أحد حصون تلك الناحية ويدعى حصن (دورون)، وجرت بالقرب من هذا الحصن معركة كبيرة انتصر فيها قواد تيمور واضطر شاه ولي إلى إخلاء الحصن والتراجع بعد مقتل عدد كبير من جنوده. وتعقب تيمور شاه ولي حتى عبر نهر جورجان وحَلّ بموقع شاسمان قريباً من النهر، وهناك دارت بينهما معركة ثانية استمرت عشرين يوماً انتصر في نهايتها تيمور، واضطر شاه ولي إلى التراجع مرة ثانية بعد أن وقع عدد كبير من جنوده في الأسر، وقام شاه ولي بغارة ليلية مفاجئة وجريئة على جيش تيمور ولكن هذا لم يبدل في مجرى المعركة فاضطر للتراجع إلى دامغان أمام تيمور. واحتل تيمور «استرباد» عاصمة شاه ولي في شوال سنة ٧٨٦ هـ ـــ كانون الأول ١٣٨٤ م وحوّل الحكم فيها إلى لقمان بن السلطان الايلخاني طغاي تيمور، الذي كان شاه ولي في حاشيته سابقاً وتابع تيمور ملاحقة شاه ولي الذي كان يتقهقر نحو الغرب (شهاب ١٩١).

(١) أبار: من البوار: أي الهلاك.

اذاعلق عليه أوسقاه فتأخر عن الماء أو جفل من المخلاة: كأنَّ أبا بكر الشاسباني في الماء أو بين العليق تراه.

وقيل: لم يتضرر عسكر تيمور في مدة استيلائه، مع كثرة حروبه ومصافاته وابلائه، الا من ثلاثة أنفار، أضرُّوا به وبعساكره غاية الاضرار، وأوردوا كثيراً منهم موارد النار.

أحدهم أبو بكر الشاسباني، وثانيهم سيدي علي الكردي، وثالثهم (أمت) التركماني (فأما أبو بكر هذا فذكروا أنه في بعض مضايق مازندران، تغلبت عليه الجغتاي من كل مكان)[1]. وسدُّوا عليه وجه المخلص وشدُّوا حبل المقنص[2]. فألجأوه الى جرف مقابله جرف، مقدار ثمانية أذرع ما بين الحرف الى الحرف، كأنَّ قعره جبّ النقير، أوواد في قعر السعير. فنزل أبو بكر عن جواده المضمر. وطفر وطمر[3] من أحد الجرفين الى الاخر. بما عليه من السلاح والمغفر، ولم ينل منهم ضرَّاً ونجا كما نجا تأبطَّ شرّاً[4]. ثم اتصل بحاشيته وأبادهم، ونقل الى طاحون الفناء منهم من استكمل دياسهم وحصادهم، ثم ما أدري أمره الى ماذا آل[5]، وكيف تقلَّبت به الأحوال.

وأما سيدي علي الكردي فإنه كان أميراً في بلاد الكرد، معه طائفة من الخيل الجرد، والرجال غير المرد، في جبال عاصيه، وأماكن وعرة متقاصية، فكان يخرج هو وجماعته، ومن شَمَلَتْه طاعته، ويترك على فم المضائق من هو به واثق. ثم يشن على عساكر تيمور الغارات، ويدرك فيهم للمسلمين الثارات، ويقتطع من حواشيهم وما يمكنه من مواشيهم، ثم يرجع الى أوكاره. بما قضى من أوطاره ولم يزل على ذلك الثبات في حياة تيمور وبعد أن مات. إلى أن أدركته الوفاة ففات.

(١) ما بين القوسين لا يوجد في بعض النسخ.

(٢) قنصه: صاده.

(٣) طمر بمعنى وثب إلى أسفل. ووردت في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: وطفر وقد أثبتنا ما ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٤) تأبط شراً هو ثابت بن جابر من عدائي العرب المشهور بسرعة الركض.

(٥) آل: انتهى.

وأما أمت التركماني فإنه كان من تراكمة قراباغ[1]. وله ابنان قد وضع كل منهما على قلب تيمور أي داغ، وكانت الحروب والنزال بينهم وبين أميران شاه وعساكر الجغتاي لا تزال، وأفْنوا من جماعتهم عدداً لا يحصى، وجانباً فات لا يُسْتَقْصَى إلى أن غدر واحد من المنتسبين اليهم، فطلب غرّتهم. ودلّ عسكر أميران شاه عليهم، فَبَيَّتُوهم ليلا. وأراقوا من دمائهم سيلا. فاستشهد الثلاثة في سبيل الله. رحمهم الله.

قلت:

وأصعب فتنة تشميت الاعدا ... وأنكى منه تخذيل المُوالى

وقيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند[2]

وقيل:

(إذا كان هذا بالأقارب فعلكم ... فماذا الذي أبقيتم للأباعد)[3]

ذكر توجه تيمور الى عراق العجم وخوض شاه منصور غمار ذلك البحر الخضم

ولما توفي شاه شجاع[4] ووقع بين أهله كما مرَّ النزاع[5]، واستقر أمر العراق العجمي[6] على شاه منصور[7] وخلصت ممالك مازندران وولاياتها لتيمور، وكان شاه

(١) قراباغ: مدينة تقع في إيران حالياً.

(٢) للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد ـــ ديوان طرفةص ٣٦.

(٣) ما بين القوسين لا يوجد في بعض النسخ.

(٤) في ٢١ شعبان عام ٧٨٦ هـ ـــ ٨ أيلول ١٣٨٤ م.

(٥) يقول ابن تغري بردي عن تيمور (ثم قصته مع شاه شجاع صاحب شيراز ... ومهادنة شاه شجاع له إلى أن مات شاه شجاع، واختلفت أولاده وقوي شاه منصور على إخوته فمشى تيمور هذا، فلقيه شاه منصور في الفي فارس لا غير (النجوم الزاهرة ٢٥٩/١٢).

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عراق العجم.

(٧) هو شاه منصور بن شاه ولي بن محمد بن مظفر اليزدي سلطان عراق العجم ذكر له ترجمة موجزة في المنهل الصافي لابن تغري بردي قسم ١ جزء ٢ ص ١٧٣.

شجاع قد أوصى الى تيمور بولده زين العابدين كما ذكر وَوَكل أمره اليه، وجد تيمور على شاه منصور طريقاً بما فعله مع ابن عمه زين العابدين فاحتجّ بذلك ومشى عليه، فاستمدّ شاه منصور أقاربه فكلهم صار محاربه وغدا مجاذبه ومجانبه. وأقام كل منهم يحفظ جانبه، فتهيأ لملاقاته وحده، بنحو ألفي فارس كاملي العدة، بعد أن حصَّن المدينة وحوطها بالأهبة المكينة، ورتب خيلها ورجلها[1] وحرَّض على التصبُّر والتربص أهلها، فقال له أكابر أعيانها والرؤس من سكانها: كأنَّا بك في المقتحم وسدى الحرب قد التحم، وقد منعناه من الوصول الينا ودافعناه عن الهجوم علينا، وربما جنَّدنا له رجالا وأبطلنا من عسكره أبطالا، ثم ماذا تصنع أنت بألفي راكب مع هذا الغمام المتراكم المتراكب؟ وربما يحلّ عقدك أو يفلّ[2] جندك فلا ترى لنفسك في الهيجاء[3] إلا طلب الخلاص والنجاء وتتركنا لحماً على وضم[4] بعد أن زلَّت بنا معهم القدم ولا ينفعنا بعد تأكيد العداوة الندم، ولا يجبر منا إذ ذاك هذا الكسر إلا بالقتل أو النهب والأسر[5]. فوضع يده على دبوسه شاه منصور وقال هذا الألف في الكاف السادسة[6] من أُم مَنْ يفر من تيمور، أما أنا فأقاتل وجندي، فإن خذلني جندي قاتلتُ وحدي، وبذلت في ذلك جدّي وجهدي، وعاينت عليه وَكِدي[7] وَكَدِّي[8]، فإن نُصرت نلت قصدي وإن قُتلت فلا عليّ ممن بقي بعدي، وكأني أنا كنت الحاضر والخاطر في خاطر الشاعر حين قال:

اذا هَمّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانباً

وقيل: ان شاه منصور فرّق رجاله على قلاعه، وأراد بذلك حفظ مدنه فضاع في

(١) رجالها.

(٢) يفل: بضم ففتح: أي ينهزم ويتفرق.

(٣) الحرب.

(٤) الوضم: كل شيء يوضع على اللحم من خشب أو غيره يوقى به من الأرض.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: بالقتل والنهب.

(٦) المراد من العبارة كلها سبٌّ قبيح، راجع في المعنى الكاف السادسة بيتي ابن سكرة الهاشمي في الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣١٠ للصلاح الصفدي.

(٧) الوَكد: بفتح الواو الهم والقصد.

(٨) والكدّ: بتشديد الدال: الاتعاب للنفس.

ضياعه، ثم جمع رؤساء شيزار[1] وأجنادها وأفلاذ أكبادها وأولادها وقال: إن هذا عدوّ ثقيل وهو وإن كان خارجياً فهو في بلادنا دخيل، فالرأي أني لا أنحصر معه في مكان ولا أقابله بضراب وطعان[2] بل اتنقل في الجوانب. وأتسلط أنا ورعاياي عليه من كل جانب فنصفع أكتافه ونقطع أطرافه ونواظبه بالنهار ونراقبه بالليل ونُعدّ له ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل: فكلما وجدنا منه غِرة[3] كسرنا منه القفا والغُرّة[4] فتارة نَنْطحه وأخرى نرمحه وكرة نجرحه ومرة نجدحه ونسلبه الهجوع[5] ونمنعه الرجوع فتشتدّ عليه المضايق وتنسدّ عليه الطرق والطرائق.

غير أن القصد منكم يا أحرار ويا نمور النفار ونسور النقار[6] أن تحتفظوا بضبط الأسوار ولا تغفلوا عنها آناء الليل وأطراف النهار، فإني ما دمت بعيداً عنكم لا يدنو أحد منهم منكم، وإن حاصروكم ففيكم كفاية واستودعكم الله وهونعم الوقاية، وغاية ما تكونون في هذه البؤسى. مقدار ما واعد الله نبيه موسى[7] ولله هذا الرأي ما كان أمْتنه ووجه هذا القصد ما كان أحسنه. ثم انه خرج ذاهباً، وقصد جانباً.

(١) استطاع شاه منصور حاكم « تستر » فرض هيمنته على أغلب أفراد الأسرة المظفرية، فاعتقل ابن عمه « زين العابدين » الوريث الشرعي لملك المظفريين في إحدى القلاع القريبة من تستر. وضم إليه أملاك أقربائه في شيراز وأصفهان و « أبرقوه » وعلى الرغم من فرار زين العابدين من سجنه ومحاولته الانتقام من ابن عمه، فإنه هُزم في القتال الذي دار بالقرب من الري، وأُسر للمرة الثانية وسملت عيناه وأعيد إلى السجن، واستقر الحكم لشاه منصور الذي اتخذ من شيراز عاصمة له مدة أربع سنوات إلى أن ظهرت قوات تيمور بابنائه وأحفاده في إيران عام ٧٩٤ هـ ـــ ١٣٩٢ م (شهاب ٢١٦).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بضرب وطعان.

(٣) الغرة: بالكسر : الغفلة.

(٤) الغُرّة: بالضم : الجبين.

(٥) الهجوع : النوم ليلاً والهجوع : مطلق النوم وقد يكون بغير نوم.

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : يانمور القفار ونسور النفار.

(٧) من قول الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ...) سورة الأعراف الآية ١٤١.

ذكر دقيقة تصدت فجلت ونقضت ما أبرمه شاه منصور من عقد حين حلّت[1]

فبينا هو عند باب المدينة جائز. نظرته سعلاة[2] من مشؤومات العجائز، فبدرته بالملام وآذته بالكلام ونادت بلسان الاعجام: انظروا الى هذا (تركسّ بحرام)[3] رعى أموالنا وتحكم في دمائنا وفارقنا أحوج ما نحن اليه في مخاليب أعدائنا، جعل الله حمل السلاح عليه حراماً ولا أنجح له قصداً ولا أسعف له مراماً، فقدحت زناده وجرحت فؤاده، وتأجّجت نيران غضبه، وأحرق أكداسَ تدبره شواظُ لهبه[4] وثارت نفسه الأبية، وأخذته حمية الجاهلية حتى ذهب لبّ ذلك الرجل الحازم، وغَلِطَ فأمسى وهو لغلطه ملازم، فثنى عنان عزمه، وكزّ أسنان أزمه، وأقسم لا يبرح عن المقاومة، ولا يرجع في مجلس القضاء ملازمة المصادمة، ويجعل ذلك دأبه صباحاً وعشاء[5]، إلى أن يعطي الله النصر لمن يشاء.

ثم قابل، ورتّب أبطاله وقاتل. وكان في عسكر شاه منصور[6] أمير خراساني مباطن[7] لتيمور، يدعى محمد بن زين الدين[8] من الفَجَرة المعتدين، وجلّ العساكر كان معه، فسار الى تيمور، وأكثر الجند تبعه، فلم بيق منهم الا دون الالف، فما فرَّ

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ذكر دقيقة قصدت فحلت ونقضت ما أبرمه شاه منصور من عقد حين حلت، كما أن هذا العنوان لا يوجد في بعض النسخ.

(٢) السعلاة : الغول أو ساحرة الجن، واستسعلت المرأة : صارت صخّابة.

(٣) عبارة فارسية تعني أن هذا الرجل ابن حرام.

(٤) أكداس تدبُّره : مفعول به مقدم، شواظُ لهبه : فاعل مؤخر.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ويجعل ذلك دأبه صباحاً ومساءً وعشاءً.

(٦) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٢٦٠/١٢) (وشاه منصور هذا هو أفرس من قاتل تيمور من الملوك بلا مدافعة، فإنه برز إليه في ألفي فارس وعساكر تيمور نحو المائة ألف).

(٧) أي مع تيمور وكان يخفي ذلك من قبل.

(٨) يقول ابن تغري بردي (٢٦٠/١٢) في حديثه عن تيمور (وعندما برز له شاه منصور فرَّ من عسكره أمير يقال له محمد بن أمين الدين إلى تيمور بأكثر العساكر. فبقي شاه منصور في أقل من ألف فارس، فقاتل بهم تيمور يومه إلى الليل).

واحد منهم من الزحف. فثبت شاه منصور، بعد أن تضعضعت منه الأمور، فلم تزل نيران الهيجاء تنتطح، وزناد الحرب توري إذ تنقدح، وشرار السهام تتطاير، وثمار الرؤوس بمناجل السيوف تقطف فتتناثر، حتى أقبل جيش الليل وشمَّر للهزيمة جند النهار الذيل، فتراجع كل منهم الى وكره، وأعمل شاه منصور فكره في مكره[1].

ذكر ما نقل عن شاه منصور مما أوقع بعسكر تيمور من الحرب والويل تحت جنح الليل[2]

فَعمد إلى فرس جفول[3]، من بين الخيول، أجمح من دهرٍ رَمَح وأرمح من عصر جمح، وأتى بها عسكر العدو. وقد أخذ الليل في الهدوّ[4]، ثم ربط في ذنبها قدراً من النحاس، ملفوفة في قطعة بلاس، وشدها شدّة أحكم وثاقها، وصوّب رأسها نحو العدو وساقها، فجالت الفرس في المعسكر[5] واضطربت، واختبطت الناس واحتربت وانسابت جداول السيوف في بطون تلك البحار[6] وإنسربت[7]، حتى كأن

(١) حاصرت قوات تيمور سنة ٧٩٥ هـ ـــ ١٢٩٣ م شيراز عاصمة الأسرة المظفرية كما استطاعت قوات تيمور من اقتحام « قلعة سفيد » الحصينة حيث كان زين العابدين، ابن عم شاه منصور معتقلاً. وقد وَعَدَ تيمور زين العابدين من اعادته للعرش والانتقام من شاه منصور.
وقد بثَّ تيمور جنوده في كافة الاتجاهات بحثاً عن قوات شاه منصور وهو في طريقه لحصار شيراز. ولما كانت قوات شاه منصور قليلة العدد بالنسبة للقوات التيمورية فقد اعتمد شاه منصور وكما يقول ابن عربشاه على المباغتة (شهاب ٢١٦).

(٢) هذا العنوان ليس في بعض النسخ.

(٣) جفول: سريع.

(٤) كانت قوات شاه منصور قليلة العدد أمام قوات تيمور فعمد على المباغتة وكان الهجوم ليلاً فقد أتى إلى فرس فربط في ذيلها قدراً نحاسياً، وأطلقها بين صفوف أعدائه، فأوقعت فيهم الخوف والارتباك. واستطاعت قواته التي يقدر عددها بألفي رجل أن تقتل عشرة آلاف من جنود تيمور.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: العسكر.

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: النحور.

(٧) يقول ابن تغري بردي حول هذه الواقعة (النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٠) (فركب شاه منصور ←

الساعة[1] اقتربت، أو السماء عليهم بالشهب انقلبت، والأرض بهم اهتزت وربت، وشاه منصور واقف حواليهم كالبازي المطل عليهم، يقتل من شَذّ، ويبيد من فَذّ[2] وصار كما قيل:

الليل داج والكباش تنتطح ... نطاح جدّ ما أراها تصطلح
فقـــائم وقاعـــد ومنبطـــح ... فمن نجا برأسه فقد ربح

قيل أنهم اقتتلوا فيما بينهم حتى فني نحو من عشرة آلاف نفس، فلما قوّض الليل خيامه ورفع النهار أعلامه، علموا البلاء كيف دهاهم، وليت الليل لم يكن فَارَق ذراهم.

ثم إن شاه منصور أصبح وقد قَلَّ ناصره وفَلَّ مؤازره، فانتخب من جماعته فئة نحواً من خمسمائة، فجعل يصول بهم صولة الأسد، ويخوض بهم غمار الموت، فلا يلوي أمامهم أحد على أحد، ويميل يُسرة ويمنة وينتسب. ويصيح: أنا شاه منصور الصابر المحتسب، فتراهم بين يديه حمرا مستنفره. فرت من قسورة[3]، وقصد مكاناً فيه تيمور فهرب منه ودخل بين النساء[4] واختفى بينهنَّ وغطى بكساء، فبادرنه وقلن

في الليل وبيّت التمرية، فقتل منهم نحو العشرة آلاف فارس) وفي رواية المنهل يقول (فعمد شاه منصور إلى فرس جفول وربط في ذنبه قدراً من نحاس قد لفّها ببلاس أسود، وأحكم شدها، ثم ساقها في معسكر تيمور وهم نيام بعد هدأة الليل، فعندما جالت في معسكرهم وهي تتخبط من حركة القِدر، ثار القوم من وقتهم مذعورين لا يدرون من يقتلون، وفي ظنِّهم أن شاه منصور قد بيَّتهم. هذا وشاه منصور واقف معه يقتل من ظفر به من التمرية. ويجول في نواحي عسكر تيمور برجال فوارس ويخرق بهم صفوف تيمور يميناً وشمالاً ويقول: أنا شاه منصور وهم يفرون منه حتى قتل منهم نحو العشرة آلاف فارس.

(١) من شدة هول تلك الواقعة شبّهها بقيام الساعة يوم القيامة.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: من ندَّ.

(٣) سورة المدثر من القرآن الكريم الآية ٥١ يُشبه (الحُمر الهاربة من الأسد).

(٤) ويتابع ابن عربشاه وصف تطورات القتال، فيقول إن تيمور خاف من جرأة شاه منصور فهرب واندّس بين نسائه ولبس ثيابهن وتعترف المصادر التيمورية الرسمية بخطورة الهجوم المفاجيء الذي تعرض له تيمور شخصياً، على يد شاه منصور الذي حمل على تيمور وحاول أن يصوب إليه رمحاً. عندما لم يكن عدد الحراس الملتفين حول تيمور يزيد عن ←

نحن حُرَمْ وأشرن إلى طائفة من العسكر المصطدم وقلن هناك بغيتك وبين أولئك طلبتك، فألوى راجعاً وتركهنّ مخادعا وقصد حيث أشرن اليه وقد أحاطت به جموع العساكر وحلقت عليه[1]. قلت بديهاً:

وما حز أعناق الرجال سوى النسا وأي بلاء ماهنّ به أبلى
وكم نار أحرقت كبد الورى ولم يك إلا مكرهنّ لها أصلا

وكان على فرس فاقت خصالا فضرب[2] فيهم بسيفين يميناً وشمالا، وفرسه السبوح كانت تقاتل معه وتصدم وتكدم من يقربها في تلك المعمعة وكأنه ينشد معنى ما قلته في (مرآة الأدب).

يد الله قوتني فغُلت يداهم وهذى يدي فيهم بسيفين تضرب

فصار كلما قصد رعلة من تلك الرعال، افترقت أمامه يميناً وشمالا وإن كانوا كلهم من أهل الشمال[3] ولكن:

اذا لم يكن عون الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

حتى أنهكته الحرب وكَلَّت يداه من الطعن والضرب، وجُندلت أبطاله وقُتلت خيله ورجاله وتغيرت من كل جهة أحواله، وسدت طرائقه وشُدت مضايقه وخرست شقاشقه وضرست فيالقه وخمدت بوارقه وهمدت بيادقه. وحُصَّ جناحه وقُصّ نجاحه[4] وخفّ مراحه وأثقلته جراحه، وسكنت همهمته. وسكنت غمغمته، فانفرد عن أصحابه وقد آده[5] الجراح وأودى به. ولم يبق معه في ذلك البحر سوى

الخمسة عشر نفراً. ولكن الرمح أخطأ تيمور ولم يصب بأي أذى. وتلاحقت النجدات الى ميدان القتال على وجه السرعة (شهاب ٢١٦).

(١) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: وقد أحاطت به جموع العساكر وحلقت عليه حتى أنهكته الحرب وكَلَّت يداه من الطعن والضرب.

(٢) في المخطوطة القديمة للظاهرية: يضرب.

(٣) يعني ما ورد في القرآن الكريم ـــ سورة الواقعة قول الله تعالى (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم).

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وحص نجاحه وقص جناحه. وطائر أحص الجناح أي قليل ريش الجناح.

(٥) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وقد آذاه الجراح. وآده: أثقله.

نفرين: أحدهما يدعى توكل والاخر مهتر فخر، وأخذه الدهش، وغلب عليه العطش ونشف الرهج[1] والوهج كبده وطلب شربة ماء فما وجده ولو وجد ما يبلّ به ريقه لما قدر أحد أن يقطع عليه طريقه، فرأى الأَوْلَى طرح نفسه بين القتلى، فأطرح بينهم نفسه، ورمى أهبته[2] وسيِّب فرسه.

وقُتل توكل ونجا فخر الدين، وبه من الجراح نحو من سبعين، وعمَّر بعد ذلك حتى بلغ تسعين، وكان من الأبطال والمصارعين. فتراجع جيش تيمور وتضام، وانتعش بعد أن بلغ موارد الحمام، وذلك بعد أن قتل منهم مالا يعدّ، وأفنى ليلا ونهاراً مالا يُحصر ولا يحدّ.

وطفق تيمور في القلق، والضجر والأرق، لفقد شاه منصور وعدم الوقوف على حال ذلك الأسد الهصور، أهو في الأحياء فيخشى فكره، أم انتقل الى دار الفناء فيؤمن مكره، فأمر بتفتيش الجرحى، والتنقيب عنه بين القتلى والطرحى، الى أن كادت الشمس تتوارى بالحجاب، ويغمد حسام الضياء من الظلام في قراب، فعندما ضُمَّ دينار البيضاء، تحت ذيل ملاءة الضياء، ومَدَّ نَسَّاج القدرة في جو الفضاء سدى، والليل اذا سجى ونثر على سطح هذا الأديم المسا. دراهم كواكبه الزهراء، واتسع الظلام واتسق، عثر واحد من الجغتاي على شاه منصور وبه أدنى رمق، فتشبَّث شاه منصور بذلك الانسان، بل الشيطان الخوان، وناداه الأمان الأمان أنا شاه منصور فأكتم عني هذه الأمور وخذ مني هذه الجواهر وخافت في قضيتي ولا تجاهر، ولا رأيتك ولا رأيتني، ولا عرفتك ولا عرفتني، وإن أخفيت مكاني ونقلتني الى إخواني وأعواني، كنت كمن أعتقني بعدما ما اشتراني، ومن بعد ما أماتني أحياني، وكنت ترى مكافأتي، وتغنم مصافاتي، ثم أخرج له من الجواهر، ما يكفيه وذريته الى اليوم الاخر. فكان في قصته واستكشاف غصته. كالمستغيث بعمرو عند كربته.

فما عتم أن وثب[3] على شاه منصور، وحزَّ رأسه، وأتى به الى تيمور[4] وحكى له

(١) الرهج: الغبار.

(٢) عدته.

(٣) يعني ما لبث أن وثب.

(٤) يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (١٢/٢٦٠) (ثم انتخب شاه منصور من فرسانه ←

ما جرى بتنجيز المشترى، فما صدَّقه، ولا في كلامه استوثقه[1] بل أخرج من قبائله وشعوبه من عرّفه به. فعرفوه بشامة كانت في وجهه علامة، فلما علم أنه شاه منصور بعينه، وتميَّز له صدق ذلك الرجل من مينه. تحنَّق وتحيف، وتحرق لقتل شاه منصور وتأسف، ثم سأل ذلك الرجل عن محتده، وعن والده وولده، وعن قبيلته وذويه، ومخدومه ومربيه، فلما استوضح أخباره، وعلم نجاره ووجاره أرسل مرسومه الى متولي تلك الدار. فقتل أهله وأولاده. وأعوانه وأنصاره. وآله وأحفاده. وأختانه وأصهاره. وقتله شرّ قتلة ومحا آثاره. وصادر مخدومه وقتله وخرّب دياره.

ثم أرسل إلى أطراف ممالكه مطالعات، يذكر فيها صور تلك المصافات والمواقعات، وما شوهد من وثبات شاه منصور وثباته، وغشيانه غمرات الحروب وضرباته، وما حصل في واقعة القتال على الحديد في صَفِّ مرسلاته، وكيف زُلزلت العاديات وَوَلْوَلت النساء في فتح حجراته بعبارات هائلة وكلمات في ميادين الفصاحة والبلاغة جائلة، وهذه المطالعات تقرأ في المحافل والمشاهد، وتُتلى في المصادر والموارد ويستمد منها ذوو الأدب، ويَعني بحفظها الكُتَّاب والصبيان في الكِتَّاب.

(رأيت) في أخبار بعض المعتنين، أنه في شوال سنة خمس وتسعين، ورد رسول صاحب بسطام، يؤذن سلطان مصر بالاعلام، أن تيمور قتل شاه منصور واستولى على شيراز وسائر البلاد، وأرسل رأسه الى حاكم بغداد، وأمره بالطاعة، هو ومن معه

خمسمائة فارس، فأصبح وقاتل بهم من الغد وقصد بهم تيمور حتى أزاله عن موقفه، وهرب تيمور واختفى بين حرمه، فأحاط بهم التمرية مع كثرة عددهم وهو يقاتلهم حتى كَلَّت يداه وقُتلت أبطاله، فانفرد عن أصحابه وألقى نفسه بين القتلى، فعرفه بعض التمرية فقتله، وأتى برأسه الى تيمور، فقتل تيمور قاتله أسفاً عليه. واستولى تيمور أيضاً على جميع ممالك العجم بأسرها بعد شاه منصور).

(١) وقد استطاع أحد رجال شاه رخ بن تيمور أن يصيب شاه منصور إصابة قاتلة، ولما وقع على الأرض قطع شاه رخ رأسه وأسرع ليضعه بين يدي والده، وأشار تيمور الى الحادثة في مذكراته واعترف بأنه كاد أن يلقى مصرعه على يد شاه منصور.
وبما أن الخطر الذي تعرض له تيمور كان جدياً فقد أسرع من كان حوله لتقديم التهاني له وشكروا الله عندما رأوا رأس شاه منصور ملقى على الأرض (شهاب ٢١٧).

من الجماعة، وأرسل اليه خلعة[1]، وأن يضرب السكة[2] باسمه ويخطب بذلك في الجمعة[3]، فلبس خلعته وائتمر ممتثلا كل ما به أمر. وأنه علّق رأس شاه منصور، بعدما طافوا به على السور، وما أظن لذلك صحة.

ذكر ما وقع من الأمور والشرور بعد واقعة شاه منصور

فاستولى تيمور على ممالك فارس وأرض عراق العجم وراسل[4] من داناه من أقارب شاه شجاع وملوك الأمم، واستمال الخواطر، وآمن البادي والحاضر، ورحل فجاز مدينة شيراز[5]، وضبط أحوالها، وقرر فيها خيلها ورجالها، ونادى بالأمان، للقاصي والدان. فَلَبَّت دعوته ملوك البلاد ولم يسعهم معه إلا الاطاعة والانقياد[6].

فوصل اليه سلطان أحمد من كرمان، وشاه يحيى من يزد وعصى سلطان أبو اسحاق في سيرجان[7]. فأنعم وخلع على من أطاع وانقاد، ولم يتعرض لمن أظهر العناد، ولم يشق بينه وبين مخالفيه العصا، وأكرم من أطاعه ليوقع بذلك من عصى.

وطرح على شيراز وسائر البلدان مال الأمان[8]، وأقام في كل بلدة من جهته نائباً

(١) بالكسر: وهو ما يخلع على الانسان وخيار المال ويضم.
(٢) السكة التي تُسكّ النقود وينقش عليها اسمه.
(٣) أن تكون خطبة يوم الجمعة باسمه. فيخطب له على المنابر وهذا دلالة على تبعية البلاد له.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وارسل. وهو تحريف
(٥) على اثر مقتل شاه منصور تقدمت قوات تيمور حتى ضربت الحصار على شيراز، وكان للمدينة تسعة ابواب، ولم تقو شيراز على المقاومة واختار أهل المدينة الدخول في طاعة تيمور ودفع اموال الأمان، وصودرت مخلفات شاه منصور من الأموال والخزائن والأقمشة، ووزعت على الجند. واعتقل « غضنفر بن شاه منصور ».
(٦) قدّم الحكام المظفريون الآخرون فروض الطاعة والولاء محملين بالهدايا، فجاء « شاه يحيى » مع اولاده من « يزد »، وحضر سلطان احمد من « كرمان » وقدم السلطان ابو اسحاق من « سيرجان »، وأرسل تيمور يزف خبر النصر الى سمرقند.
(٧) سيرجان: بكسر أوله وسكون ثانيه ثم راء وجيم وآخره نون، مدينة بين كرمان وفارس وتقع في ايران اليوم
(٨) ضبط تيمور أمور البلاد والغى الرسوم والضرائب الجائرة التي فرضها آل المظفر على الرعية ←

وتوجه الى أصبهان، وأحسن الى زين العابدين[1] الذي هو وصية من أبيه، ووظف له من الجوامك[2] والادرارات ما يكفيه وذويه.

ذكر ما صنع الزمان عند حلوله باصبهان

فلما وصل الى أصبهان، وكانت من أكبر البلدان. مملوءة بالأفاضل ومحشوة بالأماثل[3]، وبها شخص من علماء الاسلام، والسادة الأعلام، قد بلغ في العلم الغاية، وفي العمل والاجتهاد النهاية، أفعاله مبرورة، وكراماته مشهورة، ومآثره مذكورة، ومحاسنه على جبهة الأيام مسطورة، وهو معتقد المسلمين، وكان اسمه: إمام الدين، وكان أهل أصبهان يذكرون له تيمور، ويحذرون من شره أي محذور، فيقول لهم: مادمت فيكم حياً، لايضركم كيده شيا، فإن وافاني الأجل، فكونوا من أذاه على وَجَلْ، اتفق أنه في وصول تيمور، توفي الشيخ المذكور، فأصبحت اصبهان ظلمات بعضها فوق بعض بعد أن كانت نوراً على نور، فتضاعفت حسرتهم، وترادفت كسرتهم، فوقعوا في الحيرة، وصاروا كأبي هريرة[4] رضي الله عنه حيث يقول:

للناس هَمٌّ ولي في اليوم هَمّان فَقْدُ الجراب وقتل الشيخ عثمان

فخرجوا اليه وصالحوه على جمل من الأموال[5]، فأرسل فيهم لاستخلاصها الرجال، فوزّعوها على الجهات، وفرضوها على الحارات والمحلات، وتفرّق فيهم المستخلصون، فكانوا يعيثون فيهم ويعبثون، واستطالوا عليهم فجعلوهم كالخدم، وتوصلوا الى أن مَدُّوا أيديهم الى الحُرمْ[6]، فانتكوا منهم أي نكاية، فرفع أهل أصبهان

خلال حكمهم عندما رفع كل أمير منهم لواء الاستقلال في ناحية معينة من بلاد فارس. وورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وسائر البلاد بالامان.

(١) الأمير زين الدين بن شاه شجاع

(٢) الرواتب

(٣) ممتلئة بالأفاضل، فلان أمْثل بني فلان أي أدناهم للخير. وهؤلاء أماثل القوم أي خيارهم

(٤) أحد مشاهير صحابة النبي محمد ﷺ

(٥) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وصالحوه على حمل اموال.

(٦) الحرمات

الى رئيسهم الشكاية، وكثرت منهم الشكية، وهم قوم لهم حمية، وقالوا: الموت على هذه الحالة، خير من الحياة مع هذه الاستطالة[1]، فقال لهم رئيسهم: اذا أقبل المساء، فاني أضرب الطبل لكن لا تحت كساء، فاذا سمعتم الطبل قد دقّ، فالقول قد حقّ، فليقبض كل منكم على نزيله وليحتكم فيه بِسَمين رأيه وهزيله، فاتفقوا على هذا الرأي المعكوس والامر المنكوس في الطالع المنحوس، وقصروا مدى أنظارهم السقيمة[2]، عن قصارى هذه الأمور الوخيمة[3].

ولما تعرّى العنان[4] من ثوب نوره، وابدل الجو قاقمه[5] بسموره[6]، ومضى هزيع[7] من الليل، ضرب الرئيس الطبل فَحلّ بالمستخلصين الويل، فقتلوهم وكانوا نحوا من ستة آلاف، وأصبحوا، وقد غرسوا في دوح[8] العصيان أغصان الخلاف، فأثمر ذلك لهم الحَور بعد الكَور. وبان لهم البوار فأصبحوا بوراً بهذا البور.

ولما سَلَّ الفجر حسامه، وحسر النهار لثامه، بلغ تيمور ذلك الصنع المشئوم.

(١) حين تقدم تيمور الى اصفهان عسكر ظاهر المدينة. وخرج اليه اعيانها وعلماؤها لاستعطافه. وتعهدوا بدفع ما طلبه من أموال الأمان. وأرسل تيمور قواده وجنوده لجمع الأموال المفروضة. فعاث هؤلاء في المدينة فساداً. وخلال الليل أغار السكان على جنود تيمور واشتبكوا معهم ووجد تيمور في صباح اليوم التالي أن ستة آلاف من جنوده وضباطه قد قتلوا خلال تلك الليلة. وكان جزاء أهل المدينة الذي اوقعه تيمور عليهم هو اعلان القتل العام فيها واباحة المدينة. وقد أمر كل فرقة من جيشه أن تحضر من الرؤوس البشرية عدداً يساوي عدد افرادها. وعمد بعض الجند الى شراء بعض الرؤوس من زملائهم. وبلغ سعر الرأس دينارا واحداً. ولما كثرت الرؤوس انخفض السعر الى نصف دينار للرأس البشري الواحد ـــ على حد قول المصادر التيمورية ـــ شهاب ١٩٥

(٢) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: السليمة.

(٣) وردت في بعض النسخ: هذا الأمر الوخيم.

(٤) العَنَان: عنان السماء: ما بدا منها إذا نظرتها، العنان: السحاب أو الذي يمسك الماء.

(٥) القاقم: دويبة تشبه السنجاب إلا انه ابرد منه مزاجا وأرطب، ولهذا فهو ابيض وهو اعزّ قيمة من السنجاب.

(٦) السمور: حيوان يتخذ من جلده فرو ثمين، ويقطن شمال آسية

(٧) طائفة من الليل أو نحو ثلثه أو ربعه

(٨) الدَّوح: الشجر العظيم ذو الفروع الممتدة.

فنفخ الشيطان منه في الخيشوم[1]، فارتحل من فوره واستل عَضْبَ[2] غضبه ونَثَل[3] جعبة جوره، وتوجه نحو المدينة مزمجرا متكالباً مستأسداً متنمرا، فوصل اليها، وأخنى عليها، وأمر بالدماء أن تسفك، وبالحرمات أن تهتك، وبالأرواح أن تسلب، وبالأموال أن تنهب، وبالعمارات أن تخرب، وبالزروع أن تحرق، وبالضروع أن تخرق، وبالأطفال أن تطرح، وبالأجساد أن تجرح، وبالأعراض أن تثلم، وبالذمم أن تسلم[4] ولا تَسْلَمْ، وأن يطوى بساط الرحمة، وينشر مسح النقمة، فلا يرحم كبير لكبره، ولا صغير لصغره، ولا يوقر عالم لعلمه، ولا ذو أدب لفضله وحلمه، ولا شريف لنسبه ولا منيف لحسبه، ولا غريب لغربته، ولا قريب لقرابته وقُربته، ولا مُسلم لاسلامه، ولا ذمّي لذمامه، ولا ضعيف لضعفه، ولا جاهل لركاكة رأيه وسُخفه.

وبالجملة فلا يبقى على أحد، ممن هو داخل البلد فأما أهل المدينة فعلموا أنه ليس للجدال مجال، فضلاً عن ضراب وقتال وأن قبول الاعتذار محال وأنه ليس ينجيهم من ريب المنون مال ولا بنون ولا يقبل منهم في تلك الساعة عدل ولا تنفعهم شفاعة[5]. فتحصنوا بحصون الاصطبار، وتدرعوا دروع الاعتبار، وتلقوا سهام القضاء من حنايا المنايا بمجنّ تسليم المراد، واستقبلوا ضربات القدر من سيوف الحتوف بأعناق التفويض والانقياد، فأطلق في ميادين رقابهم عنان الحسام البتّار، وجعل مقابرهم بطون الذئاب والضباع وحواصل الأطيار[6].

ولا زالت عواصف الفناء تَحتُهُم من أشجار الوجود حتّاً، حصروا عدد القتلى فكان نحو ست مرات من أمة يونس بن مَتّى[7]، فاستغاث بعض البُصراء، بواحد

(١) الخيشوم : أقصى الأنف .
(٢) العضب : السيف
(٣) نثل نثلاً الركيّة والحفرة : أخرج ترابها ، إنتثل ما في كنانته : استخرج ما فيها من سهام .
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : تثلم.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ولا ينفعهم عدلٌ ولا شفاعة .
(٦) حواصل الطيور .
(٧) يذكر أن عدد القتلى ست مرات من أمة النبي يونس بن متي ، وهذه إشارة إلى العدد الذي ذكره القرآن الكريم في صورة الصافات الآية ١١٧ (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتّعناهم إلى حين).

من رؤوس الأمراء، وقال البقية[1] في البقية، والرعاية في الرعية، فقال ذلك الأمير للسائل الفقير : اجمعوا بعض الأطفال عند بعض القلل، فلعلّ أن نُليِّن منه عند رؤيتهم شيئاً ما عسى ولعل، فامتثلوا ما به أمَر، ووضعوا شرذمة من الأطفال منه على الممر.

ثم ركب ذلك الأمير مع تيمور وأخذ به على تلك الأطفال ومرّ، ثم قال له : انظر يامخدوم. نظر الرأفة[2] الى المرحوم. فقالُ : ما هؤلاء. الطرحى الأشقياء؟ فقال : أطفال معصومون، وأمة مرحومون محرومون، استحرّ القتل بوالديهم، وحَلَّ غضب مولانا الأمير على أكابرهم وذويهم. وهؤلاء يسترحمونك بعواطفك[3] الملوكية وصغرهم، ويستشفعون اليك بذلّهم وضعفهم ويُتمهم وفقرهم وكسرهم، أن ترحم ذلّهم، وتُبقي على من بقي لهم، فلم يُحر[4] جوابا، ولا أبدى خطابا، ثم مال بعنان فرسه عليهم، ولم يظهر أنه بَصُر[5] بهم أو نظر اليهم، ومالت معه تلك الجنود والعساكر، حتى أتى منهم على الأول والآخر[6]، فجعلهم طعمة للسنابك، وَدُقة[7] تحت أقدام أولئك. ثم جمع الأموال، وأوثق الأحمال، ومال راجعاً الى سمرقند بما قد نال.

وكم بين هذه الأمور والقضايا، من دواه وبلايا، وأخبار وحكايات وتجهيز سرايا، وتولية وعزل، وابراز هزل في صورة جدّ وجدّ في صورة هزل، وبناءٍ وهَدّ، وصَدّ ورَدّ، وتعمير غامر، وتخريب عامر، وتهان وتعاز[8] . وانحراف وتواز، ومباحثات مع علماء،

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : التقية في البقية .
(٢) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : نظر الراحم إلى المرحوم .
(٣) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : يسترحمون بعواطفك الملوكية .
(٤) وردت في بعض النسخ : فلم يجب .
(٥) بصر : بفتح فضم عَلِم ويذكر المؤرخون ما حدث في أصفهان : أن جند تيمور جمعوا في ظاهر المدينة ما يقارب من سبعين ألف من الرؤوس الآدمية ، وتم بناء ثمان وعشرين برجاً منها وكان تاريخ هذه المذبحة يوم الأحد الخامس من ذي القعدة عام ٧٨٩ هـ = ١٧ تشرين الثاني ١٣٨٧ م .
(٦) يذكر ابن عرب شاه أن بعض أتباع تيمور إستعطفه ليعفو عن الأطفال ، ولكن تيمور الذي وقف ساكتاً برهة أمامه أمر رجاله فأغاروا عليهم بالخيول حتى قتلهم جميعاً .
(٧) الدقة : بضم الدال : التراب اللّين .
(٨) التهاني والتعازي .

ومناظرات مع كبراء، ورفَع وضعاء[1] . ووضع شرفاء، وتمهيد قواعد، وتقريب أباعد، وتبعيد أدانْ[2] ، وبروز مراسيم الى كل قاص ودانْ، الى غير ذلك مما لا يكاد يحصر، ولا يضبط بديوان ولا دفتر .

ذكر ضبطه طرف المغل والجتا وما صدر منه في تلك الأماكن وأتى

ولما وصل الى سمرقند ارسل ابن ابنه محمد سلطان بن جهانكير، مع سيف الدين الأمير، الى اقصى ما تبلغ اليه مملكته، وتنفذ فيه كلمته، وهو وراء سيحون شرقاً سوا، آخذاً في نحور[3] ممالك المغل[4] والجتا والخطا[5] . نحواً من مسيرة شهر، عن ممالك

(١) رفع وضعاء : من كان مركزه وضيعاً في المجتمع .
(٢) الداني القريب .
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بحور .
(٤) المغول : ظهرت الأحداث في القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي عن قيام حوادث في اسية الوسطى من منغولية، تتمخض عن امبراطورية مغولية بقيادة جنكيز خان، وقد عاشت القبائل المغولية في المنطقة الواقعة في وسط آسيا بين نهري سيحون وجيحون من الغرب، حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى أقصى الشمال الشرقي لآسيا .. ويمكن اعتبار هضبة منغوليا وسلاسل جبال تيان تيان وجبال التاي وما بينهما من سهول وصحراء جوبي، وحول بحيرة بايكال وضفاف الأنهار في تلك المنطقة الموطن الرئيسي لقبائل المغول . وإن بُعد هذه المناطق الشديد عن البحار فضلاً عن ارتفاعها أسهم أن يخصها بمناخ قاري إذ تتراوح درجة الحرارة في معظم أجزائها ما بين ٣٨° فوق الصفر و ٤٢° تحت الصفر . في هذه البيئة القاسية كانت هذه القبائل تعيش . كتاب المغول للعريني ص ١٩ .
(٥) الخطا : طائفة من طوائف بدو المغول أغاروا على اقليم منشوريا الصيني في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي واستطاعوا أن يؤسسوا سلالة مالكة حكمت الصين هي اسرة لياو، وتحولوا هناك عن حياة البداوة بعد ان تمثلوا حضارة الصين، ومالت حياتهم الى السلم والدعة . ولم يلبث الصينيون أن طردوهم من بلادهم على يد أسرة صينية هي اسرة كين .
ولم يكد مطلع القرن السادس الهجري = مطلع الثاني عشر الميلادي يطل حتى كانت جموع الخطا تتدفق على تركستان وغيرها من مناطق آسية الوسطى . وافتتح قدومهم عهداً ←

ما وراء النهر، فمهَّدوا هنالك الوهد واليفاع[1]. وبنوا فيه جملة من القلاع، وأقصاها بلد يسمى اشباره فبنوا فيه حصناً حصيناً معدّاً للنهب والغارة، وخطب من بنات الملوك ملكة أخرى وكانت الأولى تدعى الملكة الكبرى، والأخرى الملكة الصغرى. فأجابهم ملكهم الى ما سأل، وأناب الى ما طلبه منه بالاطاعة وبذل، وارتجت منه اقاليم المغل والخطا، وذلك لما بلغهم مما فتك، في كل طرف وبتك[2] ، من بلاد الاسلام وسطا .

وكان السفير في ذلك (الله داد) أخو سيف الدين المذكور، وهو الذي استخلص أموال دمشق ونزل في دار ابن مشكور .

وأمر تيمور ببناء مدينة على طرف سيحون من ذلك الجانب، وعقد اليها جسراً على متن النهر بالمراسي والمراكب، وسماها شاه رخية . وهي في أماكن رخية[3].

وسبب تسمية ابنه شاه رخ[4] بهذا الاسم، ووسم هذه المدينة بهذا الوسم، أنه كان على عادته، مشغولاً بلعب الشطرنج مع بعض حاشيته، وقد أمر ببناء هذه المدينة على هذا الساحل، وكانت احدى حظاياه معه وهي حامل، فرمى على خصمه شاه رخاً، فذبل خصمه لذلك وارتخى، وبينا خصمه قد وقع في الاين واذا بِمبشِّرين جاءا مُخبرين، أحدهما يُبَشِّره بولد، والآخر يُبشره بتمام عمارة البلد، فسماها بهذين الاسمين، ووسمهما بهذين الوسمين .

من الصراع التركي المغولي استمر حتى عصر تيمور . وطبَّق الخطا بعد ان استولوا على ما وراء النهر اسلوب الادارة الصينية واعتبرت في عهدهم اللغة الصينية لغة رسمية . وقد بقي الخطا على وثنيتهم، ولم يعتنقوا الاسلام كما فعل المغول أقرباؤهم فيما بعد (شهاب ٦٠ — ٦١).

(١) ورد في النسخة المطبوعة ١٢٨٥ هـ (البقاع)
(٢) لا توجد في بعض النسخ .
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وسماها شاه رخية وهي في أماكن رحبة .
(٤) هو القان معين الدين سلطان شاه رخ بن تيمورلنك ملك الشرق وسلطان ما وراء النهر وخراسان، وخوارزم وعراق العجم وما زندران ومملكة «دلي» من الهند، وكرمان وأذربيجان (الضوء اللامع ٢٩٢/٣)

ذكر عودة ذلك الأفعوان الى ممالك فارس وخُراسان وفتكه بملوك عراق العجم واستصفائه تلك الممالك[1] والأمم

ثم عاد، بعد تمهيد البلاد وتوطيد قواعد ممالك تركستان، الى بلاد خراسان، فاستقبله الملوك والأمراء، والسلاطين والوزراء، وسارعوا اليه من كل جانب، ما بين راجل وراكب، ملبين دعوته، حذرين سطوته. مغتنمين خدمته، وسلموه الأنجاد والأغوار، والأطواد والقفار والقرى وسكانها، والذرى وقطانها، والقلاع العاصية، وربطوا بذيل أمره كل ناصية. ممتثلين أوامره. مجتنبين زواجره، عاقدي نطاق عبوديته بأنامل الاخلاص، تابعي رائد مرضاته على نجائب الولاء والاختصاص، فمنهم جميع[2] من مرّ ذكره من المطيعين، ومن كانوا في الشواهق ممتنعين منيعين، ومن جملتهم: اسكندر الجلابي أحد ملوك مازندران، وأرشيوند الفارسكوهي ذلك الأسد الغضبان، صاحب الجبال والشوامخ العاصية القلال، وإبراهيم القمي صاحب النجدة، والمعدّ لكل شدّة، وأطاعه السلطان أبو إسحاق من سيرجان، فاجتمع عنده ملوك عراق العجم سبعة عشر نفراً ما بين سلطان وابن سلطان وابن أخي سلطان، كلهم في ممالكه ملك مطاع، مثل سلطان أحمد أخي شاه شجاع، وشاه يحيى ابن أخي شاه شجاع، سوى ملوك مازندران، وسوى أرشيوند وإبراهيم وملوك خراسان.

ولما سلك السلطان أبو اسحاق نمط أقاربه في الطاعة وعمل على ذلك الطرز، خَلَّف ببلده سيرجان نائباً يقال له: « كودرز ».

فاتفق في بعض الأيام، أنه اجتمع عند تيمور هؤلاء الملوك العظام، فكانوا عنده في خيمة له وهو بينهم وحده، فأشار واحد منهم هو شاه يحيى[3]، وقد أمكنت الفرصة، أن يقتله ويرفع عن العالم هذه الغصة، فأجابه بعض وامتنع بعض، وقال لمن رضي بذلك منهم ومن لم يرض: إن لم تكفوا[4]، وعن هذا المقال تعفوا، أخبرته بهذه المقالة وأطلعته على هذه الحالة، فامتنعوا عن هذا الرأي المتين والفكر الرصين،

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الولايات.
(٢) لا توجد في بعض النسخ
(٣) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فأشار واحد منهم إلى شاه يحيى.
(٤) بتشديد الكاف من الكف وهو الامتناع

لاختلافهم ولا يزالون مختلفين، وكأنه طالع أحوالهم أو تفرس أقوالهم، فأسرّها في نفسه ولم يبدها لهم.

ثم مكث أياماً، وجلس للناس جلوساً عاماً، وقد لبس ثياباً حُمراً، ودعا هؤلاء الملوك السبعة عشر طرّاً، ثم أمر فقتلوا جميعاً[1] في ساعة واحدة صبرا، ثم لما أبادهم، ضبط بلادهم، وجمع طريفهم وتلادهم، وقتل أولادهم وأحفادهم[2]. وأقام في ممالكهم أولاده، وأمراءه وأحفاده وأسباطه وأجناده[3].

وسبب قتله هؤلاء الملوك وفتكه، وتمزيقه ستر حياتهم وهتكه، أن بلاد العجم

(١) يقول المؤرخ شرف الدين يزدي ان تيمور عمل على رفع الوية العدل وضبط امور البلاد والغاء الرسوم والضرائب الجائرة التي فرضها آل المظفر على الرعية خلال حكمهم واستئثارهم بالسلطة، وعندما رفع كل امير منهم لواء الاستقلال في ناحية معينة من بلاد فارس. واستمع تيمور الى مطالب العلماء وأهالي البلاد وشكاواهم، عن افعال آل المظفر القبيحة ولذلك اصدر تيمور في ٢٣ جمادى الاخرة ٧٩٥هـ = ٧ ايار ١٣٩٣م اوامره باعتقال جميع افراد الاسرة الحاكمة المظفرية حتى الذين جاءوا اليه مقدمين خضوعهم. فصودرت املاك سلطان أحمد حاكم كرمان وارسلت قوات الى سيرجان قتلت حاكمها ابو اسحاق المظفري وارسل بعض الامراء منهم الى سمرقند من امثال السلطان زين العابدين وشقيقه سلطان شبلي.
وقد ذكر ابن عربشاه أن تيمور رأف بحال زين العابدين لانه كان وصيا عليه. كما نصت على ذلك وصية شاه شجاع والد زين العابدين قبل وفاته. وكان تيمور يشعر أن حكم بلاد فارس لن يصفو له، الا بالقضاء على هذا البيت المالك العريق. وقدّر ابن عربشاه عدد من شملتهم حركة التطهير التيمورية بسبعة عشر أميراً. (شهاب ٢١٧)
(٢) بعد ان اصدر تيمور قراره بملاحقة آل المظفر، اتبعه بقرار لاحق بتاريخ ٨ رجب ٧٩٥ هـ = ٢١ ايار ١٣٩٣م يقضي بقتل جميع افراد الاسرة الكبار والصغار منهم، وتتبع ذراريهم من الذكور ممن كان لا يزال مقيماً في يزد وكرمان ويستشهد يزدي بالآيتين القرآنيتين «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ...». «وتلك الأيام نداولها بين الناس ...» للدلالة على ان ملاحقة تيمور لآل المظفر ملاحقة جدية، وانتهت الى تصفيتهم، تصفية تامة والقضاء على نفوذهم بصورة كاملة.
(٣) وقد اسرع تيمور الى ارسال حكام من اتباعه الى المناطق التي كانت تحت حكم آل المظفر.

كانت لا تخلو عن الملوك الأكابر، ومن ورث المُلك والسلطنة كابراً عن كابر، وهي ممالك واسعة، أطرافها شاسعة، مدنها وافرة، وقراها متكاثرة، وأوتاد أوتادها راسخة، وعرانين[1] أطوادها شامخة، ومخدّرات[2] قلاعها ناشزة، ومضمرات مكانها[3] ومعادنَها غير بارزة، كواسر أكاسرها كاسرة، ونواشر جوارحها للظهور ناشرة، ونمور دُعارها طامرة، وببور[4] شُطّارها طافرة، وثعابين أبطالها في جداول الجدال ظاهرة، وتماسيح أقيالها في بحار الحراب[5] قاهرة.

فنظر تيمور بعين بصيرته. في وذيلة[6] تأمله ومرآة فكرته، فرأى أنه لا يزكو له وردُ عارضها من شوكة عارض، ولا يصفو ورد ثغر فائضها من شارب معارض، ولا يثبت له في بنيان ممالكها أساس يحكم[7]، ولا ينبت له في بستان مسالكها غراس تنعم[8].

وكان قصده ابقاء مبانيها، وإجراء أموره على ما اقتضته التوراة الجنكيز خانية فيها، فلم يمكن عمل فلاحة سلطنته في بسيط أرضها، وسوق أنهار أوامره في جرائب[9] ممالكها طولها وعرضها، إلا بقلع علائق أنساب أكابرها، وكسر قوادم أخشاب أحساب أكاسرها، فسعى في استئصال فرعهم وأصلهم، واجتهد في إهلاك حرثهم ونسلهم، وجعل لا يسمح لهم ببزرة نطفة في أرض رحم إلا قلعها، ولا يشم منهم رائحة زهرة في كمّ كمين إلا قطعها.

وقيل: إنه كان في مجلس فيه اسكندر الجلايي، وكأنه كان مجلس نشاط ومقام انشراح وانبساط، فسأل اسكندر في ذلك المحضر، وقال: إن حكم القضاء بإفساد

(١) عرنين: الأنف تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشَّمَمْ.
(٢) بضم الميم أي مستورات
(٣) وردت في احدى النسخ: مكانها
(٤) الببر: حيوان يعادي الأسد
(٥) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: في بحار الضراب.
(٦) وذيلة: المرآة
(٧) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: محكم
(٨) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولا ينبت له في بستان ممالكها غراس ينعم.
(٩) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ضرائب.

بنيتي[1]، من تراه يتعرض لأولادي وذريتي؟ فأجابه وهو في حالة الشطح، وقد خلت عُليّة[2] دماغه ووضع سراج العقل منها فوق السطح: أول من ينازع أولادك المشائيم، أنا وأرشيوند وإبراهيم، فان نجا من مخاليبي منهم أحد، فإنه لايخلص من أنياب ابراهيم الأسد، وإن أفلت منهم من ذلك البند، فإنه لامخرج له من شرك[3] أرشيوند، وكان أرشيوند وابراهيم غائبين، فلم يتعرض تيمور لاسكندر بضرر وشين، وأراد بالابقاء عليه، وقوعه مع صاحبيه، فلما أفاق اسكندر، ليتم ما قال، فقال: لا مفرّ من قضاء الله ولا مجال، ولا عتب في ذلك علي، أنطقني بذلك الله الذي أنطق كل شيء.

ثم إن اسكندر وإبراهيم هربا، فقبض على أرشيوند وألقاه في النازعات فصار نبأ، وهتك حريم عمره إذ جرعه أول الرعد فأقرأه آخر نوح وسبأ[4]، ثم إن اسكندر لم ير له أثر، ولا سمع عنه الى يومنا هذا خبر.

وكان كبير الهامة، طويل القامة، اذا مشى بين الناس كأنه علامة، حتى قيل ان يدي[5] ذلك القصر المشيد. كان نحواً من ثلاثة أذرع ونصف بالحديد، وابراهيم القمي استمر على انكماشه، ثم مات على فراشه، فكان ذلك سبب ايراده الملوك وأبناءهم المهالك.

(**فصل**) ثم ان تيمور عصى عليه كُودَرز في قلعة سيرجان، وقال إن مخدومي شاه منصور موجود إلى الآن، وكان هذا الكلام فاشياً في الخاص والعام، فكان كودرز يتوقع ظهوره، ويزجي على ذلك أعوامه وشهوره.

فحاصر تيمور قلعة سيرجان، فلم يلح له عليها سلطان، فوجّه اليها عساكر شيراز ويزد وأبرقوه وكرمان، وأضاف اليهم عساكر سجستان، وذلك بعد أن شملها

(١) اي بعد وفاته
(٢) بضم العين وكسر اللام وتشديدها: اي الجزء الأعلى
(٣) الشَرَك: بفتح ففتح: شبكة الصيد
(٤) آخر سورة نوح في القرآن الكريم (... ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وآخر سورة سبأ: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب).
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: إن مدى ذلك القصر..

العمران، وكان نائبها يدعى شاه أبا الفتح، فحاصروها نحواً من عشر سنين، وهم مابين ظاعنين عنها وعليها مقيمين، وهي بكر لا تفتح لطالبها باباً، وعانس لا يملك خاطبها منها خطابا.

وكان تيمور وَلَّى كرمان، شخصاً يدعى (ايدكو) من اخوان الشيطان[1]. فكان هو المشار اليه، ومن العسكر هو المعول عليه.

ولما تحقق كودرز من شاه منصور وفاته، وخذله الأنصار، وأعجزه الانتصار وَفَاتَهُ، كان أبو الفتح يراسله كل ساعة، ويتكفل له عند تيمور بالشفاعة، أذعن للصلح، واستعمل في ذلك أبا الفتح، ونزل مترامياً عليهم، وسَلَّم الحصن اليهم. فحنق ايدكو عليه، لكون عقد الصلح لم ينحل على يديه، فقتله من ساعته، ولم يلتفت الى أبي الفتح وشفاعته، فأخبر تيمور بذلك. وكان في بعض الممالك، فغضب عليه غضباً شديداً، ولكن فات التدارك.

(**فصل**) مما يُحكى عن ايدكو هذا متولي كرمان أنه كان بها للسلطان، أحمد أخي شاه شجاع ولدان صغيران، أحدهما يدعى سلطان مهدي والآخر سليمان خان، وكان سليمان خان في غاية الحسن واللطافة، حاوياً معاني الملاحة والظرافة، معبى بالكمال، مربى بالدلال، ألفاظه رائقة، وألحاظه راشقة، والأرواح اليه شائقة، وأرباب الألباب له عاشقة، حركاته في القلوب ساكنة، ولفتاته للخلق فاتنة، كما قيل:

نسيم عبير في غلالة ماء وتمثال نور في أديم هواء

وعمره إذ ذاك ستة أعوام ولكن مفتتن به الخاص والعام، فعزم ايدكو على اتلافهما، والحاقهما بأسلافهما، ولم يكتف من تلك الدرة بأنها صارت يتيمة، ولا رقّ لأمهما التي خربت ديارها لكونها مخدَّرة كريمة، ولم يكن لها مدافع ولا عنها ممانع فطلب من الجلادين من يعتمد في ذلك عليه، فلم تطب نفس أحد أن تمتد يده بمكروه اليه، ومضى على ذلك مدة، والخلق بسبب هذه القضية في ضيق وشدة، حتى وجدوا عبداً أسود، كأنه للبلاء مرصد، وكأن الشياطين له عَبَدة والعفاريت جنود وحفدة، وثوب ليل القهر من سدا سواده انتسج، وأصل الشجرة التي طلعها

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : السلطان.

كأنه رؤوس الشياطين[1] من حبة[2] فؤاده نبت فنتج، يستلذ عند صدى صوته خوار الثيران، ويستحسن عند خيال صورته مشاهدة الغيلان قلت:

زبانية النيران تكره وجهه وحين تراه تستعيذ جهنم

قد نزع الله من قلبه المرحمة، وجَبَل فؤاده على المأثمة.

فأرغبوه أن يختلهما، ويقتلهما، وكانت عين سليمان خان رمدا، وقد سكن في حجر دايته وتهدّى فدخل عليه ذلك الظالم من ساعته، واغتاله وهو راقد في حجر دايته، وضربه في جنبه بخنجر، وأنفذه من الجنب الآخر، فارتفع الضجيج والولولة، ووقع العجيج[3] في الناس والزلزلة، وعَمَّ المأتم أمه الوالهة وأهلها، وطفق الناس يبكون عليها ولهاً، والظاهر أن هذه الأمور، كانت باشارة تيمور، وعسكر ذلك الظلوم الكفار، ماكان يخلو عن مثل هذه الشرور والأشرار، ولو كان فاعله من غيرهم، لكن لعلة المصاحبة والمرافقة كان يسير بسيرهم.

حكاية

لما ارتحل من الشام[4] بجنوده الغزيرة، كان مع واحد منهم أسيرة، كشفت أيدي النوائب قناع عصمتها ولطمتها، وعلى يدها بنت لها رضيع ففطمتها، فلما قربوا من حماة[5]، جعلت البنت تئن أنين الأوّاه[6]، ولما بها من المضض المنكى تنكد وتبكي. ومعهم جَمَّال[7] من بغداد، منطو على الفساد، محتو على النكاد، مجبول

(١) من قول الله تعالى في القرآن الكريم سورة الصافات الآية ٦٢ ــ ٦٥ (أذلك خير نُزلاً أم شجرة الزقوم. إنا جعلناها فتنة للظالمين. إنها شجرة تخرج في اصل الجحيم. طلعها كأنه رؤس الشياطين).

(٢) وردت في بعض النسخ: جنة

(٣) العجّة: والعجيج: الصياح والجلبة.

(٤) غادر تيمور دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان سنة ٨٠٣ هـ بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً (النجوم الزاهرة ١٢/٢٤٥).

(٥) حماه: مدينة حماه في الطريق بين دمشق وحلب

(٦) المتألم.

(٧) جمَّال: قائد الجمل

على الغلاظة والقساوة، معمول من الفظاظة والغباوة، ممتلىء من البذا[1]. متضلع من الاذى، لم يخلق الله تعالى في قلبه من الرحمة شيئاً فينتزع، ولم يودع لسانه لفظاً من الخير فيستمع، فأخذ تلك البنت من أمها، فدار في وهمها أنه إنما أخذها ليخفف عنها من هَمّها، وكانت راكبة على جمل.

ثم انقطع ساعة عن الثقل ثم وصل ويده خالية وقهقهته عالية، فاستكشفت امها حَالَها، فقال: مالي ومالها فهوى عقلها ووهى، فطرحت نفسها ونحت نحوها، فأخذتها وانقلبت وأتت بها وركبت، فتناولها منها مرة أخرى، على أن لا يسومها ضرّاً، ثم غاب عنها ورجع وقد صنع كما صنع، فألقت نفسها ثانية، وعدت اليها ثانية وجاءت وهي عانية، وقطوف حياتها دانية، فركبت وأخذتها، ووضعتها على كبدها التي منها فلذتها، فأخذها منها مرة ثالثة، بنيّة في الفساد عابثة، وحلف لها يميناً حانثة أنه بحملها ينوء[2]، ولا يمسها بسوء، فحملها ساعة ثم خرج عن سنة الجماعة، ورمى بها في بعض البطاح. وفعل[3] بها ما فعله اليهودي[4] بصاحبة الأوضاح[5]. وجاء ويده الدامغة، في الاثم ملأى ومن البنت فارغة، وقد سلبها سَلْبها، وجلب الى أمها جلبها، فاطّرحت نفسها باكية، ورامت الرجعى جارية، فقال لها: لا تتعبي، كفيتك هَمَّها فارجعي واركبي، فبكت وصاحت، وأنّت وناحت، ووقعت في العناء وان كانت قد استراحت، والناس على دين ملوكهم، سالكون طرائق سلوكهم.

سبب دخوله الى عراق العرب. وإن كان إيذاؤه لا يحتاج إلى علة وسبب

ولما خلص لتيمور جميع ممالك العجم، ودانت له الملوك والأمم، وانتهت مراسيمه

(١) البذا: البذاءة والفحش وسلاطة اللسان

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يحملها وينوء.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ومثّل.

(٤) أي قتلها، وقصة اليهودي المشهورة وملخصها أن يهودياً رضّ رأس جارية بين حجرين وفي رواية رماها بحجر وجيء بها إلى النبي ﷺ وبها رمق فسألها إلى أن أشارت برأسها أن قاتلها هو اليهودي، ثم حكم النبي ﷺ أن يرضّ رأس اليهودي بالحجر (أقضية رسول الله ﷺ لابن الطلاع القرطبي ص ١٥ ــ ١٦).

(٥) الأوضاح نوع من الحلي يعمل من الفضة، سميت بها لبياضها.

الى حدود عراق العرب، غضب السلطان أحمد[1] صاحب بغداد واضطرب، فجهز جيشاً عرمرماً، وجعل رئيسهم أميراً مقداماً مقدماً، يدعى: سُنتاي، فتوجه الجيش نحو الجغتاي، فبلغ تيمور[2] خبر الجيش وخُبْره، فَسرّ بذلك قلبه وانشرح صدره، فجعل ذلك سبباً لمهاوشته، وذريعة لمحاربة ملك العراق ومناوشته، وأنفذ جيشاً كرّاراً، بل بحراً زخاراً، فتلاقيا بصدق نية، على مدينة سلطانية[3]، فصدّق كل منهما صاحبه الضراب، وسدد لنحره ألسنة الأسنّة وسهام الحراب، واستمد بحر الجغتاي من أفواج أمواجه واصطدم، فانكسر في قساطله[4] قُنَيَّات جند سنتاي فانهزم، ووصل فلُّهم[5] الى بغداد، وتشتتوا في البلاد.

فألبس السلطان أحمد سنتاي المقنعة، وأشهره في بغداد بعد أن ضربه وأوجعه[6]، وكف تيمور عن عناده، وقفل متوجهاً الى بلاده.

(١) كان حاكم بغداد أحمد جلاير ذو الأصل المغولي يشكل القوة الثانية التي كان من المتوقع أن تقف في وجه تيمور بعد القضاء على قوة المظفريين في بلاد فارس وتجاوز املاك الدولة التيمورية مع املاك احمد جلاير في العراق (شهاب ٢١٨).

(٢) كان تيمور يعتقد ان السيطرة على العراق امر ضروري لأنه الطريق المؤدي الى بلاد الشام ومصر والحجاز ــ حيث الأماكن الاسلامية المقدسة ــ فضلاً عن اهميته التجارية لوقوعه على طريق التجارة الاتية من الخليج العربي والمتجه الى ما وراء النهر عبر ايران (شهاب ٢١٨).

(٣) مدينة اثرية في ايران بدأ تأسيسها أرغون من آل هولاكو، وأتمها السلطان الجايتو (القاموس الاسلامي ــ احمد بن عطية الله ٣ / ٤٣٥).

(٤) قسطلة النهر: حَسّه وصوته

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كلهم.

(٦) يذكر المؤرخون المعاصرون ان احمد جلاير فضلاً عن سوء اخلاقه الشخصية ومجاهرته بالفساد والفجور فقد اساء الحكم في بغداد، فنكّل باخوته واساء معاملة قواده وامرائه، وبالغ في ظلم الرعية. ويضيف ابن عربشاه على ذلك فيقول ان احد قواد حاكم بغداد ويدعى «سنتاني» الذي انهزم امام قوات تيمور، في المعركة التي دارت قرب السلطانية عام ٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ م. التي كان من نتائجها دخول تيمور الى تبريز، قد تعرض للتوبيخ والضرب عند عودته الى بغداد. وقد دفعت هذه الأعمال سكان بغداد الى مكاتبة تيمور والاستنجاد به. عندما احتل تبريز واضحى قريباً من بغداد. واخذوا يحرضونه على القدوم اليهم (شهاب ٢١٩)

سكون ذلك الزعزع الثائر وهدوء ذلك البحر المائر لتطمئن منه الأطراف فيحطمها كما يريد ويدير بها الدوائر

ثم ان تيمور خرج من سمرقند الى ضواحيها، وجعل ينتقل في جوانبها ونواحيها، وبنى حواليها قصبات[1] سماهن بأسماء كبار المدن والأمهات، وقد صفت له سمرقند وولاياتها، وممالك ما وراء النهر وجهاتها، وتركستان وما فيها من البلاد. ونائبها من جهته يدعى خُدايداد.

وخوارزم التي بها فَنَك وسَطَا، وكاَشْغر[2] وهي في نحر[3] ممالك الخطا، وبلخشان وهي ممالك على حدة عن ممالك سمرقند متباعدة، وأقاليم خراسان وغالب ممالك مازندران، ورستمدار وزاولستان وطبرستان[4]. والري وغزْنة[5] واستراباد، وسلطانية وقزوين[6] وسائر تلك البلاد. وجبال الغور[7] المنيعة، وعراق العجم وفارس الشامخة الرفيعة، وكل ذلك من غير منازع، ولامُجاذب[8] ولا ممانع، وله في كل مملكة من هذه الممالك ولد، أو ولد ولد أو نائب معتمد.

(١) مجموعات من الأراضي
(٢) كاشغر: إقليم يقع في روسيا الآن.
(٣) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: بحر
(٤) طبرستان: بفتح أوله وثانيه وكسر الراء وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل. وتقع في شمال إيران حالياً.
(٥) غزنة: من مدن أفغانستان اليوم.
(٦) قزوين: مدينة في ايران اليوم وباسمها بحيرة تسمى بحر قزوين تقع بين ايران وروسيا ولم تذكر في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٧) جبال الغور: جبال وولاية تقع اليوم في افغانستان، ومنها كان ظهور الدولة الغورية التي سيطرت على الهند الاسلامية بعد الغزنويين
(٨) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مجادل.

انموذج مما كان يغور ذلك الظلوم الكفور، من عساكره في بحور، ويغوص على أمور، ثم يفور بشرور ومن جملة ذلك غوصه مما وراء النهر وخروجه من بلاد اللور[1]

ثم انه مع اتساع مملكته. وانتشار هيبته وصولته. وشيوع أراجيفه في الأقطار، وبلوغ تخاويفه تجاويف[2] الأقاليم والأمصار، وثقل أثقاله، وعدم اختفاء توجهه الى جهة وانتقاله، كان يجري في جسد العالم، مجرى الشيطان من ابن آدم[3]، ويدب في البلاد، دبيب السم في الأجساد. قلت:

يُصوّب يُمنةً وَيُصيب يسرة وينوي جبهة والقصد نُقره[4]

بينا يكون له في المشارق بيارق فيالق، اذ لمع له في الغرب بوارق بوائق، وبينما نغمات طبوله وضربات أعواده تقرع في حصار العراق وأصبهان وشيراز، واذا برنّات أوتاره وبوقات ابواقه تسمع في مخالف الروم ومقام الرهاوي وركب الحجاز.

فمن ذلك أنه مكث في سمرقند مشغولاً بانشاء البساتين وعمارة القصور، وقد أمنت منه البلاد واطمأنت الثغور، فلما انتهت أموره وبلغ الكمال قصوره، أمر بجمع جنده، الى سمرقنده، ثم أمرهم أن يصنعوا لهم قلانس ابتدعها، وعلى صورة من التركيب والتضريب اخترعها، فيلبسونها ويسيرون، وما بيَّن الى اين يصيرون، ليكون ذلك لهم شعاراً، وقد كان ارصد له في كل جهة من مماليكه جُشاراً، ثم رحل عن سمرقند، وأشاع أنه قاصد خجند، وبلاد الترك وجند[5] ثم انه اندمس في دُردور[6] عسكره وإنقمس[7]، كأنه في لجة بحر انغمس، ولم يشعر أحد اين عطف، ولا أنى

(١) اللُور: بضم فسكون اقليم يقع في ايران اليوم
(٢) لم ترد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٣) يشبه ابن عربشاه تيمور كالشيطان في حديث الرسول ﷺ « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ».
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: نثره.
(٥) جند: مدينة في تركتسان، موقعها اليوم في روسيا
(٦) الدردور: موضع وسط البحر يجيش ماؤه
(٧) يقال قمسه في الماء فانقمس، اي غمسه

قصد المختطف، ولا زال في تأويب وآساد، وجَوب بلاد بعد بلاد، يسير سير الكواكب، ويجري جري المراكب[1] ويطرح ما وقفه وَكلَّ[2] من نجائب الجنائب، حتى نبغ[3] من بلاد اللور، ولم يكن لأحد به شعور، وهي بلاد عامرة، خيراتها متكاثرة. وفواكهها وافرة، اسم قلعتها بَروُجرد[4] وحاكمها[5] عز الدين العباسي، وقلعتها وان كانت في الحضيض لكن كانت تسامي بمناعتها حصون الجبال الرواسي، وهي مجاورة همذان. ومتاخمة[6] عراق العرب كأذربيجان[7]، فأحاط بالقلعة وما حواليها وحاصر ملكها المتولي عليها.

ولما كان صاحبها بلا عَدَد ولا عُدَدْ ولا أهبة ولا مدد، وكان في صورة المتوكل المحتسب وأتاه البلاء من حيث لا يحتسب، لم يسعه إلا طلب الأمان، والانقياد له والاذعان، فنزل اليه وسلمه قياده فقبض عليه وضبط بلاده، ثم ارسله الى سمرقند وحبسه، وضيق عليه نَفْسَهُ ونَفَسَه، ثم بعد ذلك بمدة حلّفه ورفع عنه ما نابه[8] وصالحه على جمل من الخيل والبغال، ورده الى بلاده، وإستنابه[9].

ولما استخلص ذلك الكفور ولايات تلك الكفور[10]،واصل السير الى همذان، في اقرب زمان، فوصل اليها وأهلها غافلون فجاءها البأس بياتاً أو هم قائلون[11]، فخرج

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الراكب.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ويطرح كلما وقف.
(٣) نبغ : ظهر
(٤) بَرُوجِرد : بفتح فضم ثم كسر الجيم مدينة تقع في ايران اليوم
(٥) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وحاكمها ملك عز الدين العباسي.
(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مناظرة.
(٧) أذربيجان : بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء وياء ساكنة وقد فتحت أيام الخليفة عمر بن الخطاب.
(٨) ما نابه : ما أصابه
(٩) استنابه : جعله نائباً عنه
(١٠) ورد في بعض النسخ : اللور
(١١) من قول الله تعالى في سورة الأعراف الآية ٣ (وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) والمعنى : فجاءتها النقمة بياتاً اي ليلا أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو).

اليه منها رجل شريف يقال له «مجتبى» وكان عند الملوك مصطفى ولديهم مرتضى، فشفع فيهم فشفَّعه على أن يبذلوا مال الأمان، ويشتروا بأموالهم ما مَنَّ عليهم من الأرواح والأبدان، فامتثلوا أمره وفعلوا، ووزعوا ذلك فجمعوه، والى خزائنه نقلوا، فدعته نفسه الجانية أن طرح عليهم المال ثانية[1]، فخرج اليه ذلك الرجل الجليل، ووقف في مقام الشفاعة مقام البائس الذليل، فقبل شفاعته، ووهبه جماعته، ثم إنه سدك[2] بمكانه وجثم، حتى تلاحق به عسكره والتأم.

ابتداء تخريب ذلك الخرب أذربيجان وممالك عراق العرب

ولما بلغ السلطان أحمد بن الشيخ اويس ما فعله بغنم رعايا جيرانه اللور وهمذان ذلك الأويس[3]، وعلم أنه لابُدَّ له من قصد مملكته وديارة[4]، لأنه هو بادأه[5] بالشر وطرح على شِراره طائر شَراره، وان عسكره وان كان كالسيل الهامر فانه لا مقاومة له ببحره وتياره، وأنه إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى، ولا مقابلة لسحرة فرعون مع عصا موسى[6]. قلت :

السيل يقلع ما يلقاه من شجر بين الجبال ومنه الصخر ينفطر

(١) وردت في بعض النسخ (مرة ثانية)
(٢) سدك بمكانه : لزمه
(٣) الأويس من اسماء الذئب (حياة الحيوان للدميري (١/٦٤١).
(٤) باشر تيمور اتصالاته الأولى مع حاكم بغداد بمخادعته والتظاهر بالودّ له يقول ابن إياس في بدائع الزهور (١/٢٩٩) (وكان سبب اخذ تمرلنك بلاد القان أحمد بن اويس ان تمرلنك أرسل الى القان أحمد كتابا يترفق فيه ويقول له أنا ما جئتك محارباً وانما جئتك خاطباً اتزوج بأختك وأزوجك بنتي ففرح القان أحمد بذلك وظن أن هذا الكلام صحيح... وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلنك وجمع له العساكر. فلما اتى اليه قاصد تمرلنك بهذا الخبر ثنى عزمه عن القتال واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال وصرف همته عن القتال).
(٥) ورد في بعض النسخ ناداه، وباداه الشر : جاهره
(٦) من قول الله تعالى في القرآن الكريم سورة طه ٦٩ (وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر..).

حتى يوافى عباب البحر تنظره قد اضمحل فلا يبقى له أثر

فاستعد للبلاء قبل نزوله، وتأهَّب له قبل حلوله. فتشمَّر للهزيمة، وعلم أن ايابه سالماً نصف الغنيمة، واقتصر من بسيط فقه المقاتلة والمقابلة على الوجيز، وصمم على الخروج من ممالك بغداد[1] والعراق وتبريز[2]. وقال لنفسه النجاء النجاء.

وجهز ما يخاف عليه صحبة ابنه السلطان طاهر الى قلعة النجا، وأرسل الى تيمور الأشعار والهجاء، فمن ذلك ما تَرجمْتُه فقلت:

لئن كانت يدي في الحرب شلا فرجلي في الهزيمة غير عرجا

ثم قصد البلاد الشامية، وذلك في سنة خمس وتسعين وسبعمائة، في حياة الملك الظاهر أبي سعيد برقوق[3] رحمه الله تعالى فوصل تيمور الى تبريز[4] ونهب بها الذليل والعزيز، ووجَّه الى قلعة النجا العساكر لأنها كانت معقل السلطان أحمد وبها ولده وزوجته والذخائر، وتوجه هو الى بغداد ونهبها[5]. ولم يُخربها ولكن سَلَبَها سَلْبها[6].

(١) بغداد: عاصمة العراق

(٢) تبريز: أشهر بلدة بأذربيجان، ولها غوطة رائعة. وكان بها كرسي بيت هولاكو من التتار، وهي مدينة عامرة حسناء ذات اسوار محكمة، وهي اليوم (القرن التاسع الهجري): أم ايران جميعاً لتوجه المقاصد من كل جهة اليها، وبها محط رحال التجار والسفار، وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها لقربها من أرجان مشتاهم (راجع صبح الأعشى ٤ ص ٣٥٧ ومعجم البلدان).

(٣) الملك الظاهر سيف الدين ابي سعيد برقوق سلطان المماليك في مصر والشام بويع بالسلطنة لأول مرة في رمضان سنة ٧٨٤هـ وبقي في هذه المرة سنتين وثمانية أشهر وسبعة وعشرين يوماً حيث خُلع ثم عاد الى السلطنة ثانية سنة ٧٩٢هـ حتى وفاته في شوال سنة ٨٠١هـ (بدائع الزهور ١/٢٥٨، ٢٨٨، ٢٩٠).

(٤) تبريز مدينة في ايران حالياً

(٥) جرت مفاوضات بين مبعوثين من عند السلطان أحمد حاكم بغداد مع تيمور يتعهد فيها السلطان أحمد بأن تكون السكة والخطبة في بغداد باسم تيمور. ورغم ذلك كان أحمد يتوقع الغدر من تيمور لذلك اتخذ بعض الاحتياطات فنقل أهله وكل ما يخاف عليه من المال والمتاع الى احدى القلاع بجوار نخشيفان الحالية في شمال اذربيجان، هي قلعة النجاء. وربما كان سوء معاملة أحمد جلاير لاتباعه سبباً في انضمام الكشافة الذي ارسلهم لاستطلاع احوال القوات المغيرة الى تيمور وأصبح حاكم بغداد كما يقول ابن خلدون — في ←

وكان الوالي بالنجا رجلاً شديد البأس يُدعى أَلْتُون، عند السلطان أحمد مأمون، وله

جهل تام بأخبار عدوه، في الوقت الذي كان فيه جواسيس تيمور في بغداد ينقلون اليه اخبار احمد بواسطة الحمام الزاجل.

وأسرع تيمور الى بغداد بجيوشه من خلال معابر جبلية ضيقة ووعرة تفضي الى منطقة شهرزور التي تقع قرب المجرى الأعلى لنهر الزاب الأسفل. واتجه تيمور من شهرزور جنوباً الى بغداد. وكان ظهور قواته امام اسوار بغداد مفاجئاً للسلطان أحمد. (شهاب ٢٢٠).

ولم يستطع حاكم بغداد الاستمرار في مقاومة الحصار ففضل الفرار ويذكر العسقلاني ان أهل بغداد قد فتحوا ابواب مدينتهم للقوات الغازية (ج١ ص ٤٥٠) ويقول ابن تغري بردي (وكان سبب أخذ تيمور بغداد أن ابن اويس المذكور قد اسرف في قتل امرائه وبالغ في ظلم رعيته وانهمك في الفجور والفساد... ولما وقع من السلطان أحمد ذلك كاتب أهل بغداد تيمور بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير الى بغداد. فتوجه إليه بعساكرها... (١٢/٤٤)

ويقول ابن اياس في بدائع الزهور ١/٣٠٠) (فبينما القان [أحمد] يقع مع عسكر تمرلنك اذ فتح أهل بغداد بقية ابواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من هولاكو في ايام الخليفة المستعصم بالله [سنة ٦٥٦هـ]... فلما رأى تمرلنك ابواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة وملكها ولم يجد من يرده عنها. فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب... فلما بلغ عسكر تمرلنك ذلك تتبعوا القان أحمد وخاضوا خلفه الماء فهرب منهم فتتبعوه مسيرة ثلاثة ايام فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه الى نحو الديار المصرية..

(٦) تتضارب اقوال المؤرخين في الحديث عن الأعمال التي قام بها تيمور في بغداد، خلال الشهرين اللذين قضاهما فيها، بين ٢١ شوال الى ٢٤ ذي الحجة ٧٩٥هـ = ٢١ آب الى ٢٢ تشرين الأول ١٣٩٣. ويتحدث المؤرخون عن القتل وهتك الأعراض ومصادرة اموال السكان... وأنزل جنوده في بعض الناس عقوبات جسدية كالشي على النار أو المشي عليها، وعصر الأعضاء، والتعليق من الأرجل.. وقتل تيمور من أعيان بغداد وعلمائها وكبار تجارها ٧٠٠ نفس.. وصدرت الأوامر بنقل أرباب الحرف والفنون والموسيقين الى سمرقند، ونفى بعض سكان بغداد الى مدن اسية الوسطى وخوارزم وأذربيجان.. ويورد بعض المؤرخين عن عدد القتلى من سكان المدينة خلال اقامته وهي ثلاثة آلاف قتيل، ويبدو هذا الرقم ضئيلاً جداً اذا قورن بعدد ضحايا الغارات التيمورية على المدن الأخرى. ولذلك يرى غروسيه أن تيمور قد دخل بغداد دون قتال (شهاب ٢٢٢).

اليه ركون ، ومعه جماعة من أهل النجدة ، وأولي البأس والشدة ، نحو من ثلاثمائة رجل في العدة .

وكان ينزل بهم ألتون إذا أخذ الليل في السكون ، ويشن الغارة على تلك العساكر والمكان المسكون ، فوهن أمر العسكر فأبلغوا تيمور هذا الخبر فأمدّهم بأربعين ألف مقاتل مشهور مع أربعة امراء كبيرهم يدعى قَتلغ تيمور ، فوصلوا الى القلعة ولم يكن إذ ذاك ألتون بها ، وكان قد خرج للغارة على من في ضواحيها ، فبينا هو راجع وإذا بالنقع ساطع فلما اطلع طِلْع الخبر . قال (أين المفر) فقيل كلا (لاوزر)[1]. فعلم أن لا ملجأ من الله إلا اليه ، فثبت جأشه وحاشيته وتوكل عليه ، وقال : إن الرؤوس في مثل هذا المقام إنما يكونون تحت الأعلام ، فاحطموا نحو قلب هؤلاء اللئام ، فإما أن تبلغوا المرام أو تموتوا على ظهر الخيل وأنتم كرام ، اذ لا ينجيكم من هذا الكرب . سوى الطعن الصادق والضرب ، قلت :

كريماً متّ والا متّ لئيما فما والله بعد الموت موت

فتعاضدوا بهمة صادقة ، وعزيمة على حصول الخلاص من الله تعالى واثقة ، وقد أحاطوا بهم إحاطة الشبكة بالسمكة ، وصاروا في وسطهم كالمغزل في الفلكة ، وقصدوا الراية وحامليها ، ومن يليها وذويها ، فساعدهم ساعد سعد لحيان بنصرته ، وحَلَّ عنهم القبض الداخل وأنكيس عُقْلَته ، فاسالوا على راياتهم ذات البياض من الدماء حمرة ، وفتحت لجماعتهم طريق الى عتبة النصرة ، فَلَاحَ لهم فَلَاحْ[2]. وجنح[3] لهم نجاح ، فنجوا من الشرور ، وحصل لهم السرور ، بعد أن قتلوا من العسكر أميرين أحدهما قتلغ تيمور .

ولما وصل هذا الخبر اليه ، اسودّت الدنيا في عينيه ، بل انقلب الكون والمكان عليه ، ثم نهض اليها بنفسه ، وربض عليه بحرسه ، وأحاط بجوانبها وألقم الحرس أفواه مضاربها .

(١) من قول الله سبحانه وتعالى في سورة القيامة عن احداث الآخرة (يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر . (الآية ١٠) .

(٢) فَلَاح لهم فلاح : اي ظهر لهم النجاح . فلاح الأولى فعل ، وفلاح الثانية اسم .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ونجح .

صفة قلعة النجا

وهذه القلعة[1] أمنع من العقاب ، وأرفع من السحاب ، يناجي السماك سماكها ، ويباهي الأفلاك استمساكها ، كأنَّ الشمس في شُرفها[2] ترس من الابريز على بعض شرفها ، وكأن الثريا في انتصابها ، قنديل معلق على بابها ، لا يحوم طائر الوهم عليها ، فأنّى يصل طائش السهم اليها ، ولا يتعلق بخدم خدمتها خلخال خيال وافتكار ، فضلاً عن أن يُحلق على معصم عصمتها من عساكر الأساورة سوار .

وكان ألتون قد تربى في ترائب ترابها ، وأهل مكة أخبر بشعابها ، فصار كلما سجى الليل الساجم ، وأرصد لسُرَّاق الشياطين عيونَه الرواجم ، هبط من تلك القلال ، وسرى سري طيف الخيال . ودبَّ دبيب الشحم في اللحم ، والماء في العود والنار في الفحم ، من درب لم تتوهمه الظنون ، بعون من لا تراه العيون ، بحيث لا يشعر به الحرس ، ولا يَبْصر به العسس ، ولا يزال يتلو عليهم آيات الاغفاء ، وينفث بطلسمات الاستخفاء ، ويتقرّب ويترقب ، حتى يلوح له في الحي مضرب ، فيقتل ويسلب ، وينهب ويهرب ، فيكُرّ سالماً . ويفر غانماً .

فلم يزل ذلك دأبهم ودأبه ، حتى أعجز تيمور وأصحابه ، فلم ير تيمور أوفق من الارتحال ، لضيق المجال وعسر المنال ، فارتحل عنها بعد أن رتَّب عليها للحصار اليزك ، واستمر الحصار مدة طويلة والقضاء يقول له اصبر فانها لن تعجزك ، قيل إنها مكثت في الحصار اثنتي عشرة سنة وسبب أخذه لها أن ألتون المذكور ، كان له أخ بالفسق مشهور ، فحصل بينه وبين أم السلطان طاهر ، خيانة أوجبت عليها ما يجب على العاهر ، فاطلع على ذلك طاهر بن السلطان أحمد ، فقبض عليهما ، وقتلهما ، سالكاً في ذلك الرأي الأحمد .

وكان إذ ذاك ألتون عن القلعة غائباً ، قد خرج منها وقصد للغارة جانباً ، فلما رجع ألتون أغلقوا باب القلعة عليه ، ورموا بأخيه من فوق السور اليه ، وأخبروه خبره ، وعُجَره وبُجره ، فقال جزاكم الله أحسن الجزاء ، وجعل حظكم من الخيرات أوفر

(١) قلعة النجا : احدى القلاع بجوار « نخشيفان » الحالية في شمالي أذربيجان ، ويسميها المؤرخ شرف الدين علي يزدي قلعة (النجق) شهاب ٢٢٠ .

(٢) الشرف : العلو

الأجزاء. لو كنت عالماً فِعله، أو حاضراً قتله، لعاملته بما هو أهله، وفعلت به ما يجب فعله، ولحل به من الزمان دواهيه، وأريتكم العبر فيه، ولأشهرته في خلق الله تعالى وبريّته، وناديت عليه هذا جزاء من يخون ولي نعمته.

ثم طلب الدخول فقطعوه عن الوصول، فقال: أما أخي فانه جنى فذاق ثمرة ما جناه، وأما أنا فقلبي على الوفاء بعهدكم من الأزل والى حين وفاتي لم أزل مُوالي وليكم ومعادي عدوكم. فان طردتموني فالى اين أذهب، وإن رددتم رغبتي فيكم ففيمن أرغب، فقالوا: ربما أدركتك الحمية، ولحقتك العصبية، فتذكرت أخاك، وتفكرت شدّتك بعد رخاك. فنقمت، وانتقمت، واعوججت بعد أن استقمت، وتكدّر منك ما صفا وظهر ما اختفى[1]، ناهيك قصة الأخوين مع ذات الصفا[2]. قلت:

ويمكن وصل الحبل بعد انقطاعه ولكنه تبقى به عقدة الربط

فأنشأ أيماناً واثقة، أن كلماته وعهوده صادقة، فقالوا له لا تطل الحديث فما حييت مالك عندنا مقيل[3] ولا مبيت، فارجع من حيث جئت، وهذا آخر العهد منك غضبت أم رضيت، فأخذ يذم دهره، ويعض يديه ندامة وحسرة، على انه أنفذ عمره، في طاعة من لم يعرف قدره، ثم دنى فتدلى، وعبس وتولى، وسيب فرسه وماله، وفرّق خيله ورجاله، ولما لم يكن له ملجأ، سوى قلعة النجا وقد خرجت من يده، وألقت النار في كبده، ضرب اخماساً لأسداس، فيمن يقصده من الناس.

ثم أورى برأيه الزند، أن يقصد مدينة مَرنَد[4]، وكانت تحت حكم تيمور، وفيها أوامره تمور، فسالمها وقصد حاكمها لابساً لبدا، وتاركاً مالاً وولدا، ولما اتصل بحاكمها الخبر، أحاط به الجبن والخور، فاضطرب واقشعر، واضطرم واعتكر، وأخذ الحذر ورام المفر، فقيل انه وحده من غير رجال وعدّة، فرجع عقله اليه، ودخل ألتون عليه، فأخذ في التفتيش عن اموره، ثم قطع رأسه وأرسله الى تيمور، فتحرق لذلك

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) ذات الصفا: هي حية ورد ذكرها في المثل العربي من انها لسعت انساناً، وأراد اخوه قتلها فصالحته على مال تؤديه، راجع: (المرصع في الاباء والامهات والبنين والبنات والأذواء والذوات للمجد بن الأثير ص ٢٢٥) طبعة بغداد.

(٣) من القيلولة

(٤) مدينة من مدن أذربيجان، بينها وبين تبريز يومان

وانتكى وتأسف عليه وبكى، وأرسل الى قاتله فعزله، ثم صادره وقتله.

ثم ان السلطان طاهر لما احدث هذا الحدث وتنجس بهذه الخبائث والخبث لم يمكنه الاقامة فأذن بالرحيل، وأمَّ بجماعته قبلة التحويل، اذ نشز عنه مخدّرات القلعة فعجز عن احصان تحصينها، وعُنن[1] في افتضاض ابكارها وعونها وقل جيشه وفلّ، فسل متاعه منها وانسل، فذل لتيمور صعابها، وفتح له من غير معالجة بابها، فولّى فيها من يثق به من الأعوان، ووصى به لعلة المجاورة الشيخ ابراهيم حاكم شروان[2]، ثم ثنى عنان الفساد، الى صوب بغداد، فهرب السلطان أحمد كما ذكر الى الشام في فئة، وذلك في شوال سنة خمس وتسعين وسبعمائة[3]، فوصل اليها حادي عشريه يوم السبت، فكبتها وما حواليها أي كبت، (ثم صدر هو وقبيله عن ولاية بغدان[4] قاصدين ديار بكر وأرزنجان[5])[6].

(١) بضم العين وتشديد النون أي عجز وهذا مأخوذ من عجز الرجال عن الجماع.

(٢) مدينة من نواحي باب الابواب وقيل ولاية قصبتها شماخي وهي قرب بحر الخزر.

(٣) يقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٩٥هـ بعد هزيمة السلطان أحمد حاكم بغداد أمام تيمور وفراره (ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن اويس قد وصل الى حلب فلما تحقق السلطان [الظاهر برقوق] صحة هذا الخبر جمع الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر القان أحمد فوقع الاتفاق من الأمراء على ان السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه... ثم في عقيب ذلك حضر قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن تمرلنك مَلَك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه استاذ تمرلنك قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر الملك محمود شاه فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فقتل بها الملك محمود شاه استاذ تمرلنك فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان وانه يطلق اليه ولده ومن عنده من الاسرى فأرسل صاحب البصرة يقول له ما أطلق ولدك ولا الاسرى الذين عندي حتى تطلق ابن القان أحمد بن اويس الذي عندك وجميع من عندك من الأسرى فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق عليه وارسل عسكراً ثقيلاً وحاصر البصرة فلم يقدر عليها وقُتل من عسكره مالا يحصى عدده ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة).

(٤) بغدان: لغة ثالثة في بغداد، والثاني بغداذ: بالذال

(٥) أرزنجان: عاصمة ولاية أرض روم في تركية اليوم

(٦) لا يوجد في احدى النسخ ما بين القوسين

ذكر أخبار صاحب بغداد وأسماء آبائه والأجداد وكيفية دخوله إلى هذه البلاد

وهو السلطان مغيث الدين أحمد بن الشيخ أويس بن الشيخ حسن بن حسين ابن آقبغا بن ايلكان صاحب بغداد وأذربيجان، وما أضيف إلى ذلك من ولايات وممالك، وايلكان جده الأعلى ابن القان[1] الكبير النجيد شرف الدين سبط القان أرغون ابن أبي سعيد. وكان والده الشيخ أويس من أهل الديانة والكيس[2]، ملكاً عادلاً، وإماماً شجاعاً فاضلاً، مؤيداً[3] منصوراً صارماً مشكورا، قليل الشرّ كثير البرّ، صورته كسيرته حسنة، وكانت دولته تسع عشرة سنة، وكان محباً للفقراء، معتقدا للعلماء والكبراء.

وكان قد أخبر[4] في منامه بوقت موافاة حمامه، فاستعدّ لحلول فوته، ورصد نزول موته، وخلع من الملك يده، وولاه حُسيناً ولده، وهو أكبر بنيه، والأفضل من أهله وذويه، ونبذ أدانيه ودنياه، وأقبل على طاعة مولاه، واستعطفه الى الرضا، والعفو عما مضى، ولازم صلاته وصيامه، وزكاته وقيامه، ولا زال يصلي ويصوم، حتى أدركه ذلك الوقت المعلوم[5]، فأظهر سرّه المصون، وتلا (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[6]) فدرج على هذه الطريقة الحسنة، وقد جاوز نيفاً وثلاثين سنة، ومن مغرب تبريز أفل قمره، وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وصل إلى الشام خبره.

واستقر ولده جلال الدين حسين مكانه، وأفاض على رعيته فضله وإحسانه، وكان كريم الشمائل، جسيم الفضائل، وافر الشهامة، ظاهر الكرامة، أراد أن يمشي

(١) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الخان وفي النجوم الزاهرة وإنباء الغمر والضوء اللامع .
(٢) الكيِّس : العاقل .
(٣) وردت في بعض النسخ : مليحاً
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أبصر .
(٥) يعني الموت .
(٦) قرآن كريم ــ سورة الأعراف آية ٣٤ .

على سنن والده، ويحيي ما دثر من رسوم آثاره ومعاهده، فخذلته الأقدار، وخالطت صفو مساعيه الأكدار.

وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. وصل من قُصَّاده[1] إلى الشام فئة، وهم القاضي زين الدين علي بن جلال الدين عبد الله بن نجم الدين سليمان العبايقي الشافعي، قاضي بغداد وتبريز، والصاحب شرف الدين بن الحاج عز الدين الحسين الواسطي وزير السلطان وغيرهما.

ثم في جمادى الآخرة من هذه السنة وثب السلطان أحمد على أخيه المشار اليه فقتله، وقام لينصرالملك والدين مكانه فخذله فملأ جفن حياته من الفناء سنة، وعمره إذ ذاك نيف وعشرون سنة[2].

ولما استولى السلطان على ممالك العراق، مَدَّ يد تعديه وضم جناح الشفقة والارفاق، وشرع يظلم نفسه ورعيته، ويذهب في الجور والفساد يومه وليلته، ثم بالغ في الفسق والفجور، فتجاهر بالمعاصي وتظاهر بالشرور، واتخذ سفك الدماء إلى سلب الأموال وثلم الأعراض سلما.

فقيل: إن أهل بغداد مَجُّوه، واستغاثوا بتيمور، فأُغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه[3]، فلم يشعر إلا والتتار قد دهمته، وعساكر الجغتاي خيلاً ورجلاً[4] حطمته، وذلك يوم السبت المذكور، من الشهر المشهور، فاقتحموا بخيلهم دجلة وقصدوا الأسوار، ولم يمنعهم ذلك البحر البتار، ورماهم أهل البلد بالسهام.

وعلم أحمد أنه لا يُنجيه إلا الانهزام، فخرج فيمن يثق به قاصد الشام، فتبعه من الجغتاي قوم لئام، فجعل يكرّ عليهم ويَرْدَعَهم، ويفرّ منهم فيطمعهم، وحصل بينهم قتال شديد، وقتل من الطائفتين عدد عديد، حتى وصل الى الحلة[5]، فعبر من جسرها نهر دجلة،(ثم قطع الجسر ونجا من ورطة الأسر، واستمرت التتار في عقبه تكاد أنوفها تدخل في ذنبه. فوصلوا الى الجسر ووجدوه مقطوعاً، فتراموا في الماء

(١) بضم القاف وتشديد الصاد : جمع قاصد وهو الرسول
(٢) لا توجد في بعض النسخ .
(٣) القرآن الكريم سورة الكهف الآية ٣٩ .
(٤) رجالاً .
(٥) احدى مدن العراق على نهر دجلة .

وخرجوا من الجانب الآخر ولم يزالوا تابعاً ومتبوعاً ففاتهم ووصل الى مشهد الامام وبينه وبين بغداد ثلاثة أيام[1]).

ذكر ما افتعله من الخديعة والمكر في بلاد أرزنجان وديار بكر

فوصل إلى ديار بكر[2] واستخلصها، ومن أيدي ولاتها خَلَّصها، فعصت عليه قلعة تكريت[3] فَتسلَّط عليها من عساكره كل عفريت، وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة، وقد ارتجت منه البلاد أشد رجَّة، فحاصرها وأخذها في صفر[4] بالأمان، ونزل اليه متوليها حسن بن يُولْتَمُور[5] متدرع الأكفان، وفي حضنه وعلى عاتقه أطفاله، وقد ودَّعه أهله وماله، وأسلمته خيله ورجاله، وذلك بعد أن عاهده أن لا يريق دمه، فأرسله إلى حائط فقضَّه عليه وردمه، وقتل من بها[6] من رجال وسبى النساء وأسر الأطفال، وجعل يعيث ويستأصل، ويقطع في الفساد ويوصل.

حتى أناخ يوم الجمعة حادي عشرين[7] صفر سنة ست وتسعين على الموصل[8]،

(١) سقط ما بين قوسين من احدى النسخ.

(٢) بعد احتلال تيمور بغداد كان غير مرتاح من الحالة السائدة في شمال العراق ومناطق كردستان وديار بكر، حيث كان يحكم عدد من الحكام الأكراد والتركمان. وديار بكر بلاد كبيرة وواسعة تنسب الى بكر وائل، وهي ناحية ذات مدن كثيرة بين الشام والعراق وقصبتها الموصل، وبها دجلة والفرات راجع معجم البلدان لياقوت.

(٣) انطلق تيمور شمالاً الى تكريت في المحرم ٧٩٦ هـ ـــ تشرين الثاني ١٣٩٣ وكان لتكريت قلعة حصينة تقوم على تلة بجوار المدينة.

(٤) صفر: الشهر الثاني بعد المحرم من الأشهر القمرية.

(٥) حاكم مدينة تكريت وتصفه المصادر التيمورية بأنه قاطع طريق وتدعوه الأمير حسن، بضم الياء وسكون اللام وفتح التاء وضم الميم.

(٦) احتل تيمور المدينة وقلعتها وهدم أسوارها وأحرقها بمن كان فيها ٢٥ محرم ٧٩٦هـ ـــ ١ كانون الأول ١٣٩٣ وأقام عدداً من الأبراج من رؤوس القتلى من سكان تكريت. (شهاب ٢٢٣).

(٧) وردت في احدى النسخ: حادي عشر.

(٨) من مدن العراق وقد تلقى تيمور من حاكم الموصل (يار علي) الخضوع أثناء حصاره لتكريت، والموصل قاعدة ديار الجزيرة وهي على دجلة في جانبها الغربي (تقويم البلدان).

فأخربها وكسرها، ثم أتى رأس عين[1] ونهبها وأسرها، ثم الى الرُّها[2] تحول، ودخلها يوم الأحد غرة[3] شهر ربيع الأول، فزاد عيثاً وفساداً، وجارى فيما عاند ثموداً وعادا[4]، وخرج من تلك البلد، ثاني عشرين يوم الأحد.

ثم اختار من نسور قومه طائفة، على ورد الدماء حائمة وعلى قتل المسلمين عاكفة، فأخذهم واندغر. وفي ممالك ديار بكر انغمر، ولم يزالوا بها عائثين، ولأذاها قاصدين، وعليها ظالمين، وفيها ماردين[5]، فقصدها بتلك العفاريت المصاليت، وواصل السير إليها فوصلها في خمسة أيام من تكريت، ومسافة ما بينهما للمُجدّ، اثنا عشر يوما إن لم تزد، وكان سلطانها الملك الظاهر[6] تحقق أنه لا يضر من التجأ اليه، وقدم في ثوب الطاعة عليه، فما وسعه إلا التشبث بذيل ذمه، والانتظام في سلك خدمه.

(١) بلدة في الجزيرة السورية قرب ماردين، وكانت مدينة كبيرة من مدن الجزيرة وهي في محافظة الحسكة في سورية (المنجد: فهارس فتوح البلدان ٧٢٤).

(٢) الرها: (بالقصر والمد) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها الرهاء بن البلندي بن مالك راجع معجم البلدان لياقوت (٨٧٦/٢) وهي فوق حران في تركية حالياً (المنجد: فهارس فتوح البلدان ٧٢٤).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عشرة.

(٤) من قبائل العرب القدماء ذكرهم القرآن الكريم في مواطن عديدة: سورة الأعراف الآية ٦٥ (والى عاد أخاهم هوداً) الآية ٧٣ (والى ثمود أخاهم صالحاً).

(٥) حصن من بلاد الجزيرة ذكرها ابن حوقل في المسالك ص ١٥٢.

(٦) كان حاكم ماردين الارتقي السلطان الملك الظاهر مجد الدين عيسى قد أرسل منذ وقت مبكر يُعلم السلطان الظاهر برقوق في مصر بتحركات تيمور ومطالبته له بالخطبة والسكة باسمه يقول ابن تغري بردى في حوادث سنة ٧٩٥هـ (قدم رُسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين على السلطان تُخبر بأن تيمورلنك أخذ منه تبريز وأرسل يستدعيه الى عنده فاعتذر لمشاورة سلطان مصر: فلم يقبل منه تيمور ذلك وقال له: ليس لصاحب مصر بملكك حكم وأرسل اليه خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير).

ذكر ما جرى لسلطان ماردين عيسى الملك الظاهر من المحنة والبلاء مع ذلك الغادر الماكر

لكنه خاف غائلته[1]، فجمع حاشيته وصاغيته، وقال: إني ذاهب إلى هذا الرجل، ومظهر له الانقياد[2]، فإن ردّني حسبما أريد فهو المراد وإن طالبني بالقلعة، فكونوا أنتم على التأبي والمنعة، وإياكم أن تسلموها اليه، أو تعتمدوا في الكلام عليه، وإن دار الأمر بين تسليم القلعة وبين إتلافي، فاحتفظوا بالقلعة واجعلوا التلافي في تلافي، فانكم إن تسلموها[3] اليه، خرجتم من باطنكم وظاهركم، وأتى بالهلاك على أولكم وآخركم، وخسرتم شعاركم ودثاركم، وغبنتم أنفسكم وديارَكم، وإذا كان كذلك فأنا أجعل نفسي فداكم، وأكفيكم بروحي ما دهاكم، وبعض الشرّ أهون من بعض، وها أنا أجسّ لكم النبض.

ثم قصد ذلك الكالح والمفسد الطالح، بعدما استخلف ابن أخيه الملك الصالح: شهاب الدين أحمد بن الملك السعيد اسكندر بن الملك الصالح الشهيد، ونزل يوم الأربعاء خامس عشري شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمائة، واجتمع به في سلخه بمكان يسمى الهلالية، فقابله بشنعَة، وقبض عليه بسرعة، وطلب منه تسليم

(١) أرسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين الى مصر يُعلم السلطان المملوكي برقوق بأخبار تيمور وأنه طلب منه الانقياد إلى طاعته. ولكن المماليك في القاهرة لم تبد في ذلك الوقت رغبتها في مقاومة تيمور. وأرسل السلطان المملوكي برقوق إلى الظاهر عيسى صاحب ماردين يطالبه بالاستمرار في طاعته والخطبة له وختم رسالته بقوله « إلى أن نرى ما نختاره » ابن الفرات مجلد ٩ جزء ٢ ص ٣٤٣. (شهاب ٢٢٤).

(٢) لمس الظاهر عيسى صاحب ماردين عدم حماس المماليك في مصر لمساعدته، ووجد أن قوات تيمور على مقربة من ماردين في أواخر صفر ٧٩٦هـ ـــ أواخر تشرين الأول ١٣٩٣م اضطر لأن يرسل لتيمور رسولاً يحمل له الخضوع والولاء لكن تيمور لم يظهر الاهتمام بالرسول، وأتم تيمور السيطرة على المنطقة فالتفت إلى ماردين حيث أقام معسكراته بجوارها في ٢٦ ربيع الأول ٧٩٦هـ ـــ ٣٠ كانون الثاني ١٣٩٤. فأسرع الظاهر عيسى من جديد لتقديم الخضوع والولاء. وقدم إلى معسكر تيمور يحمل الهدايا وقيل يدفع ما فرض عليه من أموال قدرها ابن عربشاه بمائة تومان (شهاب ٢٢٥).

(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : أسلمتموها .

القلعة فقال: القلعة عند أربابها وبيد أصحابها وأنا لا أملك[1] إلا نفسي فقدّمتها اليك، وقدمت بها عليك، فلا تحملني فوق طاقتي، ولا تكلفني غير استطاعتي. فأتى به إلى[2] القلعة وطلبها منهم فأبوا، فقدَّمه اليهم ليضرب عنقه أو يسلموه فنبوا[3]، فطلب منه في مقابلة الأمان من الدراهم الفضية مائة تومان وكل تومان ستون ألفاً، خارجاً عما يتقرب به إليه زلفى، ثم إنه شدَّ وثاقه، وسدَّ عليه ليذهب عنه ما به من قوة كل باب وطاقه، وشمَّر للفساد ذيله، وجعل يريح رَجْله ويُسمن خيله، ويتفوق كاسات فساده، ويعربد على عباد الله وبلاده، واستمر على ذلك لا يعي ولا يفيق، ويتردد ما بين الفردوس إلى رسمل ونصيبين والموصل العتيق.

ثم أمر عساكره في جمادى الآخرة أن يمرّوا قاصدين، ويقصدوا ماردين، فسابقوا الطير ولاحقوا السير، وجازوا بالنهار الأنهار وبالليل السيل، فقطعوا فقار القفار، قطع الهندي وعملوا في تلك الجبال والقلال بما قاله الكندي[4] وهو:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَبَاب الماء حالاً على حال

فوصلوا اليها على غفلة، واحتووا[5] عليها من غير مهلة، وذلك يوم الثلاثاء ثاني عشره، وقد سَلَّ الصبح حسام فجره، وطار غراب الدجى عن وكره، فصاروا سوار معصم تلك الأسوار، وأحلوا الدمار هاتيك الديار، فعموها رجفاً، وساموها خسفاً، وهَدُّوها زحفاً، ودكُّوها وجفاً، وتعلقوا بأهداب أرجائها وتسلقوا بالسلالم من أرضها إلى سمائها، وكان متسلَّقهم على الأسوار، من القبلة رابية اليهود، ومن الغرب التلول، ومن الشرق المنشار، فأخذوا المدينة عنوةً وقسراً[6]، وملؤها فسقاً وكفرا، وترفع أهل المدينة إلى القلعة، ولم يكره أحد سواهم علو المنزلة والرفعة، واكوهدوا[7] ملتجئين الى

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ما أملك .

(٢) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فنأوا .

(٤) هو الشاعر الجاهلي امرؤ القيس أحد أصحاب المعلقات، وهذا البيت من قصيدة مطلعها: الا عم صباحاً أيها الطل البالي...

(٥) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وأخنوا .

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وقهراً .

(٧) لعل الصواب : أكرهوا .

قوادمها وخوافيها، وذبَّ عنهم من القلعة بالسهام والمكاحل من كان فيها، فقتلوا من ظفروا به ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً، ولم يرتضوا بما فيها نهباً وبمن فيها أسيرا، فجالد بعض الناس وأظهر لهم بعض جلادة[1] وأراد بتثبته لهم أن يضم الجهاد الى الشهادة، ولا زالت آيات القتال عليهم تُتلى، حتى امتلأت المدينة من الجرحى والقتلى، واستمر ذلك من قبل طلوع الشمس، إلى أن صار اليوم أمس.

وحين التقى على وجنتي الكون عارضا الليل، واستوفى أولئك المطففون من ظلمهم وتعدّيهم الميزان والكيل، وبادر نون الظلام يؤنس الشمس بالالتقام، طرأ على تلك الحركات السكون فتراجعوا ونزل العسكر مقابل عربون، وقد قتل من العسكرين ما سبق العدد، وأكثرهم كان من أهل البلد، فباتوا يعدون السلاح وَيُثَقِّفُونه، وينتظرون الصباح ويستبطئونه، الى أن شقَّ الليل مكتوم جيبه، وأظهر الظلام مكنون غيبه، وأمر الكون وجه النهار أن يضرب على جنبي الآفاق أطراف شيبه، بَكَّروا بكور الغراب وبدروا إلى الحِراب والخراب، وعصروا أهل المدينة وحاصروها أشد حصر، وهدَّموها وأسوارها من الظهر، فمحوا آثارها بعد العصر، ثم باءوا بالآثام وقد انتشر كظلمهم الظلام.

إيضاح ما أخفاه من الحيلة وصلود زند تلك الأفكار الوبيلة

ولما آب[2] أمله بالخيبة، ولم يُمكنه تحصيل القلعة بالهيبة، شحذ فكراً وجدَّد مكراً[3]، وتاب عن المقابحة، وثاب الى المصالحة، فردع ذلك الخميس[4]، في نهار الخميس. وأرسل إليهم يقول، ضمن كتاب مع رسول: علم أهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة المساكين العطاش[5] أننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية. وهذه الرسالة نقلتها كما وجدتها،

(١) يشير ابن عربشاه إلى شدة المقاومة التي أبداها المدافعون عن ماردين، بشكل عجز تيمور عن احتلالها واقتحام قلعتها، وكان القتال عنيفاً حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى.

(٢) آب: رجع.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وجدَّد.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فردع ذلك الخسيس، ومعنى الخميس: الجيش.

(٥) لم ترد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

فما استبَّ كيده، ولاأنجح قصده، لأن رصدها كانوا غير راقدين، وشياطين حرسها كانوا كهى[1] ماردين، فارتحل ذلك البلية بكرة السبت الى البشرية، وأرسل الى آمد[2] الجنود مع أمير يدعى: سلطان محمود، فتوجَّه بجيش طامّ وحاصرها خمسة أيام وأرسل يستمده عليها، فتوجه بنفسه اليها، وأحلّها الهوان، فطلبوا الأمان، فأمَّن البواب، ففتح له الباب فدخل من باب التل، ووضع السيف في الكُلّ، فأباد الجميع وأبار العاصي والمطيع[3] وأسروا الصغار، وهتكوا أستار الحُرم وحرم الأستار، وأذاقوا الناس لباس البأس، والتجأ بعض الناس الى الجامع، فقتلوا منهم نحو ألفي ساجد وراكع، ثم حرقوا الجامع، ورحلوا وتركوها بَلَاقِع[4]، فهداه إبليس الى أَخَذْ قلعة أرجيس[5] ثم بادر بالتحريك وحطَّ على قلعة أونيك وفيها مصر بن قرا[6] محمد أمير التركمان، فحاصرها وأخذها بالأمان، وذلك في سنة ست وتسعين وسبعمائة بعد عيد رمضان، ثم قتل كُلّ مَنْ كان بها من الجند، وصيَّر مصر إلى سمرقند[7].

(١) وردت في بعض النسخ: كهين، في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: كانوا لها ماردين.

(٢) آمد: كانت قصبة ديار بكر على يمين دجلة وهي في تركية اليوم (فهارس فتوح البلدان ص ٦٧٩).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فأباد الجميع العاصي منهم والمطيع، وفي نسخة أخرى فأبار العاصي منهم والمطيع. وأبار: أهلك.

(٤) البلقعة: الأرض القفر التي لا شيء بها يقال اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع. مختار الصحاح ص ٤٨.

(٥) مدينة في أرمينية قرب خلاط وهي في تركية اليوم في أرضروم (فهارس فتوح البلدان ٦٨٢).

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مضر.

(٧) تجول تيمور بجيوشه في منطقة الجزيرة فاستولى على آمد وميافارقين وبلغ حفيده محمد سلطان السهول المحيطة بمدينة موشى في شمال غرب بحيرة وان. وتقدم الجميع بعد ذلك لحصار حصن «أونيك» الذي يقوم على رأس جبل، في مطقة قريبة من أرض الروم، وكان يدافع عنه شقيق قرا يوسف وهو «مضر بن قرا محمد» وتم احتلال الحصن بعد حصار دام شهرا في رمضان ٧٩٦هـ ـــ تموز ١٣٩٤م، وحُمل مضر أسيراً إلى سمرقند (شهاب ٢٢٥).

(**فصل**) ثم استصحب الملك الظاهر بسوء نية ورحل سابع ذي القعدة سنة ست وسبعين وسبعمائة، وحبسه في مدينة سلطانية[1] ، وحبس عنده من أمرائه الأمير ركن الدين وعز الدين السليماني واسنبوغا[2] وضياء الدين وضيّق عليه بأن يقطعوا[3] عن أهله خبره، بحيث لا يدري أحد عجره وبجره، ولما أثخنه وشدّ الوثائق[4] قصد التوجه إلى دشت قبجاق، فأجرى نحوها ما أقام من الفتنة على قدم وساق، ومكث الملك الظاهر سنة، لا يدري أحد خبره في يقظة ولا سنة[5] ثم وفدت الملكة الكبرى[6] الى سلطانية وخَفَّفَت عنه ما به من ضيق وبلية، وفسحت له في مراسلة جماعته، وحَرَّضَته على طلب الدخول في رضى تيمور وطاعته، زاعمة أنها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من مكايد تيمور وبإشارته.

ثم رجع تيمور من الدشت[7] في شعبان سنة ثمان وتسعين فمكث بسُلطانية ثلاثة عشر يوماً ثم توجه إلى همذان، ومكث بها إلى ثالث عشر شهر رمضان، ثم استدعى من سلطانية الملك الظاهر، بإكرام تام وانشراح صدر وخاطر، فَفَكُّوا قيوده

(١) يشير ابن عربشاه إلى شدة المقاومة التي أبداها المدافعون عن ماردين، بشكل عجز معه تيمور عن احتلالها واقتحام قلعتها، وجعله يعرض الصلح على السكان، فهو يقول كما هو مبين أعلاه أنه شاهد كتاب تيمور الذي وجهه إلى سكان ماردين بمنحهم الأمان إذا قبلوا بالصلح. بينما يقول المؤرخ يزدي أن السكان هم الذين التمسوا من تيمور الصلح، ولم يقبل تيمور العفو عنهم ورفع الحصار عن المدينة إلا عندما جاء الخبر السار من السلطانية بولادة حفيده « ألغ بك » بن شاه رخ، فقبل أن يحل الصالح شقيق الظاهر عيسى محل شقيقه في حكم ماردين، وسيق الظاهر عيسى نفسه أسيراً إلى السلطانية، وأودع السجن هناك، مكبلاً بقيود يزيد وزنها عن خمسين رطلاً، ومُنع من مراسلة أهله، وبقي الظاهر عيسى سجيناً مدة، إلى أن تغير موقف تيمور منه من جديد كما سيأتي. (شهاب ٢٢٥).

(٢) وردت في رواية النجوم الزاهرة: اسنبغا.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يقطع.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولما أثخنه شدّ الوثاق.

(٥) سِنة: من قوله تعالى سورة البقرة آية ٢٥٥ (لا تأخذه سِنة ولا نوم): وهي بالكسر: النوم.

(٦) وهي زوجة تيمور الرئيسية سراي ملك خانوم.

(٧) الدشت: تابعة لاصبهان.

وقُيود متعلقيه وعظموه غاية التعظيم مع ذويه، وتوجه اليه يوم الخميس خامس عشره ودخل عليه يوم السبت سابع عشره، فتلقاه بالاحترام واعتنقه، وأذهب عنه دهشته وقلقه، وقبّله في وجهه مراراً واعتذر إليه[1] مما فعله معه جهاراً، وقال له: إنك لله ولي[2] ، ورفيع القدر كأبي بكر وعلي[3] ، وتحلل منه عما صدر في حقه عنه، وأضافه ستة أيام، وخلع عليه خلع الملوك العظام، وأحله محلا جميلا، وأعطاه عطاء جزيلا، من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون ألف دينار كَبَكِيّة وستة جمال، وخلع مُزركشه مُكلله، وانعامات وافرة مكملة، ولواء يخفق على رأسه منصوراً وستة وخمسين منشورا، كل منشور بتولية بلد، وأن لا ينازعه فيه أحد، أول ذلك الرها[4] إلى آخر ديار بكر[5] إلى حدود أذربيجان وأرمينية[5] وكل ذلك من الدهاء والمكر.

(١) أمر تيمور في السلطانية باطلاق سراح الظاهر عيسى الارتقي من سجنه، وسمح له بالعودة إلى حكم ماردين، وكانت زوجة تيمور الرئيسية سراي ملك خانوم، قد توسطت للظاهر عيسى عند زوجها، واستقبل تيمور أسيره السابق في همذان في ١٥ رمضان ٧٩٨هـ ـــ ٢٣ حزيران ١٣٩٦م، واعتذر له لما حلّ به من المحن، وأنعم عليه وزاد في سلطاته، ومنحه حكم المناطق الممتدة بين أذربيجان وبين ديار بكر، وكانت تشتمل على ست وخميسن بلداً، بعد أن أخذ منه عهداً بالاخلاص طيلة الحياة ويميناً بالطلاق على أن يقيم الخطبة ويضرب السكة باسم تيمور (العسقلاني ٥١٢/١ و ١٣/٢) والمقريزي: (السلوك جزء ٣ قسم ٢ ص ٨٦٩) (شهاب ٢٢٧) واتصفت أعمال تيمور في هذه الفترة بالرأفة سواء في معاملته للحكام أو في تصرفه مع السكان في العراق وإيران ومناطق الجزيرة، ولعل تيمور كان يهدف من وراء مظاهر الرأفة والتسامح هذه، كسب تأييد حكام تلك المناطق وسكانها تمهيداً لما ينوي القيام به وهو غزو بلاد الشام، فقد كان من المهم له أن يكون هؤلاء الحكام مع رعاياهم من الموالين له خلال عبور قواته لغزو الشام.

(٢) مفرد أولياء وهي من الصلاح.

(٣) الخليفة أبو بكر الصديق والخليفة الراشدي علي ابن أبي طالب.

(٤) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، سميت باسم الرهاء بن البلندي بن مالك (راجع معجم البلدان لياقوت ٨٧٦/٢).

(٥) بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل، وهي مقاطعة كبيرة ذات مدن عديدة بين الشام والعراق ومركزها الموصل، وبها نهري دجلة والفرات (النجوم الزاهرة ١١٧/٨) وتسمى أيضاً آمد وقرّ آمد، واسمها القديم: آميدا (قاموس الجغرافية القديمة ٤١).

وان جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت طاعته معدودين في جملة خدمه وجماعته، يحملون اليه الخراج والخدم، ولا ينقلون إلا عن أمره قدماً عن قدم، بحيث يكون شخص كل منهم من مجاوريه بما أفاء الله عليهم لظله فيئا، ويُعفى هو فلا يحمل الى تيمور ولا غيره شيئاً، وهذا وإن كان في الظاهر كالإكرام، فإنه فيما يؤول اليه وَبَالٌ عليه وانتقام، وفيه كما ترى ما فيه، والقاء العداوة بينه وبين مجاوريه، وينجرّ ذلك الى أن يلتجي اليه ويعول في كل أموره عليه، ويدخل لكثرة الأعداء تحت ضبنه، فيصل اذ ذاك منه الى حصنه.

ثم إنه شرط عليه أنه كلما طلبه جاء اليه، ثم عانقه وودّعه، وأمر أمراءه لتشييعه فخرج من الضيق الى السعة، لثالث عشر شهر رمضان ليلة الجمعة، سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، فوصل الى سلطانية، في عيشة رضية، وحالة هنية.

ثم عزم على تبريز في جحفل[1] نفيس عزيز، واجتمع بأميران شاه فزاد في اكرامه وعطاياه، وشيّعه في أحسن هيئة وأيمن طور، فجاء على وسطان[2] وبدليس[3] وارزن[4] الى الصَور.

ووصل خبره إلى قبائله والعشائر، فابتهج الناس ودقّت البشائر، فوصل يوم الجمعة حادي عشري شوال، وخرج أهل المدينة والأكابر للاستقبال، وسبق الناس ولي عهده الملك الصالح، فدخل المدينة بفأل سعيد[5] وأمر ناجح، وتوجه الى مدرسة حسام الدين، وزار والده وأمواته الماضين، وعزم على ترك التخت المنيف، والتوجه الى الحجاز الشريف، فلم تَتْرُكْهُ الناس خاصة وعامة، وتراموا عليه وقبّلوا أقدامه، فصعد إلى محل كرامته، واستقر في كرسي مملكته.

(٥) أرمينيا: بلاد واسعة كانت بين الخزر شرقاً ووادي الفرات غرباً، أصبحت اليوم قسم منها في تركيا وهو الأكبر والقسم الآخر في إيران شمال أذربيجان وقسم في روسيا.

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: في محفل.

(٢) وسطان: مدينة على بحيرة وان بأرمينيا (بلدان الخلافة الشرقية ٢١٧).

(٣) بدليس: من نواحي أرمينيا قرب خلاط.

(٤) أرزن: قرب خلاط وكانت من أعمر نواحي أرمينية.

(٥) فأل سعيد.

وسيأتي لهذا الشأن مزيد البيان وما جرى من الأمور عند قدوم تيمور، وحلول عسكره اللئام، ماردين بعد خرابهم ممالك الشام.

قيل لما استقرّ الملك الظاهر في مملكته، اجتمع عنده جماعة من أدباء وقدماء حضرته، فاقترح عليهم أن يقولوا في ذلك شيئاً، فقال أولاً بدر الدين حسن بن طيفور:

طغى تَمُر واستأصل الناس ظلمه ... وشاعت له في الخافقين الكبائر
لقد زاد بغياً فافرحوا بزواله ... لأن على الباغي تدور الدوائر

فقال ركن الدين حسين بن الأصغر أحد الموقعين ثانياً:

كن من رجال اذا ما الخطب نابهُم ... ردّوا الأمور إلى الرحمن واغتنموا
فسلموا الأمر لما أن رأوا خطرا ... لذي الجلال فلما سلموا سلموا

فقال القاضي صدر الدين بن ظهير الدين الحنفي السمرقندي ثالثاً:

طويل حياة المرء كاليوم في غد ... فخيرته أن لا يزيد على الحد
ولا بد من نقص لكل زيادة ... وإن شديد البطش يقتص للعبد

ثم قال علاء الدين بن زين الدين الحصني أحد الموقعين رابعاً:

لا تحزن فالذي قضى الله يكون ... والأمر موكل إلى كن فيكون
ما بين تحرك بلحظ وسكون ... الحالة تنقضي وذا الأمر يهون

فأعجبه ذلك وأجازه خمسة آلاف درهم وصرفه والله أعلم[1].

(١) لا توجد في بعض النسخ: من قوله قيل لما استقر الملك الظاهر .. إلى والله أعلم.

ذكر رجوعه من ديار بكر والعراق وتوجهه إلى مهامه قبجاق ووصف ملوكها وممالكها وبيان أوضاعها ومسالكها

ثم إنه رجع من عراقي[1] العرب والعجم، وقد ثبتت له في ممالكها أية قدم، وذلك بعد أن قدم عليه الشيخ ابراهيم وسلّمه مقاليد ما بيده من أقاليم، وتقلد طوق عبوديته، ووقف في مواقف خدمته، وانتظم في سلك عُبُده، وأحَلَّهُ محل ولده، وسنذكر كيف تغرب[2] عليه، ومن أي طريق تقرب اليه. فقصد دشت قبجاق وجدَّ في الوخد[3] والأعناق.

وهو مُلك فسيح، يحتوي على مهامه فيح، وسلطانها توقتاميش، وهو الذي كان في حرب تيمور أمام السلاطين المخالفين كالجاليش[4]. إذ هو أول من بالعداوة بارزه، وفي بلاد تركستان واقفه وناجزه، ونجده[5] في ذلك كما مرّ السيد بركة.

وبلاد الدشت تدعى: دشت قبجاق[6] ودشت بركة، والدشت باللغة الفارسية:

(١) العراقان: عراق العرب: وعاصمتها بغداد، وعراق العجم، وهي بلاد الجبل، ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ويحيط بها من جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ويحيط بها من جهة الشمال بلاد الديلم وقزوين (تقويم البلدان ٤٥٨).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: تعرف.

(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: الوجد، وخد البعير: أسرع، وسَّع الخطو، رمى بقوائمه كمشي النعام.

(٤) الجاليش (شاليش) اسم لعلم من الأعلام كانت تحملها جيوش المماليك في الحروب، وكانت من الحرير الأبيض المطرز، تعلق في أعلاه خصلة من الشعر، والجاليش كلمة تركية معناها مقدمة القلب. ويشبه ابن عربشاه توقتاميش أنه في حربه مع تيمور كمقدمة القلب من الحكام والسلاطين المخالفين لتيمور فهو الراية العظيمة.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: أنجده.

(٦) استمرت دولة مغول القبجاق تحكم شمال شرق العالم الاسلامي منذ العهد المغولي، وكانت حدودها الجنوبية تصل إلى سواحل بحر قزوين الشمالية الغربية وجبال القفقاس وسواحل البحر الأسود الشمالية. وكانت هذه الحدود تفصلها عن دولة المغول الايلخانيين، حكام ايران والعراق وآسية الصغرى، السلجوقية، وكانت الحدود الشرقية لهذه الدولة تصل الى

اسم للبرية، وبركة المضاف اليه: هو أول سلطان أسْلَمْ ونشر بها رايات الملة الاسلامية، وإنما كانوا عُباد أوثان، وأهل شرك لا يعرفون الاسلام والايمان، ومنهم بقية يعبدون الأصنام إلى هذا الأوان. فتوجه إلى ذلك الاقليم من طريق الدربند الجاري تحت حكم الشيخ ابراهيم، وهو سلطان ممالك شروان، ونسبه متصل بالملك كسرى أنو شروان، وله قاض يدعى أبا يزيد، يفضل على جميع أركان دولته بالقرب إليه ويزيد، وهو دستور مملكته، وقطب سلطنته.

فاستشار في أمور تيمور وما يفعله، أيطيعه أم يتحصَّن منه أم يفرّ أم يقاتله؟ فقال له: الفرار في رأيي أصوب، والتحصن في الجبال الشواهق أوثق عندي وأعجب[1] فقال: ليس هذا برأي مصيب، أنجو أنا وأترك رعيتي ليوم عصيب، وماذا أجيب يوم القيامة رب البرية، إذا رعيت أمورهم وأضعت الرعية، ولا عزمت أن أقاتله، وبالحرب والضرب أقابله، ولكني أتوجه اليه سريعاً، وأتمثّل بين يديه سامعاً لأمره مطيعا، فإن ردَّني إلى مكانتي، وقرَّرني في ولايتي، فهو قصدي وغايتي، وإن آذاني أو عزلني أو حبسني أو قتلني، فتكفي الرعية مؤنة القتل والنهب والأسار، فيولي إذ ذاك عليهم وعلى البلاد من يختار، ثم أمر بالاقامات فجمعت، وأذن للجيوش فتفرقت وتمنعت، وبمدن الولايات أن تتزين وتتزوّق، وبسكانها برًّا وبحراً أن تأمن فتتعامل وتتأنق، وبالخُطب أن تُقرأ فوق المنابر باسمه، وبالدنانير والدراهم أن تضرب بوسمه ورسمه، ثم حمل التقادم والخدم، وتوجه اليه بأطيب جأش وأثبت قدم، ولما وفد عليه، وتمثل بين يديه، قدّم الهدايا والتحف، وأنواع الغرائب والطُرف.

وعادة الجغتاي في تقديمهم الخدم أن يقدّموا من كل جنس تسعة، لينالوا بذلك

المجرى الأعلى لنهر ايرتيش، وتتجاوز حدودها في الغرب، نهر الفولغا الذي تقع عليه مدينة « سراي » العاصمة.

وكانت دولة مغول القبجاق قد نشأت في إثر التقسيم الذي أجراه القائد المغولي جنكيز خان في أملاكه قبيل وفاته، ودعيت البلاد ببلاد القبجاق نسبة الى شعب القبجاق الذي كان يسكنها، وهو فرع من شعوب الغز التركية، وقد اعتنق حكام القبجاق الاسلام في وقت مبكر عن الوقت الذي اعتنق به أبناء عمومتهم الايلخانيون هذا الدين، وكانوا في الوقت نفسه حلفاء دولة المماليك في القاهرة.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وأنسب.

عند المهدى اليه الكرامة والرفعة، فقدّم الشيخ إبراهيم من كل جنس من أجناس ما قدّمه تسعة، ومن المماليك ثمانية، فقال له المتسلمون لذلك: وأين تاسع المماليك؟ فقال: التاسع نفسي العانية، فأعجب تيمور هذا الكلام، ووقع من قلبه بمكان ومقام، وقال له: بل أنت ولدي، وخليفتي في هذه البلاد ومعتمدي، وخلع عليه خلعة سنية. وردّه الى مملكته مستبشرا ببلوغ الأمنية.

ثم فرقت تلك الاقامات، وتوزعت الفواكه والطعامات، ففضل منها أمثال الجبال عن ذلك العسكر الذي هو كالحصى والرمال، ثم تركه وسار إلى بلاد الشمال والتتار.

وسبب آخر لقصده تلك الممالك وإن كان لا يحتاج الى ذلك، أن الأمير ايدكو كان عند توقتاميش أحد رؤس أمراء الميسرة والأعيان المتخذين في النائبات لدفعها وأرباب الرأي والمشورة، وقبيلته تدعى قونكرات[1]، وقبائل الترك كقبائل العرب واللغات كاللغات، وكان ايدكو قد أحسَّ من مخدومه، تَغيُّر خاطر خاف منه على نفسه.

وكان توقتاميش شديد البأس فخشي منه حلول بأسه، فلم يزل منه متحرزاً، وللفرار إذا رأى منه ما يقتضي ذلك مستوفزا، وجعل يراقبه ويراقيه، ويُداريه[2] ويُداريه، ففي بعض ليالي السرور ونجوم الكاسات[3] في أفلاك الطرب تدور، وسلطان الخمرة قد أنفذ في أسير العقل أمره طفح[4] أن قال توقتاميش لايدكو، ونور البصيرة يخبو ويذكو: إن لي ولك يوما، يسومك الخسف سوما، ويوليك عن موائد الحياة صوماً، ويملأ عين بقائك من سِنَةِ الفناء نوماً، فغالطه ايدكو وباسطه وقال: أُعيذ مولانا الخاقان، أن يحقد على عبد ماخان، وأن يذوي غراسٌ هو أنشأه، أو يهوي أساس هو بناه، ثم أظهر التذلل والخشوع، والتمسكن والخنوع، وتحقق ما كان ظنه، وأعمل في وجه الخلاص ذهنه، واستعمل في ذلك الذكاء والفطنة، وعلم أنه إن أهمل أمره أو أمهله، أنّه.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: قوبكومات.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ويذار به.
(٣) كؤوس الشراب.
(٤) طفح السكران: إذا ملأه الشراب.

فمكث قليلا واستغفل[1] السلطان، ثم انسلَّت من بين الحواشي، والأعوان، وخرج في لجاجة، كأنه يريد قضاء حاجة، وأتى إصطبل توقتاميش، بجأش[2] يجيش ولا يطيش، وعمد إلى فرس مُسْرجة، مُنجيه مُنتجة، أقيمت معدّة، لكل شدّة، وقال لبعض حاشيته، المؤتمن سِرُّه من فاشيته: من أراد يوافيني، فعند تيمور يلاقيني، ولا تَفْشي هذه الأسرار، إلا بعد أن تَتحقَّق أني قطعت القفار. ثم تركه وسار، فلم يشعر به إلا وقد سبق وركب طبقاً عن طبق، وقطع على أنوال السير أطول الشُقق، فلم يُدركوا منه ما أثار ولا لحقوا منه ولا الغبار.

فوصل إلى تيمور وقبَّل يديه، وعرض حكاياته وأخباره كما جرت عليه، وقال: أنت تطلب البلاد الشاحطة والأماكن الوعرة الساقطة، وتركب في ذلك الأخطار، وتقطع فقار القفار[3]، وتتلو أسفار الأسفار، وهذا المغنم البارد نَصْب عينيك وتدركه هنيئاً مريئا بهينك ولينك، ففيم التواني والتناعس، وعلام التقاعد والتقاعس، فانهض بعزم صميم، فأنا لك به زعيم، فلا قلعة تمنعك، ولا منعة تقلعك، ولا قاطع يدفعك ولا دافع يقطعك، ولا مقاتل يقابلك ولا مقابل يقاتلك، فما هم إلا أوشاب وأوباش، وأموال تساق وخزائن بأرجلها مواش.

ولا زال يحرّضه على ذلك ويطالب، ويفتل منه في الذروة والغارب، كما فعل معه عثمان قرايلوك حين جاء إلى تبريز بوسواسه، وحرّضه على دخوله الشام بعد قتله السلطان برهان الدين أحمد ومحاصرة سيواسه. كما يذكر.

فتهيأ تيمور بأوفى حركة، إلى استخلاص دشت بركة، وكانت بلاداً بالتتار خاصة، وبأنواع المواشي وقبائل الترك غاصّة، محفوظة الأطراف، معمورة الأكتاف، فسيحة الأرجاء، صحيحة الماء والهواء، حشمها رَحَّاله[4]، وجنودها نباله، أفصح الأتراك لهجة، وأزكاهم مهجة، وأجملهم جبهة، وأكملهم بهجة، نساؤهم شموس،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: واشتغل.
(٢) رباطة الجأش والهدوء.
(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: قفار الفقار.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: رجالة.

ورجالهم بدور، وملوكهم رؤوس، وأعْيانهم صدور[1]، لازور[2] فيهم ولا تلبيس، ولا مكر بينهم ولا تدليس وأبهم الترحال على العجل، مع أمان لا يدانيه وجل، مدنها قليلة، ومراحلها طويلة.

وحدّ بلاد الدشت من القبلة بحر القلزم الظلوم الغشوم، وبحر مصر المنقلب اليهم من بلاد الروم، وهذان البحران كادا يلتقيان لولا أن جبل الجركس بينهما برزخ لا يبغيان. ومن الشرق تخوم ممالك خوارزم وأترار[3] وسغناق، إلى غير ذلك من البلاد والآفاق، آخذاً إلى تركستان وبلاد الجتا، متوغلاً إلى حدود الصين من ممالك المغول والخطا، ومن الشمال (إيبير، وسيبير)[4] مواضع وَبَرار وقفار ورمال كالجبال، وكم بين ذلك من تيه[5]، تحيّر الطير والوحش فيه، وهو كرضى الخلق[6] غاية لا تدرك، ومهامه[7] لا تسلك، ومن الغرب تخوم بلاد الروس والبلغار، وممالك النصارى الأشرار، ويتصل بتلك التخوم ما هو جارٍ تحت حكم ابن عثمان من ممالك الروم، وكانت القوافل تخرج من خوارزم وتسير بالعجل، وهم آمنون من غير ريب ولا وجل، وإلى قيريم طولاً ومسيرة ذلك نحو من ثلاثة أشهر.

وأما عرضاً فهو بحر من الرمل أمدّه منه سبعة أبحر[8]، لا يهتدي فيه الخرّيت[9]، ولا يقربه من الدعاميص[10] كل عفريت، فكانت القافلة لا تحمل زاداً ولا عليقاً[11]

(١) صدور: أعيان وكبراء
(٢) الزور: الكذب.
(٣) أترار: تقع على الضفة الشرقية لنهر سيحون وكان اسمها: باراب أو فاراب (بلدان الخلافة الشرقية).
(٤) لم ترد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٥) التيه: المفازة يُتاه فيها.
(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كرضا أكابر الزمان.
(٧) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ونهاية.
(٨) للدلالة على سعة وكبر هذه الصحارى الرملية.
(٩) الخريت: بكسر الخاء وتشديد الراء: الدليل الخبير بالطرق والمسالك.
(١٠) هو دُعميص هذا الأمر أي عالم به.
(١١) العليق: نبات يتعلق بالشجر (مختار الصحاح ص ٢٩١).

ولا يصحبون معهم رفيقاً، وذلك لكثرة الأمم، ووفور الأمن والمأكل والمشرب من الحشم، فلا يصدرون إلا عن قبيله، ولا ينزلون إلا عند من يكرم نَزيلَه، وكأنه فيهم قيل:

متكنفي جبلي عكاظ كليهما يدعو وليدهم بها عرعار

وأما (في هذا)[1] اليوم فليس بتلك الأماكن من خوارزم وإلى قيريم من تلك الأمم والحشم متحرِّك ولا ساكن، ليس فيها من أنيس، إلا اليعافير[2] وإلا العيس[3]، وتحت الدشت سراي، وهي مدينة إسلامية البنيان، بديعة الأركان ويأتي وصفها.

وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها، واتخذها دار الملك، واصطفاها، وحمل أمم الدشت على الدخول في حمى الاسلام ودعاها، فلذلك كانت محل كل خير وبركة، وأضيفت بعد إضافتها إلى قبجاق وإلى بركة.

أنشدني لنفسه مولانا وسيدنا الخواجة عصام الدين بن المرحوم مولانا وسيدنا الخواجة عبد الملك وهو من أولاد الشيخ الجليل برهان الدين المرغيناني رحمه الله، في حاجي ترخان من بلاد الدشت بعد مرجعه من الحجاز الشريف سنة أربع عشرة وثمانمائة، وفي يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة، انتهت إليه الرياسة في سمرقند قال، وقد قاسى في درب الدشت أنواع النكال:

قد كنت أسمع أن الخير يوجد في صحراء يعزى إلى سلطانها بركه
بركت ناقة ترحالي بجانبها فما رأيت بها في واحد بَركه

وأنشدني أيضاً لنفسه معرّضاً بمولانا وسيدنا وشيخنا حافظ الدين محمد بن ناصر الدين محمد الكردي البزازي تغمده الله تعالى برحمته في الزمان والمكان المذكورين:

متى تحفظ الناس في بلدة مصالحها في يدي حافظ
فحافظُها صار سلطانها وسلطانها ليس بالحافظ

ولما تشرف بركة خان بخلعة الاسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنيفي الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشايخ من الآفاق والأكناف، ليوقفوا

(١) ما بين قوسين لا يوجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٢) اليعفور: ظبي بلون التراب أو عام في الظباء وتضم الياء. الخشف: ولد البقرة الوحشية أو تيس الظباء، جمع يعافير.
(٣) العيس: جمع أعيس وهي الابل يخالط بياضها شقرة.

الناس على معالم دينهم، ويُبصروهم طرائق توحيدهم ويقينهم، وبذل في ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء وعظَّم شعائر الله تعالى وشرائع الأنبياء، فكان عنده في ذلك الزمان وعند أوزبك بعده وجاني بك خان مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والسيد جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من فضلاء الحنفية والشافعية[1]، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا أحمد الجندي، رحمهم الله تعالى فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات.

واجتمع فيها من العلماء والفضلاء، والأدباء والظرفاء والنبلاء، ومن كل صاحب فضيلة، وخصلة نبيلة جميلة، في مدة قليلة، ما لم يجتمع في سواها، ولا في جامع مصر ولا في قراها.

وبين بنيان سراي وخراب ما بها من الأمكنة، ثلاث وستون سنة، وكانت من أعظم المدن وضعاً، وأكثرها للخلق جمعا.

حكى أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق[2]، وسكن في مكان مُنحَّى عن الطريق، وفتح له حانوتاً، يتسببَّ فيه ويحصل له قوتاً، واستمر ذلك المهين، نحوا من عشر سنين، لم يصادفه فيها مولاه، ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك لعظمها وكثرة أممها، وهي على شط نهر متشعب من نهر آثل، الذي أجمع السواحون والمؤرخون وقطاع المناهل، أنه لم يكن في الأنهر الجارية، والمياه العذبة النامية، أكبر منه، وهو يأتي من بلاد الروس، وليس له فائدة سوى اغتيال النفوس، ويصبّ في بحر القلزم، وكذلك جيحون وسائر أنهار العجم ونهر سيحون، مع أن بحر القلزم محصور، وعليه بعض ممالك العجم تدور، مثل كيلان ومازندران، وأستراباذ[3] وشروان[4]، واسم نهر سراي:

(١) الحنفية والشافعية: من مذاهب أهل السنة في الاسلام، والحنفية نسبة الى الامام أبي حنيفة النعمان، والشافعية نسبة الى الامام أبي ادريس الشافعي.

(٢) رقيق: من الرقّ أي العبودية.

(٣) استراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: بلدة كبيرة مشهورة وهي من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان.

(٤) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه الفرس الدربند، بناها أنوشروان ←

سنكلا، ولا يُقطع أيضاً إلا بالمراكب، ولا يَثْبت عليه قدم لراجل أو راكب، وكم فِرَق[1] تتفرّق من ذلك البحر العريض الطويل، كل فِرق[2] أعظم من الفرات والنيل[3].

ذكر وصول ذلك الطوفان وجحفه[4] أمم الدشت بعد كسره توقتاميش خان

فوصل تيمور إلى تلك الداره، بالعساكر الجراره، بل بالبحار الزخاره ذوي السهام الطيارة والسيوف البتارة والرماح الخطارة والأسود الهصارة والنمور الكرارة، من كل شانّ الغارة مدرك في العدو ثاره حام حقيقته وجاره وعرينه ووجاره وفريسته ونجاره وألجّ من بحر الحرب غماره، مقاوم أمواجه وتياره.

فأرسل توقتاميش إلى زعماء حشمه، وعظماء أممه وسكان أحقافه وقطان أطرافه ورؤوس أسرته وضروس ميمنته وميسرته، فاستدعاهم وإلى المقابلة والمقاتلة دعاهم[5]،

فسميت باسمه ثم خففت بإسقاط شطر اسمه.

(١) فرق: روافد النهر.

(٢) الفرق: الفلق من الشيء إذا انفلق ومنه قول الله تعالى « فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ».

(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق بعد هذا الكلام: ولما استولى جاني بك خان على ممالك الدشت.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: حجفه: وجحف: جرف.

(٥) أخذ خان القبجاق توقتاميش يستعد لجولة ثانية مع تيمور، منذ انسحاب القوات الغازية من بلاده عام ٧٩٣هـ ـــ ١٣٩١م.

وطفق يعمل من أجل ذلك على تقوية صلاته بدولة المماليك في القاهرة لاقامة تحالف معاد لتيمور بين الدولتين. وأوفد من أجل ذلك رسله إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق الذي قابل الرُسل في دمشق عام ٧٩٦هـ ـــ أيار ١٣٩٤م (المقريزي: السلوك جزء ٣ قسم ٢ ص ٨١٣) والعسقلاني ١/٤٧١) وشهاب ٢٢٨.

ويبدو أن تيمور كان على علم بالتقارب الحاصل بين الحكام المماليك وخان القبجاق ولذلك فقد قام بتعديل خططه العسكرية، وصرف النظر عن الاغارة على بلاد الشام ـــ كما ←

فأتوا في ثوب طاعته يرفلون (وهم من كل حدب ينسلون)[1] واجتمعوا شعوباً وقبائل ما بين فارس وراجل وضارب ونابل ومقبل وقابل وفاتك وقاتل، بمرهف وذابل وهم قوم نِبال النبال وعِضال النضال لا يطيشون سهماً، وهم من بني ثُعَل أرمى، إذا عقدوا الأوتار أصابوا الأوتار وإن قصدوا الأوطار وجدوا المقصد جَثَم أو طَارْ.

ثم نهض للمصادمة، واستعدّ للمقاحمة والمقاومة، بعساكر كالرمال كثرة، وكالجبال كرة وفرة[2].

ذكر ما وقع من الخلاف في عساكر توقتاميش وقت المصاف

وحين تواقف الصفان، وتثاقف الزحفان، برز من عسكر توقتاميش أحد رؤس الميمنة، له دم على أحد الأمراء فطلبه منه وفي قتله استأذنه، فقال له لينعم بالك وليجب سؤالك: قلت:

كان ينوي ذلك من قبل كما روى المؤرخ يزدي ـــ بعد خروجه من بغداد واقترابه من حدود دولة المماليك في بلاد الشام. وفضّل أن ينقل عملياته الحربية الى الشمال حيث كان يقوم توقتميش بعملية عسكرية مباغتة، كما كان دأبه سابقاً، ومضى تيمور يقاتل في بلاد الكَرج القريبة من بلاد القبجاق بانتظار ما سوف ينجلي عنه الموقف.

وحاول توقتميش استعادة منطقة أذربيجان من تيمور فعبرت قواته بوابة دربند في أواخر عام ٧٩٦هـ ـــ تشرين الثاني ١٣٩٤م، لكن القوات التي أرسلها تيمور نجحت في شمال أذربيجان للتصدي للقوات المغيرة ولاذ توقتميش بالفرار عائداً إلى بلاده.

ووجد تيمور أنه من الضروري أن يرد على تحرش خان القبجاق بضربة تستهدف العاصمة نفسها (سراي). وبدأ حركته إلى الشمال نحو بلاد القبجاق في ٨ جمادى الأولى ٧٩٧هـ ـــ ٣١ آذار ١٣٩٥م وحاول توقتميش ثني عزم تيمور على غزو بلاد القبجاق بتوجيه رسالة إليه، أعلن فيها خان ألقبجاق عن ندمه عما بدر منه من أعمال عدائية، ونسب ذلك الى فساد أمرائه، واستقبل تيمور الوفد القبجاقي الذي جاء يحمل الرسالة، وأظهر لأعضاء الوفد عدم اقتناعه بالحجج التي قدمها توقتاميش، وتابع استعداداته للحرب (شهاب ٢٢٩)

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٦.

(٢) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

لكن ترى ما قد طرا على الورى وما جرى

فأمهلْنا، حتى إذا انفصلنا وعلى المراد حصلنا، أعطيتك غريمك وناولتك خصيمك، فأدْرِك منه ثأرك، واقض أوطارك، قال: لا. ولكن الساعة، وإلا فلا سمع لك ولا طاعة.

فقال: نحن في كرب مُهم، هو من مرامك أهم، وخطب مُدلهم هو من مصابك أعمّ، فاصبر ولا تعجل واطمئن ولا توجل، فما يذهب لأحد حق، ولا يضيع مستحق، فلا تلجىء الأعمى إلى الجرف ولا تكن ممن يعبد الله على حرف، فكأنك بليل الشدّة وقد أدبر وبصباح الفلاح وقد أسفر، فالزم مكانك ونازل أقرانك، وتقدَّم ولا تتأخر، واصدع بما تُؤمر.

فانخذل[1] ذلك الأمير، بجمع كثير، وأتبعه كل باغ وعاق[2]، وقبيلته كلها واسمها آقتاق[3]. فانطلق يروم ممالك الروم، فوصل هو وحشمه[4] إلى ضواحي أدرنه[5]، واستوطنوا تلك الأمكنة فاختلّ لذلك عسكر توقتاميش، وصارت سهام مرامه عن مراميه تطيش، ولم ير بُدّاً من اللقاء، وصدق الملتقى، فثبت جأشه وجيشه، وهزم وقارِه طيشه، وقدَّم من أطلابه الأبطال، ورتَّب الخيالة والرجال، وقوّى القلب والجناح، وسدَّد النبل والصفاح.

(**فصل**) أما جيش تيمور. فإنه مستغن عن هذه الأمور، لأن أمره معلوم، ووصفه مفهوم وسطر النصر والتمكين على جبين راياته مرقوم، ثم تدانى[6] الجيشان واصطدما[7] واصطليا بنار الحرب واصطلما والتفّت الأقران بالأقران، وامتدت الأعناق للضراب وشرعت النحور للطعان، واكفهرّت الوجوه واغبرّت وكشرت ذئاب

---

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فانجرَّ.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وغاو.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: آقتاو.

(٤) حشم الرجل: خدمه ومن يغضب له وقد سُموا بذلك لأنهم يغضبون له.

(٥) أدرنه: من مدن تركيا حالياً.

(٦) اقترب الجيشان.

(٧) لما أنجز تيمور استعداداته العسكرية، تابع زحفه نحو الشمال والتقى بتوقتميش الذي كان يقف بانتظاره على رأس جيوشه على ضفاف نهر ترك. ودارت هناك معركة فاصلة بين ←

الضراب واهرّت، وتهارشت نمور الشرور واسبطرت وتعانشت[1] أسود الجنود وازبأرت واكتست بريش النبال الجلود فاقشعرّت، وأهوت جباة الجباه ورؤس الرؤس في محراب الحرب للسجود فخرّت، وثار الغبار وقام القتام[2]، وخاض بحار الدماء كل خاص وعام، وصارت نجوم السهام في ظلام القتام لشياطين الأساطين رجوماً[3] رواشق[4]، ولوامع السيوف في سحاب التراب على الملوك والسلاطين نجوماً صواعق، ولا زالت سلاهب[5] المنايا تجوب وتجول، وضراغم السرايا تصوب وتصول ونقع السنابك إلى الجوّ راقيا، ونجيع[6] السوافك على الدوّ جاريا، حتى غدت الأرضون سِتّاً والسموات كالبحار ثمانيا.

واستمرّ هذا اللدد والخصام نحوا من ثلاثة أيام، ثم انجلى الغبار عن انهزام جيش توقتاميش وولّى الأدبار[7] وفرّت عساكره واندَعرت[7]. وانتشرت جنود تيمور في

الفريقين بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية ٧٩٧هـ ــ ١٦ نيسان ١٣٩٥م لتقرير من سيتولى حكم العالم والسيطرة على مقدرات الشعوب بين تيمور وتوقتميش. ولم يكن تيمور في أية معركة سابقة معرضاً للهزيمة والقتل، كما في هذه المعركة. وظهر توقتميش ومن معه من الأمراء وراء خطوط القوات التيمورية، وحاول الوصول إلى تيمور للقضاء عليه، في غفلة من حراسه المشغولين بالقتال. واضطر تيمور أن يدافع عن نفسه فانكسر سيفه وانقصف رمحه، ولكن أحد قواد الحرس التيموري وهو الأمير نور الدين مع خمسين من أفراد الحرس أحاطوا بسيدهم تيمور وحالوا بينه وبين توقتميش وأمرائه واستطاع المدافعون الملتفون حول تيمور من صد الهجوم ورد المغيرين على أعقابهم، وكان القتال بين الجيشين ضار. واستحال ميدان المعركة الى بحر من الدماء.

(١) اعتنشه: اعتنقه في القتال.

(٢) القَتَام: الغبار أو الأسود منه.

(٣) الرجم: القتل وأصله الرمي بالحجارة.

(٤) الرشق: القوس السريعة السهم يقال ما أرشقها أي ما أسرعها وأخفها، وإذا رمى أهل النضال ما معهم من السهام كلها ثم عادوا فكل شوط من ذلك رشق، وهو أن يرمي القوم أجمعهم بسهامهم أجمعها.

(٥) السلهب: الطويل.

(٦) النجيع من الدم: ما كان يضرب الى السواد.

(٧) وجد توقتميش أمام ثبات جنود تيمور وتكاتفهم، وبسبب كثرة الخسائر التي أُنزلت ←

ممالك الدشت واستقرت، واستولى على قبائلها وأتى على ضبط أواخرها وأوائلها، واحتوى على الناطق فمازه وعلى الصامت فحازه، وجمع الغنائم، وفرق المغانم، وأباح النهب والأسر وأذاع القهر والقسر، وأطفأ قبائلهم، وأكفأ مقاولهم، وغيّر الأوضاع[1] وحمل ما استطاع من الأموال والأسرى والمتاع، ووصلت طراشته إلى آزاق، وهدم سراي[2] وسرايجوق وحاجي ترخان وتلك الآفاق، وعظمت منزلة ايدكو عنده، ثم قفل قاصداً سمرقنده، وصحب ايدكو معه، ورام منه أن يتبعه.

ذكر ايدكو وما صنعه وكيف خلب تيمور وخدعه

فأرسل ايدكو قاصداً إلى أقاربه وجيرانه، وقبائل الميسرة من أصحابه وأخدانه، من غير أن يكون لتيمور، بذلك شعور، أن يرحلوا عن مكانهم وينشمروا عن أوطانهم، وأن ينحوا جهةً عينها وأماكن بيَّنَها، صعبة المسالك، كثيرة المهالك، وإن أمكنهم أن لا يقيموا في منزل واحد يومين فليفعلوا.ذلك، فإنه إن ظفر بهم تيمور بدّد شملهم وأبادهم كلهم، فامتثلوا ما رسم به ايدكو وارتحلوا، ولم يلووا.

ولما علم ايدكو أن جماعته فوّزوا، وحشمه لتيمور أعجزوا، قال له: يا مولانا الأمير إن لي من الأقارب والحشم الجم الغفير، وإنهم عضدي وجناحي، وبصلاح معايشهم صلاحي، ولا آمن عليهم ان بقوا بعدي، من توقتاميش الجور والتعدّي، بل لا أشك

بقواته وليأسه من إحراز النصر، أن الفرار هو خير مخرج للخلاص مما هو فيه. وكان فراره ايذاناً لجيشه أن يحذو حذوه ويتفرق. وتقدم تيمور في إثر أعدائه حتى ضفاف نهر « قوراي » أحد روافد ترك ويدعى اليوم نهر كورا حيث كان يقع معسكر توقتميش، فوضع يده على ما كان فيه من الغنائم، واضطر خان القبجاق الى الاختباء في غابات البلغار القائمة على ضفاف نهر « كاما » أحد روافد الفولغا في مقاطعة قازان الحالية.

(٧) كما وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(١) أحدثت هذه المعركة وحركة جيوش تيمور في بلاد القبجاق تغييراً واضحاً في التوزع البشري بسبب ما ألقته من الرعب في نفوس السكان، واضطرار بعض القبائل الى الفرار من وجه قوات تيمور والنزوح الى مناطق بعيدة عن مسار الجيوش الغازية وقد وصل تيمور في هذه الغزوة حتى ضواحي موسكو (شهاب ٢٢٨ ــ ٢٢٩).

(٢) سراي: عاصمة بلاد القبجاق.

أنه يفنيهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم، وحيث يمتنع عليه بجاه جنابك جانبي ينتقم لسوء طويته من حشمي وأقاربي، لأن سدى هذه الملاحم أنا ألحمته، وفي مضايق البلاء ومآزق الانكسار أنا أقحمته، وعلى كل حال فلا يطيب على قلبي أن يساكنوه.

وكيف يهنأ لي العيش وأصدقائي مجاورون عدوي[1]، فإن اقتضت الآراء المنيرة، إرسال قاصد إلى تلك (الأماكن)[2] والقبائل الكثيرة صحبة مرسوم شريف وأمر عال منيف باستمالة خواطرهم، وتطييب قلوب قبائلهم وعشائرهم والأمر بترحالهم وترقيع حالهم، فنكون جميعاً تحت الظل الشريف في روض عيش وريق وريف ونخلص من هذا الدشت، الخلق الدشت. ونُقَضّي ما مضى من الأعمار، ونقضي الباقي في جنات تجري من تحتها الأنهار، فالرأي الشريف أعلى واتباع ما يبديه بالمماليك أولى.

فقال له تيمور أنت عَذَيقها المُرجب وجذيلها المُحكك[3]، ومع وجودك أنت من يسلك هذا المسلك. فقال: كل الأنام عبيدك وتابع مرادك ومريدك، ومن تراه لشيء أهلاً كان كل حَزن عليه سهلاً. فقال: بل أنت أوْلى بهذا الأمر فكن ضمينه إذ لا يُفتى ومالك[4] في المدينة، فقال: أضف إلي واحداً من الأمراء ليكون لي عليهم وزراء، مع مراسيم شريفة بما تقتضيه الآراء المنيفة. فأجابه وقضى مراده. وأضاف إليه من أراده، فقضيا مآربهما ونجزا ونحو مطلبهما تَجَهَّزا.

ولما فصل[5] ايدكو تيمور استدرك فارطه، وعلم أن ايدكو خلبه عقله وغالطه، فأنفذ إليه قاصداً أن يكون إليه عائداً لأمر قد سنح ورأي قد جنح، فلما قدم القاصد عليه وبلغ ما أرسل به اليه، قال له وللأمير الذي معه وقد نهى كلا منهما أن يتبعه: اقضيا مأربكما والحقا صاحبكما وقبّلا يديه وأبلغاه أن أمد اجتماعنا هذا منتهاه وإني بريء منه إني أخاف الله، ولم يمكنهما مخاشنته ولا وسعهما في تلك الضائقة الشديدة إلا ملاينته، فودّعاه وانصرفا، وانحرفا وما وقفا.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ومجاوره .
(٢) من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .
(٣) يعني : أنت ممن يستشفى برأيه كما تستشفى الابل الجربى بالاحتكاك بالجذيل، وهو العود الذي ينصب لها لتحتك به .
(٤) الامام مالك صاحب المذهب المالكي وكان أعلم أهل المدينة المنورة في عصره .
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فضل ، وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق فلما ولّى .

ولما بلغ تيمور ذلك تصرَّف وتصرَّم[1] وتبرح وتبرم وحرق عليه الأرم وتندّم ولات حين مندم، وكاد يقتل نفسه حنقاً عليه، وتجرع كاسات ويوم يعضّ الظالم على يديه، ولم يمكنه التقيد به فلم يتحرك له بحركة، وتوجه إلى ممالكه ثم إلى سمرقند وتركه، وكان هذا آخر أمره من دشت بركة.

قيل: إنه لم يخدع تيمور ويدهيه، ويخلبه قولاً وفعلاً ويُطغيه سوى ايدكو المار ذكره، أقول: وسوى قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكي الآتي حكايته وأمره.

تتمة ما جرى في نواحي الشمال بين توقتاميش وايدكو من جدال وقتال إلى أن تغيَّر أمر كلٍّ منهما وحال

ولما انفصل تيمور بما حصل واستقر بمملكته بعدما وصل،واتصل ايدكو بحاشيته وابتهج بطاغيته وغاشيته، أخذ في التفتيش عن أمور توقتاميش، وتحفّظ منه وتحرّز ولمناواته[2] انتصب وتجهز، إذ لم يمكنه رتق ما فتقه ولا رقع ما خرقه، وأيضاً ما أمكنه الاستقلال بادّعاء السلطنة، إذ لو أمكن ذلك لادّعاه تيمور الذي مَلَك الممالك، فنصب من جهته سلطانا، وشيّد في دار الملك خانا[3]، ودعا رؤس الميسرة ووجوه قبائلها اليه، فلبُّوا دعوته وأقبلوا عليه، إذ كانوا أقوى من غيرهم، آمنين من ضرر الجغتاي وضيرهم، فقوى بذلك سلطانه، وعَمُر بقفول الجنود خانه، وثبت في دار الملك أساسه وعَلَت أركانه.

وأما توقتاميش[4] فبعد أن تراجع وَهْله واستقر في دماغه عقله، ورحل عدوه

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : تضرَّر وتضرَّم .
(٢) مناوأته وحربه وقد ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وملاقاته .
(٣) خان القبجاق : ملك وسلطان القبجاق .
(٤) عاد توقتميش إلى عاصمته سراي عاصمة القبجاق وسعى لاعادة تكوين دولته من جديد بعد انسحاب تيمور من بلاد القبجاق . ويورد العسقلاني أخباراً عن غزوة قام بها خان القبجاق ضد المستعمرات التجارية في القرم في حوادث عام ٧٩٩هـ ـــ ١٣٩٧م أي بعد انسحاب تيمور (العسقلاني ١/٤٤٥) (شهاب ٢٣٥) .

وحصل هدوّه جمع عساكره واستنجد قوته[1] وناصره، فلا زالت ضروب الضراب كحراب الحروب بينه وبين ايدكو[2] قائمة وعيون السكون كجفون الزمان المتعامي عن صلحهما نائمة.

إلى أن بلغ مصافهم خمس عشرة مرة، يُدال هذا على ذاك تارة وذاك على هذا كرة، فأخذ أمر قبائل الدشت في التناقص والشتات، وبواسطة قلة المعاقل والحصون وقعوا في الانبثاث والانبتات، لا سيما وقد تناوشهما أسدان، وأطل عليهما نكدان، وقد كان جلّهم ذهب مع تيمور، وأمسى وهو في أمره محصور، وفي حصره مأسور. فانفلتت[3] منهم طائفة لا تحصى ولا تحصر، ولا يمكن ضبطها بديوان ولا دفتر، وانحازت إلى الروم والروس، وذلك لحظهم المشؤوم وجدّهم المعكوس، فصاروا بين مشركين نصارى، ومسلمين أسارى، كما فعله جَبلة ببني غسان. واسم هذه الطائفة قرابوغدان.

فبواسطة هذه الأسباب، آل عامر الدشت إلى الخلاء والخراب، والتفرق واليباب[4]، والانفلات والانقلاب، وصارت بحيث لو سلكها أحد من غير دليل ورصد فإنه يهلك على الحقيقة لاضاعته في المجاز طريقه، أما صيفاً فلأنَّ الرياح للرّمال تسفي، فتخفي الطريق على المارة وتعفي، وأما شتاء فلأنَّ الثلج النازل فيها يتراكم عليها فيغطيها، إذ كل أرضها مجاهل ومنازلها مذاهل، ومراحلها مهامِهْ ومناهل، فعلى كل تقدير، سلوكها مهلك عسير.

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قومه.

(٢) يستفاد من بعض ما يورده ابن عربشاه من الأخبار عن بلاد القبجاق، من أن هذه البلاد لم تلبث أن أخذت تسير نحو الاضمحلال. بسبب الحروب التي وقعت بين توقتميش ومنافسيه، من أفراد البيت المالك، من أحفاد جوجي بن جنكيز خان، وممن أقامهم تيمور حكاماً في تلك البلاد قبل انسحابه. وكان أبرز هؤلاء المنافسين الأمير ايدكو، وقتلغ تيمور الذي كان قد أقامه خاناً على بلاد القبجاق مكان توقتميش.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فانفلذت، وقد أثبتنا ما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق.

(٤) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : والتاب.

فكانت الوقعة الخامسة عشرة على ايدكو فَتَشَتَّت وتشرد، وتبذر وتبدّد، وغرق هو ونحو خمسمائة رجل من أخصائه في بحر الرمل، فلم يشعر به أحد.

واستبدّ توقتاميش بالمملكة، وصفا له دشت بركه، وكان مع هذا متشوفاً لأخبار ايدكو وأحواله متشوقاً لمعرفة كيفية هلاكه في رماله، ومَرَّ على ذلك نحو من نصف سنة، وانقطع أثره عن الأعين وخبره عن الألسنة.

وايدكو كان دُعيميص تلك الأعقاص والأحقاف وممن قطع بسير أقدامه أديم تلك النعال والأخفاف[1]، فصار يتربص ويتصبَّر[2] ويتفكر معنى ما قلته ويتدبر، وهو:

أرقب القصد وانتظر فرصاً[3] وانتهز وقتها إذا ماجا
وامزج الصبر بالحجا فبه ورق التوت صار ديباجا

فلما تيقّن أن توقتاميش أيسه[4]، وتحقق أن ليث المنايا افترسه، شرع يتجسس أخباره ويتتبع، ويستشرف آثاره ويتطلع، إلى أن تحقق من الخبر، أنه في متنزه منفرد عن العسكر، فامتطى جناح الخيل، وارتدى جنوح الليل، ووصل السير بالسُّرى[5]، واستبدل السهر بالكرى، فارعا إلى الهضاب، فُروع الحباب، مُفرِعا من الربى، إفراع الندى.

حتى وصل اليه وهو لا يعلم، وانقضّ عليه كالقضاء المبرم، فلم يفق إلا والبلايا احتوشته، وأُسود المنايا انتوشته، وثعابين الرماح وأفاعي السهام نهشته، فحاولهم قليلا، وجاولهم طويلا، ثم انجدل قتيلا[6]، وكانت هذه المرّة من الوقعات السادسة عشر، خاتمة التلاق، وحاكمة الفراق.

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وممن قطع تلك النعال.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ويتبصَّر.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فرجاً.

(٤) أيسه : من اليأس.

(٥) السرى : السير ليلاً.

(٦) إن الحالة التي وصلت اليها بلاد القبجاق من التمزق شجعت الأمراء الروس الذين كانوا خاضعين لبلاد القبجاق على نبذ الطاعة. ولكن أميرا قويا من ليتوانيا يدعى (فيتورسك) انتهز فرصة الفوضى التي حلّت بالبلاد بسبب غزوات تيمور، فاستطاع أن يفرض نفوذه على بقية الأمراء الروس. ولما لجأ اليه الخان توقتميش فاراً من منافسه قتلغ تيمور. عاد ←

فاستقر أمر الدشت على متولي ايدكو، وصار القاصي والداني والكبير والصغير إلى مراسيمه يصفو، وتفرّقت أولاد توقتاميش في الآفاق، جلال الدين وكريم بيردي في الروس وكوباك وباقي اخوته في سغناق، واستمر أمر الناس على مراسيم ايدكو يولي السلطنة من شاء، ويعزله منها إذا أساء، ويأمر فلا يخالفه أحد، ويحدّ فلا يجاوز ذلك الحدّ.

فمن ولاه قوتليغ تيمور خان، وأخوه شادي بك خان، ثم فولاد خان بن قوتليغ تيمور ثم أخوه تيمور خان، وفي أيامه تخبّطت الأمور، فلم يسلم لايدكو زمامه، وقال لاكيد له ولا كرامة، أنا الكبش المطاع، فاني أكون مطيعاً، والثور المتبوع فكيف أصير تبيعا. فالتحم بينهما الشقاق، ونجم من ذوي الضغينة مخبوء النفاق، وجرت شرور ومِحن، وحروب وإحن[1]، وبَيْنا ظلمات الفتن احتبكت، ونجوم الشرور في دياجير الدشت بين الفريقين اشتبكت، وإذا ببدر الدولة الجلالية، من مشارق السلالة التوقتاميشية بزغ متهللا، وفرع من بلاد الروس[2] مقبلا.

فحلّت به الهزيمة مرة ثانية أمام صنيعة تيمور (قتلغ تيمور) في المعركة التي جرت بتاريخ ٨ ذي الحجة ٨٠١هـ ــ ١٣ آب ١٣٩٩م. وعاش بعدها توقتميش حياة التشرد والمغامرة.

ثم حاول توقتميش أن يصلح علاقاته بتيمور، ووعده تيمور بالعمل لاعادته إلى الحكم. وحالت وفاة تيمور في شعبان ٨٠٧هـ ــ شباط ١٤٠٥م من تحقيق وعده، وتقول المصادر الروسية إن توقتميش قُتل في سنة ٨٠٨هـ ــ ١٤٠٦م في (تيومن) إحدى مدن سيبيريا، حيث كان يلجأ إلى هناك فارّاً من شادي بك شقيق قتلغ تيمور وخليفته. (شهاب ٢٣٦).

ويجعل ابن عربشاه مقتل توقتميش على يد الأمير ايدكو. ويلاحظ اختلاف فيما أورده كل من المؤرخ يزدي وابن عربشاه عن دور ايدكو في حروب تيمور في بلاد القبجاق، ففي الوقت الذي يذكر فيه يزدي أن الدور الذي لعبه هذا الأمير كان خلال غزوة تيمور الأولى لبلاد القبجاق عام ٧٩٣هـ، فإن ابن عربشاه يورد أخبار هذا الدور خلال غزوة تيمور الثانية وما بعدها (يراجع شهاب ص ٢٣٦).

(١) إحن : الحقد والغضب.

(٢) لقد أحدثت غزوات تيمور لبلاد القبجاق تغييرات جذرية، فقد قوضت سلطات ملوك القبجاق على أتباعهم من الأمراء الروس، وأتاحت الفرصة أمام هؤلاء الأمراء لبناء الدولة

وكانت هذه القضية في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة، فتعاظمت الأمور، وتفاقمت الشرور، وضعف حال ايدكو وقُتل تيمور، واستمر النفاق والشقاق، بين ملوك ممالك قبجاق[1]، إلى أن مات ايدكو غريقاً جريحاً، وأخرجوه من نهر سيحون بسرايجوق وألقوه طريحاً، رحمه الله تعالى.

وله حكايات عجيبة، وأخبار ونوادر غريبة، وسهام دواه في أعدائه مصيبة، وأفكار مكايد، وواقعات مصايد، وله في أصول فقه السياسة نقود وردود، البحث فيها يخرج عن محصول المقصود.

وكان أسمر شديد السمرة رُبْعه، مستمسك البدن شجاعاً مهابا ذا رفعة، جواداً حسن الابتسامة، ذا رأي مصيب وشهامه، محباً للعلماء والفضلاء، مقرباً للصلحاء والفقراء يُداعبهم بألطف عبارة، وأظرف إشارة، وكان صوّاماً، وبالليل قوّاما، متعلقاً بأذيال الشريعة، قد جعل الكتاب والسنة وأقوال العلماء بينه وبين الله تعالى ذريعة، له نحو من عشرين ولدا كل منهم ملك مطاع، وله ولايات على حدة وجنود وأتباع، وكان في جماعات الدشت إماماً، نحواً من عشرين عاماً، وأيامه في جبين الدهر غرّة، ولياليه دولته على وجه العصر طرّة.

رجعنا إلى ما كُنّا فيه من أمور تيمور ودواهيه

ولما وصل تيمور إلى أذربيجان، وانبثّ عسكره في ممالك سلطانيه وهمذان،

الروسية. كما أحدثت غارات تيمور تغييراً في التوزع البشري في أوربة الشرقية وآسية الصغرى، وذلك بسبب الاضطراب والفزع الذي أحدثته هذه الحروب عند القبائل المغولية، التي كانت تفرّ من أمام جيوش تيمور. فنزل بعض هذه القبائل على سواحل بحر الخزر الشرقية، وتقدم بعضها إلى دوبرودجة ومولدافيا (وهي مناطق في رومانيا اليوم) وتقدمت بعض هذه القبائل الى ليتوانيا على شواطىء البلطيق. واستقرت بسبب غزوات تيمور لبلاد القبجاق، بعض القبائل المغولية في منطقة تراكية، وعلى سواحل بحر ايجة حول إزمير في آسية الصغرى (شهاب ٢٣٦).

(١) القبجاق (القفجاق): جنس من الترك يسكنون صحارى تسمى صحارى الدشت. أو صحارى القبجاق. أهل حلّ وترحال، على عادة البدو (راجع صبح الأعشى ٤/٤٥٦).

واستدعى الملك الظاهر سلطان ماردين وأطلقه[1]، وانعم عليه كما ذُكر واستوثقه، وولاه ما بين الشام والعراق، وأحكم تلك الممالك بما وسعه من المكر والنفاق، ولم يمكنه الاقامة بملك العجم، لما معه من الدشت من أمم، وَجَّه عنان قصده، إلى ممالك سمرقند، فنفض فيها أوطابه، وفرغ عما كان ملأ به من الدشت جرابه، ثم خرج من غير توان، وقطع جيحون بالطوفان، ووصل الى خراسان، وواصل السير الى أذربيجان، فتوجه إلى طَهْرتَن حاكم أرزنجان، متلقياً طوق مراسيمه بجيد الاطاعة والاذعان، وأهمل أمر ماردين وتناساها، ولم يتعرض إلى ما يتعلق بها من مدنها وقراها.

ابتداء ثوران ذلك القتام فيما يتعلق بممالك الشام

ثم انه قصد الرها[2]، ورام نهبها، فخرج اليه شخص من اعيانها، ورؤساء قطانها، يُقال له الحاج عثمان بن الكشك. فصالحه واشتراها بجمل من الأموال وحملها إليه وأدَّاها، فعند ذلك ارسل الى القاضي برهان الدين ابي العباس أحمد الحاكم بقيصرية[3] وتوقات[3] وسيواس[4]، من الرسل عدّة، ومن الكتب شدّة، يبرق فيها ويرعد، ويُرغي في بحرها ويزبد، ويقيم بفحاويها ويُقعد.

ومن جملة فحواه، ومضمون ذلك وما حواه، أن يخطبوا باسم محمود خان، أو سيورغاتمش خان وباسمه، ويضربوا السكة على طرز ذلك ورسمه، كما هو دأبه[5]، ويتحمله رسوله وكتابه، فلم يؤمن له السلطان برسول ولا بكتاب، ولا تقيد له بجواب عن خطاب، بل قطع رؤس الرؤس من قُصَّاده[6]، وعلقها في اعناق الباقين،

(١) تراجع الصفحات السابقة حول أحوال الملك الظاهر سلطان ماردين

(٢) الرها (بالقصر والمد): مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها الرهاء بن البلندي بن مالك

(٣) المدينتين في تركية الآن

(٤) سيواس: (بكسر السين وسكون الياء) اقليم بالروم، وهي بلدة كبيرة مشهورة بينها وبين قيسارية ستون ميلاً (عن تقويم البلدان لابي الفداء اسماعيل) وهي من مدن تركية اليوم

(٥) دأبَ: في عمله: جدّ وتعب.

(٦) عندما كان تيمور في طريقه الى بلاد القبجاق، قادماً من غزوته الأولى الى بغداد فقد انتهز ←

وأشهرهم في بلاده، ثم جعلهم شطرين، وقسمهم نصفين، وأرسلهم الى جهتين، للسلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق منهم جزء مقسوم، والجزء الآخر إلى السلطان أبي يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان حاكم ممالك الروم، واخبرهما بالقضية عن جلية، وما ورد عليه من خطاب تيمور الممقوت، وانه جعل في ذلك جوابه السكوت، وقتل قاصديه نكاية، ولم يزده على هذه الحكاية، وانما فعل ذلك برسله وقصاده؛ استهواناً به واستعظاماً لما فعله بعباد الله تعالى وبلاده.

ثم قال القاضي: اعلموا أني جاركما، وديياري دياركما، وأنا ذرة من غباركما، وقطرة من بحاركما، وما فعلت معه هذا مع ضعف حالي، وقلة مالي ورجالي، وضيق دائرتي وبلادي، ورقة حاشية طريفي وتلادي، الا اعتماداً على مظاهرتكما، واتكالاً على مناصرتكما، واقامة لأعلام حرمة دولتكما، ونشر الرايات هيبة صولتكما، فاني جنة ثغركما، ووقاية نحركما، وجاويش[1] جنودكما، وجاليش[1] بنودكما، وربيئة طلائعكما، وطليعة وقائعكما، والا فمن اين لي مقاومته، وانى يتيسرلي مصادمته؟ وقد سمعتم أحواله، وعرفتم مشاهده وأفعاله، فكم من جيش كَسَر، وقيل أسر، ومُلكٍ مَلَكْ،

فرصة مروره بالقرب من مدينة سيواس في شرق الاناضول، فأرسل الى حاكمها القاضي برهان الدين أحمد بن شمس الدين، يطالبه بأن يضرب النقود على غرار النقود المتداولة في البلاد الخاضعة لحكم تيمور، وأن يجري الخطبة باسم السلطان الجغتائي «محمود بن سيورغتمش» صنيعة تيمور. وكان القاضي برهان الدين أحمد قد وصل الى حكم سيواس بعد وفاة حاكمها الايلخاني «أرتنا بن جعفر» عام ٧٥٣هـ = ١٣٥٢م.

وقام القاضي برهان الدين بقطع رؤوس رسل تيمور الذين حملوا اليه هذا الطلب، وأرسل يعلم السلطان العثماني والسلطان المملوكي بما أقدم عليه. وبعث السلطان العثماني الى حاكم سيواس يعلمه بموافقته على تصرفه، ويعده بتقديم المساعدة. ويرجح ابن عربشاه الذي أورد هذا الخبرأن يكون السلطان المملوكي قد أجاب الجواب نفسه وعبّر للقاضي عن تأييده واستعداده لتقديم المساعدة له. (شهاب ٢٥٧). ويقول ابن تغري بردي في ترجمة السلطان الظاهر برقوق (ثم قدم رسول القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس بأنه في طاعة السلطان ويترقب ورود المراسيم السلطانية الشريفة عليه بالمسير الى جهة يعينه السلطان اليها، عند قدوم تيمور، فكُتِب جواب الجميع بالشكر والثناء وبما اختاره السلطان) (النجوم الزاهرة ٥٩/١٢)

(١) في بعض النسخ: جاووش. وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: شاويش، والجاووشية أو ←

ومَلِكٍ أهْلَك . وستر هتك ونفس سفك ، وحصن فتح ، وفتح منح ، ومال نهب ، وعز سلب ، وصعب أذلّ[1] ، وخطب أحل ، وعقل أزل ، وفهم أضل[2] ، وخيل هزم ، وأس هدم ، وسؤل[3] قطع ، وقصد منع ، وطود قلع ، وطفل فجع ، ورأس شدخ[4] ، وظهر فضخ[5] ، وعقد فسخ ، ونار أشب ، وريح أهب ، وماء أغار ، ورهج[6] أثار ، وقلب شوى ، وكبد كوى ، وجيد[7] قصم ، وطرف اعمى وسمع أصم .

فأنى لي ملاطمة سيل العَرِم ، ومصادمة الفيل المغتلم ، فان نجدتماني وجدتماني ، وإن خذلتماني بذلتماني ، ويكفيكما هيبة وشهرة ، وناهيكما أبّهة ونصرة ، ان من خدمكما . قدّامكما ، من كفاكما ما دهاكما . وإن أصابني والعياذ بالله منه ضرر ، أو تطاير الى مملكتي من جمرات شره شرر ، ربما تعدّى ذلك الفعل بواسطة الحوادث ، الى مفعول به ثان وثالث . قلت :

والشرّ كالنار يبدو حين تقدحه ... شرارة فاذا بادرتـــه خمدا
وإن توانيت عن إطفائه كسلا ... أورى قبائل[8] تشوي القلب والكبدا
فلو تجمع أهل الأرض كلهم ... لما أفادوك في إطفائه[9] أبـدا

الجاويشية أو الشاووشية لفظ تركي مفرد جاويش .. إلخ . وكانت مهمة الجاووش : النداء أو استنفار الجند للقتال ، والجاووش أيضاً شخص يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها .

(١) الجاليش (شاليش) اسم لعلم من الأعلام التي كانت تحملها جيوش المماليك في الحروب . وهي كلمة معناها مقدمة القلب

(١) الذل ــ بالكسر : اللين
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أخل
(٣) السؤل : ما يسأله الانسان
(٤) شدخ شدخاً رأسه : هشمه وكسّره .
(٥) فضخه ــ فضخاً : كَسَرَه .
(٦) الرهج : الغبار
(٧) الجِيد : العنق والمعنى كم عنق كسر
(٨) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فتائل ، وهو يقصد أن الشر أبدى نيراناً كثيرة متفرقة كأنها في كثرتها وتفرقها نيران متشعبة تشوي القلب الكبير
(٩) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : إطفائها .

وربما اهملت خطابه ، وأمهلت جوابه ، لترسما فَاقْتَفى ، وتأمرا فاكتفى ، وتؤسسا فأبني عليه ، وتجاوبا فيصل ذلك كذلك مني إليه .

ذكر ما أجاب به السلطان أبو يزيد بن عثمان القاضي برهان الدين أبا العباس سلطان ممالك سيواس

فأما السلطان أبو يزيد بن عثمان ، فان هذا الفعل أعجبه ، ونغم هذا القول أطربه ، واستحسن هذا الحكم من القاضي واستصوبه ، وأرسل اليه يقول ان ارتدع تيمور عنه وانتهى ، والا فليأتينه بجنود لا قبل له بها ، فَلْيُقَابِله بعين قريرة ، وليثبت له بحسن البصيرة ، واخلاص السريرة ، ولا يجزع من جنوده الغزيرة ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة .

وان اقتضت آراؤه السَّديدة ، وأحكامه السعيدة ، توجّه بنفسه اليه ، وقدم بالغزاة والمجاهدين عليه ، ليرفع أعلامه ، وينفذ أحكامه ، ويكون لسيفه يداً ، ولجناحه عضدا ، ثم ارسل كتابه ، وانتظر جوابه .

وأما الملك الظاهر[1] فما رأيت له كتاباً ، ولا حَقَّقْتُ منه له جوابا ، والظاهر ان جواب الملك الظاهر أبي سعيد ، كان شقيق جواب السلطان الغازي أبي يزيد ، اذ أفعالهما واقوالهما في الباطن والظاهر[2] ، كانت من توارد الخاطر ، ثم إني رأيت كتاباً يتضمن خطاباً وجوابا ، وذكر أن الخطاب من ذلك الغادر ، والجواب من الملك الظاهر ، وكلاهما سوى آي الكتاب غير زاه ولا زاهر ، أما صورة الخطاب فهو : (قل اللهم[3] فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون[4]) اعلموا أنَّا جند الله مخلوقون من سخطه مسلطون على مَنْ يحلّ

(١) الملك الظاهر برقوق
(٢) كانت هناك مراسلات بين السلطان العثماني وسلطان المماليك حول خطر تيمور يقول ابن اياس (بدائع الزهور ١ / ٣٠٠) (حضر الى الابواب الشريفة قاصد أبي يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان وكان سبب مجيء قاصد ابن عثمان أنه ارسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الغفلة في أمره ...)
(٣) في النجوم الزاهرة (قل اللهم مالك الملك فاطر السموات والأرض) ٤٩/١٢
(٤) سورة الزمر آية ٤٦

عليه غضبه، لا نَرِقّ لشاك[1] ولا نرحم عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا[2] فانّا خرّبنا البلاد، وأهلكنا العباد، وأظهرنا في الأرض الفساد، قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، خيولنا سوابق، ورماحنا خوارق،

(١) من الرقة والشفقة. لمن يشتكي

(٢) في النجوم الزاهرة (فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلّت لنا أعِزَّتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فان خُيِّل ذلك على السامع وأشكل، وقال: إن فيه عليه مشكلا، فقل: «إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، وذلك لكثرة عددنا، وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتها بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن ابطال وأقيال، ومُلكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا أبداً لسؤدد مُنقام، فمن سالمنا سلم، ومن حاربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جُهِّل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وان خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا إلا انفسكم، فالحصون منّا مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب فينا فلا يُسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وظلمتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار وبئس المصير: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) فبما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد الهلاك، وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرَقْتُم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي والاسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادى عليكم: (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون).

فأبشروا بالمذلة والهوان، ياأهل البغي والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا والله انكم الكفرة الفجرة، وقد سلّطنا عليكم الاله، له أمور مقدَّرة، وأحكام محرَّرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا مَلَكْنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا بردّ الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادي منادي الفراق: هل ترى لهم من باقية ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزّا (هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)، وقد انصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين، كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين، وتعصوا ربَّ العالمين، (فما على الرسول إلا البلاغ المبين)، وقد أوضحنا لكم الكلام، فأرسلوا بردّ الجواب والسلام).

ومُلكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، فان انتم قبلتم شرطنا، وأصلحتم أمرنا، كان لكم مالنا، وعليكم ما علينا، وان انتم خالفتم وأبيتم، وعلى بغيكم تماديتم، فلا تَلُومُنّ إلا انفسكم، فالحصون مِنّا لا تمنع، والعساكر لدينا لا تردّ ولا تدفع، ودُعاؤكم علينا لا يُستجاب ولا يُسمع، لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجُمَع، فأبشروا بالذلة والجَزَع، فاليوم تجزون عذاب الهون، وقد زعمتم أننا كَفَرة، فقد ثبت عندنا أنكم فَجَرة، قد سَلَّطنا عليكم إلهٌ لهُ الأمور[1] مقدّرة، والأحكام مدّبرة، كثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، قد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منها كل سفينة غصباً، وأرسلنا اليكم هذا الكتاب، فأسرعوا في ردّ الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، ولم يبق لكم باقية، فينادي عليكم منادي الفناء: (هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)[2] وقد انصفناكم اذ راسلناكم، ونثرنا جواهر هذا الكلام عليكم والسلام.

وهذه صورة الجواب وقيل هو انشاء القاضي بدر الدين بن علاء الدين[3] بن فضل الله وما أظنّ لذلك صحة وهو:

(بسم الله الرحمن الرحيم (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذّل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير[4]).

حصل الوقوف على كتاب مجهز من الحضرة الأيلخانية، والسدّة العظيمة الكبيرة السلطانية.

قولكم: إنّا مخلوقون من سخطه، مُسلَّطون على من يحلّ عليه غضبه، لا نرق لشاك، ولا نرحم عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم.

فهذا من أكبر عيوبكم، وهذا من أقبح ما وصفتم به انفسكم، ويكفيكم بهذه الشهادة واعظاً اذا اتعظتم (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون)[5] ففي كل

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: قد سَلَطنا من بيده أمور مقدّرة.

(٢) سورة مريم الآية رقم (٩٨).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وقيل هو انشاء القاضي علاء الدين بن فضل الله.

(٤) سورة آل عمران الآية ٢٦.

(٥) سورة الكافرون

كتاب ذكرتم، وبكل قبيح وصفتم، وزعمتم أنكم كافرون، ألا لعنة الله على الكافرين. من تشبَّه بالأصول، لا يبالي بالفروع.

نحن المؤمنون لا يصدّنا عيب، ولا يداخلنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو رحيم بنا لم يَزَل، وقد عمَّنا ببركة تأويله، وقد خصّنا بفضل تحريمه وتحليله.

انما النار لكم خُلقت، ولجلودكم أُضرمت (اذا السماء انفطرت)[1] ومن العجب العجاب تهديد الليوث[2] باللتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع.

(١) سورة الانفطار

(٢) عند ابن تغري بردي (ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت) والرتوت جمع رت. وهم عِلّية القوم وسادتهم، وقد ورد في مخطوطة الظاهرية القديمة بدمشق: تهديد الرتوت بالليوت. وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: تهديد الليوث بالليوث.

وهذا نص جواب السلطان الظاهر برقوق كما أورده ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٥١/١٢) (فكتب جوابه بعد البسملة الشريفة: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتذل من تشاء)، وحصل الوقوف على الفاظكم الكفرية، ونزغاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الخانية، وسيرة الكفرة الملائكية، وأنتم مخلوقون من سخط الله ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا تَرقُّون لشاك، ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من شيم السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية. وبما وصفتم به انفسكم ناهية، (قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما اعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين). ففي كل كتاب لُعنتم، وعلى لسان كلّ مُرسل نُعتم، وبكل قبيح وُصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع، نحن المؤمنون حقاً، لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركته تأويله، فالنار لكم خُلقت، ولجلودكم أُضرمت (إذا السماء انفطرت)، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع والكماة بالكُراع، نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، ولبوسنا مصرية، وأكُفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب. إن قتلتمونا فنعم البضاعة، وان قُتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من ←

نحن خيولنا بحرية[1]، وهممنا عَلّية، والقناة شديدة المضارب، ذكرها في المشارق والمغارب، إن قتلتمونا فنِعْمَ البضاعة، وان قتلتمونا بيننا وبين الجنة ساعة (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يُرزقون)[2].

وقولكم قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالجزّار لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير من الحطب يكفيه قليل من الضرم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)[3] لفرار لا من الرزايا، نحن من المنية، في غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وان متنا متنا شهداء ألا إن حزب الله هم الغالبون، أَبْعَدَ أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين[4]، تطلبون منا طاعة؟ لا سمع لكم ولا طاعة.

وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا، فهذا الكلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تفكيك، لو كشف لَبان، قبل التبيان، أكفراً بعد إيمان، أم اتخذتم ربّاً ثان؟ (لقد جئتم شيئاً

الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين). وأما قولكم. قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يغنيه الضَّرم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) الفارّ الفارّ من الزوايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية، عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قُتلنا قُتلنا شهداء ألا إن حزب الله هم الغالبون. أبْعَدَ أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا، قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك، وفي سلكه تلبيك، لو كُشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفرتم بعد ايمان أم اتخذتم الهاً ثان، وطلبتم من معلوم رأيكم، أن نتبع دينكم، (لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا).

قُلْ لكاتبك الذي وضع رسالته، ووصف مقالته، وصل كتابك كضرب رَبَاب، أو طنين ذُبَاب، (كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدّا، ونرثه ما يقول) ان شاء الله لقد لبكتم، في الذي ارسلتم، (أي خلطتم في الأمر). والسلام. فعُرض هذا الجواب على السلطان ثم ختم وأرسل إليه.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: نحن خيولنا عربية.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩.

(٣) سورة البقرة ٢٤٩.

(٤) وهذه اشارة الى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الذي اقامه المماليك بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد. راجع هوامش الصفحات السابقة حول الموضوع.

إدًّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا)[1] قل لكاتبك الذي رصَّع رسالته، ووصف مقالته، حصل الوقوف على كتاب كصرير باب، أو طنين ذباب، (وسنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدّا)[2] ومالكم عندنا الا السيف بقوة الله تعالى.

ثم اني وجدت في نسخة مَحا مَرُّ الدهور، بتقادمه مدادها، وبَيَّض كرّ العصور، على وجه الزمان من شيبها سوادها، صورة هذا الكتاب، وهيئة هذا الخطاب، من إنشاء نصير الدين الطوسي، على لسان هولاكو التتري[3]، مرسلاً ذلك الى سلطان مصر، وصورة الجواب بعينه انشاء من كان في ذلك العصر.

(فصل) ولما بلغ تيمور ما فعله السلطان برهان الدين[4] بقُصَّاده حنق، ورتق بجناحي الغضب وفار دمّ قلبه ورنق، وغصَّ غضباً فكاد من الغيظ أن يختنق، ولكن علم أن في الزوايا خبايا، وللاسلام جنوداً وسرايا، وفي عرين[5] الدين من ليوث المسلمين بقايا، وأن امامه اسوداً هواصر، وجوارح كواسر، فتصبَّر للزمان، ورجع القهقرى وتربص بهم الدوائر.

ذكر توجه العساكر الشامية لدفع تلك الداهية الدهية

مع أن ملك الأمراء هو تنم[6]، خرج بالعساكر الى أرزنجان[7] ورجع وهو

(١) القرآن الكريم ـــ سورة مريم الآية ٨٩.

(٢) سورة مريم الآية ٧٩.

(٣) هولاكو التتري الذي احتل بغداد وقضى على الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ. نص خطاب هولاكو كاملاً عند المقريزي في السلوك جزء ١ قسم ٢ص ٤٢٧ ـــ ٤٢٨

(٤) سلطان ممالك سيواس الذي قتل رسل تيمور

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : عزيز.

(٦) هو الأمير سيف الدين تنبك الحسني، يُقال له تنم أيضاً، كان من اعيان استاذه السلطان الظاهر برقوق، وولاه أمرة عشرة في سلطنته الثانية، ثم أخرجه الى دمشق وجعله أتابكاً بها، وبعد موت كمشبغا أسند إليه نيابة دمشق في شهر المحرم سنة ٧٩٥هـ وبقي نائباً الى سنة ٨٠٢هـ. وقد قُتل ودفن في تربته بدمشق في الميدان وهي مشهورة باسم التينبية.

(٧) يقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٩٩هـ. (وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن جاليش

معتنم[1]، ولم يروا في ذلك ضيرا (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا)[2] وعاد من جيش الاسلام كل أسد هصور، وقد إصطاد من دفركي ما ضاهى صورته وجاء نور على نور.

تمرلنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخذ مدينة ارزنكان، وقتل أهلها ونهب ما فيها. فلما سمع السلطان [الظاهر برقوق] ذلك أرسل الى سائر النواب بأن يتوجهوا الى شاطىء الفرات ويُحصنوا البلاد، فخرج سائر النواب الى شاطىء الفرات وأقاموا هناك) (بدائع الزهور ٣٠٧/١).

ويقول السخاوي في ترجمة نائب السلطنة تنم الحسني (ثم في سنة سبع وتسعين [وسبعمائة] قاد الجيوش الاسلامية الى سيواس نجدة لصاحبها برهان الدين، بأمر استاذه الظاهر [للوقوف في وجه تيمور] (الضوء اللامع ٤٤/٣)

وبعد موت الظاهر برقوق في شوال سنة ٨٠١ هـ بايع الأمراء ولده الناصر فرج بن برقوق بالسلطنة وعمره اثنا عشرة سنة، ولم يكد يصل الخبر الى دمشق حتى اعلن نائبها الأمير تنم العصيان وقُتل تنم في رمضان سنة ٨٠٢هـ في محبسه بقلعة دمشق بعد القضاء على العصيان وكانت مدة ولايته دمشق سبع سنين ونصف ودفن بتربته التي انشأها في الميدان والتي تشتهر باسم التينبية. ويقول ابن تغري بردي بعد ان حاصر تيمورلنك العساكر المصرية بدمشق بعد مقتل تنم بسنة (ولقد اخبرني بعض مماليك الوالد ـــ رحمه الله ـــ قال: لما حصر تيمورلنك العساكر المصرية بدمشق، كان الوالد يوم ذلك متولي نيابة دمشق، وكان مقيماً على بعض ابواب دمشق لحفظها، وكان نوروز الحافظي على باب آخر، فركب نوروز الحافظي في بعض الايام، وأتى الوالد ووقف يحادثه. فكان من جملة كلامه للوالد، يا فلان انظر عساكر هذا اللعين ما أكثرها، والله لو عاش استاذنا لما قدر عليه لكثرة عساكره. فتبسم الوالد وخاشنه في اللفظ يمازحه، وقال له: والله لو كان تنم حياً للقيه من الفرات وهزمه أقبح هزيمة، وإنما عساكرنا الآن مغلولة، وآراؤهم مختلفة، وليس فيهم من يُرجع الى كلامه، فلهذا كان ما ترى) (النجوم الزاهرة ٢١٢/١٢).

(١) وقد رجع تنم منتصراً محملاً بالغنائم كما يشير الى ذلك ابن عربشاه، وارتدت قوات تيمور أمام القوات التي كان يقودها نائب السلطنة الأمير تنم الحسني.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٥.

ذكر رجوع ذلك الكنود وقصده استخلاص بلاد الهنود

ثم ان تيمور بلغه أن سلطان الهند[1] فيروز شاه[2]، إنتقل من زحمة الدنيا الى رحمة الله، ولم يكن له ولد يكون له خليفة فسعى تيمور لأن يتولى بحكم الوفاة والشغور[3] تلك الوظيفة، ولما فاض صاحب الهند صارت الناس فوضى، ومرج بحر أمر الهند وماج فجعل كل يخوض خوضاً[4] فعزَّ بعض الناس وبعضهم ذلّوا، ثم اتفقوا

(١) كان بير محمد بن محمد جهانكيز يتولى في تلك الفترة من قِبَل جده تيمور حكم مدن قندوز وباكلان وكابل وغزنين الواقعة في اقصى الشرق من خراسان، على مقربة من حدود الهند.

وقد شجعت حالة الفوضى والمنازعات بين حكام الهند التي كانت في ذلك الوقت على أشدها، بير محمد عام ٧٩٩هـ = ١٣٩٦م على عبور جبال سليمان على رأس ثلاثين ألفاً من قواته لحصار أكبر المدن الهندية في حوض نهر السند، هي مدينة مُلتان، ولما تمكن من احتلالها أرسل الى جدّه تيمور يصف حالة البلاد واضطراب الأوضاع في الهند، وكثرة ثرواتها وختم رسالته بقوله: (وعندما تحتل الهند، فان ذهب هذه البلاد سوف يجعلنا سادة العالم) (شهاب ٢٣٧).

(٢) يقول ابن تغري بردي عن تحركات تيمور (فبلغه موت فيروز شاه ملك الهند من غير ولد، وأن أمْر الناس بمدينة دلي في اختلاف، وأنه جلس على تخت المُلك بدلّي وزير يُقال له قلّو فخالف عليه أخو فيروز شاه، واسمه سارنك خان متولي مدينة مولتان، فلما سمع تيمور هذا الخبر اغتنم الفرصة وسار من سمرقند في ذي الحجة سنة ثمانمائة إلى مولتان وحاصر ملكها سارنك خان ستة أشهر، وكان من عسكر سارنك خان ثمانمائة فيل حتى ملكها..) النجوم الزاهرة ١٢/٢٦١ ــ ٢٦٢)

(٣) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الشعور.

(٤) كانت الهند منذ عام ٧٢٠هـ = ١٣٢١م تُحكم من قبل أسرة تغلق، ذات الأصل التركي الجغتائي. وقد استطاع الأوائل من سلاطين هذه الأسرة، أن يفرضوا سلطتهم على أكثر أجزاء الهند. ثم دب الانحطاط السريع بالهند في عهد المتأخرين من حكام هذه الأسرة. ومال اغلب حكام المقاطعات الى الانفصال عن العاصمة المركزية في العاصمة «دلهي».

وقد حاول السلطان «فيروز شاه» آل تغلق الذي يصفه المقريزي في كتابه السلوك بأنه من عظماء ملوك الاسلام عند وصوله الى الحكم عام ٧٥٢هـ = ١٣٥١م اصلاح احوال الهند. ولكنه اصطدم بمؤامرات من أمراء البيت المالك التغلقي وثورات الهنادكة. واضطر ←

على تولية وزير اسمه ملو، فرأب من أمر الناس ما انصدع، ورفع من استحق الرفع وخفض من بغير استحقاق ارتفع، فعصى عليه اخوه سارنك[1] خان، متولي مدينة ملتان[2]، ووقع بينهم التخالف، وافترق ملأ الهنود فرقاً وطوائف، فكان اختلافهم لتيمور أحسن مساعد، واقوى عضد وساعد.

قلت:

وتشتّت الأعداء في آرائهم سبب لجمع خواطر الأحباب

وحين وصل تيمور الى ملتان، عصى عليه سارنك خان، فأقام يحاصرها، وقعد يضاجرها، وكانت عساكرها جمة، وليالي كتائبها السود مدلهمة حتى قيل: إن من جملة عسكرها الثقيل، كان ثمانمائة فيل، مع أن كل امير من أطراف الهند، ورئيس من اكناف السند، كان قد كفكف اذياله، وللم رحاله ورجاله، وضبط لجوائحه أقياله[3]، وربط لحوائجه أفياله، واستمر ذلك اللّدد والخصام، نحوا من ثلثي عام، الى أن استخلصها ومن يده خلّصها.

(**فصل**): ولما استولى ملو[4] واستقر أمر الهند عليه، وبلغه توجه تيمور اليه، جدَّ

فيروز شاه أن يترك الحكم لوزرائه في آخر ايامه بسبب المرض. واشتد النزاع بين هؤلاء الوزراء وشاهدت شوارع دلهي اشتباكات دامية بين انصار المتنافسين.

ولما توفي فيروز شاه عام ٧٩٠هـ = ١٣٨٨م كان ذلك ايذاناً بازدياد حالة الفوضى، وتَتَالى على عرش الهند بعد ذلك عدد من السلاطين الضعاف، كان آخرهم السلطان محمود الذي استبد به وزيره «ملّو إقبال خان» في الوقت الذي كانت فيه قوات بيرمحمد حفيد تيمور، تتدفق على الهند وتحاصر «ملتان» التي يحكمها شقيق الوزير المتسلط ويدعى «سارنك خان» (شهاب ٢٣٩)

(١) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : شارنك خان.

(٢) ملتان: بلدة في اقليم (البنجاب) وكانت من حواضر الهند الكبرى، دخلها الاسكندر المكدوني، وفتحها محمد الغزنوي سنة ١٠٠٥م. (فهرس معجم الخريطة التاريخية ص ١٠٥) وهي من مدن الباكستان حالياً

(٣) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أثقاله.

(٤) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مدة.

واجتهد وأعدَّ العَدد والعُدد، واستمد الامداد والمدد، وأهلك مالاً لبدا[1]، وحسب ان لن يقدر عليه أحد، وفرّق الأموال، وجمع الخيل والرجال، وأحضر ما في مملكته من الأفيال، ثم حصن مدائنه، ومكن كمائنه، وشيَّد على الأفيال للمقاتلة أبراجاً، وأحكم في تحرير المناضلة طريقة فقه فيها ذهب ومنهاجاً.

وجدَّ تيمور في السير، حتى كاد يسبق الطير، اذ لم يكن له في ذلك الارث من يحجبه، ولا في عساكر سلطان الهند من يقربه. فلما بلغ الهنود بالجنود برزت اليه بالجنود الهنود، وقدّموا الفيول لتنفير[2] الخيول وقد بنوا على كل فيل من الأتراس برجا، وعبئوا في كل برج من المقاتلين من يُخشى في المضابق ويرجى، بعد ما جعلوها من البركستوانات[3] في حصار، وعلقوا عليها من القلاقل والأجراس الهائلة ما يدعو العفاريت الى الفرار، وشدّوا في خراطيمها سيوفاً يصلح أن يقال انها سيوف الهند، تدعو الرؤس شعلة لهيبها فتخر لها ساجدة فيحق أن يقال لها نار السند.

وهذا خارج عمَّا لتلك الفيلة من الأنياب. التي هي في الحروب كالحراب إذ هي في أداء ما وجب عليها نصاب كامل وسهامها التي هي مصيبة في نحور من يقابلها تقصم كل نابل وذابل فكانت تلك الأفيال في وصف القتال كأنها غيل[4] بأسودها ماشيه أو صياص[5] بجنودها جاريه أو أطواد بنمورها عادية أو بحار بأفواج أمواجها رائحة جائية، أو ظلل من الغمام بصواعقها هامية، أو ليالي الفراق بنوائبها السود سارية، وخلفها من الهنود فوارس الحرب، وأبطال الطعن والضرب، سود الأسود، وطلس الذئاب[6] ونمر الفهود[7] بالذابل الخطى[8]، والصارم الهندي.

(١) من قول الله تعالى في سورة البلد رقم ٩٠ الآية ٦ (يقول أهلكتُ مالاً لبدا. أيحسب ان لم يره أحد). والمعنى أهلكتُ مالاً جَمَّاً.

(٢) طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: لتفنى.

(٣) البركستوان: كسوة مزركشة تكسى بها الخيول والفيلة راجع صبح الاعشى ٥/٩٧.

(٤) الغيل: الشجر الكثيف الملتف.

(٥) الصياصي: الحصون.

(٦) ذئب أطلس وهو الذي في لونه غبرة إلى السواد.

(٧) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ونمش الفهود، النَّمش: بفتحتين نقط بيض وسود.

(٨) بفتح الخاء وتشديد الطاء نسبة إلى الخط، أرض تنسب إليها الرماح (مراصد الاطلاع).

والنبل الخلنجي، مع قلب ذكي وجنان جري، وعزم قوي، وضرب[1] رضي.

ذكر ما فعله ذلك المحتال من الخديعة في اجفال الأفيال[2]

وحين اطّلع تيمور على هذه الحال. وتحقق أن شقة عساكر الهند نسجت على هذا المنوال أعمل المكيدة، في قلع هذه المصيدة، ومرق لهم بمرقة قدر طبخها أخثر من العصيدة، فبدأ أولاً في الاحتيال، بدفع مكيدة الأفيال[3]، فاستعمل الفكر الحديد، في اصطناع شوكات من حديد، مثلثة الأطراف، مستبدعة الأوصاف، كأنها في شكلها الخبيث، طرق القائلين بالتثليث، أو وضع اصحاب الأوفاق، أعدادهم المنسوبة الى الوفاق، فصنعوا له من ذلك الألوف.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وصبر.

(٢) ورد اختلاف في ترتيب الفقرتين اللتين تتبعان هذا العنوان بين طبعة عام ١٢٨٥هـ والطبعة الجديدة عام ١٩٧٩ وقد اثبتنا ما ورد في الطبعة القديمة.

(٣) يورد مؤرخو الشام ومصر تفصيلات عن المعركة ويتحدثون عن الطريقة التي استطاع تيمور بها ان يتفادى خطر الفيلة الموجودة في الجيش الهندي. وانه على الرغم من الأجراس الكبيرة التي عُلّقت في اعناق الفيلة، والتي كانت تصدر منها أصوات مزعجة، ومن أبراج القتال التي ركبت على ظهور هذه الحيوانات التي كانت تحمل السيوف في خراطيمها، فقد أمر تيمور أن تنثر آلاف القطع المعدنية الحادّة التي يدعوها ابن عربشاه «الشوكات المثلثة» في الطريق التي ستغير منها الأفيال المقاتلة. وتظاهر الفرسان التيموريون بالهزيمة بسبب خوف الخيول من الأفيال التي اضطر بعضها الى أن يبرك على الأرض، من الألم عندما داست بأقدامها على هذه القطع الحادة. ولما رأى البعض الآخر من هذه الحيوانات ما حلَّ برفيقاتها، هاج وعاد من حيث اتى. وتدفقت دماء الفيلة في أرض المعركة كالأنهار. وكان المغيرون قد هيأوا اعداداً من الإبل، حملوا على ظهورها فتائل من القطن المغموس بالدهن. فلما هاجت الفيلة عائدة الى صفوف الاعداء، أشعل الجند التيموريون النار في الفتائل ثم نخزوا الابل في ادبارها، فانطلقت تطلق اصواتاً هائلة من ألم الاحتراق، نحو الفيلة الهائجة، مما زاد في خوفها وهياجها. وخرج في هذه الاثناء كمين من القوات التيمورية من جانبي ساحة المعركة، ليقضي على ما تبقى من جيش الهند. ولاذ بعدها سلطان دهلي ووزيره بالفرار. (العسقلاني ٢/٣٧) (شهاب ٢٤٣).

ثم عمد الى مجال الفيول في الصفوف فنشر ذلك لها ليلا، وجلب لأهلها حرباً وويلا، ورقم لذلك حدّا، ورسم أن فعل ذلك الحدّ لا يعدّى، ثم ركب أطلابه وأبطاله، ورتب اسوده وأشباله، وهذب خيله وشذب رجاله، وأرصد شمالاً ويمينا، من عسكره للعدو كمينا، وحين بث سلطان السيارة في جوانب الافاق خيله، وضم جيش الظلام رجاله أنجمه وشمر للهزيمة ذيله، مشى عسكره الى ذلك الحدّ رويداً حتى وصل اليه، ولما تراءى الجمعان نكص على عقبيه، ثم نكب بالخيول، عن طريق الفيول، فتصوروا أن خيوله جفلت، وشمس نصرته انكشفت، وكواكب جيشه أفلت، فاقلعوا قلاع الفيول، فانهمرت انهمار السيول، وساقوها خلف عساكره سوقا، على ذلك الشوك المُلقى، وأتبع الفيالة، من الهنود الرجالة والخيالة.

فلما وصلت سيول الفيول من مطارح الشوك الى المقاسم، وأخذ ذلك الشوك في تقبيل أيديها وأرجلها وتثبت بتلك المناسم[1] وأحست قوائمها بشوكها، رجعت القهقرى بل وولّت الأدبار لعدم عقلها[2] ووجود نوكها[3] فنهنهوها ونهوها عن التولي فلم يفدها النهى والنهنهة، وصارت في التقدم الى جهة العدّو كفيل أبرهة[4].

ثم لم يسعها لما أحرها[5] الشوك في تلك الحرار، إلا التولي من الزحف والفرار، فحطمت الفيولُ، الرجالَ والخيول، وصارت القتلى كالجبال والدماء في أوديتها سيول وخرج عليهم الكمين من ذات الشمال وذات اليمين، فأبادوا سائرهم، وألحقوا بأولهم آخرهم.

وقيل ان بلاد الهند ليس فيها أباعر، وأن منظرها يجفل الفيل فيصير أبعد نافر، فأمر تيمور أن يهيأ خمسمائة بعير جفول، وتعبأ رواحلها والحمول، قصباً محشواً بفتائل وقطن بالدهن مبلول، وأن تساق أمام الركبان، الى أن يتراءى الجمعان، فلما تصافوا ولم يبق الا القتال، أمر أن تطلق النيران في تلك الحشايا والأحمال، وتساق الى جهة

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : المناهم .
(٢) عَقَلها : ربطها
(٣) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .
(٤) فيل ابرهة الأشرم الحبشي في الواقعة الشهيرة التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل..).
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أضرها .

الأفيال، فلما أحست البعران، بحرارة النيران، رغت ورقصت، ونحو الفيول شخصت وصارت كما قيل:

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع بين رجليه بشنّ

فلما رأت الفيلة النيران، وسمعت رغاء البعران، ونظرت الى الابل كيف خُلقت، وشاهدتها وقد غنّت ورقصت، وبأجفالها صفقت، ألوت على عقبها ناكصة، لسائقها واهصة[1]، ولراكبها واقصة فحطمت الخيالة، وهشمت الرجالة، وتلا الكافرون آية النصر على اصحاب الفيل، وأرسلوا عليهم من السهام طيراً أبابيل[2]، فلم ينتفعوا بالأفيال، بل أفنت الأفيال غالب الخيل والرجال، ثم تراجعت عساكر الهنود، وأبطال الخيالة من الجنود وكتبوا الكتائب وبندوا البنود، ثم تراموا وتصافوا وتضامّوا وتحافوا، وهم ما بين مجوسي ومسلم، ومبارز منتسب ومناد بالشعار معلم، وكل في سواد اللون و الحديد كقطع الليل المظلم، ثم تدانوا مع التتار وتزاحفوا، وبعد المراشقة بالسهام بالرماح تناقفوا[3]، ثم بالسيوف تضاربوا، ثم تلاتبوا وتواثبوا، ثم تراموا عن ظهور الخيل، واعتكر في ذلك القتام[4] النهار بالليل، ولا زالت تختلف بينهم الضربات وتصول فيهم الحملات، وتحمل منهم الصولات، حتى تلا لسان القضاء والقدر (إن في اختلاف الليل والنهار لآيات) ثم تناهى الاقتحام، وانفرج الازدحام، وأسفرت القضية عن أن برد حامى الهند فانهزم جيش حام، وحلّ بالهنود الويل، ومحا الله آية الليل ولما تفرقت الهنود وفلوا، وانتهى عقد عملهم في المحارية فحلوا، وقتلت سرواتهم وهرب سلطانهم ملّوا، وثبت تيمور وحكمه في هنده[5]، الى الان كما ثبت اوتاده في سمرقنده، فجمع اقيالها، وربط أفيالها، وضبط أحوالها، وما غفل عن ضبط ما عليها ومالها، وسلم افيالها فيالها.

(١) الوهص : شدة الوطء . وفي الحديث : (أنَّ آدم حين أُهبِط من الجنة وَهَصَهُ الله) كأنه رمى به وغمزه إلى الأرض . (مختار الصحاح ص ٤٦٤).
(٢) ورد في القرآن الكريم سورة الفيل (وأرسلنا عليهم طيراً أبابيل..).
(٣) المناقفة : المضاربة بالسيوف على الرؤوس
(٤) القتام : الغبار .
(٥) يقول ابن تغري بردي حول احتلال تيمور للهند (ثم سار تيمور الى مدينة دِلّي وهي تخت الملك، فخرج لقتاله صاحبها ملّو المذكور وبين يديه عساكره ومعهم الفيلة. وقد جعل

على كل فيل برجاً فيه عدة من المقاتلة. وقد أُلبست تلك الفيلة العُدَد والبركُستُونات [وهي كسوة مزركشة تكسى بها الخيول والفيلة] وعُلّق عليها من الأجراس والقلاقل ما يهول صوته ليجفل بذلك خيول الجغتاي، وشدوا في خراطيمها عدة من السيوف المرهفة، وسارت عساكر الهند من وراء الفيلة لتُنفّر هذه الفيلة خيول التمرية بما عليها، فكادهم تيمور وحسب حسابهم بأن عمل آلافاً من الشوكات الحديد مثلثة الأطراف، ونثرها في مجالات الفيلة، وجعل على خمسمائة جمل أحمال قصب محشوة بالفتائل المغموسة بالدهن، وقدمها أمام عسكره فلما تراءى الجمعان وزحف الفريقان للحرب. أضرم تيمور في تلك الأحمال النار وساقها على الفيلة. فركضت تلك الأباعر من شدة حرارة النار. ثم نخسها سواقوها من خلف. هذا وقد كمن تيمور كميناً من عسكره.

ثم زحف بعساكره قليلا قليلا وقت السحر. فعندما تناوش القوم للقتال لوى تيمور رأس فرسه راجعاً يوهم القوم انه قد انهزم منهم ويكفّ عن طريق الفيلة كأن خيوله قد جفلت منها، وقصد المواضع التي نثر فيها تلك الشوكات الحديد التي صنعها، فمشت حيلته على الهنود. ومشوا بالفيلة وهو يسوقونها خلفه أشد السوق حتى داست على تلك الشوكات الحديد، فلما وَطِئتها نكصت على أعقابها.

ثم التفت تيمور بعساكره عليها بتلك الجمال، وقد عظم لهيبها على ظهورها، وتطاير شررها في تلك الافاق، وشَنُع زُعاقُها من شدة النخس في ادبارها.

فلما رأت الفيلة ذلك جفلت وكرت راجعة على العسكر الهندي، فاحست بخشونة الشوكات التي طرحها تيمور في طريقها، فبركت وصارت في الطريق كالجبال مطروحة على الأرض لا نستطيع الحركة، وسالت أنهار من دمائها، فخرج عند ذلك الكمين من عسكر تيمور من جنبي عسكر الهنود، ثم حطم تيمور بمن معه فتراجعت الهنود وتراموا بالسهام.

ثم إنهم تضايقوا وتقاتلوا بالرماح ثم بالسيوف والأطبار [جمع طبر، والطبر: الفأس معرب تبر ـــ الألفاظ الفارسية المعربة ص ١١١]، وصبر كل من الفريقين زماناً طويلاً، إلى أن كانت الكسرة على الهنود بعدما قتل أعيانهم وأبطالهم، وانهزم باقيهم بعد ان مَلُّو القتال، فركب تيمور أقفيتهم حتى نزل على مدينة دلّي وحصرها مدة حتى أخذها من جوانبها بعد مدة عنوة، واستولى على تخت ملكها واستصفى ذخائرها، وفعلت عساكره فيها على عادتهم القبيحة من الاسر والسبي والقتل والنهب والتخريب). النجوم الزاهرة (١٢/٢٦٣ ـــ ٢٦٤).

ثم توجه نحو تختها وهي مدينة دهلي[١]، مصر عظيم جمع فنون الفضل وارباب الفخر الجلي، معقل التجار، ومعدن الجواهر والبهار، فتمنعت عليه بالحصار، فأحاط بذلك السواد الأعظم، من عساكره السواد الأعظم، ومن معه من الخلائق والأمم، فقيل: إن هذه العساكر والخلائق مع عظمها وكثرتها، لم يقدروا أن يكتنفوها لسعة دائرتها، وأنه أخذها من أحد جوانبها بالمحاصرة، وتم الجانب الآخر ثلاث ايام في المحاربة[٢] والمكاشرة لم يدر من في الجانب المحاصر، لبعد المدى وكثرة الأمم مافعل بالجانب الآخر.

ذكر وصول ذلك الخبر الى ذلك العقوق بوفاة الملكين أبي العباس أحمد والملك الظاهر برقوق

وبينا هو استولى على كرسي الهند وأمصاره، واحتوى على ممالكه واقطاره[٣]، وبلغت مراسيمه ذرا أنجاده، وأعماق أغواره[٤]، وانبثّ جيشه في ولاياتها سهلاً ووعرا، وظهر فساده في رعاياها براً وبحراً إذ وفد عليه المبشر من جانب الشام، أن القاضي برهان الدين أحمد السيواسي[٥] والملك الظاهر أبا سعيد برقوق[٦] انتقلا الى دار

(١) (دهلي) أو (دلي) كما ضبطها ابن خلدون. بكسر اللام وتشديد اللام المكسورة ـــ تقع في الهند اليوم وتسمى دلهي القديمة بجانب عاصمتها المسماة: دلهي الجديدة. وقد كان القطب ايبك أول من جعلها عاصمة في الهند الاسلامية وقد استولى عليها سنة ٥٩١هـ وهو مؤسس دولة المماليك في تلك البلاد (راجع التعريف بابن خلدون، ص ٣٦٥، والقاموس الاسلامي لابن عطية (٢/٣٩٩).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: المجاذبة والمشاجرة.

(٣) فقد وصل تيمور بجيوشه الى الضفة الشرقية من نهر الغانج، وكانت هذه آخر نقطة بلغها في توغله في هذه البلاد نحو الشرق (شهاب ٢٤٥).

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وبلغت مراسمه أعماق أنجاده وأغواره.

(٥) القاضي برهان الدين أحمد بن شمس الدين حاكم سيواس توفي سنة ٨٠٠هـ.

(٦) اضطربت أحوال دولة المماليك في مصر بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ = ١٣٤١م فقد اشتد النزاع والتنافس بين ابنائه ثم بين أحفاده على الحكم، الى أن استطاع أحد الأمراء الشراكسة هو برقوق أن يحسم النزاع عام ٧٨٤هـ = ١٣٨٢م ←

السلام، فسر بذلك وانشرح، وكاد أن يطير الى جهة الشام من الفرح[1].

فنجز بسرعة أمور الهند، ونقل الى مملكته من فيها من العساكر والجند، بما أخذه من الأثقال، ونفائس الأموال، ووزّع ذلك الجمهور، وسائر الجند المأسور، على أطرا ف ما وراء النهر من الحدود والثغور، وأقام في الهند نائباً من غير وجل.

ثم صدر عن سمرقند قاصداً الى الشام على عجل[2]، ومعه من الهند رءوس

لصالحه، فجلس على العرش وأنهى بذلك حكم سلاطين المماليك الاتراك. وبدأ حكم السلاطين الشراكسة.

وبرقوق بن أنص الظاهر أبو سعيد العثماني، قد أصبح سلطاناً بين عامي ٧٨٤هـ = ١٣٨٢ الى ٨٠١هـ = ١٤٠٠م إلا أنه لم يوفق في القضاء على المناكل التي كانت تعاني منها، وكانت المؤامرات أقوى منه فخلع عن عرش السلطنة عام ٧٩١هـ = ١٣٨٩م ثم عاد اليها بعد ثمانية أشهر وبقي سلطاناً حتى وفاته سنة ٨٠١هـ = ١٤٠٠م وتوفي وله من العمر ثلاث وستين سنة.

وكان السلطان برقوق ذو شخصية قوية وسعة حيلة وقدرة على تحمل المشاق والمصاعب ويعد من أشهر سلاطين المماليك وقد ترجمه الفاسي في مكة، وله سيرة طويلة جمعها ابن دقماق ثم العيني، وذكره المقريزي والسخاوي وابن اياس وابن تغري بردي (الضوء اللامع ١٠/٣) (النجوم الزاهرة ٢٢١/١١، ١٠٥/١٢) (بدائع الزهور ٣١٤/١).

(١) كان تيمور يخاف من السلطان الظاهر برقوق فهو لم يتقدم الى بلاد الشام الى أن توفى برقوق يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٦٤/١٢): (بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر، وموت القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس من بلاد الروم، فرأى تيمور أنه بعد موتهما ظفر بمملكتيهما، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً).

٢) وقد ذكر المؤرخون تتبع السلطان برقوق لأخبار تيمور وتهيئة قواته للوقوف في وجهه رغم الفتن والثورات التي كان يواجهها برقوق يقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٨٨هـ في بدائع الزهور (٢٦٤/١) (وفيها حضر الى الابواب الشريفة قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن خارجياً من التتار الجغطاوية يقال له تمرلنك قد استولى على البلاد، وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من أهلها خلائق كثيرة وان القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها، وأخذ حذره من تمرلنك).

ـــ وفي حوادث نفس السنة يقول ابن اياس (٢٦٧/١) (حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طغاي وكان قد توجه الى بلاد الشرق لأخبار تمرلنك فلما حضر أخبر السلطان ان جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان، وان بوادر عساكر تمرلنك ←

قد وصلت الى ملطية فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقصر الكبير وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني وأعيان المشايخ المفتين وحضر سائر الأمراء. فلما تكامل المجلس تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الأربعة في أمر تمرلنك ثم ان السلطان تكلم في أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس فلم يوافق شيخ الاسلام على ذلك ولا القضاة الأربعة فَشَكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية من الأموال والعدو زاحف على البلاد وان لم تخرج العسكر بسرعة وإلا وصل الى حلب والشام.. [ثم] وقع الاتفاق.. بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضي سنة كاملة وتبقى الاوقاف على حالها.. ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بأن يتولى جبي الأموال من الناس.. ثم ان السلطان عيَّن تجريدة وعيَّن لها جماعة من الأمراء.. وأخذوا في اسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها الى حضور السلطان.. وفي رجب خرجت التجريدة من القاهرة.. وجاءت الأخبار بأن تمرلنك رجع الى بلاده وأن ولده قد قُتل فسكن الاضطراب ورسم السلطان باعادة ما أخذوه من الناس فتزايدت أدعيتهم له بالنصر).

ـــ ويقول ابن اياس (٢٦٨/١) (ثم دخلت سنة تسعين وسبعمائة فيها حضر الى الأبواب الشريفة جراي دوادار المقر الشريف يونس.. وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفي يلبغا الناصري فأخبر بأن العسكر الذي توجه من القاهرة لما وصل الى سيواس أوقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية، وقد انكسر عسكر تمرلنك، وان الغلاء وقع في العسكر وعزّت سائر البضائع فلما بلغ السلطان ذلك أرسل للعسكر نفقة.

ـــ ويقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٩٥هـ (٢٩٩/١) (حضر طواشي رومي يسمى صفي الدين جوهر أرسله صاحب ماردين فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ تبريز ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فأخبر بأن تمرلنك قد اخذ شيراز ثم قصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلنك وقد احتاط على غالب بلاده ومَلَكها...).

ـــ ويقول ابن اياس في حوادث نفس السنة (٣٠٠/١) (حضر الى الأبواب الشريفة قاصد أبي يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان وكان سبب مجيء قاصد ابن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الغفلة في أمره، وأرسل يطلب من السلطان حكيماً حاذقاً في صنعة الطب وأدوية توافق مرضه الذي كان يشكو به. فانه كان يشكو بضربان المفاصل. فلما وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان وعلم مافيها عيَّن له الرئيس شمس الدين بن صفير وأرسل صحبته حملين من الأدوية...).

←

ثم حضر قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن تمرلنك مَلَك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه أستاذ تمرلنك قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها. فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر محمود شاه فكان بينهما واقعة عظيمة لم يُسمع بمثلها فقتل بها الملك محمود شاه أستاذ تمرلنك. فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان وأنه يطلق إليه ولده ومن عنده من الأسرى فأرسل صاحب البصرة يقول له ما أطلق ولدك ولا الاسرى الذين عندي حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذي عندك وجميع من عندك من الأسرى فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق عليه وأرسل عسكراً ثقيلاً وحاصر البصرة فلم يقدر عليها وقتل من عسكره مالا يحصى عدده ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة. فلما تواترت الأخبار بذلك رسم السلطان [برقوق] للأمير علاء الدين بن الطبلاوي والي القاهرة بأن ينادي في القاهرة للعسكر بالعرض في الميدان بسبب تمرلنك الخارجي وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية بأن لا يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير ...).

ـــ ويقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٩٦هـ (١/٣٠١) (جاءت الأخبار من نائب حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر باللبس الكامل في الميدان ... وجدَّ السير حتى وصل إلى دمشق في يوم الاثنين ثاني عشري ربيع الآخر فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق الذي في الميدان وحكم بين الناس وأقام بالشام اياماً ثم رحل منها وتوجه الى حلب. فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عند ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها أن يكون هو والسلطان عونة واحدة على دفع العدو الباغي تمرلنك فأجابه السلطان الى ذلك وردّ له الجواب عن ذلك بما يطيب به خاطره. ثم حضر إليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان.

فلما أقام السلطان بحلب بلغه أن جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى البيره. فصار جماعة من عسكر السلطان يعدون من الفرات تحت الليل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك.

ثم بلغ السلطان أن تمرلنك رجع الى بلاده. فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية وكذلك القان أحمد بن اويس رجع الى بلاده. ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظاهر برقوق قتال في هذه المرة. بل رجع كل من الفريقين الى بلاده.

ـــ ويقول ابن اياس في حوادث سنة ٧٩٨ (١/٣٠٦) (وفي آواخر هذه السنة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد وحضر صحبته شخص من التتر قيل انه من قرابة تمرلنك وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائبا عنه بالرها فنزل في بعض

أجنادها ووجوه أعيانها، وسلطان أفيالها وأفيال سلطانها، ثم توجَّه قرير العين بتلك الطوائف الطافية، في اوائل سنة اثنتين وثمانمائة، وانصب بذلك الطوفان، من جيحون الى خراسان، وكان قد قرر ولده لصلبه أميران شاه بمملكة تبريز وتلك الديار، والسلطان أحمد قد رجع الى بغداد وهو مستوفز للفرار، وسبب حركته الى بلاد الشام (وإن كان في إهلاك الحرث والنسل مالكي الالتزام[1]) ما فعله القاضي برهان الدين حاكم سيواس بقصاده الأغتام[2]، لكنه أراد أن يغمّ[3] مقصده، ويغطي عن الناس مصدره ومورده. قلت بديها:

وأنى يختفي للشمس ضوء	عن الأبصار في صحو النهار
وكيف يسرّ ذفر المسك يخشى	خياشم الورى في يوم حار
وأنى يختفي للطبل صوت	عن الأسماع في وقت النفار

فان قصده كان بعيد المدد، طويل الأمد، محتاجاً الى اعداد أهبة السلوك، ويخسأ

الأيام ليتصيد فسمع به قرا يوسف فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان فلما مثل بين يديه أمر بسجنه ...).

ـــ (ثم دخلت سنة تسع وتسعين وسبعمائة فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطلمش الذي كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم فأرسل السلطان يقول لتمرلنك ما أطلق لك اطلمش حتى تطلق أنت من عندك من النواب ومن الأسرى الذين أسَرْتَهُم من البلاد فعاد الجواب الى تمرلنك بذلك.) (ويراجع النجوم الزاهرة ١١/٢٤٧)

ـــ وفي حوادث نفس السنة يقول ابن اياس (١/٣٠٧) (وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخذ مدينة تسمى ارزنكان وقتل اهلها ونهب ما فيها. فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب بأن يتوجهوا الى شاطىء الفرات ويحصنوا البلاد فخرج سائر النواب إلى شاطىء الفرات وأقاموا هناك).

(١) لا يوجد ما بين القوسين في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

(٢) الغتمة ـــ بالضم : العجمة، والأغتم من لا يفصح شيئاً .

(٣) أمر غمة : أي مبهم ملتبس .

ان يضاهي[1] غزوة تبوك[2] وأظهر سبباً أبطن فيه، ما رامه من مكره ودواهيه، وأشاع ذلك وأذاع، فامتلأت منه القلوب والأسماع.

معنى كتاب وفد وهو في الهند عليه زعموا أن ولده أميران شاه ارسله اليه

وذلك أن ابنه أميران شاه المذكور راسله، وأنهى اليه يقول على ما قيل في بعض ما قاوله وحاوله، إنك قد عجزت لكبر سنك، وشمول الضعف ببدنك ووهنك، عن اقامة شعائر الرياسة، والقيام بأعباء الايالة والسياسة، والأولى بحالك ان كنت من المتقين، أن تقعد في زاوية مسجد وتعبد ربك حتى يأتيك اليقين، وقد تم في اولادك وأحفادك، من يكفيك أمر رعيتك وأجنادك، ويقوم بحفظ مملكتك وبلادك، وأنى لك بلاد وممالك؟ وأنت عن قريب هالك[3] فإن كان لك عين باصرة، وبصيرة في نقد الأشياء ماهرة، فاترك الدنيا واشتغل بعمل الآخرة، ولو ملكت مُلك شدّاد، ورجع اليك اقتدار العمالقة وعاد، وساعدك النصر والعون، حتى تبلغ مقام هامان وفرعون، ورفع اليك خراج الربع المسكون، حتى تفوق في جمع المال قارون، وحدث في خراب البلاد كبختنصر، الذي طول الله تعالى له فقصر.

وبالجملة فلو بلغ سلطانك الأقطار، وقضيت من دنياك غاية الأوطار، وصار عمرك فيها اطول الأعمار، وخدّامك فيها ملوكها الأغمار، فقصر جندك قيصر وكسر كسرىً فانكسر، وتبعك تبع والنجاشي، وأوساط الملوك والأقيال غدوا لك خدّاماً وحواشي، وغفر لك فغفور بالثناء فاه، وأخنيت على الخان وخاقان فوجه كل في رقعة

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ويخشى أن تضاهى.

(٢) تبوك: بلدة في الطريق بين معان والمدينة المنورة. ويشير ابن عربشاه الى غزوة تبوك التي خرج فيها النبي محمد ﷺ في آواخر حياته الى ملاقاة الروم.

(٣) ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: بعد هذا بيتي الشعر اللذين مطلعهما: قميص من القطن ... والآخر ينال به المرء ... وسيأتي ذكرهما في نفس الفقرة كما ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

دستك شاه، وأذعن لك فرعون مصر وسلطانها. وجبى لك على يد جبيو[1] الدين ايران الدنيا وتورانها، وآل أمرك الى أن دان لك سكان الأقاليم وقطانها، أليس قصارى تطاول قصورك الى القصور، ونهاية كمالك النقص وحياتك الموت وسكناك القبور؟

قلت:

فعش ما شئت في الدنيا وأدرك ... بها ما رمت من صيت وصوت
فخيط العيش موصول بقطع ... وحبل العمر معقود بموت

وقيل:

قميص من القطن من حلة ... وشربة ماء قراح وقوت
ينال به المرء ما يرتجى ... وهذا كثير على من يموت

فأين أنت من نوح وطول عمره، ونياحته على قومه وحسن عبوديته وشكره، ولقمان ووعظه ولده، وتربيته لطول الحياة لبده، وداود في ملكه الفسيح، مع قيامه بأوامر الله تعالى وكثرة الذكر والتسبيح، وسليمان بعده وحكمه على الانس والجن والطير والوحش والريح، وذي القرنين الذي مَلَك المشرقين، وبلغ المغربين، وبنى السدّ بين الصدفين، ودوَّخ البلاد. ومَلَك العباد.

وأين محلك من سيد الأنبياء وخاتم الرسل، وصفوة الأصفياء، المُرسل رحمة للعالمين، الكائن نبياً وآدم بين الماء والطين، محمد المصطفى، وأحمد المجتبى الذي زويت له مشارق الأرض ومغاربها، وتمثّل بين يديه شاهدها وغائبها، وفتحت له خزائنها، وعُرض عليه ظاهرها وكامنها، وكانت جنوده الملائكة الكرام. وآمن به الانس والجن والطير والوحش والهوام، وأيده الله الكريم المتعال، بأن أرسل لطاعته مَلَك الجبال، وكان حامل رايات نصره نسيم الصبّا باليمين والشمال، فملك الجبابرة بالهيبة والقهر، وكانت الأكاسرة والقياصرة تهابه من مسيرة شهر، وأيّده بنصره وبالمؤمنين من المهاجرين والأنصار، وتولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار)[2] وبلغ ركابه الشريف أن الله سبحانه به أسْرى، في بعض ليلة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، وكان مركوبه الشريف البراق، ثم عرج به الى السبع

(١) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: خير الدين.

(٢) سورة التوبة آية ٤٠.

الطباق، وقرن اسمه الكريم مع اسمه، وتعبد عباده بما شرعه الى يوم القيامة من غير تغيير لحدّه ورسمه، وخلق لأجله الكائنات، وأنارَ بوجهه الموجودات، ولم يخلق في الكون أشرف منه ولا أفخر، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأظهر من معجزاته أن أشبع الجمَّ الغفير، من القرص الشعير، وسقى الكثير من الرعال، مما نبع من بين أصابعه من الماء الزلال، وانشق له القمر، وسعت اليه الشجر، وآمن به الضبّ، وسلَّم عليه الحجر.

وهل تحصى معجزاته، أوتحصر كراماته؟ وناهيك بمعجزته المؤيدة، وكرامته المؤبَّدة، المخلدة على مرّ الزمان، الباقية ما دار الحدثان، الساكنة ما تحرك الملوان[1]، وهو القرآن المجيد الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[2].

وهذه منازله في الدنيا، غير ما ادخر له في العقبى، وبشَّره بقوله: (وللاخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى)[3] هذا وان الله تعالى أخذ ميثاق النبيين بالايمان به وبنصره، فلو أدركوه ما يسعهم الا اتباعه وامتثال أمره، فهو دعوة ابراهيم الخليل، ومتوسل موسى والعلماء من بني اسرائيل، والمبشر بقدومه على لسان عيسى في الانجيل، وحامل لواء حمد ربه يوم لقائه، آدم ومن دونه تحت لوائه.

وهو صاحب الحوض المورود، والمخاطب من ربه في موقف الشفاعة والمقام المحمود، بمعنى ما قلت مفوفا مقتبسا:

قل يُسمع شفع تُشَفَّع سل تنله تجد تفويف خلعة عزّ واقتبس نعمى

فانظر الى هؤلاء السادة، معادن الخير ومفاتيح السعادة، هل رغبوا في الدنيا أو اعتمدوا عليها، أو نظروا الا بعين الاحتقار والاعتبار اليها؟ او هل كان نظرهم غير التعظيم لأمر الله، والشفقة على خَلْق الله؟ وناهيك بالخلفاء الراشدين وأعظم بالعُمرين اللذين كانا في هذه الأمة بمنزلة القمرين، وهلم جرا بالخلفاء العادلين، والملوك الكاملين، والسلاطين الفاضلين والذين تولوا بالعدل فرعوا حقوق الله تعالى في

(١) الملوان: الليل والنهار.
(٢) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٣) سورة الضحى

عباده، وحموا عباد الله عن الظلم في بلاده، وأسسوا قواعد الخير، وساروا في نهج العدل والانصاف أحسن سير، فمضوا على ذلك وبقيت آثارهم، وأحيت بعد موتهم أيامهم وأخبارهم، فمضى على ذلك مَثَل الأوّلين، وبقي لهم لسان صدق في الاخرين، إذ صنعوا بموجب ما سمعوا.

فكن حديثاً حسناً ذكره فانما الناس أحاديث

وانت وإن كنت تسلّطت على الخلق، فقد عَدَلت ايضاً ولكن عن الحق، ورعيت ولكن امواهم وزروعهم، وحميت ولكن بالنار قلوبهم وضلوعهم، وأسست ولكن قواعد الفتن، وسِرْتَ ولكن على سنن[1] إماتة السنن، ومع هذا فلو عرجت الى السبع الشداد، ما بلغت منزلة فرعون وشدَّاد، ولو رفعت قصورك على شوامخ الأطواد، ما ضاهيت (إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد[2]).

فانظر إلى من نهى وأمر[3]، ثم مضى وغبر، ولا تكن ممن طغى وفجر، وتولى وكفر، واقنع بهذا الخطاب، عن الجواب، واعط القوس باريها، واترك الدار لبانيها، وتولى الله ورسوله والذين آمنوا وإلا فأنت ممن تولى في الأرض ليفسد فيها، فاني إذ ذاك امشي عليك، واضرب على يديك، وامنعك من السعي في الفساد بأن اسوي بين رجليك، مع قلة اداب كثيرة، وعبارات ذنوبها كبيرة.

فلما وقف تيمور على هذا الكتاب، وجَّه الى تبريز عنان الركاب، وكان عند أميران شاه من المعتدين، جماعة سعوا في الأرض مفسدين، منهم قطب المواصيلي[4] أعجوبة الزمان الدوار، واستاذ علم الموسيقا والأدوار، اذا استنطق اليراعة أسكت أهل البراعة، واذا وضع الناي بِفيه[5]، سحق عود اسحاق وأبيه، وان أخذ في الأغاني أغنى عن الغواني، تقول النفس لنفسه الرخيم خفف عني أيني[6]، فتشير براعته بالاصبع وتقول على عيني، ثم ينفخ فيها الروح، فيشفي كل قلب مجروح،

(١) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: سير.
(٢) سورة الفجر آية ٧، ٨
(٣) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فانظر لمن نهى وأمر.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الموصلي.
(٥) في فمه.
(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: أنيني.

ويداوي كل فؤاد مقروح، فان أقامت قامتها الرشيقة راقصة في سماعها، يحنى الجنك ظهره خاضعاً لطيب استماعها، وان فتحت فاها لتقرىء اسماع القلوب ألحانه، يميل العود عنقه مصغياً اليها عاركاً بأنامل الأدب آذانه.

قيل: انه كان يؤدي جميع الأنغام الفروع والمركبات والشعب والأصول، من كل ثقب من أثقب الموصول، وله مصنفات في أدوار المقامات، وجرى بينه وبين الاستاذ عبد القادر المراغي مباحثات، وكان اميران شاه به مغرماً، يعد صحبته والعشرة معه مغنماً.

وكان تيمور لا يعجبه العجب، ولا يستهويه اللهو والطرب، فقال: ان القطب أفسد عقل اميران شاه، كما افسد عبد القادر أحمد ابن الشيخ اويس وأطغاه، فوصل ذلك الطاغ، سابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة الى قراباغ[1]، فأناخ بها ركابه، وأراح بها دوابه، وضبط ممالك أذربيجان، وقتل اولئك المفسدين وأهل العدوان، ولم يتعرض لأميران شاه، لأنه ولده وهو أنشأه، وبينهما أمور متشابهات لا يعلم تأويلها الا الله.

ثم توجه بذلك الخميس[2]، ثاني جمادى الاخرة يوم الخميس، وأخذ مدينة تفليس[3]. وقصد بلاد الكرج[4]، وهدم ما استولى عليه من قلعة وبرج، وقَلَعهُم الى الصياصي، والقلاع العواصي، وقتل من ظفر به من طائع وعاصي، وجرهم ما بين رءوس ونواصي، ثم ثنى عنان العناد[5]، وحرَّش البغاة على بغداد، فهرب السلطان أحمد من ذلك اللجب، الى قرا يوسف في ثامن عشري شهر رجب فسكن تيمور زعازعه[6]، وطمن ذلك مراقبه ومنازعه، وتمهَّل في السير، واستعمل في نحوه مع

(١) في إيران حاليا.
(٢) الخميس: الجيش.
(٣) بلدة في روسية حالياً (فهرس فتوح البلدان للبلاذري: المنجد).
(٤) الكرج: ضم فسكون فجيم معجمة — هم قوم نصارى كانوا يسكنون جبال القوقاز ثم استولوا على تفليس.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الفساد.
(٦) الزغزغة: تحريك الشيء.

مناظريه مباحث سوى وغير، وصار يتحازر ويتحاول[1]. وينشد وهو يتغافل:

أموّه عن سعدى بعلوى وأنتم مرادي فلا سعدى أريد ولا علوى

فتراجع السلطان أحمد وقرا يوسف يوماً الى مدينة السلام، متصورين أنه لم يبرح من بلاد الكرج اللئام. فلما تحققا من الخروج، وكانا حققا أنه اذا عرج على شيء فما يعوج، أطار أطايرهما[2] نحو الروم، وتركا[3] ديارهما ينعق فيها الغراب والبوم، فتوجه ذلك القشعمان[4] الى مصيف التركمان، فأغمد السيف، وكف عن الحيف، وقضى به[5] الصيف.

ذكر ما وقع من الفتن والبدع وما سلّ للشرور من حسام بعد موت سلطان سيواس والشام

وكان إذ ذاك قد تخبّط أمر الناس، ووقع الاضطراب ببلاد مصر والشام[6] الى سيواس.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وصار يتجاوز ويتجاول.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وطار طائرهما.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وترك.
(٤) القشعمان: المسن.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وتصرم الصيف.
(٦) لم يتجرأ تيمور على القدوم الى بلاد الشام في ايام السلطان الظاهر برقوق الذي كان قد تهيأ لهذا اللقاء ويتمناه في أقرب وقت يقول ابن تغري بردي في الكواكب السائرة (٦١/١٢) (والأخبار ترد على السلطان شيئاً بعد شيء من بلاد الشمال بعود تيمورلنك الى بلاده والسلطان لا يصدق ذلك. ويتقحم على لقاء تيمورلنك، فلم يجسر تيمور على القدوم الى البلاد الشامية مخافة من الملك الظاهر برقوق، وتوجه الى بلاده، فلما تحقق السلطان عودَه تأسف على عدم لقائه، وخرج مع عساكره في سابع محرم سنة سبع وتسعين وسبعمائة يريد دمشق...) وبعد موت السلطان الظاهر برقوق في شوال سنة ٨٠١هـ = ١٣٩٨م وقع الاضطراب وكثرت الفتن في مصر وبلاد الشام وقد تسلطن بعده ابنه الملك الناصر فرج بن برقوق وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة.

أما مصر والشام فلموت سلطانها، وأما سيواس فلقتل برهانها[1]، وكان موتهما متقارب

وأهم الفتن التي حدثت بعد موت برقوق هو اعلان العصيان الذي قام به نائب السلطنة بدمشق الأمير تنم وخروجه عن الطاعة سنة ٨٠٢هـ = ١٣٩٩م يقول ابن اياس (وجاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام جمع عسكرا عظيماً من الشام وهو قاصد نحو الديار المصرية .... ووضع يده على البلاد الشامية وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه ونائب صفد ونائب طرابلس والتف عليه من العسكر والعربان مالا يحصى عدده، فلما ركب الاتابكي ايتمش بمصر وانكسر ... توجه إليه هو والأمراء الذين ركبوا معه فلما توجهوا اليه قويت شوكته وعظم أمره فصار تنم يركب في كل يوم بالشام في المواكب العظيمة مثل مواكب السلطان والأمراء والنواب قدامه..) بدائع الزهور (٣٢١ ــ ٣٢٢)

ويقول ابن تغري بردي حول عصيان تنم (.. وقد تجهزت العساكر المصرية صحبة السلطان لقتال تنم وتهيأ الجميع ...) النجوم ١٩٩/١٢) وكتب أعيان الأمراء الى الأمير تنم في الصلح يقولون (أنت أبونا وأخونا واستاذنا، فان اردت الشام فهي لك، وان اردت مصر كنا مماليك، وفي خدمتك، فَصُن دماء المسلمين ودع عساكر مصر في قوتها، فان خلفنا مثل تيمورلنك ...) (٢٠٦/١٢).

ولم تنجح مهمة الصلح (ثم تقدم العسكران وتصادما ... وكانت الكسرة على تنم.. وقبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أعيان أصحابه من أكابر الأمراء والنواب .. (٢٠٦/١٢).

كذلك انتشرت الفتن ووقع الاضطراب في عاصمة السلطنة القاهرة بين الأمراء المماليك وكانت أشد هذه الفتن في شهر ربيع الأول سنة ٨٠٢ حيث وقعت اصطدامات مسلحة بين فريقين من الأمراء المماليك تزعم أحدهما ايتمش والفريق الآخر يشبك. (النجوم الزاهرة ١٨٤/١٢) ويقول ابن اياس (بدائع الزهور ٣٢٠/١) يصف الأحوال في مصر بعد موت برقوق في فتنة ايتمش: (وصارت المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا دال ولا حاجب والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة واضطربت الأحوال ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا القاهرة عن آخرها في هذه الحركة ...). كذلك كان الخلاف فيه على اشده بين عشائر العرب والتركمان في بلاد الشام (ابن حجر العسقلاني ١٣٦/٢). وانتهز السلطان العثماني بيازيد فرصة هذه الاضطرابات فأقدم على احتلال ملطية التي كانت تابعة لدولة المماليك تذرعاً بانتشار الخلافات بين الأمراء في دولة المماليك بعد وفاة السلطان برقوق (شهاب ٢٨٣).

(١) صاحب سيواس القاضي برهان الدين أحمد توفي سنة ٨٠٠هـ.

الزمان، كموت قرا يوسف والملك المؤيد أبي النصر شيخ وأبي الفتح غياث الدين محمد بن عثمان، فان مدى ما بين موت هؤلاء الملوك العظام، كان نحواً من نصف عام، وكذا كان ما بين موت ذينك السلطانين.

ذكر نبذة من أمور القاضي وكيفية استيلائه على سيواس وتلك الأراضي

وسبب قتل القاضي برهان الدين، مخالفة وقعت بَيْنَه وبين عثمان قرايلوك رأس المعتدين، سيزداد بيانها، اذا أتى مكانها، وهذا السلطان ابوه قاضياً كان، عند السلطان أرتنا حاكم قيصرية وبعض ممالك قرمان، وكان بين الأمراء والوزراء ذا مكانة ومكان[1]، وكان ابنه برهان الدين أحمد المذكور في عنفوان شبابه، من طلبة العلم الشريف وأصحابه، والمجتهدين في تحصيله واكتسابه.

فتوجه الى مصر لاقتناء العلوم، وضبطها من طريقي المنطوق والمفهوم؛ وكان ذا فطنة وقّادة، وقريحة نقّادة، ومقلة غير رقّادة[2]، فحصّل من العلوم عدّة في ادنى مدّة، فبينما هو في مصر يسير، واذا هو بفقير جالس على الطريق كسير، فناوله شيئاً يسدّ به خلّته، ويجبر به فقره وكسرته، فكاشفه ذلك الفقير بلفظ معلوم، وكشف له عن السرّ المكتوم، وقال له: لا تقعد في هذه الديار فانك سلطان الروم، فَصَدع بهذا الكلام قلبه، فأخذ في اعداد الأهبة، وقطع الأعلاق، ودخل الطريق صحبة الرفاق.

ولما وصل الى سيواس، ابتهج به والده وأعيان الناس، وشيَّد له بين الخلق أسدّ بنيان وأشدّ أساس، وشرع في القاء الدروس، ومصاحبة الأعيان والرءوس، وكان ذا همَّة أبية، وراحة سخية، ونفس زكية، وخصائل رضية، وشمائل مرضية، وتحرير شاف، وتقرير واف، يحقق كلام العلماء، ويدقق النظر في مقالات الفضلاء.

وله مصنفات في المعقول، ولطائف في المنقول، ينظم الشعر الرقيق ويعطى عليه العطاء الجليل، ويعجبه اللفظ الدقيق ويثيب عليه الثواب الجزيل، وهو في ذلك يتزيا بزي الأجناد، ويسلك طريقة الأمراء من الركوب والاصطياد، ويلازم ابواب السلطان، ويتخذ الخدم والأعوان.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : إمكان.

(٢) مقلة غير رقادة: عين ساهرة يقظة.

فمات السلطان عن ولد صغير، فأجلسوه على السرير، وكان عنده من أعيان الأمراء، ورءوس الوزراء، ناس منهم غضنفر بن مظفر، وفريدون، وابن المؤيد، وحاجي كلدي، وحاجي ابراهيم، وغيرهم.

ومن أكبرهم ابو القاضي برهان الدين فصار هؤلاء الأمراء، والرءوس من الوزراء والكبراء، يدبرون مصالح الرعية ولا يفصلون إلا بالاتفاق ما يقع من قضية، فمات ابو القاضي برهان الدين وتولى ولده مكانه، وفاق بالعلم وحسن الـ اسة أباه وأقرانه، ففرّق ولايات ذلك الاقليم، على ابن المؤيد وحاجي كلدي وحاجي ابراهيم، فبقي حوالي السلطان محمد فريدون وغضنفر وبرهان الدين أحمد.

ثم توفى السلطان محمد، من غير ولد، فبقيت الولاية بين الثلاثة، على سبيل الاشتراك وراثة، وقلما اتفق ضرتان على زوج واحد وأتلفتا[1] (ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[2] ومائة فقير، يلتفون في حصير، وملكان لا يسعهما اقليم كبير.

فأراد برهان الدين الاستبداد بالملك والاستقلال، فنصب لشريكيه أشراك الاحتيال، إذ الملك عقيم، فرصد لذلك الطالع المستقيم، ونظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم[3]، فرأى شريكاه أن العيادة عبادة[4]، فطلبا بعيادته الحسنى ورام هو الزيادة، فعاداه وقد عاداهما[5]، وما راعياه ولكن راعهما وما راعاهما، فدخلا عليه وقد أرصد لهما رصداً، وأعدّ لهما من الرجال المعدة عددا، وقتلهما وقد حصلا في قبضة الاشراك، وخلص توحيد السلطنة الأحمدية عن الاشراك، فقوى بالتوحيد سلطانه، وأضاء به للدين حجته وبرهانه، ولكن ناوأه[6] أنداده، وعصى عليه من النواب أكفاؤه وأضداده، وأظهر كامن العداوة أعداؤه وحساده، وقالوا هذه مرتبة لم ينلها آباؤه ولا أجداده، ونحن كلنا سواسية اذا انتمينا، فأنى يكون له الملك علينا؟

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : والتقتا.
(٢) القرآن الكريم سورة الانبياء الآية ٢٢ .
(٣) وهو قول النبي ابراهيم عليه السلام الذي ورد في القرآن الكريم سورة الصافات الآية ٨٨ ــ ٨٩ ويعبر ابن عربشاه أن القاضي برهان الدين ادعى المرض ليُبيِّت قتل زميليه.
(٤) زيارة المريض وعيادته عبادة وقد ورد ذلك في أحاديث النبي ﷺ .
(٥) ومعنى قول ابن عربشاه انهما زاراه وهو قد بيت لهما العداء .
(٦) ناوأه انداده : عاداه انداده .

وحسد الرياسة هو الغل القمل، وتحاسد الأكفاء جرح لا يندمل، فمنهم شيخ نجيب صاحب توقات القاسية، ومنهم حاجي كلدي وكان نائب أماسية[1] .

فلما استقل بالملك تلقب بالسلطان[2]، وكان قد استولى اذ ذاك السلطان علاء الدين على ممالك قرمان، فقال السلطان برهان الذين: إن رواة التواريخ حدَّثتنا واسمعتنا، وكتب السير أنبأتنا وأخبرتنا، أن ما حوالينا من الممالك متعلق بنا، من سلطاننا وارثنا.

ثم شرع في استخلاص ما كان متعلقا بسلطانه، وجعل يشن الغارات على من يتمادى في عصيانه، فقلع قلعة توقات من الشيخ نجيب قسرا، واستصحبه معه طيبة وقهرا، وانحازت تتار الروم اليه وهم الجم الغفير، وعثمان الملقب بقرايلوك[3] قال له: أنا تحت اوامرك أمشي وفي قيد طاعتك أسير، فكان قرايلوك من جملة خدمه، وفي حساب تراكمته وحشمه، فكان يرحل هو ومن معه من الناس، شتاءً وصيفاً بضواحي سيواس.

(١) في تركيا اليوم .
(٢) كان القاضي برهان الدين أحمد قد وصل الى حكم سيواس بعد وفاة حاكمها الايلخاني (أرتنا بن جعفر) عام ٧٥٣هـ = ١٣٥٢م وعجز ابناء هذا الحاكم عن الاحتفاظ بالحكم في أسرتهم. ولكن القاضي برهان الدين حين وصلت اليه رُسل تيمور عام ٧٩٦هـ = ١٣٩٤م قام بقتل اعضاء الوفد التيموري الذي جا يطلب منه أن يعلن ولاءه للفاتح التركي تيمورلنك.
وأرسل القاضي برهان الدين رسلا الى السلطان العثماني والسلطان المملوكي في القاهرة يعلمهم بهذا الخبر، وهذا الحادث قد اغضب تيمور الذي اخذ يحرض على برهان الدين حاكم سيواس زعيم قبيلة الغنمة البيضاء (آلاق قيونلو) الموالية له.
(٣) زعيم قبيلة الغنمة السوداء «عثمان قرايلك» وكانت عاصمته آمد.

ذكر محو قرايلوك عثمان آثار أنوار برهان الدين السلطان بسبب ما أضمره من العدوان وأظهره حالة العصيان وقبض عليه لما غدر به الدهر وخان

ثم إنه وقع بين قرايلوك[1] وبين السلطان[2] منافرة ، أدّت إلى المشاجرة[3] ، وانتهت إلى المراماة والمناقرة ، فنقض العهود والذمم ، وامتنع من حمل التقادم والخدم ، وتمنع[4] في الأماكن العاصية بمن معه من التراكمة والحشم ، فلم يكترث به السلطان ، لأنه كان أقل الأعوان ، وجعل يتوجه إلى أماسية وأخرى إلى أرزنجان ، وكان بالقرب من سيواس مصيف منظره طريف ، وترابه نظيف ، وماؤه خفيف ، وهواؤه لطيف ، كأنّ الخُلْد خلع على أكتاف رياضه سُندسه الأخضر والفردوس فجر في خلال أشجاره من نهره الكوثر . على حدائقه من روضات الجنات شَبَه ، وفي ربوة جبهته للأبصار دهشات وللبصائر نزه .

قلت :

عليه شقيق قد زها فكأنّه صحون عقيق أترعت بالعنابر

فقصده قرايلوك ، ورام في طريقته السلوك فمرَّ على سيواس وبها القاضي أبو العباس فجاز بركابه ، ولم يعبأ به ، فالتهب تموز قيظه ، وكاد يتميز من غيظه ، وقال بلغ من هذا العوّا أن يلج برج الأسد ، أو يقدّم قدم اقدامه وأنا حلّ بهذا البلد ، ثم

(١) عثمان قرايلوك زعيم قبيلة الغنمة السوداء .

(٢) السلطان القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس .

(٣) بتحريض من تيمور قام عثمان قرايلك من عاصمته آمد بالهجوم على سيواس في عام ٨٠٠هـ=١٣٩٨ ، فقتل القاضي برهان الدين وفرض نفسه حاكماً على المدينة . ولما رفض سكان سيواس الإقرار بالطاعة لعثمان قرايلك ، فقد اضطر إلى الفرار والالتحاق بتيمور ، وأخذ يحثه على التدخل ، في الوقت الذي استدعى فيه سكان سيواس السلطان العثماني بايزيد لحكم مدينتهم ، فسار إليها عام ٨٠١هـ= ١٣٩٩م ، وأقام فيها أحد أبنائه حاكماً هناك ، وترك له قوة كبيرة وحاشية تضم عدداً من القواد العسكريين (شهاب ٢٥٧) .

(٤) تحصّن في الأماكن المستعصية .

أمر جماعته بالركوب ، وقصد عليه الوثوب ، واستفزه الغضب والطيش ، أن ركب وسبق الجيش ، فقال له بعض من معه من الجماعة : لو يلبث مولانا السلطان ساعة ، حتى يتلاحق العسكر ، كان أحزم وأوفق وأجدر ، وإن كانت حرمة مولانا السلطان فيها كفاية ولها أيد ، لكن قرايلوك تركماني[1] ذو دهاء وكيد ، فلم يلتفت السلطان إلى هذا الكلام ، ولم يزل هاجماً وراءه حتى هجم الظلام ، فكَرَّ عليه قرايلوك بجماعته ، فقبض عليه باليد من ساعته ، ولم يدر بحاله العسكر ، وتفرّق أمره[2] وجنده شَغَر[3] بَغَرْ .

ذكر ما كان نواه قرايلوك من الرأي المصيب ورجعه عنه لسوء طويته شيخ نجيب

ثم إنَّ قرايلوك[4] عزم أن يجدِّد معه العهد والميثاق ، ويقلع غراس الخلاف ويؤسس بنيان الصداقة والوفاق ، ويردّه إلى مكانه ، ويصير كما كان أوَّلاً من أنصاره وأعوانه ،

(١) والتركمان بالضم : جيل من الترك ، سُمُّوا به لأنه آمن منهم مائتا ألف في شهر واحد ، فقالوا : ترك إيمان ، ثم خففت فقيل تركمان (عن القاموس) .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أمراؤه .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : شذر مذر ، ومعنى قوله تفرقوا شغر بغر : أي في كل وجه .

(٤) عثمان بن قطلوبك بن طورغلي الفخر التركي الأصل التركماني أمير التركمان بديار بكر وصاحب آمد وماردين وغيرهما ويعرف بقرايلوك . كان أبوه من جملة الأمراء في الدولة الأرتقية أصحاب ماردين ثم انتمى ابنه لتيمور لنك وصار من أعوانه ودخل معه البلاد الشامية لما طرقها ثم رجع إلى بلاده واستولى على آمد وولاه السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق نيابة الرها لما قتل جكم وأرسل إليه برأسه فقوي بذلك وضخم أمره ... ووقائعه مع قرا يوسف وأولاده كثيرة ... ولما تسلطن الأشرف برسباي وطالت أيامه جهَّز لقتاله عسكراً غير مرة وأخذت الرها منه ... واستمر قرايلوك على حاله بديار بكر إلى سنة ٨٣٩هـ ومات في صفر سنة ٨٣٩ وقد بلغ التسعين أوزاد عليها (الضوء اللامع ١٣٥/٥) .

ويعلم بذلك السلطان[1] انه له ناصح ، فلا يسمع فيه كلام واش[2] وكاشح ، واذا بشيخ نجيب الذي كان متولي قلعة توقات ، وحاصره السلطان وضيَّق عليه مسالك الطرقات ، ثم قهره وغلبه ، وأخذ قلعته ، وبالكراهه إستصحبه ، وجد فرصة فانتهزها ، وكان في قلبه كمائن سخيمة فأبرزها ، فجاء إلى قرايلوك ، ووقف في خدمته كالمملوك ، وقال أعيذ عالم عقلك أن يزلّ ، ودليل فهمك أن يضلّ ، ومصيب رأيك أن يُصاب ، وجميل فكرك أن يعاب ، قد أمكن الله من العدوّ ، وأنّى لك مع هذا سكون وهدو ؟

قلت :

ما الدهر إلا ساعة وتنقضي والمرء فيها حازم أو نادم

فلئن أبْقيتَ عليه لا يُبقى عليك ، ولئن نظرتَ إليه بعين الرحمة والله لا ينظر إليك ، فانه رجل غبي ، وبأنواع المكر وأصناف الخديعة عبى ، عَسِر القياد وأبيك لا ينجع فيه الخير وأبي ، وَهَبْك والعياذ بالله منه مكانه منك ، أكان يرقّ لك أويصفح عنك ؟ هيهات هذا والله محال ، فقد وقع لك والله مجال ، فما كل أوان ، يسمح بالمراد الزمان ، والدهر فرص ، وأكثره غصص ، فإياك أن تفوت الفرصة ، فتقع في غصة وأي غصة ، ولاينفعك الندم إذا زلَّت بك القدم ، وتفكر فيما أقول ، واستنبط دليل هذه المسألة من المعقول ، واستبق شرفك الرفيع بإراقة دمه ، وصن[3] أستار حرمك بابتذال حرمه ، وتذكَّر يا أمير ، أمور قابوس بن وشمكير ، ولا زال ذلك الشيطان ، يُحَسِّن له الرأي في قتل السلطان ويقول : هذا الرأي أنفع لك وعليك أعود كما فعل بسطام أمير الكرد بقرا يوسف لما قبض على السلطان أحمد ، فرجع قرايلوك عن رأيه لما خدعه ودهاه ، فقتل السلطان من غير إمهال ولا توقف رحمه الله .

(١) السلطان القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس الحنفي قاضي سيواس قدم حلب واشتغل بها ودخل القاهرة ورجع إلى سيواس فصاهر صاحبها ثم عمل عليه حتى قتله وصار حاكماً بها وقد قتل سنة ٨٠١هـ وله شعر وأدب (شذرات الذهب ٤/٧).

(٢) من الوشاية . ويقال : وشى كلامه : أي كذب . ووشى به إلى السلطان وشاية أي سعى .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وحسن .

وكان قتل قرا يوسف[1] السلطان أحمد ابن الشيخ أويس[2] في عاشر شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثمانمائة . والقصة مشهورة .

(١) قرا يوسف بن قرا محمد بن بيرم خجا التركماني . كان في أول أمره من التركمان الرحالة فتنقلت به الأحوال إلى أن استولى بعد تيمور لنك على عراق العرب والعجم ثم مَلَكَ تبريز وبغداد وماردين وغيرها واتسعت مملكته . ونشأ مع والده الذي تغلب على الموصل وملكها بعد موته سنة ٧٩١هـ وصار ينتمي لأحمد بن أويس لتزوج أحمد بأخته ويكاتب صاحب مصر وأباه وينجد أحمد في مهماته ثم وقع بينهما بحيث قتل أحمد رسله .... وبعد موقعة بينهما انكسر السلطان أحمد صاحب بغداد وقتله قراه يوسف وملك بغداد وتبريز وماردين وما لها من البلاد ... (الضوء اللامع ٦/٢١٦).

(٢) السلطان أحمد بن أويس بن الشيخ حسن السريري الكبير بن الحسين بن أقبغا ابن ايلكان بن القان غياث الدين صاحب بغداد وتبريز وسلطانهما ورث ملك العراق عن أبيه المتوفى بتبريز في سنة ٧٧٦هـ فأقام إلى سنة ٧٩٥هـ ثم قدم حلب ومعه أربعمائة فارس من أصحابه هارباً من تمرلنك حين استيلائه على بغداد لائذاً بالسلطان الظاهر برقوق الذي أكرمه وأقام في ظله إلى أن سافر معه حين توجه بالعساكر لجهة الشام وحلب فلما رجع برقوق إلى القاهرة عاد أحمد إلى بلاده في بغداد ... فلم يلبث أن ساءت سيرته وقتل جماعة من الأمراء فوثب عليه الباقون وأخرجوه وكاتبوا نائب تمرلنك في شيراز ليتسلمها ففعل وهرب السلطان أحمد إلى قرا يوسف التركماني بالموصل فسار معه إلى بغداد فالتقى به أهلها فكسروه وانهزما نحو الشام وقطعا الفرات ومعهما جمع كبير من عسكر بغداد والتركمان ... وعاد إلى بغداد فدخلها ومكث بها مدة حاكماً ثم جاء إليها التتار فخرج هارباً منها وجاء إلى حلب في صفر سنة ست وهو بليد في زي فقير فأقام بها مدة .. وتوجه إلى القاهرة ... وعاد إلى بغداد ودخلها بعد أن نزل التتار عنها لوفاة تمرلنك واستمر على عادته ثم تنازع هو وقرا يوسف فكانت الكسرة عليه فأسره وقتله خنقاً في ليلة الأحد سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (الضوء اللامع ١/٢٤٤).

ويقول ابن العماد (شذرات الذهب ٧/١٠١) (وكان سلطاناً فاتكاً له سطوة على الرعية ... وعنده جور وظلم على أمرائه وجنده ... ثم سار إلى بغداد فدخلها بعد ذهاب التتار منها بعد وفاة تيمور واستمر بها حاكماً على عادته إلى أن تغلب قرا يوسف على التتار وأخذ منهم تبريز وما والاها فوقع الخلف بينه وبين ابن أويس فتقابلا للقتال فكانت الكرة على ابن أويس وأخذ أسيراً ثم قتل يوم الأحد آخر شهر ربيع الآخر ٨١٣ هـ).

وكان السلطان[1] رحمه الله كما ذكر أولاً ، عالماً فاضلاً كريماً متفضلاً ، محققاً في التقرير ، مدققاً في التحرير ، قريباً من الناس ، مع كونه شديد البأس ، رقيق الحاشية أديباً ، شاعراً ظريفاً لبيباً أريباً ، جواداً مقداماً ، قرماً[2] هماماً ، نهاب الدنيا وهابها ، يهب الألوف ولن يهابها .

يحب العلماء ويُجالسهم ، ويدني الفقراء ويكايسهم ، قد جعل يوم الاثنين والخميس والجمعة للعلماء وحفّاظ القرآن خاصة ، لا يدخل عليه معهم غيرهم من تلك الأمم الغاصّة .

وكان قد أقلع قبل وفاته عن جميع ما كان عليه ، وتاب إلى الله تعالى ورجع إليه ، وله مصنفات منها الترجيح على التلويح .

وكان عنده نديم للفضل حريز ، بغدادي الأصل يدعى عبد العزيز ، وكان أعجوبة الزمان ، وفي لطائف الشعر والنظم فارسياً وعربياً أطروفة الدوران ، سرقه من بغداد من السلطان أحمد بن الشيخ أويس ، فكان عنده رأس ندمائه وعين أهل الفضل والكيس[3] ، والقاضي كان يربي الفضلاء ، متطلباً من كل جهة الأدباء والشعراء ، وكان أهل الفضل والأدب ، يَفدون عليه من كل فج وحتى صار مقامه كعبة الحاج لا كعبة الحج[4].

وصورة سرقته له أنه لما سمع بأوصافه أحبَّه ، فأراد قربه ، فالتمسه من مخدومه ، فلم تسمح نفس السلطان أحمد بمفارقة نديمه ، ثم اختشى من القاضي رغبة[5] وخاف لشدة دهيه هربه ، فوصّى به وحرج عليه ، وأقام له معقبات يحفظونه من خلفه ومن بين يديه ، فأرسل القاضي إليه رسولاً ذكياً ، فناداه نداءً خفياً ، وأجزل له العطية ، ووعده مواعيد سنية .

وفرق ما بين السلطانين من الحسن والقبح ، كفرق ما بين البحرين العذب

(١) السلطان القاضي برهان الدين أحمد .
(٢) القرم : السيد .
(٣) الكيِّس : العاقل .
(٤) الكعبة في البيت الحرام في مكة المكرمة . سمي بذلك لتربيعه (مختار الصحاح ص ٣٦٤).
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : رعبه .

والملح ، والمبليين[1] المساء والصبح ، فلبّى دعوته بالقبول ، وواعد للخروج ، بعض القفول ، ثم خرج وهيب الحرّ قد وَقَد ، والسلطان أحمد عند الحريم قد رَقد ، ووضع ثيابه على ساحل دجلة ، ووجه إلى داخل النهر في الطين رجله ، ثم غاص في الماء ومخر[2] ،وخرج من مكان آخر ، ولحق برفقائه ، واختفى بينهم إختفاء اليربوع في نافقائه ، فطلبه السلطان أحمد ، ففتشوا عليه فلم يوجد ، فبالغوا في طلابه ، إلى أن وقفوا على ثيابه ، ورأوا آثار رجليه في الطين ، فلم يشكُّوا أنَّ الموج اختطفه ، فكان من المغرقين ، فكفوا قدم السعي عن طلبه . ولم يضيقوا على أحد بسببه .

ثم بعد أيام يسيرة ، أخرج غريق بغداد رأسه بسيواس عند القاضي برهان الدين من تحت الحصيرة ، فغَرَّقه في أبحر نواله ، وأسبغ عليه ذيل كرمه وأفضاله ، فصار عنده مقدَّماً ، ولديه مبجلاً معظماً ، ألف له تاريخاً بديعاً ، سلك فيه مهيعاً[3] رفيعاً ، وانتهج منهجاً منيعاً ، ذكر فيه من بدء أمره إلى قرب وفاته ، مع مواقفه ووقائعه ومصافاته ، وشحه بظريف كناياته[4] ، ولطيف إستعاراته ، وفصيح لغاته ، وبليغ كلماته ، ورشيق إشاراته ، ودقيق عباراته ، مَدَّ فيه عنان اللسان ، وهو موجود في ممالك قرمان ، في أربع مجلّدات ذكر ذلك لي من غاص بحره ، واستخرج درّه . ووقف على تاريخ العتبى في اليمين ، السلطان محمود بن سبكتكين ، وأن هذا أحسن من ذلك أسلوباً ، وأغزر يعبوبا ، وأعذب شؤبوياً[5] مع أني لم أقف عليهما ، ولا وصلت لقصر الباع إليهما .

ثم إن الشيخ عبد العزيز هذا بعد لهيب هذه النائرة[6] ، انتقل إلى القاهرة ، ولم يبرح على الإبراح ، ومعاقرة راح الأتراح ، حتى خامرته نشأة الوجد فصاح ، وتردّى من سطح عال فطاح ، ومات منكسراً ميتة صاحب الصحاح ، والله أعلم .

(١) في طبعة القاهرة١٢٨٥ هـ : الملوين .
(٢) مخر : شق الماء مع صوت .
(٣) مهيعا : طريقاً بينا .
(٤) مفرده كناية .
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مشروباً .
(٦) النائرة : العداوة والشحناء .

ذكر ما وقع من الفساد في الدنيا والدين بعد قتل قرايلوك السلطان برهان الدين

ولما قُتل السلطان برهان الدين لم يكن في أولاده من يصلح للرئاسة ، وينفذ أحكام السلطنة والسياسة ، فرجع قرايلوكُ إلى سيواس ، ودعا إلى نفسه الناس ، فلم يجيبوه ، ولعنوه وسبّوه ، فأخذ يحاصرهم ويناكدهم ، ويُضَيِّق عليهم ويعاندهم ، فاستمدُّوا عليه التتار فَأَمَدُّوهم ، وأتت طائفة منهم فنجدوهم ، فكسرهم قرايلوك ففرّوا ، واستنجدوا طوائفهم وكرّوا ، وأقبلوا بالقض والقضيض ، وملأوا اليفاع[1] والحضيض ، فلم يكن لقرايلوك في[2] جبة قتالهم طوق ، فدخل عليهم من تحت وجَاءَهم من فوق .

وتوجه إلى تيمور ، وكان بحر جيشه في أذربيجان يمور ، فقبَّل يديه ، وانتمى إليه ، وجعل يناديه إلى هذه البلاد ويدعو ، كما فعل معه الأمير ايدكو ، فحك له في الدبرة . فأجابه إجابة برصيصا أبا مرة[3]

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : البقاع . واليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : على .

(٣) أبا مرة كنية الشيطان . وفي هذا يقول عبد الله ابن مسعود حول آية سورة الحشر « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنّي بريء منك إني أخاف الله رب العالمين » قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة أخوة ، وكان تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مُصدق يُسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فَجَرَ بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤية ما أدري أقصها عليكم أو أترك ؟ قالوا بلى قصها علينا قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيتُ ذلك ، فقال الآخر وأنا والله لقد رأيتُ ذلك ، قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء قال : فانطلقوا فَاسْتَعْدُوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه قال : فسجد له ، فلما أتوا ملكهم تبرأ منه وأُخذ منه فقُتل ... يقول ابن كثير في التفسير ٣٤١/٣ : واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصاً فالله أعلم .

ذكر مشاورة الناس من أهل سيواس آنّى يسلكون ومن يملكون

ثم إن أهل سيواس ، والأعيان من رؤسائها والأكياس[1] ، تشاوروا فيمن يُملكون قيادهم ، وإلى من يسلمون بلادهم ، لسلطان مصر أم لابن قرمان ، أم السلطان الغازي بايزيد[2] بن عثمان ، ثم اتفق رأيهم السديد ، على المرحوم يلدريم[3] بايزيد ، فأرسلوا إليه قاصداً ، واستنهضوه إليه وافدا ، وأنشدوه ، وقد استنجدوه :

وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع إختياري

فتوجه من ساعته إليهم ، وقدم بالعساكر والجنود عليهم ، ومهَّد القواعد والأركان ، وولَّى عليهم أكبر أولاده أمير سلمان[4] ، وأضاف إليه خمسة أنفار ، من أمرائه الكبار : يعقوب بن أورانيس ، وحمزة بن بجار ، وقوج علي ، ومصطفى ، وداودار ، واستمال خواطر الأعيان ، وتوجه إلى أرزنجان ، فهرب منها طهرتن المذكور ، وقصد في انهزامه تيمور ، فاستولى ابن عثمان على مدينة أرزنجان ، وأخذ أموال طهرتن وذخائره وحرمه ، ومكن منهنّ سواسه وغلمانه وخدمه ، ورجع بالأموال والحمول واشتغل بمحاصرة استنبول[5] .

(**فصل**) فنبهّ قرايلوك وطهرتن ، من تيمور نائم[6] الفتن ، وإن كان المتحّرك منه

(١) العقلاء .

(٢) كما وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ ، وفي بعض النسخ أبي يزيد ، ويقول أبو المحاسن في المنهل ج ٣ قسم ٣ ص ٥١٠ : إن صواب الاسم بيازيد .

(٣) كذا في الضوء اللامع والنجوم الزاهرة . وضبطه صاحب النجوم الزاهرة بالعبارة فقال : وهو بكسر الياء وسكون اللام وكسر الدال والراء وسكون الميم . وهو باللغة التركية : اسم للبرق (النجوم الزاهرة ٣٢/١٣). ووردت في بعض النسخ إيلدريم .

(٤) كذا ضبطه بالعبارة ابن حِجر في الإنباء والسخاوي في الضوء اللامع ، فقالا : سلمان بضم السين المهملة . وضبط بفتح السين في بعض النسخ . وورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : سليمان .

(٥) استانبول واسلامبول : القسطنطينية ، فتحها السلطان العثماني محمد الثاني في سنة ٨٥٧هـ= ١٤٥٣م وأصبحت عاصمة الخلافة الاسلامية وكانت تعرف بالاستانة .

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قائم .

في الفساد ما سكن ، حتى توجّه إلى هذه البلاد ، وعمّ فساده البلاد والعباد ، فوصلوا إلى أرزنجان واردين ، ثم ارتحلوا ونزلوا مفسدين ماردين ، فعصى عليه الملك الظاهر ، لما كان قاساه أوّلا من طاعة ذلك الغادر ، فندم على إطلاقه أوّل مرة ، كما سيندم يوم القيامة ولم تنفعه الندامه والحسرة ، وكان ذلك في سنة إثنتين وثمانمائة ، والخلف قد وقع بين العساكر الشامية والمصرية[1] وانحاز إلى كل فئة ، وتفرّقت آراؤهم أيادي سبا[2] ، ومال هواء[3] كل منهم إلى دبور وشمال وصبا ، وأهملوا أمور الرعايا ، وغفلوا عن حلول الرزايا . قلت :

من يهمل الأعدا ويأمن كيدهم مثل النئوم وراءه مستيقظ

وقلت :

واللص ليس له دليل سائر نحو الذي يبغي كنوم الحارس

ثم قُتل تنم ملك الأمراء بالشام المحروس ، ورءوس الأمراء وأعيان الأعلام[4] ، في شهر رمضان من العام المذكور ، وبيان هذه الأمور ، في كتب التاريخ مسطور . قلت :

واذا العرين تصرعت آساده عوت الثعالب فيه آمنة الردى

(١) يشير ابن عربشاه إلى الخلاف الذي وقع بين أمراء البلاد الشامية الذين التفوا حول نائب السلطنة تنم الحسني والسلطان فرج بن برقوق ومن معه من الأمراء المماليك في القاهرة الذي أدّى إلى مصادمات عسكرية متعددة ، وقد أُهملت البلاد وتفرقت الآراء وقُتل أشهر الأمراء منهم إيتمش الذي كان أتابك العساكر وعظيم دولة الظاهر برقوق والأمير تنم الحسني نائب الشام . وقد قال عن هذه الحالة المتمزقة الأمير ابن تغري بردي نائب السلطنة المملوكية في دمشق حين دخول تيمور إليها وهو والد المؤرخ الشهير صاحب النجوم الزاهرة (٢١٣/١٢) (والله لو كان تنم حياً للقيه من الفرات وهزمه أقبح هزيمة ، وانما عساكرنا الآن مغلولة ، وآراؤهم مختلفة ، وليس فيهم من يرجع إلى كلامه ، فلهذا كان ما ترى).

(٢) تفرقوا أيدي سبا : تبددوا .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ومال هؤلاء.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ثم قتل هو تنم ملك الأمراء بالشام المحروس أعيان الأمراء والأعلام والرؤوس .

ذكر قصد ذلك الغدّار سيواس وما يليها من هذه الديار

ثم إن تيمور وجّه عنان الباس[1] ، نحو مدينة سيواس ، وبها كما ذكر أمير سلمان بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان ، فأرسل يُخبر أباه بهذا الأمر المهول ، ويستنجده وهو إذ ذاك محاصراً استنبول ، فلم يطق ان يمدّ إليه يداً لاحتياجه إلى المدد ولبُعْد المدى فاستحضر من جنده أهل المنعة ، وحصّن المدينة والقلعة ، واستعدّ للقتال واستمدّ للحصار ، وفرّق رؤس أمرائه على أبدان الأسوار .

وجهّز تيمور من جيشه العيون ، ليتحقق ما هو عنده مظنون ، ولما كشفت جيوشه لأمير سلمان رَيْنَها ، فرّ لما أن رأى عينها ، فعزم على التوجه إلى أبيه ، واشترط مع أمرائه وذويه ، أنهم يحفظون له البلد ، ريثما يُجّهز لهم العَددْ والعُددَ ، فلم يسعهم إلا الموافقة ، والتخلف وعدم المرافقة ، فرام لنفسه الخلاص ،وأفلت، وله حصاص[2] . فوصل اليها تيمور بتلك السيول الهامية ، سابع عشر ذي الحجة سنة إثنتين وثمانمائة .

ولما حلّت بسيواس رجله الشومى ، قال : أنا فاتح هذه المدينة في ثمانية عشر يوماً ، ثم أقام في محاصرتها علامات الحشر وفتحها في اليوم الثامن عشر ، بعد ما عتا فيها وعاث ، وذلك يوم الخميس خامس المحرم سنة ثلاث ، وبعد أن حلف للمقاتلة أن لا يريق دمهم ، وأنه يرعى ذممهم ، ويحفظ حُرمهم وحَرمهم ، ولما فرغت المقاتلة ، واستمكن من المقاتلة ، ربطهم في الرباق[3] سربا ، وحفر لهم في الأرض سربا[4] ،

(١) البأس : العذاب وهو أيضاً الشدة في الحرب .

(٢) الحصاص : بضم الحاء : شدة العدُو ، وقد وردت في بعض النسخ : خصاص .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الوثاق . والربق بالكسر حبل فيه عدة عرا تشد به البهائم ، كل عروة ربقة ، والجمع رباق .

(٤) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٦٤/١٢) (ومضى « تيمور » إلى سيواس وقد أخذها الأمير سليمان بن أبي يزيد بن عثمان فحصرها تيمور ثمانية عشر يوماً حتى أخذها في خامس المحرم في سنة ثلاث وثمانمائة ، وقبض على مقاتليها وهم ثلاثة آلاف نفر ، فحفر لهم سرداباً وألقاهم فيه وطمّهم بالتراب . بعد ما كان حَلَف لهم ألا يريق لهم دماً . وقال : أنا على يميني ما أرقتُ لهم دماً ، ثم وضع السيف في أهل البلد وأخربها حتى مَحَا رُسُومَها).

وألقاهم أحياء في تلك الأخاديد ، كما أُلقي في قليب بدر الصناديد ، وعدد من ألقى في تلك الحفر ، كان ثلاثة آلاف نفر ، ثم أطلق عنان النِهاب ، وأتبع النهب الأسر والخراب .

وكانت هذه المدينة من أطرف الأمصار ، في أحسن الأقطار ، ذات عمائر مكينة ، واماكن حصينة ، ومآثر مشهودة ، ومشاهد للخير معهودة ، ماؤها رائق ، وهواؤها للأمزجة موافق ، وسكانها من أحشم الخلائق ، يتعانون التوقير والاحتشام ، ويتعاطون أسباب التكلف والاحترام ، وهي متاخمة ثلاث تخوم : الشام[1] وأذربيجان والروم[2] . وأما الان فقد حلّت بها الغير ، وتفرّق أهلها شَذَر مَذَر[3] ، وانمحت مراسم نقوشها ، فهي خاوية على عروشها .

ذكر انسجام صواعق ذلك البلاء الطام من غمام الغرام على فرق ممالك الشام

ولما استنقى سيواس لحماً ونَقْياً ، واستوفاها حصداً ورَعْياً ، فوق سهام الانتقام ، إلى نحر ممالك الشام ، بجنود ان قيل كالجراد المنتشر ، فالجراد كان من أعوانها ، أو كالسيل المنهمر . فَسَيْل الدماء جار من فرندها وخرصانها ، أو كالفراش المبثوث فالفراش يحترق عند تطاير سهامها ، أو كالقطر[4] الهامي فالديم[5] تضمحل عند انعقاد قتامها .

(١) بلاد الشام في العصر المملوكي كانت مقسمة إلى ست نيابات وهي : دمشق ــ حلب ــ حماة ــ طرابلس ــ صفد ــ الكرك ــ ثم جعلت غزة نيابة سابعة .

(٢) أرض الروم وبلاد الروم أي آسية الصغرى حيث كان يطلق على الأتراك الروم وأبناء الروم ، وأطلق علماء الجغرافيا من العرب اسم بلاد الروم وأرض الروم على شبه جزيرة الأناضول .

(٣) شذر مذر : ذهبوا في كل وجه .

(٤) القطر : المطر .

(٥) فالديم . الديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق أقله ثلث النهار أو ثلث الليل وأكثره ما بلغ العِدّة والجمع ديم . ثم يشبه به غيره وفي الحديث : « كان عمله ديمة » ومفاز ديمومة أي دائمة البعد .

رجال توران ، وأبطال إيران ، ونمور تركستان ، وببور[1] بلخشان ، وصقور الدشت والخطا ، ونسور المغول وكواسر الجتا ، وأفاعي خجند وثعابين اندكان ، وهوام خوارزم وجوارح جرجان ، وعقبان صَغَانيان ، وضواري حصار شادمان[2] ، وفوارس فارس وأسود خراسان ، وضِباع الجيل وليوثَ مازندران ، وسباع الجبال وتماسيح رستمدار[3] وطالقان ، وأصل[4] قبائل خوز وديدان كرمان ، وطلس أرباب طيالسة أصبهان ، وذئاب الري وغزنى وهمذان ، وأفيال الهند والسند ومؤلتان ، وكباش ولايات اللور ، وثيران شواهق الغور ، وعقارب شهرزور ، وجرارات عسكر مكرم[5] وجنديسابور[6].

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

مع ما أضيف اليهم من عشائر الخدم ، وفراعل التراكمة والأوباش والحشم ، وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم ، وحُفالة[7] عُبَّاد الأوثان وأنجاس مجوس الأمم ، مالا يكتنفه ديوان ، ولا يحيط به دفتر حسبان .

وبالجملة فإنه الدجال[8] ومعه يأجوج ومأجوج[9] ، والرياح العقيمة الهوج .

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فهود .

(٢) حصار شادمان : بلد فيما وراء النهر في روسية الآن .

(٣) رستمدار : ناحية كانت بين مدينة قزوين وآمل ، وهذه الناحية كانت تسقيها أنهار كثيرة من شاهرود (بلدان الخلافة الشرقية لابن سترينج ص ٤١٥).

(٤) الأصَلَة : جنس من الحيات وجمعها أصل .

(٥) عسكر مكرم : بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء تقع في إيران اليوم .

(٦) في إيران اليوم .

(٧) حفالة : مثل الحثالة : وهو الرذل من كل شيء .

(٨) الدجال : هو ما أخبر عنه الرسول ﷺ في حديثه (مابين خلق آدم إلى قيام الساعة : خلق أكبر من الدجال) رواه مسلم في صحيحه بفتحتين وأحاديث عديدة ذكرها العلماء في أشراط الساعة .

(٩) يأجوج ومأجوج : وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية منها ما رواه الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل « وهم من كلّ حَدَبٍ ينسلون » فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ←

فتوجّه والنصر قائده ، والسعد رائده ، والقضاء موافقه ، والقدر مساعده ، ومشيئة الله تعالى سابقته[1] ، وارادة الله عزوجل في تدبير العباد والبلاد سابقته .

فبلغ خبره البلاد الشامية ، واتصل ذلك بالديار المصرية ، فورد مرسوم شريف الى نائب الشام ، وسائر النواب والحكام ، وغزاة الدين وكاة الاسلام ، أن يتوجهوا الى حلب ، ويقيموا عليه الجلب ، ويجتهدوا في دفعه ، ويتعاونوا على منعه .

فتجهز نائب الشام سيدي سودون مع النواب والعسكر ، ورحلوا إلى حلب سنة ثلاث وثمانمائة في شهر صفر ، ووصل تيمور إلى بهسنا[2] ، فنهب ضواحيها ولم يُبق بها سَنا ، وحاصر قلعتها ثلاثة وعشرين ليلة ، فأخذها ولكن كفَّ عنها للطيفة ربانية ثبوره وويله ، ثم أوطأمطيَّه مدينة ملطية[3] ، فأبادها ، ودكَّ أطوادها ، ثم حَلَّ كعبه المشوم ، بقلعة الروم[4].

ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر من نهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً حتى أن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان ههنا ماء مرة حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلى أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، ثم قال ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ..] تفسير ابن كثير ٣/١٩٥ .

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ : [إنكم تقولون : لا عدو ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج ، عراض الوجوه ، صغار العيون ، صهب الشعاف « من كل حدب ينسلون » كأن وجوههم المجان المطرقة]. كنز العمال رقم ٣٨٨٧٣ .

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : سائقته .

(٢) بهسنا : قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ، من أعمال حلب (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٥) (صبح الأعشى ج ٤ ص ١١٩). وورد ذكرها عند ذكر نهر الأزرق ، ووصفه بأنه نهر بالثغر بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب (معجم البلدان ٨/٨٣٥).

(٣) ملطية : بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء ، وهي من بناء الاسكندر وجامعها من بناء الصحابة ، بلدة من بلاد الروم مشهورة ، ومذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين . (معجم البلدان ٥/١٩٢).

(٤) قلعة الروم (قلعة المسلمين): قلعة حصينة في غربي نهر الفرات مقابل البيرة بينها وبين ←

وكان نائبها الناصري[1] ، محمد بن موسى بن شهري ، وسيُذكر ما جرى له معه مُشبعا ، وكيف اجتهد في مجاهدته وسعى ، فأقام بها يوما فلم تُنتج له رَوْمَا ، فلم يحتفل لها بحصار وهَياج ، وقال : هي أهون على من تَبالة[2] على الحجاج ، وذلك أنه لما رآها من بعيد ، قال فيها ما قاله من لم يصل إلى العنقود ، والحقّ أنه لما رآها ، قال إن الله لمَّا بناها ، ادَّخرها لنفسه واصطفاها ، ثم انجاب ذلك السحاب ، إلى عين تاب ، وكان نائبها أركماس[3] ، رجلاً شديد الباس ، فحصَّنها واستعد وباشر القتال بنفسه واستبدّ ، ثم خرج فهرب إلى حلب ، فلم يُرسل وراءه الطلب .

ذكر ما أرسل من كتاب وشنيع خطاب إلى النواب بحلب وهو في عين تاب

ثم أرسل إلى النواب[4] ، قاصده وهو في عين تاب[5] ، وصحبته مرسوم ، بأنواع التفخيم موسوم ، وبأصناف التهويل مرقوم ، ومن جملته أن يطيعوا أوامره ، ويكفُّوا عن القتال والمشاجرة ، ويخطبوا باسم محمود خان[6] ، وباسم الأمير الكبير تيمور

سميساط (صبح الأعشى ج ٤ ص ١١٩).

(١) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٥ ومضى إلى ملطية فدكَّها دكَّاً ، وسار حتى نزل قلعة الروم فلم يقدر عليها) وفي رواية المنهل : فلم يصل لأخذها لمدافعة نائبها ناصر الدين محمد بن موسى بن شهري فتركها .

(٢) تبالة : بلد مشهور بتهامة في طريق اليمن (مراصد الاطلاع).

(٣) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٥) عن اخبار تيمور (وقصد عين تاب ففرَّ منها نائبها الأمير أركاس الظاهري).

(٤) الحكام . وكان يسمى حكام المقاطعات في العهد المملوكي نوَّاب مثل نائب الشام ونائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماة ...

(٥) عينتاب : من مدن بلاد الشام شمالي مدينة منبج في محافظة حلب . يراجع صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢١ .

(٦) محمود خان : هو السلطان الذي نصَّبه تيمور ويسميه ابن تغري بردي صرغتمش وعند ابن عربشاه سيورغاتمش خان .

كوركان ، ويرسلوا إليه اطلاميش[1] الذي كان عنده فخان ، أواقتنصه[2] وأرسله إلى مصر التركمان وأطلاميش هذا زوج بنت أخت تيمور ، وكان جاء إلى الشام قبل وقوع هذه الشرور ، وفيما بين ذلك أمور ، كان لها بطون فصار لها ظهور ، وكان أولاً في مصر محبوساً ، ونال ضرًّا وبوساً ، ثم معزَّزاً مكرماً معظَّماً مقدّماً .

فكان تيمور عليه متطلباً[3] وجعل ذلك حجة للمعاداة وسبباً ، ثم شرع يقول ، وهو يجول في ميدان هذه الرسالة ويصول : إنَّه هو أولى بسياسة الأنام ، وان من نصبه هو الخليفة والامام ، وأنه ينبغي أن يكون هو المتبوع والمطاع ، وما سواه من ملوك الأرض له خدم وأتباع ، وأنى لغيره دُرَبة الرياسة ؟ وكيف تعرف الجراكسة[4] طرق السياسة ؟ مع كثير من التهويل ، والحشو والتطويل ، وكان يعلم أن إجابتهم سؤاله محال ، وأنه طلب منهم ما لا ينال ، ولكن قصد بذلك قرع باب الجدال ،

(١) يقول ابن أياس (بدائع الزهور ٣٠٦/١) في حوادث سنة ٧٩٨ (وفي آواخر هذه السنة حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد وحضر صحبته شخص من التتر قيل أنه من قرابة تمرلنك . وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائباً عنه بالرها فنزل في بعض الأيام ليتصيَّد فسمع به قرايوسف فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيَّده وارسله إلى السلطان (المملوكي الظاهر برقوق في القاهرة) فلما مثل بين يديه أمر بسجنه في خزانة شمايل ... ثم دخلت سنة تسع وتسعين وسبعمائة فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطلمش الذي كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم فأرسل السلطان يقول لتمرلنك ما أطلق لك أطلمش حتى تطلق أنت مَنْ عندك من النواب ومن الأسرى الذين أَسَرْتَهُم من البلاد فعاد الجواب إلى تمرلنك بذلك).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : واقتبضه التركمان وأرسله إلى مصر لحضرة السلطان .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مغضباً .

(٤) بدأ حكم المماليك في مصر بعد مقتل آخر ملك شرعي أيوبي وهو الملك المعظم توران شاه . وتولية المعز عز الدين أيبك الصالحي الذي اختاره المماليك من بينهم سلطاناً في ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ ، واصطلح المؤرخون على تسمية الفترة الأولى من العهد المملوكي باسم ملوك الترك . والفترة الثانية التي بدأت بحكم أحد الأمراء من المماليك الشراكة وهو برقوق الذي أنهى حكم سلاطين المماليك الأتراك وبدأ به حكم السلاطين الشراكسة الذي استمر إلى قدوم العثمانيين لمصر سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٧م (يراجع ابن أياس في بدائع الزهور ـــ ذكر ابتداء دولة الجراكسة ٢٥٧/١).

وتركيب الحجة عليهم في فتح حُجرات القتال ، فلم يجيبوه بالمقال ، ولكنهم قضوا مراده بالفعال ، ولم يلتفت سيدي سودون[1] لما يقول ، وضرب على رؤوس الأشهاد عنق الرسول[2] ، واستعدُّوا للمبارزة ، واستمدوا للمناجزة .

ذكر ما تمالأ[3] عليه النواب وهم في حلب وتيمور في عين تاب

ثم إن النواب والأمراء ،ورؤس الأجناد والكبراء ، تشاوروا كيف يكافحونه ، وفي أي ميدان يناطحونه ، فقال بعضهم : عندي الرأي الأسد[4] ، أن نُحصِّن البلد ، ونكون على أسوارها بالرصد[5] ، نحرس بروج أفلاكها ، حراسة السماء بأملاكها ،

(١) سودون قريب الظاهر برقوق ويعرف بسيدي سودون قدم من جركس مع جدته لأمه أخت الظاهر وخالة أمه أم الأتابك بيبرس أخت الظاهر ومع جدّ أمه الأمير أنص والد الظاهر وأقاربه بطلب من الظاهر حين أتابكيته وذلك في سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فربّاه في الحريم السلطاني فلما كبر وترعرع رقّاه حتى صار مقدماً ثم أمير اخور ثم بعد موته قبض عليه وسجن بالاسكندرية ثم أفرج عنه واستقر دواداراً كبيراً مع إقطاع كبير ، ثم لم يلبث ان استقر نائب الشام وخرج لدفع تيمور وثبت بمن معه ثباتاً مشهورا وأبلى بلاء حسنا بحيث أشرف العدو على الخذلان ثم تكاثروا حتى خُذل العسكر الشامي ووبَّخ الطاغية (تيمور) صاحب الترجمة وتوعّده بكل سوء محتجاً بقتله لرسوله قبل ، واستمر تحت العقوبة في أسره إلى ان مات إما ذبحاً أو تحت العقوبة أو إلقائه للفيلة وذلك بظاهر دمشق في أواخر رجب سنة ثلاث (وثمانمائة) وقد ناف على الثلاثين ...) (الضوء اللامع ٢٨٤/٣).

(٢) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٢٠/١٢) حول رسالة تيمور إلى نائب الشام (وطلب في الكتاب أن يرسل إليه اطلمش المقبوض عليه من أمرائه قبل تاريخه ، في دولة الملك الظاهر برقوق ، وإن لم ترسلوه يصير دماء المسلمين في ذمتكم ، فلم يلتفت سودون نائب الشام إلى كلامه ، وأمر بالرسول فوسِّط) أي قُتل بطريقة التوسيط .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ما تشاور .

(٤) الرأي السديد وأفضل الآراء وأصحها .

(٥) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : ونكون على أسوارها كالرصد .

فإن رأينا حواليها من شياطين العدو أحداً ، أرسلنا عليهم من رجوم السهام ونجوم المكاحل شهاباً رصداً[1].

وقال آخر هذا عين الحصر ، وعلامة العجز والكسر ، بل نحلّق حواليها ، وَنَمنع العدو أن يصل إليها ، ويكون ذلك أفسح للمجال ، وأشرح للجدال . ثم ذكر كُلٌّ من أولئك ، ما عَنَّ[2] له في ذلك ، وخلطوا غثَّ القول بسمينه ، وساقوا هجان الرأي مع هجينه .

فقال الملك المؤيد ، شيخ الخاصكي[3] وكان ذا رأي مسدّد ، وهو إذ ذاك نائب طرابلس : يامعشر الأصحاب ، وأسود الحراب ، وفوارس الضراب ، اعلموا أن أمركم خَطِر ، وعدوّكم داعر عسر ، داهية دهياء ، ومعضلة عضلاء ، جنده ثقيل ، وفكره وبيل ، ومصابه عريض طويل ، فخذوا حذركم ، وأعملوا في دفعه بحسن الحيلة فكركم ، فان صائب الأفكار[4] ، يفعل مالا يفعله الصارم البَتار ، ومشاورة الأذكياء ، مقدحة الفكر ، ومباحثة العلماء ، مقدّمة النظر .

إن هذا لبَحر ما يحمله برّ ، وجيشه عددا كالقطر والذّر ، وهو وإن كان كالوابل الصبيب ، لكنه أعمى لأنه في بلادنا غريب ، فعندي الرأي الصائب ، أن نُحصِّن

(١) من قول الله تعالى في القرآن الكريم سورة الجن الآية ٧ (وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهُبا . وأنّا كُنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا).

(٢) ما فكرَّ وما يعني .

(٣) الملك المؤيد أبي النصر شيخ ابن عبد الله المحمودي الظاهري وكان يعرف بالخاصكي بويع بالسلطنة في مستهل شهر شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة . وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق . وتولى نيابة طرابلس ونيابة الشام ، وأسره تمرلنك على حلب ومات المؤيد شيخ سلطاناً في المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة في القاهرة . (بدائع الزهور جزء ٢/ص ٢ ، ٨) ويقول السخاوي حول نجاته من أسر تيمور (وناب في طرابلس ولما نازل اللنك حلب خرج مع العساكر فأسر ثم خلص من اللنك بحيلة عجيبة وهي أنهم لما أُسر إستمر في أسر اللنكية إلى أن فارقوا دمشق ثم رجعوا فاغتنم وقت رحيلهم وألقى نفسه بين الدواب وستره الله فمشى إلى قرية من عمل صفد ثم توصل إلى طرابلس ... (الضوء اللامع ٣٠٩/٣).

(٤) صائب الأفكار : الأفكار المصيبة والصحيحة

المدينة من كل جانب ، ونكون خارجها مجتمعين في جانب واحد ، وكلنا له مراقِب مراصِد ثم نحفر حولنا خنادق ، ونجعل أسوارها البيارق والبوارق ، ونُطير إلى الافاق أجنحة البطائق ، إلى الأعراب والاكراد ، والتراكمة وعُشْران البلاد فيتسلطون عليه من الجوانب ، ويثِبُ عليه كل راجِل وراكب ، ويصير ما بين قاتل وناهب ، وخاطف وسالب ، فإن أقام وأنّى له ذلك ففي شرّ مقام ، وإن تقدم إلينا صافحناه بسواعد الاسنّة وأكف الدَرَق وأنامل السهام . وإن رجع وهو المرام ، رجع بخيبه ، وأقيمت لنا عند سلطاننا الهيبة والهيبة ، وإن كان لسلطانه علينا عرج ، فلنا بحمد الله سلطان وفي سلطاننا فرج ، وأقلّ الأشياء أن نمادّه ونتحرز من جنده (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده)[1] وهذا الرأي الأسد ، بعينه كان رأي شاه منصور[2] الأسد . فقال تمرداش[3] وهو نائب المدينة : ما هذه الاراء مكينة ، ولا هذه الأفكار رصينة ، بل المناضلة خير من المطاولة ، والمناجزة في هذه المواطن قبل المحاجزة ، ومقام المنازلة لاتجدي فيه المغازلة ، ولكل مقام مقال ، ولكل مجال جدال ، وهذا طير في قفص ، وصَيْد مُقْتَنَص ، فاغتنموا فيه الفرص ، وناوشوه بالحرب[4] ،

(١) سوة المائِدة الآية ٥٢ .

(٢) شاه منصور : يراجع ما كتب عنه في الصفحات السابقة وما أصلاه من عذاب لتيمور .

(٣) تمرداش نائب حلب يومئذ وقد أرسل تيمور إليه رسالة يستميله يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٢١/١٢) (وكان تيمور لما نزل على عينتاب أرسل رسوله إلى الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب يعده باستمراره على نيابة حلب ، ويأمره بمسك سودون نائب الشام ، فانه كان قتل رسوله الذي وجهه الى دمشق قبل تاريخه ، فأخذ دمرداش الرسول وأحضره إلى النواب ، فأنكر الرسول مسك سودون نائب الشام ، وقال لدمرداش : إن الأمير (يعني تيمور) لم يأت البلاد إلا بمكاتباتك إليه ، وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب ، وأعلمتَه أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها . فحنق منه دمرداش لمَّا سمع منه هذا الكلام ، وقام إليه وضربه ، ثم أمر به ، فضربت رقبته ، ويقال إن كلام هذا الرسول كان من تنميق تيمورلنك ودهائه ومكره ليفرّق بذلك بين العساكر ، فعلم الأمراء ذلك ، ولم يقع ما قصده ، ومن الحلبيين جماعة يقولون إلى الآن : إنه كاتب تيمور وتقاعد عن القتال . والله أعلم بصحة ذلك).

(٤) كانت أحوال السلطنة المملوكية في ذلك الوقت متدهورة فالسلطان فرج بن برقوق صغير السن حوالي العاشرة من عمره ويفتقر إلى تلك الشخصية القوية التي كانت لأبيه ، كما كان ←

ضعيف الارادة مستسلم بحكم صغر سنه لآراء أمراء المماليك الذين اختلفت آراؤهم وتضاربت مطامعهم ويقول ابن تغري بردي عن حالة البلاد ومواجهة تيمور (ثم في خامس عشرين المحرم من سنة ثلاث وثمانمائة ورد البريد على السلطان من حلب بأخذ تيمور ملطية ، ثم وصل من الغد البريد أيضاً بوصول أوائل عساكر تيمورلنك إلى مدينة عينتاب ، وفي الكتاب : أدركوا المسلمين وإلا هلكوا ، فاستدعى السلطان بعد يومين الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة ، وعلموا أن تيمورلنك وصلت مقدمته إلى مرعش وعينتاب ، وكان القصد بهذا الجمع أخذ مال التجار إعانة في النفقة على العساكر ... وطال الكلام في ذلك حتى استقر الرأي على إرسال الأمير أسنبغا الدوادار لكشف الأخبار ، وتجهيز عساكر الشام إلى جهة تيمورلنك ، وسار أسنبغا في خامس صفر من سنة ثلاث المذكورة على البريد ، ووقع التخذيل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء .

هذا وأهل البلاد الشامية في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ، مما داخلهم من الرعب والخوف ، وقصد كل واحد أن يرحل من بلده . فمنعه من ذلك حاكم بلده ، ووعده بحضور العساكر المصرية والدفع عنهم .

ثم بعد أيام قدم البريد بكتاب نائب حلب الأمير دمرداش المحمدي وصحبته أيضاً كتاب أسنبغا الدوادار بأن تيمور نزل على قلعة بَهسنا ، بعد ما مَلكَ مدينتها ، وأنه مستمر على حصارها ، وقد وصلت عساكره إلى عينتاب ، ووصل هذا الخبر إلى مصر رابع عشرين صفر المذكور . فوقع الشروع عند ذلك في حركة سفر السلطان ، ثم علق جاليش السفر في يوم ثالث شهر ربيع الأول ، وكان من خبر أسنبغا الدوادار أنه وصل إلى دمشق في سابع صفر ، فقرأ كتاب السلطان في الجامع الأموي ، وهو يتضمن تجهيز العساكر الشامية وخروجهم لقتال تيمور ...

وتوجه أسنبغا إلى حلب فوجد الأخبار صحيحة فكتب بما رآه وعَلِمه إلى الديار المصرية صحبة كتاب نائب حلب ، فوصلت الكتب المذكورة إلى مصر في ثالث شهر ربيع الأول ، وكان ما تضمنته الكتب أن تيمور نزل على بُزاعة ظاهر حلب ، وقد اجتمع بحلب سائر نواب البلاد الشامية ، واستحثَّ في خروج السلطان بالعساكر من مصر إلى البلاد الشامية ، وأن تيمور لما نزل على بزاعة خرج الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس هو الملك المؤيد وبرز إلى جاليش تيمورلنك في سبعمائة فارس ، والتتار في نحو ثلاثة آلاف فارس ، وترامى الجمعان بالنشاب ثم اقتتلوا ساعة ، وأخذ شيخ من التتار أربعة ، وعاد كل من الفريقين إلى موضعه فوسّط الأربعة على أبواب مدينة حلب بحضرة من اجتمع بحلب من

وسابقوه ، بالطعن والضرب ، لئلا يتوهم منا الخَوَر[1] ، ويستنشق من ركود ريحنا عرف الظَفَر ، فأجْمعوا أمركم وأعْجلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وانهضوا وثابروا ، واصبروا وصابروا ، فأنتم بحمد الله أهل النجدة ، وأولوا البأس والشدة ، وكل منكم في فقه المناضلة مُغنٍ ومختار ، وعَلَمَه في إفاضة دماء الأعداء منار ، وله في ذلك كفاية وهداية ، ونهاية غيره له بداية ، وهو لجمع الإسلام كنز واف وجامع كاف ووقاية تنحو ألسنة سيوفكم إلى تكليم الرءوس فهي في لفظها كافية شافية ، وتصرف أسنَّتكم أسنانها في مضاعفة كل ذي فعل معتل فهي في تصريف عللها شافية كافية .

فإن كسرناه فُزْنا بالمنال (وكفى الله المؤمنين القتال)[2] ، وتلك من الله

النواب ، وكان الذي اجتمع بها الأمير سودون نائب الشام بعساكر دمشق وأجنادها وعشيرها ، ونائب طرابلس شيخ المحمودي بعساكر طرابلس وأجنادها ورجّالتها ، ونائب حماة دقماق المحمدي بعساكر حماة وعربانها ، ونائب صفد ألطنبغا العثماني بعساكر صفد وعشيرها ، ونائب غزة عمر بن الطحان بعساكرها ، فاجتمع منهم بحلب عساكر عظيمة ، غير أن الكلمة متفرقة ، والعزائم محلولة لعدم وجود السلطان ...

ثم اجتمع الأمراء والنواب على قتال تيمور ، وتهيأ كلٌّ منهم للقائه بعد أن يئسوا من مجيء السلطان وعساكره ، لعلمهم بعدم رأي مدبري مملكة مصر من الأمراء ، ولصغر سن السلطان ، وقد فات الأمر وهم في قلة إلى الغاية بالنسبة إلى عساكر تيمور وجنوده وجموعه ، وكان الأليق خروج السلطان من مصر بعساكره ووصوله إلى حلب قبل رحيل تيمور من سيواس ، كما فعل الملك الظاهر برقوق رحمه الله ...). النجوم الزاهرة (١٢/٢١٩ — ٢٢١)

ويقول ابن أياس عن أحوال السلطان الناصر في تلك الظروف التي تواجهها البلاد (بدائع الزهور ١/٣٢٨) (قيل لما علق السلطان الجاليش بسبب خروجه إلى تمرلنك ركب شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالي القاهرة ونادوا في الشوارع بأن النفير عام بسبب قتال تمرلنك فاضطربت أحوال القاهرة في ذلك اليوم جدا . وكان الملك الناصر كلما طرقته هذه الأخبار يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح حتى تمكن تيمورلنك من البلاد وعمَّ فعله من الفساد ...).

(١) الخَوَر : بفتحتين : الضعف .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

معونة ، وقد كفينا عساكر المصريين المؤنة ، وكان ذلك أعلى لحرمتنا ، وأقوى في ورود النصر لشوكتنا ، وأذكى لريح نصرنا وأزكى ، وأبكى لعينه السخينة وأنكى .

وإن كانت والعياذ بالله الأخرى ، فلاعلينا إذ بذلنا مجهودا وأقمنا عُذرا ، ومخدومنا يدرك ثارنا ، ويحيى اثارنا . فتوكلوا على الله العزيز الجبار ، واستعدّوا لملاقاة هؤلاء الأشرار ، واذا لقيتموهم زحفاً فلاتولوهم الادبار .

ولازال تمرداش ، يُحسِّن لهم هذا الرأي اللاش ، حتى أجمعوا عليه ، واتفقوا على الخروج إليه ، لأنه كان صاحب البلد ، وعلى كلامه المعول والمعتمد .

وكان تمرداش قد خالف الجمهور ، ووافق في الباطن تيمور ، وهذه كانت عادته ، وعلى المراوغة جُبلت طينته ، فإنه كان كالشاة العابرة ، والمرأة لحائرة[1] الغائرة، إذا التقى عسكران فلايكاد يثبت في أحدهما جُبناً منه ومكرا بل يعبر إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى ، مع أنه كان صورة بلا معنى ، ولفظاً بلا فحوى فاعتمد تيمور عليه ، وفوّض الأمور إليه ، وكذلك عساكر الشام ، وجنود الإسلام ، ثم حصّنوا المدينة وأوصدوا أبوابها ، وضيّقوا شوارعها ورحابها ، ووكلوا بكل حارة ومحلة أصحابها ، وفتحوا الأبواب التي تقابل ملتقاه ، وهي باب النصر وباب الفرج وباب القناة .

ذكر ما صَبَّه من صواعق البيض والبلب[2] على العساكر الشامية عند وصوله إلى حلب

ثم إن تيمور ثَقَّل[3] الركاب ، فوصل في سبعة أيام الى حلب[4] من عين تاب ،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : العاهرة .
(٢) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : والنكب .
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : نقل .
(٤) ثاني مدينة في سورية بعد دمشق وتقع على ضفة نهر قويق وسط سهل فسيح خصب على ملتقى طرق تجارية مهمة في سوريا الشمالية ، وميزتها الأصلية أنها مدينة حدود ومدينة اتصال . تلتقي بمنطقتها الطبيعية الوحدات الجغرافية الكبرى . سورية وبلاد الرافدين والأناضول .

فَحَّل بذلك الخميس[1] ، تاسع شهر ربيع الأول يوم الخميس ، وبرز من ذلك العسكر ، طائفة نحوا من ألفي نفر ، فتقدم لهم من الأسود الشامية[2] ، نحو من

(١) الخميس : الجيش .
(٢) يقول ابن تغري بردى (النجوم الزاهرة ٢٢٢/١٢) (وبينما النواب في إصلاح شأنهم للقتال ، نزل تيمور بعساكره على قرية حيلان خارج حلب في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول وأحاط بمدينة حلب ، وأصبح من الغد في يوم الجمعة ، زحف على مدينة حلب وأحاط بسورها ، فكانت بين أهل حلب وبينه في هذين اليومين حروب كثيرة ومناوشات بالنشاب والنفط والمكاحل ، وركب أهل حلب أسوار المدينة وقاتلوه أشد قتال ، فلما أشرقت الشمس يوم السبت حادي عشره خرج نواب الشام بجميع عساكرها ، وعامة أهل حلب إلى ظاهر مدينة حلب ، وعبّأوا الأطلاب والعساكر لقتال تيمور ، ووقف سيدي سودون نائب دمشق بمماليكه ، وعساكر دمشق في الميمنة ، ووقف دمرداش نائب حلب بمماليكه ، وعساكر حلب في الميسرة ، ووقف بقية النواب في القلب ، وقدّموا أمامهم أهل حلب المشاة ، فكانت هذه التعبئة من أيشم التعابىء (أي من الشؤم) ، هذا مع ادعاء دمرداش بالمعرفة لتعبئة العساكر ، وحال وقوف الجميع في منازلهم زحف تيمور بجيوش قد سدَّت الفضاء ، وصدم عساكر حلب صدمة هائلة فالتقاه النواب وثبتوا لصدمته أولا ، ثم انكسرت الميسرة ، وثبت سودون نائب الشام في الميمنة ، وأردفه شيخ نائب طرابلس وقاتلاه قتالاً عظيماً ، وبرز الأمير عز الدين أزدمر أخو الأتابك إينال اليوسفي وولده يشبك بن أزدمر في عدة من الفرسان وقد بذلوا نفوسهم في سبيل الله ، وقاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء عظيماً وظهر عن أزدمر وولده يشبك من الشجاعة والاقدام ما لعله يُذكر إلى يوم القيامة ، ولم يزل أزدمر يقتحم القوم ويَكرُّ فيهم إلى أن قُتل وفقد خبره فإنه لم يُقتل إلا وهو في قلب العدو وسقط ولده يشبك بين القتلى وقد أُثخنت جراحاته ، وصار في رأسه فقط زيادة على ثلاثين ضربة بالسيف وغيره ، سوى ما في بدنه .

ثم أُخذ وحُمل إلى بين يدي تيمور ، فلما رأى تيمور ما به من الجِراح تعجّب من إقدامه وثباته غاية العجب ، وأمر بمداواته ، فيما قيل ، ولم تمضِ غير ساعة حتى ولّت العساكر الشامية منهزمة يريدون مدينة حلب ، وركب أصحاب تيمور أقفيتهم ، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر ومن أهل حلب وغيرها من المشاة ما لا يدخل تحت حصر ، فإن أهل حلب خرجوا منها لقتال تيمور ، حتى النساء والصبيان ، وازدحم الناس مع ذلك في دخولهم إلى أبواب المدينة ، وداسَ بعضهم بعضا ، حتى صارت الرِّمم طول قامة ، والناس

ثلاثمائة، ففلوهم بالصفاح، وشلّوهم بالرماح، فبدّدوهم، وطردوهم، وخدّدوهم[1] وشرّدوهم، ثم أصحبوا يوم الجمعة، فبرز من عسكره نحو من خمسة آلاف، إلى مصاف النقاف[2]، فتقدّم لهم طائفة أخرى، أرسالا وتترى، فالتحم منهم النطاح، واشتبكت بين الطائفتين أنامل الرماح، فازدحموا واقتحموا، واستَدَوْا[3] والتحموا، ولا زالت أقلام الخط في ألواح الصدور تخطّ، والعضب[4] الصمصام لرؤس تلك الأقلام بالأعلام تقط، ومشاريط النبال لدماميل الدمال تبطّ[5]، والأرض من أثقال جبال القتال تئط، حتى سجى ليلا الظلام والقتام وأغطشا، فتراجعوا وقد أعطى الله النصر لمن يشا، وأجرى من دماء العدو مع قويق[6] نهران، وفقد من العساكر الاسلامية نفران.

ثم أصبحوا يوم السبت حادي عشر، وقد تَعبت الجنود الشامية، والعساكر السلطانية، بالعدّة البالغة، والأهبة السابغة، والخيول المسوّمة، والرماح المقوّمة، والأعلام المعلمة، ولم يعوز أولئك الصناديد، سوى شمة من النصر والتأييد، فنحوا قصده، وقصدوا ردّه وصدّه، وأقبلت عساكره، والسعد الميمون طائره، والقضاء مؤازره، والقدر مظاهره، بالجنود المذكوره، والجيوش المعهوده المنصوره، تؤمهم الأفيال، وأقيال القتال.

وإذا به قد أضمر لهم الويل، وعبى[7] عساكره تحت جنح الليل، وبثّهم فيهم

تمشي من فوقها، وقصد نواب المماليك الشامية قلعة حلب وطلعوا اليها، فدخلها معهم خلائق من الحلبيين وكانوا قبل ذلك قد نقلوا اليها سائر أموال الناس بحلب).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وحدروهم.

(٢) النقاف: المضاربة بالسيوف على الرؤوس ووردت أيضاً في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ:الثقاف

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : واشتدوا.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : والقضبان الصوارم. والصمصام: السيف الصارم الذي لا ينثني.

(٥) بط القرحة: شقّها.

(٦) قويق: نهر في حلب كان دائم الجريان في المدينة وتم قطعه قبل سنوات عديدة. وورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مع كل فريق.

(٧) تعبية الجيش: تهيئته في مواضعه.

وأرسل عليهم عَزَاليهم وقابلهم بمقدّمتهم، وشغلهم بأوائلهم، وأحاط الباقون بهم فأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فمشى عليهم مشي الموسى على الشعر، وسعى سعي الدَبَى[1] على الزرع الأخضر، وكان هذا الجَوَلان، على قرية حيلان[2]، ولما اهتمش[3] أمر الناس وهاش، وجاشت الهوشة والامتحاش، وتهارشت الأسود وانتطحت الكباش، فرت الميمنة وكان رأسها تمرداش، فانكسر العسكر وطاش، وأخذ الأبطال من الدهشة الارتعاش، وغلبتهم الحيرة والانبهار، فلم يلبثوا ولا ساعة من نهار، ثم ولّوا الدُّبر، وصارت لأقلام رماحه ظهورهم الزبر، واستمروا أمامهم يتواثبون، وعسكره وراءهم يتخاطبون بمعنى ما قلت:

جعلنا ظهور القوم في الحرب أوجها رقمنا بها ثغرا وعينا وحاجبا

فقصدوا المدينة من الباب المفتوح، وهم بين مهشوم ومجروح، والسيوف تشقهم، والرماح تدقهم، وقد سالت بدمائهم الأباطح، وتَمر[4] من أساريرِ لحمهم كل كاسر وجارح، فوصلوا الى باب المدينة وانكرسوا[5]، وهجموا فيه يدا واحدة وتكردسوا، ولا زال يدوس بعضهم بعضا، حتى صارت العتبة العليا من الباب أرضا، فانسدّت الأبواب بالقتلى، ولم يُمكن الدخول منها أصلا، فتشتتوا في البلاد، وتفرقوا في المهامه والأطواد، وكسر باب انطاكية[6] المماليك الأغتام، وخرجوا منه قاصدين بلاد الشام.

فوصل فَلّهُم[7] الى دمشق في أبشع صورة، وحكوا في كيفية هذه الوقعة أشنع سيرة، وصعد النواب إلى قلعة حلب وتحصنوا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فاستأمنوا، ونزلوا بواسطة تمرداش اليه، وقد غسل كل منهم من الحياة يديه، ثم إنه

(١) الدبى: الجراد قبل أن يطير.

(٢) حيلان: قرية قرب حلب.

(٣) اهتمش: اختلط.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ونثر من سائر لحمهم. ومعنى التتمير: تقطيع اللحم صغاراً.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وانكسروا.

(٦) باب انطاكية. أحد أبواب حلب ذكره ابن العديم: الزبدة ج١ ص ١٤، ٦٣.

(٧) وصلت فلولهم.

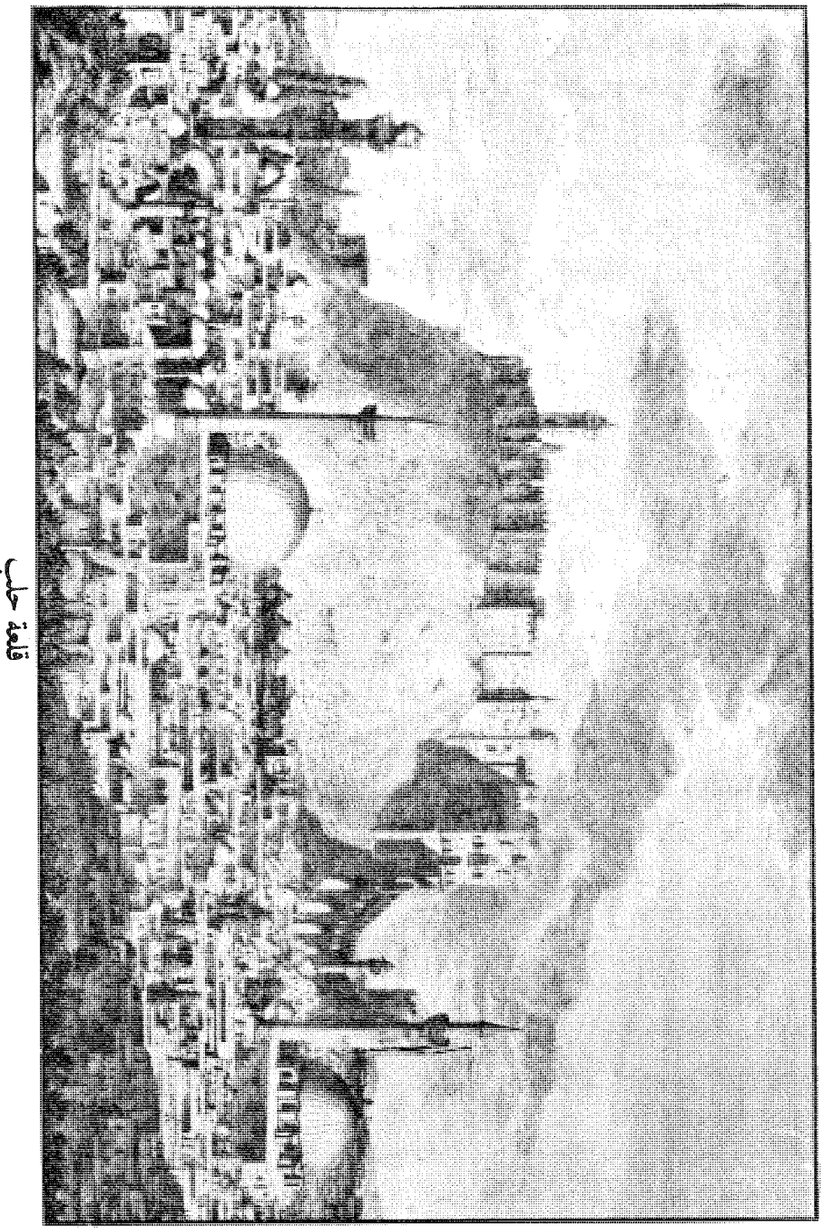

قلعة حلب

مشى على هينته مع وقاره ورزانته وسكينته، ودخل حلب، ونال منها ما طلب[١]، وفاز بالروح والسلب

ولما نزل النواب اليه، قبض على سيدي سودون[٢] وشيخ الخاصكي[٣] وأما تمرداش فَخلع عليه[٤]، وقبض على ألطنبغا العثماني نائب صفد، وعلى عمر بن الطحان نائب غزة وجعل الكل في صَفد[٥]، وشرع في استخلاص الأموال، وضبط الأثقال والأنفال[٦] وقد ملأت القلوب هواجس هيبته، وانتشر في الافاق شرار صولته.

ثم إنه لم يكتف بما أزهقه من النفوس، حتى بنى الميادين[٧] من الرءوس، وسبب ذلك أن ذا قرابة البريدي الذي أرسله الى حلب، وضرب نائب الشام عنقه وسلبه

---

(١) يقول ابن أياس يصور فاجعة حلب (بدائع الزهور ٣٢٦/١) (فلما كان يوم السبت حادي عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم وأوقعوا مع تمرلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي وقد دهمتهم عساكر تمرلنك كأمواج البحار المتلاطمة ومالت عليهم كتائب الجنود المتزاحمة، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولُّوا على أعقابهم مدبرين، وأقبلوا نحو المدينة منهزمين وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة وحلَّ بهم من البؤس كل داهية طامة وكان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والأطفال فدخلوا اليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال، وأسرفوا في قتل النساء والرجال وصارت الأبكار تفتض في المساجد ولم يراعوا حرمة المساجد فلم يرْثوا لبكاء الرضّع ولم يخشوا دعاء الركَّع. وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى فلا حول ولا قوة إلا بالله واستمر هذا الأمر الشنيع يتزايد من يوم السبت إلى يوم الثلاثاء...).

(٢) نائب الشام.

(٣) نائب طرابلس والذي أصبح فيما بعد سلطاناً باسم المؤيد شيخ.

(٤) ويقول ابن إياس (بدائع الزهور ٣٢٧/١) (فلما رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب نزل من القلعة هو وبقية النواب وأخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا إلى تمرلنك يطلبون منه الأمان، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل وألبسهم تيجان مذهبة وقال لهم أنتم صرتم نوابي ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة فاستنزلوا من كان بها وهم في قيود).

(٥) القيد.

(٦) الغنائم.

(٧) مآذن، ومئذنة.

السلب، ذَكَّر تيمور بقصته، وأراد القودمن أهل حلب لذي قرابته، فأجاب سؤاله فمكّنه، فيمن يختار منهم أن يفعل فيه ما استحسنه، فقتل طائفة منهم وبنى من رءوسهم كذا وكذا مئذنة[1].

(١) يقول ابن اياس عن بشاعة أعمال تيمور في حلب (واستمر مقيماً على حلب نحو شهر وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الأشجار التي بها يهدمون البيوت وقد أسرفوا في القتل ونهب الأموال، وصارت الأرجل لا تطأ إلا على جثة إنسان لكثرة القتلى حتى قيل إنه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا وصعودها في الهواء مثل ذلك وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح. وتركوا أجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش. فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من أهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين ألف إنسان، هذا خارج عما هَلَك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة، وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك، فلما مَلَك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع ما في المدينة والقلعة. ثم إن تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت في مدة هذه المحاصرة عن الأذان والاقامة وعن صلاة الجمعة) (بدائع الزهور ٣٢٧/١).

ويقول ابن تغري بردى في تصوير أحوال حلب أثناء هجوم تيمور عليها (الكواكب السائرة ٢٢٣/١٢) (.. هذا وقد اقتحم عساكر تيمور مدينة حلب في الحال، وأشعلوا فيها النيران، وأخذوا في الأسر والنهب والقتل، فهرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب (الكبير) وبقية المساجد، فمال أصحاب تيمور عليهن، وربطوهن بالحبال أسرى، ثم وضعوا السيف في الأطفال، فقتلوهم بأسرهم، وشرعوا في تلك الأفعال القبيحة على عادتهم، وصارت الأبكار تُفْتَضّ من غير تَستُّر، والمخدَّرات (النساء المتزوجات) يُفسق فيهنَّ من غير احتشام، بل يأخذ التتري الواحدة ويعلوها في المسجد بحضرة الجمّ الغفير من أصحابه ومن أهل حلب، فيراها أبوها وأخوها وزوجها وولدها ولا يقدر أن يدافع عنها لقلة مقدرته، ولشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة والعذاب، ثم ينزل عنها الواحد فيقوم لها آخر وهي مكشوفة العورة.

ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى، وجافت حلب، واستمر هذا من ضحوة نهار السبت الى أثناء يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول، هذا والقلعة في أشد ما يكون من الحصار والقتال، وقد نقبها عسكر تيمور من عدة أماكن، وردم خندقها ولم يبق إلا أن تؤخذ. ←

زيادة ايضاح لهذه المحنة مما نقلته من تاريخ ابن الشحنة[1]

قال: أخبرني الحافظ الخوارزمي أن من كُتب في الديوان من عساكر تيمور ثمانمائة ألف نفس، ومنه أن تيمور قصد قلعة المسلمين[2]، وكان نائبها الناصري محمد ابن موسى بن شهري وأنه عصى عليه وكان يخرج للغارات، ثم قال ما نصّه بحروفه: وكان قد بدَّع بجمائع تمرلنك وطراشته مدة إقامته على بهسنا، وقتل منهم جماعة وأرسل

فتشاور النواب والأعيان الذين بالقلعة، فأجمعوا على طلب الأمان، فأرسلوا لتيمور بذلك، فطلب تيمور نزول بعض النواب إليه، فنزل إليه دمرداش نائب حلب، فخلع عليه، ودفع اليه أماناً وخلعاً إلى النواب، وأرسل معه عِدَّة وافرة من أصحابه إلى قلعة حلب، فطلعوا اليها وأخرجوا النواب منها بمن معهم من الأمراء والأعيان، وجعلوا كل اثنين في قيد، وأحضروا الجميع الى تيمور، وأُوقفوا بين يديه، فنظر اليهم طويلا وهم وقوف بين يديه ورئيسهم سودون نائب الشام. ثم أخذ يقرّعهم ويوبّخهم ويلوم سودون نائب الشام في قتله لرسوله، ويكثر له من الوعيد. ثم دفع كلّ واحد منهم إلى من يحتفظ به ثم سيقت اليه نساء حلب سبايا، وأُحضرت اليه الأموال والجواهر والآلات الفاخرة، ففرّقها على أمرائه وأخصّائه، واستمر النهب والسبي والقتل في حلب في كل يوم مع قطع الأشجار وهَدْم البيوت، وإحراق المساجد، وجافت حلب وظواهرها من القتلى حيث صارت الأرض منهم فراشاً، لا يجد الشخص مكانا يمشي عليه إلا وتحت رجليه رِمّة قتيل.

وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً، حُسِب ما فيها من رؤوس بني آدم فكان زيادة على عشرين ألف رأس، ولما بُنِيت جُعلت الوجوه بارزة يراها من يمرّ بها.

ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهرا، وتركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأبنيتها، قد خَربت وتعطّلت من الأذان والصلوات، وأصبحت خراباً يباباً مظلمة موحشة قفراً، لا يأويها إلا البوم والرّخَم، وسار تيمور قاصداً جهة دمشق...).

(١) القاضي محب الدين محمد بن محمد بن الشحنة الحنفي انظر كتابه (روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر) المطبوع بهامش الجزء التاسع من تاريخ الكامل لابن الأثير ص ٢١٤ . طبع بولاق.

(٢) قلعة المسلمين (قلعةالروم).

رءوسهم إلى حلب، وكسر تومانا[1] كان جهَّزه اليه أقبح كسره، حتى رمى غالب جماعته بأنفسهم في الفرات، وجهَّز تمرلنك كتابه إلى المشار اليه ونصُّه يقول فيه: إني خرجت من أقصى بلاد سمرقند، ولم يقف أحد أمامي، وسائر ملوك البلاد حضروا إليَّ، وأنت سلَّطت على جمائعي من يشوش عليهم ويقتل من ظفر به منهم، والان فقد مشينا عليك بعساكرنا، فإن أشفقتَ على نفسك ورعيتك، فاحضر الينا لترى من الرحمة والشفقة مالامزيد عليه، وإلا نزلنا عليك وخرَّبنا بلدك، وقد قال الله تعالى: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون[2]).

فاستعدّ لِما يحيط بك إن أبيتَ الحضور.

فأمسك المشار اليه الرسول وحبسه ولم يلتفت إلى كلام تمرلنك، فمشى اليه أوائل عسكره فبرز اليهم المشار اليه وقاتلهم وكسرهم.

وفي اليوم الثاني حضر تمرلنك على قلعة المسلمين فبرز اليه المشار اليه وقاتله قتالا شديداً وكانت وقعة عظيمة، رأى فيها منه تمرلنك شدة حزم ورجع عن محاربته، وأخذ في مخادعته، وملاطفته، وطلب منه الصلح، وأن يرسل اليه خيلا ومالا لأجل حرمته، فلم ينخدع معه وتنازل معه الى أن طلب منه جانبا فلم يعطه، وعاد خائباً، وأخذ المشار اليه في أواخره قتلا ونهباً وأسراً، كل ذلك وباب قلعته مفتوح لم يغلقه يوماً واحداً وأنشد فيه لسان الحال:

هذا الأمير الذي صحَّت مناقبه ليثُ الوغى عمَّت الدنيامفاخره
ولى تمرلنك مكسوراً أوائله منه مرارا ومذعوراً أواخره

وكان حصول تلك السعادة للمشار اليه، دون غيره من الملوك وأصحاب الحصون لما كان فيه من العلم والديانة، والاخلاص والصيانة، ولكونه من السلالة الطاهرة العمرية رضي الله عنها.

ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول نازل تمرلنك حلب، وكان نائبها المقر السيفي تمرداش، وقد حضرت اليه عساكر المملكة[3] الشامية وعسكر دمشق مع

(١) التومان يطلق إلى الآن على عملة في ايران، والتومان يطلق أيضاً على الفرقة العسكرية المكونة من عشرة آلاف نسمة (تاريخ العراق ج ١ ص ١٣١).

(٢) القرآن الكريم ــ سورة النمل ــ الآية ٣٤.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: البلاد.

نائبها سيدي سودون، وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي، وعسكر حماه مع نائبها المقر السيفي دقماق، وعسكر صفد وغيرها، فاختلفت آراؤهم، فمن قائل: ادخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار، وقائل: اخرجوا ظاهر البلد تلقاء العدو بالخيام.

فلما رأى المقر السيفي تمرداش اختلافهم، أذِنَ لأهل حلب في اخلائها والتوجه حيث شاؤواوكان نِعْمَ الرأي، فلم يوافقوا على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو[1].

وحضر قاصد تمرلنك فقتله نائب دمشق قبل أن يسمع كلامه، ويوم الجمعة حصل بين الأطراف تناوش يسير، فلما كان يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الأول زحف تمرلنك بجيوشه وفيلته[2]، فولَّى المسلمون نحو المدينة وازدحموا في الأبواب، ومات منهم خلق عظيم، والعدوّ وراءهم يقتل ويأسر، وأخذ تمرلنك حلب عنوة

(١) وقد تم في اجتماع الأمراء التداول في إجراءات الدفاع عن حلب واختلفت الآراء كما يقول ابن الشحنة ــ وربما كان ممن حضروا تلك الاجتماعات ــ حول خطة الدفاع، بين الدفاع من الداخل وبين الخروج الى خارج الأسوار لملاقات القوات المغيرة. ولما لم تنته المناقشات إلى رأي واحد، فقد اقترح تيمورتاش إخلاء المدينة وترك الأهالي ليتجه كل منهم الى حيث يشاء، ولكن بقية الحاضرين لم يوافقوه على هذا الرأي، واقترح بعض الأمراء الاعتصام بأسوار المدينة حتى يصل جيش السلطان من مصر، ولكن الاتفاق تم أخيرا على الخروج للتصدي للقوات المغيرة، وحفر الخنادق، والطلب الى العشائر التركمانية والأعراب لمناجزة القوات الغازية اعتمادا على جهلها بأحوال البلاد وطبيعة أرضها، ويعلق ابن الشحنة على هذه الخطة بأنها رأي صائب.

وتقرر أيضاً في هذه الاجتماعات أن يُدعى سكان حلب للاشتراك مع العساكر في عمليات المقاومة، ونصبت المنجنيقات والمكاحل على الأسوار، وأوصدت الأبواب وتولى أبناء كل حي من أحياء المدينة مهمة الدفاع عن حيِّهم. (شهاب ٢٨٦).

وعلى الرغم مما اتخذ من تدابير للاستعداد والدفاع، فإن المؤرخين في تلك الآونة، يعكسون صورة قاتمة عن الروح المعنوية السائدة بين الحكام وعامة الناس، ويقول المقريزي عن ذلك « إلا أن الأهواء مختلفة والآراء مغلولة والعزائم محلولة، والأمر مدبّر » السلوك جزء ٣ قسم ٣ ص ١٠٣٢.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وقبيلته.

بالسيف، وصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة، وكان أهل حلب قد جعلوا غالب أموالهم فيها.

وفي يوم رابع عشر شهر ربيع الأول أخذ القلعة بالأمان والأيْمان التي ليس معها إيمان، وفي ثاني يوم صعد اليها، وآخر النهار طلب علماءها وقضاتها، فحضرنا اليه فأوقفنا ساعة، ثم أمر بجلوسنا، وطلب من معه من أهل العلم، فقال لأميرهم عنده وهو المولى عبد الجبار[1] بن العلامة نعمان الدين الحنفي، والده من العلماء المشهورين بسمرقند ـــ قل لهم: إني سائلهم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحتها فلم يفصحوا عن جواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبني إلا أعلمكم وأفضلكم، وليعرف ما يتكلم فإني خالطتُ العلماء ولي بهم اختصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم.

وكان يبلغنا عنه أنه يتعنّت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي عَنِّي: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها سلوه وبالله المستعان، فقال لي عبد الجبار، سلطاننا يقول: إنه بالأمس قُتِل مِنَّا ومنكم، فَمَنْ الشهيد؟ قتيلنا أم قتيلكم؟ فوَجَم الجميع، وقلنا في أنفسنا هذا الذي بلَغَنا عنه من التعنُّت.

وسكت القوم، ففتح الله عليَّ بجواب سريع بديع، وقلت: هذا سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ وأجابَ عنه، وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله ﷺ، قال لي صاحبي القاضي شرف الدين موسى الأنصاري بعد أن انقضت الحادثة: والله العظيم لما قلتَ هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه، وأنا

(١) هو عبد الجبار بن عبد الله المعتزلي الحنفي الخوارزمي، عالم الدشت، صاحب تيمورلنك وإمامه وعالمه، ولد في حدود سنة سبعين وسبعمائة، وكان إماماً عالماً بارعاً متقناً للفقه والمعاني والبيان والعربية واللغة، انتهت اليه الرياسة في أصحاب تيمور، وكان هو عظيم دولته، ولما قدم تيمور البلادَ الحلبية والشامية كان عبد الجبار هذا معه، وباحث وناظر علماء البلدين، وكان فصيحاً باللغات الثلاثة العربية والفارسية والتركية، وكانت له ثروة ووجاهة وعظمة وحرمة زائدة الى الغاية، وكان ينفع المسلمين في أغلب الأحيان عند تيمور، وكان يتبرّم من صحبة تيمور ولا يسعه إلا موافقته ولم يزل عنده حتى مات في ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة) (شذرات الذهب ٧/٥٠).

مُحدِّث زماني، قلتُ: هذا عالمنا قد اختلَّ عقله وهو معذور، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام.

ووقع في نَفْس عبد الجبار مثل ذلك. وألقى تمرلنك إليَّ سمعه وبصره وقال لعبد الجبار يسخر من كلامي كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا وكيف أجاب؟

قلتُ: (جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليرى مكانه فأيُّنا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد[1].

فقال تمرلنك: خوب خوب[2]. وقال عبد الجبار: ما أحسن ما قلت! وانفتح باب المؤانسة، وقال: إني رجل نصف آدمي، وقد أخذت بلاد كذا وكذا، وعدَّدَ سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتار.

فقلت: إجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة، ولا تقتل أحد، فقال: والله إني لا أقتل أحداً قصداً، وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب، والله لا أقتل أحد منكم وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم[3] وتكررت الأسئلة منه والأجوبة مِنَّا، فطمع كل من الفقهاء الحاضرين، وجعل يبادر إلى الجواب ويظنُّ أنه في المدرسة، والقاضي شرف الدين ينهاهم ويقول لهم: بالله استكوا ليجاوب هذا الرجل فإنه يعرف

(١) (جاءأعرابي إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن الرجل ليقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه، فأيُّنا في سبيل الله. فقال عليه السلام: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: فهو في سبيل الله).
ثم قال ابن الشحنة بعد ذكره هذا الحديث النبوي (ومن قاتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد).

(٢) وهي كلمة فارسية تعني جيد.

(٣) ونتيجة هذه المناظرة يذكر بعض المؤرخين أن تيمور رفق بأهل حلب يقول ابن تغري بردي (الكواكب السائرة ١٢/٢٢٦): (غير أنه رفق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لما ساروا في أسره عن قتاله، ومن الشهيد مِنَ العسكرين؟ فأجاب محب الدين محمد بن محمد بن الشحنة الحنفي.... فأعجبه ذلك وحادثهم، فطلبوا منه أن يعفو عن أهل حلب، ولا يقتل أحدا، فأمَّنهم جميعا وحلف لهم، فحصل بذلك بعض رِفق بالنسبة الى غيرهم).

ما يقول : وكان آخر ما سأل عنه : ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد[1] فأشرتُ إلى القاضي شرف الدين وكان إلى جانبي ، أن اعرف كيف تجاوبه . فإنه شيعي ، فلم أفرغ من سماع كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفصي المالكي كلاماً معناه : أنَّ الكُلّ مجتهدون فغضب لذلك غضباً شديداً ، وقال : علي على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق ، وهم يزيديون قتلوا الحسين[2]

فأخذت في ملاطفته والاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده في كتاب لا يعرف معناه ، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط وأخذ عبد الجبار يسأل عني وعن القاضي شرف الدين فقال عني : هذا عالم مليح وعن شرف الدين : وهذا رجل فصيح . فسألني تمرلنك عن عمري فقلت : مولدي في سنة تسع وأربعين وسبع مائة وقد بلغت الآن أربعاً وخمسين سنة . فقال للقاضي شرف الدين : وأنت كم عمرك ؟ فقال أنا أكبر منه بسنة . فقال تمرلنك أنتم في عمر أولادي أنا عمري اليوم خمساً وسبعين سنة .

وحضر صلاة المغرب وأقيمت الصلاة وأمَّنا[3] عبد الجبار وصلّى تمرلنك إلى جانبي قائماً يركع ويسجد . ثم تفرقنا وفي اليوم الثاني غَدَر بكل من في القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والأمتعة ما لا يُحصى .

أخبرني بعض كتّابه أنه لم يكن أخذ من مدينة قط ما أخذ من هذه القلعة ، وعوقب غالب المسلمين بأنواع من العقوبة ، وحُبسوا بالقلعة ما بين مقيَّد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه .

---

(١) الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب ، والخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، والخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية

(٢) وصف تمرلنك أهل دمشق بأنهم يزيديون أي أتباع للخليفة يزيد بن معاوية الذي قتل جنوده الامام الحسين بن علي في واقعة كربلاء الشهيرة .

(٣) وقف اماماً

ونزل تمرلنك من القلعة وأقام بدار النيابة[1]، وصنع وليمة على زي المغل[2] ، ووقف سائر الملوك والنواب في خدمته . وأدار عليهم كؤوس الخمر ، والمسلمون في عقاب وعذاب وسبي وقَتْل وأسْر ، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب ونبش إلى آخر شهر ربيع الأول ، ثم طلبني ورفيقي شرف الدين .

وأعاد السؤال عن علي ومعاوية[3] ، فقلت له : لا شك أن الحق كان مع علي وليس معاوية من الخلفاء ، فإنه صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : الخلافة بعدي ثلاثون سنة وقد تمَّت بعلي ، فقال تمرلنك قل : علي على حق ومعاوية ظالم ، قلت : قال : صاحب الهداية يجوز تقليد القضاء من ولاة الجور[4] ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية ، وكان الحق مع علي في نوبته ، فانسرَّ لذلك . وطلب الأمراء الذين عيَّنهم للاقامة بحلب ، وقال : إن هذين الرجلين نزول عندكم بحلب ، فأحسنوا إليهما وإلى ألزامهما[5] وأصحابهما ومن ينضم إليهما ، ولا تمكّنوا أحداً من أذيتهما ، ورتّبوا لهم علوفة ، ولا تدعوهما في القلعة بل إجعلوا إقامتهما في المدرسة يعني السلطانية[6] التي تجاه القلعة ففعلوا ما أوصاهم به إلا أنهم لم ينزلونا

---

(١) دار النيابة : مقر نائب السلطنة تيمورتاش .

(٢) تكلم ابن الشحنة عن مأدبة أقامها تيمور لقواده في تلك الدار ، وقف فيها الأمراء والقواد في خدمته ، ودارت فيها كؤوس الخمر ، وتم الاحتفال ـــ كما يقول ابن الشحنة ـــ وفق مراسم وتقاليد متوارثة منذ أيام المغول .

(٣) تكررت لقاءات تيمور بالعلماء وأعاد في أحد هذه اللقاءات السؤال عن الامام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فأجابه ابن الشحنة كما هو مبين أعلاه ، ولم تعجب إجابة القاضي ابن الشحنة الفاتح التركي فطلب تيمور من ابن الشحنة أن يقول : علي على حق ومعاوية ظالم ، فاضطر ابن الشحنة أن يردد قول تيمور وأضاف « أنه يجوز حسب بعض الاراء تقلُّد القضاء من ولاة الجور وذلك ليدفع المسؤولية عن نفسه ثم تابع لان كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية ، مع أن الحق كان مع علي ، فَسُرّ تيمور لدى سماعه هذا الجواب .

(٤) الجوْر : الميل عن القصد .

(٥) أتباعهما .

(٦) المدرسة السلطانية : وهي قائمة حتى الآن ومسجلة في سجل المباني التاريخية وتسمى ←

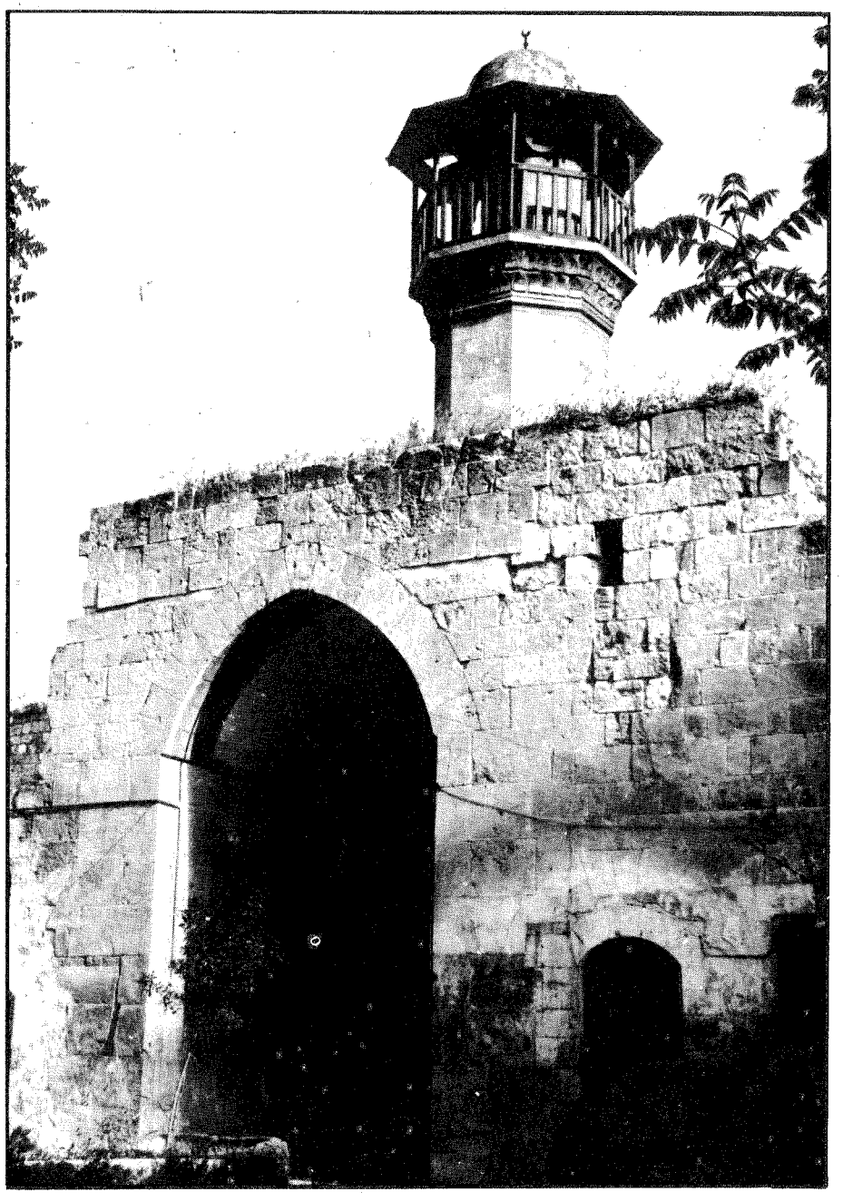

المدرسة السلطانية (الظاهرية البرانية) ــ حلب

من القلعة ، وقال لنا الذي وُلّي الحكم منهم بحلب وكان يدعى الأمير موسى بن جاجي طغاي : إني أخاف عليكما ، والذي فهمته من سياق كلام تمرلنك أنه إذا أمر بسوء فعل بسرعة ولا يحيد عنه ، وإذا أمر بخير فالأمر فيه لمن وَلِيَه .

وفي أول يوم من ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد متوجهاً نحو دمشق ، وثاني يوم أرسل يطلب علماء البلد فَرُحْنا إليه والمسلمون في أمر مريج وقطع رؤوس فقلنا : ما الخبر ؟ فقيل إن تمرلنك أرسل يطلب من عسكره رؤوساً من المسلمين على عادته التي كان يفعلها في البلاد التي أخذها ، فما وصلنا إليه جاءنا شخص من علمائه يقال له المولى عمر ، فسألناه عن طلبنا . فقال : يريد يستفتيكم في قتل نائب دمشق[1] الذي قتل رسوله . فقلتُ هذه رؤوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء . وهو حلف ألا يقتل مِنَّا أحداً قصداً ، فعاد إليه ونحن ننتظره وبين يديه لحم سليق في طبق يأكل منه فتكلَّم معه يسيراً ، ثم جاء إلينا شخص بشيء من ذلك اللحم ، فلم نفرغ من أكله إلا وزعجة قائمة وتمرلنك صوته عال ، وساق شخص هكذا أو آخر هكذا ، وجاءنا أمير يعتذر ويقول : إن سلطاننا لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين ، وإنما بقطع رؤوس القتلى وأن يجعل منها قبة إقامة لحرمته على جري عادته ففهموا منه غير ما أراد[2] وأنه قد أطلقكم فأمضوا حيث شئتم ، وركب تمرلنك

المدرسة الظاهرية (البرانية) وتقع تجاه قلعة حلب، تنسب الى السلطان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وتعد من أروع الآثار الاسلامية في حلب وأجمل ما خلّفته فنون العمارة الأيوبية. بدأ ببنائها الملك الظاهر غازي عام ٦١٣هـ ــ ١٢١٦م وتوفي ولم يتمها فأكملت سنة ٦٢٠هـ ــ ١٢٢٣م (حلب القديمة ص ٤٧).

(١) نائب دمشق: سيدي سودون (الضوء اللامع ٣/٢٨٤).

(٢) ويذكر ابن الشحنة أنه على الرغم من أن تيمور قد غادر حلب ليقوم في ظاهر المدينة، فقد ظل العذاب وقطع الرؤوس مستمرين في السكان، وقام ابن الشحنة بزيارة تيمور في مكان إقامته الجديد، وذكّره بالأمان الذي منحه للسكان في حلب، وردّ تيمور على ابن الشحنة بأن الجند قد أمروا بجلب رؤوس القتلى لاقامة أبراج منها، إظهاراً لعظمته على جري عادته في البلاد الأخرى. وقد حدث خطأ في فهم أوامر تيمور من قبل جنده لأنه لم يطلب قتل الأحياء وجلب رؤوسهم، وإنما طلب أن يؤتى برؤوس القتلى فقط، فاعتذر عن ذلك. (شهاب ٢٩٢).

من ساعته وتوجه نحو دمشق ، فعدنا إلى القلعة ورأينا المصلحة في الاقامة بها ، وأخذ الأمير موسى ـــ أحسن الله إليه ـــ في الاحسان إلينا ، وقبول شفاعتنا ، وتفقد أحوالنا مدة إقامته بحلب وقلعتها .

وتجيئنا الأخبار أن سلطان المسلمين الملك الناصر فرج[1] قد نزل إلى دمشق ، وأنه كسر تمرلنك ، ومرَّة تجيء بالعكس إلى أن انجلت القضية عن توجه السلطان إلى مصر بعد أن قاتل مع تمرلنك قتالاً عظيماً ، أشرف تمرلنك منه على الكسر والهزيمة ، وإنما حصل من بعض أمرائه خيانة كان ذلك سبب توجهه آخذاً بالحزم ، ودخل تمرلنك إلى دمشق ونهبها وأحرقها ، وفعل فيها فوق ما فعل بحلب ، ولم يدخل طرابلس بل أحضر له منها مال ، ولا جاوز فلسطين وعاد نحو حلب طالباً بلاده .

ولما كان سابع عشر شعبان من السنة المذكورة وصل تمرلنك عائداً من الشام إلى الجبول شرقي حلب ، ولم يدخلها ، بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريبها وإحراق المدينة ففعلوا ، وطلبني الأمير عز الدين وكان من أكبر أمرائه وقال : إنّ الأمير رسم بإطلاقك وإطلاق من معك ، فاطلب من شئت وأكثر لأروح معكم إلى مشهد الحسين[2] وأقيم عندكم حتى لا يبقى من عسكرنا أحد .

وكان القاضي شرف الدين لا يفارقني ، فطلبنا باقي القضاة واجتمع معنا نحو من ألفي مسلم ، وتوجهنا إلى مشهد الحسين المشار اليه ، وأقمنا ننظر إلى النار وهي تضرم في أرجائها[3] ، وبعد ثلاثة أيام لم يبق بها أحد ، فنزلنا اليها فلم نر أحدا فاستوحشنا وما قدرنا على الاقامة بها من النتن والوحشة ، ولم نقدر على السلوك في الطرقات .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

---

(١) الملك الناصر فرج بن برقوق سلطان المماليك في القاهرة تولى السلطنة سنة ٨٠١هـ وله من العمر عشر سنين (الكواكب السائرة ١٢/١٦٨) .

(٢) يقع خارج أسوار حلب غربي المدينة في حي الأنصاري ، انتهت عمارته عام ٥٨٥هـ ـــ ١١٨٩م ، وجدّده ووسّعه الملك الأيوبي الظاهر غازي عام ٥٩٢هـ ـــ ١١٩٥م ، ويعد مشهد الحسين من أروع المباني الأيوبية ونموذج يعبر عن مميزات المدرسة الحلبية في العمارة . وهوبناء أثري مسجل في سجل المباني التاريخية (حلب القديمةص ٥١) .

(٣) أحرق تيمور حلب وبقيت النار تشتعل فيها ثلاثة أيام ولم يبق فيها أحد .

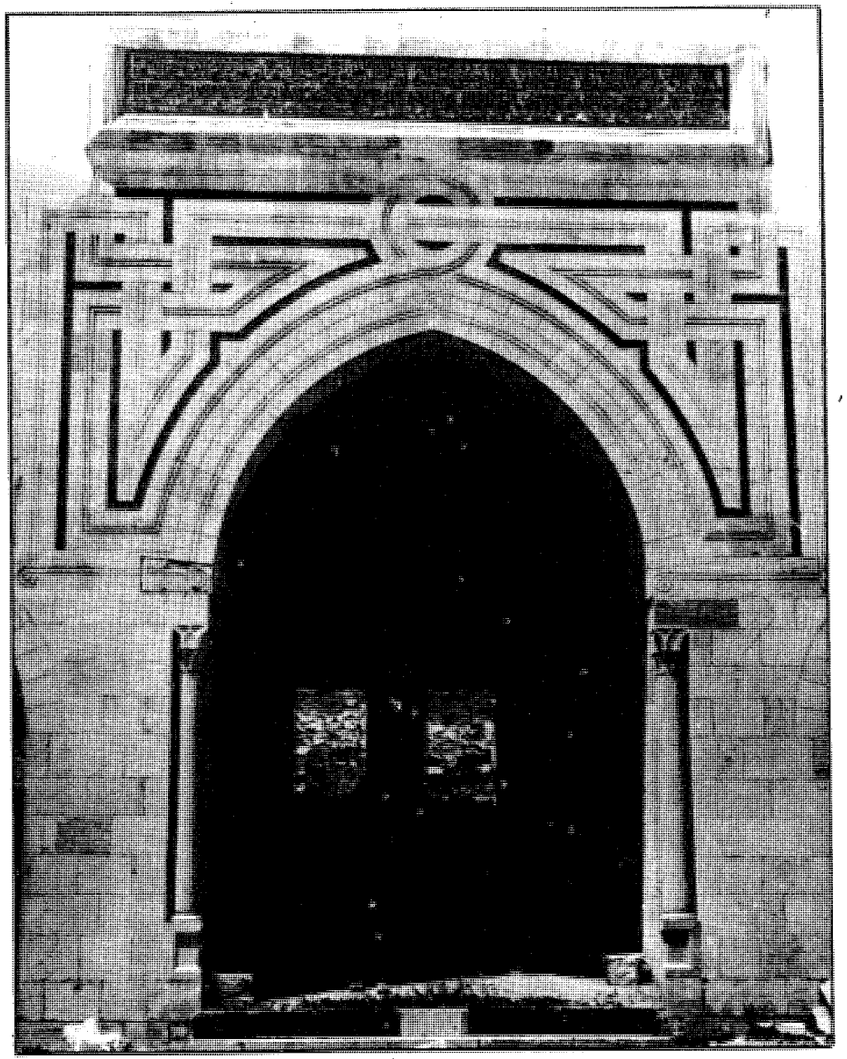

مشهد الحسين

وكانت نواب بلاد الشام معه مأسورين وانفلتوا أولاً بأول، ومات سودون بالبطن معه في قبة يلبغا[1]، واستقر في نيابة دمشق تغري بردي[2] والله أعلم. هذا ما نقلته من كلام ابن الشحنة كما وجدته.

(١) قبة يلبغا وكانت قائمة قرب محلة القدم في جنوبي دمشق، ويظن بأن القبة العثمانية القائمة أمام زاوية العسالي قامت على أنقاضها. وقد أنشأ قبة يلبغا الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوي الذي كان نائب السلطنة المملوكية في دمشق عام ٧٤٦هـ، وقد أنشأ هذه القبة في موضع خيمته ذكرى لانتصاره بخلع السلطان المملوكي الملك الكامل شعبان عام ٧٤٧هـ وسماها قبة النصر.

وسبب شهرتها سابقاً حيث أن وجود هذه القبة كان قد أحدث نظاما خاصا (بروتوكولا) للأمراء والملوك، فكان الأمير والملك اذا قدم من مصر ينزلها فيستريح من عناء السفر، ثم تلبس الجنود الثياب الجديدة، ويلبس الأمراء الخلع، وتخرج أهل دمشق وأعيانها لملاقاته، فتملأ الناس الطرقات من باب النصر (مدخل سوق الحميدية) الى قبة يلبغا، ويسير الملك أو الأمير الى دمشق بعرض عسكري، وإذا خرج من دمشق الى مصر يجري مثل ذلك، وقد بقي هذا النظام سائداً الى آخر أيام الأتراك العثمانيين يقيمون المهرجانات، ويفعلون مثل ما كان أيام المماليك عند قدوم الحاج، وعند خروجه من دمشق (دهمان — ولاة دمشق في عهد المماليك ص ١٩٥).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: تنكري وردي وهو تصحيف وتغري بردي الكمشبغاي الرومي والد الجمالي يوسف المؤرخ صاحب كتاب النجوم الزاهرة. ولي نيابة حلب سنة ٧٩٦هـ وقد تولى نيابة دمشق بعد اعتقال سيدي سودون سنة ٨٠٢هـ. وتولى نيابة دمشق بعدها مرات كان آخرها سنة ٨١٥هـ وتوفي نائبا على دمشق ودفن في التربة التينية في الميدان (الضوء اللامع ٢٩/٣).

ذكر ورود هذا الخبر الذي أقلق ووصول أسنبغا الدوادار وعبد القصار إلى جلّق[1]

فَوَرَد من حلب أسنبغا الدوادار[2]، والفتح الماهر المدعو بعبد القصار، وقالا معاشر المسلمين، الفرار مما لا يطاق، من سنن المرسلين، من يقدر على هذا، فيطلب لنفسه طريق النجا، ومن أطاق أن يشمر ذيله، فلا يبيتن في دمشق ليله[3]، ولا يغالط نفسه بالمداهنة، فليس الخبر كالمعاينة.

فتفرقت الآراء، واختلفت الأهواء، وماج أمر الناس موجا، وتفرقوا كما هو دأبهم فوجاً فوجاً، فبعض الناس انتصح، وجهَّز أمره وانتزح وبعضهم كابر وأصرّ، وكشّر أنيابه لأسنبغا وعبد القصار واهر، وأرادوا رجم هذين الناصِحَيْن، وأن يسقوهُما كأس حين، وقالوا: إنما أردتما بذلك تبديد الناس وتشريدهم، واجلاءهم عن أوطانهم وتجريدهم، وتفريق كلمتهم وتمزيق جلدتهم، والا فالأمن حاصل، والسلطان بحمد الله

(١) جلق: بكسرتين وتشديد اللام والقاف. اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قرى دمشق وقيل دمشق نفسها (مراصد الاطلاع).

(٢) أستنبوغا الدوادار: رسول سلطان مصر المملوكي الذي ذهب من مصر الى حلب لكشف أخبار تيمورلنك. تراجع الفقرات السابقة.

(٣) يصف ابن تغري بردي عن حالة أهل دمشق بعد وصول الخبر اليهم باحتلال تيمور لحلب (النجوم الزاهرة ٢٢٧/١٢) (وأما أهل دمشق، فإنه لمَّا قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودي في الناس بالرحيل من ظاهرها الى داخل المدينة، والاستعداد لقتال العدو المخذول فأخذوا في ذلك، فقدم عليهم المنهزمون من حماة، فَعَظُمَ خوف أهلها وهموا بالجلاء، فمُنعوا منذ ذلك، ونودي « من سافر نُهب » فعاد اليها من كان خرج منها، وحُصنت دمشق، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق، ونُصبت المكاحل على أسوار المدينة، واستعدوا للقتال استعداداً جيداً الى الغاية.

ثم وصلت رُسُل تيمور الى نائب الغيبة بدمشق ليتسلموا منه دمشق، فهَمَّ نائب الغيبة بالفرار، فردّه العامة رداً قبيحاً، وصاح الناس وأجمعوا على الرحيل عنها، واستغاث النساء والصبيان، وخرجت النساء حاسرات لا يعرفن أين يَذْهَبْن، حتى نادى نائب الغيبة بالاستعداد).

واصل[1] والنواب في حلب كانوا شرذمة قليلة، ولم يتم لهم معه الفكر والحيلة، مع أنه حصل من بعضهم مخامرة، ولم يوجد من الباقين مناصحة ومظاهرة، ولم يكن لهم راس، فلا تأخذوا في هذه المسألة بالقياس، وأما عساكر مصر فإنهم كاملوا العدة و(سابغو)[2]العدّة، وفيهم للمسلمين فرج بعد الشدة، فقالا نحن بعد اللتيا والتي من شره سلمنا، وما شهدنا إلا بما علمنا، وكل منا أفصح عما أدّى اليه اجتهاده وأبان، والله إنه في نصيحة المسلمين النذير العريان[3]. وقد نصحناكم إن كنتم مفلحين، ولكن لا تحبون الناصحين.

واستمر أمر الناس في الترديد والتشاغب، والتفرّق والتبديل والتشاعب، فبعضهم توجّه نحو الأماكن القدسية، وتوجه بعض إلى الديار المصرية، وبعض تشبث بأذيال الحروف[4] العاصية، وتحصن آخرون بالأماكن الغامضة القاصية[5].

(١) وقدم الخبر في أثناء ذلك بمجيء السلطان الى البلاد الشامية، فَفَتَر عزم الناس عن الخروج من دمشق مالم يحضر السلطان .

(٢) ورد في إحدى النسخ : تبديل .

(٣) النذير العريان : رجل من خثعم، حمل عليه يوم ذي الخلصة عوف بن عامر فقطع يده ويد إمرأته، أو كل منذر بحق، لأن الرجل إذا أراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها. وقد ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : النذير العرفان .

(٤) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : الجروف .

(٥) يقول ابن تغري بردي (٢٢٨/١٢) (وأما أمراء الديار المصرية فإنه لما كان ثامن عشر ربيع الأول وهو بعد أخذ تيمور لمدينة حلب بسبعة أيام، فُرّقت الجماكي (مرتبات الجند) على المماليك السلطانية بسبب السفر ... ثم ركب الشيخ سراج الدين عمر البُلقيني وقضاة القضاة والأمير آقباي الحاجب، ونودي بين أيديهم الجهاد في سبيل الله تعالى لعدوّكم الأكبر تيمورلنك، فإنه أخذ البلاد. ووصل إلى حلب، وقتّل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدُّور والجوامع والمساجد، وجعلها اسطبلات للدواب، وأنه قاصدكم، يخرّب بلادكم ويقتّل رجالكم، فاضطربت القاهرة لذلك ...

واستهل شهر ربيع الآخر، فلما كان ثالثه قدم الأمير أسنبغا الحاجب وأخبر بأخذ تيمور مدينة حلب وقلعتها باتفاق دمرداش، وحكى ما نزل بأهل حلب من البلاء، وأنه قال لنائب الغيبة يُخلّي بين الناس وبين الخروج من دمشق، فإن الأمر صعب (وإن النائب لم يمكّن أحدا من السير)، فخرج السلطان الملك الناصر من يومه من القاهرة ونزل

ذكر خروج السلطان الملك الناصر من القاهرة بجنود الاسلام والعساكر

ثم إن السلطان خرج من توان، وتوجّه بالعساكر والاستعداد التام إلى جهة بلاد الشام[1]، فلما بلغ الناس ذلك سكن جأشهم، وزال استيحاشهم، وردّ غالب من كان نَزَحَ[2] منهم، وانفرج الكرب والضيق عنهم، وأما أولو العزم، وذوو الرأي

بالرَّيدانية بأمرائه وعساكره والخليفة والقضاة .. ثم رحل السلطان ببقية الأمراء والعساكر من الرَّيدانية يريد جهة الشام لقتال تيمورلنك، وسار حتى نزل بغزة في يوم عشرين من الشهر، واستدعى بالوالد وأقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب كان من القدس، وأخلع على الوالد باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن سودون قريب الملك الظاهر برقوق بحكم أسره مع تيمور).

(١) يذكر ابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة عن الخطة التي وضعها والده الذي أصبح نائب الشام لقتال تيمور (٢٣١/١٢) (وأما الوالد فإنه قال للسلطان وللأمراء: عندي رأي أقوله، وفيه مصلحة للمسلمين وللسلطان، فقيل: وما هو ؟ فقال: الرأي ان السلطان لا يتحرك هو ولا عساكره من مدينة غزة، وأنا أتوجه الى دمشق وأحرّضّ أهلها على القتال، وأحصّنها، وهي بلدة عظيمة لم تُنْكَبْ من قديم الزمان، وبها ما يكفي أهلها من الميرة سنين، وقد داخل أهلها أيضاً من الخوف مالا مزيد عليه، فهم يقاتلون قتال الموت ـــ وتيمور لا يقدر على أخذها مني بسرعة، وهو في عسكر كبير إلى الغاية لا يُطيق المكث بهم بمكان واحد مدة طويلة، فإما أنه يَدع دمشق ويتوجه نحو السلطان الى غزة، فيتوغل في البلاد ويصير بين عسكرين، وأظنه لا يفعل ذلك، وإما أنه يعود الى جهة بلاده كالمنهزم من عدم معرفة عساكره بالبلاد الشامية، وقلة ما في طريقه من الميرة لخراب البلاد، ويركب السلطان بعساكره المصرية والشامية أقفية التُمرية الى الفرات، فيظفر منهم بالغرض وزيادة. فاستصوب ذلك جميع الناس، حتى تيمور عندما بلغه ذلك بعد أخذه دمشق، وما بقى إلا ان يُرسم بذلك، تكلّم بعض جهال الأمراء في السرّ ممن عنده كمين من الوالد من واقعة ايتمش وتنم، وقال: تقتلوا رُفقته وتسلموه الشام، والله ما قصده إلا أن يتوجه إلى دمشق، ويتفق مع تيمور ويعود يقاتلنا، حتى يأخذ مِنَّا ثأر رفقته، وكان نوروز الحافظي بإزاء الوالد، فلماسمع ذلك استحيا أن يبديه للوالد، فأشار اليه بالسُّكات والكفّ عن ذلك، وانفضّ المجلس، وخرج الوالد من الخدمة وأصلح شأنه، وتوجّه الى دمشق ...).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : برح .

السديد والحزم، فلم يلتفتوا الى قدوم السلطان، بل طلبوا لنفسهم الأمان، وانتظروا ما يتولد من حادثات الزمان، وكأنّ أنامل الدهر الدائر، كتبت لهم على مرآة الخاطر، ما أنشده الشاعر:

ألا إنما الأيام أبناء واحد ... وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... خلاف الذي مرّت به السنوات

وقلت:

إن اختفى ما في الزمان الاتي ... فقسّ على الماضي من الأوقات

(**فصل**) ولما أنجز تيمور أمر حلب، ضبط أثقالها وما أخذ منها من مال وسلب، ووضعه في القلعة، ووكّل به بعض أمرائه من ذوي الشجاعة والمنعة، وهو الأمير موس بن حاجي طغاي، وكان ذا عزم سديد ورأي، وتوجه بذلك البحر الطام، غرّة شهر ربيع الاخر جهة الشام، فوصل الى حماة[1]، ونهب ما حوت يداه، ولم يحتفل بأمر نهب وأسير، ولا بإسراع في مسير، بل سار رويدا، وهو يكيد كيدا، ويكيدون كيدا.

(١) بعد دخول تيمور حلب أرسل ابنه ميران شاه على رأس طليعة من قواته إلى حماة، واستطاعت قوات تيمور أن تحتل الضواحي ثم المدينة نفسها يقول ابن تغري بردي عن حماة (١٢/٢٢٥) (وكان من خبرها أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول المذكور، وأحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارج مدينة حماه، وسبى النساء والأطفال، وأسَر الرجال، واستمرت أيدي أصحابه يفعلون في النساء والأبكار تلك الأفعال القبيحة، وخرّبوا جميع ما خرج عن سور المدينة. هذا وقد استعد أهل حماة للقتال، فلما أصبحوا خادعهم ابن تيمور، ففتحوا له باباً من أبواب المدينة، ودخل ابن تيمور المذكور مدينة حماه ونادى بالأمان، فَقَدِم الناس عليه، وقدموا له أنواع المطاعم، فقَبِلها منهم، وعزم أن يقيم رجلاً من أصحابه عليها، فقيل له: إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيمه وبات فيه.

ثم رحل يوم الخميس عنها ووعد الناس بخير، ومع ذلك فإن قلعة حماه لم يتسلَّمها، بل كانت امتنعت عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة وقتلوا من أصحاب ابن تيمور رجلين كان أقرّهما بالمدينة، فلما بلغ ذلك ابن تيمور رجع اليها واقتحم البلد، وأشعل النار بها، وأخذ أصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون حتى صارت كمدينة حلب ....).

حكاية

رأيت حين توجهت الى بلاد الروم في أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، عند وصولنا الى حماة[1] بالجامع النوري[2] بهامن الجانب الشرقي على حائطه القبلي نقشاً على رخامة بالفارسي ما ترجمته: (وسبب تصوير هذا التسطير، هو أنَّ الله تعالى يسَّر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الممالك إلى العراق وبغداد، فجاورنا سلطان مصر ثم راسلناه وبعثنا اليه قصادنا بأنواع التحف والهدايا، فقتل قصادنا من غير موجب لذلك، وكان قصدنا بذلك أن تنعقد المودة بين الجانبين، وتتأكد الصداقة من الطرفين.

ثم بعد ذلك بمدة قبض بعض التراكمة على أناس من جهتنا وأرسلهم إلى سلطان مصر برقوق، فسجنهم وضيَّق عليهم، فلزم من هذا أنَّا توجهنا لاستخلاص[3] متعلقينا، من أيدي مخالفينا، واتفق لذلك نزولنا بحماه في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانمائة).

ولما قدم تيمور الى حماه في طريقه الى دمشق، مرَّ على سلميَّة ـــ شرقي حماة ـــ أولاً، ثم تمكن من اجتياح قلعة حماة وأوقع في المدينة حتى أصبحت كما وصفها المقريزي (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٣٦) (سوداء مغبرة خالية من الأنيس، فقد خرب تيمور أجزاء من سور مدينة حماة، وأسر عددا من سكانها، واستراح تيمور مع قواته في حماة مدة عشرين يوماً (شهاب ٢٩٣).

(١) من مدن سورية الهامة تبعد عن دمشق حوالي ٢١٠ كم في الطريق الى حلب، وهي مدينة قديمة جداً وأول ما يعرف عنها أن الحثيين استولوا عليها في القرن التاسع قبل الميلاد، ويبدأ تاريخها العربي سنة ٦٣٩م عندما دخلها العرب المسلمون فاتحين.

(٢) الجامع النوري: يقع في حي الكيلانية من مدينة حماة، بناه السلطان نور الدين بن زنكي عام ٥٥٨هـ ـــ ١١٦٢م ولا يزال يحافظ على مخططه الأصلي حتى الآن وهو مسجل في سجل المباني التاريخية. (من روائع العمارة الاسلامية في سورية ص ٤٣).

(٣) يتفق مؤرخو مصر والشام مع المؤرخين التيموريين في القول بوجود مجموعة من المسائل اختلفت فيها مواقف كل من تيمور وبرقوق، وكان هذا الاختلاف في المواقف من الأسباب التي أدت الى سير تيمور لاجتياح بلاد الشام عام ٨٠٣هـ ـــ ١٤٠١م. ويلح شرف الدين يزدي بشكل خاص على إقدام السلطات المملوكية في الرحبة على قتل أعضاء الوفد

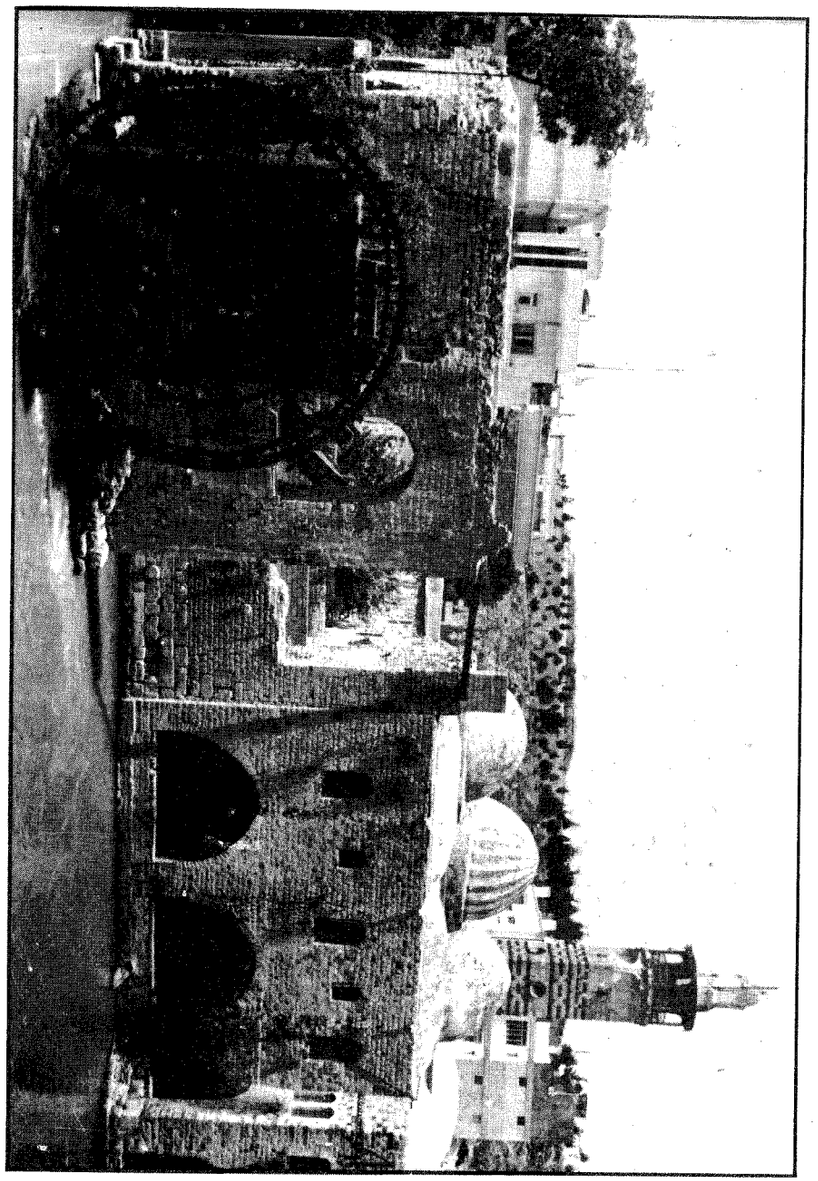

الجامع النوري — حماة

(**فصل**) ثم وصل إلى حمص[1] فلم يتعرّض بها بتشتيت وتبديد ، ووهبها لسيدي خالد بن الوليد[2] . قلت بديها :

ألا لا تجاور سوى الخيِّرين أحيا وكن جارهم في القبور

التيموري في عام ٧٩٦هـ — ١٣٩٤م . ويقول إنه قد نجم عن هذا الحادث عواقب وخيمة .. ويرى العسقلاني في حادثة أسر أتلاميش وامتناع برقوق عن تسليمه سببا آخر لزحف تيمور على بلاد الشام ويعلق على ذلك وكانت هذه الفعلة أعظم الأسباب في حركة تيمور الى البلاد الشامية (العسقلاني ٥٠٩/١) ويضيف ابن الشحنة سبباً آخر هو حقدتيمور على برقوق لمساعدته أحمد جلاير على استعادة عرشه في بغداد (ابن الشحنة ص ٢١٠) . ومهما يكن من أمر الحجج والمبررات التي رآها هؤلاء المؤرخون والتي كان لها دور في جعل الفاتح التركي يفكر بغزو بلاد الشام ، فإن أي منها لم يكن العامل الحاسم الذي دفع تيمور للقدوم الى هذه البلاد ، لأن الفاتح التركي قد انتظر طويلاً بعد وقوع هذه الأحداث . ولم يتخذ أي إجراء يدل على رغبته القيام بهذا الغزو ، بل على العكس من ذلك ، فقد اتجه شرقاً وقام بحملته على الهند عام ٨٠٠هـ — ١٣٩٨م ، متجاوزاً كل مطامعه في هذه البلاد ، ومتجاهلاً كل ما قام به السلطان المملوكي الظاهر برقوق من أعمال التحدي والاستفزاز ، وظهر أن تيمور في تلك الآونة قد وقع ضحية الحرب النفسية التي جابهه بها السلطان المملوكي ، عندما لم يقبل برقوق أن يعامل تيمور معاملة الند للند ، فأمعن بالاستعلاء عليه ، وقابل كل عمل قام به تيمور بعمل آخر يدل على تصميم تام على الحرب والمقاومة ، مما أثر في ثقة تيمور بنفسه ، ودفعه خوفه من السلطان لأن يتراجع عن عزمه على الاغارة على بلاد الشام .

ولما سمع بخبر وفاة برقوق في شوال ٨٠١هـ — ١٣٩٩م كان ذلك مبعث سرور وارتياح على حد قول المؤرخ يزدي ، وأمر لمن حمل له هذا الخبر بجائزة سنية (ابن الشحنة ص ٢١٠) .

وكانت وفاة برقوق من جملة الأسباب التي دفعت تيمور للعودة إلى الاغارة على بلاد الشام ، إن لم تكن أهم هذه الأسباب فقد تحركت جيوش تيمور بعد أقل من شهرين من وفاة برقوق . (شهاب ٢٩٠).

(١) مدينة حمص في منتصف الطريق تقريباً بين دمشق وحلب ، ولم تعرف هذه المدينة باسمها الحالي إلا منذ العصر الروماني ، وفي سنة ٦٣٦م فتحها القائد العربي خالد بن الوليد ، وقد سلمت حمص لتيمور دون مقاومة ولم يسيء تيمور اليها إكراماً لخالد بن الوليد المدفون فيها .

(٢) أشهر قادة الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام وبطل معركة اليرموك التي انهزم فيها الرومان ، ←

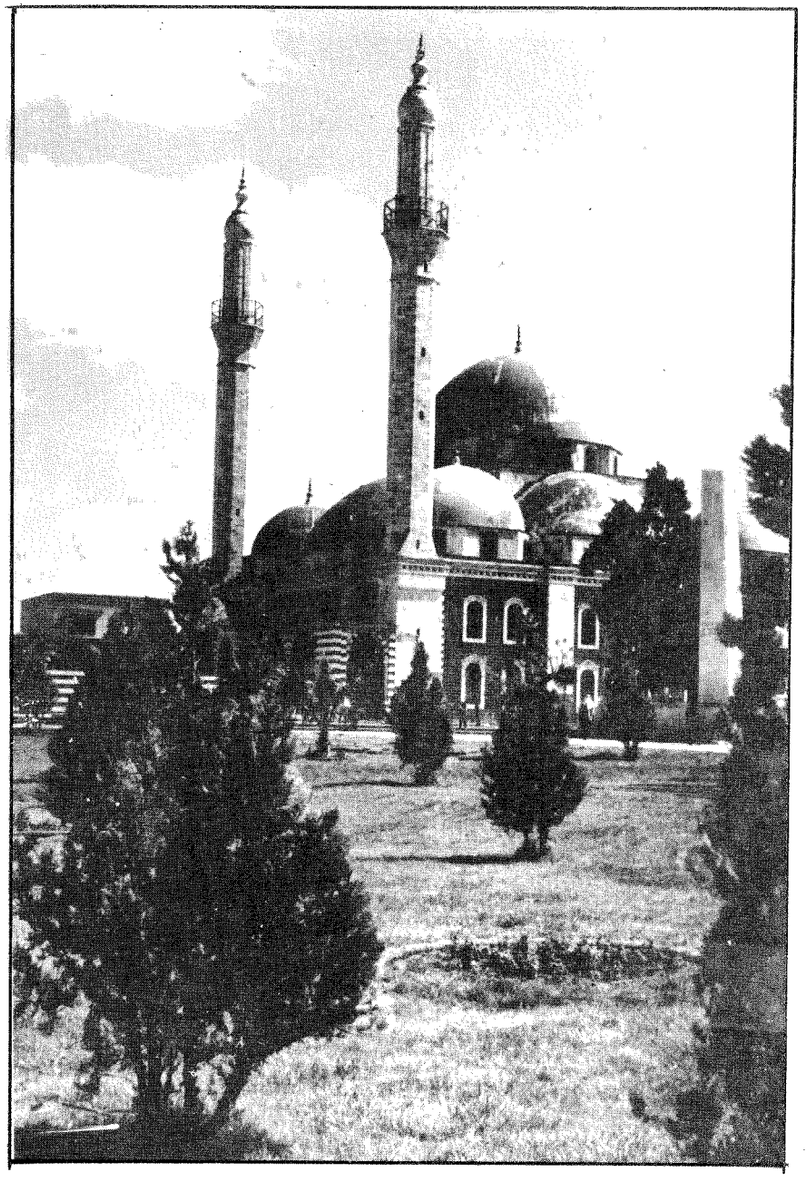

جامع خالد بن الوليد ــ حمص

ألم تَر حمص وسكـــانها نجوا من بحار بلايا تمور
لأنهمُ جاوروا خالـــــدا ومن جاور الأتقيا[١] لا يبور[٢]

وخرج اليه شخص من آحاد الناس، يدعى عمر بن الرواس، فاستجلب خاطره، وكأنه قدَّم اليه تقدمة فاخرة، فولّاه أمور البلد. وركن اليه واعتمد، وولّى قضاء تلك البلاد، رئيساً يسمى شمس الدين بن الحداد، ونادى بالأمان، للقاصي والدان[٣]، وتبايعوا بها وتشاوروا، وفي استفادة ربح الأمن لم يتماروا.

ثم إن نائب الشام ضعف معه ومات على قبة يلبغا[٤] ونائب طرابلس[٥] هرب منه وللخلاص ابتغى، فوصل الى مدينته، واستقرّ في ولايته، فاضطرم غضباً، واستشاط لهباً واشتعل قيظ غيظه، وقَتَل كل مَنْ وكَّله بحفظه، وأسعر بهم سقر، وكانوا ستة عشر.

وأما تمرداش[٦] فإنه داراه وماراى، وهرب منه في قارا[٧]، واستمر علاء الدين الطنبغا العثماني نائب صفد، وزين الدين نائب غزة وغيرهما معه في صفد[٨]، ثم سار وما ارتبك، حتى نزل على بعلبك[٩]، فخرج أهلها ودخلوا عليه، وتراموا طالبين

ومن أصحاب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتذكر الروايات وفاته ودفنه في حمص، لذا تدعى بمدينة ابن الوليد وقد أقيم على قبره مسجد كبير جدِّد مرات عديدة يشتهر باسم جامع خالد بن الوليد ويقع الى الشمال من الساحة الرئيسية لمدينة حمص.

(١) الأتقياء
(٢) لا يهلك
(٣) القاصي والدان: البعيد والقريب.
(٤) كانت جنوب دمشق تراجع الصفحات السابقة.
(٥) المؤيد شيخ خاصكي.
(٦) نائب السلطنة في حلب.
(٧) بلدة قارا: تبعد عن مدينة دمشق حوالي ١٠٠ كم في الطريق المؤدي الى حمص.
(٨) في القيد.
(٩) بعلبك: من مدن لبنان، ويظن أن ولادتها كانت في عهد الفينيقيين لأن اسمها بعلبك يعني (بعل البقاع)، وقد عرفت قدياً بكونها مقراً لعبادة (حدد) كبير الآلهة السورية القديمة، وقد زادت شهرتها في العهد الروماني وصار إلهها جوبتير الذي حلّ محل حدد من أكبر آلهة الامبراطورية الرومانية، فوجب إقامة معبد ضخم له في بعلبك ولا زالت أطلال بعلبك ←

الصلح بين يديه، فلم يلتفت إلى هذا المقال، وأرسل فيهم جوارح النهب والاستئصال (وقرُب السلطان أيضاً)[1]

ثم ارتحل مجرياً ذلك البحر الزخار، والسيل التيار، والطوفان الثرثار، حتى أشرف على دمشق[2] من قبة سيار[2]، ووصلت العساكر المصرية[2]، والجنود الاسلامية،

القديمة قائمة حتى الآن، وفي سنة ٦٣٤م استولى على المدينة أبو عبيدة بن الجراح فأصبحت مدينة عربية اسلامية. وقد أثارت آثار بعلبك الرومانية دهشة وإعجاب تيمور لنك، ولم يمضِ فيها وقتاً طويلاً بسبب شدة البرد فيها وكان الفصل شتاء، فتقدم منها باتجاه دمشق.

(١) لا توجد هذه الجملة في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) كانت أخبار تيمور تصل الى مسامع سكان دمشق، وكانت هذه الأخبار تُحدث عند هؤلاء السكان الخوف والذعر، ويقول المؤرخ الدمشقي محمد بن صصري الذي كان يقيم في الحقبة التي سبقت وصول تيمور اليها: « أن الناس في تلك الأيام كانوا يتوقعون أن يغير الفاتح التركي على دمشق بين وقت وآخر، وكانوا يسترجعون ذكريات الغارات التي شنَّها الايلخانيون على المدينة، قبل نيف وقرن من الزمان » ابن صصري ص ١٤٠ — ١٤٥ وكانت آخر هذه الغارات الايلخانية على المدينة غارة السلطان محمود غازان عام ٦٩٩هـ — ١٣٩٨م ونقل ابن صصري قول أحد الشعراء الدمشقيين يصور حالة اليأس العامة التي كانت سائدة:

وما مرَّ يوم أرتجي فيه راحة وأعتبه إلا بكيت على أمس

ويقول المؤرخ الدمشقي المعاصر لتلك الأحداث ابن قاضي شهبة « أن أخبار سقوط حلب بيد القوات الغازية قد بلغت دمشق بعد دخول تيمور الى حلب بأربعة أيام، فاختبط البلد وحدث البكاء... وأمرت السلطات في المدينة سكان الضواحي بالانتقال إلى المدينة للاحتماء بأسوارها. وبدأت منذ السابع عشر من ربيع الأول ٨٠٣هـ ٦ تشرين الثاني ١٤٠٠م جماعات من سكان حماه بالوصول إلى دمشق وهي الجماعات التي اضطرت إلى ترك حماه في إثر سماعها سقوط حلب.

وكانت آراء المشرفين على الأمور في دمشق منقسمة بين الاقامة والدفاع، وبين الرحيل والفرار، ولا سيما بعد انتشار خبر وقوع سيدي سودون نائب دمشق في الأسر، ووصول اثنين من أمراء المماليك تمكنا من الفرار من أسر قوات تيمور، وطلبهما من السكان مبارحة المدينة، وأخذ بعض السكان يغادر المدينة خفية، فاتجه بعضهم الى الجبال أو الى ←

المناطق الوعرة في جنوب دمشق. ومن السكان من وصل الى القدس، كما تابع بعضهم التقدم حتى بلغ مصر، واطمئن من بقي من سكان المدينة، الى ما كان يُشاع عن قرب وصول السلطان وجيشه من القاهرة...

وكانت في دمشق سلطتان تعملان بشكل متعارض، السلطة الادارية المتمثلة بنائب الغيبة والحاجب، والتي [illegible]ت تؤمن بعدم جدوى المقاومة، فأخذت تروج لفكرة عدم شهر السلاح لأننا سوف نسلم البلد بأمان، وبين السلطة العسكرية المتمثلة بنائب القلعة، الذي بعث ينادي بالاستعداد للقتال، وأن من كان بحاجة الى السلاح فليأت الى القلعة لاستلام سلاحه.

وازدادت الروح المعنوية سوءاً، عندما وصلت في ١٢ ربيع الآخر = الأول من كانون الأول ١٤٠٠م بطاقة من نائب حمص، بعث بها من بلدة قارا. وفهم منها أنه اضطر لمغادرة مدينته بسبب تقدم القوات المغيرة، ولم يلبث النائب نفسه أن وصل الى دمشق بعد ثلاثة أيام، وأبلغ عن وصول تيمور الى حماه، وأنه على وشك التقدم منها الى حمص التي تمكن أهلها من الحصول على الأمان لأنفسهم، وتوافد على دمشق في هذه الأثناء أيضاً سكان بعلبك والزبداني ووادي بردى الذين أخافهم تقدم قوات تيمور. وأعلن القادمون أن طلائع الأعداء قد بلغت سهل البقاع، ومما زاد في سوء الحال أن الوافدين على دمشق قد اصطحبوا معهم دوابهم، كما اشتد البرد وسقطت الثلوج الغزيرة على المدينة والمناطق المحيطة بها.

هذا وكان تيمور يسعى بدوره الى بلبلة الأوضاع في دمشق والتشويش على السكان برسائل التهديد التي أخذ يرسلها الى هناك، وبالأخبار الذي عمل على ترويجها في المدينة وهو في طريقه الى حلب... وكان تيمور كما يذكر ابن قاضي شهبة، قد أرسل في ١٥ صفر عام ٨٠٣هـ = ٦ تشرين الأول ١٤٠٠م قبل أن يصل الى حلب رسالة تهديد الى القضاة والأئمة في دمشق، جاء فيها قوله: « ففعلنا بسيواس ما بلغكم...» وطالب بإرسال أتلاميش، وبأن تكون الخطبة والسكة باسمه، ثم تابع كلامه: وإن لم نجب الى ذلك، فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم ، وحدد مدة أربعين يوماً ليصل رد القضاة والأئمة اليه. وبعث تيمور رسالة أخرى حملها أحد الأمراء المماليك كانوا في أسر تيمور، ووصلت الرسالة الجديدة دمشق ٢١ ربيع الأول وكان تيمور لا يزال في حلب الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٤٠٠م، وكان يستعجل فيها جواب رسالته الأولى ويذكّر بقرب انقضاء مدة الانذار، مما زاد في مخاوف الناس، وهَمَّ بعض كبار رجال الادارة المملوكية وعلى رأسهم ←

وقد ملأوا الفضاء، وأشرق الكون منهم وأضاء، فيالق سهامها لحب قلب من نوى الخلاف فالقة، وصواعق سيوفها في عقاص كل عقص صاعقة، وأسنّة رماحها لرتق سماء الأرواح عن أرض الأشباح فاتقة.

وقد طلبوا الأطلاب وحزبواالأحزاب، وعبّوا الميمنة والميسرة ورتّبوا المقدمة والمؤخرة، وسَوُّوا القلب والجناح، وملأوا البطاح والبراح وساروا بالمقاتب المُكَتَّبة والكتائب

نائب الغيبة والحاجب بالفرار، فلحق بهم العوام وأدركوهم عند قرية القبيبات في جنوب دمشق، وردوهما بالسيوف والمقالع، واشتركت النساء مع الرجال في ذلك.

ولما هرب الجند المكلفون بحراسة باب الجابية، لحق بهم الناس ولكنهم لم يتمكنوا من إدراكهم... ويتضح من هذه الحوادث أن فكرة الدفاع عن المدينة والثبات فيها هي التي نجحت أخيراً بضغط من سكان دمشق...

وكان القضاة في دمشق، منذ أن وصلت أخبار اقتراب تيمور من حدود الشام، قد أخذوا يبذلون المساعي لتعبئة الشعور العام فيها، واعداد الناس للمقاومة. وخرج قضاة دمشق من دار العدل في ٤ صفر = ٢٥ أيلول ووقفوا عند باب النصر أحد أبواب دمشق حيث تليت فتوى قاضي القضاة، بوجوب قتال تيمور وجيشه والحضّ على ذلك. وانتقل الموكب بعد ذلك وجموع الناس خلفه الى باب الجابية، ثم تجولوا في أحياء المدينة المختلفة، وهم يعيدون بين الحين والآخر قراءة تلك الفتوى. ومضى نائب القلعة في الوقت نفسه في اتخاذ المزيد من اجراءات الدفاع، فطلب من أصحاب المنازل القائمة حول أسوار القلعة إخلاء دورهم لأنه سوف يعمل على إحراق تلك الدور، حتى لا يتخذها المغيرون مخابىء للاحتماء بها والاغارة منها على الأسوار (شهاب ٢٩٥).

(٢) قبة سيار: بناء أثري مسجل في سجل المباني التاريخية بدمشق وتقع على تلة صغيرة في جبل قاسيون غربي مدينة دمشق وتنسب الى سيار بن شجاع.

(٢) أخذت طلائع الجيش المملوكي السلطاني بالدخول الى دمشق في السادس من جمادى الأولى = ٢٤ كانون الأول يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٣٢/١٢) (وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى، وكان لدخوله يوم مهول، من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال الى الله بنصرته، وطلع السلطان الى قلعة دمشق وأقام بها الى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره الى مخيّمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره وقد قصّرت المماليك الظاهرية أرماحهم حتى يتمكنوا من طعن التُّمرية أولاً بأول لازدرائهم عساكر تيمور).

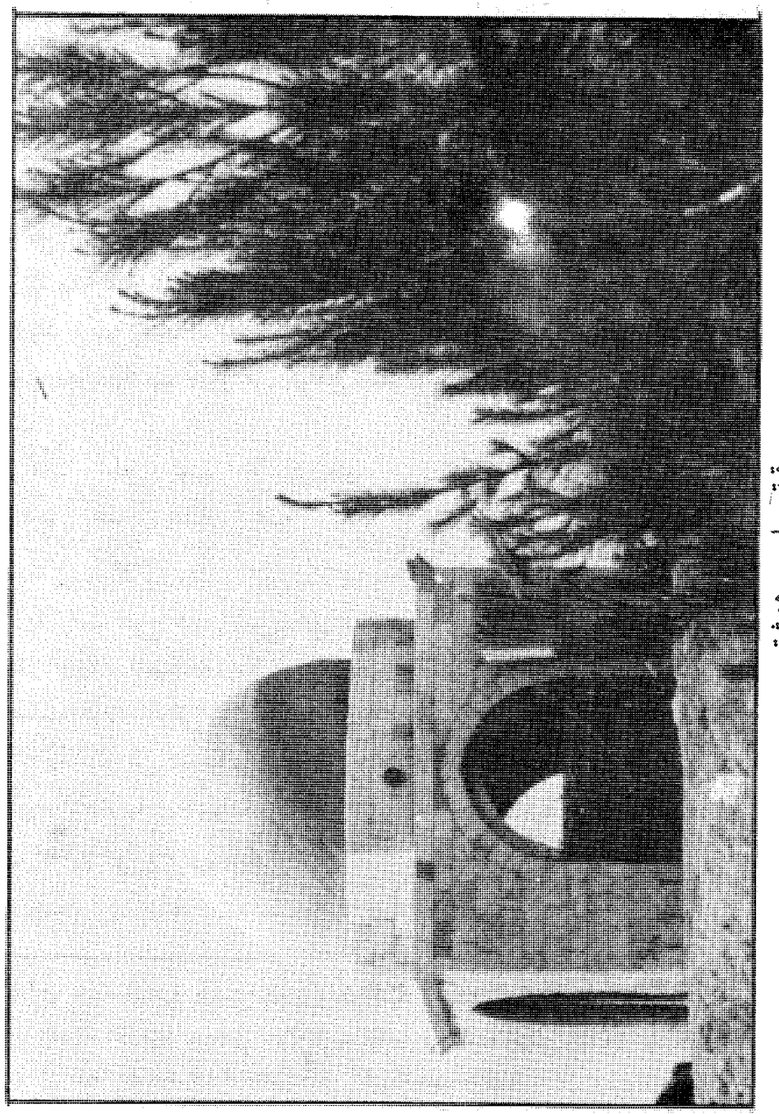

قبة سيار ـــ دمشق

المقتبة، والكواكب المركبة، والمراكب المكوكبة[1]، والمراتب المقرّبة، والمقرّبات المرتبة، والسلاهب المجنّبة، والنجائب التي هي على أكل اللَحم[2] مُسَلْهَبة. وفي كل كتيبة من الأسود الضراغم، ومن النسور القشاعم.

قلت:

وربّ ذي لجب كالطود ذي حنق ... كأنه البحر في أثْناه غابات
بحران في كل موج منهما أسد ... يلاعب الموت في كفّيه حيّات
كل ترى العين معناه وصورته ... عند النزال وإن ينزل فشطفات
إن يسر تلق السما في الأرض دائرة ... أو سار تعقد أرضاً منه غبرات

وقد تنكّبوا حنايا المنايا، وتقلدوا سيوف الحتوف، واعتقلوا الذوابل النواهل، وثبتوا، حيث نبتوا، وكأنهم خُلِقوا من كواهل الصواهل.

قلت:

كأنَّ الجو ثوب لا زوردي ... يزركش نسجه قضب الرماح
فإن عَقَد القَتَام عليه ليلا ... أرَتك صِفاحه لَمع الصباح
كأنَّ نجومه النُشَّاب ترمى ... شياطين الكفاح لدى النِطاح

ولا زالت أفواج هذه الأمواج على هذا المنهاج متلاطمة، وأثباج هذا البحر العجاج تحت العجاج متصادمة، وكل ينادي بطريق المفهوم (وما منا إلا له مقام معلوم)[3] فوصلت غيلان الوغى إلى قبة يلبغا، يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الآخر، عام ثلاثة وثمانمائة من الهجرة، فنزل كل من العساكر يمنة ويسرة، واستقرت العساكر والأمراء الاسلامية في البيوت والمساكن، ونزلت الجنود التتارية غربي دمشق من داريا[4] والى قطنا والحولة وما يلي تلك الأماكن[4].

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: والكواكب المكوكبة، والمراكب الموكبة. وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: والكتائب المقنية والمواكب المركبة.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: على أكل اللحم مستلهبة.
(٣) سورة الصافات الآية ١٦٤.
(٤) داريا وقطنا من أعمال محافظة دمشق، أما الحولة فهي من أعمال فلسطين اليوم.

ودخل بعض أثقال السلطان إلى البلد، وتحصنت القلعة والمدينة بالسلاح والعّدد، ثم أخذ كل من الجيشين حذره، ونجز للمقابلة والمقاتلة أمره، وحفروا الخنادق، وسدَّ كُلّ على الآخر أفواه المضائق، وشرعوا في المهاوشة والمناوشة والمهارشة والمعانشة، ثم أمر السلطان العساكر بالبروز من المدينة إلى الظاهر وجعل يخرج من المدينة رؤساء أعيانها، وتنحاز في المقاتلة إلى سلطانها، والأطفال الصغار، يجأرون إلى الجبار[1]، وينادون بحرقة كل ليلة في الأزِقّة: يا الله يا رحمن، انصر مولانا السلطان. والناس في اضطراب وحركات، يستنزلون النصر والبركات، ويستغيثون الليل والنهار، يا مجاهدون الأسوار. واستشهد من رؤساء البلد في تلك الأيام: قاضي القضاة برهان الدين التادلى[2] المالكي الحاكم بالشام، وشُلَّت يد قاضي القضاة شرف الدين عيسى المالكي بضربة حسام، وجعلوا يأتون بمن يظفرون به من العدّو فيقتلونه، ربما غنموا منهم من ناطق وصامت فيشهرونه.

(٤) يقول ابن تغري بردي (١٢/٢٣٣) (فلما كان وقت الظهر من الوقت المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثلج في نحو الألف فارس، فبرز اليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمة واحدة، بدّدوا شملهم وكسروهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا.

ثم حضر الى طاعة السلطان جماعة من التمرية وأخبروا بنزول تيمور على البقاع العزيزي فلتكونوا على حذر، فإن تيمور كثير الحيل والمكر، فاحترز القوم منهم غاية الاحتراز.

ثم قدم على السلطان خمسة من أمراء طرابلس بكتاب أسَنْدَمُر نائب الغيبة بطرابلس يتضمن أن الأمير أحمد بن رمضان التركمان هو وابن صاحب الباز وأولاد شُهري اتفقوا وساروا الى حلب وأخذوها من التمرية، وقتلوا من أصحاب تيمور زيادة على ثلاثة آلاف فارس، وإن تيمور بعث عسكراً الى طرابلس، فثار بهم أهل القرى وقتلوهم عن آخرهم بالحجارة لدخولهم بين جبلين، وأنه قد حضر من عسكر تيمور خمسة نفر، وأخبروا بأن نصف عسكر تيمور على نية المسير الى طاعة السلطان.

وكان ذلك من مكايد تيمور .... ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قطنا فملأت عساكره الأرض كثرة ....).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: والأطفال الصغار والرجال يجأرون الى الجبال.
(٢) تادلة: بفتح الدال ـــ والنسبة اليها: تادلي تقع في المغرب الأقصى (المملكة المغربية) وورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الشاذلي.

سور مدينة دمشق القديمة

قلعة دمشق وسوق الحميدية

ذكر واقعة وقعت ومعركة صدعت لو أنها نفعت

ثم في بعض الأيام، تقدّم من أولئك الأغتام، نحو من عشرة آلاف، وزحفوا الى ميدان المصاف، فنهض لهم من العساكر الشامية، نحو من خمسمائة ثم أتبعهم الأمير استنباي[1] في نحو من ثلاثمائة. قلت:

أسود اذا لاقوا ظباء إذا عطوا ... جبال اذا أرسوا بحار اذا سروا
شموس اذا لاحوا بدور إذا انجلوا ... رياح إذا هبوا غمام إذا هموا
صقور اذا انقضُّوا نمور إذا سموا ... رعود إذا صاحوا صواعق إن رموا

مع كل منهما خطار تسجد قدود الملاح لخطراته، وبتار يتعلم سفك الدماء من لحظاته، وحنية[2] تضاهي حاجبه، وسهام في تشبهها بأجفانه صائبة، وترس لين اللمس، اذا تغطى به رأيت البدر علا الشمس، وعليه خوذة كأنها من لمعات وجنته مأخوذة، أو من بوارق طلعته مفلوذة، اذا نظر الطرف اليها يأخذه الانبهار، يكاد سنا بَرقَها يذهب بالأبصار، ولبوس أشبه لابسه، وصار ملابسه ظاهره حرير ناعم كبشرته، وباطنه حديد كقلبه في قسوته، وقد امتطوا الفحول من نجائب الخيول، فكأن بدور تلك الجموع، مع الرماح الملتهبة الأسنة عرس تجلى تحت الشموع، وتوجهوا إلى حَوْمة الوغى، وتلاقوا في واد خلف قبة يلبغا[3].

(١) كما هو مثبت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ، وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: أسَنْباي. وفي طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: أسلباي.

(٢) الحنية: القوس.

(٣) كانت قوات تيمور قد واصلت تقدمها من سهل البقاع باتجاه دمشق، وكانت تسرع في زحفها لتبلغ دمشق، قبل أن تصل اليها القوات المملوكية القادمة من مصر وتنضم الى حامية المدينة.

ويشير بعض مؤرخي مصر والشام إلى أن أول احتكاك حربي بين الفريقين كان في جمادى الأولى = ٢٦ كانون الأول في يوم وصول السلطان فرج الى مخيمه في قبة يلبغا.

ولا تتوفر معلومات واضحة عن القتال في المرحلة الممتدة بين تاريخ أول اشتباك بين الطرفين وتاريخ انسحاب السلطان فرج في العشرين من جمادى الأولى = ٧ كانون الثاني ١٤٠١م عائداً الى مصر، ويتحدث هؤلاء المؤرخون عن هذه المرحلة حديثاً عاماً دون أن ←

يتعرضوا للتفصيلات، وان كلا الطرفين أخذ يستعد ويحفر الخنادق ويسد على الآخر ويشير المؤرخ ابن خلدون الذي قدم مع السلطان من القاهرة وكان يقيم في ذلك الوقت في المدرسة العادلية الكبرى بدمشق فيقول: (إن العسكرين قد اشتبكا خلال تلك الآونة بين ثلاث الى أربع مرات، وكانت الحروب سجالاً بينهما (ابن خلدون التعريف ص ٣٦٧) ويشير آخرون الى حدوث تبادل في الرسائل بين الجانبين كرر فيها تيمور طلبه باطلاق سراح اتلاميش، على أن يطلق هو ما عنده من أسرى المماليك (المقريزي: السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٣٧) شهاب ص ٢٩٩.

ويقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٣٥/١٢) (ونزل كل من العسكرين بمعسكره، وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال اطلمش أحد أصحابه اليه، وأنه هو أيضاً يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب، فأشار الوالد ودمرداش وقُطْلُوبغا الكركي في قبول ذلك لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم، لا لضعف عسكرهم، فلم يقبلوا وأبوا إلا القتال.

ثم أرسل تيمور رسولاً آخر يطلب الصلح، وكرَّر القول ثانياً، وظهر للأمراء والجميع العساكر صدقُ مقالته، وأن ذلك على حقيقته، فأبى الأمراء ذلك، هذا والقتال مستمر بين الفريقين في كل يوم).

وترد عند المؤرخ الدمشقي المعاصر لتلك الأحداث ابن قاضي شهبة والمؤرخين التيموريين تفصيلات أكثر عن تلك المرحلة، فيتحدث ابن قاضي شهبة عن اشتباك وقع في العاشر من جمادى الأولى = ٢٨ كانون الأول في موضع يقال له «جب» بين قوات مملوكية تعاونها جماعات من الأعراب من «بني الغزاوي» وبين القوات المغيرة التي كانت تتقدم نحو هذا الموقع، واستطاعت قوة المماليك التي تصدت لها من ردها، ولكن المغيرين عادوا يؤيدهم مدد جديد أرسله اليهم تيمور، واستطاعوا كما يقول يزدي ـــ قتل وأسر عدد من قوات أعدائهم، وجاسوا في المنطقة وعادوا محملين بالغنائم.

وكان من أهم أحداث تلك المرحلة أيضاً لجوء أحد أحفاد تيمور الى المماليك، فقد قدِم الى دمشق في ١٣ جمادى الأولى = ٣١ كانون الأول ١٤٠١م شاب أمرد حسن الشكل كان يضع تاجاً على رأسه. واتضح لابن قاضي شهبة فيما بعد أنه ابن بنت تيمور ويدعى حسين بهادور، وأحسنت سلطات دمشق استقباله مع الحاشية الكبيرة التي كانت ترافقه، ونزل بدار الضيافة بدمشق (السلوك جزء ٣ قسم ٣ ص ١٠٤٢) (شهاب ٢٩٩).

(وفتية من كماة الترك ما تركوا للرعد أصواتهم حساً ولا حيتا
قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة حسنا وإن قاتلوا كانوا عفاريتا)[1]

(**فصل**) ولما رأت هذه الأسود تلك الذئاب والكلاب ، كانوا كالمؤمنين وقد رأوا الأحزاب[2] ، فبان منهم صحيح الضرب وعليله ، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله فأحاط أولئك بهؤلاء لكثرة الغلبة ، وأداروا لقرضهم على هذه البحور الدائرة المجتلبة ، وحين صاروا في خباء هذه الدائرة كالعروض اشتغلوا بالضرب وتقطيع الدائرة بالحرب العضوض ، فأول ما أضمروا لهم في ذلك الزحف : قطع[3] الرأس وخبل العقل وقطف الكف ، فَصلموا بالرمح الطويل عقلهم ، وثلموا بالرشق المديد شكلهم ، وبتروا بالعضب البسيط وافرهم ، وشتروا بالسهم السريع كاملهم ، فخذوهم وقصموهم ، وخزموهم (وخرموهم)[4] وشعثوهم وثرموهم ، وجموهم ، ووقصوهم ، وعصبوهم ، وعقصوهم ، وخذلوهم ، ونقصوهم ، فردُّوا صدورهم على الأعجاز ، وسدّوا على حقيقة الخلاص منهم المجاز ، فانكشفوا عنهم ، وهم مابين مشطور ، ومقطوع ، ومحذوف ، ومجزوّ ، ومنهوك ، وموقوف .

ورجع أسنباي المشار اليه وقد اقتضب بحربه المتدارك حفيفهم ، واجتثَّ بضربه المتقارب المتماسك ثقيلهم وخفيفهم ، وتسبيغ سوابغهم بالنصر مرفل ، وبالتمكين التام مذيل ، وبيت دائرتهم المتفقة آمن من الخلل ، وعَروضه وضربه سالم من الزِحَاف والعِلل .

---

(١) ورد هذان البيتان في إحدى النسخ دون غيرها .

(٢) يشبه ابن عربشاه هذه الوقعة التي حفرت فيها الخنادق ، بغزوة الخندق التي تسمى غزوة الأحزاب والتي هاجم فيها مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة وذكرها القرآن الكريم في سورة الأحزاب الآية ٢٢ (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قطف .

(٤) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

ذكر ما افتعله سلطان حسين ابن أخت تيمور من المكر والمين

ثم إن سلطان حسين وهو ابن أخت تيمور[1] ، أظهر أنه خامر[2] على خاله وجاء الى السلطان وفي باطنه أمور ، وكان شاباً ذا شجاعة ، وعنده طيش ورقاعة ، فأظهروا بقدومه الفرح ، واستشعروا النَّصر والمرح ، وكان في رأسه جمة شعر فأزالوه ، وخلعوا عليه وفي زيهم أظهروه[3] .

(**فصل**) ثم إن تيمور أشاع أنه خار وتتعتع ، فرحل قليلا ورجع القهقرى وتكعكع ، كل ذلك من مكايده ، وحبائل مصايده ، وبيان ذلك أنه بلغه أن الخلاف واقع بين العساكر المصرية وانهم سيفرُّون ، فيفوتونه إذ ذاك ، فأظهر الخوَن ، وأشاع أنه

---

(١) عند ابن قاضي شهبة ابن بنت تيمور ويدعى حسين بهادور (شهاب ٢٩٩).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : خالف .

(٣) وقد أحسنت سلطات دمشق استقبال سلطان حسين مع حاشيته ، ولما كان يختلف في شكل شعره المسترسل وثيابه عمَّا كان يألفه سكان دمشق فقد أسرعوا في إزالة جمة في شعره وألبسوه ثياباً كثيابهم .

وتُحَمِّل المصادر التيمورية مسؤولية لجوء سلطان حسين للحاشية الفاسدة التي كانت تحيط به ، والتي كانت من التاجيك الماكرين ، وتدّعي بأنه كان في حالة سكر ، وتضيف هذه المصادر أن أهالي دمشق الذين سرّهم لجوء سلطان حسين اليهم ، قد عاملوه بالتعظيم والاكرام ، وقد استقبله السلطان الملوكي نفسه الذي اعتقد بأن الفرج قد أتاه بعد الشدة ، وقد رُفع خبر فرار سلطان حسين الى تيمور على الفور ، وتردد في دمشق أن سلطان حسين كان قائد المسيرة في جيش تيمور . وقد قدّم معلومات مفيدة عن قوات الأعداء .

ويقول يزدي إن لجوء سلطان حسين الى دمشق كان سبباً في تقدم تيمور بقواته من مواقعها الأولى الى قرية تبعد عن جنوب دمشق بمقدار فرسخ واحد ، وأقام مخيماته هناك . وقد تكون هذه القرية التي لم يورد يزدي اسمها هي داريا التي تبعد عن دمشق هذا المقدار تقريباً من ناحية الجنوب الغربي ، والتي ذكر ابن عربشاه أن تيمور في زحفه نحو دمشق عبر قبة السيَّار وصل اليها . وقد مكَّن احتلال داريا تيمور من تطويق دمشق من الجنوب ، بعد أن كانت قواته تطوقها من ناحية الغرب ، منذ نزولها في قبة السيار ، كما أن القوات المعادية في مواقعها الجديدة قد ازدادت قرباً من مكان نزول السلطان المملوكي فرج في قبة يلبغا (شهاب ٣٠٠) .

راحل ليثبتهم، وعن الفرار يثبطهم، فلما عزموا على الفرار[1]، (لم يبن لهم ثبات ولا قرار[1]) .

(١) يقول ابن آياس (بدائع الزهور ٣٢٩/١) (ثم إن السلطان دخل الى دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى ونزل بالميدان الكبير وجلس بالقصر الأبلق وحكم بين الناس وصلى الجمعة بدمشق ثم برز خيامه الى قبة يلبغا. فلما كان وقت الظهر جاء جاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج وكانوا نحو ألف فارس فبرز اليهم جاليش السلطان نحوا من مائة فارس فأوقعوا مع عسكر تمرلنك واقعة قوية فانكسر جاليش تمرلنك وولوا مدبرين، ثم في تلك الليلة جاء جماعة من أمراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان وأخبروا بأن ولد تمرلنك كان في الجاليش فقتل وكذلك صهره، وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية الحزن، فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق، ثم حضر عند السلطان الأمير نعير بن حيار أمير آل فضل وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارثة وغير ذلك من القبائل، ثم بلغ السلطان بأن عسكر تمرلنك قد تغلّبوا عليه ومات من عسكره جماعة كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذي ينزل من الجبل وصار يحضر الى السلطان في كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة، والتف على السلطان جماعة كثيرة من العربان وغيرهم حتى قيل أنه تكامل عنده نحو إثني عشر الف انسان خارجاً عن عسكر مصر .

وكانت طوالع الملك الناصر في مبتداها سعيدة والنصر لائح ولكن كما قيل في المعنى :

يريد المرء أن يعطى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة وطلع الى القلعة وحضر صحبة الخليفة المتوكل وجماعة من النواب وهم نائب الشام ونائب صفد ونائب غزة وغالب أمراء دمشق، وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك وحضر مع كل أمير مملوكان من مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش، وكان سبب حضور السلطان على هذا الوجه أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر أرسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح وأرسل الى السلطان أميراً من أمرائه يقال له الأمير حسين وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان في أمر الصلح، فلما أن حضروا الى السلطان خلع عليهم وأحسن اليهم، وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطلمش الذي أسر في أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم وأن تمرلنك يطلق من عنده من الأسرى جميعهم .

وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مراراً عديدة وآخر ذلك كان ليلة الجمعة ←

ذكر ما نجم من النفاق بين العساكر الاسلامية وعدم الاتفاق

وكان أتابك العساكر، وكافل الملك الناصر، الأمير الكبير يشبك وتحت يده الأكابر والأصاغر، والجند وإن كان مدده كثيرا، والجيش وإن تراءى عدده غزيرا، لكن كان كل منهم أميرا، ولم يكن شيء منهم سوى الرأس صغيرا، فتشتتت آراؤهم، وتصادمت أهواؤهم، وانتقلت أشعار شعارهم من الدائرة المؤتلفة، إلى الدائرة المختلفة .

ونقل كل منهم عن وزن بيته الى عروض، وأخذ في عرض صاحبه بالتقريض، وظهرت في تلك الساعة آيات الرحمن، في اختلاف الألسنة والألوان، وصاروا في رعاية الرعية كالذئب والضبع، وسلطوا على مرعى هزيلها النمر الغضوب والسبع[1]، ولحق في سند هذا الحديث الأصاغر بالأكابر، والأسافل بالاعالي والأوائل بالأواخر، وصاروا كما قال الشاعر :

تفرقت غنمي يوماً فقلت لها ... ياربِّ سلِّط عليها الذئب والضبعا

رابع عشر جمادى الآخرة. فأقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل واتفق معهم على أنه في باكر النهار ينعقد الصلح بينهما. فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه في تلك الليلة وهرب منهم جماعة من الأمراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية وكان الذي قد تسحَّب من الأمراء تحت الليل الأمير سودون الناصري الطيار والأمير قاني بك العلائي ... وجماعة من المماليك السلطانية ... فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الأمراء على السلطان وأركبوه غصباً وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح وقد جعل الله لكل شيء سبباً حتى ينفذ القضاء والقدر .

فلما خرج السلطان والأمراء من دمشق .... وتوجهوا الى صفد فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة، فلما دخل السلطان الى غزة وجد الأمراء الذين تسحبوا من دمشق هناك فتوجهوا مع السلطان الى مصر. قيل وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطنوا الأمير لاجين الجركسي، فلما تحقق الأمراء من ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصباً وخرجوا به من دمشق)

(١) هذه الفقرة من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

(١) ورد في بعض النسخ : وسلطوا على ضاني المسلمين الكلب الضاري والسبع .

وتوجه منهم رءوس الى القاهرة[1]، تاركاً كل منهم قوته وناصره، وصدّقوا تيمور في نفيه عنهم معرفة السياسة، والدُّربة في سلوك طرائق الرياسة.

(١) يقول ابن تغري بردي عن الخلافات بين أمراء المماليك في دمشق. النجوم الزاهرة (١٢/٢٣٥) (فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة اختفى من أمراء مصر والمماليك السلطانية جماعة، منهم الأمير سودون الطيار، وقاني بك العلائي رأس نوبة، وجُمَق، ومن الخاصكية يشبك العثماني وقمش الحافظي وبَرَسْبُغا الدوادار وطرباي في جماعة أُخر، فوقع الاختلاف عند ذلك بين الأمراء، وعادوا الى ماكانوا عليه من التشاحن في الوظائف والاقطاعات والتحكم في الدولة، وتركوا أمر تيمور كأنه لم يكن، وأخذوا في الكلام فيما بينهم بسبب من اختفى من الأمراء وغيرهم.

هذا وتيمور في غاية الاجتهاد في أخذ دمشق، وفي عمل الحيلة في ذلك. ثم أُعلِم بما الأمراء فيه، فقوي أمره واجتهاده، بعد أن كان عزم على الرحيل، واستعدّ لذلك.

ثم أشيع بدمشق أن الأمراء الذين اختفوا توجهوا جميعاً الى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد البرانية، فعظم ذلك على مدبِّري المملكة لعدم رأيهم، وكان ذلك عندهم أهم من تيمور، واتفقوا فيما بينهم على أخذ السلطان الملك الناصر جريدة (وهي فرقة من الخيالة)، وعوده الى الديار المصرية في الليل، ولم يُعلموا بذلك الا جماعة يسيرة، ولم يكن أمر لاجين يستحق ذلك، بل كان تِمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان أمرهم، (ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا).

فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الأولى ركب الأمراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة، وساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عقبة دُمَّر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع، وجدُّوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا الى مدينة صفد، فاستدعوا نائبها الأمير تَمُرْبغا المنجكي وأخذوه معهم، وتلاحق بهم كثير من أرباب الدولة وأمرائها، وسار الجميع حتى أدركوا الأمراء الذين ساروا الى مصر — عليهم من الله ما يستحقوه — بمدينة غزة، فكلموهم فيما فعلوه، فاعتذروا بعذر غير مقبول في الدنيا والآخرة فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم، وقد تركوا دمشق أُكْلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مُدُن الدنيا وأعمرها.

وأما بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم لما علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا في الحال في إثره طوائف يريدون اللحاق بالسلطان فأخذ غالبهم العشير، وسلبوهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ←

(**فصل**) ولما علم الغابرون، ما فعله السائرون، لم يسعهم غير تشمير الذيل، واتباعهم تحت جنح الليل، ومن تخلف عن قوم، أو أخذته سِنة[1] أو نوم، وقع في الشرك، وهوى به إلى أسفل الدرك، وكان الناس في الليل والنهار، ملازمين الاقامة على الأسوار، وكُلٌّ قد فرح وابتهج، وتيقَّن أنه قد حصل له من سلطانه فرج.

ففي بعض الليالي صعد الناس إلى مكان عالي، واذا بأماكن مخيم السلطان، قد مُلئت من النيران، ولم يعرف أحد ماالخبر، غير أن الدنيا ملئت بالشرّ والشَرَر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، فخشعت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، فجعلوا يتهافتون، وفيما بينهم يتخافتون، وماج الشرّ واضطرب، وقال الناس: السلطان هرب، فانقصم ظهر الناس، وأيقنوا حلول الباس[2]، وتفاقمت الهموم، وتعاظمت الغموم، وتقطعت بهم الأسباب، وشمل الخلائق أنواع العذاب، وضاقت الحيل كالصدور، وتخبّطت الأوامر والأمور.

(**فصل**) ثم إن تيمور حَمِد ربّه، ورحل من مكانه ونزل القبة، وألقى عصاه، ونام مستريحاً على قفاه، ونادى بمعنى ما قلت:

الحمد لله نلنا ما نؤمّله والضِدُّ أدبر والمأمول قد حصلا

وحفر الخنادق حوله، وبثّ في الأطراف رجله[3] وخيله، وأرسل الطلب وراء من

أخبرني غير واحد من أعيان المماليك الظاهرية قالوا: لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال، غير أنه لم يعقنا عن اللحاق به إلا كثرة السلاح الملقى على الأرض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخف ذلك عن خيولهم، فمن كان فرسه ناهضا خرج، وإلا لحقه أصحاب تيمور وأسروه، فمِمَّن أسروه قاضي القضاة صدر الدين المناوي، ومات في الأسر ... وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانية الى القاهرة في أسوأ حال من المشي والعري والجوع ...

وأما الأمراء فإنهم دخلوا الى مصر وليس مع كل أمير سوى مملوك أو مملوكين، وقد تركوا أموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق، فإنهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعَدة لما بلغهم توجه السلطان من دمشق، وأخذ كل واحد منهم ينجو بنفسه ...).

(١) الغفلة. وهو من قول الله تعالى « لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ..» سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٢) البأس: الشدة.

(٣) رجاله.

هرب، وصار كلما أتى بأحد من أجناد الرجال، أمر بإلقائه بين يدي تلك الأفيال، فتفعل معه الأفيال في تلك الفلاة، ما تفعله المواشي يوم القيامة في مانع الزكاة[1]

(**فصل**). فأما السلطان فإنه لم يُصبْه من أحد ضيم لأنه نشز نشوز الغيم وانساب انسياب الأيم، وتوجه على وادي التيم، فانتشرت شياطين تيمور في الأرض، وملأت الطول والعرض، ووصلت طراشتهم إلى أطراف البلاد وضواحيها، وعامّة القرى ونواحيها، وجعلوا من كل حدب ينسلون في مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها.

وتقدّموا الى المدينة، وكانت كما ذكر بالاهبة حصينة، وبأنواع الاستعداد مكينة، مسدولة الحجاب، مغلقة الأبواب. فتمنّع أهلها عليهم، ولم يسلموها اليهم[2]، رجاء أن يشمُّوا من النجدة الأرج، أو يمنّ الله عليهم بعد هذه الشدة بفرج، فاستمروا على ذلك نحواً من يومين، ثم استيقنوا من رجائهم الخيبة ومن ظنّهم المين، فكان قدوم السلطان وذهابه بالعساكر كما قال الشاعر:

كما أبرقت قوماً عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلّت

(١) في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو ذر (... ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أُخراها عادت عليه أُولاها حتى يقض بين الناس) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) يقول ابن تغري بردي عن حالة دمشق بعد ذهاب السلطان فرج مع أمرائه المماليك (النجوم الزاهرة ٢٣٨/١٢) (ولما أصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب غلّقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، فتهيأ أهل دمشق للقتال، وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال، وردّوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رؤوسهم الى المدينة، وصار أمرهم في زيادة، فأعيا تيمور أمرهم، وعلم أن الأمر يطول عليه، فأخذ في مخادعتهم، وعمل الحيلة في أخذ دمشق منهم. وبينما أهل دمشق في أشد ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بُعد: « الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك ».

ذكر خروج الأعيان بعد ذهاب السلطان وطلبهم من تيمور الأمان

ولما خانتهم الظنون، وعلموا أنه حَلّ بهم ريب المنون، اجتمع من المدينة الكبراء والموجود من الأعيان والرؤساء، وهم قاضي القضاة محي الدين محمود بن العز الحنفي، وولده قاضي القضاة شهاب الدين، وقاضي القضاة تقي الدين إبراهيم ابن مفلح الحنبلي[1]، وقاضي القضاة شمس الدين محمد الحنبلي النابلسي[1]، والقاضي ناصر

قلت: هذا الذي كان آشار اليه الوالد عند استقراره بغزة في نيابة دمشق، وقوله: إن أهل دمشق عندهم قوة لدفع تيمور عن دمشق، وأن دمشق بلد كثير الميرة والرزق، وهي في غاية من التحصين، وأنه يتوجه اليها ويقاتل بها تيمور، فلم يسمع له أحد في ذلك، فلعمري لو رأى من لا أعجبه كلام الوالد قتال أهل دمشق الآن وشدة بأسهم وهم بغير نائب ولا مدبر لأمرهم، فكيف ذلك لو كان عندهم متولي أمرهم بمماليكه وأمراء دمشق وعساكرها بمن انضاف اليهم لكان يحق له الندم والاعتراف بالتقصير).

وفي الوقت الذي تتحدث به مصادر الشام ومصر عن أحوال دمشق من داخل الأسوار فإن المصادر الفارسية تتحدث عن الحالة التي كانت سائدة خارج هذه الأسوار، ويفهم من كلام المؤرخ يزدي أن العمليات الحربية لاحتلال دمشق قد بدأت في اليوم الذي غادر فيه السلطان فرج المدينة (الجمعة ٢١ جمادى الأولى = ٨ كانون الثاني ١٤٠١م). وكان سكان المدينة ومن بقي فيها من العساكر لم يعلموا بعد انسحاب السلطان ويظهر من وصف هذا المؤرخ التيموري، أن القوات المغيرة بدأت هجومها على دمشق من المناطق الجبلية القريبة من المدينة (سفوح قاسيون) وكان الهجوم على شكل صف واحد امتد طوله الى ثلاثة أو أربعة فراسخ، وكانت بعض أعداد من الفيلة تتقدم صفوف الجند التي كانت تزحف من سفوح قاسيون باتجاه أسوار المدينة الشمالية، ويظهر أن الهجوم كان سريعاً ومباغتاً، لم ينتبه اليه المدافعون على الفور، ولم يشعروا الا والجند المغيرون قد اقتربوا من الأسوار، لا يفصلهم عنها الا نهر بردى، في الوقت الذي كانت تقف فيه على ضفة النهر المقابلة أعداد كبيرة من قوات المماليك.. واشتبكت هذه القوات مع المغيرين في القتال.. (شهاب ٣٠٤).

(١) يقول ابن العماد في ترجمته في شذرات الذهب (٢٢/٧) (برهان الدين وتقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن مفرج الراميني الأصل ثم الدمشقي الحنبلي الحافظ شيخ الحنابلة، ورئيسهم وقاضي قضاتهم ولد سنة تسع وأربعين وسبعمائة.... ولما وقعت فتنة

الدين محمد بن أبي الطيب كاتب السر، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير، وكان منصب الوزارة إذ ذاك له أبّهة ما في الجملة، والقاضي شهاب الدين الحسباني الشافعي، والقاضي برهان الدين إبراهيم بن القوسه الحنفي نائب الحكم رحمهم الله.

فأما القاضي الشافعي وهو علاء الدين بن أبي البقاء فإنه هرب مع السلطان، وقاضي القضاة المالكي وهو برهان الدين التادلي[1] فإنه استشهد كما ذكر فخرج هؤلاء الأعيان، وطلبوا منه الأمان[2]، بعد ما وقع المشاورة منهم والاتفاق ونظمت كلمتهم في سلك الوفاق.

التتار كان ممن تأخر بدمشق ثم خرج الى تيمور ومعه جماعة ووقع بينه وبين عبد الجبار المعتزلي إمام تيمور مناظرات والزامات بحضرة تمرلنك فأعجبه ومال اليه فتكلم معه في الصلح فأجاب الى ذلك ثم غدر فتألم صاحب الترجمة الى أن توفي في يوم الثلاثاء سابع عشري شعبان (سنة ٨٠٣هـ) خلال النهب العام الذي قام به تيمور في دمشق ويقول ابن طولون في الثغر البسام (ص ٢٢٨) أن ابن مفلح حاول أن يلعب دور ابن تيمية عندما قدم السلطان الأليخاني غازان عام ٧٠٠هـ ـــ ١٣٠٠م.

(١) شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن محمود النابلسي الحنبلي الشيخ الامام العلامة ... ولم يزل يترقى حتى ولي قضاء قضاة الحنابلة بدمشق وعزل وتولى مراراً. ودرّس بعدة مدارس وكان ذا عظمة وبهجة زائدة ... وتوفي بمنزله بالصالحية ليلة السبت ثاني عشر المحرم (سنة ٨٠٥هـ) (شذرات الذهب ٥٢/٧).

(١) برهان الدين أبو سالم ابراهيم بن محمد بن على التادلي ـــ نسبة الى تادلة من جبال البربر بالمغرب ـــ المالكي، قاضي المالكية بدمشق ولد سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة ... وتوفي في جمادى الأولى (سنة ٨٠٣هـ) من جراحات جرحها كما حضر وقعة تيمورلنك (شذرات الذهب ٢٢/٧). وقد ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الشاذلي.

(٢) أعقبت المعارك التي دارت بين القوات المغيرة وسكان دمشق وبعض القوات المملوكية مرحلة المفاوضات. ويتفق ابن قاضي شهبة وابن عربشاه مع المصادر الفارسية في أن طلب المفاوضة جاء من سكان دمشق، وذلك عند فقد الأمل بعودة السلطان فرج، وبعد أن أدرك السكان أن لا طاقة لهم على المقاومة، وعقد كبراء المدينة اجتماعاً تم فيه الاتفاق على خروج السادات والأئمة والعلماء والصلحاء للصلح. ولكن المقريزي في (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٤٦) والعسقلاني (ج ٣ ص ١٣٧) وابن تغري بردي (النجوم الزاهرة

←

.....

٢٣٨/١٢) يصرحون بأن طلب المفاوضات جاء من جانب تيمور يقول ابن تغري بردي (وبينما أهل دمشق في أشد ما يكون من القتال. والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بُعد: الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك) ..

ولما سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور في الصلح، وقع اختيارهم في ارسال قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، فأرخي من سور دمشق إلى الأرض، وتوجه الى تيمور واجتمع به وعاد الى دمشق، وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطّف معه في القول، وترفّق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الأنبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عني وعن أولادي، ولولا حُنُقي على سودون نا ئب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري، وقد كان الغرض في مجيئي الى هنا، ولم يبق لي الآن غرض الا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتي من الطُّقزات.

وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صُلحا يُخرج اليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكولات والمشروب والدواب والملابس والتُحف تسعة، يسمون ذلك طُقزات، والطُّقز باللغة التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار الى يومنا هذا).

ويؤرخ ابن عربشاه ويزدي بدء المفاوضات بعد يومين من انسحاب السلطان وأما ابن قاضي شهبة فيقول: إن المفاوضات قد بدأت صباح يوم الجمعة، وهو اليوم الذي اكتشف فيه سكان المدينة انسحاب السلطان، وكان بعض الناس لا يزالون على الأسوار يقاتلون المغيرين. ولما منع نائب القلعة الذي عارض فكرة التفاوض، الوفد من الخروج من باب النصر المجاور للقلعة، وهو أقرب الأبواب الى القصر الأبلق حيث كان ينزل تيمور وهدد باحراق البلد، فقد تحول الوفد الى الباب الصغير، وأُرخوا من هناك بالحبال، واستقبلهم عند السور أحد قواد تيمور ويدعى شاه ملك.. وكان على رأس الوفد القاضي ابراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي وكان يتقن الحديث باللغة الفارسية (شهاب ٣٠٥).

ويقول ابن أياس حول المفاوضات (بدائع الزهور ٣٣١/١) (وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فإنه خرج من الشام في ليلة الجمعة حادي عشري جمادى الأولى من السنة المذكورة فأصبح الناس في يوم السبت مائجين في بعضهم وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الأسوار وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا على القتال فكان بينهم في أول يوم واقعة عظيمة

←

(**فصل**) ولما أقلع السلطان بفلك عساكره المشحون، وقع في بحر العساكر التيمورية قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون[1]، وكان من أعلام الأعيان، وممن قدم مع السلطان، فلما قتل السلطان وفرك كأنه غافلا فوقع في الشرك، وكان نازلا في المدرسة العادلية[2]، فتوجَّه هؤلاء الأعيان اليه في تدبير هذه القضية، فوافق فكره

فقتل في ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفي انسان فلما كان يوم الأحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلاً من عقلائهم حتي يمشي بينه وبين أهل دمشق في الصلح فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة أشتور أهل دمشق فيمن يرسلوه الى تمرلنك فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي فإنه كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركي وباللسان العجمي. فأرخوه من أعلى السور بسرياق ومعه خمسة أنفس من أعيان دمشق فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تمرلنك تلطف معه في القول وقال: هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقتها لهم وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة إحدى أزواج رسول الله ﷺ، فلما زاره قال: يا أهل الشام مثل هذا القبر يكون بلا قبة أنا إن شاء الله تعالى أبني عليه قبة، وذكر عنه أنه كان في مجلسه كثيراً ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه وأن السبحة لا تزال في يده دائما كما قال ابراهيم المعمار:

قد بلينا بأمير. ظَلَم الناس وسَبَّح فهو كالجزار فيهم، يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم في طاعته فصار أهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح، وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح، ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجمّ الغفير من أهل دمشق فباتوا على ذلك ليلة الاثنين، فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأي ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك).

(١) ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن الحضرمي الأشبيلي المالكي المعروف بابن خلدون قاضي قضاة المالكية بمصر ولد بمدينة تونس في أول شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وذهب الى مصر عام ٧٨٤هـ وولي قضاء المالكية بالقاهرة مرارا.. وكان ممن رافق الجيش المملوكي الى تمرلنك في دمشق واجتمع بتمرلنك وأعجبه كلامه وبلاغته وحسن ترسله. وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات. وتوفي وهو قاضي في القاهرة في رمضان سنة ٨٠٨هـ وله ست وسبعون سنة ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر (شذرات الذهب ٧٦/٧).

(٢) المدرسة العادلية الكبرى وهي بناء أثري مسجل في سجل المباني التاريخية وتقع الى الشمال الغربي من الجامع الأموي بدمشق وينسب بناؤها الى الملك الأيوبي العادل سيف الدين أبو ←

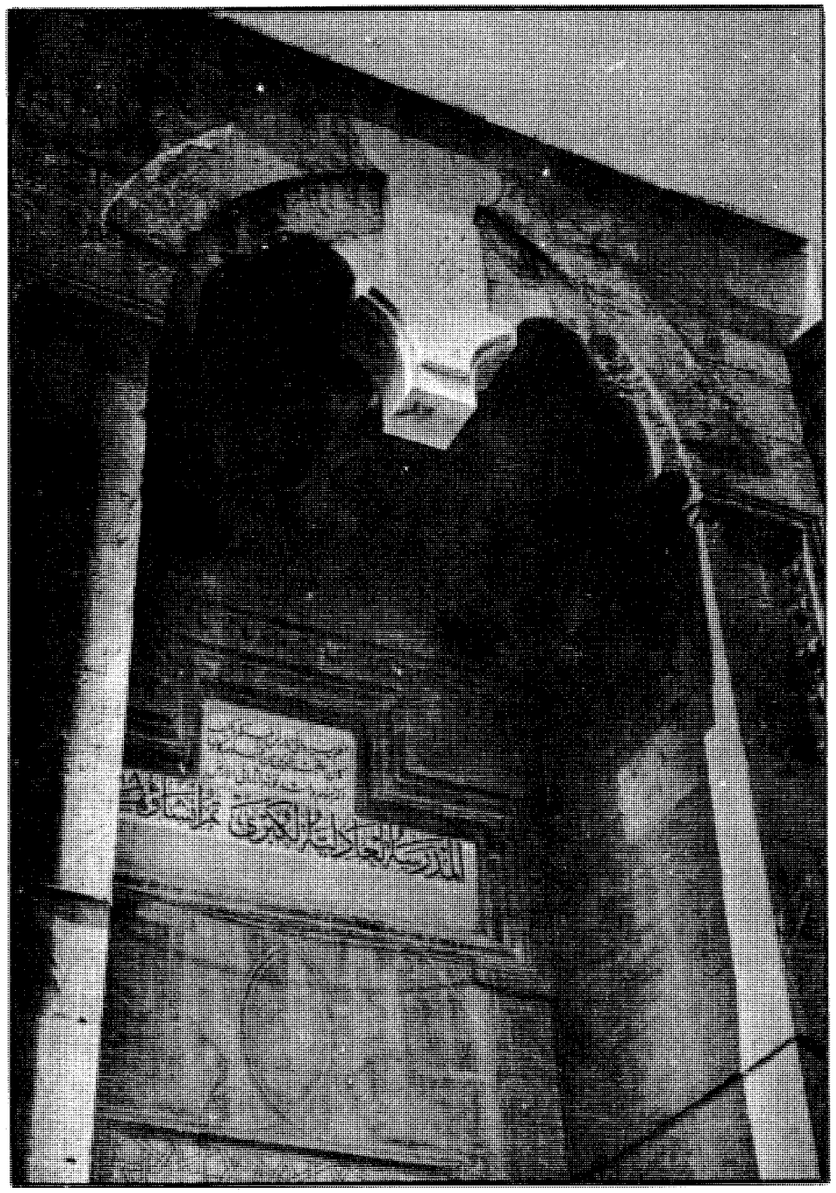

المدرسة العادلية ــ دمشق

فكرهم، فَملَّكوه في ذلك أمرهم، وما وسعهم إلااستصحابه معهم، وكان مالكي المذهب والمنظر، أصمعي الرواية والمخبر، فتوجه معهم بعمامة خفيفة، وهيئة ظريفة، وبرنس كهو رقيق الحاشية، يشبه من دامس الليل الناشئة، فقدّموه بين أيديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم.

وحين دخلوا عليه، وقفوا بين يديه، واستمروا واقفين، وَجلين خائفين، حتى سمح بجلوسهم، وتسكين نفوسهم، ثم هشَّ اليهم، ومنَّ[1] ضاحكاً عليهم، وجعل يراقب أحوالهم، ويسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم.

ولما رأى شكل ابن خلدون لشكلهم مبايناً، قال: هذا الرجل ليس من هاهنا، فانفتح للمقال مجال، فبسط لسانه وسيذكر ما قال، ثم طووا بساط الكلام ونشروا سماط الطعام، فكوّموا تلالا من اللحم السليق، ووضعوا أمام كُلٍ ما به يليق، فبعض تعفَّفَ عن ذلك تَنزُّها، وبعض تشاغل عن الأكل بالحديث وَلَهَا، وبعض مدَّ يده وأكل وما جَبُن في مصاف الالتهام ولا نكل، وإلى الأكل أرشدهم، وناداهم وأنشدهم:

كلوا أكْل من إن عاش أخبر أهله وإن مات يلق الله وهو بطين

وكان من جملة الاكلين، قاضي القضاة ولي الدين[1]، وكل ذلك وتيمور يرمقهم، وعينه الخزراء تسرقهم، وكان ابن خلدون[2] أيضاً يصوب نحو تيمور الحدق، فإذا نظر اليه أطرق، واذا ولّى عنه رمق، ثم نادى وقال بصوت عال.

بكر الذي بدأ بتشييدها عام ٦١٢هـ ـــ ١٢١٥م واتمها من بعده ابنه الملك المعظم ونقل اليها رفاته عام ٦١٩هـ ـــ ١٢٢٢م وكانت مقراً للمجمع العلمي العربي بدمشق الى وقت قريب (روائع العمارة الاسلامية ص ٦٤).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ومرَّ عليهم.

(٢) لقد انقسم الرأي العام في دمشق بين مؤيد ومعارض للخطوة التي أقدم عليها ابن مفلح الحنبلي وصحبه ويقول ابن خلدون الذي كان يقيم في المدرسة العادلية في تلك البرهة إن جدالاً وشجاراً وقعا في الجامع الأموي حيث أنكر بعض الناس ما وقع من الاستنامة لقول تيمور، وأصرّ بعضهم على الاستمرار في المقاومة وقالوا: لا نرجع عن القتال (المقريزي: السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٤٦) (شهاب ٣٠٦).

(٣) ولما خرج الوفد الدمشقي لمقابلة تيمور وجدوا المؤرخ ابن خلدون عند السور ينتظرهم ←

يامولانا الأمير، الحمد لله العلي الكبير، لقد شرفت بحضوري ملوك الأنام، وأحييتُ بتواريخي ما مات لهم من أيام، ورأيت من ملوك الغرب[1] فلاناً وفلانا، وحضرت كذا وكذا سلطاناً، وشهدتُ مشارق الأرض ومغاربها، وخالطتُ في كل بقعة أميرها ونائبها، ولكن لله المنّة إذ امتدّ بي زماني، ومَنَّ الله عليَّ بأن أحياني، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف.

فاهتزّ تيمور عُجباً، وكاد يرقص طربا، وأقبل يوجه الخطاب اليه، وعوّل في ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها، وأيام دولها وآثارها، فقصَّ عليه من ذلك ما خرع عقله وخلبه، وجلب لبّه وسلبه، وكان تيمور في سير الملوك والأمم أمة، وأبا التاريخ شرقاً وغربا وأمة، وسيذكر لهذه المعان. بديع بيان[2].

فصحبهم، وأدلي مع بقية أعضاء الوفد من السور عند الباب الصغير.

وأدخل الوفد الدمشقي على تيمور وكان متكئاً على مرفقه، فرفع رأسه إليهم ـــ كما يتحدث ابن خلدون ـــ ومدَّ يده فقبلها ابن خلدون، وظل أعضاء الوفد وقوفا برهة من الزمن، وقد أخذ منهم الخوف، ثم سمح لهم بالجلوس. وجعل تيمور يجول بناظريه بين وجوههم، وهو يبتسم، يراقب أحوالهم وسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم، ثم مدّت موائد الطعام وكان لحماً مسلوقاً، فأكل بعضهم وامتنع البعض الآخر عن الطعام.

ويبدو من كلام ابن عربشاه أنه لم يكن لابن مفلح رئيس الوفد أي دور بارز في الحديث الذي دار بين تيمور والمفاوضين، كما كان لابن خلدون. وكان أعضاء الوفد بعد المجادلة التي دارت بينهم وبين المؤرخ التونسي عند السور، قد وافقوا على أن يتكلم باسمهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم.

وكان ابن خلدون كما يذكر ابن عربشاه، ممن أكل من الطعام، وكان خلال ذلك يسترق النظر الى تيمور، ثم يعود ليطرق الى الأرض إذا وجد تيمور ينظر اليه. وكان ابن خلدون قد لفت النظر اليه بلباسه الذي كان يختلف عن لباس بقية أعضاء الوفد، فكان يرتدي البرنس المغربي ويضع على رأسه عمامة خفيفة، مما دفع تيمور الى الاعتقاد بأنه رجل غريب عن دمشق، شهاب (٣٠٦).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : العرب.

(٢) يظهر أن ابن خلدون في الجزء الأول من الحديث الذي دار بعد الطعام قد حاول أن يتملق ←

(**فصل**) وبينما هم يوماً قاعدون في حضرة ذلك البصير، وإذا بالقاضي صدر الدين المناوي[1] في أيديهم أسير، وكان قد تبِعَ السلطان في الهرب، فأدركه في ميسلون[2] الطلب، فقبضوا عليه، وأحضروه بين يديه، وإذا هو بعمامة كالبرج، وأردان كالخرج، فتخطّى الرقاب، وجلس من غير إذن فوق الأصحاب، فاستشاط

تيمور عندما قال بصوت عال: إنه قد كَتَبَ كُتُب التاريخ وتحدث فيها عن أخبار الملوك وشاهد كثيرا من الحكام والسلاطين، ولكنه بحمد الله الذي منَّ عليه بطول الحياة، حتى رأى « من هو الملك على الحقيقة ». وأعجب تيمور بإطراء ابن خلدون الذي كان يترجمه له الى الفارسية الفقيه عبد الجبار ابن النعمان، أحد رجال الحاشية الذي كان قد تولى الترجمة سابقا بين تيمور وبين علماء حلب.

وسأل تيمور ابن خلدون عن سبب قدومه الى المشرق، فأجاب من أجل الحج، ثم أخذ تيمور يستعلم منه عن أحوال المغرب وأخبار حكامه ومدنه. وطلب منه في نهاية الحديث أن يكتب له نبذة عن تلك البلاد. (ابن خلدون: التعريف ص ٣٧٠) (شهاب ٣٠٧).

(١) القاضي صدر الدين المناوي قال السخاوي في ترجمته (الضوء اللامع ٢٤٩/٦) (محمد بن ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم بن عبد الرحمن الصدر أبو المعالي الشرف السلمي المناوي نسبة لمنية... ولد في ثامن رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة... وناب في الحكم وهو شاب وولي إفتاء دار العدل والتدريس (في مدارس القاهرة).. وولي القضاء بالديار المصرية... سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فباشره بشهامة واستقامة... فلما سافر الناصر فرج الى البلاد الشامية لقتال الطاغية تيمورلنك في سنة ثلاث وثمانمائة كان ممن برز معه ولم يُحسن المداراة مع عدوه فأهانه وبالغ في ذلك حتى مات وهو معهم في القيد غريقاً في نهر الزاب بالفرات عند قنطرة باشا في شوال منها، وكان بعض التمرية أسروه فلما جازوا به في النهر خاض الأمير هو وأتباعه لأجل ازدحام غيرهم على القنطرة فغرق القاضي لتقصيرهم في حقه بعد أن قاسى أهوالاً...).

ويقول ابن قاضي شهبة في ترجمته إن المناوي قبل أن يأتي مع السلطان فرج من القاهرة الى دمشق كان يلحّ على ضرورة تسليم أتلاميش لتفادي الهجوم على الشام (شهاب ٣٠٧، شذرات الذهب ٣٤/٧ والمنهل الصافي ٨٣/٣).

(٢) ميسلون موقع على طريق دمشق بيروت يبعد عن دمشق حوالي ٣٥ كم. وفي هذا الموقع حدثت عام ١٩٢٠ واقعة بين الجيش السوري وبين الفرنسيين الذين احتلوا دمشق بعد ذلك.

تيمور غضباً وملأ المجلس لهباً وانتفخ سحره، وسجر غيظاً نحره، وشخر ونخر، ومخر بحر حنقه وزخر، وأمر طائفة من المعتدين، بالتنكيل بالقاضي صدر الدين، فسحبوه سحب الكلاب، ومزّقوا ما عليه من ثياب، وأوسعوه سبّاً وشتماً، وأشبعوه ركلا ولكماً، ثم أمرهم بتشديد أسره، وتجديد كسره، وترادف الاساءة اليه[1]، وتضاعف الكسرات على رغم التصريفين عليه، فأخرج إخراج الظالم، يوم يولى مدبرا ماله من الله من عاصم

ثم تراجع تيمور إلى ما كان فيه، من ترتيب غوائله ودواهيه، فألبسَ كُلا من هؤلاء الأعيان خلعة، وأقامه عنده في عزة ورفعة، ثم ردّهم منشرحي الصدور، في دعة وسرور، وفي خاطره شرور وأمور تمور، فساروا وقد صاروا[2] قلت:

كالهدى زَيَّنه المهدى وعظمه ... وعن قريب لِضَيْف الموت أطعمه

وشرط لهم ولذويهم الأمان[3]، على أن يدفعوا اليه أموال السلطان، وماله وللأمراء

(١) أُدخل خلال الاجتماع على تيمور أحد القضاة الأسرى وهو القاضي صدر الدين المناوي، وكان ممن فروا من دمشق في إثر انسحاب السلطان المملوكي فرج بن برقوق. ولكن التتر تمكنوا من أسره عند ميسلون، وقد أُدخل على تيمور وهو مصفّد بالحديد، ولكنه تخطّى الناس دون أن يؤذن له، مما أغضب تيمور فأمر به فضرب وسحب من ثيابه فتمزّقت ثم أخرج، وربما قصد تيمور من إدخال القاضي الأسير ومعاملته بهذه الطريقة الخشنة، التأثير في نفوس أعضاء الوفد. (شهاب ٣٠٧).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: حاروا.

(٣) يقول ابن تغري بردي عن أحوال دمشق والمفاوضات (فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال ويُثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيما، ويكف أهل دمشق عن قتاله، فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبوا إلا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من خالفه، وعزم على اتمام الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قُتل وهُدر دَمه، فكف الناس عن القتال.

وفي الحال قدم رسول تيمور الى مدينة دمشق في طلب الطُقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار، حمل ذلك كلّ أحد بحسب حاله، فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به الى باب النصر ليخرجوا به الى تيمور،

من أثقال، وتعلقات وأموال، ودواب ومواش، ومماليك وحواش، ففعلوا ما به أمر[1]، ورفعوا اليه ما بطن من ذلك وما ظهر.

فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا الى قوله، وقالوا له: أنت تحكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضا ومعه الكثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا الى مخيم تيمور، وباتوا ليلة الأحد، وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف: ما بين قاضي القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصة، فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني أمية بدمشق، وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أمير من أمراء تيمور، جلَس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر اليها من عساكر تيمور، فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجّه معه من أعيان دمشق الثناء على تيمور وبثّ محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته ومولاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرر لتيمور عليهم، وهوألف دينار، وفرض ذلك على الناس كلّهم، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم ...).

ويقول ابن إياس (بدائع الزهور ٣٣٢/١) حول شروط الاتفاق وعن الوفد الذي كان عند تيمور (فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم منال من عند تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لأهل دمشق فقرىء ذلك المرسوم على أهل دمشق في جامع بني أمية ففرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما في القلوب إلا الله وقد قيل في المعنى:

لقد ضرني من كنتُ أرجو به نفعاً ... وقد ساءني أفعاله خلتها أفعى
إذا ما بدا لي ضاحكا زدت خيفة ... ومن ضحكة الأفعى فلا تأمن اللسعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على الباب وأظهر أنه يحفظ المدينة من أذى عسكرهم. ثم إن تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه أن يجبى له من أهل دمشق ألف ألف دينار. فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع في استخراج ذلك من أهل دمشق...).

(١) وكانت شروط تيمور أن يُحمل اليه كل ما تركه السلطان المملوكي وأمراؤه، قبل انسحابهم من دمشق، من أموال ومماليك ودواب، وكان لابن خلدون دور كبير في اقناع بقية أعضاء الوفد الدمشقي للتسليم بهذه الشروط (عبد الله عنان: ابن خلدون ص ٨٢).

فأما القلعة[1] فإنها استعدت للحصار، وكان نائبها يدعى أزدار، فحصّنها، وبالأهبة الكاملة مكّنها، وانتظر من السلطان نجدة، أو مانعاً ربانياً يفرّج عنه الشدة، فلم يلتفت تيمور في أول الأمر اليها، ولا احتفل بها ولا عرج عليها، بل صرف همّه إلى تحصيل الأموال، وتوسيق الأحمال بالأثقال.

فلما حصل الثقل[2]، وإلى خزائنه انتقل، طرح على المدينة أموال الأمان، واستعان على استخلاصها بهؤلاء الأعيان، وأقام عليهم دواوينه وكتبته، وأهل الضبط والحرص من مباشريه وحسبته، وفوض ذلك إلى كفاية الله داد، أحد أركان دولته ومَنْ عليه الاعتماد، وهو أخو سيف الدين المار ذكره في أول الكتاب لأمه، وأقام معهم كل

وقد أورد ابن قاضي شهبة نص الأمان الذي منحه تيمور لسكان دمشق وكان يقع في تسعة أسطر، جاء فيه قول تيمور: « يعلموا السكان بدمشق « كذا » إن الله تعالى بفضله العميم ملكنا بلاد الشام، لما يعلم في قلوبنا من الرحمة للرعية، فيعلم الأشراف والمشايخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم » ويتابع ابن قاضي شهبة الحديث عن هذا الأمان، معلقا عليه بقوله: « ونحو ذلك من الكلام ».

وقد تمكن تيمور من دخول دمشق بطريقة الاحتيال وأصدر تيمور إثر ذلك أمرا بتعيين شاه ملك حاكماً عسكرياً على دمشق، وعيَّن بعض أعضاء الوفد الدمشقي المفاوض في عدد من الوظائف بدمشق كالقضاء والحجابة والدواوين واستخراج الأموال، وأمضى أعضاء الوفد بقية يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى = ٩ كانون الثاني ١٤٠١م في ضيافة تيمور في القصر الأبلق وناموا عنده ليلة الأحد وعادوا إلى دمشق في ضحى يوم الأحد وهم يرتدون الخلع التي أنعم بها عليهم تيمور، وردهم منشرحي الصدور وعلى أحسن الآمال لما توصلوا اليه من الاتفاق. (شهاب ٣٠٨).

(١) قلعة دمشق: تقع في الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة، شيدت في العهد السلجوقي وحين تولى السلطنة في العهد الأيوبي الملك العادل أخي صلاح الدين أعاد بناء القلعة من جديد بين سنتي ٦٠٣ ــ ٦١٣هـ = ١٢٠٦ ــ ١٢١٦م وأصبحت مدينة ملكية وعسكرية وكان فيها مكاتب الادارة ومعمل للاسلحة، وبيت للمال، وأسواق وحمامات... فهي مدينة تستطيع أن تكفي نفسها... ونظراً لأهمية قلعة دمشق فقد جعل سلاطنة المماليك حاكماً خاصاً بها يرتبط مباشرة بالسلطان (من روائع العمارة العربية الاسلامية ص ١٣٤).

(٢) الثقل: بفتحتين: متاع المسافر وحشمه.

جبار عنيد ومن نشأ في حِجر الفظاظة ورضع ثدي ظلمه، ونادى بالأمان والاطمئنان، وأن لا يَبْغي إنسان على إنسان، فمدَّ بعض الجغتاي يده الى غارة، بعد ما سمعوا هذا النداء واستشهاره.

فبلغ ذلك تيمور، فأمر بصلبهم في مكان مشهور، فصلبوهم في الحريريين، براس سوق البزوريين[1]، ففرح الناس بهذه الفعلة، وأمِلُوا خيره وعدله، وفتحوا من أبواب المدينة باب الصغير، وشرعوا يُحرّرون أمر المدينة على النقير والقطمير، فوزعوا هذه الأموال على الحارات، وتنادى أهل الظلم والعدوان من القريب والغريب يا للثارات، وجعلوا دار الذهب[2] مكان المُستَخلَص، وطفقوا يلقون الناس في ذلك المقنص، وتسلَّط بعض الناس على البعض، واصطاد أرانب الأرض بكلاب الأرض، وكان فصل الخريف كجيش مصر قد فتل، وفصل الشتاء بزمهريره كجند تيمور بنيرانه على العالم قد نزل، فانتقل إلى القصر الأبلق[3]، ثم الى بيت الأمير بتخاص[4] وأمر بالقصر أن يهدم ويحرق.

(١) سوق البزوريين: وهو سوق البزورية وكان يسمى أيضاً سوق القمح. ويقع إلى الجنوب من الجامع الأموي.

(٢) دار الذهب: يقول ابن كثير (في ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وسبعمائة) توجه نائب الشام سيف الدين تنكز الى الديار المصرية... واشترى في هذه السفرة دار الفلوس التي بالقرب من البزوريين والجوزية، وهي شرقيها، وقد كان سوق البزورية اليوم يسمى سوق القمح، فاشترى هذه الدار وعمَّرها داراً هائلة ليس بدمشق دار أحسن منها، وسمَّاها دار الذهب. البداية والنهاية ١٣٣/١٤.

وحين تولى أسعد باشا العظم على دمشق قام ببناء قصره سنة ١١٦٣هـ = ١٧٥٠م على أنقاض قصر مملوكي يعرف باسم دار الذهب. فموقع دار الذهب هو قصر العظم في البزورية (صلاح المنجد: قصر العظم ص ١٠).

(٣) كان مكان التكية السليمانية بدمشق شرقي مبنى المتحف الوطني قصر إمارة من زمن الفاطميين ثم جدده السلطان المملوكي الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٧٦هـ = ١٣٧٧م فدعي بالقصر الأبلق وقد هدمه تيمورلنك، وبقي مهدوما الى زمن السلطان العثماني سليمان القانوني فأنشئت التكية الموجودة الآن، وانتهى بناؤها عام ٩٦٧هـ = ١٥٥٩م، وهي حالياً مقر المتحف الحربي بدمشق.

(٤) بيت بتخاص: كان يقع في سوق ساروجة وينسب الى الأمير الكبير بتخاص السودوني

ودخل إلى المدينة من باب الصغير في جمع كثير، وصلَّى الجمعة في جامع بني أمية[1]، وقدّم الحنفية على الشافعية، وخطب به قاضي القضاة محي الدين محمود ابن العز الحنفي المذكور، وجرى ما يطول شرحه من أمور وشرور.

ووقع بين عبد الجبار بن النعمان الخوارزمي المعتزلي، وبين علماء الشام لا سيما قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلي، مناظرات ومناقشات، ومباحثات ومراجعات، وهو في ذلك كترجمانه، يخاطبهم في جميع ذلك بلسانه، فمنها علي ومعاوية[2]، وما مضى بينهم في تلك القرون الخالية، ومنها أمور يزيد[3] وما يزيد، وقتله الحسين[4] السعيد الشهيد، وإن ذلك ظلم وفسق بلا نكر، ومن استحلّه فهو واقع في الكفر، ولا شك أن ذلك الفعل الحرام، كان بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليه فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليه فهم عصاة وبغاة وأشرار، وأنَّ الحاضرين على مذهب[5] الغابرين.

فحصل منهم في ذلك أنواع الأجوبة، فمنها ما ردّه، ومنها ما أعجبه، إلى أن أجاب كاتب السرّ وأجاد، وأصاب فيما قال لو أفاد، أطال الله الكبير، بقاء مولانا الأمير، أما أنا فَنَسَبِي متصل بعمر وعثمان[6]، وأن جدّي الأعلى كان من أعيان ذلك

وبيته كان بجوار التربة التي تنسب اليه حاليا وهي بناء أثري مسجل في سجل المباني التاريخية وتشتهر حالياً باسم جامع بلبان، وكان يقوم الى جانب الأمير بتخاص حديقة تدعى جنينة ابن العنبري ولذلك من المقبول به أن تيمور قد انتقى هذا المنزل للنزول فيه بسبب كثرة أشجاره (شهاب ٣١١).

(١) الجامع الأموي بدمشق: يقع في قلب مدينة دمشق القديمة ويعد من أهم المنشآت المعمارية الهامة في الحضارة الاسلامية. وقد بدأ بناؤه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام ٨٦هـ = ٧٠٥م. وقد وضعت على نسقه هندسة الجوامع الكبرى في العالم.

(٢) الخلاف الذي يذكره المؤرخون بين الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب ووالي الشام معاوية بن أبي سفيان الذي أصبح عام ٤١ هـ أول خليفة أموي بدمشق.

(٣) الخليفة الأموي يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤هـ.

(٤) الامام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قُتل في واقعة كربلاء الشهيرة على يد جنود الخليفة الأموي يزيد.

(٥) فهو يُحمّل أهل دمشق الذين كانوا في عهد تيمور إثم مقتل الحسين.

(٦) الصحابيان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما.

الباب الصغير ــ دمشق

الزمان، وحضر تلك الوقائع، وخاض هاتيك المعامع، وكان من رجال الحق وأبطال الصدق ومما تواتر من فعله، ووضع الشيء في محله، أنه توصَّل إلى رأس سيدنا الحسين[١]، ونزّهه عما حصل له من ابتذال وشين، ثم نظفه وغسله، وعظَّمه وقبّله، وطيّبه وبجّله، وواراه في تربة، وعدّ ذلك عند الله تعالى من أفضل قربة، فلذلك أيها الغام الصيب. كنوه بأبي الطيب، وعلى كل تقدير، يا مولانا الأمير، فتلك أمة قد خلت، وهموم وغمام غيومها انجلت، وبما جرعت انقضت، وبما أذاقت مرت اوحَلَتْ[٢]، وفتن أراحنا الله إذ أزاحنا عنها، ودماء طهَّر الله سيوفنا منها، وأما الساعة[٣]، فاعتقادنا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

فلما سمع هذا الكلام قال يا للّه العجب! وما سميتم بأولاد أبي الطيب إلا لهذا السبب، قال: نعم، ويشهد لي بذلك القاصي والداني، وأنا محمد بن عمر بن محمد بن أبي القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن أبي الطيب العمري العثماني.

فقال له: المعذرة يا طاهر[٤] الأسلاف، لولا أني ظاهر العذر لحملتك على عاتقي والأكتاف، ولكن سترى ما أفعله معك ومع أصحابك من التكريم والألطاف، ثم إنه ودّعهم، وبالتعظيم والاحترام شيّعهم.

ومنها أنه سألهم كناية، سؤال اضرار ونكاية، فقال: ما أعلى الرتب، درجة العلم أو درجة النسب؟

(١) مسجد الرأس: يقع في منطقة العمارة داخل باب الفراديس من الجنوب وهو مسجد قديم وصغير يقال أن رأس الحسين بن علي مدفون فيه، وقد دفن فيه الملك الكامل بن الغازي ابن العادل الأيوبي سنة ٦٥٨هـ = ١٢٥٩م ونظم المؤرخ أبو شامة صاحب كتاب الروضتين شعراً:

لم يشنه أن طيف بالرأس منه ... فلـــه أسوة برأس الحسين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الر ... أس فاستعجبوا من الحالتين

أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٥ ويقول مؤرخ الشام الشيخ محمد أحمد دهمان: مشهد الرأس داخل باب الفراديس [في حي العمارة] ويدعى أيضاً مشهد الحسين وهو المعروف في عصرنا مقام السيدة رقية. حاشية ١ على إعلام الورى ص ٦٤.

(٢) المرّ والحلو.

(٣) الساعة: من قوله سبحانه وتعالى (يسألونك عن الساعة أيّان مرسيها) سورة النازعات.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يا طب.

فأدركوا قصده وفهموا، ولكن عن ردّ الجواب وجموا، وعَلِمَ كل منهم أنه قد أبتلي، فابتدر الجواب القاضي شمس الدين النابلسي الحنبلي، وقال: درجة العلم أعلى من درجة النَّسب، ومرتبتها عند الخالق والمخلوق أسنى الرتب، والهجين الفاضل يقدَّم على الهجان الجاهل، والمقرف المنيف، أولى للاقامة من النسيب الشريف، والدليل في هذا جلي، وهو اجماع الصحابة في تقديم أبي بكر على علي[1]، وقد أجمعوا أن أبا بكر أعلمهم، وأثبتهم قدماً في الاسلام وأقدمهم، وإثبات هذه الدلالة، من قول صاحب الرسالة[2]: لا تجتمع أمتي على ضلالة.

ثم أخذ في نزع ثيابه، مصيخاً لتيمور وما يصدر من جوابه، ففكك أزراره، وقال لنفسه: إنما أنت عاره، وكأس الموت لا بدّ من شربها، فسواء مابين بعدها وقربها، والموت على الشهادة، من أفضل العبادة، وأحسن أحوالها لمن اعتقد أنه الى الله صائر، كلمة حق عند سلطان جائر[3]، فسأل ما يفعل، هذا المهمل، فقال: يا مولانا الجليل، إن فرق عساكرك كأمم بني إسرائيل[4]، وفيهم من ابتدعوا بدعا وتقطعوا في مذاهبهم قطعاً، وفرقوا دينهم وكانوا شيعا، ولا شك أن مَجالِس حضرتك تُنقل، وعقائل مباحثها تحل الصدور فتُعْقَل، وإذا ثبت هذا الكلام عني، ووعاه أحد غير سنّي[5]، خصوصاً من ادّعى موالاة علي[6]، وتَسمَّى في رفضه أبا بكر بالرافضي، وتحقق مني يقيني، وأنه لا ناصر لي يقيني، فإنه يقتلني جهارا، ويريق دمي نهارا، وإذا كان كذلك فأنا استعدّ لهذه السعادة، وأختم أحكام القضاء

(١) صاحب النبي وخليفته أبو بكر الصديق، وابن عمه الخليفة الراشد الرابع الامام علي بن أبي طالب.

(٢) صاحب الرسالة: النبي محمد ﷺ.

(٣) من حديث النبي ﷺ: « أفضل الجهاد كلمة حقٍ عند سلطان جائر ». كنز العمال رقم ٥٥١١.

(٤) من حديث النبي ﷺ: « إفترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة وتزيد أمتي عليها فرقة ليس فيها فرقة أضرّ على أمتي من قوم يقيسون الدين برأيهم، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله » كنز العمال رقم ١٠٥٢.

(٥) سنّي: من أهل السنة والجماعة.

(٦) موالاة علي: الذين يدّعون نصرة الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بالشهادة، فقال: لله هذا! ما أفصحه! وأجراه في الكلام وأوقحه، ثم نظر الى القوم، وقال لا تدخلنّ هذا علي بعد اليوم.

(فصل). وهذا الرجل أعني عبد الجبار كان عالم تيمور وإمامه، وممن يخوض في دماء المسلمين أمامه، وكان عالماً فاضلا، فقيهاً كاملا، بحَّاثاً محققاً، أصولياً جدلياً مدققاً، وأبوه النعمان في سمرقند كان، وهو في الفروع من أعلم أهل الزمان، حتى كان يقال له النعمان الثان، وكان من القائلين بعدم الرؤية في الأخرى[1]، فأعمى الله تعالى بصره كبصيرته في الدنيا، وأكثر علماء عصره بما وراء النهر قرأ عليه الفروع، ونقل عنه مسائل المشروع، ولا خلاف في الفروع بين أهل السنة وأهل الاعتزال، وإنما اختلافهم في أصول الدين في مسائل معدودة سلكوا فيها سبيل الضلال.

(فصل). وتصدّى لاستخلاص الأموال من أهل الشام، كل غشوم ظَلَّام، وكفور صدّام، ومَنْ كان في قِلَّة وَفَاقَة، كصدقة بن الجابي وابن المحدّث وعبد الملك ابن التكريتي المنبوذ بسماقة، وغيرهم من نظرائهم، من عواقب الظلم وأبنائهم، مع حضور أكابر المدينة وأعيانها، المار ذكرهم ورؤساء قطانها، فإنه لم يمكّنهم في ذلك أن يتخلفوا، ولا يتقاعسوا لحظة ولا يتوقفوا، وبحضور دواوينه وَحُسَّابه، وضابطي أمور خزائنه وَكُتَّابه، ومنهم خواجه مسعود السمناني، ومولانا عمر وتاج الدين السلماني، كل ذلك في دار الذهب[2] وهو مكان مشهور، ونزل الله داد[3] داخل باب الصغير، في دار ابن مشكور، وجعل كل من في قبيلته من أحد ضغينة، أو سخيمة دفينة، أوغلّ أو حسد أو حقد أو نكد يغمز على إخوته أولئك الظلمة الفظاظ، والزبانية الشداد الغلاظ وجعلوا:

(١) رؤية الله عزّ وجل في الآخرة. تراجع سورة القيامة الآية ٢٢ « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ».

(٢) في مكان قصر العظم في البزورية تراجع الصفحات السابقة.

(٣) وقد أقيمت الى جوار الباب الصغير أحد أبواب دمشق نقطة حراسة للمحافظة على الباب، كما بدأت أعمال الدوريات الجديدة للاشراف على جمع الأموال المفروضة، وحاولت الادارة الجديدة أن تتألف قلوب الأهالي، فتلي نص الأمان على الناس في الجامع الأموي. ولما اعتدى بعض الجند من أتباع تيمور على الناس، أمر القائد التيموري « الله داد »

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

بل بأدنى اشارة، وأقل عبارة، يبنون على أرض وجود ذلك المسكين من جبال النكال قصور شواهق، وينشئون على حدائق ذاته من سماء العذاب سحاب عقاب ترعد عليه صواعق، وتبرق له من الدمار والبوار بوارق.

(**فصل**) ثم إنه صار في هذه المدة، يحاصر القلعة ويُعدّ لها ما استطاع من عدّة[1]، وأمر أن يُبنى مقابلها بناء يعلوها، ليصعدوا عليه فيهدّوها، فجمعوا الأخشاب والأحطاب وعَبُّوها وصبّوا فوقها الأحجار والتراب ودكّوها، وذلك من جهة الشمال والغرب، ثم عَلَوا عليه وناوشوها الطعن والضرب، وفوّض أمر الحصار لأمير من أمرائه الكبار، يدعى جهان شاه، فتكفّل بذلك وعاناه، ونصب عليها المجانيق، ونقب تحتها وعلقها بالتعاليق، وكان فيها من المقاتلة، فئة غير طائلة، أمثلهم شهاب الدين الزردكاش الدمشقي، وشهاب الدين أحمد الزردكاش الحلبي، فأبليا في إهلاك عسكره بلاء حسنا، وكانا على جيشه كلما فاء إلى فنائهم وباء مصيبة وفنا، فأهلكا من جيشه بالاحراق، وارعاد المدافع والابراق، ما فات العدّ، وتبدّد عن دائرة الحدّ

(عطاء الله) الذي أسندت اليه مهمة الاشراف على جمع الأموال، بصلبهم في سوق البزورية، ويقول ابن قاضي شهبة إن عمليات شنق أتباع تيمور أو صلبهم بحجة الاعتداء على الأهالي، تكررت في مناطق أخرى من المدينة. وكانت أحياناً عمليات صورية غير حقيقية، واستطاعت الادارة الجديدة أن تجد لها من خلال اختلاف سكان دمشق، مجالاً لزيادة تدخلها في شؤون المدينة، فقد أخذ بعضهم يشكو البعض الآخر الى الحكام الجدد

(١) بدأت عمليات حصار قلعة دمشق لأن نائبها ويدعى « ازدار » رفض الموافقة على ما تم عليه الاتفاق بين الوفد الدمشقي وتيمور وأدى تيمور صلاة الجمعة في الجامع الأموي.
يقول ابن تغري بردي عن حصار القلعة وأحوال المدينة (النجوم الزاهرة ٢٤١/١٢)
(فلما كمل المال « من أهالي دمشق » حمله ابن مفلح الى تيمور ووضعه بين يديه، فلما عاينه غضب غضباً شديداً، لم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأُخرجوا من وجهه، ووكّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، إلا أن سعر الذهب عندهم يختلف، وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار، فالتزموا بها، وعادوا الى البلد، وفرضوها ثانياً على الناس كلها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حرّ ←

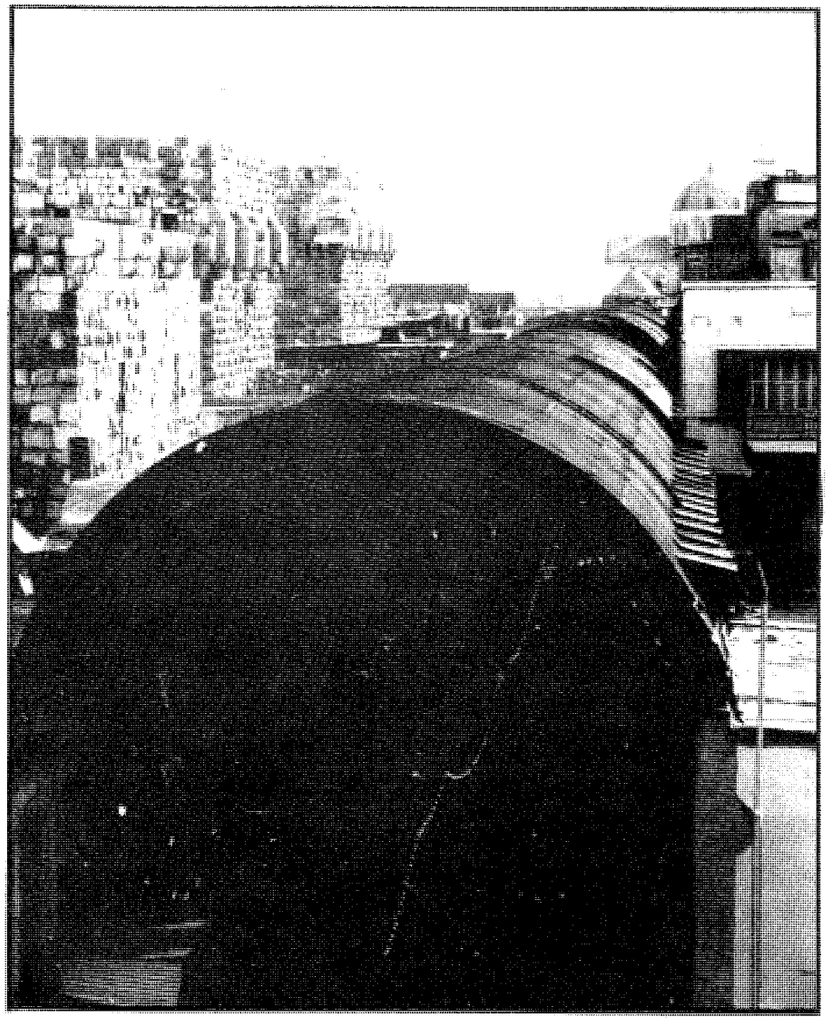

قلعة دمشق وسوق الحميدية والجامع الأموي

وعبد بعشرة دراهم، وألزم مباشرة كل وقف « من سائر الاوقاف » بحمل مال له جرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً ـــ بلاءٌ عظيم، وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الأسعار، وعزَّ وجود الأقوات، وبلغ المدّ من القمح ـــ وهو أربعة أقداح ـــ إلى أربعين درهماً فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جُمعة إلا مرتين حتى دُعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود « أو سيورغاتمش خان » ولولي عهده ابن الأمير تيمورلنك، وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلا من يكون من ذرية الملوك.

ثم قدم شاملك أحد أمراء تيمور الى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور. ثم بعد جمعتين مُنعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق، كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشدّ حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يوماً، وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر، يكفيك أن الترية من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نِفْطا فأحرقوها عن آخرها، فأنشئوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة الا نفر يسير دون الأربعين نفرا، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجدة، وطلبوا الأمان، وسلّموها بالأمان.

قلت: لا شُلّت يداهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى).

ويقول ابن أياس حول هذه الحوادث (بدائع الزهور ١/٣٣٢) (ثم إن تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يُجبى له من أهل دمشق الف الف دينار فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع في استخراج ذلك من أهل دمشق، فلما كملت تلك الأموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق الف الف تومان، والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف دينار، فرجع ابن مفلح من عند تمرلنك بخفي حنين، فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها النار واستخرج من أهلها الأموال بالضرب والعصارات فأخذ على رأس كل إنسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية، وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر، فعند ذلك تزايدت البلايا، وعظمت الرزايا في استخراج الأموال من الناس، وفي مدة هذه المحاصرة عزّت الأقوات بدمشق حتى بيع كل مدّ من القمح بأربعين درهماً شامية، ومن هذه المدة تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق. ونزل في جامع بني أمية أمير من أمراء تمرلنك

يقال هل شاه ملك، فدخل بحرمه في الجامع وأغلق بابه، وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوايك، وصاروا يشربون الخمور في الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب، وفي هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق وتعطل الأذان والبيع والشراء وتعطلت الأسواق، وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة في كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المدينة، وصاروا يحاصرون القلعة أشد المحاصرة، فلما رأى نائب القلعة عين الغلب سَلّم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً، فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صامت وناطق، واستولوا على المدينة بأسرها.

ثم إن ابن مفلح جمع الأموال ثانيا وأحضرها بين يدي تمرلنك فقال لابن مفلح هذا بحسابنا ثلاثة آلاف دينار وبقي عليكم سبعة آلاف دينار، وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الأول وهو ألف ألف دينار، فقرر مع ابن مفلح أن هذا القدر يكون خارجاً عما تركه العسكر والأمراء لما رحل السلطان من دمشق من برك وقماش وسلاح ودواب وغير ذلك.

فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادي بأن ينادي في دمشق بأن كل من كان عنده ودائع للأمراء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدي تمرلنك. فقال لابن المفلح قد بقي عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد، فجمع له ذلك وأحضروه بين يديه، فقال لابن المفلح قد بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في البلد من فرس وبغل وجمل وحمار فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة في البلد فكان عدتها اثنى عشر الف دابة، فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح اجمع لنا ما في البلد من سلاح من جليلها لحقيرها. فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له: بقي عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطط، فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره اليه، فلما قدمت اليه القوائم، وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح قد بقي تكملة ماتقرر عليه الحال من تفريدة المال الذي وقع عليه القرار وهو سبعة آلاف الف دينار، فقال له ابن مفلح لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار فحنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحابه وأودعهم في الحديد وآخر الطبّ الكيّ، فكان كما قيل في المعنى:

إن الملوك ظروف الصبر داخلها ... وفوق أفواهها شيء من العسل
تحلو لذائقها حتى إذا انكشفت ... له تبين ما تحويه من دغل

ولكنه لما أحاط بها من بحار بحريَّته[1] سيل عرم سائلها، وأمطر عليها من سهام غمام رماته وصواعق بوارق كماته صيّب وابلها، أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيمانها وعن شمائلها، وكَلَّت عن المجاذبة والمنابذة أيدي مقاتلتها.

فطلبوا الأمان[2]، ونزلوا اليه من غير توان، وكل هذا الأمر المهول والقضاء العجب، في أواخر شهر ربيع الآخر وجمادين وشهر رجب، لكن ما نال من القلعة

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : تخريبه .

(٥) يذكر ابن قاضي شهبة أن الحصار الفعلي لقلعة دمشق بدأ منذ السادس من جمادى الثانية بعد أن أتيح للقيادة العسكرية للقوات التيمورية، أن تدخل أعداداً من قواتها الى المدينة بالتدريج، وكان هدفها من ذلك عدم إثارة مخاوف الأهالي، وقد لاحظ ابن قاضي شهبة أن العساكر الخراسانية قد كثر ترددهم على المدينة منذ مطلع جمادى الثانية = ١٨ كانون الثاني ١٤٠١م بحجة شراء ما يحتاجون اليه، ثم لم يلبث عدد العساكر أن ازداد زيادة كبيرة بعد أسبوع حتى امتلأت بهم المدينة ثم حاصروا القلعة، واستطاعت القوات المغيرة أن تصل مساء اليوم الذي بدأ فيه الحصار الفعلي، حتى حدود الخندق المحيط بها، على الرغم من كثرة الرمي عليها من الأسوار، وعلى الرغم من كثرة الخسائر في الأرواح التي تكبدتها خلال عمليات الهجوم، وكان إذا سقط الجندي المتقدم من الشقطية (الجغتاي كما دعاهم ابن قاضي شهبة)، فإن الذي يليه يدوس عليه ويتخطاه ويتقدم.

ويشير ابن خلدون أنه في إحدى زياراته لتيمور في مكان اقامته في تربة منجك قد شاهد اجتماعا عقده الفاتح التركي مع أركان حربه ،ومع عرفاء البنيان والمهندسين، تدارسوا فيه طريقة قطع الماء عن القلعة المحاصرة، واستدعى تيمور اليه العلماء وسألهم عن حقيقة وجود ممر تحت الأرض يؤدي الى القلعة، ولما نفى هؤلاء علمهم هددهم باجتياح المدينة وتخريبها، محتجاً بعدم استطاعته كبح جماح قواته وأمهلهم مدة ثلاثة أيام كي يقدموا معلومات عن ذلك الممر، أو تستسلم القلعة.

ودفعت تهديدات تيمور العلماء للسعي لثني نائب القلعة عن موقفه. فأرسلوا اليه اثنين منهم رُفِعا بالحبال من باب القلعة في داخل المدينة، ولكن نائب القلعة « ازدار » رفض عرض الاستسلام. واعتقل أحد المبعوثين ثم أطلق سراحه بعد أن ضربه.

وأقامت القوات الغازية برجين من الحجارة والخشب في الجهتين الشمالية والغربية من القلعة، (أي في خارج أسوار مدينة دمشق)، وكانا أعلى من أسوار القلعة، وأخذوا يقذفون عليها حجارة المجانيق وقوارير النفط، واستخدموا لذلك ستين منجنيقا، ولكن المدافعين تمكنوا من احراق البرجين، مما أدى الى إهلاك عدد كبير من المغيرين بالحريق، ←

رَوْماً[1]، إلا بعد محاصرتها ثلاثة وأربعين يوماً، وصار في هذه المدة يتطلب الأفاضل، وأصحاب الحرف والصنائع وأرباب الفضائل، ونسج الحريريون له قباء بالحرير والذهب، ليس له دَرز فإذا هو شيء عجب، وبنى في مقابر باب الصغير قبتين متلاصقتين على تربة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم[2]، وأمر بجمع العبيد الزنج واعتنى بجمعهم أكثر من غيرهم وقدّم.

وصمدت القوات المغيرة رغم ما تكبدته من خسائر. واستمرت على القذف من تحت القلعة الى أن جعلت من المستحيل على المدافعين البقاء على الأسوار للاستمرار في عمليات الدفاع، وبعد أن تهدمت بعض الأبراج نتيجة كثافة قذف القوات المغيرة، عند ذلك أضحى باستطاعة هذه القوات أن تجتاز الخندق وأن تبدأ بنقب الأسوار.

واستدعى تيمور اليه العلماء للمرة الثانية، وسألهم عما فعلوه في البحث عن الممر السري الى القلعة، فأعلموه بما وقع لهم مع نائب القلعة، وأبلغوه رفضه للاستسلام وإصراره على المقاومة، وجرَّب تيمور الهجوم على القلعة من ناحية باب الجابية. وأجبر سكان المناطق المجاورة للباب على مغادرة منازلهم، واضطر المدافعون أخيراً أمام شدة هجوم الغزاة، وبسبب قلة عددهم الى الاستسلام وطلب الامان.

وأرسل نائب القلعة المفاتيح الى تيمور، ووضع يده على ما وجد في القلعة من أموال وذخائر قيل أنها كانت مكدسة منذ قرون، بالاضافة الى كميات كبيرة من الغلال كانت قد جمعت من أموال أوقاف الحرمين المكي والمدني، فأمر ببيع هذه الغلال على الفور وأرسل أثمانها الى خدام الأماكن المقدسة.

وقد أعجب تيمورلنك بمناعة القلعة وضخامتها وارتفاع أسوارها، وذكر المؤرخ شامي الذي كان يرافق الحملة أنه كان للقلعة خندق يحيط بها، ويبلغ عرضه عشرين ذراعاً وعمقه ثلاثون، وأن القلعة كانت مشحونة بالأسلحة والذخائر، ولها مجانيق تلقي السهام والقار والنفط. (شهاب ٣١٣ ــ ٣١٤).

(١) رامَ الشيء : طَلَبَهُ.

(٢) تربة باب الصغير جنوبي دمشق، ويوجد داخل التربة مدفن ينسب لزوجتي الرسول. أما القباب الحالية فهي عثمانية من بناء السلطان عبد الحميد الثاني كما تشير الى ذلك الكتابات الموجودة عليها.

ذكر ما صنعه بعض الأكياس من الناس خوفاً من أن يحلّ به الباس ووق بنفائسه النفوس والأنفاس

وكان في صفد[1]، تاجر من أهل البلد، أحد الرؤساء والتجار، يدعى علاء الدين وينسب إلى دوادار، كأنه تقدمت له خدمة على السلطان، فولّاه حجبة[2] ذلك المكان، فلما توجّه النواب[3] إلى حلب، والعادة أن ينوب عن نائب البلدة في غيبته من حَجَب، ناب عن نائبها ألطنبغا العثماني[4]، وحاجبها علاء الدين الدواداري، فغرق في أسر ذلك الطوفان[5]، كلّ النواب ومن جملتهم العثماني وابن الطحان، ومات منهم من مات وفرّ من فرّ، واستمر في قيد الأسر ألطنبغا وعمر. فلما قدم تيمور الشام، وحَل بها منه ما يحلّ من قضاة السوء بأموال الأيتام، شرع كل متول في بلاد، يفعل ما أدّى اليه الاجتهاد، فبعض حصّن أماكنه، وبعض مكّن

(١) من مدن بلاد الشام في فلسطين.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: حجابة، وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: حجوبية.

(٣) بأمر من السلطان توجه نواب السلطنة في بلاد الشام الى حلب مع عساكرهم لقتال تيمورلنك (ابن أياس ١/٣٢٦).

(٤) نائب صفد ألطُنْبغا العثماني الظاهري (النجوم الزاهرة ١٢/١٧١).

(٥) اسرهم تيمور مع النواب الذين أسرهم في قلعة حلب في ربيع الأول ٨٠٣هـ = تشرين الثاني ١٤٠٠م.

كمائنه، وطائفة استنجزت للنقار[1]، وفرقة استوفزت للفرار، وقوم سالموا وساكنوا، وهادوا وهادنوا.

ففكر علاء الدين المذكور وقدّر، وتأمّل في خلاص صاحبه وبلده وتبصّر، وكان من أبناء الناس، وعنده ذوق الأكياس، واستشار مصيب عقله في ذلك واستنطقه، فقال: داره بما معك من مال واترك سرب الفرار ونفقه، وما كذبه إذ قال له: كل مداراة عن العرض سِتْر له وصدقة، وكان ذا مال ممدود، فقال: ما ادّخرت الدنانير الصفر[2] والدراهم البيض[3] إلا للأيام السود، فطلب من تيمور الرياضة، وأراد أن يجسّ أولا بمجاملته المخاضة، فعالج هذا الأمر علاج النَطِس المريض، وبادر بالمهادنة حول الجريض دون القريض، وأرسل إلى تيمور أجناساً من ماله الطويل العريض، واستحال خاطره، واستدعى أوامره، ثم أردفها بأضعافها، وأضعف خواصرها بأردافها.

فشكر تيمور له صنعه، وزاده ذلك عنده منزلة ورفعة، وأرسل اليه مرسوم أمان، وأن يعامل هو وأهل بلده بالمجاملة والاحسان، فليؤمن روعهم، وليسكن جنسهم ونوعهم، ولتؤنس وحشتهم، ولتذهب دهشتهم، بحيث أنهم يتبايعون ويتشاورون، وإلى مُعامليهم من عساكره يتجاورون، وإن استطال أحد من أجناده، ولو أنه من إخوته وأولاده، فليقابله بالمنع والانكار، والضرب والاشهار، وصار يطلب منه ما أراده، فيرسله إليه بزيادة.

وكلما زاد فيما يقترحه عليه من نقد وجنس طلبا. زاد علاء الدين لذلك نشاطا وطربا، ومن جملة ما اقترح عليه في ذلك المقبض، حمل بصل أبيض، بناء على أن ذلك لا يوجد، في الشام بأسرها فضلاً عن صفد، ففي الحال وجدمن ذلك ثلاثة أحمال، فأرسلها إليه كما هي، وكان ذلك من الفضل الالهي، حتى أحبّه، وتمنّى قربه،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: النفار.

(٢) الذهب.

(٣) الفضة.

وقال فيه بمعنى ما قلت :

داريت وقتك واحتميتَ ببذل مالك يا بَشَر
لو كان مثلك آخر في الشام ما سِيمت بِشَرّ

وتوجّه طوائف من العسكر اليهم، وباعوا منهم واشتروا عليهم، واستمرت عقود المصادقة لم تحل، إلى أن قوّض خيامه عن دمشق ورحل[1]، فلما أقشع من الشام ضباب ضَيْره، وامتدَّ في ميدان الرحيل حبل سيره، أعقب علاء الدين الدواداري، قاصداً إلى ذلك الأسد الضاري، ومعه تحف سنية، ونتف ملوكية، ومطالعة فحاويها رائقة، ومعانيها فائقة، وألفاظها بالخضوع والخشوع ناطقة. فيها من الترقيقات ما تقشعرّ منه الجلود، ويلين له الحديد والصخر الجلمود، ويجري في طبائع الأبدان اليابسة جري الماء في العود.

وطلب في أثنائها مَراحِمَهُ في أمر العثماني وابن الطحان، وجَزّ ناصية عبوديتهما بمقراض الاعتاق والامتنان، وأن يجعل العفو عنهما شكر القدره، ويفيض عليهما من بحار مراحمه قطره، وإنهما أقل من أن ينسبا إلى أسره، إذ ملوك الأرض تودّ لو كانت أطفالاً تحت حجره، ورأيه الشريف أعلى، وامتثال ما يبديه من المراسيم أوْلى.

فلما اطلع تيمور على فحواه، وفهم ما أبداه وما أنهاه، وشاهد تحفه وهداياه، وتفكر في أوّل أمره ما ألحمه معه من الخدم وما أسداه، والخير له تأثير والبادى أكرم، والشر كله تقصير والبادى أظلم.

قلت :

ترقب جزا الحسنى إذا كنت محسناً ولا تخشى من سوء إذا أنت لم تسىء

وقيل :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لأن قلبه وإن كان حديدا، وهان صعبه وقد كان شديداً[2] فدعاهما، وأكرم مثواهما، وأحسن اليهما، وذكر لهما شفاعة علاء الدين فيهما، ثم آمنهما الباس

(١) يقول ابن تغري بردي (النجوم ١٢/٢٤٥) (وكان تيمور ـــ لعنه الله ـــ سار من دمشق ثالث شهر شعبان (سنة ٨٠٣هـ) بعدما أقام على دمشق ثمانين يوماً.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فقد هان صعبه الذي لم يزل شديداً.

وأعطاهما ثلاثة أفراس، للعثماني إثنتان، وواحدة لعمر بن الطحان، ثم أضاف إليهما من أبلغهما المأمن، فوصل كل منهما إلى دار عزته، وحل ذاك في صفده[1] وهذا في غزته[2].

(**فصل**) ولما تنجَّز لتيمور أخذ القلعة، جهَّز أمره ورام الرجعه، وقد استخرج منها ما أراد من نفائس وأموال[3] بأنواع العقاب وأصناف العذاب والنكال[4].

(١) في مدينة صفد من أعمال فلسطين.

(٢) مدينة غزة من أعمال فلسطين.

(٣) وضع تيمور يده على ما وجد في قلعة دمشق من أموال وذخائر قيل أنها كانت مكدسة من قرون (شهاب ٣١٥).

(٤) كانت الغرامات المالية التي فرضها تيمور على دمشق بسيطة في أول الأمر، ولا تتعدى الطلقزات وهي هدايا يرى تيمور أنه من الواجب على المدن التي يمر بها أن تقدمها له (النجوم الزاهرة ١٢/٢٣٩)، ولكن تيمور لم يلبث عندما قابل الوفد الدمشقي أن طالب بدفع مبلغ ألف الف دينار، كأموال أمان، وهي الأموال التي كانت تجبى من المدن حتى تسلم من التنكيل (المقريزي ـــ السلوك ج ٣ ـــ قسم ٣ ص ١٠٤٧) وتم الاتفاق على أن يستلم تيمور ما تركه السلطان فرج وأمراؤه قبل انسحابهم من أموال وغلمان ودواب، وبدأت عمليات الجمع مباشرة بعد عودة الوفد الى المدينة، وأقام رئيس الجباية القائد التيموري « الله داد » مركزاً له داخل المدينة بالقرب من الباب الصغير.

وبدأت عمليات الجمع بإشراف القاضي ابن مفلح الحنبلي والعلماء، كما أُستبعين بعدد من أبناء المدينة، وكانوا ممن اشتهروا بالظلم والتعسف، فأخذوا يتبارون في ظلم الناس وحمل الأكثر من المال، ووزعت الأموال المفروضة على مختلف أحياء المدينة وحاراتها. واستطاع الجباة جمع المال المطلوب بوقت قصير، بسبب كثرة أموال السكان. ولما حُمِل المال الى تيمور استقله، وقال أن المطلوب هو جمع المال بالتومان (والتومان يساوي عشرة آلاف). فعاد ابن مفلح ورهطه للجباية من جديد واضطروا لاستخدام وسائل القسر (العسقلاني ج ٢ ص ١٣٨) فجبوا أجور مساكن الأوقاف عن ثلاثة أشهر مقدماً، وفرضوا على كل ساكن في دمشق مبلغ عشرة دراهم، دون التفريق بين ذكر وأنثى أو بين كبير وصغير، أو بين حرّ وعبد. واضطر ابن مفلح لتأمين كامل المبلغ المطلوب فأخذ بعض المبالغ من أوقاف المساجد وأوقاف المسجد الأموي بالذات (المقريزي ـــ السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٤٨).

←

ذكر معنى كتاب أرسل إليه على يد بيسق بعدما فروا من بين يديه

وقيل : إن السلطان[1] لما هرب ، أرسل اليه كتاباً أقام فيه عليه الحرب[1] ، فمن

ولما حُمل المبلغ المطلوب الى تيمور ، أعلن أن المبلغ لا يساوي بحسابه إلا ثلاثة آلاف دينار ، ولا بد من الاستمرار في الجباية لتأمين بقية المبلغ المفروض. واضطر الجباة من جديد الى التشدد في عمليات الجمع من السكان ولجؤوا الى ضرب الناس وشتمهم ، وشملت هذه الأعمال العلماء.

وأدّى تباري الجباة فيما بينهم على جمع المبالغ الأكثر الى الاضرار بالناس ، وإلى خلافات فيما بين الجباة أنفسهم ، ولذلك فقد أمروا أن يسلموا ما يجمعونه من أموال يومياً ، الى رئيس الجباية التيمورية « الله داد ».

وطالب تيمور فوق ذلك بتسليم ما تركه التجار الغائبون من أموال في المدينة ولا سيما التجار الفرنجة (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٤٩) وكان لهؤلاء التجار كما يقول ابن قاضي شهبة أموال كثيرة في دمشق. كما وضعت الادارة التيمورية يدها على كل ما وجد في المدينة من جمال وبغال وخيول وبلغ عدد الدواب المصادرة مائة وخمسة وعشرين الف دابة (السلوك ٣ قسم ٣ ص ١٠٥٠).

وتبرر المصادر الفارسية شطط تيمور في المطالبة بمزيد من الأموال بالادعاء بأن عيارات الدنانير الذهبية والدراهم الفضية كانت مغشوشة وكانت أوزانها خفيفة.

ولجأت الادارة التيمورية الى أسلوب جديد في الجباية بدأ في العاشر من رجب = ٢٥ شباط ١٤٠١م ، عندما ألقت القبض على القاضي ابن مفلح الحنبلي وأعوانه والزمتهم بتقديم بيانات عن خطط دمشق وأحيائها وحاراتها ، ثم وزعت هذه البيانات على عدد من الأمراء التيموريين ، وطلب من كل أمير أن يقوم بالجباية المباشرة تسعة عشر يوماً ، وانتهت في ٢٨ رجب = ١٤ آذار ١٤٠١م واستعمل الأمراء خلال تلك المرحلة الشدة القصوى لاجبار الناس على الدفع. ففرضوا على كل إنسان من جديد ، ثلاثة أمثال ما كان قد جُبي منه في السابق. وهددوا من أخفى من السكان شيئاً من مال السلطان وأموال التجار الغائبين بالشنق. وجمعوا من بقي من تجار المدينة وطالبوهم بدفع المزيد ، وإذا تباطأ أحدهم بدفع ما فرض عليه سيق الى الشنق ، ولا ينجو من الموت الا إذا كفله أحد لمدة قصيرة ، ليخرج ويحضر ما فُرض عليه على وجه السرعة (شهاب ٣١٦).

(١) استمرت الاتصالات السياسية بين تيمور ودولة المماليك على الرغم من اقدام تيمور على اجتياح بلاد الشام عام ٨٠٣هـ = ١٤٠١م. وكانت هذه الاتصالات قد بدأت في عهد

السلطان الظاهر برقوق. وبقيت هذه الاتصالات مستمرة في عهد ابنه السلطان فرج ، كما استمرت بعد رحيل تيمور عن بلاد الشام وحتى بعد استقراره في سمرقند. واستطاع تيمور أن يحقق عن طريق الاتصالات السلمية ما لم تحققه له الحروب. وأدت المراسلات التي حدثت بين السلطان المملوكي فرج وبين تيمور الى تبدل العلاقات بينهما ، وتحولها من علاقات عدائية الى صلات ودية ، ظهرت في تبادل الوفود والهدايا ، بقصد المجاملات السياسية.

وقد تمت أول اتصالات تيمور السياسية بالسلطان المملوكي فرج بن برقوق في مطلع عام ٨٠٣هـ = ١٤٠٠م عندما أرسل اليه ، وهو في ضواحي ملطية يهم بالاغارة على بلاد الشام ، رسائل وصلت القاهرة ، كما تشير الى ذلك مصادر مؤرخي الشام ومصر والمصادر الفارسية ، في وقت متأخر جداً عن تاريخ تحريرها وهو ٢١ جمادى الآخرة ٨٠٣هـ = ٦ شباط ١٤٠١م اي بعد ستة أشهر من تاريخ إرسالها. وكانت القوات المغيرة خلال هذه المدة قد تقدمت في بلاد الشام حتى بلغت دمشق. ويظهر من تاريخ وصول الرسالة الى القاهرة أن السلطان المملوكي فرج قد تسلمها بعد شهر ونيف من عودته من دمشق الى القاهرة ، بعد فشل محاولته في دفع تيمور عن دخول دمشق. وجاء في رسالة تيمور هذه مطالبة بإطلاق سراح اسيره اتلميش ، الذي كان لا يزال سجيناً في القاهرة ، مقابل أن يطلق هو ما عنده من أسرى من امراء المماليك. وقد صيغت رسالة تيمور الى السلطان فرج باسلوب متعال ، جاء فيه قول تيمور له (لقد ظهرت من والدك حركات غير مقبولة ، من جملتها اصداره الأمر بقتل رُسلنا دون سبب ، ومازال اتلميش ، وهو أحد عبيد عتبتنا محبوساً ، ولم يُرسل الينا حتى الآن).

ويتابع تيمور تهديداته فيقول : إن برقوق قد توفى الآن ، وأصبحت مسألة حسابه وعقابه عند ربه ، وعلى فرج الآن أن يرعى مصالح رعاياه ، باطلاق سراح اتلميش حتى لا تتعرض سلامة هؤلاء الرعايا ، في بلاد الشام ومصر الى القهر والانتقام. وعلى فرج أن يتحمل وزر ووبال ما سيقع على أموال المسلمين ودمائهم. ويقول المؤرخ الفارسي يزدي : ان سلطات حلب المملوكية اعتقلت اعضاء الوفد الذي كان يحمل الرسالة ، بأمر من فرج نفسه. وبعثت الرسالة الى مصر. وربما كان هذا الاجراء الذي قامت به السلطات المملوكية في حلب ، من جملة اسباب تأخر وصول الرسالة الى القاهرة.

ويقول يزدي ان اعتقال سلطات حلب للوفد التيموري كان السبب المباشر لحركة تيمور على بلاد الشام ، إذ لم يعد هناك مبرر لانتظار جواب سلطات المماليك في القاهرة. واعتبر

معناه، وفحوى ماعناه: لا تحسب أننا جزعنا منك، أو فررنا عنك، وانما بعض مماليكنا قوّى أنفاسه، وأخرج عن ربقة الطاعة رأسه، وتصور أن كل من خرج عرج، ولم يعتبر بمن رام للارتقاء سلماً فدرج، وأراد بذلك مثلك القاء الفساد، وهلاك العباد والبلاد، وهيهات فان دون مرامه خرط القتاد، والكريم اذا بدا بجسمه مرضان داوى الأخطر، ورأيناك أنت أهون الخطبين وأحقر. فثنى عزمنا الشريف عنانه، ليعرك من ذلك القليل الأدب آذانه، ويقيم في نظم طاعته ميزانه، وأيم الله لَنَكُرَّنَّ كرَّة الأسد الغضبان، ولنوردنَّ منك ومن عسكرك نواهل القنا موارد الأضغان، ولنحصدنَّكم حصد الهشيم، ولندوسنَّكم دوس الحطيم، فلتلفظنكم رحى الحرب في كل طريق، لما تعانون من غليظ الطعن وجليل الضرب لفظ الدقيق، ولنضيقنَّ عليكم سُبل الخلاص، فلتنادنَّ (ولات حين مناص)[1] أو نحو هذه الترهات، ومثل هذه الخرافات، التي هي كالملح على الجروح، وكالريح عند خروج

اعتقال الوفد رفضاً لما جاء في الرسالة من مطالب (شهاب ٣٢٥).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أرسل اليه كتاباً أثار منه الغضب.

وتفيد مصادر مؤرخي الشام ومصر ان السلطان فرج قد وافق على طلب تيمور. واتخذ من الاجراءات ما يشير الى هذه الموافقة، فقد أوعز للعمل على تجهيز اتلميش الذي يطالب به تيمور، وارساله مع بعثة مملوكية اليه وانعم عليه بمبلغ خمسة آلاف درهم. وبادر الى ارسال بعثة برئاسة أحد امرائه وهو الأمير «بيسق الشيخي» الى تيمور لاعلامه بما اتخذ من اجراءات لايصال اتلميش اليه (المقريزي ـــ السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٥٤).

ويبدو واضحاً ان فرج قد اضطر للموافقة على طلب تيمور باطلاق سراح اتلميش ـــ هذا الطلب الذي ظل والده السلطان برقوق يرفضه دوماً ـــ بعد عودته من الشام، حيث وقف هناك على قوة جيوش تيمور وكثرة اعدادها، واعتقد أن اطلاق سراح اتلميش سوف يجعل تيمور كما ذكر في رسالته، يتوقف عن الامعان في التنكيل بمدينة دمشق، ويشجعه على الرجوع من هناك الى بلاده ويثنيه عن متابعة التقدم الى مصر كما كان تيمور قد اعلن عن رغبته هذه في السابق (شهاب ٣٢٥) ويقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٤٩/١٢) (ثم خرج الأمير بيسق الشيخي أمير آخور رسولاً من السلطان بالافراج عن أطلمش واشياء أخر ...

(١) ولات حين مناص: ليس بحين تَروّ ولا فرار، وليس بحين مغاث، أي نادوا النداء حين لا ينفعهم. تفسير ابن كثير (٢٦/٤) وهذه الجملة من القرآن الكريم سورة ص الآية ٢ .

الروح، ولو كان بدل هذا الكلام الذي لا طائل فيه، والخطاب الهذيان الذي تمجّه الاذان وترميه، ما يستميل خاطره، ويطفىء من لهيب غضبه النائرة[1]، مع شيء من الهدايا والتقادم، وإبراز قضاياهم في صورة المعتذر النادم، ربما كان كسر من غيظه، أو هَمَد من حنقه وبرد من قيظه، وانما فعلوا تلك المعذرة، بعد حريق دمشق وخراب البصرة، وأرسلوا الخدم والهدايا صحبة النعام والزرافات، وقد أعجز التدارك وفات، وصاروا كما قيل:

ذو الجهل يفعل ما ذو العقل يفعله في النائبات ولكن بعدما افتضحا

وكما قيل: وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل.

(**فصل**) ذكر بيسق هذا قال: لما مثلتُ بين يديه، وأدَّيت الرسالة، وقرىء الكتاب عليه، قال لي: قل الحق، ما اسمك؟

قلت بيسق، قال: ما مدلول هذا اللفظ المزري؟ قلت له: يا مولانا لا أدري، فقال أنت لا تعرف مدلول اسمك يا ثعالة، فكيف تصلح لتحمل الرسالة، ولولا أن عادة الملوك أن لا يهيجوا الرسل، وقد مَهَّدوا على ذلك القواعد وسلكوا السُّبل، وأنا أولى من يتبع آثار السلاطين، ويُحيي سنن الملوك الماضين، لفعلت معك ما يجب فعله، ولأوصلتك ما أنت أهله، وبعد هذا فلا عتب عليك، وانما اللوم على من تقدم بهذا الأمر اليك، ولا حرج عليه أيضاً لأن ذلك مبلغ علمه، ومدرك عقله وفهمه، وقد ظهر بفعله الوبيل، نتيجة ما قيل:

تخيّر اذا ما كنت في الأمر مرسلا فمبلغ آراء الرجال رسولها

ثم قال لي توجه الى قلعتكم[2]، ومكان عزّتكم ومنعتكم، فذهبت فوجدتها قد

(١) نائرة: عداوة وشحناء (مختار الصحاح ص ٤٣٤).

(٢) يستنتج من أقوال ابن عربشاه أن بعثة بيسق الشيخي التي ارسلها السلطان فرج الى تيمور، قد قابلت تيمور في دمشق في وقت لاحق لنجاح قوات التتار في اكتساح قلعة دمشق، فقد دعا تيمور المبعوث المملوكي لمشاهدة تلك القلعة وقد دُكَّت وسيم حرامها.

ولقي بيسق من تيمور معاملة خشنة، وهُدِّد بالقتل، لأن تيمور كان لا يزال حانقاً لاعتقال رُسله في حلب، وشتم تيمور السلطان فرج امام مسامع اعضاء الوفد المملوكي، ووصفه بالذليل والحقير، ثم خاطب بيسق مهدداً قل: لفرج اني واصل اليه بعدك. وقد

دُكَّت دكّاً، وسيم حَرَمُها وحريمها خسفاً وهتكاً، ثم أتيته، وذكرتُ له ما رأيتهُ، فقال: إن مرسلك أقل من أن أجامله، وأذل من أن اراسله، ولكن قل له: اني واصل إليه على عقبك، وها أنا مُشبّث[1] مخاليب اسودي بذَنَبك، فليشمر للقرار أو للفرار الذيل، وليُعِدّ لأيهما اختار ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، ثم أمر بي فأخرجت، وما صدّقت أن تَصَوّبْتُ! الى جهة مصر ودحرجت.

(فصل) وحين ملأ جراب طمعه من نفائس الأموال رُدْنه، واستدر خلفاتها شيئاً فشيئاً صافياً ورونقاً حتى صفّاها بقطنه[2]، أمر بتعذيب هؤلاء الأعيان[2] الكبار،

أمر باخراج اعضاء الوفد من أمامه. بعد ان بلغ الخوف منهم مبلغاً عظيماً (شهاب ٣٢٥).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: منشب.

(٢) يقول ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٤٣/١٢) (ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح وحمله الى تيمور، فقال تيمور لابن مفلح وأصحابه: هذا المال بحسابنا إنما هو يسوي ثلاثة الاف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم.

وكان تيمور لما اتفق أولاً مع ابن مفلح على الف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور، فخرج اليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها، فلما صارت كلها اليه وعلم أنه استولى على اموال المصريين ألزمهم باخراج أموال الذين فرُّوا من دمشق، فسارعوا ايضاً الى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه، فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعواذلك وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء، فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خُطط دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرقه على أمرائه، وقسّم البلد بينهم، فساروا اليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه. وطالبهم بالأموال، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف، وأجرى عليهم انواع العذاب من الضرب والعصر والاحراق بالنار والتعليق منكوساً، وغمّ الأنف بخرمة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في انفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل اذا اشرف على الهلاك يُخلّى عنه حتى يستريح، ثم تُعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول ليتني أموت واستريح مما أنا فيه، ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على اصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب ←

فعذّبوهم بالماء والملح وسَفّوهم[1] الرماد والكلس وكووهم بالنار، واستخرجوا خبء الأموال منهم استخراج الزيت بالمعصار.

ثم اطلق عنان الاذن لعساكره بالنهب العام، والسبي الطام، والفتك والقتل والاحراق، والتقيد بالأسر على الاطلاق، فهجمت أولئك الكفرة الفجرة على ذلك أشد الهجوم، وانقضوا على الناس بالتعذيب، والتثريب والتخريب، انقضاض النجوم، واهتزوا وربوا، وفتكوا وسبوا، وصالوا على المسلمين وأهل الذمم، صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم، وفعلوا ما لايليق فعله، ولا يجمل ذكره ونقله، وأسروا المخدّرات، وكشفوا غطاء المسترات، واستنزلوا شموس الخدور، من افلاك القصور، وبدور الجَمَال من سماء الدلال.

وعذّبوا الكبار والأكابر[2] بأنواع العذاب. وبدا للخلق مالم يكن في الحساب، واستخلصوا بإصلاء جواهر الناس النار منهم خلاصات الذهب، وصنفوا في

إمرأته أو ابنته وهي تُوطأ، وولده وهو يُلاط به، يصرخ من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللِّواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس.

ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يُسمع بمثلها، منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتُشَدّ رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط ابهام يدي المعذّب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرماد مسحوقا، فيقرّ على ماعنده شيئاً بعد شيء، حتى اذا فرغ ما عنده لا يصدّقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتاوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بابهام يديه في سقف الدار ويُشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويُلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً.

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الأمراء الكبار.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وسقوهم.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الأصاغر.

استخراج النفائس من النفوس بأصناف العذاب مسائل يقضي منها العجب.

وفرقوا بين الوالدة وولدها، والروح وجسدها، وذهلت كل مرضعة عما أرضعت، وجازوا كل نفس بما صنعت، وبغير ما صنعت، وفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وصار لكل منهم يومئذ شأن يُغنيه[1]، وذلّ العزيز والكريم، وهان الخطير والجسيم، وطمّ البلاء، وعمّ القضاء[2]، وطاشت الحلوم، وتبلّدت الفهوم، وتراكمت غيوم الغموم، فأقسِمُ بالله لقد كانت تلك الأيام، علامة من علامات يوم القيامة[3]، وأسفرت تلك الساعة، عن اشراط الساعة، واستمر هذا النهب العام، نحواً من ثلاثة ايام[4]

(١) سورة عبس من القران الآية (٣٧).

(٢) ويصور ابن اياس حالة دمشق واهلها فيقول: (بدائع الزهور ١/٣٣٣) (ثم ان تمرلنك فرّق تلك الأوراق التي بأسماء الحارات على امرائه فتقاسموها، ثم دخل الى المدينة السواد الأعظم، فنزل كل أمير من امرائه في حارة وطلب سكانها وفرض عليهم من المال مالا يقدروا على شيء منه فكان الرجل يقام على باب داره وهو في انحس هيئة ويقولون له: هات ما عليك من المال. فيقول: ما عندي شيء من المال، فيضرب ضرباً شديداً، فيخرج جميع مافي بيته من قماش ونحاس وغير ذلك حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه، وهو يشاهد ذلك بعينه فتفتض أبكار بناته ويُلاط بولده بين يديه، فاذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعوهم بعد ذلك ضرباً. هذا وصاحب البيت قائم يُضرب في وسط داره، ولقد تنوعوا في عذابهم انواعاً فكان أحدهم يشدّ رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيفاً حتى يغوص ذلك الحبل في رأسه، ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه من وراء ظهره، ثم يلقى على ظهره ويغمّ بخرقة في رماد ساخن، أو يعلق الرجل من ابهام رجليه في سقف الدار ثم يوقدوا تحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل في النار.

ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ما تشيب من سماعه النواصي فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوماً وهم على ما ذكرناه من أنواع هذا العذاب.

(٣) لقد نقل المؤرخون صوراً للتنكيل الذي حل بسكان دمشق فكان احدهم يُربط من تحت ابطيه ويعلق بالسقف، ثم يبرم بشدة ليدور على نفسه بسرعة كبيرة، ويجبر أحياناً على المشي على النار، أو تعصر اعضاؤه. وأقام جند تيمور ببناء ثلاثة ابراج من رؤوس القتلى من اهالي المدينة التي تعرضت ايضاً للنهب (شهاب ٣١٧).

(٤) بعد أن انهى امراء تيمور وقواده عمليات جمع الأموال من سكان دمشق، طلب تيمور من ←

ذكر القائهم النّار في البلد نحو الاثار

ثم انهم لما أنهوا العيث والعبث، وقضوا في حج فسادهم التفث، وأتموه بالفسق والجدال والرفث، وطافوا وسعوا في المنكرات، ورموا في البيوت النار وفي القلوب الجمرات[1]، وافاضوا ما أراقوا من دماء المسلمين الواقعين في الإحصار، رملوا في

جنده القيام بغارة عامة على المدنية، وأحبَّ كما يقول المقريزي أن ينعم على الجند بنهب ما يمكن أن يكون قد بقي فيها وأطلق ابن عربشاه ما قام به جند تيمور «النهب العام» وقد بدأ يوم الأربعاء ٣٠ رجب = ١٦ آذار ١٤٠١ وقد اندفع الجند المشاة بأعداد كبيرة وفي ايديهم السيوف المصلطة، على شكل غارة للنهب والسلب واستمرت هذه الأعمال ثلاثة ايام وقام الجند في هذه الأيام الثلاثة بنهب ما تبقى بالمدينة وأسروا أو قتلوا أغلب من بقي من سكانها حياً، وأفحشوا علناً بالنساء والأطفال... (شهاب ٣١٧).

(١) ويصور ابن اياس الأهوال التي صبها التتر على دمشق فقال (بدائع الزهور ١/٣٣٤) (فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب من سنة ثلاث وثمانمائة دخل في ذلك اليوم الى دمشق عسكر كأمواج البحر وهم مشاة بأيديهم سيوف مسلولة فنهبوا ما بقي في المدينة وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم في حبال لا يعلمون أين يذهبون بهم ثم تركوا الأطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية والعجائز بالمدينة وكان من جملة من أسروه في هذه المعركة قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي وغيره من العلماء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار وغيرها. وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر وأمرائها وقضاتها وغير ذلك...

فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر تمرلنك باحراق مدينة دمشق فأضرمت بها النار حتى صارت ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر وأحرقوا جامع بني امية حتى بقي جداراً قائماً بغير سقوف ولا ابواب ولا رخام وأحرقوا الأسواق التي بها والقياسر بعدما نهبوا ما فيها وأحرقوا غالب حاراتها التي صارت لا تعرف كما قيل في المعنى.

وأمر بالأوطان والسكن الذي ... قد كنت أعهده بخير وافر
لم ألق غير البوم فيه ساكنا ... تبّاً له من طير نحس واكز

وقد أصبحت دمشق بعد البهجة والسرور والنضرة والحبور أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد خوت على عروشها وأقفرت من زخرفها ونقوشها لا ترى بها دابة تدبّ ولا حيوان يهبّ سوى جثث قد احترقت وصور في الثرى قد تعفرت، وقد صارت تكسى من الذئاب ثوباً، ومغنماً للكلاب ونهباً، لا يستهدي اللبيب فيها الى داره، ولا يفطن الذكي الى محل ←

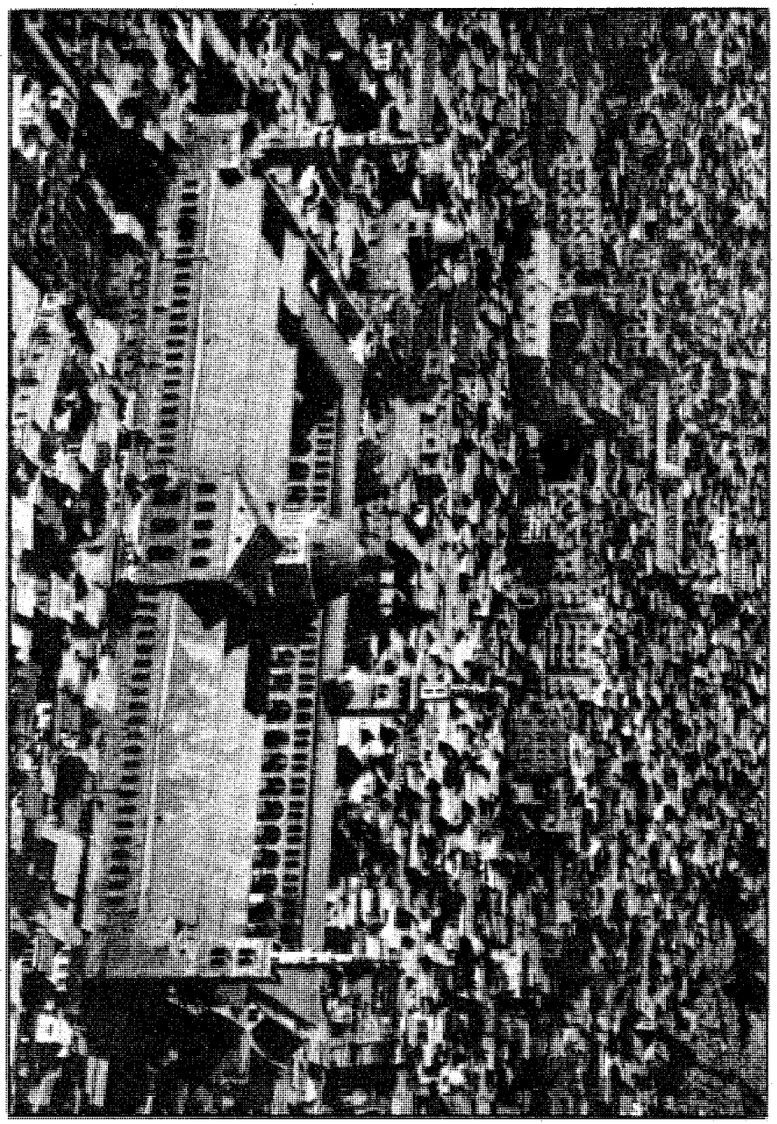

جامع بني أمية الكبير بدمشق

اشواط الاحراق فأرسلوا في حرم المدينة شواظاً من نار[١]

وكان فيهم من روافض الخُراسانية، فأطلقوا النار في جامع بني امية فتشبثت النار بلهيبها، وساعدت الريح بهبوبها، فتساوقا في محو الاثار ريحاً وناراً، واستمر على ذلك باذن الله تعالى ليلاً ونهارا، فاحترق ما بقي من النفائس والنفوس، وانمحى بلسان النار ما سُطِّر على لوح وجود المدينة من الدروس، فأمست تلك المغاني لا يُسمع فيها ولا الهمس[٢]، وأصبحت (حصيداً كأن لم تغن بالأمس[٣]) وذلك بعد أن أظهروا ما

سكنه من مزاره فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب. فلم توقظنا حوادث الأيام، ونحن في ليل الغفلة نيام فلا نعتبر بما جرى للأنام...

وقد هلك في هذه النازلة من الناس مالا يحصى عددهم، فجماعة بالقتل وانواع العذاب، وجماعة بالجوع والعطش في مدة هذه المحاصرة لعدم الأقوات، فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن الثمانمائة.

(١) ويقول ابن تغري بردي عن حريق دمشق (النجوم الزاهرة ١٢/٢٤٥) (فلما علمت أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا الى تيمور فسألهم: هل بقي لكم تعلّق في دمشق؟ فقالوا: لا، فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على اتباع الأمراء فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدُّور وغيرها، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال.

ثم طرحوا النار في المنازل والدُّور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعمّ الحريق جميع البلد، حتى صارت لهيب النار يكاد أن يرتفع الى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

وكان تيمور ــ لعنه الله ــ سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق، وزالت أبوابه، وتفطَّر رخامه، ولم يبق غيرُ جُدُره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها دابة تدبّ إلا أطفالاً لا يتجاوز عددهم آلاف فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: لا تسمع فيها لاغية ولا الهمس.

(٣) سورة يونس الآية ٢٤.

أخذوا من أموال وأوسقوا منه الأحمال[1].

(١) لقد أضرمت النيران بمدينة دمشق، وكانت اغلب بيوت المدينة مبنية بالخشب والطين، فأتت النيران ـــ التي ظلت مشتعلة ثلاثة أيام بسبب اشتداد الريح ـــ على داخل المدينة بأسره تقريباً، حتى أضحت كما قال المقريزي «أطلالاً بالية ورسوماً خالية قد اقفرت من الساكن وامتلأت أرضها بجثث القتلى. ولم يبق بها دابة تدبّ إلا الأطفال لا يتجاوز عددهم عدة آلاف (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٥١).

وتتوافق أقوال المصادر التيمورية مع اقوال مؤرخي مصر والشام، في وصف اعمال المغيرين في دمشق، وتعلل هذه المصادر تلك الأعمال بعدالة تيمور التي رأت محاسبة سكان دمشق، لوقوف اسلافهم الى جانب معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد ضد علي بن ابي طالب وولده الحسين.

ولذلك فقد أضحى أهالي دمشق ذكوراً واناثاً، مع اموالهم ونفائسهم اسرى وغنائم لعساكر تيمور. وتتابع هذه المصادر قولها ان المغيرين أخرجوا من دمشق انواعاً من الأقمشة والأمتعة التي جاء بها تجار دمشق من قبرص ومصر وبلاد الروس، وأثارت هذه المنهوبات اعجاب الغزاة لجودتها ووفرتها... وأشاروا الى الكميات الكبيرة من الجواهر والنفائس التي عثر عليها في قلعة دمشق وفي دور الأغنياء والتجار.

وينقل المؤرخ الفارسي يزدي ما رآه شاهد عيان كان في دمشق في تلك المرحلة، فقال ان بعض عمارات المدينة كانت ترتفع الى أربعة طوابق. وكان الطابق الأرضي فيها يبنى من الحجارة، وأما الطوابق الأخرى فتبنى من الخشب. وقد تفنن سكان دمشق بتزيين منازلهم وزخرفتها واتت النيران على هذه المنازل، وفشلت جميع محاولات الاطفاء التي جرت باشراف بعض القضاة والأعيان، وساعدهم فيها بعض العامة ممن لم تصل اليهم يد التنكيل.

ووصلت النار الى الجامع الأموي. فسقط سقفه على الأرض وسال رصاصه وزالت ابوابه، ولم يبق منه الا جدران قائمة وقد تفطر منها الرخام الذي كان يغطيها. ويقول المؤرخ الفارسي يزدي ان تيمور حاول انقاذ المسجد من الحريق، فأرسل قائده شاه ملك من أجل هذه الغاية، ولكن سقف المسجد كان قد انهار قبل وصوله. ويشير المؤرخ الفارسي متعجباً الى أن النيران قد حولت الحجارة الى رماد في ذلك المسجد، ولكنها لم تصل الى مئذنة عيسى التي يقال بأن المسيح سوف ينزل من السماء اليها، على الرغم من انها كانت مبنية من الخشب.... (شهاب ٣١٩).

اقلاع هاتيك الرزايا واقشاع غمام تلك الدواهي والبلايا عن بلاد الشام بما تحمله من أوزار وخطايا وآثام[1]

ثم ارتحل[2] ذلك الفتّان، وأقلع صيّب بلائه الهتان، يوم السبت ثالث شعبان[3]،

(١) هذه الكلمة أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق.

(٢) يقول ابن اياس (بدائع الزهور ١/٣٣٥) (فلما كان يوم ثاني شهر شعبان فيه رحل تمرلنك عن دمشق بعدما فعل الذي فعله فأخذ عسكره وخرج من دمشق. وكانت مدة اقامته في دمشق الى أن رحل عنها ثمانين يوماً).

وكان آخر ما قام به تيمور من أعمال التنكيل قبل أن ينسحب من دمشق، اصداره الأمر بجمع من بقي حياً من الأطفال. يقول ابن اياس يصور هذه المجزرة (١/٣٣٥) (... جمعوا له اطفال المدينة الذين أُسر أهلهم فكانوا ما بين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين فركب تمرلنك واتى الى ذلك المكان الذي هم به خارجاً عن المدينة. فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ثم قال للعسكر سوقوا عليهم بالخيل فساقوا بالخيل فماتوا أجمعين وكانو نحو عشرة آلاف طفل. فلما رجع لامَهُ أمراؤه على ذلك فقال ما نزل على قلبي فيهم رحمة. فكان تمرلنك يقول: أنا غضب الله في أرضه يسلطني على من يشاء من خلقه فكان حال الأطفال مع تمرلنك كما قيل في المعنى:

وجرم جرَّه سفهـــاء قوم فحلَّ بغير جانيه العـذاب

(٣) يقول ابن عربشاه أن تيمور أخذ يستعد للانسحاب من دمشق، منذ أن تمكن من احتلال قلعة دمشق في مطلع العشر الثالث من شهر رجب. ويفهم مما قاله المؤرخ الفارسي يزدي ايضاً ان تيمور قرر الرحيل عن دمشق منذ ذلك الوقت، عندما أمر بارسال عدد ممن تم أسرهم في قلعة دمشق الى سمرقند، ويتابع المؤرخ الفارسي قوله ان انسحاب تيمور من دمشق جاء بعد أن حقق غاياته من الاحتلال، فقد أخضع بلاد الشام وأحرق دمشق وكان عليه أن يرجع. ويعزو ابن عربشاه رحيل الغزاة عن دمشق الى ما كانوا يشعرون به من نقص في المواد التموينية لاطعام الجند، وقلة الاعلاف اللازمة لخيولهم وأفيالهم، ولا سيما بعدما حلَّ بدمشق وغوطتها من خراب بسبب الغزو. وكان المؤرخ يزدي قد أشار الى أن تيمور الذي لمس قلة الاعلاف والأقوات في المدينة وضواحيها، قد أرسل خلال حصار القلعة قسماً من قواته الى أرض كنعان (فلسطين) لجمع الأعلاف من هناك، وشوهدت هذه القوات كما يقول ابن قاضي شهبة تجمع العليق في بلاد حوران، وظهرت في جهات الحولة.

←

وقد أخذوا من نفائس الأموال فوق طاقتهم، وتحملوا من ذلك ما عجزت عنه قوى استطاعتهم[1]، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل، ويلقونه شيئاً فشيئاً في

وكان تيمور من ناحية ثانية يشعر بأن السلطان المملوكي الذي انسحب فجأة من دمشق وعاد الى القاهرة، لن يلبث أن يعود على رأس قوات جديدة الى بلاد الشام ولا شك في أن أخبار الاستعدادت العسكرية التي اشار اليها ابن اياس والتي كانت تقوم بها السلطات المملوكية في القاهرة في تلك الاونة، كانت تصل الى مسامع تيمور. فقد ذكر ابن اياس عن ذلك بقوله (فعزم السلطان الناصر على العودة إلى دمشق ثانياً ويوقع مع تمرلنك مرة اخرى ثم حضر الطنبغا العنبري وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض وقد طلعت له حمرة في جسده وقد تألم لها. فلما تحقق السلطان ذلك أبطل التجريدة ... (بدائع الزهور ١/٣٣٥)

وكان تمرلنك يخشى أن يقع هو وقواته بين فكي كماشة، من قوات السلطان المملوكي من الجنوب وقوات حلفائه الجلايريين حكام بغداد من الشرق، ولذلك فضل أن يسارع بالانسحاب من دمشق. ويطلق ابن عربشاه على هذا الانسحاب تعبير «تأخر الى الوراء» ولا سيما وان السلطان العثماني في الشمال، كان في الوقت نفسه يسعى لعقد تحالف عسكري مع المماليك ضد العدو المشترك تيمور (شهاب ٣٢٠).

ويقول ابن تغري بردي عن استعدادات السلطان فرج للعودة لقتال تيمور (النجوم ١٢/٢٤٩) (... هذا ويلبغا السالمي يجدّ في تحصيل الأموال، وأخذ في عرض اجناد الحلقة، وألزم من كان منهم قادراً على السفر بالخروج الى الشام لقتال تيمور، وألزم العاجز عن السفر بحضور بديل، أو تحصيل نصف مغلة في السنة .....

ثم ورد الخبر أن دمرداش المحمدي نائب حلب تخلّص من تيمور، وجمع جموعاً من التركمان، وأخذ حلب وقلعتها من التمرية وقتل منهم جماعة كبيرة .... ثم في خامس شعبان برز الأمراء المعنيون للسفر لقتال تيمور بمن عُيِّن معهم من المماليك السلطانية وأجناد الحلقة الى ظاهر القاهرة، وهم الذين كانوا بالقاهرة في غيبة السلطان بدمشق ....

وفي اليوم [٧ شعبان] قدم الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس فارّاً من أسر تيمور الى الديار المصرية، وأخبر برحيل تيمور الى بلاده فرسم السلطان بإبطال السفر، ورجع كل أمير الى داره من خارج القاهرة. ثم في الغد قدم دقماق المحمدي نائب حماة فارّاً ايضاً من تيمور.

(١) يشير ابن قاضي شهبة الى ان الجندي من القوات المنسحبة كان يمر بجماعات الناس من سكان دمشق، فينتقي منهم من يعجبه من النساء والصبيان، ولا يقدر أحد منهم على ←

أوعار المراحل، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل[1]، وأضحت القفار والبراري، والجبال والصحاري، من الأمتعة والأقمشة، كأنها أسواق الدهشة، وكأن الأرض فتحت خزائنها، وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها.

قلت بديها:

وصار لسان شرهم ينادي على قنن الشواهق والبوادي

الأذى شنشنه عرفناها، وعادة فساد الفناها، ومن مَلِكِنا ودينه اقترفناها، نهبنا أموال المسلمين وحفظناها، وما في وجهها صرفناها

(ولكنّا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها)[2] ومع ذلك فلو أُخذ من نفائس دمشق أضعاف ما أُخذ، وفلذ من أكباد ذخائرها آلاف ما فُلِذ، ما غاض ذلك ما في يمينها[3]، ولا نقص من بحار معينها.

ولكن النار كانت هي البلاء الداهي، والمصاب المتناهي، لأنها أحرقت غالب من كان داخل البلد، لعدم الغواث، فما ظنك بما يكون من العمائر[4] والأقمشة والأثاث، وضريت[5] الكلاب بأكل لحوم من مات داخل البلد، فما صار يجسر على العبور الى جامع بني أمية أحد.

دفعه مما حصل عندهم من الخوف والجبن والضعف الحسي والمعنوي .... وكانت دمشق قد اتخذت مركزاً لتجميع الأسرى الذين وقعوا في قبضة تيمور وجنوده في المدن الأخرى، والذين تقرر ترحيلهم مع قوات تيمور (شهاب ٣٢٠).

(١) كان الغزاة قد استقدموا اعداداً كبيرة من الجمال والخيول من حدود سيواس لتحميل الغنائم التي استولوا عليها في دمشق. ومع ذلك فان هذه الغنائم التي خرج بها هؤلاء من المدينة، كانت فوق قدرتهم وقدرة حيواناتهم على الحمل، فأخذوا يلقون ببعضها على الطريق (شهاب ٣٢٠).

(٢) سورة طه آية ٨٧.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عينها.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: العمار.

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وضربت.

ذكر ما جرى في مصر وسائر الأقطار عند سماعهم هذه الأخبار واستيقانهم هذه الأهوال والأخطار

فأما مصر فما دونها من البلاد فانها تخبّطت، وانحلت قواها وايديها تربطت، وعدمت القرار، واستعدت للفرار، فلو رأيت الناس وهم حيارى[1] (سكارى وما هم بسكارى)[2] أبدانهم راجفة، وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافتة، وأبصارهم باهتة، وشفاههم يابسة، وصورهم بائسة[3]، ووجوههم باسرة (تظن أن يفعل بها فاقرة)[3]

(١) يعكس المؤرخ ابن الشحنة قاضي حلب في ذلك الوقت، حالة القلق والاضطراب التي سيطرت على بلاد الشام خلال وجود القوات التيمورية فيها. فيقول: ان أخبار أعمال تيمور قد انقطعت عن اهالي حلب منذ مغادرته المدينة. وكانت تصلها بين وقت وآخر شائعات متضاربة، عن هزائم لحقت بالقوات المغيرة على يد قوات السلطان المملوكي فرج، وانتصارات حققتها تلك القوات على السلطان المملوكي الذي انسحب الى القاهرة، بعد أن قاتل المغيرين قتالا شديداً.

وظلت حقيقة الحال في دمشق خافية عن سكان حلب، الى أن انجلى الموقف بظهور تيمور على رأس قواته في الجبول، وأرسل الفاتح التركي من هناك، يستدعي اليه الحامية التي ابقاها في قلعة حلب، لحراسة اكداس الغنائم التي حصل عليها خلال اجتياح المدينة (ابن الشحنة ٢٢٩، شهاب ٣٢١).

(٢) سورة الحج ــ آية ٢.

(٣) يبدو من تعليقات المؤرخين المعاصرين على أعمال جيوش تيمور في بلاد الشام، أن هذه الأعمال قد أثارت حزن هؤلاء المؤرخين واشفاقهم، للمصير الذي انتهت اليه دمشق وغيرها من المدن في تلك الغارة. وتتوافق اقوال المؤرخ الدمشقي أحمد بن عربشاه مع المؤرخ التيموري شرف الدين يزدي، في تشبيه ما وقع في دمشق على أنه من علامات يوم القيامة، ويعكس حديث ابن عربشاه شعور الحزن الذي كان يكتسح نفس هذا المؤرخ... ويقدر المقريزي عدد من هَلَك من أهالي البلاد في حلب وحماة ودمشق وغيرها من مدن الشام في «محنة تيمورلنك» من الجوع والقتل والحريق بعشرات آلاف الآلاف، عدا عمن فرض عليه الأسر، وسيق مع الجيوش الغازية الى ما وراء النهر (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٧٣).

ويرى ابن خلدون أن ما حل بمسجد امية كان أمر بلغ مبالغة في الشناعة والقبح (التعريف ٣٧٤). ويصور ابن قاضي شهبة الحالة في دمشق خلال محنتها على ايدي الغزاة ←

وقد استوفز كل أهل الأمصار، وسكان الأنجاد والأغوار، وقد أصاخ لما يرد عليه من جلي الأخبار، فبنى على ذلك ما يكون. من متعلقات الحركة والسكون، فأخذ تيمور على طريقته العوجا، ورجع على سبيل بغيه التي اتخذها شرعة ونهجا، وقد سدّت عساكره الافاق والأكناف، وعمت هيبته الأرجاء والأطراف.

ذكر من أصيب من سهام القضاء بالرشق ووقع في مخالب أسره من أعيان دمشق

وأخذ من أعيان[1] الشام، ومشاهيرها الأعلام، قاضي القضاة محي الدين بن العز الحنفي[2] بعد أن عاقبوه بأنواع العقاب وكووه، وسقوه الماء والملح وبالكلس والنار

قائلاً: وهلك خلال هذه المدة من العقوبة والجوع من لا يمكن حصره وحل من العذاب ما لايمكن وصفه. وقال العسقلاني (١٣٨/٢) (وهلك تحت الضرب والعقوبة ما لا يحصى).

ويرى آخرون أن محنة بلاد الشام على ايدي جيوش تيمور تفوق المحنة التي حلت في هذه البلاد في ايام غارة المغول الايلخانيين بقيادة هولاكو (السخاوي ج ٣ ص ٤٨)... ولقد تهيّب تيمور نفسه من افعال جيوشه ــ فيما بعد ــ وبكى أمام وفد مملوكي حضر لمقابلته عام ٨٠٥هـ = ١٤٠٣م، وكان لا يزال في آسية الصغرى، واعتذر عما وقع وقال: «هذا كان مقدراً» (بدائع الزهور ٣٣٦/١) واضطر أغلب من بقي على قيد الحياة من سكان الى النزوح عنها ايضاً، حتى بعد رحيل القوات الغازية، بسبب تعطيل اسباب الحياة فيها. واتجه اغلب النازحين الى مصر عن طريق البر أو عن طريق البحر، وكان بعض من سلك طريق البر يتعرض أحياناً لغارات الاعراب على الطريق (بدائع الزهور ٣٣٥/١) (شهاب ٣٢٢).

(٣) القرآن الكريم ــ سورة القيامة ــ الآية ٢٤ هذه وجوه الفجار يوم القيامة باسرة، اي كالحة، تغير الوانها، فهي عابسة تستيقن انها هالكة وانها ستدخل النار (تفسير ابن كثير ٤٥٠/٤).

(١) وممن أسره جنود تيمور كما يقول السخاوي صراي تمر المحمدي أتابك دمشق. هرب من أسر تمر فحصّله ثم وسّطه في سنة ٨٠٤هـ (الضوء اللامع ٣٢١/٣).

(٢) القاضي محمود محي الدين بن العز الحنفي. يقول ابن قاضي شهبة انه كان في عداد الوفد ←

شووه، وولده قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس، فوصلا الى تبريز[1] ومكثا بها مدة في شدة وباس، ثم رجعا الى الشام، وأخذ أمرهما في الانتظام، وقاضي القضاة شمس الدين النابلسي الحنبلي[2]، وقاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي[3]، فتوفي الى رحمة الله الوهاب، غريقا في نهر الزاب[4]، وشهاب الدين أحمد بن الشهيد المعتبر، وكان متحملاً أوزار الوزر بعد أن راموا عذابه، وطلبوا عقابه، وكان قد جهز متعلقيه الى الأماكن البعيدة، وأقام هو في دمشق جريده، فذكر لهم حكايته، وبذل لهم في دفع موجوده طاقته، فأخذوا ما أخفاه خفية ولم يعذبوه، ولكنهم بالأهبة والقلة استصحبوه، فوصل الى سمرقند وقاسى بها من صروف الزمن، أنواعاً من غربة وفقر ومحن، ثم رجع الى دمشق وتوفي بها رحمه الله تعالى.

ومن الأمراء الخاص، الأمير الكبير بتخاص[5]، وكان مقيداً معه ومات، عند وصوله الى الفرات.

الدمشقي الذي ذهب الى تيمور لمفاوضته وتقلد منه بعد ذلك خمسة وظائف في آن واحد: ١ ــ قاضي القضاة ٢ ــ خطيب الجامع الأموي ٣ ــ شيخ الشيوخ ٤ ــ نظارة الجامع ٥ ــ نظارة الأنظار المضافة الى القضاء، ومع ذلك فإنه لم يسلم من الأذى، فقد أُسر بعد ذلك وعوقب بشرب الماء المالح والكلس، وشوي على النار ثم اقتيد أسيراً مع ابنه إلى تبريز. ثم تمكن مع ابنه فيما بعد من الهرب والعودة إلى دمشق (شهاب ٣١٢).

(١) تبريز: أشهر مدينة في أذربيجان.

(٢) وردت له ترجمة في شذرات الذهب ٥٢/٧.

(٣) محمد بن إبراهيم بن إسحق بن إبراهيم بن عبد الرحمن السلمي المناوي ولد في رمضان سنة ٧٤٢هـ ودرّس وأفتى وسافر مع السلطان فرج إلى دمشق وأسره جنود تيمور، ومات وهو معهم في القيد غريقاً في نهر الزاب بالفرات عند قنطرة الباشا، وقد قاسى أهوالاً على يد أتباع تيمور (شذرات الذهب ٣٤/٧، الضوءاللامع ٢٤٩/٦).

(٤) الزاب: نهران أحدهما يسمى الزاب الصغير والآخر يسمى الزاب الكبير. وهما من روافد نهر دجلة، ومخرجهما قرب جبال أذربيجان.

(٥) الأمير بتخاص السودوني (الضوء اللامع ٢/٣)، وقد تولى حاجب الحجاب في مصر وخلع عليه السلطان الظاهر برقوق في سلطنته الثانية سنة ٧٩٢هـ (بدائع الزهور ٢٩٢/١، ٢٩٥)، ويذكر ابن قاضي شهبة أن الأمير بتخاص من الذين ساهموا في ←

فأما القاضي ناصر الدين ابن أبي الطيب فانهم عاقبوه بكل بلية، وكان رقيق البدن لطيف المزاج سَوداويه. فما كان عنده لذلك ثبات، فأعجزهم عما يرومون منه بالموت وفات، فمات واستراح، وشرب من الشهادة كأس مدام جاءه وراح، فدفنوه عشية، بالمدرسة الكروسية[1].

ولما شُرع في النهب العام المبرح، استشهد غلطا قاضي القضاة تقي الدين ابن مفلح، وبرهان الدين بن القوشة، ضَعُفَ سبعة عشر يوماً، وانقطع في حارة تل الجبن ولحق بالأموات قوماً، وكانوا قد حرَّجوا على الأحياء والأموات، وخافوا أن لا يكون لأحد من ايديهم بحجة الوفاة فوات، فضبطوا بيوت المدينة بيتاً بيتاً، وحرجوا أن لا تخرج الأحياء ولا تجهيز الموتى، فلما مات المذكور تعسّرت الأمور، فتحيروا في تجهيزه، وتغلبوا في أمره وتنجيزه، ثم بعد جهد بليغ وسعي كثير، دفنوه في الصالحية بعد اخراجه من باب الصغير.

وخرج مع تيمور بالاختيار من الشام. عبد الملك بن التكريتي، فولاه نيابة سيرام[2]، فمكث فيها القليل من الأيام، وهي وراء سيحون، وشخص آخر يدعى يلبغا المجنون، وكان مقرباً عنده، وسبب ذلك أنه بذل في مناصحته جهده، وأخبره على ما قيل بفداوى، فخلَّصه بذلك من المهالك والمهاوي، وحصل له بذلك قربة، وزيادة ملازمة وصحبة، فولاه ذلك الجاس، نيابة مدينة تدعى ينكي تلاس، وراء نهر خجند، نحو خمسة عشر يوماً عن سمرقند، بينها وبين سيرام، نحو من أربعة ايام وكان اسم ذلك المأبون، أحمد فتقلب بيلبغا المجنون.

وأخذ من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع، وكل ماهر في فن من الفنون بارع، من النسَّاجين والخياطين، والحجارين والنجارين، والأقباعية والبياطرة والخيمية،

عمليات الدورية الى البادية لتقصي اخبار تيمور منذ عام ٧٩٩هـ = ١٣٩٧م (شهاب ٣١٠) ولكنه وقع اسيراً بيد القوات الغازية عند اجتياح دمشق ٨٠٣هـ = ١٤٠١م.

(١) المدرسة الكروسية: تنسب الى واقفها محمد بن عقيل بن كروس بن جمال الدين محتسب دمشق، توفي بدمشق في شوال [٦٤١هـ] ودفن بداره التي جعلها مدرسة. وكان موقعها في محلة مئذنة الشحم. انظر موقعها في مخطط دمشق القديمة المنجد رقم ٧٥ (الدارس للنعيمي ٤٤٦/١).

(٢) سيرام: بلد فيما وراء النهر يقع في روسية حالياً.

والنقاشين والقواسين والبازدارية[1]، وفي الجملة أهل أي فن كان[2]، وجمع كما ذُكر السودان.

وفرّق هؤلاء الطوائف على رءوس الجند، وأمرهم أن يوصلوهم له الى سمرقند، وأخذ جمال الدين رئيس الطب، وشهاب الدين أحمد الزردكاش[3]، وكان في القلعة كما ذكر، وأباد من عسكره خلقاً لا يحصون، ولا يحصرون كثرة ولا يستقصون، وكان في حدود التسعين وقد احدودب، فلما رآه قابله بالسخط والغضب، وقال له: انك أفنيت صاغيتي، وحصيت غاشيتي، وقصيت حاشيتي، فان قتلتك مرة واحدة لا يشفى غليلي، ولا يبرد عليلي، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأزيدك كسراً على كسرك، ووهناً على وهنك، فقيّده بقيد من فوق ركبتيه، زنته سبعة أرطال ونصف رطل بالدمشقي، وقصد بذلك التشديد عليه، فلم يزل مقيداً، مكتوباً على قيده مخلداً أبدا، حتى مات تيمور[4]، وارتفعت الشرور، وخلص من القيد ذلك المأسور، ثم توفى الى رحمة الله تعالى.

وربما يكون أخذ اناساً من الفضلاء، والأعيان والسادات والنبلاء، من لا أعرفه، فكيف أصفه.

(١) مربي البزاة (شهاب ٣٢٠).

(٢) ويذكر ابن عربشاه قائمة باسماء عدد من الأطباء والقضاة وغيرهم من أرباب الصنائع والفنون الذين أجبروا على مرافقة الغزاة عند انسحابهم فقد اصطحبوا من ارباب الصنائع: نساجي الحرير والنجارين والنقاشين والحجارين والبيطرية والخيمية والقواسين والبازدارية، وعدد من حفظة القرآن.

(٣) يتحدث كل من ابن عربشاه وابن قاضي شهبة عن قصة شهاب الدين الزردكاش صانع الزرد الذي وقع في الأسر عند استسلام قلعة دمشق، وكان خلال عمليات المقاومة، قد أوقع في القوات المغيرة خسائر كبيرة. ولذلك قُيّد بقيد يزن سبعة أرطال، وكُتب عليه مخلد، وحُمل إلى سمرقند. وظل سجيناً إلى وفاة تيمور فأُطلق سراحه. وظل في سمرقند إلى أن شاخ وكبر وبلغ التسعين عاماً. والزردكاش: الصانع المختص باصلاح الزرد والسلاح، وهي لفظة أعجمية.

(٤) توفي تيمور سنة ٨٠٧هـ = ١٤٠٤م في يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان عن نيف وثمانين سنة (شذرات الذهب ٦٧/٧).

كذلك كل أمير من أمرائه، وزعيم من زعمائه، أخذ من الفقهاء والعلماء، وحفّاظ القرآن والفضلاء، وأهل الحرف والصناعات، والعبيد والنساء والصبيان والبنات، ما لايسع الضبط، ولا يحل الربط، وكذلك كل من عسكره كبيراً وصغيراً، آسراً وأسيرا[1] لأنه ما تمَّ حرج على ما نهب شيئاً وعزله، وكل من سبقت يده الى شيء فهو له، وهذا اذا أطلق عنان الاذن بالنهب العام، تساوى فيه الخواص من عسكره والعوام، ولو كان الناهب أسيراً فيهم، أو دخيلاً عليهم، والسالب من غير طينتهم، ولكن أبيح له ذلك لما سار بسيرتهم، وتخلّق بشيمتهم، وأطلق عليه حكمهم، وأجرى عليه شُكْمَهم، فأما قبل الاذن فلو تعدى أحد على أحد، وكان عند تيمور بمنزلة الوالد أو الولد، أو استطال بمقدار حبّة، أو تلفظ بغارة أو نهبة، فانه يهدر ماله ودمه، ويهتك حرمته وحرمه، ولا ينجيه استغفاره وندمه، ولا يجديه أهله وخدمه، ولا يقال لعاً[2] لمن زلت به قدمه، وكانت هذه قاعدة لا تخرم، وبنية لا تهدم.

ذكر ما أباد بعده الجراد

ولما فرغ من مستغلات أموال دمشق الحصاد، وقارب الرحيل عنها أعقبه لَقّاط الجراد[3]، وصار يسير معه حتى بلغ ماردين وبغداد، فأعرى كل شجراء ومَرْدا،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وكذلك كل من عسكره أخذ كبيراً وصغيراً وأسره في أسره.

(٢) يقال للعاثر: لعا لك، وهو دعاء له بأن ينتعش. وورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: ولا يقال لعالم زلّت به قدمه.

(٣) يقول ابن تغري بردي (٢٥٣/١٢) (وأما البلاد الشامية فحصل بها جراد عظيم بعد خروج اللّنك منها، فزادت خراباً على خراب ولابد من الاشارة الى أنه أمام الجاح تيمور قبل غارته على الشام، على ضرورة اطلاق سراح أسيره في القاهرة اتلاميش، ثم ارتحاله عن البلاد دون أن يحقق هذا الهدف، ودون أن يقيم فيها سلطة رسمية باسمه، يجعل من غارة الفاتح التركي، ليست الا غارة تهدف الى السلب والنهب والتدمير، وفرض الغرامات الباهظة، كما كان دأبه في المناطق الأخرى التي وصلت اليها مع جيوشه، وكانت ذريعته فيما ارتكبه من أعمال القتل والسلب وهتك الأعراض في بلاد الشام، أن أجداد سكان هذه البلاد، كانوا قد ايّدوا بني أمية ضد علي بن أبي طالب وأولاده.

←

وجرّد ما على وجه الأرض جردا، فوصل إلى حمص[1] وما نهبها، ولخالد رضي الله عنه[2] كما ذكر وهبها، ولكن نهبوا قراها، وهدّموا قواها، ثم الى حماة[3] فنهبوا نفائسها، واستحرجوا مكامنها، وأسروا عرائسها، واستملكوا كنائنها.

ويرى محمد كرد علي صاحب خطط الشام (٢/١٥٥ ــ ١٦٧) الذي قدّر عدد الأسرى الذين ساقتهم جيوش الفاتح التركي في ركابها، بثلاثمائة وستين الف أسير، بين رجل وامرأة وطفل ــ ان أول أسباب هذه الكارثة التي حلت ببلاد الشام، يتمثل في سوء الادارة المملوكية التي كان على رأسها سلطان صغير السن قليل الخبرة، إضافة إلى أسباب أخرى منها تفوق الجيوش الغازية تفوقاً عددياً كبيراً على جيوش المماليك، وجهل القيادة المملوكية بحقيقة العدو الذي كانت تقاتله....

وقد اتضح من سير الأحداث في بلاد الشام خلال غارة تيمور، أن زمام المبادرة من الناحية السياسية ومن الناحية العسكرية، ظلّ في يد الفاتح التركي، ولم تكن أعمال السلطات المملوكية والزعامات الشعبية المتمثلة برجال الدين في ذلك الوقت، إلا ردود أفعال تتصف الى حد كبير بطابع السذاجة والارتجال والعشوائية أحياناً. ويظهر ذلك في كثير من المناسبات، منها ركون الادارة المملوكية في حلب الى الأمان الذي منحه تيمور للمدينة ثم في استمراره بالتنكيل بالسكان. كما ظهر ايضاً في نجاح تيمور في فرض مكان المعركة الفاصلة وزمانها مع القوات المملوكية في ضواحي دمشق. ثم في الطريق الذي انسل بها السلطان فرج عائداً الى مصر، وأخيراً في مخادعة الادارة التيمورية لسكان دمشق في كمية الأموال التي فرضت عليهم، وانتهى الأمر الى نهب المدينة واحراقها، وقتل اغلب سكانها.

(١) خرج تيمور بقواته من دمشق جنوباً فمرَّ بقرية القبيبات، وتوقف برهة قصيرة في الغوطة، ثم تابع تقدمه شمالاً ماراً بالنبك وقارا الى حمص.

(٢) القائد العربي والصحابي خالد بن الوليد، وقد سلمت مدينة حمص مرة ثانية من تنكيل تيمور حرمة لقبر خالد بن الوليد في الوقت الذي نهبت فيه ضواحيها.
وأرسل تيمور من هناك فرقة من الفرسان الى تدمر فعادوا يسوقون أعداداً كبيرة من الأغنام، قدرها المؤرخ الفارسي يزدي بمائتي ألف رأس وتقدمت فرقة أخرى إلى انطاكية، وفرقة ثالثة الى وادي الفرات، بلغت قلعة الروم، وقاتلت العشائر التركمانية النازلة حولها (شهاب ٣٢٠).

(٣) مدينة كبرى في وسط سورية تبعد عن دمشق حوالي ٢١٠كم، وقد تقدم تيمور الى حماة في طريق عودته من دمشق، وأظهرت حماة بعض المقاومة، فأحرق بعض مساكنها واستاق بعض أهلها أسرى.

وفي سابع عشر رمضان، انصبّ الى الجبول[1] ذلك الطوفان، وأرسل الى حلب وأخذ من قلعتها ما استودعها، ثم الى الفرات وعبرها بالمراكب[2] وغيرها فقطعها، ثم الى الرها[3] فنهبها واستحلب درها. ثم ارسل ذلك الغادر، رسوله الى ماردين يستدعي الملك الظاهر[4]، وديباجة كتابه الدقل، على ما نُقل.

سلام عليكم والعهود بحالها لقد بلغ الاشواق منا كمالها

فأبى أن ينزل اليه، ولا استمع كلامه ولا التفت اليه، لأنه كان آذاه كما ذكر أول مرة[5]، فما احتاج الى تجربته آخر كرة، فسلك معه بر السلامة.

وقال: من جرب المُجرَّب حلَّت به الندامة.

ولكن أرسل اليه قاصداً من بعض الخدم، يدعى الحاج محمد بن خاص بك ومعه التقادم والخدم، واعتذر عن الحضور، بعدة امور، وعنوان جوابه، موافق لخطابه، وهو:

فشوقي اليكم زائد الحدّ وصفه ولكن تخاف النفس مما جرى لها

(١) الجُبول: في ضواحي حلب الشرقية، وأرسل تيمور من هناك يستدعي اليه الحامية التي أبقاها في قلعة حلب، لحراسة اكداس الغنائم التي حصل عليها خلال اجتياحه للمدينة، وأمر تيمور من الجبول باحراق حلب وتخريب ما تبقى من دورها. كما شنَّع بأهلها مرة اخرى، واضطر سكان المدنية الى مغادرتها وهم يشاهدون ألسنة النيران تلتهم مدينتهم (ابن الشحنة ص ٢٣٢، والعسقلاني ٢/١٤٠).
ويتابع ابن الشحنة حديثه عن حلب (بعد تاريخ ١٧ شعبان = ٣ نيسان) بثلاثة أيام، لم يعد يُعثر على أثر للقوات المغيرة. ولم يتمكن سكان المدينة من العودة اليها إلا بعد مرور مدة من الزمن بسبب انتشار الروائح الكريهة منها (ابن الشحنة ٢٣٣).

(٢) تابع تيمور انسحابه بقواته عبر نهر الفرات، على زوارق كبيرة عند البيرة الى الرها.

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن البلندي بن مالك.

(٤) الظاهر مجد الدين عيسى الأرتقي حاكم امارة ماردين

(٥) وكان تيمور قد سجن الظاهر عيسى ولاقى الشدائد حتى أعاده الى إمارته في رمضان سنة ٧٩٨هـ = تموز ١٣٩٦م.

فلم يلتفت تيمور الى هذا الكلام، وأخذ يُعنِّف نفسه بأنواع الملام، كيف خلص من مخاليبه أوَّل مرة بسلام.

ذكر وروده ماردين بالهيبة وصُدوره عنها بعد المحاصرة بالخيبة

فوصلوا يوم الاثنين عاشر شهر رمضان واردين ماردين[1]، فنزلوا دُنَيْسر[2]، وغدوا للحصار قاصدين[3]، واذا بأهلها وقد أخلوا المدينة، وانتقلوا الى قلعتهم الحصينة.

(١) قال ابن حوقل في المسالك ص ١٥٢ : ماردين: انها حصن منيع على قلعة جبل شاهق، فيه من العدة والأسلحة ما لا يمكن حصره. وقال ياقوت: إنها قلعة مشهورة على قمة جبل بالجزيرة (الفراتية) مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وقدامها ربض عظيم فيه اسواق كثيرة، ودورها كالدرج كل دار فوق الأخرى، وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدروب، ليس دون سطوحهم مانع، والمانع عندهم قليل، وأكثر شربهم من صهاريج معدة في بيوتهم، وذكرها ابن بطوطة في رحلته اليها سنة ٧٢٨هـ فقال: هي مدينة عظيمة في سفح جبل من أحسن مدن الاسلام، أسواقها بديعة، وتصنع بها الأثواب المنسوبة اليها. وذكرها علي بهجت بك في قاموس الأمكنة والبقاع فقال: لا تزال مدينة ماردين في جهة الشرق من الرها. وقد حدد موقعها أطلس فيلبس الجغرافي في ديار بكر (في تركيا) وقال ان عدد سكانها يزيد على ٢٦ ألف نسخة (حاشية (١) على النجوم ٣٠/١٢) وفي تقويم البلدان ص ٢٧٩. ماردين: حصن من بلاد الجزيرة بالقرب من نصيبين جبل ماردين من الأرض الى ذروته نحو فرسخين، وبه قلعة منيعة.

(٢) دنيسر: بضم أوله وفتح النون وسكون الياء وفتح السين وبالراء: بلدة مشهورة، من نواحي الجزيرة، تحت جبل ماردين.

(٣) قام تيمور بجيوشه في جولة على الجزيرة العليا حين عودته من بلاد الشام مما اضطر حكام تلك المناطق لأن يجددوا ولاءهم له. وشذَّ عن ذلك الحاكم الارتقي في ماردين الظاهر عيسى الذي سبق له أن قاسى من معاملة تيمور السيئة أثناء مكوثه في السجن، فقد كان الظاهر عيسى يحقد عليه ويخشى منه. فاعتصم في قلعة المدينة الحصينة القائمة على تل مرتفع، واعتصم معه السكان، وأرسل في الوقت نفسه ببعض الهدايا لتيمور الذي اغضبه هذا التصرف من اسيره السابق، عندما ظهر أمام اسوار ماردين في ١٠ رمضان ٨٠٣هـ = ٢٥ نيسان ١٤٠١م. ويظهر أنه لم يكن عند تيمور وقت كاف ليقضيه في اجتياح القلعة، فتركها بعد حصار استمر عشرة ايام بعد أن هدّم مسجد المدينة وسوقها، وبرر

صفة هذه القلعة

وهذه القلعة عنقاء قُلَّتها تكبر أن تصاد، وعرنين[1] عانسها يأبى أن يدخل لخاطب تحت مقود انقياد، لأنها في قلة من القُلل، على ظهر جبل، لم يكن فرق بينه وبين قبة الأفلاك، إلا أن تلك لاثبات لها وهذا ثابت ليس به حراك، بظهره واد بطنه أوسع من صدر الأحرار، فيه جنات تجري من تحتها الأنهار، وبه مطارح الزروع، ومسارح المواشي والضروع، حدوده جروف لا تصل همم ذوي الكرم الى أرجائها، وحروف يعجز قارىء التفكير عن تعديد هجائها، وطريقه من القلعة أو على القلعة، والقلعة في غاية المناعة والرفعة، والمدينة مبنية حواليها، متشبثة بذيلها، تأكل من فضلات نعمها، وتشرب من فائض سيلها، فهم بين نعمهم ونقمهم يترددون، وفي السماء رزقهم وما يوعدون.

فأقام لمحاصرتها على مضائقها، يسترشد الى طرق المضايقة وطرائقها، ولم يكن حواليها مكان للقتال، ولا لنصب المجانيق مجال، فَعَوَّل على نقبها بالمعاول والفؤوس، واستعان على ذلك بالمقاول والرءوس، وحاشا درز[2] ذيل حشمتها وعصمتها أن يسام فتقا، لأنها وان كانت عذراء قد أعجزت الفحول لكونها رتقا[3]، فلا زالت المعاول تفل، والفطاطيس تكلّ، ومناقير القوس تتعقف، وخصور المرازب كَهيفِ القدود تتقصف. قلت:

المؤرخ الفارسي يزدي عمل تيمور بأن الظاهر عيسى لم يكن مخلصاً في ولائه لتيمور، ولا سيما خلال انهماك الفاتح التركي في حروبه في بلاد الشام، وفسر تيمور وقوف الظاهر عيسى على الحياد خلال ذلك الوقت بأنه عمل ينم عن الخبث... ولما عاد تيمور من حروبه في بلاد الكرج في العام نفسه ندم الظاهر عيسى على تصرفه السابق ــ وربما ليأسه من مساعدة المماليك ــ وتوسط له شاه رخ فعُفي عنه وقابل تيمور وجثى امامه على ركبتيه، وتعهد بدفع ما يترتب عليه من خراج سنوياً.. وتزوج حفيد تيمور أبو بكر بن ميرانشاه من احدى بنات الظاهر عيسى (شهاب ٣٣٤).

(١) عِرنين الأنف: تحت مجتمع الحاجبين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشَّمَمْ.

(٢) الدرز: واحد دروز الثوب، فارسي معرب.

(٣) الرتق ضد الفتق. وقد رتق الفتق فارتتق أي التأم ومنه قول الله تعالى: « كانتا رتقاً ففتقناهما » سورة الأنبياء الآية ٣٠ (مختار الصحاح ص ١٥٧).

كأن معولهم في نقب تربتها منقار طير على صلد من الحجر
أو عذل ذي حسد صَبّاً به صمم أو غمز عين مُعنى فاقد البصر

واستمر على اللدد والخصام، الى العشرين من شهر الصيام[1]، ولم يحصل على طائل، ولم يظفر بمرام.

ذكر تركه في المحاصرة، العناد والمكابرة، وتوجهه بمارديه ذوي الفساد عن ماردين إلى بغداد

ولما علم أنه مُنَى منها[2] بالداهية الدهيا، وطلاب مالا يستطاع عيا، والمكابرة مع الحق خروج عن المنهج، والبلاغة في غير مقامها عي لجلج، ستَر عيبه، وأبقى بعض الحرمة والهيبة، وخرب المدينة وأسوارها، ومحا آثارها، وهدم مآذنها وجوامعها ومنارها، وفك أساسها وأحجارها، ثم انحدر الى بغداد، بعساكر كالذرّ والفراش والجراد، وجهز بعض الثقل الى سمرقند مع الله داد، فوصلوا الى مدينة صور وليس فيها بيت مشاد، ثم إلى أخلاط[3] وعيد الجوز وهي بلاد الأكراد، آهلة عامرة البنيان، وأول ماهو جار تحت حكمه من ولايات تبريز وأذربيجان. فعيد الثقل بعيد الجوز عيد رمضان، ثم دخلوا الى ولايات تبريز ثم الى سلطانية ثم الى ممالك خراسان.

وكان اذ ذاك وقد خرج فصل الشتاء، وفصل الربيع تزيَّن وأتى، وصفحات الرياض بأنامل صباغ القدرة تلونت، وعروس الروض قد أخذت من صواغ الحكمة زخرفها وازيّنت، والأطيار في الأزهار، ما بين مائة بلبل وألف هزار، وقد شنفت الأسماع، واقامت السماع، واستمالت الطباع برخيم صوتها، وأحْيَتْ آثار رحمة الله الأرض بعد موتها، ولا زال الثقل بين تأويب وادلاج، وسير ولا سير الحاج، كل يوم في مرحلة وكل ليلة في مقام، فوصلوا الى نيسابور ثم الى جام[4]، ثم قطعوا مفاوز باورد وماخان، ثم الى اندخوىٰ وانتهوا الى نهر جيحون، فعبروه بالمراكب، وساروا سير النجم الثاقب.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : رمضان. وشهر الصيام شهر رمضان.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : رمى.
(٣) خلاط : من أجَلّ مدن أرمينية، والبرد فيها قارس في الشتاء (لسترنج ص ٢١٨).
(٤) جام : إحدى كور نيسابور، اشتهرت بكثرة مزاراتها، فقد دفن فيها كثير من الرجال

ولم يزالوا منبعثين على ذلك انبعاثاً، فوصلوا الى سمرقند ثالث عشر المحرم يوم الثلاثاء، سنة أربع وثمانمائة، وفيهم من أهل الشام فئة، أمثلهم القاضي شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير، وباقيهم بياطرة، وصبَّاغون ونسَّاجة الحرير، وهذا أول ما تحمله من الشام من أحمال الأثقال، وباكورة ما وصل إلى سمرقند مما جناه من ثمر الأساري والأموال، ثم أرسل الأثقال تترى، بالأنفال وأحمال الأموال والأسرى.

(فصل) ثم ان تيمور وَلّى آمد قرايلوك عثمان[1]، وولى عن ماردين يوم الخميس العشرين من شهر رمضان، وكان خامس أيار، وجعل يعيث في تلك الديار، وخرب نصيبين ورعى مستغلاتها، ثم محا من صحف الوجود صور سورها وآياتها، وكانت خالية من سكانها خاوية من عامري عمرانها، ثم وجَّه الى الموصل همَّه، وأخنى عليها بكتائبه المدلهمة، فبعد أن أحلها الحين[2] وهبها لحسين بيك بير[3] حسين، ثم جمز[4] بزمجره، ناحية القنطرة، وأشاع أنه كفَّ فساده، وقصد بلاده، ولكن السلطان أحمد[5] كان قد تحقق أنه قاصد بغداده، وقد أوهم وورّى[6] كما له بذلك دأب وعادة.

الصالحين كالولي الزاهد شهاب أحمد الجامي، وكان هذا الولي مشهوراً حتى ان تيمور زار قبره بنفسه (بلدان الخلافة الشرقية ٣٩٦).
(١) عثمان بن قطلوبك أمير التركمان بديار بكر وصاحب آمد وماردين وغيرهما ويعرف بقرايلوك مات سنة ٨٣٩هـ (الضوء اللامع ١٣٥/٥).
(٢) الحين : بالفتح : الهلاك.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بن.
(٤) حمار جَمَزَىٰ بالقصر أي سريع والناقة تعدو (مختار الصحاح ص ٧٩).
(٥) سلطان بغداد له وقائع مشهورة مع تيمورلنك، مَلَك العراق بعد ابيه سنة ٧٧٦هـ وقتل سنة ٨١٣هـ (الضوء اللامع ٢٤٤/١).
(٦) يقول ابن تغري بردي عن تيمور بعد حصاره ماردين وهو عائد من الشام (وأوهم انه يريد سمرقند يُوَرِّي بذلك عن بغداد، وكان السلطان أحمد بن اويس قد استناب ببغداد أمير يقال له فرج، وتوجه هو وقرا يوسف نحو بلاد الروم، فندب تيمورلنك على حين غفلة أمير زاده رستم ومعه عشرون الفاً لأخذ بغداد... (النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٢).

ذكر ما فعله السلطان أحمد بن الشيخ أويس ، لما بلغه أنه توجه اليه ذلك النحيس

فلما بلغ السلطان أحمد[1] أن تيمور بعد أن تدمشق تمرد، ثم عزم على أن يتبغدد، وقال: العود أحمد، استعدّ ولكن للفرار، واستقر رأيه على أن لا قرار، ثم استناب نائباً يدعى فرج[2]، وأوصى اليه والى ابن البليقي بأمور وصحبة قرا يوسف[3] الى الروم خرج، وكان من جملة ما وصّى به أن لا يُغلق في وجه تيمور باب، ولا يسدل دون ما يرومه حجاب، ولا يُشهر في وجهه سيف، ولا يقابل فيما يأمر به بِلَمْ وكيف.

فبلغ تيمور هذه الأمور، فجهز ذلك المخاتل، الى بغداد عشرين الف مقاتل، وأمرَّ عليهم من أمرائه، ورؤساء وزرائه، والظلمة المعتدين، أمير زاده رستم وجلال الاسلامي وشيخ نور الدين، وأمر أن يكون المقدم، من الثلاثة الأمير رستم[4]، فاذا تسلموا بغداد، يكون هو حاكم البلاد، وحين غربت عن سماء بغداد شمس السلطان أحمد في غَرب الغُربة، ومدّ ظلام الظلم جناح العساكر التيمورية على آفاقها وأرسل عليه شُهبه، أَبَى فرج المذكور[5]، أن يسلم المدينة طوعاً، واستعد للمقاتلة فجمع ما

(١) صاحب بغداد .

(٢) الأمير فرج (النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٢).

(٣) قرا يوسف بن قرا محمد التركماني توفي في تبريز سنة ٨٢٣هـ مَلَك العراق بعد تيمورلنك (الضوء اللامع ٢١٦/٦).

(٤) أمر تيمور وهو في ضواحي ماردين قسماً من قواته عددها عشرون الفاً، أن يتقدم الى بغداد بقيادة رستم بن عمر شيخ الذي حاصر المدينة في العام الماضي. وعسكرت قوات رستم جنوب بغداد.

(٥) أناب السلطان أحمد جلايرّ على بغداد فرج قبل فراره الى آسية الصغرى لاجئاً الى السلطان العثماني بايزيد. وقد اتخذ فرج اجراءات الدفاع عن بغداد على الرغم من وصية السلطان أحمد له بعدم قتال تيمور. واستصرخ فرج حكام المدن المجاورة لبغداد فتدفقت على المدينة النجدات، ووقعت الاشتباكات بين المدافعين عن بغداد وقوات رستم، فانهزم فرج وقواته واعتصموا بأسوار بغداد.

عنده من أهبة المحاصرة فأوعى، فَأَطْلَعُوا تيمور على هذا الأمر[1]، وانتظروا ما يكون منه من نهى وامر، فثنى نحوها عنان الحنق، وأضمر ما تصل اليه يده من غرق وحرق، وأطل عليهم بغمام غمّ بعدما رعد وبرق، فوصل بتلك الفرق، وأحلّ بهم البؤس[2] والقلق، وأذاقهم لباس الجوع والغرق، فرجَّهم أي رجّ، وحاصرهم في أشهر

(١) أرسل رستم يُعلم جدّه الذي كان ينزل في ذلك الوقت حول ماردين، بعزم حاكم بغداد على المقاومة، ولذلك رفع تيمور الحصار عن ماردين وتقدم على وجه السرعة نحو الجنوب. ونزل بجوار قرية العُقاب في ١٦ شوال ٨٠٣هـ = ٣١ أيار ١٤٠١م وبدأ بحصار بغداد. وأخذ النقابون يحاولون فتح ثغرات في الاسوار، كما مُدَّ جسر جنوب بغداد عند قرية العقاب، ونصبت المنجنيقات ... ولم يتراجع فرج عن موقفه بعدم تسليم المدينة على الرغم من ظهور تيمور أمام أسوار بغداد.

ويقول ابن قاضي شهبة أن تيمور هو الذي تعمد إخفاء وصوله للاشتراك بحصار بغداد، بسبب قلة القوات التي كانت لديه في ذلك الوقت، لأن معظم قواته كان قد ارسلها في حملات صغيرة في مختلف الاتجاهات. وكانت بعض القوات التيمورية قد اتجهت إلى تبريز. وظل تيمور يخفي حقيقة وجوده قرب بغداد حتى اصدر أوامره لتلك القوات للالتحاق به في بغداد لحصار المدينة. (شهاب ٣٣٤).

(٢) وقد شددت القوات المغيرة حصارها على بغداد وكان الوقت صيفاً. وأخذت أشعة الشمس المحرقة تفتك حتى بالطيور والدجاج الذي كان يتساقط ميتاً من شدة الحرارة. واستمر الحصار أربعين يوماً من ١٦ شوال الى ٢٧ ذي القعدة = ٣١ أيار الى ١٠ تموز ١٤٠١م، دون أن يحظى المحاصرون بطائل من المدينة، على الرغم من إحداثهم ثغرة في السور لأن أهالي بغداد تمكنوا من سد الثغرة بصورة سريعة. واستمر الحصار كما يقول المؤرخ الفارسي يزدي الى أن حل القضاء يوم ٢٧ ذي القعدة = ١٠ تموز ١٤٠١م عندما ترك المدافعون عن احد الأبراج (وهو برج العجمي) مواقعهم وذهبوا الى بيوتهم لتناول الطعام، بعد أن أعيتهم شدة الحرارة، وبعد أن تركوا خوذهم على عصي أسندوها الى السور، لايهام الأعداء بأنهم لا يزالون في اماكنهم.

وسرعان ما اكتشفت قوات تيمور المحاصرة الحيلة. فتسلق الجند السور عند هذا البرج، وتمكنوا من السيطرة عليه، ومن احتلال بقية الأسوار وفتح ابواب المدينة. ولم يشعر سكان بغداد الا والأعداء قد أصبحوا داخل المدينة، فحاول بعضهم الفرار عن طريق نهر دجلة، ومنهم من القى بنفسه في ماء النهر لينجو سباحة، ولكن قوات الأعداء صدَّتهم عند الجسر الذي كانت قد اقامته في جنوب المدينة، وتمكنت من أسر الكثيرين منهم، كما غرقت

الحج[1]، فثبتت مقاتلتهم وأكثروا من عساكره القتلى والجرحى، فحنق أشد الحنق، وزحف عليهم برجله[2] وخيله فأخذها عنوة يوم الأضحى[3]، فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين وعليهم ضحّى.

ثم أمر من هو في دفتر ديوانه محسوب، والى يزك عساكره من الجند والجيش منسوب، أن يأتيه من رءوس أهل بغداد برأسين، فسقوا كل واحد من خمرة سلب الروح والمال كأسين، ثم أتوا بهم فرادى وجملة، وجاروا بسيل دمائهم نهر الدجلة[4]. وطرحوا أبدانهم في تلك الميادين، وجمعوا رؤوسهم فبنى بها مآذين[5]،

أعداد من سكان بغداد في النهر. ولما حاول حاكم المدينة فرج الفرار بهذه الطريقة رماه الأعداء بوابل من السهام فانقلب زورقه ومات غرقاً.

(١) من قول الله تعالى في القرآن الكريم (الحج أشهر معلومات): وهي شوال ـــ ذو القعدة ـــ ذو الحجة ـــ محرم.

(٢) برجاله.

(٣) يوم الأضحى العاشر من ذي الحجة، فقد ذكر ابن عربشاه ان احتلال بغداد كان في ذلك اليوم، وكذلك ذكرت ذلك المصادر التي اخذت عنه مثل ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٢) وكذلك فعل العسقلاني ج ٢ ص ٢٠٨. بينما ذكرت المصادر الأخرى احتلال بغداد في ٢٧ ذي القعدة (شهاب ٣٣٥).

(٤) يقول ابن تغري بردي عن احتلال بغداد (النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٢) (... ونزل على بغداد، وحصرها حتى أخذها عنوة في يوم النحر من السنة، ووضع السيف في أهل بغداد.

حدثني الأمير أسنباي الزردكاش الظاهري برقوق ـــ وكان أسر عند تيمور، وحظى عنده، وجعله زردكاشه عند أخذ بغداد وحصارها ـــ بأشياء مهولة، منها أنه لما استولى على بغداد ألزم جميع من معه أن يأتيه كل واحد منهم برأسين من رؤوس أهل بغداد، فوقع القتل في أهل بغداد وأعمالها، حتى سالت الدماء أنهاراً، حتى أتوه بما أراد، فبنى من هذه الرؤس مائة وعشرين مئذنة، فكانت عدة من قتل في هذا اليوم من أهل بغداد تقريباً مائة ألف انسان. وقال المقريزي: تسعين ألف انسان، وهذا سوى من قتل في ايام الحصار. وسوى من قتل في يوم دخول تيمور الى بغداد، وسوى من القى نفسه في الدجلة فغرق، وهو أكثر من ذلك). ودجلة: نهر مشهور بالعراق يشق مدينة بغداد، لا تلحقه اداة التعريف قط، فلا يقال الدجلة (النجوم الزاهرة حاشية (٤) (٢٦٦/١٢).

(٥) مآذن.

فقتلوا من أهل بغداد نحواً من تسعين ألف نفس صبراً، وبعضهم عجز عن تحصيل البغدادين فقطع رءوس من معه من أهل الشام وغيرها أسرى، وعجز بعض عن رءوس الرجال، فقطع رءوس ربّات الحجال[1]، وبعض لم يكن معه رقيق، فاصطاد من وجده في طريق، أو اغتال من معه من رفيق، وفدى نفسه بعدو وصديق، ولم يلتفت الى شفيق وشقيق، إذ لم يمكنهم الخروج عن ربقة الطاعة، ولا يقبل منهم عدل ولا تنفعهم شفاعة.

وهذا العدد المذكور، سوى من قُتل وهو محصور أو قُتل في مضيق، أو مات في الدجلة وهو غريق، فقد ذكر أن خلقاً ألقوا أنفسهم في الماء وماتوا غرقى، ومن جملتهم فرج فانه ركب سفينة وأبق[2]، فَاحتوشوه من الجانبين بالسهام فجرحوه وانقلبت السفينة فأدركه الغرق، فبنىٰ من المآذين نحواً من مائة وعشرين، كذا أخبرني القاضي تاج الدين أحمد والنعمان الحنفي الحاكم ببغداد كان، وتوفى غرة المحرم سنة أربع وثلاثين وثمانمائة بدمشق رحمه الله تعالى.

ثم ان تيمور خرَّب المدينة، بعد أن أخذ ما بها من أموال خزينة[3]، وأفقر أهلها، وأقفر منازلها، وجعل عاليها سافلها[4]، وصارت بعد أن كانت مدينة السلام، دار

(١) النساء. يقول ابن تغري بردي نقلاً عن الأمير اسنباي: قال: وكان الرجل المرسوم له بإحضار رأسين اذا عجز عن رأس رجل قطع رأس امرأة من النساء وأزال شعرها وأحضرها. قال: وكان بعضهم يقف بالطرقات ويصطاد من مرَّ به ويقطع رأسه (النجوم الزاهرة ٢٦٦/١٢).

(٢) أبق: هرب.

(٣) أموال مخزونة.

(٤) تقول المصادر الفارسية ان تيمور غضب لكثرة القتلى من جنده الذين سقطوا خلال عملية احتلال المدينة، فأصدر أوامره للقيام بمجزرة عامة لسكان بغداد دون تفريق بين كبير وصغير أو غني أو فقير، فهدمت المدينة حتى أضحت خاوية على عروشها، وتعترف المذكرات بأن الانتقام كان عاماً وتقول على لسان تيمور عن بغداد «فقد عملت على هدم جميع البيوت وقلاع تلك المدينة».. وكان القصد من هذا العمل ـــ كما ذكر يزدي ـــ العبرة لمن ينوي المخالفة... وقد أدى انسياب دماء الضحايا الى دجلة عفونة في الهواء مما اضطر تيمور الى الانسحاب من المدينة الى ظاهرها على بعد فرسخ منها وكان ←

السام، وأسروا من بقي من ضعفة أهلها فتمزق، ومزقتهم أيدي الزمان كل ممزق، بعد أن كانوا في ظلال ودلال، ومن مساكنهم في جنتين عن يمين وشمال، فاليوم عَشَّش البوم والغراب أماكنهم، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وهذه المدينة هي أشهر من أن توصف، وعُرفُ عَارِفتها وعرفانها أذكى من أن يُعرَّف، وناهيك، أنها كاسمها مدينة السلام، وانه على ما قيل لم يمت بها إمام.

ذكر رجوع ذلك الطاغ واقامته في قراباغ

ثم ألوى بتلك الأتراك التي يصح أن يقال لكل منهم أنه في التركية طاغية طاغ[1] وعزم أن يُشَتّي[2] في مكان يصلح أن يكون في الترك والعرب كصفاته وذاته قراباغ،

الانسحاب في ٦ ذي الحجة = ١٩ تموز ١٤٠١ بعد أقل من عشرة أيام من الاحتلال وبعدما حمل معه ما بقي من أموال ومتاع في المدينة، وساق أغلب من بقي من سكانها أسرى (شهاب ٣٣٦).

(١) بعد حمام الدم الذي أوقعه تيمور في بغداد، واضطراره للانسحاب من المدينة بسبب عفونة في الهواء من انسياب دماء الضحايا في دجلة، أقام على بعد فرسخ من بغداد، وأمر من موقعه الجديد خارج بغداد مجموعات من قواته بالتوجه الى الحلة والنجف من اعمال العراق، في غارات لملاحقة من استطاع النجاة من مذبحة بغداد.
وبعد ذلك تقدمت جيوش تيمور بقيادته باتجاه شمال شرق الى نهر زور، ومنها الى منتجع نهر جفاتو، في جنوب بحيرة أورمية، وجرى له في هذا المنتجع استقبال حافل أمضى فيه عشرين يوماً قضاها ـــ كما ذكر يزدي ـــ في عقد حلقات البحث والمناظرات في المسائل الشرعية.
وبلغته في موقع جفاتو استغاثة تابعه طهارتن حاكم أرزنجان، يشكو اليه تهديدات السلطان العثماني بايزيد. ثم تابع تيمور وتقدم من هناك الى تبريز. ثم انطلق في جولة في ربوع بلاد الكرج. واستقر به المقام أخيراً في آخر ربيع الثاني عام ٨٠٤هـ = ٢٢ ـــ ٢٨ تشرين الثاني ١٤٠١م في منتجعه المفضل قراباغ (شهاب ٣٣٦).

(٢) قضاء الشتاء.

وأمسى كالبازي المطل بل كالبوم في الشؤم مراقباً أطراف الافاق[1] وخصوصاً ممالك الروم[2].

ذكر مراسلة ذلك المريد سلطان الروم يلدريم بايزيد

فراسل سلطانها بايزيد[3] المجاهد الغاز[4]، وصرح بما يروم من بلاد الروم[5]، من

---

(١) يقول ابن تغري (النجوم الزاهرة ٢٦٧/١٢) (ثم رحل تيمور عن بغداد وسار حتى نزل قراباغ بعد أن جعلها دكاً خراباً، ثم كتب الى ابي يزيد بن عثمان صاحب الروم أن يخرج السلطان أحمد بن أويس [صاحب بغداد] وقرا يوسف من ممالك الروم والا قصده وأنزل به ما نزل بغيره ....).
ومن قراباغ وصلت الى مسامع تيمور سير حفيده محمد سلطان من سمرقند على رأس مدد من القوات تمهيداً للغارة التي ينوي القيام بها على بلاد العثمانيين.

(٢) ممالك الروم: وأرض الروم تطلق على آسية الصغرى، وكان يطلق على الاتراك العثمانيين ابناء الروم أو الروم، والى عهد ليس بالبعيد كان يطلق على الامبراطورية العثمانية مملكة الروم، كما أطلق علماء الجغرافيا من العرب اسم الروم وأرض الروم على شبه جزيرة الأناضول.

(٣) بيايزيد: أبو يزيد بن مراد باك بن أرخان بن أردن علي بن عثمان بن سليمان بن عثمان خوند، كان سلطان الروم ويعرف بيلدرم بايزيد وهو بالتركي البرق ويُكنى به عن الصاعقة، اقيم في ممالك الروم التي كرسيها برصا بعد موت أبيه في سنة ست وتسعين وسبعمائة فأرغى على سلفه. وقد أسره تيمور وأخذ برصا وبعض بلاد الروم واستمر معه في الأسر حتى مات في ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة عن نحو خمسين سنة كان تسع سنين منها في المملكة (الضوء اللامع ١٤٨/١١).
ـــ ويقول ابن العماد في ترجمته كان من خيار ملوك الأرض وكان الأمن في بلاده فاشياً للغاية وكان يشرط على كل من يخدمه أن لا يكذب ولا يخون الى غير ذلك من الأوصاف الحسنة.

(٤) الغازي، وقد اشتهر بغزواته وجهاده يقول السخاوي (واشتهر بالجهاد في الكفار حتى بَعُد صيته وكاتبه الظاهر برقوق وهاداه، وكان يقول لا أخاف من اللنك فكل أحد يساعدني عليه إنما أخاف من ابن عثمان، وكان ملكاً عادلاً عاقلا شفوقاً على الرعية كثير الغزو، واتسعت مملكته (الضوء اللامع ١٤٨/١١).

(٥) آسية الصغرى.

غير كناية وَالغاز، وجعل السلطان أحمد[1] وقرا يوسف[2] سبباً، وذكر انهما من سطوات سيوفه هربا، وأنهما مادَّة الفساد، وبوار البلاد، ودمار العباد[3]، وَسِنْخُ[4] الخمول والادبار، وكفرعون وهامان في العلو والاستكبار[5]، (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين)[6] وقد صارا بمن معهما في حمى ذراكم[7] ، لاطئين[8] ، وأينما حَلُّوا حلَّت التعاسه والشوم، وحاشا أن يكون مثلهما من المفلوكين تحت جناح صاحب الروم، فاياكم أن تأووهم بل أخرجوهم، وخذوهم واحصروهم (واقتلوهم حيث وجدتموهم)[9] واياكم ومخالفة أمرنا، فتحل عليكم دائرة قهرنا، فقد سمعتم قضايا مخالفينا وأضرابهم، وما نزل بهم منَّا في حرابهم وضرابهم (وتبين لكم كيف فعلنا

(١) السلطان أحمد بن أويس سلطان بغداد مَلَكَ العراق سنة ٧٧٦هـ وقتل سنة ٨١٣هـ (الضوء اللامع ١/٢٤٤) يراجع احتلال تيمور لبغداد في الصفحات السابقة .

(٢) قرا يوسف بن محمد التركماني وكان حليف سلطان بغداد على تيمور، توفي في تبريز سنة ٨٢٣هـ وقد مَلَكَ العراقين بعد تيمور (الضوء اللامع ٦/٢١٦).

(٣) وكان السلطان أحمد وقرا يوسف قد هربا من وجه تيمور الى بايزيد، وتقول المذكرات التيمورية ان السبب المباشر لعودة تيمور الى بلاد الروم لقتال بايزيد، كانت تلك الغارة التي قام بها قرا يوسف التركماني اللاجيء الى السلطان بايزيد على احدى قوافل الحجاج التي كانت تقصد الحجاز، والتجاء بعض من ناالهم الأذى من افراد القافلة الى تيمور، والحاحهم عليه للتدخل والانتقام لهم. ولذلك شعر تيمور بضرورة معاقبة قرا يوسف، وتنبيه حاميه السلطان بايزيد من غفلته (شهاب ٣٤٠).

(٤) السنخ: الأصل .

(٥) فرعون : ملك مصر الذي ذكره القرآن الكريم في مواضع عديدة في قصته مع نبي الله موسى عليه السلام، وهامان وزيره الذي ذكره القرآن الكريم ايضاً (وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمتُ لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع الى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين) ـــ سورة القصص ٣٨ .

(٦) سورة القصص من القرآن الكريم الآية (٨).

(٧) الذرا ـــ بالفتح ـــ كل ما استذريت به، يقال أنا في ظل الرجل، وفي ذراه، أي في كنفه وستره .

(٨) كأ بالأرض: لصق .

(٩) سورة النساء آية ٨٩ .

بهم)[1] فلا تكثروا بيننا وبينكم القيل والقال، فضلاً عن جدال وقتال، فقد بيَّنا لكم البراهين وضربنا لكم الأمثال، وفي أثناء ذلك أنواع التهديد والتخويف، وأضاف التهويل والأراجيف[2] .

(١) سورة إبراهيم آية ٤٥ .

(٢) وردت مراسلات بين بايزيد وتيمور ذكرها المؤرخون الفرس. فقد ذكر يزدي أن تيمور عندما كان يقيم في إحدى ضواحي تبريز بعد انسحابه من العراق. فقد جاءته أخبار تحرك بايزيد على رأس عشرة آلاف فارس، للقيام بغارة مفاجئة على هذا المكان، للايقاع بتيمور. ولذلك فقد تحركت قوات تيمورية على الفور بقيادة شاه رخ للتصدي لهذه الغارة. وانسحب تيمور الى تبريز ويتابع يزدي الحديث إن شاه رخ تقدم حتى حصن أونيك، حيث بلغته رسالة من طهارتن تفيد بأن السلطان العثماني اضطر للتراجع خائفاً، عندما علم باكتشاف أمر هذا الهجوم، فأرسل الى طهارتن يرجوه أن يبلغ تيمور اعتذاره على جرأته غير الحميدة. ولما اطلع تيمور على عروض بايزيد للصلح، من أجل أن يتمتع المسلمون بالأمن، وتحقن دماؤهم وتصان مصالحهم، وعلم أن السلطان العثماني قد أطلق سراح أسرة طهارتن التي كانت أسيرة عنده، فقد فترت همته عن متابعة القتال. ولذلك فقد أرسل في طلب بعض زوجاته من سمرقند، للقيام بجولة استجمام في ربوع اذربيجان وبلاد الكرج. وتبادل تيمور وهو يقوم بجولته في بلاد الكرج مع بايزيد سلسلة من الرسائل، ظهر من خلالها أن الطرفين يريدان الصلح والسلم وتلافي الحرب، وكانت هذه الرسائل مغفلة التاريخ.

واستهل بايزيد مرحلة المراسلات بتوجيه رسالة حملها الى معسكر تيمور في قراباغ، أحد القضاة العثمانيين برفقة أحد الأمراء من البيت المالك العثماني. ويقول يزدي إن الرسالة تضمنت استعداد بايزيد لاظهار الطاعة والانقياد، وربما كان ذلك سبباً في عدم اشارة المؤرخ التركي فريدون اليها ....

وقد أشار تيمور في ردّه الى أن اختلاف كلمة المسلمين يستدعي شماتة الكفار، وقال عن قرا يوسف الذي تقع ممتلكاته بين ممالك المسلمين، إنه لص وقاطع طريق ومفسد. وقد الحقت أعماله الضرر بالمسلمين، وفَرَّ من ملاحقة تيمور الى بايزيد الذي قَدَّمَ له الحماية. ولذلك فهو يطالب بمحاسبته على أعماله، أو تسليمه اليه لتتم مجازاته، وعند ذلك تتوطد الصداقة بين الطرفين، ويصبح تبادل المساعدات لقتال الكفار أمر ممكناً.

واشتملت الرسالة كما أوردها المؤرخ التركي فريدون على المطالبة باصلاح ذات البين بين المسلمين، وتعترف بما قام به أجداد بايزيد من السلاطين العثمانيين من جهاد في قتال أعداء ←

الدين، ولكن تيمور في مقابل ذلك كان يقابل كفار المشرق. وتهاجم الرسالة دولة المماليك التي لا تزال تحتفظ باتلاميش أسيراً في القاهرة. ولذلك فهو يصرح بأنه عازم على التوجه الى مصر لاحتلالها، وتخليص أسيره هناك، ويصف كلاً من أحمد جلاير وحليفه قرا يوسف بأنهما قاطعا طريق، ولذلك فان أراد بيازيد تجنب القتال فعليه أن يتخلى عنهما، مقابل قيام تحالف بين الدولتين ضد اعداء المسلمين، في بلاد الكرج ومنطقة طرابزون، ويختم تيمور الرسالة بالاشارة الى ضرورة تبادل الوفود والرسائل بصورة دائمة.

وكان الوفد العثماني قد أمضى في معسكر تيمور فصل الشتاء. وعاد بعد ذلك الى بلاده، يحمل ردّ تيمور هذا في أول فصل الربيع. وجاء ردّ بيازيد على رسالة تيمور وقال فيه أنه إذا كان تيمور صادقاً، فان قرا يوسف سوف ينزل على طاعته. ثم يعلمه بموافقته على اقتراحه بقيام تحالف بين الجانبين، ولذلك فقد أرسل اليه أحد كبار الأمراء، ليؤكد أمامه رغبته بالصلح، ويقسم على ذلك. ويتابع بيازيد كلامه قائلاً وعند ذلك فان العلاقات بين الطرفين سوف تتحسن وينحسم النزاع وتصان مصالح المسلمين.

وقال عن أحمد جلاير وقرا يوسف، بأنهما قد عوملا على مبدأ اكرام الضيف، حسب ما اعتاد عليه السلاطين العثمانيون، في معاملة من يطلب حمايتهم... ويطالب الرد أخيراً بأن يتراجع عن سيواس، وأن يعيدها الى السلطان العثماني، ويجعل ذلك شرطاً للصلح والتفاهم.

وتوقفت المراسلات بين الطرفين مدة قصيرة من الزمن بين رجب ورمضان ٨٠٤هـ = شباط ونيسان ١٤٠٢م وكان تيمور خلال هذه المدة يتابع جولته في بلاد الكرج. وعندما بلغ مدينة منكول استأنف المراسلات وبعث للسلطان العثماني رسالة جديدة، طالب فيها — كما يقول يزدي — التراجع عن «كاخ» لأنها في نظره من أملاك تابعه طهارتن وربما كان هذا الطلب رداً على مطالبة بيازيد باسترجاع سيواس، ولم يلبث تيمور أن غادر منكول وبلاد الكرج في شعبان = نيسان وظهر على رأس قواته في أونيك شرقي الأناضول في رمضان ٨٠٤هـ = أيار ١٤٠٢م وتوغلت بعض فرق الفرسان نحو الغرب بحجة البحث عن اعلاف لخيولها. وبقي تيمور في أونيك مدة شهرين ينتظر عودة رسله بجواب بيازيد، وتذرع بتأخر عودة الرسل ولذلك فقد قرر القيام بغارة على مدينة كاخ، الواقعة عند المجرى الأعلى للفرات وهي أقرب المواقع العثمانية الى أونيك، حيث كانت تقوم معسكراته (شهاب ٣٤٢).

وكان ابن عثمان عنده رقاعة وشجاعة، ولم يكن عنده صبر ساعة، مع أنه كان من الملوك العادلين، وعنده تقوى وصلابة في الدين، وكان اذا تكلم وهو في صدر مكان، فلا يزال في حركة واضطراب حتى يصل الى طرف الايوان.

وكان بواسطة عدله ساعده الزمان، وقويت شوكته في المكان، فاستصفى ممالك قرمان، وقتل ملكها السلطان علاء الدين وأسر له عنده ولدان، واستولى على ممالك منتشا وصاروخان، وهرب منه الى تيمور الأمير يعقوب بن علي شاه حاكم ولايات كرميان[1]، وصفا له من حدود جبل بالقان، من ممالك النصارى الى ممالك أرزنجان.

فلما وقف على كتابه، وفهم فحوى خطابه، نهض وربض، وامتعض وارتمض، ورفع صوته وخفض، وكأنه تجرَّع نقوع الحضض، ثم قال أو يخوفني بهذه الترهات، ويستفزني بهذه الخزعبلات؟ أو يحسب أنني مثل ملوك الأعجام، أو تتار الدشت الأغتام؟ أو في جمع الجنود، كجيش الهنود، أو جندي في الشقاق، كجمع العراق أو ما عندي من غزاة الاسلام، كعساكر الشام، أو أن قفله المجمع كجندي.

أو ما يعلم أن أخباره عندي؟ وكيف ختل الملوك وبختر، وكيف تولى وكفر، وما صدر عنه وعنهم، وكيف كان كل وقت يستضعف طائفة منهم، وأنا أفصِّل جُمل هذه الأمور، وأكشف ما خزنه في التامور[2].

أما أول أمره فحرامي سفَّاك الدم، هتَّاك الحرم، نقَّاض العهود والذمم، طرف منحرف عن الصواب في الخطا، فَصَالَ وجال وجار وصار وسطا، ثم طال واستطال، واتسع له المجال، وغفل عن الرجال، ومن حين نبغ، استصبى حتى شاب الشيب بالعيب فأدرك وما بلغ، فالتهبت فتيلته بعد أن كانت شرارة، وانتشرت فروع حبته فصارت غرارة.

أما ملوك العجم فانه استنزلهم بدخله وختله، ثم استفزهم بخيله ورجله[3]، وبادر الى قتلهم بعد أن أمكنتهم فرصة قتله.

---

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كرمان.

(٢) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: النامور.

(٣) رجاله.

وأما توقتاميش خان[1]، فان غالب عسكره خان، ومن أين للتتار الطغام[2]، الضرب بالبتار الحسام؟ وما لهم سوى رشق السهام، بخلاف ضراغم الأورام[3]

وأما جنود الهنود، فانه ختلهم في أمرهم، وردّ كيدهم في نحرهم، فوهت[4] أركانهم، لا سيما وقد مات سلطانهم.

وأما عساكر الشام. فأمرهم مشهور، وما جرى عليهم فظاهر غير مستور، ولما مات سلطانهم[5]، وتضعضعت أركانهم، وانقض أمرهم وانفض، وبغى بعضهم على بعض، فقطعت منهم الرءوس الكبار[6]، ولم يبق فيهم إلا رءوس صغار، فنثر الزمان نظامهم، وسام التبدد مُلكهم وشامهم، مع أنهم في الصُوَر ربيع وفي المعاني جُمادى، يرمون بواحدة وهي انهم يبيتون جميعاً ويقومون مثنى وفرادى، لا جرم تفرقت ايادي سبا[7] أحزاب تلك الزمر، فاشتغل جيشه فيها بالمحرم فباض لما خلا له الجو وصفر، ولو كان بينهم اتفاق لفتوه فتاً، وبددوا شمله وبتوه بتاً، ولكنهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)[8] ومع اتساق نظامهم، وتسديد سهامهم، وقوة نطاحهم، وشدة كفاحهم، وشدة رماحهم، وكونهم ظهر الحاج، وأسود الهياج، أنّى لهم نظام عساكرنا، وقوة القيام بتظافرنا وتناصرنا؟

وكم فرْق بين من تكفل بأمر الحفاة العراة، وبين من تحمل إصر الكُماة الغزاة، فان الحرب دأبنا، والضرب طِلابُنا، والجهاد صنعتنا، وشرعة الغزاة في سبيل الله تعالى شرعتنا، ان قاتل أحد تكالباً على الدنيا، فنحن المقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، رجالنا باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة.

(١) سلطان القبجاق توقتاميش خان.
(٢) الطغام: أوغاد الناس.
(٣) الأروام: العثمانيين.
(٤) ضعفت.
(٥) السلطان المملوكي الظاهر برقوق المتوفى سنة ٨٠١هـ.
(٦) يشير الى مقتل كبار أمراء المماليك مثل تنم الحسني نائب الشام والاتابكي ايتمش راجع التعليقات على أحوال الشام في الصفحات السابقة.
(٧) تفرقوا أيادي سبا: تبددوا.
(٨) سورة الحشر آية (٤).

فكم لضرباتهم في آذان الكفار من طنّة، ولسيوفهم في قلانس القوانس من رنّة، وَلِنُون قِسِّيهم في خياشم بني الصليب من غُنّة[1]، لو سِمْنَاهم خوض البحار خاضوها، أو كلفناهم إفاضة دماء الكفار أفاضوها، وقد أطلّوا من صياصيهم على قلع قلاع الكفار وأخنوا عليها، وأمسكوا بعنان أفراسهم فكلما سمعوا هَيْعَة طاروا اليها، لايقولون لملكهم اذا غمرهم في البلاء والابتلاء إنا هاهنا قاعدون. فاذهب أنت وربك فقاتلا[2].

ومعنا من الغزاة مشاه، أفرس من فوارس الكماة، أطبارهم باترة، وأظفارهم ظافرة، كالأسود الكاسرة، والنمور الجاسرة، والذئاب الهاصرة، قلوبهم بودادنا[3] عامرة، لا تخامر بواطنهم علينا مخامرة، بل وجوههم في الحرب ناضرة (الى ربها ناظرة)[4].

وحاصل الأمر أن كل أشغالنا، وَجُلّ أحوالنا وأفعالنا، جمّ الكفار ولمُّ الأسرى وضم الغنائم، فنحن المجاهدون في سبيل الله الذين لا يخافون لومة لائم.

وأنا أعلم أن هذا الكلام يبعثك الى بلادنا انبعاثا، فان لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً، وإن قصدت بلادي وفررتُ عنك ولم اقاتلك البتة، فزوجاتي اذ ذاك طوالق ثلاثاً بتّة، ثم انهى خطابه، وردّ على هذا الطريق جوابه.

فلما وقف تيمور على جوابه القلق، قال ابن عثمان مجنون حمق، لأنه أطال وأساء، وختم ما قرأه من كتابه بذكر النساء، لأن ذكر النساء عندهم من العيوب، وأكبر الذنوب، حتى أنهم لا يلفظون بلفظ امرأة ولا بأنثى، وانما يعبرون عن كل انثى بلفظ

(١) يشير الى الفتوحات العثمانية في أوربا ويذكر المؤرخون أن جنود بيازيد قد حاصروا القسطنطينية وضم بلغاريا الى الأملاك العثمانية وانتصاره على ملك المجر... (يوسف الدبس: تاريخ سورية (٥/١).
(٢) يشير المؤرخ ابن عربشاه الى طاعة الجنود العثمانيين لسلطانهم وانهم ليسوا كاليهود الذين قالوا لموسى تلك المقالة التي ذكرها القرآن الكريم في سورة المائدة: (الآية ٢٤) حين طلب منهم الدخول الى الأرض المقدسة التي فيها قوماً جبارين (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون).
(٣) من الود والمحبة.
(٤) سورة القيامة آية ٢٣.

آخر ويحثُّون على الاحتراز عنه حثا ، ولو ولد لأحدهم بنت يقولون : ولد له مخدّرة ، أو ربات الحجال أو مسترة ،... أو نحو ذلك .

ذكر طيران ذلك البوم وقصده خراب ممالك الروم

فوجد تيمور[1] الى التوجه على ابن عثمان[2] السبيل ، وطلب الرفيق والطريق ، ورام الدليل ، وعرض جنده فاذا الوحوش حُشرت[3] ، وانبثوا على وجه الأرض فاذا الكواكب انتثرت[4] ، وماج فاذا الجبال سيرت[5] ، وهاج فاذا القبور بعثرت[6] ، وسار فزلزلت الأرض زلزالها ، ومار فأظهرت القيامة أهوالها ، وأرسل الى ولي عهده ، ووصيه من بعده ، حفيده محمد سلطان بن جهانكير ، أن يتوجه اليه من سمرقند صحبة سيف الدين الأمير .

وركب الى الروم الطريق ، وساعده الاتفاق لا التوفيق ، وجرى بذلك البحر المطلخم ، والليل المدلهم ، فدار وداخ ، وعلى قلعة كاخ أناخ[7] ، فاذا هي في الوثاقة كيقين مُوحِّد ، وفي الرصانة والمناعة كاعتقاد متعبِّد ، لا يقطع خندق مناعتها سهم

(١) لم يلبث تيمور بعد أن غادر منكول وبلاد الكرج في شعبان = نيسان وظهر على رأس قواته في اونيك شرق الأناضول في رمضان ٨٠٤هـ = أيار ١٤٠٢م ينتظر عودة رسله بجواب السلطان العثماني بيازيد على رسالته . وتذرع تيمور بتأخير عودة الرسل ولذلك فقد قرر القيام باجتياح مدينة كاخ واحتلالها ، التي تقع عند المجرى الأعلى لنهر الفرات (شهاب ٣٤٢).

(٢) السلطان العثماني بيازيد .

(٣) يشبه ابن عربشاه كثرة جنوده بالوحوش التي ستحشر يوم القيامة (سورة التكوير ــ الآية ٥).

(٤) القرآن الكريم ــ سورة الانفطار ــ الآية ٢ .

(٥) سورة التكوير الآية (٣).

(٦) سورة الانفطار الآية (٤).

(٧) مدينة كاخ أقرب المواقع العثمانية الى أونيك شرق الأناضول حيث كانت تقوم معسكرات تيمور في ذلك الوقت . وقد أشار المؤرخون الفرس وابن عربشاه الى حصانة كاخ ومناعة قلعتها . ومدينة كاخ تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، وكانت تطل من ناحية الجنوب ←

وَهْم ، ولا يهتدي الى طريق التوصل اليها صائب فَهْمْ ، مؤسس أركان هضابها معمار القدرة ، ومهندس بنيان قبابها نجار الفطرة ، ليست بالعالية الشاهقة ، ولا بالقصيرة اللاصقة ، غير انها في مناعتها وحصانتها فائقة .

من احدى جهاتها نهر الفرات يُقَبل اقدامها ، ومن الجهة الأخرى واد متسع يحفظ أعلامها ، لا يمكن للأقدام فيها الثبات ، وهو مسيل ماء يصب في نهر الفرات .

ومن الجهتين الاخريين هضاب ، يتلو لسان البصيرة عند وقوع البصر عليها (إن هذا لشيء عجاب)[1]. فأخذها من غير كلفة ، وَوَلَج حرمها من غير طواف بها ولا وقفة ، وذلك بعد أن قدم محمد سلطان عليه ، ووكل أمر حصارها وقتالها اليه .

وسبب ذلك أن الوادي الذي وراءها ، كان يردّ بالخيبة لوعورته من منه جاءها ، لكونه مزلة الأقدام ، واسع الأفعام بعيد مهوى المرام ، لا يثلب لسان السهم له عرض عرض ، ولا يثبت له تحت قدم غواص البصر قرار أرض ، فبمجرد ما وقع نظره عليها ، نظر بعين الفراسة اليها ، ثم أمر بقطع الأخشاب ، ونقل الاحطاب ، فلم يكن الا كلمح البصر ، حتى هدّموا البيوت وقطعوا الشجر ، ونقلوا جميع ذلك الخشب والأعواد ، وطرحوها في قعر ذلك الواد ، فساووا به الأرض ، وملأوا طوله والعرض ، وحين شعر أهل القلعة بهذه الفعال ، ألقوا النار والبارود على تلك الأخشاب فأخذت في الاشتعال .

وأما أساس القلعة فلا ينال ، لأنه راكب على قلل الجبال ، فلم يبدد ذلك من أمره ، ولم يشوش من فكره ، بل أمر في الحال ، كل واحد من الرجال ، أن يأتي من

على واد عريض ، ويحيط بها من الشرق والغرب تلال وهضاب ، تجعل الوصول الى المدينة لاحتلالها أمراً صعباً . وقد عانت قوات تيمور الكثير من الصعوبات حتى تمكنت من ملء الوادي الجنوبي بالاحطاب ، لتصل من فوق الأحطاب الى أسوار المدينة ، ولكن المدافعين عن كاخ استطاعوا اشعال النار في هذه الاحطاب ، فأمر تيمور بحمل الأحجار واعادة طم الوادي . وأشارت المصادر التيمورية الى أن الغزاة قد ضربوا الأسوار بالمنجنيقات وشبهت المعركة التي دارت عند هذه الأسوار بيوم الحشر . ووفق تيمور باحتلال المدينة في شوال من عام ٨٠٤هـ = حزيران ١٤٠٢م ، وأمر تيمور بالحاقها بأملاك طهارتن . (شهاب ٣٤٤).

(١) سورة ص آية ٥ .

تلك القفار، بعدل من الأحجار، فانبثوا كالنمل والجراد، في تلك المهامه والاطواد، والبراري والمهاد، (وجابوا الصخر بالواد)[1]

ففي الحال ملأوا تلك الدارة، من الحصباء والحجارة، ثم أمر أن يفعل بتلك الحجارة في ذلك المهوى البعيد، ما يفعل بهم في جهنم يوم يقال لها (هل امتلأت وتقول هل من مزيد)[2] فألقوا في ذلك الوادي بعض مالموه، من أكداس تلك الحجارة فطمّوه، وبقي في بيادر ذلك الحجر، أخفاف ما رمى من الصُبَرْ[3]، ولما امتلأ الوادي من الأحجار، مشوا عليها وقربوا من الأسوار، ونصبوا السلالم وتسلقوا، وبناصية مراميها تعلقوا، فأقلع أهل القلعة عن الكلام، وطلبوا الأمان وقالوا: ادخلوها بسلام.

وكان هذا الحصار والتلجئة، في شوال سنة اربع وثمانمائة، ولما استقر فيها أمر بتلك الأحجار أن تنقل من واديها، ففي الحال سفوها، وفي مكان أخذوها منه رموها، ثم ولّى بها شخصاً يدعى الشمس، وولّى عنها كما ولى أمس.

وهذه القلعة نحو من نصف يوم عن أرزنجان، ومن القلاع المشهورة في الدنيا بالمناعة والعصيان، فلا جرم حين استولى عليها، وأفضى بصارمه الذكر اليها، وفتحها قهراً، ومنحها جبرا، أبرد بهذا المغنم البارد، الى كل صادر في ممالكه وارد بكتب ترجم فيها من الأخبار كل سانح[4] وشارد.

وعنوان هذه الترجمة، بلفظها من غير ترجمة.

بحدّ سيوف داميات لدى الوغى فتحنا بحمد الله حصن كماخ

وذكر فيها ابن عثمان وخطابه اليه[5]، وكيف ردّ جوابه الحمق عليه، ومن جملته، وبعض ترجمته، إنا ما جفوناه ولا تعدينا عليه، ولكن رققنا له القول وتلطفنا اليه، وقلنا

(١) سورة الفجر آية ٩.
(٢) سورة ق الآية ٣٠.
(٣) ورد في بعض النسخ: البصر.
(٤) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: سائح.
(٥) بعد احتلال تيمور كماخ ذهب الى سيواس، ووافاه وفده الذي تأخر عند السلطان العثماني بايزيد، وعاد معه وفد عثماني يحمل ردّ السلطان العثماني، الذي كان يقيم في ذلك الوقت ←

له يُخرج من قروح مملكته مادّة الفساد، وهي احمد جلائري[1] وقرا يوسف التركماني اللذان أخربا البلاد، وأهلكا العباد، والرضى بالمعصية معصية، والاقرار على الكفر كفر، والفاسق المحروم البائس، شر من الفاجر الظلوم المُلابس، فصارا في الفساد وزيريه وهو الأمير، وفي العناد صغيرين وهو الكبير، وعاشراه على ذلك ووالياه فلبئس المولى وبئس العشير، فأفسداه وما انصلحا، وخسراه وما ربحا، فكانه عنى شأنهم، من أظهر قولهم وشأنهم بقوله:

ولا ينفع الجرباء قرب صحيحة اليها ولكن الصحيحة تجرب

على حصار العاصمة البيزنطية (القسطنطينية). وقد وصف المؤرخ الفارسي يزدي رسالة السلطان العثماني بأنها تنم عن غرور، وتتعدى حدود الأدب وسداد الرأي، وأن الحجج التي أوردها عن مدينة كماخ لم تقنع تيمور.

ويظهر من نص الرسالة كما أورده المؤرخ التركي فريدون، أنه يتصف بالشدة والحزم، فيتهم تيمور بالمكر والخداع وعدم الصدق في طلب الصلح. ويقول ان الحرب بين الدولتين أضحت أمراً لا مفر منه، ولذلك فقد اتخذ السلطان العثماني استعداداته لها، وسوف تدور على الباغي الدوائر.

هذا وقد ذهب بعض مؤرخي الشام ومصر الى القول إن عروض تيمور التي تكررت في رسائله للصلح والتفاهم قد أثرت على السلطان العثماني في أول الأمر، فجنح الى السلم، ولكن غارة الفاتح التركي على كماخ، جعله يتحقق من أن تيمور لا يحب الصلح ولا يذكره الا تخذيلاً. وقد أورد ذلك العسقلاني ٢٢٥/٢ والمقريزي في السلوك /٣ قسم ٣ ص ١٠٨١.

وقد أقام تيمور في سهول سيواس عرضاً عسكرياً لقواته، أمام أنظار الوفد العثماني الذي حمل اليه الرسالة الأخيرة، وسمح للوفد العثماني بعد انتهاء العرض بالانصراف، بعد أن حمل رسالة جاء فيها قول تيمور: أن مملكة بيازيد هي مملكة غزو وجهاد ولذلك فهي عزيزة علينا، وإن قواتنا التي تشكو الآن من التعب، تريد العبور من هذه البلاد للجهاد. ولذلك فان من واجب بيازيد أن يتساهل ويسلك مع هذه القوات العابرة طريق المجاملة، مما سيؤدي الى انطفاء نار العداوة. وربما كان قصد تيمور من رواء لين عبارة رسالته، وتوددة للسلطان العثماني، اخفاء عزمه على القتال. (شهاب ٣٤٣).

(١) سلطان بغداد.

ولم يزل على طريقته العوجا، فأشبه لمَّا أجارهم مجير أم عامر[1] العرجا، فنهيناه فما انتهى، ونَبَّهناه فما أرعوى، وأريناه العبر في غيره فما اعتبر، وناداه لسان انتقامنا من المخالفين الحذر الحذر، وكنا وضعنا اسمه مع اسمنا، على عادة حشمتنا وأدبنا في المراسلات ورسمنا، فتعدى طوره، وأبدى جوره، وكان في بعض مراسلاته، وما وضعه في مكاتباته، كتب اسمه تحت اسم طهرتن، وهذا هو الواجب عليه والحسن، ولا شك أن طهرتن بالنسبة الينا، كبعض خدمنا، وأقل حشمنا.

ثم انه أعنى بايزيد لما طالع كتابنا، وردّ جوابنا، وضع اسمه فوق اسمنا بالذهب، وهذا لما فيه من كثرة الحماقة وقلة الأدب، ثم ذكر أنه توجه يروم، استخلاص ممالك الروم، وتشدق في هذا الكتاب، وتفيهق في هذا الخطاب، فهو أحد دساتير الكتاب، والأساطير المستعان بها في الخطاب والجواب.

(١) وقصة هذا المثل: أن قوماً خرجوا إلى الصيد في يوم حار، فإنهم لكذلك إذ عرضت لهم أم عامر، وهي ضبع، فطردوها وأتبعتهم حتى ألجؤها إلى خباء أعرابي، فاقتحمته، فخرج إليهم الأعرابي، وقال: ما شأنكم؟ قالوا: صيدنا وطريدتنا فقال: كلا والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفي بيدي، قال: فرجعوا وتركوه، وقام إلى لقْحة فحلبها وماء فقرب منها، فأقبلت تَلِغُ مرة في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت، فبينا الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه، وشربت دمه وتركته، فجاء ابن عم له يطلبه فإذا هو بقير في بيته، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها، فقال: صاحبتي والله، فأخذ قوسه وكنانته وأتبعها حتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله ... يلاقِ الذي لاقى مجير أم عامر
أدام لها حين استجارت بقُربه ... لها محضَ ألبان اللقاح الدَّرائر
وأسمنها حتى إذا ما تكاملت ... فرتّه بأنياب لها وأظافر
فَقُل لذوي المعروف هذا جزاء من ... بدا يصنع المعروف في غير شاكر

(مجمع الأمثال للميداني. المجلد الثاني ص ١٤٤ رقم ٣٠٤١).

ذكر ما عزم ابن عثمان عليه عند انصباب ذلك الطوفان اليه

فلما بلغ ابن عثمان[1] ما قصده، وأنه جعل طالعه في سماء الحرب رصده، توجه لقتاله، واستعد لاستقباله، وكان على مدينة استانبول[2] محاصراً آثمها وكفارها، وقد قارب أن يفتحها وتضع الحرب عنها أوزارها، وأن جنده كان عنده، ولكن أمر بطارقة الغزاة، والشواهين من كواسر جيشه والبزاة، وسراة السرايا وكرام كَرْميان[3]، وأحلاس خيل السواحل وقروم قرمان، وأجناد ولايات منتشا وأساورة صاروخان، وجمع امراء التومانات[4] والسناجق، وأصحاب الرايات ورءوس الفيالق، ونواب[5] جميع الثغور والأمكنة، مما هو جار تحت تختي بروسا[6] وأدرنة، وكل من دبج البحر الأخضر من بني الأصفر، من رايته البيضاء بالدم الأحمر، وفاق سويداء كل عدو أزرق، بسهامه السود على جواده الأبلق، أن يعملوا مصلحتهم، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم.

واستعان في ذلك بكل بطريق وعلج[7] مارجي، داخل في امان المسلمين على قتال كل باغ وخارجي.

واستدعى التتار، وهم قوم ذو يمين ويسار، ناس سواذج، لهم مواش نواتج، ملأوا الأقطار بمواشيهم، وعلوا الشواهق والبواذي برءوسهم وحواشيهم، ربما يكون لواحد منهم عشرة آلاف جمل، ما منها واحد حَمل ومثل ذلك أفراس، ما أسرج لها ظهر ولا ألجم رأس، وأما الغنم والبقر. فلا يحصى عددها ولا يحصر (وما يعلم جنود ربك الا

(١) السلطان بايزيد.

(٢) استانبول الذي أصبحت بعد فتحها عام ١٤٥٣م من قبل السلطان العثماني محمد الثاني عاصمة الخلافة والسلطنة العثمانية، وتعرف قديماً باسم القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كرمان.

(٤) التومان: يطلق الى الان على عملة صغيرة في ايران. والتومان يطلق ايضاً على الفرقة العسكرية المكونة من عشرة آلاف نسمة (تاريخ العراق ١٣١/١).

(٥) حكام الأقاليم المعينين من قبل السلطان.

(٦) برصا وتعرف ايضاً بروسة أو برسا. مدينة عظيمة في الأناضول (آثار الأدهار ٨٢٢) وهي في تركية اليوم.

(٧) البطريق: بكسر الباء ـــ القائد من قواد الروم. والعلج: الواحد من كفار العجم.

هو وما هي الا ذكرى للبشر)[1] لهم في ممالك الروم وقرمان الى ضواحي سيواس مشات[2] ومصايف، وللملوك والسلاطين عليهم اعتماد كما لهم في انواع المبرات وظائف، لو قصدهم فقير أو غريب أو طالب علم أو أديب، جمعوا له من الغنم والبقر، والصوف والشعر، والسمن والأقط والوبر، ما يكفيه وذويه الى آخر العمر، وكانوا يسعون لكثرتهم وما معهم من الأمم، ثمانية عشر ألف عالم فلبى كل من صدى هؤلاء الجبال مدى صوته بالاجابة، وبادر الى امتثال أوامره بالاطاعة والانابة، وانبعث اليه التتار بقضهم وقضيضهم بعثا، وقشت اليه أطواد عساكرها وبحار جنودها قثا، وحث على ملاقاة تيمور عساكر الغزاة والمجاهدين حثاً.

ذكر ما فعله ذلك الخداع المكار ونمقه في تفخيذه عن ابن عثمان جنودالتتار

وتلبَّث تيمور في أمره، واستورى زناد فكره، فأورى زناده ناره، أن يفخذ عن ابن عثمان تتاره[3]، فأرسل الى زعمائهم، والكبار من أمرائهم ورؤسائهم، وأميرهم بدعى بالفاضل، وكان في المكرمات من الأفاضل، غير أنه ما مارس الأيام، ولا اطلع على مكائد اللئام — ان حسبكم حسبي، ونسبكم متصل بنسبي، وان بلادنا بلادكم، وأجدادنا أجدادكم، فكلنا فروع نَبْعه، واغصان دوحه، وان آباءنا من سالف[4] العصر وغابر الدهر نشأوا في عش متوحد، ودرجوا في وكر غير متعدد،

(١) سورة المدثر الآية ٣١ .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مشتات .

(٣) حاول تيمور أن يفرق عن السلطان العثماني بايزيد اتباعه من التتار فقد كاتب أمراء التتار حتى استمالهم اليه وذكر ابن عربشاه بعد صفحات كيف انحاز التتار الذين كانوا في صف العثمانيين الى صفوف تيمور أثناء المعركة الفاصلة بين الطرفين فهو يقول: (اندفعت من عساكر ابن عثمان التتار. واتصلت بعسكر تيمور كما رسم أولا وأشار. وكانوا هم صلب العسكر. والأوفر من عساكر ابن عثمان والأكثر. حتى قيل ان جماعة التتار. كانوا نحوا من ثلثي ذلك العسكر الجرار).

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قديم .

فأنتم في الحقيقة شُعبة من شُعَبي، وغصن من أغصاني، وجارحة من جوارحي، وخالصتي وخلاني، وانتم لي شعار، وباقي الناس دثار، وان كان الناس ملوكا بالاكتساب، فأنتم ملوك بالاكتساب والانتساب. وإن آباءكم في قديم الزمان، كانوا ملوك ممالك توران، فانتقل منهم طائفة من غير اختبار، الى هذه الديار، فاستوطنوها وهم على ماهم عليه من الكرامة، وشعار السلطنة وأسباب الزعامة، ولم يزالوا على هذا النشاط والهِزَّة، الى أن اندرجوا الى رحمة الله تعالى وهم على هذه العِزة.

وكان المرحوم أرثنا آخر ملوككم، وأكبر مالك في بلاد الروم أصغر مماليككم، وليس بحمد الله في شوكتكم فلة، ولا في كثرتكم قلة، فانى رضيتم لأنفسكم بهذه الذلة، وان تصيروا مسخرين حتى كأنكم من المسحرين؟ وبعد ان كنتم أكابر مكبرين، كيف صرتم أصاغر مصغرين؟ ولستم بدار هوان ولا مضيعة، وأرض الله واسعه، ولِمَ صرتم مرقوقي، رجل من أولاد معتوقي علي السلجوقي؟ ولا أدري ما العلة لهذا والسبب، ومن أين هذا الاخاء والنسب، سوى عدم الاتفاق، وانتفاء الاتساق، وعلى كل حال فأنا أولى بكم، وأحق بعمل مصالحكم وتهيئة اسبابكم.

وان كان لابد من استيطانكم هذه التخوم، وبيع تلك البلاد الفسيحة بمضايق ممالك الروم، فلا أقل من أن تكونوا كأسلافكم حكامها، مالكي نواصي صياصها راقين سنامها، باسطي اياديكم فيها قابضين زمامها.

وهذا المهم انما يتم اذا كفينا هذه المنازلة، وقضينا الأرب من هذه المناضلة، وتمهَّد لنا الميدان، وارتفع من البَيْن ابن عثمان، فاذا خلا الجو من المنازع، وصفت لي في هذه البلاد المشارع، وظفرت بهذه الممالك، وسلكت فيها الطرق والمسالك، أعطيت القوس باريها، وأنزلت الدار بانيها، ورددت المياه إلى مجاريها، وجعلتكم ملوك قراها وصياصيها، ومدنها وضواحيها، وقررت كل واحد منكم على قدر استحقاقه فيها. فان رأيتم أن لا تعينوا علينا، أو أمكنكم ان تنحازوا الينا، فاغتنموا فرصتكم، وخذوا من انتهازها حصتكم، فانكم قريبون منا صورة ومعنى، وأما الان بظاهركم مع ابن عثمان وبباطنكم معنا، حتى اذا التقينا امتازوا، والى عساكرنا انحازوا.

ولا زال فحل كلامه ينزو على حجر حجرهم ولا يجفر، مزخرفاً بتمويهات تزري فصاحتها بكلام الاسود بن يعفر، غائصاً في دُردُور أفكارهم ليردها عن أن تتبع ابن

عثمان وتقفر (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر)[1] حتى اذا خلبهم[2] بهذا المقال ،واستجنحهم[3] إلى معنى ما قال ، واستهواهم حب الرياسة الذي طالما استرقَّ أحرار الصدّيقين ، واستعبد كبار الأولياء والصالحين ، وكبكب في النار على الرءوس ، رءوس العلماء العالمين ، فوافقوه على الانخزال . عند الموافقة للنزال .

ذكر ما صنعه ابن عثمان من الفكر الوبيل وتوجهه الى ملاقاة تيمور بطود عسكره الثقيل

فأما ابن عثمان فانه خاف منه الهجوم ، على بلاد الروم[4] ، لأن الزروع كانت قد استحصدت[5]، وصدور الفواكه والثمار قد استنهدت[6] ، وخضراوات الأرض قد اسودّت ، والرعايا في ظل الأمن والرفاهية قد امتدت ، فخشي ابن عثمان أن يصيب العباد منه ضرر ، أو يتطاير الى قبائل بلاده من لهيب ناره شرر ، فبادر الى ملاقاته[7] ، وساقته سوائق المنون الى شرب كأسها في مساقاته ، وأراد أن يكون

(١) سورة الحشر الاية ١٦ .
(٢) الخِلَابَة : الخديعة باللسان ، ورجل خَلَّاب : أي خداع كذاب .
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : واستحثهم في معنى ما قال .
(٤) بلاد الروم : أي آسيا الصغرى ، وأطلق علماء الجغرافيا العرب اسم بلاد الروم على شبه جزيرة الاناضول .
(٥) وقت الحصاد .
(٦) يعني نضوج الفواكه والثمار .
(٧) حين علم السلطان العثماني بيازيد بتحرك تيمور نحو بلاده وكان يحاصر القسطنطينية ، اضطر لرفع الحصار ، وتقدم على رأس قواته نحو الشرق لصد المغيرين ، وبلغ توقات ، وهي على مسيرة خمسة عشر يوماً من سيواس — حسب تقدير المقريزي — (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٨١).
وكانت خطة السلطان العثماني بيازيد تقوم على التصدي لقوات تيمور في ضواحي سيواس حتى لا يمكنها من التوغل في أملاكه والعمل على تخريبها . ولا سيما — كما ذكر ابن عربشاه — وقد حلَّ موسم الحصاد ونضج الفواكه . وكانت خطة تيمور على العكس من ←

مصطدم الباس[1] ، خارج بلاده على ضواحي سيواس ، فأجرى من عساكره السيول الهامرة ، وأخذ بهم على قفار غامرة ، حذراً على رعاياه ، من مواطيء مطاياه ، فانه كان على الضعيف من رعيته شفيقاً ، وبالفقير من حشمه وخدمه رفيقاً .

يُحكى أنه كان في بعض مغازيه ، فَعطِشَ بعض حواشيه ، فأتى في قرية بعض النساء ، فطلب منها شربة ماء ، وكانت أشأم من البسوس ، يُضرب بها المثل في اللؤم والبوس[2] ، فقالت : ما عندي ما تشرب ، فخذ طريقك ولا تتعب ، وكان العطش قد غلبه ، ورأى عندها في بعض القعبة شربة لبن فشربه ، فقالت : هذا قوت الصبيان ، واشتكت عليه لابن عثمان ، فطلبه واستفسره ، فخاف شدّة نقمته فأنكره ، فقال للمرأة : أنا أبعج قبقبه[3] ، وأتبين صدقه وكذبه ، فان ظهر في بطنه اللبن ، أعطيتك الثمن ، وان تبينت بالصدق قوله ، جعلتك مثلة مثله ، فقالت : والله إنه شربه ، وما فُهت في حقه بكذبه ، ولكني فرَّجت كربته ، وأبرأت ذمته .

فقال لا بد من إجراء العدل ، وإنهاء هذه الحكومة بالفصل ، ثم دعا بالسيف

ذلك ، تقتضي أن تتوغل قواته المغيرة مسافات بعيدة في أملاك العثمانيين ، في سبيل تحقيق المزيد من الإرباك للسلطان العثماني .
ويقول ابن تغري بردي حول هذا الموضوع (النجوم الزاهرة ٢٦٧/١٢) (ثم رحل تيمور من بغداد ... ثم كتب الى أبي يزيد بن عثمان صاحب الروم أن يُخرج السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف من ممالك الروم والا قصده وأنزل به ما نزل بغيره ، فردّ أبو يزيد بلفظ خشن الى الغاية ، فسار تيمور الى نحوه ، فجمع أبو يزيد بن عثمان عساكره من المسلمين والنصارى وطوائف التتر .
فلما تكامل جيشه سار لحربه ، فأرسل تيمور قبل وصوله الى التتار الذين مع ابي يزيد بن عثمان يقول لهم : نحن جنس واحد ، وهؤلاء تركان ندفعهم من بيننا ، ويكون لكم الروم عوضهم ، فانخدعوا له وواعدوه انهم عند اللقاء يكونون معه .
وسار أبو يزيد بن عثمان بعساكره على أن يلقى تيمور خارج سيواس ، ويرده عن عبور أرض الروم ، فسلك تيمور غير الطريق ....).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الناس .
(٢) البؤس والشدة .
(٣) القبقب : البطن .

ووسّطه[1] ، وأجرى على بطنه ما شرطه ، فانفجر بطنه وهو منعَقر ، وجرى اللبن وهو بدمه مُمذقر[2] ، فأشهره في الوثاق ، ونادى عليه هذا جزاء من يتناول في دولة الملك العادل ابن عثمان شيئاً بغير استحقاق ، ثم ان ابن عثمان تابع الترحال ، وسلك في رمضان السفر صوم الوصال .

ذكر ما فعله ذلك الساقطه ، مع ابن عثمان وعسكره من المغالطة

ولما بلغ تيمور أن ابن عثمان أخذ على الطريق الغامرة ، نبذه نبذ اليهود كتاب الله وراء ظهورهم وأخذ على الجادة العامرة ، فدخل هو وعسكره على ظلال وعيون[3]

(١) التوسيط : نوع من انواع التعذيب ، إذ يصلب المعذب ويشق نصفين من وسطه .

(٢) الممذقر : اللبن المختلط بالماء .

(٣) كانت خطة السلطان العثماني ترمي لملاقاة تيمور خارج الأراضي العثمانية والتصدي له في ضواحي سيواس ، بينما زحفت جيوش تيمور بعيداً داخل الأراضي العثمانية حيث اتجهت الى الجنوب الغربي الى جهة اليسار ـــ حسب تعبير المؤرخ يزدي ـــ جاعلة نهر « قزيل ارماق » حداً فاصلاً بينها وبين القوات العثمانية ... وقد تعمد تيمور أن يخفي قواته وهي تتحرك عن أعين العثمانيين ، وحاول أن يجعل الجبال تفصل دائماً بين القوتين .
وعملت قوات تيمور الغازية خلال سيرها في الأراضي العثمانية ـــ وقت الحصاد ونضوج الثمار ـــ على تدمير البلاد واتلاف المزروعات التي كانت تمر بها بحجة جمع الأعلاف اللازمة لخيولها . ولما بلغت هذه القوات « قيصرية » أرسل تيمور طلائع من قواته الى انقرة للوقوف على أخبار العثمانيين . ثم تقدم بالجزء الرئيسي من الجيش الى ضفاف نهر « قزيل ارماق » وعبره باتجاه مدينة « قيرشهر » الواقعة جنوب شرق انقرة . ووصلت الى تيمور وهو في قيرشهر إشارة من طلائعه التي كانت بقيادة أبي بكر بن ميرانشاه ، تفيد بأن قوات بايزيد قد شوهدت تنزل بضواحي أنقرة .
وكان العثمانيون ـــ حين علموا بتوغل قوات تيمور في بلادهم ـــ قد تقدموا من « توقات » الى حيث أقاموا لهم مواقع جديدة في السهول الواقعة الى الشمال الشرقي من مدينة أنقرة .
وقام تيمور على إثر وصول هذا الخبر بتحريك قوة أخرى تتألف من ألف فارس يقودها « شاه ملك » فاندفعت خلال الليل الى نقطة قريبة من معسكرات العثمانيين ، واقترب قائد القوة شاه ملك ، من مكان اقامة السلطان نفسه للترصد وجمع المعلومات ، ولما أحس

(وفواكه مما يشتهون)[1] ولسان حالهم الفصيح ، ينشد في الآفاق ويصيح :

ولست ابالي بعد ادراكي العُلا أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا

فلم يزالوا في مراح وزروع ، ومراع وضروع ، بين (سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب)[2] وهواء بالراحة مصبوب ، ونعيم بالسلامة مصحوب ، في أمن ودعة ، وخصب وسعة ، آمنا من الوجل[3] ، سائراً على غير عجل ، مستيقناً بالنصر والظفر ، مستبشراً بالملك والوزر ، مستتبعاً تدبيره القضاء والقدر ، لا تُبَرِّدُ حرارة حميته لتسخين عين عدوه واحراز المغنم البارد فترة ، ولا في اكليل كواكب عساكره المنتظمة نثره ، ولا بين أسود جيشه مكاشرة ولا نفره ، ولا في قراهم الاعادي اللهذميات[4] على موائد طعام طِعانهم جبن ولا كِسرة .

الحراس العثمانيون بوجود القوة المعادية ، اشتبكوا معها في معركة ليلية . وفي صباح اليوم التالي صدرت أوامر السلطان العثماني بيايزيد بالزحف على « قيرشهر » وأسرعت القوة التيمورية بقيادة « شاه ملك » التي استطاعت الانسحاب بنجاح من أمام العثمانيين ، تحمل نبأ تعقب الاعداء لها الى تيمور .
وظهر أن تيمور نجح في اغراء اعدائه بترك مواقعهم في ضواحي أنقرة ، واستطاع استدراجهم الى الضفة الشرقية لنهر « قزيل ارماق » .... وتقدمت طليعة جديدة من قوات تيمور الى انقرة مباشرة ، حيث المكان الذي قرر فيه تيمور أن يخوض المعركة الفاصلة فيه ضد السلطان العثماني ، لتقوم ببعض الأعمال التمهيدية ، كردم بعض الآبار ودسّ السُّم في البعض الآخر منها ، وتحويل مجرى النهر الصغير الذي يروي أنقرة بطريقة تمنع العثمانيين من الاستفادة من مياهه . (شهاب ٣٤٥).
وقد تعمد تيمور اخفاء جهة سيره عن اعدائه ، وسار في طريق فرعية متعرجة وغير مطروقة تحقيقاً لهذه الغاية (العسقلاني ج ٢ ص ٢٢٨) والمقريزي (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٩٢) (والنجوم الزاهرة ٢٦٧/١٢) (شهاب ٣٤٥).

(١) سورة المرسلات آية ٤٢ .

(٢) يشبه ذلك بما يلاقيه المؤمنون يوم القيامة ـــ سورة الواقعة الآية ٢٧ : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب ...).

(٣) الخوف

(٤) اللهذم من الأسنة : القاطع .

فلم يفق ابن عثمان من رقاده، الا وتيمور قد دَمَر على بلاده، فقامت عليه القيامة، وأكل يديه حسرة وندامة، وزأر وزقا، والتهب حنقا، وكاد ان يموت خنقا، وسلب القرار والهجوع، وعزم في الحال على الرجوع، فتلاطمت من بحر عساكر أمواجه، وتصادمت اثباج أطواده وأبراجه، فرجع عوده على بدئه، وأغرى بوصال السير وحجئه، فنهكهم السير بسرعته، والمكان بقفرته، والزمان بهجيره، والسلطان بزئيره، فلم يدركوه الا وقد ذاب كل منهم وصبا[1]، وتلا لسان حاله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا)[2].

(**فصل**) وكان تيمور قد وصل إلى مدينة انقرة[3]، وخيله وَرَجلهُ[3] مستريحة

(١) الوصب : بفتح الصاد : المرض .

(٢) سورة الكهف من القرآن الكريم الآية ٦٣ .

(٣) تعمد تيمور اخفاء تحركاته وارباك العثمانيين بخططه وتحركاته. وان تيمور الذي اجتاز مع جيشه نهر «قزيل ارماق» بالقرب من قيصرية، من ضفته الجنوبية (اليسرى) الى ضفته الشمالية (اليمنى) للوصول الى قير شهر قبل عدة ايام، قد اضطر الان لعبور النهر بالاتجاه المعاكس، وسار بعد ذلك الى ضفة النهر اليسرى محاذياً منعطفه الكبير حتى بلغ مدينة انقرة خلال مدة ثمانية ايام (المقريزي ـــ السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٩٢) في الوقت الذي كان فيه كشافو الجيش العثماني يخبطون في الهضاب والسهول في منطقة قيرشهر، بحثاً عن عساكر تيمور، دون أن يعثروا لهم على أثر .
ووصلت الأخبار الى العثمانيين أخيراً، وهم على الضفة اليمنى للنهر في منطقة وعرة قفراء (العسقلاني ٢/٢٢٨) في وسط المنعطف الكبير لهذا النهر، بأن قوات العدو ظهرت وراءهم في ضواحي أنقرة. ولذلك كان على السلطان العثماني بايزيد أن يسرع بجيوشه ويرجع مرة ثانية باتجاه الغرب، فقطع النهر من جديد باتجاه انقرة، خوفاً من أن يترك القوات المغيرة تجتاح بلاده من وراء ظهره، وتقطع عليه خطوط تموينه ونقاط استناده .
وبقيت الجيوش العثمانية تسير مسرعة ثمانية أيام، تحت أشعة فصل الصيف في شهر تموز، حتى أضحى عسكر ابن عثمان كالموتى من التعب (العسقلاني ج ٢ ص ٢٢٦). بالاضافة الى ما كانوا يشعرون به من العطش. وحالت قوات تيمورلنك التي وصلت الى مكان المعركة قبل وصول العثمانيين، بين هؤلاء وبين الوصول الى الماء .
وشاهد العثمانيون أعداءهم وقد حَلُّوا في معسكراتهم التي كانوا قد تركوها قبل وقت قصير، وكان عليهم أن يخوضوا القتال على هذه الحال من التعب والعطش .

موفّرة[1]، للقتال منتظرة، وللنزال متشمرة، بل لم يكونوا به مكترثين، ولا به محتفلين وقد سبقوا كصناديد قريش الى الماء، وتركوا عساكره كمسلمي بدر في جانب الظماء، فهلكوا كرباً وأواما[2]، وذابوا عطشاً بلا ماء، وكأنه الى ذلك المنزل هو

وكانت جيوش تيمور قد بدأت منذ وصولها إلى المكان بحصار مدينة أنقرة، لاحتلالها قبل وصول الجيش العثماني، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى السهل الذي يقع شمال غرب المدينة ويدعى سهل «تشبوق ـــ آباد)، واتخذ تيمور مواقع في هذا السهل لمنع العثمانيين من الاقتراب من النهر .
ويقول المؤرخ الفارسي يزدي: إن تيمور كان يتهيب من المعركة مع السلطان العثماني بيازيد، ولذلك قضى ليلة المعركة بكاملها في الصلاة والتضرع الى الله، وأشرف في صباح اليوم التالي على ترتيب العساكر بنفسه، وكان يقود الجناح الأيمن للجيش ميرانشاه، ويعاونه ابنه أبو بكر والأمير طهارتن حاكم أرزنجان، ووقف على قيادة الجناح الأيسر شاه رخ بن تيمور ويعاونه خليل سلطان .
وحُشد في القلب عدد كبير من القواد يقودهم حفيد تيمور محمد سلطان، ووقفت في المؤخرة بعض الفرق العسكرية كقوات احتياطية، وكانت تحت قيادة تيمور المباشرة، ويتقدم الجيش اثنان وثلاثون فيلاً مدرباً على القتال من الأفيال التي جيء بها من الهند .
وتعترف المصادر التركية العثمانية بكفاية التنظيم في جيش تيمور ومهارة القواد الذين كانوا يتولون قيادته .
ورتب الجيش العثماني ترتيباً مشابهاً لما كان عليه الحال في جيش تيمور فقاد القلب السلطان بيازيد نفسه، حيث كانت تقف الفرق الانكشارية تحت قيادة السلطان المباشرة، ويساعد السلطان العثماني في قيادة بقية عناصر القلب، اثنان من أولاده هما موسى ومصطفى. وكان الجناح الأيمن الذي يتألف من الفرق الآسيوية التي جمعت من الأناضول وعددها عشرة آلاف تحت قيادة سليمان اكبر ابناء السلطان بيازيد، ومعه الصدر الأعظم علي باشا. ووقف في الجناح الأيسر شقيق زوجة السلطان ملك الصرب «لازار فيلكو فيتج» يقود عشرين ألفاً من القوات الصربية المسيحية. وقاد قوة الاحتياط في المؤخرة ابن آخر للسلطان هو محمد جلبي، وكذلك فقد كان في هذا الجيش عدد من أفيال الحرب لا يتجاوز العشرة. (شهاب ٣٤٦).

(٣) رجاله .

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : موقرة .

(٢) الأوام : بالضم : حر العطش .

ارشدهم، وبلسان حاله انشدهم:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأنقرة[1] هذه التي ذكرها الاسود بن يعفر في قصيدته الطنانة وهي:

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد

فاذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير الى بلى ونفاد

فلما تدانت الجيوش من الجيوش، وأضريت الوحوش على الوحوش، وامتلأت منهم الصحارى والقفار، وتقابلت اليسار باليمين واليمين باليسار، اندفعت من عساكر ابن عثمان التتار، واتصلت بعسكر تيمور كما رسم أولا وأشار[2]، وكانوا هم صلب العسكر، والأوفر من عساكر ابن عثمان والأكثر، حتى قيل ان جماعة التتار، كانوا نحوا من ثلثي ذلك العسكر الجرار، بل قيل: إن ذلك الجمهور، كانوا نحواً من جند تيمور.

وكان مع ابن عثمان، من أولاده أكبرهم أمير سلمان، فلما رأى ما فعلته التتار، علم أنه حلّ بأبيه البوار، فأخذ باقي العسكر، وقهقر عن ميدان المصاف وتأخر، وترك أباه في شدة البأسا[3]، وانخزل بمن معه الى جهة بروسا[4]، فلم يبق مع ابن عثمان إلا المشاة ومن داناهم، وبعض الكماة وقليل ماهم، فثبت للمجالدة بمن معه من الرفاق، وخاف إن فر أن يقع عليه الطلاق[5]، وكأنّه في تلك المعركة والمعكرة، كان متمثلاً بما قاله عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تسفك في دمي

(١) أنقرة ويقال أنكورا وأنكورية: احدى ولايات تركية في آسيا الصغرى، وهي العاصمة الحديثة للجمهورية التركية (آثار الأدهار ٣٣٦).

(٦) سبق وأن أشار ابن عربشاه الى المراسلات التي كان يبعث بها تيمور الى امراء التتار في جيش بيازيد ـــ راجع الصفحات السابقة ـــ.

(٣) شدة البأس.

(٤) بروسا أو برسه وتعرف ببرصا: من مدن الاناضول العظيمة (آثار الادهار ص ٨٢٢).

(٥) تراجع الصفحات السابقة: حيث يتحدث ابن عربشاه عن المراسلات بين تيمور وبيازيد قول بيازيد (وإن قصدت بلادي ولم أقاتلك البتة. فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلاثاً بتّه).

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فصبر لحادث الدهر ومآزم، وأراد أن يفيء على مذهب الامام مالك بما به التزم[1]، فأحاطت به أساورة الجنود، إحاطة الأساورة بالزنود، وحين تيقنت الأسرة العثمانية بالكسرة، وعلمت انها تورطت في جيش العُسرة، وثبت المشاة على الكماة، واستعملت الأطبار[2]، وكل صارم بتار، وكانوا في ذلك المصاف، نحوا من خمسة آلاف، فبددوا[3] أندادهم، وأبادوا أعدادهم، ولكن كانوا كسافي الرمال بالكربال[4]، أو كائل[5] البحار بالغربال، أو محرر أوزان الجبال بقراريط المثقال، فامطروا على قُلل أولئك الأطواد، وحقول ذوات تلك الاسود، من غمام القتام صواعق ديم المدميات وأمطار السهام السود.

ونادى محرش القدر، وصياد القضاء الكلاب على البقر، فلم يزالوا بين وقيذ وواقذ[6]، ومضروب بحكم سهم ماض في القضاء نافذ، حتى صاروا كالشياهم والقنافذ، واستمرت دروس القتال بين تلك الزمر[7] من الضحى الى العصر، وانتقلت أحزاب الحديد الى الفتح فتلت على الروم سورة النصر[8]، ثم لما كلّت منهم السواعد، وقل المواصر والمساعد، وتحكم فيهم الأباعد والمباعد، دفقوهم[9] بالسيوف والرماح، وملأوا بدمائهم الغدران، وبأشلائهم البطاح[10]، ووقع ابن عثمان في القنص، وصار مقيداً كالطير في القفص، وكانت هذه المعكرة، على نحو ميل من مدينة

(١) الامام مالك صاحب المذهب المالكي في الشريعة الاسلامية

(٢) جمع طبر: فارسية بمعنى الفأس (القلقشندي ـــ صبح الأعشى ٤٥٨/٥).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فندّدوا.

(٤) الكربال: المندف الذي يندف به القطن.

(٥) من الكيل، يكيل البحر بالغربال.

(٦) وَقَذَهُ: ضَربه حتى استرخى وأشرف على الموت. وشاة موقوذة: قتلت بالخشب.

(٧) الزمر: الجماعات.

(٨) سورة النصر في القرآن الكريم (إذا جاء نصر الله والفتح...).

(٩) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: دققوهم. ودفقوهم: أجهزوا عليهم.

(١٠) وقد التحم الجيشان بقتال عنيف. وتعزو المصادر التركية سير المعركة لغير صالح العثمانيين، بعد النجاح الذي حققوه في المرحلة الأولى من القتال الى انضمام قوات الامارات التركية، ←

أنقرة ، يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة[1] ، سنة أربع بعد ثمانمائة حجة ، وقد قتل

التي انضوت قبل برهة وجيزة تحت لواء الحكم العثماني ، عندما شاهدت هذه القوات أمراءها السابقين يقاتلون في جيش تيمور ، ثم الى فرار القوات الصربية ايضا ، وزاد انسحاب التتر (المغول) من صفوف العثمانيين في حرج موقف السلطان العثماني ... وتتابع المصادر التركية حديثها بأن السلطان بيازيد الذي أخذ منه الغضب من هذه الحال ، قد استمر في الحرب بتهور دون تقرير للنتائج . ولم يلتفت إلى طلب الصدر الأعظم علي باشا وطلب أكبر أبنائه سليمان بالفرار . ولذلك انسحب سليمان والصدر الأعظم بالقوات التي كانت تحت إمرتهما باتجاه برصا ، كما انسحبت القوات الصربية إلى « آماسية » تاركين فرق الجيش العثماني لتحصدها سيوف القوات التيمورية ، وظل السلطان بيازيد مع الفرق الانكشارية يقاتل في ظروف صعبة ، ويشير المؤرخ الفارسي يزدي الى شجاعة القوات العثمانية والى الثبات والجلادة اللذين ابداهما السلطان العثماني وأبناؤه ....

ولما ظهرت علائم الضعف والكلل على العثمانيين ، أصدر تيمور تعليماته لسائر قواته للقيام بهجوم عام (شهاب ٣٤٧).

وقد اشار مؤرخو الشام ومصر الى كمين أعده تيمور لبيازيد في آخر النهار ، ومع ذلك فقد ثبت السلطان العثماني في القتال ، وظل يقاتل بشجاعة بعد أن فقد نصف جنده الانكشارية (السلوك ج ٣ قسم ٣ ص ١٠٩٢ ، والعسقلاني ٢/٢٢٥).

ولما حاول السلطان بيازيد في النهاية الفرار والاعتصام بأحد التلال المجاورة لساحة المعركة ، فقد طوقت قوات تيمور ذلك التل من كل طرف ، وأخذت تمطر المكان بوابل من سهامها ، فقضت على الكثير ممن كانوا مع السلطان الذي وقع أخيراً في الأسر مع ابنه موسى . وتعلق المصادر التركية على النهاية التي انتهى اليها السلطان العثماني فتقول : إن فرار بيازيد جاء متأخراً لأنه ظل يقاتل حتى آخر لحظة ولأنه لم يكن على استعداد لأن يصدق بأنه هُزم (شهاب ٣٤٨).

(١) هناك شبه إجماع بين مؤرخي تلك المرحلة ، على أن المعركة التي جرت بجوار انقرة بين قوات تيمور وبيازيد ، كانت في آخر أشهر عام ٨٠٤هـ وهو شهر ذي الحجة ويقابل تموز ١٤٠٢م . ولكن هؤلاء المؤرخين اختلفوا في تحديد اليوم من ذلك الشهر وذهب ابن عربشاه الى أن المعركة وقعت في ٢٧ ذي الحجة = ٢٨ تموز ١٤٠٢م . ويظهر مما ذكره المؤرخ الفارسي يزدي أن معركة أنقرة وقعت بتاريخ سابق لـ ١٩ ذي الحجة ٨٠٤هـ فهو يقول إنه في يوم الجمعة الواقع في ١٩ ذي الحجة الذي تلا المعركة وهزيمة بيازيد وقواده ، قام القواد والأمراء في جيش تيمور بتقديم التهنئة له على هذا النصر . وتلا الخطيب في صلاة ←

غالب العسكر العطش والضمور[1] ، لانه كان ثامن عشري تموز .

(فصل) ووصل أمير سلمان ، الى بروسا معقل ابن عثمان ، فاحتاط على ما فيها من الخزائن والأموال ، والحريم والأولاد ونفائس الأثقال ، واشتغل بنقل ذلك الى برّ ادرنة ، وراء البحر المحيط بكثير من الأمكنة ، المنشعب من بحر مصر الآخذ بعد ما يتدريس[2] إلى بلاد الدشت والكرج الفاصل بينه وبين بحر القلزم جبل الجركس .

ذكر ما وقع من الخُباط بعد وقعة ابن عثمان في كل ثغر ورباط

ولما حصل لرأس مملكة الروم[3] هذه الوعكة ، واندعكت أجسام عسكرها الجسام

الجمعة في ذلك اليوم الخطبة باسم تيمور ، وتميل المصادر العثمانية لتحديد التاريخ كما يشير اليه يزدي (شهاب ٣٤٧).

(١) ويقول ابن تغري بردي عن هذه المعركة (النجوم الزاهرة ٢٦٧/١٢) وحركة تيمور (ودخل بلاد ابن عثمان ، ونزل بأرض مخصبة وسيعة ، فلم يشعر ابن عثمان إلا وقد نُهبت بلاده ، فقامت قيامته وكرَّ راجعاً ، وقد بلغ منه ومن عسكره التعب مبلغاً أوهن قواهم ، وكلَّت خيولهم ، ونزل على غير ماء ، فكادت عساكره أن تهلك ، فلما تدانوا للحرب كان أول بلاء نزل بابن عثمان مخامرة التتار بأسرها عليه ، فضعف بذلك عسكره ، لأنهم كانوا معظم عسكره ، ثم تلاهم ولده سليمان ورجع عن أبيه عائداً الى مدينة برصا بباقي عسكره ، فلم يبق مع أبي يزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم حتى احاطت به عساكر تيمور ، وصدمهم صدمة هائلة بالسيوف والأطبار حتى افنوا من التمرية أضعافهم ، واستمر القتال بينهم من ضحى يوم الاربعاء الى العصر ، فكلَّت عساكر ابن عثمان ، وتكاثروا التمرية عليهم يضربونهم بالسيوف لقلتهم وكثرة التمرية ، فكان الواحد من العثمانية يقاتله العشرة من التمرية ، الى أن صُرع منهم أكثر أبطالهم ، وأُخذ أبو يزيد بن عثمان أسيراً قبضاً باليد على نحو ميل من مدينة انقرة ، في يوم الأربعاء سابع عشرين ذي الحجة سنة أربع وثمانمائة بعد أن قُتل غالب عسكره بالعطش ، فان الوقت كان ثامن عشرين أبيب بالقبطي ، وهو تموز بالرومي ، وصار تيمور يوقف بين يديه في كل يوم ابن عثمان ويسخر منه وينكيه بالكلام ، وجلس تيمور مرة لمعاقرة الخمر مع اصحابه وطلب ابن عثمان طلباً مزعجاً ، فحضر وهو يرسف في قيوده وهو يرجف ، فأجلسه بين يديه وأخذ يحادثه ، ثم وقف تيمور وسقاه من يد جواريه اللائي أسرهن تيمور ، ثم اعاده الى محبسه).

(٢) يتدريس : يتقدم ، وقد ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : يتدربس .

(٣) السلطان العثماني بيازيد .

أقوى دعكة، وأخنى عليهم الجد[1] المشوم، ونعق في صباحها غراب البين، وزعق في رواحها البوم، وتلاقى محراب أنسها على جماعتها إمام القضاء والقدر: (ألم غلبت الروم)[2] خضعت رؤسها ونواصيها، وتزلزلت حصونها وصياصيها، وتزعزع دانيها وقاصيها، وانبهر طائعها وعاصيها، فحاصوا حيصة الحمر، وأيسوا من الأهل والأوطان والمال والعمر، إذ قد ذهب منهم الرأس، ولم يبق فيهم من يقيم البأس.

فلما سمعوا أن أمير سلمان ضم الناس الى نحره، وعزم على العبور إلى برّ أدرنة[3] بقطع بحره، مالت بهم الأودية والشعاب اليه، وعولوا في خلاصهم من ذلك البلاء الطامّ عليه، فصالح أهل استانبول[4] ووادّهم، وعاهدهم على أن لا يغدر كل منهم بالاخر ومادهم، ثم قصدهم أن يعينوه على الوصول بقطع البحر من ثَغري كالي بولي واستانبول، إذ ليس لهذين البحرين بين هذين البرين، طريق قريب ومعبر سوى هذين الثغرين، فان بحر اسكندرية، يأخذ على انطالية، وعلاية[5] ثم يروم، إلى بلاد الروم، فتحصره الجبال، قبل وصوله بلاد الشمال، فلا يزال في خصره يدق، وشفتا جانبيه ترق، حتى تتراءى حافتاه، ويكاد تنطبق شفتاه.

ومسيرة هذا الانضمام، نحو من ثلاثة ايام، ثم يأخذ في المد والانبساط، والجريان على وجه النشاط، ثم تدور كتائب أمواجه وتتكردس، وتأخذ نحو بلاد الدشت والكرج حتى يصل كما ذكر الى بلاد الجركس.

وما أمكن أحداً من سواحر الحكمة ومهندسي النوائث أن يعزز هذين المعبرين في مدى هذا الانضمام بثالث، فثغر كالي بولي بيد ملاحي المسلمين، وثغر استانبول بيد النصارى أعداء الدين، وهو أعظم الثغرين، وأجسم المعبرين، وكانت النصارى ملاحيه، فصار غالب الناس يقصده وينتحيه، فاستطارت الفرنج فرحاً واستطالت[6] وخاضت في دماء المسلمين وحريمهم واموالهم وجالت.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الجند.
(٢) مطلع سورة الروم في القرآن الكريم.
(٣) أدرنة: مدينة في الأناضول على البر الأوربي.
(٤) استانبول: عاصمة الخلافة العثمانية، واسمها القديم القسطنطينية.
(٥) انطالية وعلاية من مدن تركيا الآن.
(٦) أتاح انتصار تيمور في معركة انقرة على العثمانيين، للامبراطورية البيزنطية التي كانت في

فان ابن عثمان كان بالحصار قد انهكها، واباد قراها وضواحيها وأهلكها، وضيق على اهلها في مجاري أرواحهم مسلكها، فبينما هم وقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبا، وانشب كل شر فيهم حَدّه، واذا بتيمور جاءهم بالفرج بعد الشدة، فاندفع عنهم بالضرورة ابن عثمان، وحصل لهم بذلك الفرج والأمان، وزاد ذلك بأن احتاج المسلمون اليهم، وتراموا في طلب الخلاص من العدو عليهم، فبعد ان زالت عنهم الغصص، اغتنموا في درك الثارات من المسلمين الفرص، فجعلوا يوسفون المراكب من الناس والحمول، ويتوجهون بذلك الى صوب استانبول.

وان استانبول وراء ذروة جبل، ومنحرفة خلف قلة من القلل، وهي من أكبر مدن الدنيا، حتى قيل انها قسطنطينية الكبرى، فكانوا اذا عطفوا وراء تلك الذروة بالمراكب، واستتروا بالهضبة الناتئة عن عين من هو في هذا الجانب، يصيرون كالاموات النازلين الى الحفائر، الملقين في قعر اللحود والمقابر، لا يدري الى اين

تلك الآونة في أيامها الأخيرة، مدة اضافية من الحياة امتدت زهاء خمسين عاماً آخر، لأن السلطان العثماني بيازيد اضطر عام ١٤٠٢م أن يرفع الحصار عن العاصمة البيزنطية بعد أن كان سقوطها بيد السلطان بليدرم بيازيد متوقعاً خلال بضعة أشهر، ولم يكن الامبراطور البيزنطي مانويل باليولوغ يتجاسر على أن يتصور خلاصاً من الخطر العثماني خيراً مما حققه له انتصار تيمور في انقرة، ووجدت الامبراطورية نفسها المستفيدة الأولى من انتصار تيمور.

هذا وكان لهزيمة العثمانيين في أنقرة صداها الواسع في القارة الأوربية، وأسرعت الدول الأوربية التي كانت تخشى من عواقب التوسع العثماني في هذه القارة، الى تنشيط علاقاتها مع تيمور. وأرسل له كل من ملك فرنسا وملك انكلترا بهذه المناسبة تهنئة. وكان لملك اسبانيا مراقبان حضرا معركة أنقرة في صفوف الجيش التيموري. وأعقب ذلك ارسال الملك الاسباني بعثته الشهيرة الى البلاط التيموري في سمرقند.

ومع ذلك فقد كان لانتصار تيمور — من ناحية أخرى — نتائج سلبية على العلاقات بين تيمور والمراكز الصليبية، التي كانت لا تزال قائمة على سواحل آسية الصغرى المطلة على بحر ايجة. فقد حاول تيمور أن يبدد النقمة التي اثارها في نفوس المسلمين بعد الضربة التي أنزلها بالسلطان الغازي بايزيد وبالدولة العثمانية المسلمة، بانزال ضربات قاسية أخرى، بعد معركة انقرة بالمواقع الصليبية هذه. (شهاب ٣٥٢).

يتوجهون ، والى ماذا[1] يصيرون ، الى بر السلامة والاسلام ، أم الى دار الحرب وأسر الكفرة الطغام ، فيذهب منهم الذاهبون (فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون)[2] فاذا جاءت المراكب وهي فوارغ ، تعلق كل من هذه الخلائق فيها بجهد كامل وجدّ بالغ ، ولم يدر ماذا يجري عليه ، والى ماذا يصير أمره اليه ، وأشبهوا في ابصارهم الكليلة ، وخطوبهم الجليلة ، مالكاً الحزين والسمك المذكور في كتاب كليلة .

وحاصل الأمر انه لم يسلم ، من ذلك السواد الأعظم ، في كل غراب أدهم ، الا مثل الغراب الاعصم ، واستطالت اعداء الدين ، كيف شاءت على المسلمين ، وقطع أمير سلمان[3] البحر ، واستولى على ذلك البر ، وضبط ممالكه ، وربط مسالكه ، وهو اوسع من هذا الجانب وأفسح مرجاً ، وأدر ريعاً وأكثر خراجاً وخرجاً ، وأعظم حصوناً وأمكنة ، وتخته[4] مدينة أدرنة . فاجتمع الناس على أمير سلمان ، وسهل الأمر في الجملة شيئاً ما وهان .

ذكر أولاد ابن عثمان ، وكيف شتّتهم ثم ابادهم الزمان

وكان للسلطان بايزيد المذكور[5] ، من الأولاد الذكور : أمير سلمان هذا وهو

(١) ورد في بعض النسخ : وإلى أي ناد يصيرون .

(٢) سورة يس آية ٥٠ .

(٣) بعد إنهزام السلطان بيازيد ، انسحب ابنه سليمان بن بيازيد مع فلول الجيش العثماني الى بورصة ، لانقاذ الأموال والحريم والأولاد (الأسرة المالكة) من القوات المعادية ، التي كانت تتعقبه ، وانطلق من هناك الى ادرنة في البر الأوربي ، واضطر سليمان أن يعقد صلحاً مع الامبراطور البيزنطي في القسطنطينية ، تنازل بموجبه عن بعض المواقع الهامة التي كانت بيد العثمانيين بالقرب من العاصمة البيزنطية مثل « قرتال وبندك » ووضع أخاه الصغير « قاسم شلبي » رهينة بين يديه ، مقابل الحصول على السفن لنقل الفارين من الأتراك الى « الروم ايلي » هرباً من الجيوش الغازية (ابن تغري بردي ٢٦٩/١٢ ، شهاب ٣٤٩).

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وتخته .

(٥) السلطان العثماني أبو يزيد بن مراد باك كان سلطان الروم ويعرف بيلدرم بايزيد وهو بالتركي البرق ←

أكبرهم ، وعيسى ومصطفى ومحمد وموسى وهو أصغرهم ، وكل منهم طلب لنفسه مهربا ، وانحاز اليه من ابيه طائفة نجبا ، فكان منهم محمد وموسى في قلعة أماسية ، وهي خرشنة الشاهقة العاصية ، التي قال فيها ابو الطيب المتنبي :

حتى أقام على أرياض خرشنة ... تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبى فانكحوا للأسر ما ولدوا ... للنار مازرعوا للنهب ما جمعوا

وقُلّة قلعتها شاهقة ، كأنها بِقُبة الفلك عالقة ، تعي النازل عنها ، في نزوله منها ، أكثر مما يعي الصاعد الى غيرها ، يسميها أهلها بغداد الروم ، لأن قرار أرضها بنهر كبير من الوسط مقسوم ، وبينها وبين توقات مسيرة يوم للمجدّ .

وأما عيسى فانه لجأ الى بعض الحصون واستكان ، الى أن قتله أخوه أمير سلمان ، وموسى فيما بعد قتل امير سلمان بعيسى .

ثم ان محمداً قتل بعد الكل موسى ، ونسخت الأحكام المحمدية[1] ، شرائع الملة الموسوية والعيسوية[2] ، الى أن مات حتف أنفه في أوائل سنة أربع وعشرين وثمانمائة[3] ، أو مات بشيء دس اليه[4] على يد قوجقار في الهدايا الملكية المؤيدية[4] ،

ويكنى به عن الصاعقة ، تولى السلطنة سنة ٧٩٦هـ وأسره تيمور وبقي عنده حتى مات في الأسر في ذي القعدة سنة ٨٠٥هـ . واضطربت بموته مملكة الروم حتى قام بالأمر ابنه محمد كرشنجي ثم مات فاستقر بعده حفيده مراد باك (الضوء اللامع ١٠٤٨/١١).

(١) الشريعة الاسلامية .

(٢) شرائع الدين اليهودي والمسيحي (والموسوية نسبة الى النبي موسى عليه السلام ، والعيسوية : الى النبي عيسى عليه السلام).

(٣) ذكر ابن العماد صاحب شذرات الذهب وفاته في حوادث سنة ٨٢٥هـ فقال (وفيها السلطان محمد جلبي بن ابي يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان كان يلقب بكرشي كان شجاعاً مقداماً مجاهداً فتح عدة قلاع وبلاد وبنى المدارس وعمر العمايز وهو أول من عمل الصر للحرمين الشريفين من آل عثمان رحمه الله تعالى (١٧٢/٧).

(٤) ويذكر السخاوي في ترجمته أن ابن عربشاه صاحب هذا الكتاب أقام عنده فهو يقول (الضوء اللامع ٧٦/١٠) (محمد جلبي بن ابي يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان جق والدمراد بك الاتي وأبوه وصاحب الأوجات وما معها في بلاد الروم ويلقب كرسجي ويعرف بابن عثمان . مات في سنة خمس وعشرين واستقر بعده ابنه . ذكره شيخنا في ←

وانتقل الملك من يده[1] الى يد مراد ولده، وهو في يومنا هذا اعني سنة أربعين وثمانمائة مستقل به[2]، وأما مصطفى فانه فُقد وقُتل نحو من ثلاثين مصطفى بسببه.

أبنائه. وأقام عنده الشهاب بن عربشاه فترجم له تفسير أبي الليث وغيره وباشر له الانشاء وقال أنه مات سنة أربع وعشرين والظاهر أن الأول أصح).

(٤) الملك المؤيد أبي النصر شيخ سلطان المماليك بويع بالسلطنة في شعبان سنة ٨١٥هـ وبقي حتى وفاته في المحرم سنة ٨٢٤هـ (بدائع الزهور ٢/ ٨).

(١) استقل بالملك محمد الأول بن بايزيد سنة ١٤١٣م وعدّه اكثر المؤرخين الخامس من السلاطين مسقطين اخوته من عديدهم، وكانت مدة سلطنته مليئة بالحروب الداخلية لاسترداد الامارات التي استقلت بعد موت السلطان بيازيد مأسوراً عند تمرلنك، وعند منازعة الأخوة أحدهم الآخر... توفى بأدرنة سنة ٨٢٤هـ = ١٤٢١م وعمره ٤٣ سنة وأوحى بالملك لابنه مراد وكان حينئذ بأماسيا، فأخفى الوزير خبر موت السلطان الى أن أحضر ابنه وتسلم مقاليد الدولة، ويعد السلطان محمد أول من أرسل من العثمانيين الصرة السنوية إلى أمير مكة وهي عبارة عن مبلغ من المال يرسله السلطان إلى أمير مكة ليوزعه على فقراء مكة والمدينة (تاريخ سورية للدبس مجلد ٧ ص ٦).

(٢) يقول السخاوي في ترجمة (مراد بك بن ابي الفتح محمد بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان الملقب غياث الدين كرشجي ومعناه الوتري ـــ نسبة للوتر لكون أبيه مازحه يوماً قائلاً له ما حالك مع اخوتك بعدي فقال: أخنقهم بالوتر فضحك وأعجبه وقال له: عافية كرشجي فتمَّ عليه ـــ... صاحب بلاد جميع الأوجات والبلاد التي ما وراء بحر الروم من المضيق بأسرها ومن ذلك برّ اصطنبول بأسره وبرصا وبولي وأدرنة وهي كرسيه الذي يقيم به... ولد في حدود عشر وثمانمائة وملك بعد أبيه في سنة أربع وعشرين وطالت أيامه.. وصار من عظماء ملوك الروم... مات في سابع المحرم سنة خمس وخمسين...) الضوء اللامع ١٠/ ١٥٢).

واسترد مراد الولايات التي كان تيمورلنك قد اعادها الى استقلالها، وانصرف عزمه الى استرداد ما كان للعثمانيين في أوروبا... وهو والد السلطان محمد الثاني الذي تولى بعده وهو فاتح القسطنطينية (تاريخ سورية ـــ الدبس جزء ٧ ص ٨).

عوداً إلى ما كنا فيه من أمور تيمور ودواهيه

ثم ان تيمور لما قبض على ابن عثمان[1]، جرد الى بروسا طائفة من الجنود والأعوان، وأضافهم الى شيخ نور الدين[2]، ثم اتبعهم بوقار مكين، وجأش مستكين، فوصل اليها، ونزل القضاء المبرم عليها، وضبط ما وصلت اليه يده من جماعة ابن عثمان وحرمه، وأمواله وخزائنه وحشمه وخدمه، وخلع على أمراء التتار[3]

(١) تشير بعض مصادر مؤرخي الشام ومصر الى أن تيمور أساء معاملة أسيره ابن عثمان فعنَّفه وأمر بحبسه (العسقلاني ج ٢ ص ٢٢٨، وابن تغري بردي: النجوم ١٢/ ٢٦٨).
أما مؤرخي الفرس ومنهم يزدي يقول ان بيازيد لما وقع اسيراً بيد السلطان الجغتائي محمود بن سيورغتمش، ولما تعرف عليه كبار رجال الدولة، حُمل مكبلاً اليدين إلى تيمور الذي شمله بعطفه، فأمر بفك قيوده، وقربه منه في مجلسه، وفاتحه على سبيل المعاتبة الرقيقة بأنه قد نصحه أن يلتفت الى غزو الكفار، ولكنه أبى واستعلى ورفض أن يعيد قلعة كاخ التابعة الى حاكم أرزنجان، وآوى إليه قرا يوسف الذي أظهر العناد والمضايقة. وختم تيمور معاتبته لبايزيد بالقول: ان كل ما حدث كان مقدراً حسب ارادة الله. ولما سمع بيازيد كرم تيمور شعر بالخجل والمذلة، واعترف بأخطائه، وعرض على تيمور أن يدخل في طاعته مع أولاده طيلة حياته، وأمر تيمور لأسيره بثياب جديدة. ولما لمس بيازيد مكارم تيمور دعى له وأثنى عليه، ثم أخذ يسأل عما حل بأولاده خلال الحرب، ولذلك صدرت الأوامر بالبحث عن أولاد بايزيد، وأحضر له بعد عدة أيام ابنه موسى، ليقيم الى جانبه، وأقيمت لهما خيمة الى جوار خيمة تيمور. ويشبه كل من شامي ويزدي معاملة تيمور لأسيره بما فعله الرسول محمد ﷺ بأهل مكة بعد فتحه لها (شهاب ٣٤٨).

(٢) يقول ابن تغري بردي (وأما أمر سليمان بن ابي يزيد فانه جمع المال الذي كان بمدينة برصا، وجميع ما كان فيها ورحل الى أدرنة وتلاحق به الناس، وصالح أهل استانبول، فبعث تيمور فرقة كبيرة من عساكره صحبة الأمير شيخ نور الدين الى برصا فأخذوا ما وجدوا بها، ثم تبعهم هو أيضاً بعساكره (النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٦٩).

(٣) كان الجيش العثماني الذي قاتل تيمور يعاني عدم الانسجام بين فصائل قواته، فقد وجد في هذا الجيش الى جانب الفرق التركية الأناضولية، الانكشارية والمحاربون الصربيون والتتر، وكانت هذه العناصر تختلف عن بعضها في اساليب القتال والأسلحة والقيادة وأشار ابن تغري بردي الى هذا التنافر في الجيش العثماني فقال «إن بايزيد جمع جيشه من المسلمين

ورءوسهم، واستعطف خواطرهم بتطييب نفوسهم، ووزع أمراءهم على امرائه، وأضاف كل ظهر منهم الى رأس من رؤسائه، ووصاهم بهم وعليهم، وبالغ في أن يصلوا ما أمكنهم من البر اليهم، ومشى على سننه القديم، في استخلاص النفائس واقتناص النفوس وسبي الحريم، وجعل يحضر ابن عثمان كل يوم بين يديه، ويلاطفه ويباسطه ويترقق اليه، ويسخر منه ويضحك عليه[1].

والنصارى والتتر» (النجوم الزاهرة ٢٦٧/١٢). واستغل تيمور هذا الحال في الجيش العثماني استغلالا جيداً لصالحه، فأرسل قبيل المعركة يستميل التتر اليه قائلاً «نحن الأتراك الجغائيون والتتر» من جنس واحد، وهؤلاء تركمان، ندفعهم من بيننا ويكون لكم الروم عوضاً عنهم. ويصف القرماني التتر الذين انسحبوا اثناء القتال بأنهم «صلب العسكر». ويقدر عددهم بثلاثين الفاً (شهاب ٣٤٩).

(١) أشارت المصادر التيمورية أن بيازيد لقى من تيمور معاملة طيبة بعد وقوعه في الأسر، لكن ابن عربشاه يفيد بأن تيمور كان يضع أسيره بصورة دائمة في قفص من حديد، وكان ينقله في هذا القفص أينما ذهب..

وكانت العبارة التي أوردها ابن عربشاه عن حالة يزيد عقب أسره، مثار بحث وجدل بين بعض الباحثين، بينما لم يعرها الآخرون أي اهتمام. وكانت عبارة هذا المؤرخ الدمشقي عن بايزيد بعد أسره «ووقع ابن عثمان في قفص وصار مقيداً كالطير في قفص». ولذلك مال بعض الباحثين الى القول إن تيمور قد سجن بايزيد في قفص من حديد فعلاً. وقد اعتمد هؤلاء على تأييد رواية ابن عربشاه على سعة اطلاع هذا المؤرخ الذي انفرد دون غيره من المؤرخين المعاصرين بذكر ذلك، وعلى اتقانه عدة لغات هي الفارسية والتركية والعربية، وهي اللغات التي حررت بها المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ تيمور والأتراك العثمانيين، فضلاً عن أن المؤرخ قد اقام مدة طويلة في خدمة الدولة العثمانية نفسها.

ويميل بارتولد الى الاعتقاد بأن نوعاً من الاقامة الجبرية قد فرضت على السلطان الأسير، وكان قد ألمح الى ذلك المؤرخ التيموري نظام الدين شامي، عندما ذكر أن بايزيد لما وقع في الأسر فقد قُيِّد وسجن....

ومهما يكن من أمر، فان المعاملة السيئة التي يذكر مؤرخو الشام ومصر أن بايزيد قد تلقاها من تيمور، ربما قد حدثت بعد فشل محاولة انقاذ السلطان وتخليصه من معتقله. فقد حاول أحد أبناء السلطان، هو محمد جلبي، في احدى الليالي حفر نفق تحت الأرض للوصول الى خيمة السلطان الأسير. ولما فشلت المحاولة وعلم بها تيمور، أمر بتقييد بايزيد خلال الليل بالسلاسل، وشددت عليه المراقبة نهارا (كامل باشا ص ٥١).

ذكر ما فعله مع ابن عثمان من نكاية غدت بأوصافه القبيحة على مَرّ الزمان حكاية

ثم انه في بعض الأيام، جلس في مجلس عام، وخفض جناح النشاط للخاص والعام، وطوى بساط النهي والأمر، ومدّ بساط الخمر والزمر، وحين غصّ بالناس المكان، استدعى سريعاً ابن عثمان[1]، فجاء وفؤاده يرجف، وهو في قيوده يرسف، فسَكَّن قلبه، وأزال رعبه، ثم أحسن جلوسه، وأزال بالاهتشاش اليه عبوسه، ثم امر

ويتفق ابن عربشاه مع يزدي في أن معاملة تيمور لأسيره لم تكن خلال مدة الأسر على منوال واحد، فكان احياناً يلاطف بايزيد ويباسطه ويترقق له في الكلام، وأحياناً يسخر منه ويضحك عليه. وكان يهدف من ذلك أن يظل بايزيد معلقاً بين الرجاء والخوف، يقسو عليه حيناً، ويُطيِّب خاطره حيناً آخر، ويُمنيه بأنه سوف يعيده الى حكم سلطنة الروم. وحاول بايزيد خلال أسره أن يقدم لتيمور بعض النصائح في إدارة البلاد، فأوصاه ان لا يهدم القلاع والحصون، وأن لا يُنكل بالاتراك العثمانيين، لأنه لن يستفيد من هذا العمل الا البيزنطيون، وحلفاؤهم (العسقلاني ٢٦٨/٢ والقرماني ٢٩١، شهاب ٣٥٤).

(١) كان تيمور يتقصد ازعاج بايزيد نفسياً، ولا شك في الحال التي آل اليها السلطان العثماني، على الرغم مما كان يلقاه من تيمور من حسن المعاملة أحياناً، كانت مصدر ألم نفسي له، فأخذت صحته بالتدهور. وأُصيب بمرض الخناق وضيق التنفس. وربما كانت حالته النفسية وما كان يعانيه من الحزن والقهر والشعور بالمهانة والخجل — وكانت تصل اليه وهو في الأسر أنباء المنازعات التي اشتدت بين اولاده على ما تبقى من اشلاء الدولة العثمانية — سبباً في اصابته بالمرض الذي أدى الى وفاته في ١٤ شعبان ٨٠٥هـ = ٩ آذار ١٤٠٣ في مدينة آق شهر في الأناضول. وكان تيمور في ذلك الوقت في ضواحي أزمير. ولما سمع بنبأ وفاته حزن وبكى — على حد قول يزدي — ولما قدم عليه موسى ابن السلطان سمح له بنقل جثمان والده حيث دفن في بورصه. (شهاب ٣٥٤).

ويقول ابن تغري بردي (وأما ابو يزيد بن عثمان، فانه استمر في اسر تيمور من ذي الحجة سنة أربع، الى أن مات بكربته وقيوده، في ايام من ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة بعد أن حكم ممالك الروم نحو تسع سنين.

وكان من أجلّ الملوك عزماً وشجاعة، رحمه الله تعالى، وهو المعروف ببلدرم بايزيد (النجوم الزاهرة ٢٦٩/١٢).

بافلاك السرور فدارت، وبشموس الراح ان تسير من مشرق اكواب السقاة الى مغرب الشفاه فسارت.

وحين تقشعت عن شموس السقاة سحاب الخدور، ودار في سماء العشرة نجوم يحثها من مراسيمه برزز وبدور، نظر ابن عثمان فاذا السقاة جواريه، وعامتهم حرمه وسراريه، فاسودت الدنيا في عينيه، واستحلى مرارة سكرات حَينه[1]، وتصدع قلبه، وتضرّم لبّه، وتزايد كمده، وتفتت كبده، وتصاعدت زفراته، وتضاعفت حسارته، ونكى جرحه، وَغُذَّ[2] قُرحه، ونثر على جرح مصابه من قصَّاب[3] الأسى ملحه، وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه، في مكاتباته بذكره النساء وحلفه، لأنه سبق أن ذكر الحُرم، عند الجغتاي وقبائل الترك من أكبر الجرم، وأعظم من الخيانة في الحرم، وايضا مكافأة لما فعله ابن عثمان، مع حريم طهرين[4] في ارزنجان.

ومن تمام اساءته لابن عثمان، احسانه لأولاد ابن قرمان[5].

وكان قبل ذلك ابن عثمان، قد استولى على ممالك قرمان، وقتل متوليها السلطان علاء الدين بعد أن حاصره وقبض عليه، ونقل الى حبس بروسا محمداً وعلياً ولديه،

(١) الحين: بالفتح الهلاك وقد حان الرجل: أي هلك.

(٢) غذ قرحه: سال بما فيه.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: قصبات.

(٤) طهرتن: حاكم أرزنجان.

(٥) يقول ابن تغري بردي (ثم أفرج تيمور عن محمد وعن أولاد ابن قرمان من حبس أبي يزيد بن عثمان، وخلع عليهما وولاهما بلادهما، وألزم كل واحد منهما باقامة الخطبة، وضرب السكة باسمه واسم السلطان محمود خان المدعو صرغتمش (النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٦٩). وكانت إمارة آل قرمان التركمان الذين كانوا يحكمون مدن «ارمناك» و «لارنده» و «قونية» و «أقسراي» (أقرا). وكانت هذه الامارة أهم الامارات التركية التي قامت على انقاض دولة سلاجقة الروم في آسية الصغرى. ولم يكن يفوقها قوة الا الدولة العثمانية (النجوم الزاهرة ٦١/١٥) وعلى الرغم من أن السلطان العثماني مراد الأول والد بيازيد قد زوّج ابنته من علاء الدين حاكم الامارة القرمانية، فان يلدرم بايزيد قتل زوج شقيقته علاء الدين عام ٧٩٣هـ = ١٣٩١م والقى بولديه علي ومحمد في السجن، وظل الأخوان القرمانيان في الاعتقال مدة اثنتي عشرة سنة الى أن أطلق تيمور سراحهما (شهاب ٢٥٦).

فلم يزالا عنده في ضيق وضنك، حتى افرج عنهما بالحبس عليه تمرلنك، فأخرجهما وخلع عليهما، وأبرهما وأحسن اليهما، وولاهما مأواهما (وليس ذلك لحب[1] علي كرم الله وجهه ولكن لبغض معاوية[2]) قلت:

لم يرفض معاويـــة محب عليا بل لأن أورى[3] يزيدا

وقيل:

وليس لحبِّه يحنو عليـــه ولكن بُغْض قوم آخرينـــا

وقلت بديهاً:

أصادق ضد اعدائي وان لم يكن بينـــي وبـــينهم ولاء
وأبغض من يعادي لي صديقاً وان اثنى علي بما أشاء
وذاك لينتكي ضدي ويهنا فتى قد سرني منه الاخاء

والأمير محمد هذا هو الذي قبض عليه الأمير ناصر الدين، محمد بن دلغادر أمير التراكمة المفسدين، وقتل ولده مصطفى في البلا، وجهزه الى الملك المؤيد[4] مكبلا، وذلك في شهر رجب سنة احدى وعشرين وثمانمائة.

ذكر وفود اسفنديار عليه، ومثوله سامعاً مطيعاً بين يديه

ثم إن الأمير اسفنديار[5] بن بايزيد، وهو أحد ملوك الروم وله في السلطنة قصر مشيد، ورث الملك عن أبيه وكان مستقلاً بالإمرة، وبينه وبين الملوك العثمانية عداوة

(١) الامام علي بن ابي طالب رابع الخلفاء الراشدين قتل سنة ٤٠هـ.

(٢) الصحابي معاوية بن ابي سفيان والي دمشق وأول خلفاء بني أمية توفي سنة ٦٠هـ. والفقرة بين القوسين أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: رُبى.

(٤) الملك المؤيد شيخ سلطان المماليك بويع بالسلطنة سنة ٨١٥هـ وبقي سلطاناً على مصر والشام حتى وفاته سنة ٨٢٤هـ.

(٥) يقول ابن تغري بردي (ثم قدم على تيمور إسفنديار أحد ملوك الروم بتقادِم جليله، فقبلها وأكرمه وردّه إلى مملكته «بقسطمونية» (النجوم الزاهرة ٢٦٨/١٢).

موروثة ونفرة، وتحت حكمه بعض مدن وقلاع، وَوَهد ويفاع[1]. منها مدينة سينوب[2] الملقبة بجزيرة العشاق، يضرب بظرافتها المثل في الآفاق، وهي في النحر من البحر في جزيرة كبيرة، سبيل الدخول اليها عسيرة، بها جبل أحسن من أرداف الحور، متصل بمعبر أدق من دقيق الخصور، وهي معقل إسفنديار[3] ومعاذه، وحرز خزائنه وملاذه، أعصى من إبليس، وأوثق من كَفّ بخيل يخاف التفليس.

ومنها قسطمونية[4] تخت ملكه، وبحر فلكه.

ومنها سامسون، وهي قلعة على جانب البحر للمسلمين، مقابلتها نظيرتها للنصارى المجرمين، بينهما دون رمية حجر، وكل منها آخذة من الأخرى الحذر، وغير ذلك من القلاع والقرى، والقصبات في الوهد والذرا.

لما بلغه ما فعله تيمور الغدّار، مع أولاد ابن قرمان والتتار، ومع قرايلوك وطهرتن حاكم أرزنجان، والأمير يعقوب بن علي شاه متولي كرمان، ومن توجّه اليه من حكام منتشا وصاروخان[5]، وأنه لا يهيج من أطاعه وتلبس لأوامره بالسمع والطاعة، سارع الى المثول بين يديه، وتهيأ للوفود عليه، فأقبل بالتحف العالية، والنتف الغالية، فقابله بالبشرى، وعامله بالسرّا، وأقرّه في مكانه، نكاية لابن عثمان، ثم أمره وأولاد قرمان،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وأوهد وبقاع .

(٢) سينوب : ميناء تركي على البحر الأسود .

(٣) الأمير مبارز الدين إسفنديار حاكم سينوب، وكان قد رفض سابقاً الخضوع لسلطة بايزيد، ثم قدم على معسكر تيمور محملاً بالهدايا، فثبّته تيمور في حكم إمارته التي كانت تضم « قسطموني ، وسمسون » بالاضافة الى سينوب (العسقلاني ٢٦٩/٢).

(٤) قسطمونية : مدينة في آسيا الصغرى وتقع جنوب سينوب .

(٥) سعى تيمور بعد انتصاره على السلطان العثماني في معركة أنقرة لاعادة الامارات التركية التي كان العثمانيون قد قضوا على استقلالها إلى الوجود، وأطلق من سجون العثمانيين من كان فيها من أمراء وحكام تلك الامارات، وأعادهم إلى مناصبهم السابقة، وكان بعض هؤلاء الأمراء أبناء علاء الدين بن قرمان قد قضوا في السجن مدة اثنتي عشرة سنة (العسقلاني ٢٦٩/٢) والقرماني ص٢٩٣. وهكذا كان الحال مع أمراء منتشا وآيدين وكرميان وصاروخان. وثبّت تيمور تابعه المخلص طهارتن على حكم أرزنجان وزاد في أملاكه، وفعل مثل ذلك مع تابعه الآخر عثمان قرايلك، حاكم ديار بكر وزعيم تركمان الغنمة البيضاء (آق قيونلو). (شهاب ٣٥٦).

ومن اتّسم له بميسم الطاعة والاذعان، من أمراء تلك الاكناف والاكنان، أن يخطبوا ويضربوا السكة باسم محمود خان، والأمير الكبير تيمور كوركان، فامتثلوا أوامره[1]، وحذروا زواجره، وأمنوا بذلك الغارة والمصادرة. (وتوفي اسفنديار المذكور في شهور سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، وهو طاعن في السن، وهو من أواخر الملوك الذين وفدوا على تيمور، واستولى بعده على ممالكه ولده ابراهيم بك. ووقع بينه وبين أخيه قاسم بك مشاجرات، وانحاز قاسم الى الملك مراد ابن عثمان، ولله الأمر من قبل ومن بعد[2]).

(**فصل**) ثم إن تيمور أخرج مالَ ابن عثمان وغيره من الذخائر، واستصفى لخزائنه ما كان إرثاً وكسباً لملوك الأروام[3] من النفائس والأخائر، وشتّى في ولايات منتشا، وألقى لدروسها مباحث تصريفه كيف شا[4]، وانتهى الى أقصاها، وحرّر البحث في مسائل الخُمس والمغانم فاستقصاها، وانبثت جنوده في آفاقها، وغاصت في بحار ممالكها من أثباج[5] أطوادها الى قرار أعماقها، فمن فارع[6] الى جبال جباهها، وقمم صياصيها، ومن متعلق بآذان مراميها، ومتسلق بأذيال نواصيها، ومن راكب أكتاف أكنافها نازل في سواحلها، دائس بأرجل سعيه خدود روضها الأنف جائس بكاهل أهلها[7]، ومن دامغ دماغها بأهداب رماحه لأجل العين، بالغ من غير حاجب له منها ما رام باليد واليدين، ومن حال على نهد صدرها، تال رءوسها ووجوهها للجبين على ظهرها، ومن مادٍّ أنامل تعدّيه من غير كفّ إلى معاصمها ومرافقها، كادّ بأقدام الفساد في بطون مغاربها وأفخاذ مشارقها.

(١) يُفهم من أقوال ابن عربشاه أن تيمور حاول أن تكون سلطته في بلاد الروم على درجة أقوى مما كانت عليه الحال في بلاد القبجاق. فكان يطلب من الحكام الذين أقامهم أن يضربوا السكة باسم سلطانه محمود بن سيورغتمش وباسمه، وأن تكون الخطبة لهما أيضاً.

(٢) وردت هذه العبارة في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وهي خالية من السجع كما هو مألوف في الكتاب، بالاضافة الى أن المؤلف ذكر في آخر النسخة أنه أنهى مؤلفه هذا سنة ٨٤١هـ. فكيف ذكر هنا هذه الحادثة؟.

(٣) الأروام : العثمانيين .

(٤) كيف شاء .

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أشباح .

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فازع .

(٧) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مناهلها .

فجزّوا الرؤوس، وحزّوا الرقاب (وقطعوا الأعناق)[1] وفتّوا الاعضاد، وبتوا الاكتاد، وحرّقوا الأكباد، وشوّهوا الوجوه، وأسالُوا العيون، وأشخصوا الأبصار، وبَطُّوا البطون[2]، وأخرسوا الألسنة، وصكوا المسامع، وأرغموا الأنوف، وأذلوا العرانين، وهشموا الثغور، وحطموا الصدور، وقصموا الظهور، ودَقُّوا الفِقَرْ، وشَقُّوا السُرَر، وأذابوا القلوب، وفَطَّروا المرائر، وأراقوا الدماء، واستحلُّوا الفروج، وأحروا الأنفاس، وأبادوا النفوس، وسبكوا الأشباح، وسلبوا الأرواح، ولم يخلص من شرهم من رعايا الروم الثلث ولا الربع[3]، وصارت جماعاتُهم فيهم ما بين منخنقة وموقوذة ومُتَرَدّية ونَطيحة وما أكل السبع[3].

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) لا توجد في بعض النسخ، وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وبطنوا.

(٣) يذكر ابن عربشاه ما فعله تيمور في بلاد العثمانيين ويقول ابن تغري بردي (وعساكر تيمور تفعل في بلاد الروم وأهلها تلك الأفعال المقدم ذكرها) (النجوم ١٢/٢٦٨).

وكان تيمور عقب معركة أنقرة، وبعد أن احتل المدينة نفسها قد انتقل منها الى «كوتاهية» حيث أقام له معسكراً هناك، وأطلق من هذا المكان قواته غرباً وجنوباً، بعد انهيار مقاومة العثمانيين، وكان الهدف من هذه الأعمال القيام بأعمال التخريب والسلب والنهب، ومنع قيام الدولة العثمانية مرة ثانية، والعمل على إقامة حكم يدين لتيمور بالولاء والطاعة.

وكانت القوات التي انطلقت غربا بقيادة حفيدي تيمور محمد سلطان وأبي بكر، وكان الهدف بلوغ بورصة، قبل أن يتمكن سليمان بن السلطان العثماني بايزيد من مبارحتها مع خزائن الدولة العثمانية، وكانت هذه القوات تسير بسرعة كبيرة، لذلك لم يتمكن من أن يصل من أفراد هذه القوات التي كانت تعد ثلاثين ألفاً إلا أربعة آلاف، بسبب الاجهاد الذي حَلَّ بهؤلاء من السير السريع.

ولم تتمكن قوات تيمور من إدراك سليمان الذي استطاع الوصول إلى «أزنيق» على الساحل وعبر من هناك البحر إلى «الروم ايلي». وتتحدث المصادر التركية والعربية عن أعمال التخريب والتنكيل والاحراق التي أنزلتها قوات محمد سلطان في مدينة بورصة. وقد أخرجت قوات تيمور منها ألف جمل محمل بالذهب والفضة، ووقع في أسر هذه القوات عدد من نساء العائلة المالكة العثمانية، ممن لم يستطعن الفرار، وكان بين الأسيرات كما يقول يزدي زوجة السلطان العثماني بايزيد وإثنتان من بناته. كما وقعت في الأسر إحدى بنات سلطان بغداد أحمد جلاير، وكان بايزيد قد خطبها لابنه مصطفى.

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات محمد سلطان تحرق بورصة وتنهبها، كانت قوات مساعده أبي بكر تُسرع إلى إزنيق في إثر سليمان بن بايزيد ويقول يزدي إن سواحل تلك المنطقة التي عبر منها سليمان إلى الروم ايلي قد سالت فيها الدماء أنهارا، وبعد نهب إزنيق عادت قوات محمد سلطان وأبي بكر إلى كوتاهية.

وأما القوات التيمورية التي انطلقت نحو الجنوب فكانت بقيادة حفيدين آخرين لتيمور هما سلطان وإسكندر بن عمر شيخ، واجتاحت هذه القوات مناطق آق شهر وقونية وآيدين. وكانت ترسل ما تحصل عليه من غنائم ومن يقع في أيديها من أسرى، قافلة بعد قافلة، إلى معسكر تيمور بالقرب من كوتاهية. وكان من بين من أُسِر في تلك النواحي، زوجة السلطان العثماني بايزيد الصربية وتدعى «دسبينة» شقيقة ملك الصرب، وأسر معها ابنها، فأرسلت إلى بايزيد الذي كان لا يزال أسيراً في كوتاهية.

وأرسل تيمور الى سليمان بن بايزيد الذي استقر في حكم الروم ايلي، يطالبه بدفع ما ترتب عليه من أموال باعتباره تابعاً له، وحضر سليمان الى معسكر تيمور محملا بالهدايا، وقدّم له الخضوع والطاعة، ورجاه أن يعفو عن والده، وأن يعامله معاملة حسنة، وسلم تيمور لسليمان كتاباً بتوليته على بلاد الروم ايلي.

أما بقية أبناء السلطان العثماني بايزيد فقد تفرقوا عقب معركة أنقرة، فاعتصم محمد بعد فشل محاولته لتخليص والده من الأسر في إحدى القلاع الجبلية في أماسية (شمال شرق الأناضول)، وانقطعت أخبار مصطفى في إثر المعركة، وأما عيسى فقد احتمى أيضاً في إحدى القلاع إلى أن دبَّ الخلاف — فيما بعد — بينه وبين شقيقه الأكبر سليمان، وأطلق تيمور سراح موسى بعد وفاة والده بايزيد، وكان قد أُسِرَ معه، وفوّض اليه حكم ما تبقى من الدولة العثمانية في بورصة وما حولها.

وساعدت هذه السياسة التي اتبعها تيمور مع أبناء السلطان بايزيد، على تحقيق ما يهدف اليه من تمزيق الدولة، عن طريق إثارة الخلافات بين أبناء السلطان العثماني.

(٣) يصور ابن عربشاه ما حَلَّ بسكان البلاد العثمانية من بطش تيمور كما ورد في القرآن الكريم — سورة المائدة الآية ٤ (حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع...) ويقدر القرماني الذي كتب عن أعمال تيمور في بلاد الروم، أنه لم يبق من سكان تلك البلاد بعد انسحاب قوات تيمور إلا ربعهم أو ثلثهم.. وهذه العبارة تصور ما لحق ببلاد الروم وسكانها من الأذى خلال اجتياح تيمور وقواته لهذه البلاد. (شهاب ٣٥٧).

ذكر فتح قلعة ازمير وحتفها، ونبذة من عجيب وضعها ووصفها

وحاصر قلعة ازمير، وهي حصن في وسط البحر مناله عسير[1] ــ بهمزة مكسورة وزاي معجمة، وميم مكسورة وياء ساكنة وراء مهملة ــ قلعة قد أقلعت في

(١) بعد معركة أنقرة وانتصار تيمور على السلطان العثماني بايزيد، أقام تيمور بمعسكره في كوتاهية، وتنقل هناك في ربوع الأناضول فأمضى فترة استجمام في « تنغوزلغ » وسار بعد ذلك الى « كَزل حصار » و « أيا سليق » وانطلق من هناك للاغارة على « إزمير » التي كانت تحكم حكم الصليبيين من فرسان القديس يوحنا.

وكان فرسان القديس يوحنا وهي إحدى الجماعات الصليبية ــ تحكم جزيرة رودوس رفضت الرضوخ لمشيئة تيمور، وكان هؤلاء قد نزلوا في الجزيرة في مطلع القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي (٧١٠هـ ــ ١٣١٠م) بعد انسحابهم من عكا عقب استيلاء المماليك عليها سنة ٦٩٠هـ ــ ١٢٩١م من قبل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون وفي هذا يقول البوصيري صاحب البردة

قد أخذ المسلمون عكا ... وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا اليهم ... خيلاً تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ... لن يتركوا للفرنج ملكا

(بدائع الزهور لابن أياس ١/١٢٤).

وبعد أن أخذ الصليبيون (فرسان القديس يوحنا) رودوس مدّوا نفوذهم إلى عدد من الجزر الأخرى في بحر ايجة ثم ضموا اليهم مدينة سمين (Smyrne) وهي إزمير الحالية عام ٧٤٦هـ ــ ١٣٤٥م.

وقد رفض حكام إزمير الاستسلام لتيمور، فاستغل تيمور ذلك وأضفى على حربه مع الصليبيين صفة الحرب المقدسة، ويشير مؤرخو تيمور أن الفاتح التركي قد وجّه رسولا إلى إزمير يحمل طلباً بأن يعتنق السكان الاسلام أو يدفعوا الجزية، أو يتعرضوا إلى الافناء نظراً لسابق شقاوتهم.

وكان الصليبيون مطمئنين إلى قوتهم التي استطاعت أن تقاوم محاولات العثمانيين لاحتلال المدينة خلال السنوات الماضية، فقد أرسلوا يستنجدون بقواتهم في جزيرة رودوس، وكان على قوات تيمورلنك التي علمت بأنباء هذه الاستغاثة، أن تهاجم المدينة قبل وصول النجدات العسكرية إليها، وبدأ الحصار في ٦ جمادى الأولى ٨٠٥هـ ــ الأول من كانون الأول ١٤٠٢م.

←

البحار، وأضرمت في قلب خاطِبها بتمنُّعها وعصيانها النار، أعصى من قلاع الجبال، وأقصى في المنال أن تُنال، بِخَيْل[1] ورجال، فأعدَّ لها أنواعاً من آلات المحاصرة، وأخذها يوم الأربعاء عاشر جمادى الآخرة، سنة خمس وثمانمائة، سادس كانون الأول من السنين الرومية، فقتل كبارها، وأسر نساءها وصغارها، وبنى من أبدان القتلى جوامع وشيّد من رؤوسها منارها[2]، ثم سلب عن القلعة غناها وأفقرها، وأقواها[3] من ذخائرها وأقفرها، وأخلاها وقد استصفى منها أبيضها وأصفرها، وطيَّر بهذه الأمور أجنحة البشائر، وأطار بها على زعمه في الآفاق بأسعد فأل أسرع طائر[4].

وأقام جند تيمور ثلاثة سدود عالية من الخشب وسط المياه من ناحية البحر، وبنوا على هذه السدود جسراً لحصار المدينة وقلعتها، ومنع وصول النجدات اليها من الخارج، وعلى الرغم مما أبداه المدافعون من مقاومة عنيفة، فإن القوات المغيرة نجحت في اجتياح المدينة بعد قصف بالمنجنيقات استمر اسبوعين بالليل والنهار، وأرسلوا عليهم قوارير النفط المشتعل، ونجح جنود تيمور في فتح ثغرة في السور، نفذوا منها الى داخل المدينة. ولم تتمكن السفن التي قدمت من رودوس لنجدة المدينة، وهي محملة بالمقاتلين والأسلحة، من الاقتراب، واضطرت للعودة الى رودوس، ولم تنجح إلا بانتشال ثلاثة آلاف من محاربي المدينة من المياه بعد أن ألقوا بأنفسهم إلى البحر فراراً من قوات تيمور التي استطاعت السيطرة على المدينة.

وقام المصور الفارسي الشهير بهزاد (٨٥٤ ــ ٩٤٢هـ = ١٤٥٠ ــ ١٥٣٧م) فيما بعد في تصوير أحد مناظر المعركة في أحد مخطوطات ظفر نامة ليزدي ،ويظهر في هذه الصورة المقاتلون التيموريون وهم يتسلقون أسوار إزمير، مستعينين بآلات حادة معقوفة، يغرسونها في الجدران، في الوقت الذي يقوم فيه الفرسان برشق من يقف على الأسوار بالسهام. ويظهر تيمور في زاوية الصورةوهو يمتطي جواده، ويعطي تعليماته لأحد قواده (D.T.Rice Islamic Art, P.227): ولاقت مدينة إيفيز الواقعة إل جنوب من إزمير المصير نفسه، ولم تبارح قوات تيمور إزمير إلا بعد أن هدَّمتها وأقامت فيها أبراجاً من رؤوس القتلى (شهاب ٣٧٠).

(١) وردت في بعض النسخ : بحيل.
(٢) المآذن.
(٣) أقواها : أخلاها.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وأطارها على رغمه في الآفاق بأسعد فأل وأسرع طائر.

ذكر ما صنعه من أمر مروم وهو في بلاد الروم من قصده بلاد الخطا واستخلاص ممالك الترك والجتا، وافتكاره وهو في الغرب مشغول في استصفائه سائر ولايات الشرق والمغول، وكيف عانده القضاء المبرم بنازل ألهب فؤاده وأضرم، فصادمه الزمان وعكس غرضه وهذه كالجملة المعترضة

ثم إن تيمور كان قد استدعى من سمرقند سِبطه[1]، محمد سلطان والأمير سيف الدين ورهطه، كما ذكر أولا وكان محمد سلطان هذا للفضلاء ملاذاً وللعلماء معاذا، مَخايلُ السعادة في غضون جبهته لائحة، وبشائر النجابة من أسارير طلعته واضحة.

في المهد ينطق عن نجابة جدّه أثر السعادة لائح البرهان

وسيف الدين هذا هو أحد رفقاء تيمور في مبداه، وأُسُّ أركان دولته في منتهاه، وهما اللذان كانا بَنَيَا أشبارة، وأسَّسا فيها قواعد النهب والغارة، وهي في نحر بلاد المغول والجتا، وأقصى حدود ما ينتهي اليه حكم تيمور ومبدأ بلاد الخطا، وَوَلَّيا بها أميراً يدعى أرغون شاه، وأمدَّاه بطوائف من العساكر وفي ثغر المغول أرصداه، كل هذه الأمور، بأوامر تيمور.

ولما شرعا في ذلك، لم يرض المغول بهذا الفعل الحالك، لأنهم كانوا يعلمون أن ذلك الأفعى إذا جاورهم لابدّ أنه في الفساد يسعى، فلا يأمنون غائلته، ولا يطيقون مجاورته، فتشوشت خواطرهم، وتكدّرت ضمائرهم، فاستوفزوا للفرار، وإخلاء الديار، فزاد الجغتاي فيهم طمعاً، ومَدَّ كل من أشرار الطائفتين الى الاضرار يد التطاول ورجل الفساد وسعى، وشرب كاسات التجرُّم فأكل ما حَلّ بيده وما تزهد في تعففه ورعا، وفرح الجغتاي بذلك، ووقعت العداوة بين الجانبين فَسَدّ كل على الآخر طرق المسالك، وجعلوا يُرسلون إليهم السرايا، ويُحلُّون بما تصل يدهم اليه من متعلقاتهم البلايا، وجعل المغول أيضاً يفعلون مع الجغتاي ذلك، وتربصوا بتيمور لبعده عنهم ريب المنون وتشبثوا بعشويات المهالك، واتصل الخبر بتيمور، فسرّ بذلك أشدّ السرور.

(١) السِبط: واحد الأسباط وهم ولد الولد.

ثم إنهما حصّناها بالأهبة الكاملة، والعُدة الشاملة، والرجال المقاتلة، منهم طائفة من عساكر الهنود ومُلتان، وقوم من جند عراق العرب، وأذربيجان، وفرقة من فوارس فارس وخُراسان، وشرذمة من أناس تُدعى جانى قربان، وأضافوا هؤلاء الكماة، مع تومان من ياساق الجغتاي الى الأمير أرغون شاه، ووصلا الى خجند، وقطعا سيحون وقَدِمَا سمرقند، وولّيا بها أميراً يدعى خواجه يوسف، فكان في قيد الطاعة والاخلاص يرسف.

ثم خرجا من سمرقند قاصدين ذلك الغشوم، ثم إنهما ماتا جميعاً سيف الدين في خراسان ومحمد سلطان[1] في بلاد الروم، فوقع تيمور في الأحزان، على حفيده محمد سلطان، ولبس عسكره السواد، وأقاموا شرائط الحداد، لم يكن بهم حاجة الى السواد المُعَلَمْ، فإنهم كانوا هم السواد الأعظم، ثم جهَّز عظامه في تابوت، الى سمرقند مع عظموت وجبروت، ورسم أن يَتلقاه أهل المدينة بالنوح والبكاء، ويُقيمُوا عليه شرائط العزاء، وأن لا يبقى أحد من العباد، إلا ويلبس من فرقه الى قدمه السواد.

فخرج أهل سمرقند عند موافاته، وقد انغمسوا في السواد لملاقاته، وصار الشريف والوضيع، والدني والرفيع، بالسواد مُعْلَمَا، فكأنما أُغشي وجه الكون قطعاً من الليل مظلما، فدفنوه بمدرسته الحصينة المعروفة بانشائه، داخل المدينة، وذلك في سنة خمس وثمانمائة.

ولما أهلكَ الله تعالى جَدَّه دفنوه كما سيأتي ذكر ذلك عنده.

ذكر حلول غضب ذلك الصيّاد على أللّه داد ونفيه إياه الى أقصى البلاد

ولما توجَّه الثقل من ماردين صحبة أللّه داد[2]، وفارقه تيمور متوجهاً الى استخلاص

(١) أثناء عودة تيمور الى آق شهر قادماً من غزوة ازمير، علم بإصابة حفيده الأمير محمد سلطان بن محمد جهانكير، بمرض خطير ولم ينفع فيه طب ولا دواء، وكانت إصابته كما يقول يزدي بمرض الصرع، ولم يلبث أن اشتد عليه المرض وتوفي في ١٧ شعبان ٨٠٥هـ ـــ ١٢ آذار ١٤٠٣م وكان في التاسعة والعشرين من عمره، فأمر تيمور بحمل جثته الى سمرقند (شهاب ٣٥٦).

(٢) الله داد: القائد التيموري عطاء الله الذي كانت له مكانة كبيرة عند تيمور وقد أسندت إليه في دمشق مهمة الاشراف على جمع الأموال من السكان.

بغداد[1]، وكان الله داد، له أنداد، وأكفاء وحسّاد، وأعداء وأضداد، والحسد في عنق صاحبه غِلُّ قمل[2]، وتحاسُدُ الأكفاء جُرح لايندمل.

وجد أعداؤه للطعن فيه مجالاً، وفي مقام ثلب عرضه مقالا، فانتهزوا فرصة غيبته، وأكلوا بلا ملح لحمه، وتنقّلوا بغيبته، ووشوا به الى تيمور، وذكروا ما فعله في الشام من الأمور[3]، وإنه التمس من ذخائرها مالا يُحصى، واختلس لنفسه من نفائسها وتعلق به من أعلاقها ما لا يُستقصى.

وكان كما قالوا، وما أهملوا أكثر مما نالوا، فبدّدوا أمره، وأوغروا عليه صدره، لا سيما وقد قُصَّ جناحه بموت سيف الدين أخيه، وكان من الأبهة والمهابة بحيث أن تيمور كان يخافه ويرتجيه، وله في ممالك ماوراء النهر مآثر مشهودة، ونتائج فكر باقية معهودة، فما وصل الله داد الى سمرقنده، أعقبه تيمور مرسوماً من عنده، بأن يتوجه الى أشبارة، ويستعد هناك للنهب والغارة، وذلك كالنَّفي لألله داد، وإلقائه في أقصى البلاد، وطرحه في نحر المخالفين وثغر ذوي العناد.

وانتقل منها الى سمرقند أرغون شاه، ولم يَزل بها الله داد الى أن انتقل تيمور الى لعنة الله، فجعلت المغول تجهز الى أشبارة الفيالق، وتنهب ما تصل اليه يدها من صامت وناطق، وتغتنم الفرصة لِبُعْد تيمور عنها، وكان ألله داد يحترز أشد الاحتراز منها، وهو مع ذلك يُجهز لهم التجاريد، ويحفر لهم بالمكر الآبار والأخاديد، ويقتل ويَأْسِر، ويطحن ويَكْسِر، حتى أقواها بعد تيمور، وسيأتي ذكر هذه الأمور.

(١) بدأ تيمور حصار بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ ـــ ٣١ أيار ١٤٠١ الذي استمر أربعين يوماً حتى دخلها في ٢٧ ذي القعدة ـــ ١٠ تموز.

(٢) غل قمل: يضرب به المثل لكل ما يلقى منه شدة، وأصله أنهم كانوا يُغلون الأسير وعليه الشعر فيقمل، انظر مجمع الأمثال ٢/٦٠.

(٣) أسندت الى الله داد الاشراف على جمع الأموال في الشام.

نموذج[1] يدل على عمق ذلك البحر المحيط وما كان يصل اليه غواص فكره النشيط

ثم لما كان تيمور المشوم[2] مخيماً ببلاد الروم[3]، أبرد[4] الى ألله داد[5] مراسلة، فيها أمور مجملة ومفصلة، أمره بامتثالها، وإرسال الجواب بكيفية حالها، منها أن يبين له أوضاع تلك الممالك، ويوضح له كيفية الطرق بها والمسالك، ويذكر له مدنها[6] وقراها، ووهدها وذُراها، وقلاعها وصياصيها، وأدانيها وأقاصيها، ومفاوزها وأوعارها، وصحاريها وقفارها، وأعلامها ومنارها، ومياهها وأنهارها، وقبائلها وشعابها، ومضايق طرقها ورحابها، ومعالمها ومجاهلها، ومراحلها ومنازلها، وخَاليها و آهِلَها، بحيث يسلك في ذلك طريق الاطناب المملّ، ويتجنّب مآخذ الايجاز وخصوصاً المُخل، ويذكر مسافة ما بين كل منزلتين، وكيفية السير بين كل مرحلتين، من حيث ينتهي اليه طاقته، ويصل اليه علمه، ودِرَايته، من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور، والى حيث ينتهي اليه من جهة سمرقند علم تيمور.

وليعلم أن مقام البلاغة في معاني هذا الجواب، هو أن يصرف فيه مااستطاع من حشو وتطويل وإطناب، وليسلك في بيانه الطريق الأوضح من الدلالة، وليعدل عن الطريق الخفي في هذه الرسالة، الى أن يفوق في وصف الأطلال وحدود الرسوم، وتعريف الدِمن مَضغَة الشيح والقيصوم.

فامتثل ألله داد ذلك المثال، وصوَّر له ذلك على أحسن هيئة وآنق تمثال، وهو

(١) في بعض النسخ: أنموذج، والمثبت من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ. والقاموس. وفي القاموس النموذج بفتح النون مثال الشيء، معرَّب والأنموذج لحن. وأنكر علماء اللغة على من ادعى فيه اللحن، انظر شرح القاموس للزبيدي.

(٢) المشؤوم: من الشؤم.

(٣) بلاد الروم: آسية الصغرى، وكان يطلق على العثمانيين الأورام.

(٤) ورد في إحدى النسخ: أبرز.

(٥) عطاء الله القائد التيموري الشهير أسندت اليه مهام كثيرة في مختلف البلاد التي غزاها تيمور، وفي دمشق أسندت اليه مهمة الاشراف على جمع الأموال

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ويذكر كيفية مدنها...

أنه استدعى بعدّة أطباق، من نقى الأوراق، وأحكمها بالالصاق، وجعلها مربعة الأشكال، ووضع عليها ذلك المثال، وصوَّر جميع تلك الأماكن[1]، وما فيها من متحرك وساكن، وأوضح فيها كل الأمور، حسبما رسم به تيمور، شرقاً وغربا، بُعدا وقربا، يميناً وشمالاً، مهادا وجبالا، طولاً وعرضاً، سماءً وأرضاً، مرداء[2] وشجراء، غبراء وخضراء، منهلاً منهلاً، ومنزلاً منزلاً، وذكر اسم كل مكان ورسمه، وعَيَّن[3] طريقه ووسْمه، بحيث إنه بَيَّن له فضله وعيبه، وأبرز الى عالم الشهادة غيبه، حتى كأنه مشاهده، ودليله ورائده، وجهز ذلك إليه، حسبما اقترح عليه، كل ذلك وتيمور في بلاد الروم يمور.

ذكر ما فعله ذلك المكّار عند تنجيزه أمر الروم من الغدر بالتتار

ولما صفا لتيمور شرب ممالك الروم من الكدر، وقضى الكون من أفعاله العجب وأهل الروم النحب، وجيشه من الغارة الوَطْر، وامتلأ من المغانم وادي سيله العرم، وكان فتى الربيع قد أدرك وشيخ الشتاء قد هرم، واندرج الى رحمة الله المجيد، السلطان السعيد، الغازي الشهيد يلدريم بايزيد[4]، وكان معه مُكبلاً في قفص من حديد، وإنما فعل ذلك تيمور، قصاصاً كما فعله قيصر مع سابور، وكان قد قصد استصحابه[5] الى ما وراء النهر، فتوفي معه في بلاد الروم في آق شهر[6]، وفي هذا المكان توفي

(١) يذكر ابن عربشاه في إشارته هذه ما يستفاد أن تيمور كانت له دقة في معرفة الوضع الجغرافي للمناطق التي كان يغزوها، وفعل ذلك في آسية الصغرى مع العثمانيين هذه المعرفة مكنته من سلوك مسالك غير معروفة. وقد مكنت معرفة تيمور الجيدة لجغرافية المناطق التي يغزوها من انتصاراته المتلاحقة.

(٢) جرداء لا شجر فيها ولا نبات.

(٣) وردت في بعض النسخ: وتمييز.

(٤) السلطان العثماني أبو يزيد بن مراد ويعرف ببلدرم بايزيد وهو بالتركي البرق (الضوء اللامع ١١/١٤٨).

(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وكان قصد إستصحابه.

(٦) توفي في ١٤ شعبان ٨٠٥هـ ـــ ٩ آذار ١٤٠٣م في مدينة آق شهر في الأناضول (في تركية حاليا).

حفيده محمد سلطان. وعزم على الرحيل، وحزم أحمال التحميل، ثم جمع رؤس التتار، وقد أضمر لهم الدمار والبوار، وقال قد آن أن أكافئكم بما صنعتم، وأجازيكم بما فعلتم[1]، ولكن قد أضرَّ بنا المقام، ومللنا الاقامة في مضايق الأروام، فهلُمَّ نخرج الى الفضاء الفسيح، ونشرح صدورنا من ضيق الزمان والمكان في المهامه الفيح، ضواحي سيواس، متنزه الناس، ومثوى الأكياس، فهنالك نضبط أحوال هذا الاقليم الوريف، ونقرّر كلا منكم فيه حسبما يقتضيه رأينا الشريف، فإنه لا بدّ من تفصيل جمله، وإمعان النظر في كيفية تدبيره وعمله، وحَصْرِ مُدنه وقلاعه، وضبط قُراه وضياعه، وحسبان تواميمه وإقطاعاته، والاحاطة بأفراده وجماعاته.

فإذا فُصِّل لنا ما أُجْمِل، ووضح عندنا مامنه استُشكِل، فَحصْنا عن رؤسكم وجماجمكم، وتوصلنا الى معرفة أخباركم وتراجمكم، وجمعنا رؤساءكم، وحصرنا زعماءكم، وأحصينا أعدادكم، واستقصينا آباءكم وأجدادكم، واعتبرنا إخوانكم وأولادكم، ونظرنا مُتعلقيكم وأحفادكم، وتحققنا شعار الروم ودثارهم، أورثناكم أرضهم وديارهم، ثم فرضنا هذه المسألة على أعداد الرؤس، وقسمنا نفائس هذه الممالك على النفوس، ثم رددناكم اليها مُكرَمين، وكفيناكم وعيالكم العيلة إذ كنتم علينا معوّلين.

وعلى كل حال فإنا نفعل مع كل منكم ما يجب فعله، ونبقى عليكم من أفعالنا ما يتخلَّد في بطون الدفاتر والتواريخ نقله.

(١) أرسل تيمور الى زعماء التتر قبيل معركة أنقرة مع السلطان بايزيد يستميلهم اليه قائلا نحن الأتراك الجغتائيون والتتر من جنس واحد، وهؤلاء تركان ندفعهم من بيننا ويكون لكم الروم عوضاً عنهم (النجوم الزاهرة ١٢/٢٦٧).

هذا وكان تواتر اندفاع الغزوات المغولية نحو آسيا الصغرى في عهد الدولة الايلخانية قد نجم عنه استقرار أعداد من هؤلاء التتر (المغول) في تلك البلاد، وكانت المنطقة المحيطة بسيواس أكثر المناطق التي حل بها المغول حيث قامت لهم في المدينة حكومة أسسها واحد منهم يدعى « ارتنابن جعفر » وقد انتقل الحكم بعد وفاته الى أحد أتباعه هو القاضي برهان الدين أحمد، لما ألحق السلطان العثماني بايزيد المدينة بحكمه عام ٨٠١هـ بعد مقتل برهان الدين على يد أحد أتباع تيمور عمد الى إدخال أعداد كبيرة من النازلين في تلك المنطقة في جيوشه، ولكن تيمور استطاع أن يقلبهم على بايزيد قبيل معركة أنقرة، فانضموا اليه خلال القتال (شهاب ٣٥٧).

فكل منهم ارتاح لهذا القول، وعوّل في هذه المسألة على موافقة الردّ ولم يعلم فيها من العَول، فلما توافقوا على هذه الحركة بنفس ساكنة، لم يقع منهم في هذه الموافقة على كثرة عدد رؤسهم المتماثلة مباينة، فسار بالناس، حتى بلغ سيواس.

(**فصل**). ولما برق رُكام رِكابه المتراكم في آفاق سيواس وَرَعد، وحان له أن يفي لطائفة التتار بما وعد، جلس جلسة عامة، وأقام من زبانية الجند طائفة طامّه، ثم دعا من التتار الوجوه والرؤس، والظهور والضروس، ومن تخشى مضرّته، وتتقى معرّته، والمردة من شياطينهم، والعَنَدة من أساطينهم.

فاستقبلهم بوجه طَلق، ولسان بالحلاوة ذلق، وأجلسهم مُكرّمين في مكانهم، وزاد في تمكينهم وإمكانهم، ثم قال: قد كشفتُ بلاد الروم ونواحيها، وتَبيَّنتُ جميع قراها وضواحيها، وقد أهلك الله عدوّكم فاستخلفكم فيها، وأنا أيضاً أفوض ذلك اليكم، وأذهبُ عنكم وأستخلف اللهَ عليكم، ولكن أولاد بايزيد غير تاركيكم، ولا يرضون بأن يكونوا فيها مُشاركيكم.

وأما صُلحهم فقد سدّت فعالكم مع أبيهم طريقه، فلا مجاز لكم الى شريعته على الحقيقة، ولا شك أنهم يرأبون صدعهم، ويندبون جمعهم، ويستوحون عليكم أهل المدر[1] والوبر، ويُلبيهم بالاجابة كل من تبلغه دعوتهم لأنكم في زعمهم آل غدر، فيلبسون لكم جلد النمر، ويصلونكم الجمر بكل آمر ومؤتمر، فيقرضونكم من كل جانب، ويختطفونكم من الأطراف والجوانب، لا سيما وبيدهم غالبُ الحصون والدساكر، وتحت أوامرهم من بقي من طوائف الجنود والعساكر.

فإن كنتم كما أنتم في الناس فوضى، فإنهم يخوضون في دمائكم خوضا، فَعُوا واسمعوا، إن كنتم لم تعقلوا ولم تسمعوا.

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاة لهم ولا سَراة إذا جُهَّالُهم سادُوا

وأما أنا فلست منكم بدان، ولا لي في المدافعة عنكم يدان، فلا بد لعقد أمركم من نظام، ولصلاة جماعتكم من شرائط[2] وأركان يجب القيام بها أولاً والسلام.

وأول شرائط ذلك إمام، يرجع الى الاقتداء، بأفعاله الخواص والعوام، ثم بعد ذلك

(١) المَدَرة: بفتحتين واحدة المدَر والعرب تسمي القرية مَدَرَة (مختار الصحاح ٣٩٣).

(٢) ورد في بعض النسخ :ولصلاة جماعتكم من إمام بشرائط وأركان.

ترتيب الجماعه، وتنزيل كل واحد في صف السمع والطاعة، ثم وضع الأشياء في محلها، وزمام المناصب والوظائف في يد أهلها، وايصال كل مستحق الى استحقاقه، وجمع الرأي على أمر واحد باتفاقه.

فإذا اتفقت آراؤكم، وائتلفت أهواؤكم، عظُمت أبناؤكم، وكُبتت أعداؤكم، وكنتم يداً واحدة على من ناواكم، وانتصرتم على من خالفكم وعاداكم، وكان ذلك أحرى أن لا تمتد اليكم بمكروه يَدْ، ولا ينالكم من مخالفيكم كيد ولا كدّ.

وهذا إنما يتمم بالنظر في أحوالكم، والتفحص عن أمر خيلكم ورجالكم، وضبط الأهبة والسلاح، فإن ذلك آلة الظفر والفلاح، فليذكر كُلٌّ منكم ولده وأهله، وليحضر خيله، وَرجله[1]، ولييأت بِعَدَدِه وعُدَدِه، وجنده وولده، وليعرض ضرورته إن كانت، ولا يستصعبها فقد هانت، فمن كان محتاجاً الى إكمال شيء أكملناه، ومن كان معتازاً الى ايصال شيء أوصلناه وأضفنا الى كل ما تجب إضافته، فيحصل أمْنه وتذهب مخافته.

فأعْرِضوا أول شيء علينا سلاحكم، حتى نكمّله ونعمل صلاحكم، فَأَحْضَرَ كلٌ منهم أهبته، وعرض عليه عدّته، وطرحوه في ذلك الجمع النظيم، فتراكم فكان كالطود العظيم، كما فعل أول الزمان، بأهل مدينة سجستان.

فلما سلب تلك الأسود براثنهم وأنيابهم بهذه الأساليب، وخَلَبَ أولئك الكواسر الجواسر كل مناقيرهم والمخاليب، وأولج صارم فكره الذكر في أحشاء عقولهم وأنزل، وصار سَمّاكُ[2] سماء عِزّهم الرامح وقد نحره سعد الذابح أعزل، أمر كُلٌّ مَنْ عنده أحد من التتار، أن يقبض عليه ويوثقه بقيد الاسار.

ثم أمربرفع تلك الأسلحة الى الزردخانة، وقد أشعل قبائل التتار بجمر البوار وأصعد الى العيوق[3] دخانه، فَفتَّ ذلك من أعضادهم، وبثَّ من أكبادهم، وقصم ظهورهم، وأشعل نارهم وأطفأ نورهم، ثم تَلَا في خواطرهم بالمواعيد الكاذبة، واستعطف قلوبَهم بالأماني الخائبة.

(١) رجاله.

(٢) سَمَكَ الله السماء: رفعها، وسَمَكَ الشيء: ارتفع.

(٣) العَيُوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه (مختار الصحاح ٢٩٨).

واستصحبهم بالأقوال المموهة، والأفعال المشوهة، وحال بهم الحال، وأمر في الحال، بالمسير والترحال.

وقيل: إن السلطان بايزيد[1]، قال لذلك العنيد إني قد وقعت في مخالبك، وأعلم أني غير ناج من معاطبك، وأنك غير مقيم، في هذا الاقليم، ولي إليك ثلاث نصائح، هنَّ بخير الدارين لوائح.

أُولاهن: لا تقتل رجال الاروام[2]، فإنهم ردء[3] الاسلام، وأنت أَوْلى بنصرة الدين، لأنك تزعم أنك من المسلمين، وقدوُلِّيتَ اليوم أمر الناس، وصرت لِبَدن الكون بمنزلة الراس، فإن حصل لوفق اتفاقهم من تعدّي يدك بسط وتكسير (تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[4] ثانيتهنَّ لا تترك التتار، بهذه الديار، فإنهم موادّ للفسق

(١) السلطان العثماني بايزيد بعد وقوعه في الأسر إثر معركة أنقرة قد أشار على تيمور في جملة النصائح التي قدّمها ليه أن يحذر المغول ولا يأمن لهم (العسقلاني ٢٦٨/٢)، ولذلك قام تيمور وهو في طريق عودته من بلاد الروم، وأثناء مروره بسيواس، بجمعهم بحجة الانعام عليهم، لِما قدّموه من خدمات، ولكنه أمر باعتقالهم ويتابع العسقلاني القول إن تيمور استطاع بهذه الحيلة أن يقتل غالبية هؤلاء (العسقلاني ٢٦٩/٢)

أما المؤرخ الفارسي يزدي فيشير إلى أن تيمور كان يرغب في نقلهم الى حدود ما وراء النهر مع بلاد الجتا، بحجة أن تلك المناطق كانت مناطقهم الأصلية التي نشأ بها آباؤهم وأجدادهم، بعد أن خضعت بلاد الروم لسلطة تيمور، ولم يعد هناك مبرر لبقائهم في تلك البلاد، واستطاع تيمور إقناع هؤلاء بالانتقال مع نسائهم وأطفالهم الى مناطقهم الأولى في أواسط آسيا عن طيب خاطر.

ويقول العسقلاني في حديثه عن قتل تيمور للتتار (إن من لم يُقتل من التتر أُجبر على العودة مع جيش تيمور الى سمرقند وهناك تم تفريقهم في بلاده... ولم يجعل لهم رأساً فتمزّقوا (العسقلاني ج ٢ ص ٢٩٨) (شهاب ٣٥٧).

ويقول ابن تغري بردي عن معاملة تيمور للتتار (ثم شتا في معاملة منتشا وعَمِلَ الحيلة في قتل التتار الذين أتوه من عسكر ابن عثمان حتى أفناهم عن آخرهم (النجوم الزاهرة ٨٠٣/١٢).

(٢) كان يطلق على الأتراك العثمانيين أبناءالروم أو الروم.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: رداء.

(٤) سورة الأنفال آية ٧٣.

والفساد، فلا تهمل أمرهم، ولا تأمن مكرهم، فخيرهم لا يعدل شرّهم، ولا تذر على أرض الروم منهم ديارا، فإنك إن تذرهم يملئوها من قبائلهم نارا، ويُجروا من دموع رعاياها ودمائهم بحارا، وهم على المسلمين وبلادهم أضرُّ من النصارى، وأنت حين فخذتهم عني زعمتَ أنهم أولاد إخوتك، وبنو عمك وذوو قرابتك، والاولى بجماعتك وناسك[1] أن تتبعك، وبكل من أولاد أخيك أن يقول لك: عَمِّ خذني معك، فاعمل أفكارك المصيبة في إخراجهم، وإذا أدْخلتهم حبساً فلا تطمعهم في إفراجهم.

ثالثهنَّ، لا تمدن يد التخريب الى قلاع المسلمين وحصونهم، ولا تُجْلِهم عن مواطن حركتهم وسكونهم، فإنها معاقل الدين، وملجأ الغزاة والمجاهدين، وهذه أمانة حَمَّلتكها، وولاية قلدتكها.

فَتَقبَّلها منه بأحسن قبول، وحَمَل هذه الأمانة ذلك الانسان الظلوم الجهول، واستكثرها على عقل ابن عثمان، ووفّى بها بقدر الطاقة والامكان.

ذكر ارتفاع ذلك الغمام بصواعق بلائه عن ممالك الأروام

وسار[2] فثار غبار، أخذ عين الشمس معه الانبهار، وفار بحار التتار فكأنَّ البحر أمدّه الله بسبعة بحار، فمرّ لا يدخل قرية إلا أفسدها، ولا ينزل على مدينة إلا محاها وبدّدها[3]، ولا يمرّ على مكان إلا دمَّره، ولا ينجذب عن ربقة طاعته جيد[3] إلا كسره، ولا يتمنّع عليه شِمْراخ حصن شامخ إلا هَصَره

(١) من الناس.

(٢) أخذت جيوش تيمور وعساكره بالجلاء عن بلاد الروم (آسية الصغرى)، فمرت في طريق انسحابها بقيصرية وسيواس وأرزنجان وأرض روم، واتجه تيمور من هناك للقيام باجتياح بلاد الكرج.

وقدر المؤرخ القرماني بأنه لم يبق من سكان تلك البلاد بعد انسحاب القوات الغازية إلا ربعهم أو ثلثهم، وهذا يصور ما لحق ببلاد الروم وسكانها من التنكيل والأذى خلال اجتياح تيمور وقواته لهذه البلاد (شهاب ٣٥٧).

(٣) إن الدولة العثمانية التي قامت قوات تيمور بتدميرها واجتاحت أراضيها ومدنها كانت قبل

فخلع على عثمان قرايلوك[1] حين وصل إلى أرزنجان، وقرّره في ولاياته وزاده بعض معان ومغان، ووصّاه بشمس الدين الذي ولّاه قلعة كَمَاخ[2]، وأن يكون كُلٌّ منهما للآخر قوة وطَباخ[3].

ذكر انصباب ذلك العذاب ماء ونارا، على ممالك الكرج وبلاد النصارى

ثم لم يزل يلتج بذلك البحر اللج، حتى أرسى على بلاد الكرج[4]، وهم قوم

هذا الاجتياح قد قطعت في تلك الآونة شوطاً بعيداً في التوسع والامتداد في البر الاوربي، بفضل جيشها الانكشاري القوي فقد تم إلحاق أجزاء هامة من شبه جزيرة البلقان بالدولة العثمانية، كما أن السلطان بايزيد وصلت جيوشه إلى ضفاف الدانوب وحقق انتصارا ساحقا على الجيوش الأوربية سنة ٧٩٨هـ ـــ ١٣٩٦م، وضم بايزيد إلى الدولة العثمانية المزيد من أراضي هنغاريا وفرض النفوذ العثماني على شبه جزيرة البلقان، وسعى ليبسط سيطرته على الامارات التركية في الأناضول، واستطاع أن يدفع بحدود أملاكه من الشرق الى ما وراء « ملطية » و« كماخ » و« دوريكي » و« بهسنا » وأصبح بايزيد نتيجة لهذه الأعمال يحكم دولة كبيرة تمتد من ساحل بحر الادرياتيك حتى هضبة أرمينيا التي كانت تفصل بين أملاكه وأملاك تيمور، وأرسل السلطان العثماني الذي أخذ يعرف بالسلطان بايزيد « يلدرم » (الصاعقة) لسرعته في التحرك والانقضاض ـــ الى القاهرة منذ عام ٧٩٧هـ ـــ ١٣٩٥م، يطالب الخليفة العباسي، أن يمنحه لقب سلطان الروم، كي يسبغ ـــ كما قال ابن الشحنة ـــ طابعاً شرعياً في أعماله، مما يزيد في هيبته في العالم الاسلامي، وأخذ يلدرم بايزيد يتدخل في شؤون الدولة البيزنطية الداخلية، وأخذ يستعد للاستيلاء على عاصمتها « القسطنطينية » فحاصرها سبع سنوات متتالية بين ٧٩٨ ـــ ٨٠٤هـ = ١٣٩٦ ـــ ١٤٠٢م، وكان على وشك الاستيلاء عليها عندما ظهر تيمور على رأس قواته على حدود الدولة العثمانية الشرقية. (شهاب ٢٥٥).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : جند.

(١) عثمان قرايلك، حاكم ديار بكر وزعيم تركمان الغنمة البيضاء (آق قيونلو).

(٢) احتل تيمور قلعة ومدينة كماخ في شوال سنة ٨٠٤هـ = حزيران ١٤٠٢م وأمر بالحاقها بأملاك طهارتن وولّى على قلعتها الحصينة شمس الدين.

(٣) طباخ : بالباء المخففة الإحكام والقوة.

(٤) تعرضت بلاد الكرج لعدد من الغزوات التيمورية، أكثر من أية منطقة أخرى وصلت اليها ←

يعبدون المسيح، ملكهم غير فسيح، ولكنه مصون، بواسطة قلاع وحصون، ومغائر وكهوف، وجبال وجروف، وقلاع[1] وحروف، كل من ذلك أعصى في المنال، من نفس كريم سِيم شيم الأنذال.

ومن مدنهم تفليس[2]، وكان أخذها ذلك الابليس، وطرابزون وأبخاص، وهي التخت بالاختصاص.

قوات تيمور. وبلغ عدد الغارات التي تعرضت لها هذه البلاد سبع غارات. ثلاث منها كانت غارات اجتياح على نطاق واسع، وصلت بها القوات المغيرة الى مسافات بعيدة داخل البلاد. وبلغت في إحدى هذه الغزوات في شتاء عام ٨٠٢هـ ـــ ١٣٩٩م حتى سواحل البحر الأسود الشمالية الشرقية، أما بقية الغزوات فلم تتعدّ أن تكون حملات كان يقودها بعض أحفاد تيمور، لتأكيد خضوع ملوك بلاد الكرج لتيمور، أو نزهات عسكرية للاستجمام والسياحة والصيد، كان يقوم بها تيمور نفسه...

وقد أشارت المذكرات الى إعجاب تيمور، بجمال بلاد الكرج لكثرة غاباتها وصلاحها لحملات الصيد، كما أشارت مصادر تيمورية أخرى الى أسباب جديدة لغزو هذه البلاد، هي الجهاد لنشر الاسلام والحصول على مزيد من الغنائم.

ومما لا شك فيه أن وقوع بلاد الكرج الى جوار ايران وآسية الصغرى، حيث كثر تردد جيوش تيمور اليهما، وقام تيمور بمعظم عملياته الحربية فيهما، جعل بلاد الكرج عرضة لهجمات الجيوش التيمورية، لا سيما وأن تيمور ظل يشك في إخلاص هذه البلاد له، وكان يلمس منهم في كثير من الأحيان ميلاً لأعدائه والثائرين عليه في أذربيجان والعراق. (شهاب ٣٧١).

(١) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وقلال.

(٢) قام تيمور قبل عودته النهائية الى سمرقند بثلاث عمليات حربية في بلاد الكرج، قبل معركة أنقرة وبعدها، بالاضافة الى حملة رابعة بقيادة عدد من أحفاده، وكانت أولى هذه العمليات في رمضان عام ٨٠٣هـ ـــ أيار ١٤٠١م بعد عودته من بلاد الشام، وانطلقت الحملة من معسكرات تيمور بجوار ماردين الى بلاد الكرج حيث وصلت مدينة منكول القريبة من العاصمة تفليس مما اضطر ملك الكرج كورجين للاسراع بتجديد طاعته لتيمور.

وعادت قوات تيمور للظهور في بلاد الكرج بعد ثلاثة أشهر في مطلع عام ٨٠٤هـ ـــ آب ١٤٠١م وأرسل تيمور الى ملك الكرج في تفليس يطالبه بدفع ما يترتب عليه من أموال الخراج والجزية، وعاد رُسُل تيمور من تفليس العاصمة يحملون الهدايا ورسالة من ←

فَتَمَنَّعت هذه الأماكن عليه، ولم تُسْلِمْ قيادها اليه، فأقام يحاصرها[1]، وقعد يناقرها وينافرها، فمن ذلك مغارة بابها في وسط جرف شاهق، آمنة من البوائق سالمة من الطوارق، سقفها آمن من صواعق المجانق[2]، وذيلها أرفع من أن يتشبث به علائق المسالق، مدخلها أخفى من ليلة القدر[3]، وعدم التوصل اليها أجلى من القمر ليلة البدر.

ملك الكرج يُقر فيها بالتبعية لتيمور ويتعهد بدفع الأموال المفروضة عليه عاماً بعد عام.
وظهر تيمور على رأس قواته من جديد في بلاد الكرج في رجب ٨٠٤هـ — آذار ١٤٠٢م وكانت هذه الحملة لكسر شوكة الكرج قبل أن يتقدم لقتال السلطان العثماني بايزيد.. وسارت قوات تيمور تريد العاصمة تفليس ولكن أخبار تحركات بايزيد العسكرية أجبرت تيمور على تغيير خط سيره والاتجاه من هناك الى بلاد الروم.
وعاد تيمور الى بلاد الكرج بعد الانتهاء من اجتياح بلاد الروم عام ٨٠٥هـ — ١٤٠٣م ويردد مؤرخو تيمور أن دافع حملات تيمور الى بلاد الكرج هي الجهاد ضد الكفار زمرة الضلال وعبدة الأصنام. (شهاب ٣٧٣).

(١) حين عاد تيمور إلى بلاد الكرج بعد انتصاره على السلطان العثماني أسرع ملك الكرج يقدم الطاعة له وأرسل اليه وفداً محملاً بالهدايا، ورسالة يعلن فيها ولاءه وخضوعه، ولكن تيمور صرف الوفد خائباً.
وكان تيمور يأمل أن يجتاح بلاد الكرج ويتقدم فيها، ووقف عند مدينة قارص وأرسل من هناك أحد أتباعه وهو الشيخ ابراهيم حاكم منطقة شروان للقيام بدراسة جديدة لاحوال بلاد الكرج والتعرف على مسالكها، وتقدير ثرواتها تمهيداً لغزوها.
وبدأت العمليات الحربية بحصار كورتين في المحرم سنة ٨٠٦هـ = تموز — آب ١٤٠٣م وتحدث ابن عربشاه ويزدي عن مناعة الحصن الذي كان يقع على قمة جبل عال ذي سفوح شديدة الانحدار، تشرف على واد عميق، ويطل على الوادي من ارتفاع مائة وخمسين ذراعاً. ولا يوصل إلى الحصن إلا من طريق واحد، وبني فيه مستودع كبير لتخزين المياه، لتمكين المدافعين عنه من المقاومة لمدة طويلة، وكان حاكم الحصن قد كدّس فيه أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة والمؤن. (شهاب ٣٧٣).

(٢) اعتقد تيمور في بادىء الأمر بعجزه عن اقتحام حصن كورتين، وهَمَّ بالرحيل عنه، وكانت الحجارة التي تقذفها المنجنيقات لا تصل الى داخل الحصن لارتفاع أسواره.

(٣) ليلة القدر: إحدى ليالي شهر رمضان، ورد فضلها في سورة القدر في القرآن الكريم.

فأُولع بمحاصرتها، والتزم بمضاجرتها، واستعمل من فكره مهندسه، وجعل لا يقرُّ من الأفكار والوسوسة، ثم أنتج رأيه المتين، وفكره الرصين، أن يرسل عليها عذاباً من فوقها[1]، وأن يصطاد تلك الحمامة الصاعدة في الجوّ بأرجلها من طوقها.

فأمر أن يصنعوا له توابيت على هيئة الدبابات، كأنّهن شياطين النساء للرجل غلابات، وأوثقهن بالسلاسل الحكيمة، وأوسقهن بالرجال ذوي الشكيمة، وَأدلاهنّ من تلك القلال، وأهواهنّ من شواهق الجبال، فَتدلّين في الهواء، تَدْلية مبرم القضاء، فملأن النفانف، وأرجفن من الجبال والرجال الروانف، وصار لسان حال تلك الصقور والشواهين ينادي كل من رآه (ألم تَر الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهنّ إلا الله).

فحين وازوا باب تلك المغارة، أكبتوهم[2] بالنبال السَّحَارة، وكشفوهم[3] بالمكاحل الطيارة، وهاوشوهم بأنواع الأسلحة، وناوشوهم بالأوهاق والكلاليب المفلطحة.

فلا زالت الجوارح في الهواء صَافَّات ويقبضن، يُقبلن الى ذلك الوكر حائمات عليه ويعرضن، يَنقرن سُرَّةَ أهله بمناقير المناقيب، ويَنْشبن فيهم مخاليب الكلاليب، وبكره الناشز تمانعهم على الولوج، وتستعين في مدافعتهم بمن فيها من العُلوج، فلم يَنْشب أحد أولئك الجوارح، أن أنشب في الباب كلوبه الجارح.

ثم استعضد الفتح واستنهض الظفر، واعتمد على الله ومن دبابته الى الوكر طفر، فاحتضنه ساعد المساعدة، واكتنفه عضد المعاضدة، وقبض على رسغه كف السلامة، فنكصت النصارى على عقبهم أمامه، ولم يزل وحده مبيدهم، حتى قتل أوباشهم وصناديدهم، ثم أدخل رفقته فيها، وأخرجوا ما كان في مخابيها[4]، واسم هذا

(١) اهتدى تيمور وأتباعه إلى خطة لاقتحام البوابة، فقام جند تيمور ببناء برج من الحجارة والخشب في مكان قريب من الحصن، وأصبح بالامكان بمساعدة هذا البرج أن يقذف المغيرون أبراج الحصن بحجارة المنجنيقات. واستمر القصف لمدة أسبوع.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : كبتوهم.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وكفوهم.

(٤) تمكن جنود تيمور من فتح ثغرة في السور الجنوبي لحصن كورتين، تسلَّل الجند التيموريون منها بعد أن تسلقوا سفوح الجبل الشديدة الانحدار، باستعمال السلالم والحبال.

الرجل لهراسب، ستة أحرف ليس فيها غير متحرّكين: اللام مضمومة، والهاء، والراء مفتوحة والألف والسين والباء، واجتماع ثلاث سواكن في الفارسي كثير، وفي التركي أيضاً موجود ولكنه عزيز غير غزير.

ومن جملة هذه القلاع قلعة شاهقة، حروف ذاتها كحروف اسمها بمناعتها ناطقة، لا يعمل في فتحها لارتفاعها لعلَّ وليت، لأن اسمها كما زعموا كَل كُورْقَيْت، أي: تعال انظر وارجع، بمعنى أنه لاينال الوافد عليها، سوى النظر اليها، ثلاثة أطرافها مبنية على قلل آكام، شمخت على ما حواليها من الهضاب فهي على الاعلام أعلام، وطريقها من الوجه الرابع وهو دقيق في سلوكه عسر، ينتهي بعد أنواع المشقة الى جرف مقطوع بينه وبين باب ذلك الحصن جسر، إذا ارتفع ذلك الجسر سدّت دون الوصول الى الحصن الحيل، وأعاذ كل من لاذ بقلته من بنيه فصح أن يقال له معاذ ابن جبل[1].

فلما اطلع على حقيقة أمرها، وانكشف له مستور خبرها، أبى أن يرحل عنها إلا أن يصل الى غرضه منها، ولم يكن بالقرب منها مكان ينزل فيه، ولا برّ يحمل ذلك الى البحر الطاغي ويحويه، بل إنما كان حواليها جروف وهضاب، غضون جبينها كأنها وجه شوهاء ناشز عن زوج محب عقاب في عقاب، فطمع منها من غير مطمع، ونصب سرادقه بحيث كان منها بمرأى ومسمع.

وصار من عساكره الأسود الخوادر، يتناوبون حصارها ما بين وارد وصادر، وهم يرفعون الجسر بالنهار، فيأمنون مكايد القتال والحصار، لأنه قد تقدم أنه لم يكن حواليها مكان للقتال، ولا مفحص[2] قطاة يتمكن فيه للنضال، فكانوا يرمونها بالنهار على بُعد بسهام الأحداق، ويرضون منها بنظرة من بعيد كقانع العشاق، فإذا أجنّهم الليل[3]، شَمروا الى جهة مخيمهم الذيل، لأنه لم يمكنهم حواليها مبيت ولا مقيل، فتضع النصارى الجسر ويرومون الى حاجاتهم السبيل، فلما لاح له منها أمارات الحرمان، وبان له أنّ أمل ظنه من فتحها قدمان، كما قلت:

(١) معاذ بن جبل: أحد مشاهير صحابة النبي ﷺ.

(٢) الفحص: البحث عن الشيء. والأفحوص بوزن العصفور مجثم القطاة لأنها تفحصه وكذا المفحص. يقال ليس له مفحص قطاة (مختار الصحاح ص ٣١٥).

(٣) جَنَّ الليل: أقبل الليل.

وأعظم شيء في الوجود تمنعاً نتاج مرام من عقيم زمان

صمم العزيمة على الرحيل، ولكن خاف العار فطلب لهذه المسألة الدليل والتعليل.

ذكر سبب أخذه لهذا الحصن المنيع، وبيان معاني ما جرى في ذلك من صنع بديع

وكان في عسكره شابان نديدان، أسدان حديدان، يتشابهان في الخَلْق والخُلق، لم يكن بينهما في الرجولية والشجاعة كثير فرق، يتجاريان[1] في كل وقت في ميدان المناقب لاحراز قصب السبق، فكانا كفتي ميزان، وفي مضمارها فرَسي رهان.

فاتفق أن أحدهما صادف علجاً[2] من الكُرْج، في الجرأة كالأسد وفي الجثة كالبرج، فنازله ثم قتله، وقطع رأسه والى تيمور حمله، ففخم شأنه، وأعلى على الأقران مكانه، فأثّر ذلك في نديده، فكأنّه قطع حبل وريده.

ثم افتكر في شيء يصنعه، يَضَع من نديدته ويرفعه، وكان اسمه بيرمحمد ولقبه قنبر، فلم ير أكبر من مراقبة ذلك الجسر ولا أشهر، فاعتمد على الله سبحانه وحده، واستكمل ماله من أهبة وعدّة، ورصد نجمه في بعض الليالي، ولَطَأ في مكان خالي، ولا زال يترقب النجوم، ويترصّد عليهم طوالع الانقضاض والهجوم، ويشير تلك القُنن بيديه ويذرع[3]، ويمشي تارة على بطنه وأخرى على أربع. الى أن طرح الضوء نقابه، وسلخ الجو إهابه، ورجع النصارى الى كسرهم، وتعاونوا على رفع جسرهم، طفر[4] بيرمحمد الى الجسر فقطع حباله، وتابع عليهم من حنيته نباله، ولم يمكنهم من رفعه، ولا غير موضوعه عن وضعه، فتراكموا عليه بالنبال والأحجار، وأرسلوا عليه من ذلك السماء المدرار، وهو لا يردّ عما هو بصدده ولا يلتفت الى حينه، ويَتلقّى ما يصدر من مراسيم نبالهم وأحجارهم بالقبول على رأسه وعينه.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يتحاربان.

(٢) العلج: بوزن العجل: الواحد من كفار العجم (مختار الصحاح ص ٢٩١).

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ويشير تلك الفتن بيده ويذرع.

(٤) طفر: وثب، في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ظفر.

ولم يزل على المكافحة والمناضحة، والمكاشحة والمكالحة، حتى تعالى النهار، وعضَّ الكون من فعاله أنملة العجب وأخذ عين المكان الانبهار.

وكان المحاصرون لها كفُّوا عن القتال، وتيمور قد عزم كما ذكر على الترحال، وكان سرادقه منصوباً بمكان عال، فناداه لسان الفتح، وخاطبه منادى النجح:

لا تيأسنّ من مطلب قطع الورى أسبابه
إن أغلقوا أبوابهم فالله يفتح بابه

فتراءى على باب القلعة من بُعد كأنَّ ناساً يتواثبون، وأشباح طائفة يتكالبون ويتضاربون، فقال لقبيله أي أولى النجدة والعون، إني أرى ما لا ترون، فامعنوا معي النظر، ثم أسرعوا نحو المعتكر، وأتوني بحقيقة الخبر.

فاندفعوا يستشرفون لذلك خبرا، ويستكشفون لسرائره سِتْرا، وهم مابين عاد من النمر أعدى، وجار من الأسد أجرى، وكل منهم في عدوه وعدوانه تأبّط شرّا، وما زالوا[1] يتجارون على ذلك أرسالاً وتترى، كأنهم الشياطين نهاض ووثاب وعدّاء وهلم جرا، حتى أدركت مقدِّمتهم بيرمحمد، وهو في غمرات الموت بناره يتوقد، وقد صار لسهامهم غرضا، وكاد جوهره أن يصير عرضا.

فلما رآهم من بعيد عاش، وحصل له الانتعاش، وزال عنه الارتعاش، وتلاحقت بهم الصناديد، فَكعَّت[2] عنهم تلك الأفسال الرعاديد[3]، وحين عجزوا عن رفع الجسر وولوا الأعقاب، عزموا أن يدخلوا الحصن ويوصدوا الباب، فاختلط بيرمحمد معهم، ودخل الحصن ومن ايصاده منعهم، فَدَقُّوه بالسيوف، ورضُّوه بأحجار الحتوف، وهو يأبى إلا المدافعة ويجتهد في مراجعة الممانعة، لا يشعر بما يناله من رضّ الحجر وجراح الحديد، كأنَّه متأله عراه الفناء في الفناء في التوحيد، الى أن غشيتهم تلك الليوث، واندفقت عليهم بصواعق الغضب من سماء النجدة سيول الغيوث، فَتشبَّث أسود المنايا بتلابيبهم، وخَلَّصوا بيرمحمد من مخاليبهم.

ثم قبضوا على النصارى، وأخرجوا مالهم فيئاً وحريمهم سبايا وأولادهم أسارى،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولما نزلوا.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فكفت. وكع: جبن وضعف.
(٣) الفسل من الرجال: الرذل، والرعديد: الجبان.

وحملوا الى تيمور بيرمحمد، وأخبروه بما قصده في ذلك وتعمّد، وتفقَّدوا ما به من جراح أدمى، فإذا هي ثمانية عشر جرحاً كل منها يُصمى، فشكر له فعله، ووعده مواعيد جزلة، وأحَلَّه المحل العزيز، وجهَّزه الى تبريز، وأمر بعد الوصية به الأمراء من النواب والرؤساء، أن يجمعوا عليه كل نطيس من الأطباء، وخرِّيت من الاسا، بحيث أن يبذلوا في معالجته جهدهم، ويستوعبوا في أساه كدّهم، ويستوفوا في المعالجة قسمي العلم والعمل، فامتثلوا مراسيمه وعالجوه بما أمكنهم وأزاحوا العلل، فاندملت جروحه، وبرئت أحسن مما كانت قروحه.

فلما نصل، والى تيمور وصل، جعله أحد قواده، ورئيس طائفة من أجناده، وقدّمه على كثيرين بعد أن كان خلف، وصيّره أمير مائة مقدم ألف.

تتمة ما جرى للكرج، مع تيمور شيخ العُرج

وهذه القلعة والمغارة كانتا عيني قلاع الكرج، ونار أعلامهم والبواقي سرج، فحين قلعت من وجوههم عيناهم[1] تيقّنوا أن قد نزل بهم عناهم، وأحاط بهم عزاهم، فانحلّت قواهم، وانخرمت عُراهم، وقعدت بهم الحيلة وقامت عليهم القيامة، وتجهمت بهم الى جهنَّم الزبانية وأسلمتهم السلامة.

وتفاءل تيمور بحصول الفُلْج، وانثنى عزمه الى استخلاص ممالك الكُرج[2]،

(١) استطاع جنود تيمور بناء برج قرب حصن كورتين وبدأوا يقذفون الحصن من هذا البرج بحجارة المنجنيقات حتى استطاعوا بعد أسبوع من فتح ثغرة في السور الجنوبي، ودخل من هذه الثغرة جنود تيمور بعد أن تسلقوا سفوح الجبل الشديدة الانحدار بالسلالم والحبال. واستعملوا أيضاً شرفة خشبية صعد اليها عدد من المقاتلين، ثم رفعت بالحبال وتم الدخول الى داخل القلعة. وتمكنت قوات تيمور من اكتساح هذه القلعة الحصينة بعد تسعة أيام من الحصار. (شهاب ٣٧٣).

(٢) بعد سقوط حصن كورتين انطلقت قوات تيمور بسرعة في بلاد الكرج بسبب انهيار المقاومة، واجتاحت هذه القوات القرى والمزارع والأديرة التي بلغت حوالي سبعمائة الى أن وصلت الى بلاد الانجاز، في سواحل البحر الأسود الشمالية الشرقية، ويبدو أن قوات تيمور قد مَلّت القتل والتخريب، لذلك أفتى رجال الدين الذين يرافقون الحملة، بجواز منح السكان المسيحيين الأمان أسوة بما فعل الرسول مع نصارى نجران.

وانبثّت شياطينه فيها فهزّتهم هَزّا، وقدّت ثوب حياتهم قدّا وجَزّتهم جَزّا، وخاطت لهم أكفان المنايا بالسلاح فأوسعتهم[1] شلّا وكفاً ودرزا، وتلا عليهم لسان الانتقام (ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَأُزّهم أزّا)[2].

ذكر طلب الكرج الأمان، واستشفاعهم إلى ذلك الجان، بجارهم الشيخ ابراهيم حاكم شروان

فاستدركوا تقصيرهم، واستنهضوا تدبيرهم، ورقعوا خرقهم قبل الاتساع، ووصلوا حبل حياتهم قبل الانقطاع، واستغاثوا الأمان الأمان، واستعانوا في خلاصهم بالشيخ ابراهيم حاكم شروان[3]، وألقوا إلى أيادي تدبيره الزمام، ورضوا أن يكون لجماعتهم وان كان على غير ملّتهم الامام، وجعلوه خطيب ذلك الخطب، واستحلوا ما تثمر لهم سعايته من يابس ورطب، وكان إذ ذاك وجيوش المصيف كجمع الكرج قد ولّت، وجنود الخريف والشتاء كجيش تيمور قد أطلت، وسلطان الأجرد، قد صقل فرند المياه وجرّد، ورفع من الأغصان الأعلام السلطانية، ونصب على قلل[4] الجبال الصيوانات البلارية، وألبس متن الغدير من نسيج نسيم الأصيل الدروع الداودية، فكان ما في

وكان ملك بلاد الكرج كَركَين قد أرسل يعلم تيمور مجدداً، باستعداده لدفع الجزية المفروضة عليه بشكل عام ولذلك قرر تيمور الرجوع، ومرّ وهو في طريق العودة الى العاصمة تفليس، وضرب الأديرة القائمة حول المدينة (شهاب ٣٧٣).

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فأوسقتهم.

(٢) سورة مريم الآية ٨٢ من القرآن الكريم، وعن ابن عباس تؤزهم أزّا: تغويهم إغواء، وقال قتادة تزعجهم إزعاجاً الى معاصي الله، وقال سفيان الثوري تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً (تفسير ابن كثير ٣/١٣٦).

(٣) قام الشيخ ابراهيم حاكم شروان بدور الوسيط عند تيمور للرأفة ببلاد الكرج وتم عقد الصلح وأرسل الملك الكرجي الف قطعة ذهبية نقدية، وقد ضرب عليها اسم تيمور بألقابه، وألف حصان مع كميات كبيرة من الأقمشة، وعدد من الأواني الذهبية والفضية، وأرسل اليه أيضاً قطعة من الياقوت فريدة، بلغ وزنها ثمانية عشر مثقالاً (شهاب ٣٧٤).

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فلك.

الكون من جوامد ونوام، من جملة عساكر تيمور حام له أو محام.

قلت:

وإذا أراد الله نصرة عبده	كانت له أعداؤه أنصارا
وإذا أراد خلاصه من هلكة	أجرى له من نارها أنهارا
فترى العقول تقاصرت عن نوكه[1]	وترى له في شوكه أزهارا

فدخل الشيخ ابراهيم عليه، وقبّل الأرض بين يديه، وحيّاه بتحية الأكاسرة من الملوك، ووقف في مقام أصغر مملوك، ثم استأذن في الخطاب، واستلطف في ردّ الجواب، فَأُذِنَ له فقال: إن عموم شفقة مولانا الأمير، وحسن حنوّه على المسكين والفقير، وشمول عاطفته الكريمة ورحمته المنيفة، حملت المملوك على عرض ما عَنَّ له على الاراء الشريفة، وهو أنه بحمد الله المرام حاصل، والمراد على وفق الاختيار متواصل، والولي مجبور، والعدو مكسور، وهيبة مولانا الأمير في الشرق والغرب، أغنته عن الاستعداد للضرب والحرب، ثم إن العساكر المنصورة أكثر من أن تحصى، وفيهم من الأسرى والمرمَّق الحال ما فات الاحصا، وخصوصاً جماعات التتار، الذين ولّى سعدهم الأدبار، وأحلوا قومهم دار البوار، قد أضرَّ بهم البرد، وتردّد نقش حظهم بين العكس والطرد، فإن استمرت الأمور، على هذا الدستور، رقّ الجليل وهلك الرقيق، ودقّ العظيم وانطحن الدقيق.

وهذه البلاد بل وسائر الأقاليم، محال إلا بأمرك أن تستقيم، وإن رؤساءها من الفجرة والفسقة، علموا ما لمولانا الأمير على مملوكه من الحنو والشفقة، فتراموا لعلة المجاورة على المملوك، ورجوا من الصدقات الشريفة ما يرجوه من الغنيّ الكريم المحتاجُ الصعلوك، ومهما برزت به المراسيم المطاعة، تلقّاه بالقبول كل من المملوك وهؤلاء الجماعة، وقابلوا الأوامر الشريفة بالسمع والطاعة، وإن كان المقصود جمع مال، فالمملوك يقوم به على كل حال، وأنّى للمملوك مال الا من صدقات مولانا الأمير؟ وما قصد المملوك بذلك إلا رفع الكلفة عن الجانبين وتيسير الأمر العسير، ورعاية لحق الجوار، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »، والرأي الشريف أعلى، وأحرى، أن لا يخيب رجاء المملوك

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : كنهه.

وأوْلى ، فأجابه الى سؤاله ، وطلب منه مالاً عريضاً سواءً كان من مالهم أو من ماله .

فقال الشيخ ابراهيم : أنابه زعيم ، وأبْلغَ ذلك إلى خزنته أتم ابلاغ ، ثم رحل وأكمل شتويته في قراباغ ، وذلك في سنة ست وثمانمائة .

ذكر ثنى عنانه إلى أوطانه ، وقصده بلاده بعد استكماله فساده

ولما زيّنت ماشطة الكون عروس المكان ، وأقام مزمن الجمادات قَوام الزمان ، وتهيّجت القوى النامية ، وتبرّجت (مخدّرات[1]) الذُّرا السامية ، وشبّت الجمرات ، ودبّت الحشرات ، تحرك للرحيل ذلك الأفعى[2] ، ونفث على هوام أموات الزمهرير من أحياء عساكره فإذا هي حية تسعى ، فدّق الكوس[3] ، فجاوب صداه الرعد القاصف ، ولمعت مرايا اللبوس فانعكس منها إيماض البرق الخاطف ، وعَرض خُيوله في التروس فأحاط بالأطواد قوسُ قُزَح ، وسيَّر خُيوله في اللُبوس ، فتجلَّلت كتائب الكثبان بشقق الورد والريحان ، خائلة في ذلك البرّ المنتزح ، ومارت الجمال ، فمرّت الجبال مرّ السحاب ، وسارت الرعال ، فصعد العنان من النقع الضباب ، وشرعت الذوابل ، فإذا رطيب الأغصان متمايل ، وهزهزت القواصل ، فانساب في القصيل مُرهف الجداول ، ولضلضت[4] ألسنة الخناجر والنيازك فَبَرَزت عذبات العذبات ، ونُشرت أعلام الكتائب فانبثّت تشاهير الأزاهير على عقبات العقبات .

وعلى الجملة فإن الربيع حاكى بِبرُوقه بوارِقه ، وبِرُعوده صواعقه ، وبخمائله وروابيه ، زرابيه ونَمَارِقه ، وبركامه قتامه ، وبشقائقه أعلامه ، وبأشجاره المزهرة خيامه ، وبأغصانه

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) تحرك موكب تيمور على رأس قواته من قراباغ مع قدوم فصل الربيع وعبر نهر الرس في ١٤ رمضان ٨٠٦هـ ـــ ٢٨ آذار ١٤٠٤م . قاصداً ماوراء النهر ، ويُعلل المؤرخ الفارسي يزدي عودة تيمور الى بلاده بعد غياب استمر خمس سنوات ، بأن البلاد التي قاتلها تيمور خلال المرحلة الماضية وهي العراق والشام والكرج والروم قد أذعنت لحكمه ودفعت الجزية (شهاب ٣٧٥) .

(٣) الكوس : بالضم الطبل .

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ونضنَضَت .

رماحه ، وبعواصف أمره ونهيه رياحه ، وبكتائبه السود كُثُبه الخضر ، وبأزهاره الزرق مزارقه الزُهر ، وبسُيوله الجحّافه مسير جحافله ، وباضطراب بحر فيالقه تموج خمائله ، عند هبوب أصائله .

واستمرّ بين ذلك العَرَار والرند ، قافلا بالبال الفارغ الى سمرقند ، فسار والسرور نديمه ، والحبور خديمه[1] ، والأشر مُعاقره ، والنشاط مُسامره ، وبين التفريط والافراط موارده ومصادره ، حتى قطع ولايات أذربيجان ، وحَلّ ركابه بممالك خراسان ، وفي خدمته ملوك الأقاليم وأرباب التيجان[2] .

ذكر نهوض ملوك الأطراف لاستقباله ، ووفودها عليه مهنئة له بحسن مآله

ولما تسامعت أقطار البلدان ، أنه قَفَل قاصداً الأوطان ، أقبلت اليه الملوك من أطرافها[3] ، والمرازبة من أكنافها ، وسارع إلى استقباله المداره والجحاجح[3] ، وتبادر

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : حريمه .

(٢) قبل مغادرة تيمور للقسم الغربي لامبراطوريته ، قام بتنظيم الأوضاع الادارية فيها فصدرت عنه في تلك الآونة سلسلة من القرارات عيَّن بموجبها عدداً من أحفاده على بعض هذه المناطق في هذا القسم ، بما فيها المناطق التي تم اجتياحها حديثاً ، فأوكل وهو في منكول في بلاد الكرج عام ٨٠٦هـ ـــ ١٤٠٣م الى حفيده بير محمد بن عمر بن شيخ حكم شيزار ، وفوَّض أخاه رستم بحكم أصفهان ، وعيَّن حفيده الآخر أبا بكر بن ميرانشاه على العراق ، ومنح حكم أذربيجان الى عمر شقيق أبو بكر وكان عمر يقيم في سمرقند نائبا عن جده هناك ، وتقلد حاكم أذربيجان الجديد منصبه في معسكر جدّه تيمور بجوار بيلقان ، عندما قدم من ما وراء النهر في جمادى الآخرة عام ٨٠٦هـ ـــ كانون الثاني ١٤٠٤م . وأضاف تيمور قبل أن يبارح قراباغ الى حفيده عمر حكم بلاد الروم وبلاد الشام ، وسلَّمه قيادة القوات التي كانت تحت إمرة والده ميرانشاه . وعيَّن على كرمان أحد قواده ويدعى ايدكو بعد أن زوجه إحدى بناته ، وأمر حكام بقية المناطق ممن كان لا يطمئن الى إخلاصهم ، أن يرسلوا أبناءهم وإخوتهم الى سمرقند ، كرهائن على استمرار ولائهم ، وكان ممن شملهم هذا الاجراء الظاهر عيسى حاكم ماردين (شهاب ٣٧٥) .

(٣) أثناء عودة تيمور الى سمرقند وهو ينسحب من تلك البلاد التي اجتاحها هرع اليه ملوك ←

من ما وراء النهر وغيرها السراة والمراجح، وتطاير اليه من الأقاليم أساطينها ومن الولايات والثغور ملوكها وسلاطينها.

ومن كان مرابطاً في ثغر، أو مواظباً على أكيد أمر، أرسل نائبه أو قاصده، أو حاجبه أو رائده، يتباشرون بقدوم أقدامه، ويُهنئونه بما فتح عليه من هنده وعراقه وروميه وكُرجه وشَامه[1]، ويُقَدِّمون التقادم والحُمولات، ويهيئون الضيافات والاقامات.

ثم أردفهم السادات والعلماء، والمشايخ والكبراء، ورؤساء الموابذة، وموابذة الرؤساء، فجعل يَسمُتُ لكل واحد منهم سمتا، ويأمره فيخضع بالسمع والطاعة إجلالا وصمتا، ويُمَهِّد له فيما ولّاه قواعد ومباني فـ (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً)[2] ثم جهّز كلا منهم بما اقتضاه رأيه وأجازه[3]، ووصل الى جيحون وقد أعدّت له السفن والمراكب فجازه، فخرج أهل المدينة للاستقبال، وكلٌّ منهم مُنشرح البال ملتئم الحال، فدخل سمرقند أوائل سنة سبع وثمانمائة[4]، ومعه من طوائف الأمم

البلاد وعدد كبير من حكام مناطق ايران وفارس لتجديد خضوعهم، وكان بين هؤلاء الشيخ صدر الدين بن الشيخ اسحاق صفي الدين الذي تنتسب اليه الأسرة الصفوية التي حكمت ايران فيما بعد منذ مطلع القرن السادس عشر (شهاب ٣٧٥).

(٣) الجحجاح : بالفتح : السيد . والجمع : الجحاجح .

(١) الهند، والعراق، وبلاد الروم، وبلاد الكرج، وبلاد الشام.

(٢) سورة طه آية ١٠٧ .

(٣) حين تابع موكب تيمور التقدم باتجاه الشرق مرَّ على اردبيل، وسار من هناك عبر مدن شمالي ايران وخراسان نحو بلاد ما وراء النهر واستغرقت رحلته عبر هذه المدن زهاء ثلاثة أشهر، وأزعجته وهو في الطريق ثورة أحد قواده عليه، وهو اسكندر شيخي فترك أمر ملاحقته الى إبنه شاه رخ وعدد من القواد، فاستمروا على مطاردته من مدينة الى أخرى إلى أن أجبروه على أن يتوارى عن الأنظار، ولعل أهم ما وقع لتيمور وهو في طريق عودته الى سمرقند ثورة التتر عليه. (شهاب ٣٧٦).

(٤) بعد أن عبر تيمور نهر جيحون في مطلع عام ٨٠٧هـ ـــ تموز ١٤٠٤م، سمح لابنه شاه رخ بالانصراف إلى مركز عمله في هيرات كحاكم على خراسان، وجاز تيمور نهر جيحون عند مدينة ترمز، واخترق ممر باب الحديد الجبلي وجبال جكداليك إلى كيش مرتع صباه، وزار في المدينة قبر ولده محمد جهانكير، ثم تابع التقدم الى العاصمة سمرقند ـــ

الاثنتان والسبعون فِرقة، وأكثرهم قدرية ومرجئة، ثم أذن لمن اختاره من العساكر فَتَفَرَّقت، ولطوائف جند ما وراء النهر فتمزّقت[1].

ذكر توزيعه التتار أرسالا شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً

فلما استقرت به الدار، أخذ في توزيع التتار، وكانوا ذوي عِدّة وعُدّة، ونجدة وشدة[2]. فحين سلبهم عُدّتهم، كسر شوكتهم وشدّتهم، ولكن أبقى الله عِدَّتهم، فخاف لذلك نجدتهم، فشتّت جمعهم[3]، وأقوى من اجتماعهم ريعهم، فبذرهم في فياف وبطاح، ووزّعهم في قفار وضواح[4]، وبدّدهم في أشطار عناء وبراح، ونَدّدهم في أقطار بكاء ونواح، فسدَّد برؤسهم أفواه الثغور، وأوصد بظهورهم أبواب النحور، فجهَّز طائفة الى كاشغر، وهو بين حدّي الخطا والهند أحد الثغر، ووجّه فرقة الى دويرة، في وسط بحيرة، تدعى إسي كول، وهي ثغر بين ممالك تيمور والمغول.

فصادفهم بعض السَّعْد، فانقطعوا عمن أُضيفوا اليه كما ينقطع عما يضاف اليه بعد، فانضموا منهزمين ولم يلووا، وأخذوا من صوب الشمال وخرجوا على الدشت الى إيدكو، ثم أضاف سائرهم، وقبائلهم وعشائرهم، من كل حزين أوّاه، إلى أرغون شاه، وجهّزه بعزم وحزم، إلى ثغور الدشت وحدود خوارزم، وهذا كان هجيره، وما بنى عليه أوامره وأموره، فإنه كان من الشياطين النقالة، وفي المكر واللعب بالناس كدلة المحتالة.

وخرج أعيان المدينة الى استقباله بظاهر المدينة في أحد أيام المحرم ٨٠٧هـ ـــ تموز ـــ آب ١٤٠٤م، بعد أن غاب عن سمرقند أطول مدة خلال حكمه. (شهاب ٣٧٦).

(١) بعد وصول تيمور الى سمرقند أمر بتسريح الجيوش ليعود كل جندي الى بلده وأهله.

(٢) والشدة : بالكسر من اسم الاشتداد، وبالفتح الحملة في الحرب.

(٣) ثار التتار على تيمور وهو في طريق عودته الى سمرقند بعد اجتياحه بلاد الكرج وبلاد الروم، وكان تيمور قد أجبرهم على ترك المناطق التي حَلُّوا بها في الروم، ليرجعوا الى مواطن أجدادهم في وسط آسية، وقد ثار التتار في مدينة « دامغان » في خراسان، وتمكنت قوات تيمور من القضاء على الثورة بعد قتل أعداد منهم (شهاب ٣٧٦).

(٤) يراجع ما فعله تيمور في التتار بعد معركة أنقرة مع السلطان العثماني بايزيد في الصفحات السابقة.

كلما بنى في قطر قلعة، أو استولى في نحر من نحور المخالفين على (رقعة أو)[1] بقعة، أنزل بها من العساكر، من هو في أقصى جهات تقابلها من الحصون والدساكر، ونقل اليها من بها من الرجال، إن كان في الشمال الى اليمين وإن كان في الجنوب إلى الشمال، فإنه لما استولى على ملك تبريز، وما والاه، استناب فيه ولده لصلبه أميرانشاه، وأمده من الجغتاي بطائفة غلاظ شداد، منهم خدايداد أخو أالله داد.

ونقل الى أطراف الخطا وتركستان، طوائف من عسكر العراقين والهند وخراسان، وولّى سماقة بن التكريتي الذي أخذه من الشام، نيابة مدينة سيرام، وهي عن سمرقند الى جهة الشرق نحو من عشرة أيام، وولّى يلبغا المجنون نيابة ينكي تلاس وراء سيرام بنحو أربعة أيام، وهما كورتان مختصرتان، وراء سيحون من معاملات تركستان.

وهما كانا أقل من أن يذكرا (فضلاً)[2] أن يصيرا حكاماً وأُمراء، وإنما فعل ذلك، لينتشر في أطراف الممالك، أنَّ عنده من رؤساء الشام، جماعة من أعيان الأعلام، وإن في ممالكه من الخدم، ورؤساء الأمم، حكام العرب والعجم، وأن ذلك الطرف جال وسطا، وملك ما بين الشام والخطا.

(**فصل**) ثم أخذ يتفقد ما حدث في غيبته، من أمور بلاده ورعيته، ويتفحص عن قضايا الممالك، ويسلك لملوكها المسالك، ويدبر مصالح الأطراف والثغور، والأكناف والنحور[3]، ويراعي أحوال الكبير والصغير، ويتعاطى مصلحة الغني والفقير، ويضع الأشياء (على زعمه[4]) في محلها، وزمام المناصب والوظائف في يد أهلها، ويبادر بما قال الشاعر:

لله در أنو شروان من رجل ... ما كان أعرفه بالوغد والسفل
نهاهم أن يمسوا عنده قلما ... وأن يذل بنو الأحرار بالعمل

وأخذ يُربي السادات، ويكرم الأولياء ذوي الكرامات، ويُبجّل العلم وأهله، ويُعلي

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٢) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: البحور.
(٤) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

الفضل ويعز محله، ويقلع المفسد ويقمع المارق، ويخنق الزاني ويصلب السارق، حتى استقامت في زعمه أمور السياسة، وتمت على توراة[1] جنكير خان قواعد الرياسة.

ذكر ما ابتدعه من منكراته، وطبع بخاتمة خواتيم سيئاته، ووافى باستيفائه رائد وفاته

ثم شرع في تزويج حفيده[2] أولوغ بك بن شاه رخ النبيه، الذي هو في يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة حاكم سمرقند من قبل أبيه، فأمر أهل المدينة أن يشربوا

(١) وتعرف باسم الياسا: وهي أحكام أو دستور (جنكيز خان) دونها له الأويغور بخطهم، وهي مزيج من القوانين موضوعة على إرادة الخان المغولي تسجل أنفع العادات القبلية، كان المغول يرجعون إليها عندما يجلس خان جديد على العرش، وفي حال تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

وقد اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قَبْل جنكيز خان مجموعة من الآداب والتقاليد، لكنها لم تكن مدونة، لأنهم كانوا يجهلون الخط، فلما جاء جنكيز خان أعاد النظر في هذه العادات والتقاليد، فردَّ بعضها وقَبِلَ معظمها، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد، وجعل لها صبغة رسمية وأمر أن تدوَّن بالخط الأويغوري، وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول.

أطلق على كل حكم من هذه الأحكام اسم « ياسا » وهي كلمة مغولية تعني حكم أو قاعدة أو قانون، وتكتب هذه الكلمة بأشكال مختلفة في الكتب العربية والفارسية: (ياسا) و (ياسة) و (يساق) و (ياساق) و (يزق) وكانت تطلق هذه اللفظة على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير، ويطلق على مجموعها (الياسة الكبيرة) أو (كتاب الياسة الكبير).

بسام الجابي: مجلة البصائر ١٣٩/٢. راجع البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص١١٨ ــ ١١٩، و (جهان شاي) ٦١/١، وصبح الأعشى ٣١٠/٤، وخطط المقريزي ٢٢٠/٢.

وقد ظل الاهتمام بأحكام الياسا حتى بعد زوال دولة الايلخانيين في إيران، وسار عليها التيموريون في أحكامهم وسياستهم وحفلاتهم.

(٢) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ بعد هذا الكلام: أي ولد الولد.

في الزينة، وأن يرفع عنهم الكلف والمظالم، ويعفوا من الطروحات والمغارم، ويبسط لهم بساط الأمان، ويعامل الكبير والصغير والرفيع والوضيع منهم بالفضل والاحسان، وأن لا يشهر في ممالكه سيف، ولا يجري فيها ظلم ولا حيف، وأن يخرجوا زينتهم الى مكان نحو ميل من ضواحي سمرقند، يدعى كان كل، هواؤه أذكى من المسك وماؤه أحلى من القند[1]، كأنه قطعة من روض الجنان، غفل عنها خازنها رضوان[2] قلت:

رعى فيه غزال الترك شيحا فصار المسك بعض دم الغزال

روائح هوائه ألطف من نسيم السحر، ورواشح مائه أعذب من ماء الحياة صفاء بلا كدر، وتغاريد طيوره ألذ في السماع من سار[3] الناي على الوتر قلت:

بساط زمرد نثرت عليه من الياقوت ألوان الفصوص

وقلت[4]:

كأن مدوّر الأزهار فيه ورداً من محاسنه تنضد
صحاف من لجين أو عقيق ومرجان وياقوت وعسجد
فهذي حشوها مسك فتيت وهذي ضمنها تبر مبدّد[5]
أراد الروض يجلوها علينا فصاغ لها أكفاً من زبرجد

صباغ القوة الخيالية يتعلم خلط أصباغ النقوش من تشاهير أزاهيره، ومواشط عرائس الجمال تزين عواتق الكمال من تحارير تصاويره.

قلت:

كأنّ رباه سيما وقت هبة خضم بأنواع الحلى مُرصَّع

أفسح من أمل حريص طامع، في جاه غني كريم نافع، وأنزه للأبصار والبصائر، من غض شباب زاه زاهر، ساعده الدهر بوجه بسيط وأدب كامل، وعمر طويل

(١) القَنْد: عسل قصب السكر.
(٢) رضوان: خازن الجنة في الحياة الآخرة.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ثناء.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وقيل.
(٥) في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: مبرَّد، وقد أثبتنا ما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

ومال وافر، وهو أحد الأماكن المذكورة، والمتنزهات التي هي بالنزاهة والرفاهية في الدنيا مشهورة، ومبدأ السغد[1] الذي جهاته بالنعم موقرة موفورة.

قلت:

شقائقه خدود ناضرات تحشت من سواد المقلتين

عساكر تيمور مع أنها البحر المتلاطم فيه، تضاهى بني اسرائيل في قطر من أقطار التيه، ثم أمر الملوك والسلاطين، وأرباب التيجان من الأساطين، أن يخرجوا اليه، وينبثوا عليه، وفرز لكل منهم في ذلك المرج مقاماً، ورتبه ميمنة وميسرة ووراء وأماماً، وأمر أن يظهر(كل)[2] ما أمكنه من تجمل وتحسين، ويضرب ماله من خيام وقباب متكلفة بأنواع النقوش والتزيين.

ثم رتب من دونهم من الكبراء والأعيان، ورؤساء الأمراء والأعوان في ذلك الروض الأريض، والمرج الطويل العريض، فأخرج كل منهم ما حواه، وكاثر نظراءه لينظروا ما قدمت يداه، وفاخر ذوي الفخار منهم وباهى، واستقصى في المباهاة والمفاخرة وتناهى، فنشروا مما طوت صحائف أيامهم، على جمعهم إياه سجلات آثامهم، من طرف أطراف الأقاليم والأمصار، وتحف جواهر المعادن والبحار، ونفائس ذخائر نهبوا عليها النفوس وأهبوا الأنفاس، وعرائس أخاير سقوا عليها الكؤس وخرقوا[3] الأكياس، ما أزرى على زهر تلك الروضة الخضراء بالأنجم الزواهر، وأسرى منظره البهيج سرايا المسرات إلى سر السرائر، فزاد حسن حديث ذلك المكان ونما، وعلا قدره بهجة على كل أرض وسما.

ثم أمر بسرادقاته فجعلت مركز تلك الدارة، ونقطة دائرة تلك الأفلاك المدارة، وهي سور محيط مضروب، على ماله من خيام وقباب منصوب، له باب واسع، يدخل فيه من دهليز شاسع، على مابه من معان ومغان، وله قرنان شامخان، تُنَكَّس[4] لهما الرؤس، وتذهل عند مشاهدتهما النفوس، ولأجل هذين، كان يلقب ذا القرنين.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: السعد، أما بلاد السغد فموقعها في روسيا حالياً.
(٢) لا توجد في بعض النسخ
(٣) ورد في بعض النسخ: وحرقوا.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: تنكسر.

ونصبوا له داخل هذا الجناب، عدة من الخيام والأخبية والقباب، ومن جملتها قبة أعلاها وأسفلها بالذهب مزركش، وظاهرها وباطنها بلُبّ الريش مُرَيّش، وأخرى كلها بالحرير محبوكة، وبأنواع النقوش وألوان الأصباغ مبنية مشبوكة، وأخرى من فرقها الى قدمها مكللة باللآلىء الكبار ،التي لا يعلم قيمة أحدها إلا عالم الأسرار، وأخرى مرصعة بأنواع الجواهر، على صفائح الذهب مدهشة للأبصار والبصائر، وجعلوا لما بين ذلك (سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسُرراً عليها يتكئون)[1] وبين ذلك الأوراق[2] المنقشة، ورواقات الأخبية المزركشة والفساطيط والأبنية المدهشة.

وفيها مراوح الخيش، الجالبات لبرد العيش، والمنافع والمرافق، والمفاتح والمغالق.

وأظهروا الذخائر الغريبة، وأرخوا على ذلك الستائر العجيبة، ومن جملتها ستارة جوخ كان أخذها من خزانة السلطان بايزيد، قطعة واحدة عرضها نحو من عشرة أذرع بالذراع الحديد، منقشة بأنواع النقوش، من صور النباتات والبنيان والعروش، وأشكال الهوام والطيور والوحوش، وأشخاص الشيوخ والشبان، والنساء والصبيان، ونقوش الكتابة وعجائب البلدان، والعروق اللاعبة وغرائب الحيوان، بألوان الأصباغ، المبالغ في إحكامها وإجادتها أحسن بلاغ، كأن صورها متحركة تناجيك، وثمارها الدانية لاقتطافها تناديك.

وهذه الستارة إحدى عجائب الدنيا، وليس المسمع[3] كالمرأى، ونصبوا أمام سرادقاته بمقدار شوط فرس[4] الصيوان، الذي يجتمع المباشرون فيه وأرباب الديوان، وهو جتر عالي الذرا، شامخ في الهوى، له نحو أربعين أسطوانة، وعواميد وسوار شيدوا عليها أركانه، وسددوا بنيانه، يتسلق الفراشون إلى أعلاه كالقردة، كأنه مسترقوا السمع من الشياطين والمردة، ويتعادون على سطحه، حين يرفعونه بعد بطحه.

(**فصل**) وأخرج أهل المدينة، ما عبوه من تجمل وزينة، ونصبوه تجاه تلك

(١) سورة الزخرف آية ٣٣، ٣٤.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الأوراق.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : المستمع.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فرش.

السرادقات على مدّ البصر، وتأنق كل واحد من أهل البلد بما وصلت اليه القوى[1] والقُدر، واجتهد كل ذي حرفة بما يتعلق بحرفته، وبالغ كل من أرباب الصنائع فيما يليق بصنعته، حتى أنّ ناسج القصب أخرج فارساً مكمل الأهبة، واستقصى في إكمال هيئته حتى أظافيره وهدبه، واستوفى دقائق ما يتعلق به من الآلات، كقوسه وسيفه وسائر الاستعدادات، كل ذلك من القصب، ورفع ذلك في مكانه من غير تعب ونصب.

وصنع القطانون من القطن مئذنة رفيعة، محكمة بديعة، ذات قدّ رشيق، وصنع وثيق، ومنظر أنيق، ببياض جسم يسمو على الحور، وكمال قوام يعلو على القصور، ونصبوها فصارت بحسنها تستوقف النظارة، وبعلو قامتها ترشد في ذلك المهمه المارة، حتى غدت علماً للسيارة، وعلى جوامع تلك الأبنية منارة.

وكذلك أهل الحرف من الصواغين والحدادين، والخفافين والقواسين، وسائر الطوائف، وأرباب الملاعب واللطائف.

ولقد كانت سمرقند مجمع الأفاضل، ومحط رحال أهل الفضائل، فرتبت كل طائفة ما أخرجته على حدة في مكانه، أمام سرادقاته وصيوان ديوانه، ونُصِبت وراء ذلك كله الأسواق، وضُربت بين الناس بوقات الأبواق، وزُينت الفيول، وجياد الخيول، بأفخر لباس، وأطلق عنان الرخص والتمتع بأنواع الملاهي والملاذ للناس، فسارع كل طالب إلى مطلوبه، واجتمع كل محب منهم مع محبوبه، من غير أن يتعدى أحد على أحد، أو يستطيل أعلى من يكون على أدنى من يكون من الجند وأهل البلد، أو يجري تعدّ ما، من شريف ما على وضيع ما.

(**فصل**) ولما استتبت الأمور على مراد تسويل قرينته، وأخذت الأرض زخرفها وازينت من جنده وأهل مدينته، توجه الى ذلك المرج على وقاره وسكينته، وخرج على قومه في زينته، ثم أمر أن تجرى يواقيت الصهبا، على زبرجد ذلك المرج الأحوى، وسبلها لكل ناظر وعام، فسبح في تيارها كل خاص وعام، فدارت في سماء تلك الأرض للسرور أفلاك، وهبطت في أفقها بوحى الذات من أفلاك الملاحة أملاك،

(١) وردت في بعض النسخ : التقوى.

فأصبحت تلك الأسود الخوادر[1]، وهي ظباء جوادر[2]، وتنزلوا من جحيم المنازلة، الى نعيم المغازلة، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة، باللطافة والظرافة، وأضحوا بعد جورهم يتجاورون، وبمعنى ما قلته يتحاورون:

محا الظلم ما بين الورى سيف عدلنا ... فلم يتشبث مستغيث بمعتد
سوى قلب صده طرف أحور ... وخصر نحيل آده ردف أغيد

فما صار يصول سيف إلا إن كان صارم لحظ وهو مع ذلك مكسور، ولا يجول ذابل إلا إن كان رُمْح قدّ وهو مع ذلك بالعناق مهصور، وصرت لا ترى إلا عوداً يحرّك أو يحرّق، أو قدحاً يُروّب أو يُروّق، أو شادياً يُغرّد، أو شارباً يعربد، أو جارية تَسْقي، أو ساقية تجري، أو خدّ ورد ينشق، أو ورد خد يعشق، أو كأس ثغر يُرشف، أو غصن خصر للعناق يقصف، أو فرص عيش تُغتنم، أو لسان حال ينشد ويترنم:

في ربيع الوصل لما ... أن وفى الظبى الشَرود
وسرت بشرى الصبا للـ ... ـروض تُنبي بالورود
خرّت الأنهار والأغـ ... ـصان مالت للسجود
واجتمعنا في رياض ... حسنها يسبى الوجود
فالسحاب الصب فيها ... بالحشا أمسى يجود
نثر الدُّر علينا ... منه بِلَّورُ الغمام
فوق صحن سُندسي ... فيه ملياقوت جام
وثغور من عقيق ... زانها حسن ابتسام
وعيون من لُجين ... ناظرات لا تنام
وغصون الدوح حفَّتْنا ... بأنواع النقود
طيرها فيه غنى ... إذ قد علا عوداً وطار
وشذاها ضاع فيه ... المسك لما منه غار
والصَبَا أمسى عليلاً ... في رُباها حين سار

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الحواذر.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: جواذر.

جنة الفردوس فيها ... وجه بدري حين نار
أصبحت جنات عدن ... تشتهي فيها الخلود
يا لها من عِشرة ... جاءت بأنواع الهنا
ليس فيها غير لَثْمٍ ... وارتشاف واعتنا
وكئوس دائرات ... وغناء وغنى
لو رآها زاهد من ... ريحها كان انثنى
لم يسعه عندها من ... زهده إلا الجحود
قم نديمي عاطني فالد ... هر لا يسوى الحزن
كأس عيش ينمحي في ... مزجها صرف الزمن
الطِلَا والماء والخضرة والوجه الحسن
لا تطع في ذا عذولا ... إنه خَب كَمَنْ
في حَشَاه غليان ... لا تقل خِلٌّ ودود

فحصل الأمْن والدعة، والفراغة والسعة، ورخص الأسعار، وقضاء الأوطار، واعتدال الزمان، وعدل السلطان، وصحة الأبدان، وصفاء الوقت، وذهاب المَقْت، وحصول المطلوب، ووصال المحبوب:

• وعند التناهي يقصر المتطاول •

واتفق له في ذلك العرس والأبهة والعظموت، والسطوة والجبروت شيء لم أظنه حصل لأحد من الخلفاء المتقدمين، ولا يقع فيما بعد لأحد من المتأخرين، وإن كان المأمون فرش تحته ليلة عرسه حصير من ذَهَبْ، ونثر على رأسه اللؤلؤ المنتخب فلم يُلتفت اليه ولم يُلتقط من ورائه ولا من بين يديه، حتى قال: قاتل الله أبا نواس كأنه كان حاضراً حيث قال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

لكن تيمور (الجبار)[1] كان في عرسه ذاك[2] بنات الملوك وصائف، وبنوها

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٢) أثبتنا ما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ. ووردت في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: ذات.

عبيداً كل منهم في مقام العبودية واقف، واجتمع عنده قصاد الملك الناصر فرج من مصر والشام، ومعهم الحمل والتقادم ومن جملته الزرافى والنعام، ورسل الخطا والهند، والعراق والدشت والسند، وبريدي الفرنج ومن سواهم، وقُصَّاد كل الأقاليم أقصاهم[1] وأدناهم، ومن كل مخالف وموافق، ومعاد ومصادق، فأخّر الجميع حتى شاهدوا عظَمته، وعاينوا جبروته في ذلك العُرس وأبهته، فباشر ذلك على تلك الحال، لا يخاف النكال، ولا يخشى الوبال.

قلت:

قرير العين لا يرجو إلهاً ... خلي البال لا يخشى معادا

يتناول المحرمات ويبيحها، ويُرُوج عنده مستهجنها وقبيحها، مهما أمر به جماعته، في ذلك امتثلوه، يتناهون[2] في كل قبيح عملوه، ولا يتناهون عن منكر فعلوه.

قلت:

تبدَّل من سفك وهتك جريمة ... أحل بها ما حرمته الشرائع

وجعل يدعو الملوك والأمراء، وسلاطين الآفاق والكبراء، وقواد التوامين[3]، وزعماء الجيوش والمقدمين، ويسقيهم الكاسات بيده، ويحل كل منهم محل أخيه وولده، ويخلع عليهم الخلع السنية، ويجزل لهم المواهب والعطية، ويجلس كل منهم بحبسه[4] ذات اليمين، وأما ذات الشمال فإنها للنساء والخواتين، فإن النساء لا يستترن من الرجال، خصوصاً في مجالس الاجتماع والاحتفال.

واستمر في ذلك بين جنك وقانون، وعود وأرغنون، وناي مرقص مطرب، وشاد معجب مغرب، وساق فاتن، ودهر موات، وهوى متبع، وأمر مُسْتَمَع، وشمس تدور، على نجوم وبدور، وكأس تملأ وكيس يفرغ، وأمر يمضي وأمل يبلغ، حتى استخفه الطرب والبطر، واستفزه النشاط والأشر، فضبع الى من استعضده، ومد

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: يتباهون.
(٣) من التومان: وهو فرقة من عشرة آلاف رجل.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: بجنبه.

للنهوض اليه يده، فتعاضدوا لمعاونته، وتعاونوا على معاضدته، وحين استوى قالصا، تهادى بشيبته وعرجته راقصا. قلت:

ومن عجب الدنيا أشل مصفق ... وأبكم قوال وأعرج راقص

فنثر عليه الملوك والكبراء، ونساء السلاطين والأمراء، الجواهر واللآلىء والفضة والذهب وكل نفيس غال، ولم يزل على ذلك حتى استوفى من اللهو حصته، ودخل العروس منصته، وانقضت تلك الأمنية، وتفرقت هاتيك الجمعية:

ما كان ذاك العيش الا سكرة ... لذاتها رحلت وحل خُمارها

(**فصل**) ولما بلغ من دنياه المرام، وانتهى أمله[1] الى الكمال والتمام، وعرج فيما يرومه الى ما عرج، وصعد في سلم ارتقائه إلى أعلى الدرج، وقارب بدر عمره الأفول، وشمس حياته أن تزول، رشقه الزمان بسهم أصماه فما أنمى[2]، ونادى بلسان فصيح فرغ العروس يابيت الاحما[3]

قلت:

وما الدهر الا سلم فبقدر ما ... يكون صعود المرء هبوطه
وهيهات ما فيه نزول وإنما ... شروط الذي يرقى اليه سقوطه
فمن صار أعلى كان أوفى تهشما ... وفاءً بما قامت عليه شروطه

فأفاق من سكره، وعاد الى عكره[4]، وارعوى وما ارعوى[5]، وعلم أنه أضلّ قومه وما هدى، ورأى أنه قد فرّط في أمر الرياسة، وحط من جانب الايالة والسياسة، وأنه سام الملك خَسْفا، وسائس السلطنة وَجَدَ عليه مائة طريق في التقصير وألفى، فأخذ يتدارك ما كان فرّط، ويطلب التقصي عما فيه تورط.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ليله.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: أمهله.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ونادى بلسان فصيح فرغ العروس يا بيت الإحماء لو سمع لكان يصيح.
(٤) عكره: عمله السيء وتجرمه، وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وعاد الى عسكره.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وارعوى عما اعتدى.

ذكر بعض حوادث متقدمة لمتعلقات ذلك العابث

وكان تيمور قد رأى في الهند جامعاً، للبصير مرتعا وللبصر رائعا، عرشه في حسن بنائه ونقشه، من الرخام الأبيض كبساط فرشه، فأعجبه شكله، وأراد أن يبني في سمرقند مثله، ففَرز لذلك مكاناً في فرز، ورسم أن يبنى له جامع على الطرز، وأن يُقطع له أحجار من المرمر الصلد، وفوَّض أمره إلى رجل يقال محمد جَلْد، أحد أعوانه ومباشري ديوانه، فاجتهد في بنيانه، وتشييد أركانه، واستقصى جهده في تحسينه، من تأسيسه وتركيبه وترتيبه وتزيينه، وأعلى له أربع مآذن[1]، وباهى فيه أئمة البنائين والأستاذين، وظن أن لو كان في ذلك أحد غيره، لما قدر أن يصنع صنعه، ويسير سيره، وأن تيمور سيشكر له صنيعه، وينزله عنده بذلك منزلة رفيعة. فلما آب من سفرته، وتفقد ما حدث في غيبته، توجه الى الجامع لينظر إليه فبمجرد ما وقع نظره عليه، أمر بمحمد جَلْد فألقوه على وجهه وربطوا رجليه، ولا زالوا يجرّونه، وعلى وجهه يسحبونه، حتى بَضَعوه على تلك الحال، واستولى على ماله من أهل وولد ومال.

وأسباب ذلك متعددة، ومعظمها أن الملكة الكبرى، إمرأة تيمور العظمى، أمرت ببناء مدرسة، واتفق المعمارية وأهل الهندسة أن تكون في مواضع، مقابلة لبناء هذا الجامع، فشيدوا أركانها وسدَّدوا[2] بنيانها، وعَلوا على الجامع طباقها وحيطانها، فكانت أرسخ منه تمكينا، وأشمخ منه عرنينا.

وتيمور كان نَمَري الطبع، أسدي الوضع، ما تكبر عليه رأس إلا شَدَخه، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه، وكذلك كل ما أضيف اليه، أو عوَّل في النسبة عليه.

فلما رأى قامة تلك المدرسة طالت، وعلى قدّ جامعه الجْتَر ترفعت واستطالت، نَغَل صدره غيظاً واشتعل، وفعل مع مباشر ذلك ما فعل، فلم يصادفه فيما أمَّله سعد، وهذه الحكاية مقدمة لما أذكره بعد.

نكتة: كان هذا الجامع كصاحبه، أحاطت أوزار الأحجار بجوانبه، وتثاقلت على غواربه ومناكبه، ودقت عنق طاقته عن حملها ورقت، وتلا لسان سقفه (إذا السماء

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ميادين.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وشدَّدوا.

انشقت)[1] وما أمكن تيمور الاشتغال بهدمه ثم إحكامه، ونقض بنائه واستئناف[2] إبرامه، فطوى ثوب عمارته على غرة، واستبقى خشب أخشبه على وهنه وكسَّره، لكنه أمر خاصته وذويه، أن يجتمعوا ويجمعوا فيه، واستمر ذلك في حياته وبعد وفاته، فكان إذا اجتمع الناس فيه للصلاة يرتقبون من تلك الحجارة ما يهبط من خشية الله، وصار ملك الجبال في تلك المحلة، يتلو (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة)[3]. ففي بعض الأحيان، وقد غص بالناس ذلك المكان، وأخذ كل منهم حذره، سقط من حجارته من أعلاه شذرة، فَفرَّ كل من كان جاثماً، وانفضوا الى الأبواب وتركوا الامام قائماً، وكان من جملتهم الله داد، أحد الأكفاء والأنداد، فلما اطلعوا على حقيقة الخبر، تراجعوا وزال عنهم الخور.

فلما قضوا الفرض، وانتشروا في الأرض، قال لي الله داد: وكان من الدُهاة ذوي الكياد، والأذكياء النقاد، له حوالي كعبة المخازي، مائة شوط وألف طوف — ينبغي أن يلقب هذا الجامع بمسجد الحرام والصلاة فيه صلاة الخوف، وقال لي: أيضاً أالله داد، وقد فهم معنى هذا الانشاد، وينبغي أن ينشد، في شأن هذا المعبد، ويكون رقم طرازه، ونقش صدره ومجازه، قول الشاعر:

سمعتك تبني مسجداً من جناية ... وأنت بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها ... لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

(فصل) ولما كان تيمور ببلاد الروم يصول، كان استخلاص ممالك الشرق في فكره يجول، وقد ذكر أنه أرسل إلى أالله داد، يستوصفه أوضاع تلك البلاد، ولما انكشفت له أحوالها، وتبينت له قراها ومضافاتها وأعمالها، حتى شاهدتها عين بصيرته، واستقرت كيفيتها في سر سريرته، جَهَّز لتلك النواحي، رؤس هاتيك الضواحي، ومن جملتهم بيردي بك وتنكري بيردي وسعادات، والياس خواجه ودولت تيمور مع زيادات، وأضاف اليهم طوائف من الأجناد، ورسم أن يتوجهوا كلهم إلى الله داد، وأن يجهز أالله داد أمره، ويتوجهوا فَيَبْنُوا قلعة تدعى باش خمرة، وهي عن أشبارة نحو من عشرة أيام، ومن متعلقات المغل الطغام، وكانت أمورها

(١) سورة الانشقاق آية ١.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: استيفاء.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧١.

اضطربت ، ولكونها متنازعة بين مملكتين خربت ، فتوجهوا إلى تلك الدارة ، بالعساكر الجرارة ، واشتغلوا على غير عادتهم بالعمارة .

وكان تَوَجُّه هذه الفئة ، في أواخر سنة ست وأوائل سنة سبع وثمانمائة ، وقصد بذلك أن تكون لهم معقلا ، وعند توجههم إلى الخطا وإيابهم ملجأ وموئلا ، فلما أحكموا أساسها ، وصنفوا أنواع بيوتها وأجناسها ، وصفوا[1] من أحجار الأساسات أقدامها ، ورفعوا على أعلام الأسوار أعلامها ، أرسل اليهم مرسوماً أنهم يُرجئون أمرها ، ويتناسون ذكرها ، ويأمرهم فيه بالرجوع ، والاشتغال بتعليق البلاد بالزروع ، بحيث أن فقهاء الدرس والدياس[2] ، من أهل القرى والأمصار ، والمشتغلين بفقه المزارعة والمساقاة من فلاحي الأنجاد والأغوار ، وأهل الرزداقات[3] والأكّارة ، من حدود سمرقند إلى أشبارة ، يتركون مسائل المعاملة والمبايعة ، ويكررون البحث قولاً وعملاً في درس المساقاة والمزارعة .

ويؤذنون[4] في جماعتهم أن يقيم كل منهم في الزرع صلاحه ، وإن اضطر أحدهم أن يترك صلاته فالحذر الحذر أن يترك فلاحه[5] ، ورام بذلك أن يكون لهم في سفرهم عتادا ، وإن نقص لهم في الدرب قضيم وخضيم زادا ، فتركوا العمارة ، وقصد كل من الأمراء دياره ، واشتغلوا باستخراج البقر والبذار ، واجتهدوا في إحياء جميع الموات كما رسم وأشار ، فما فرغوا من ذلك إلا وقد طوى المصيف بساطه ، ونشر رائد الخريف على العَالَم أعلامه وأنماطه .

ذكر عزمه كما كان على الخطا ، ومجيئه سكرة الموت بالحق وكشفه عنه الغطا ، ثم انتقاله من سفره إلى سقره

فلما أفاق ، أخذ فيماكان عليه من التوجه الى الآفاق ، وقصد الحواشي والأطراف ،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ووضعوا .
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : المدارس والديار .
(٣) الرزداق : بالضم : السواد والقرى .
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ويؤذن .
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فلاحته .

واستخلاص الممالك والأكناف ، وصرف عنان الذهاب ، نحو الخطا على عادته وكان ذلك عين الصواب .

فأرسل الى أمم عساكره أن يستوفزوا ، ويأخذوا أهبة أربع سنين أو أكثر ويتجهزوا[1] ، فَلَبَّت كل أمة دعوة رسولها ، وشنفت بأقراط مراسيمه آذان قبولها ، وحمل كل أسد جوزاء عتاده ، وامتطى جدى بغيه ، وأعدّ كل ثور سُنْبلةَ زاده ودلو سقيه ، وَدَبّ كل عقرب منهم دبيب السرطان ، وانسابوا انسياب الحوت في بحار العدوان ، مجازفين مظالم العباد بلا كيل ولا ميزان .

فأبرد هلال[2] القوس سهم برده بمرسومه إلى كل صماخ ، يُخبر أن جند الشتاء

(١) لما استقر رأي تيمورلنك على غزو الصين ، دعى أحفاده ، وأمراءه الى اجتماع لدراسة مشروع الحملة حيث أشار في هذا الاجتماع الى سيطرته على كثير من ممالك العالم ، وخضوع حكام الأرض في المشرق والمغرب لسلطته ، ثم تكلم عن كثرة قواته وجنده ، وبيَّن للحاضرين ما بدر من جانب حكام الصين « المشركين » من جرائم وزلات . وعرض عليهم آخر ما استقرت عليه العلاقات بينه وبين امبراطور الصين ، وأيد جميع الحاضرين اقتراح تيمور ، وبدىء باتخاذ الاستعدادات لقيام الحملة على الفور ، وانصرف القواد الى جمع المقاتلين وإعداد العربات وجمع المؤن والأعتدة ، وتم في مدة قصيرة جمع مائتي ألف جندي من ما وراء النهر وخوارزم وبلخ ... وانخرط في عداد هذه القوات التتر الذين جيء بهم من بلاد الروم ، وأعدت خمسائة عربة مصببة بالحديد ، وألحق بالحملة عدد كبير من الحيوانات ، لتؤكل لحومها خلال الطريق ، وذهب ابن عربشاه الى حد القول إن أوامر تيمور كانت أن يعطى لكل جندي مؤونة تكفيه لأربع سنوات ، وأخذت هذه القوات تحتشد على ضفاف سيحون في الشمال ، في منطقة طويلة ، تمتد من ياسي وصبران في الغرب ، حيث كان يقود الجناح الأيسر الأمير سلطان حسين ، الى طاشقند في الشرق ، حيث كانت تحتشد قوات الجناح الأيمن تحت إمرة خليل سلطان ، (إبن ميرانشاه بن تيمور) ، في الوقت الذي كان فيه القلب تحت قيادة تيمور نفسه . وتقول المصادر الصينية إن أخبار الاستعدادات العسكرية والحشود التي كان يقوم بها تيمور على حدود المناطق التي تقع بين بلاده وبين الصين ، قد بلغت مسامع حكام هذه البلاد ، وبدأ هؤلاء أيضاً يتخذون بعض الاجراءات العسكرية لدفع هذا الهجوم عن بلادهم . (شهاب ٣٨٢) .
(٢) في بعض النسخ :هلاك .

على عالم الكون والفساد أناخ[1]، فليستعد له الكفاة، وليحذره العراة والحفاة، ولا يكتفوا في كَفّه بكافاته فما كل كافٍ له كُفُوا، لأنه في هذه المرة آية من آيات الله فلا تتخذوا آيات الله هزوا.

وأن قصده بقدومه تبريد الأنفاس، وتشويط[2] الأنوف والآذان وإسقاط الأكارع وقلع الراس، وأن فصا الخريف رائد جنوده، وقائد بنوده، ونموذج طلعته، وَمُري عين غلته وعنوان مكاتبته ومقدمة كتيبته.

ثم زمجر بعواصف رياحه الباردة، وخَيَّم على العالم بخيام غيومه الصادرة والواردة، فارتعدت الفرائص من زئيره، ولَاذَ كل من الحشرات بقعر جهنّمه خوفاً من زمهريره، وخمدت النيران وجمدت الغدران، وارتجفت الأوراق ساقطة من الأغصان، وخرت على وجهها الأنهار، جارية من الأنجاد إلى الأغوار، وتخيّست الأسود في أخياسها[3]، وتكنست الظباء في كناسها، وتعوذ الكون من آفته، واصفر وجه المكان من مخافته، واغبرت خدود الرياض، وذبلت قدود الغياض، وراح ما كان بها من النضرة والارتياح، وأصبح نبات الأرض هشيماً تذروه الرياح.

فاستسمج تيمور لقطات هذه النسمات، واستبرد نفثات هذه النفحات، وأمر بإعداد لبوس القباب، واستعداد بركستوانات الجباب، واتخذ لصفاح الجمد[4] وسهام البرد، من المبطنات الدَرَق[5] ومن الفراء الزرد، ثم ضاعف لملاقاة الشتاء مضاعفات اللباس وأفرغها على قامة عزمه الثاقب وأمدها من كافات كفايته بأتراس، ولم يلتفت

(١) بدأ موكب تيمور حركته من سمرقند في ٢٣ جمادى الأولى عام ٨٠٧هـ ـــ ٢٨ تشرين الثاني ١٤٠٤م... وكان الفصل خريفا. ولم يكن قد بلغ سيحون حيث تحتشد قواته على طول النهر عندما بدأت درجة الحرارة بالانخفاض، وبدأ هبوب الرياح الشديدة، وتلبدت السماء بالغيوم، ولم يكد يصل الى ضفة النهر في ١٢ رجب (١٥ كانون الثاني ١٤٠٥م)، حتى انخفضت الحرارة الى حد كبير جدا، وتساقطت الثلوج بغزارة، وتجمد ماء النهر وبلغ سمك الجليد الذي يغطيه ثلاثة أذرع (شهاب ٣٨٢).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : تشبيط.

(٣) الأخياس: جمع خيس ـــ بالكسر ـــ وهو موضع الأسد.

(٤) ورد في بعض النسخ : الجد.

(٥) الدرق : جمع درقة، وهو الترس من جلود.

إلى كلام وملام، واستكفى من الشتاء بما لبسه وأعده من كل كاف ولام، وقال لعسكره لا تكترثوا بشأن[1] الشتاء فإنما هو برد وسلام.

وحين اجتمعت عساكره، والتأمت أموره وأوامره، أمر أن يصنع له خمسمائة عجلة، وتضبب بالحديد ليحمل عليها ثقله[2]، فبادر الشتاء خروجه بالدخول، وأورد بانقطاع جراية عمره من ديوان الفناء الوصول، فبرز في شهر رجب، وقد أصبح البرد عجبا وأي عجب، وسار لا يرق لمرق، ولا يرثى لجسد من البرد محترق، فوصل في سياحته إلى سيحون وقد تجمد، وبنى عليه رائق النسيم الصرح الممرد.

قلت قديما:

على البحر قد عاينتُ[3] جسراً ممدداً ... بناه إله العرش صرحاً ممردا
بكيت فخلت الدمع في جنباته ... رقيق رحيق في زجاج تجمدا

فعبره ومر ومضى على ذلك واستمر، وتمادى على لجاجه وأصر فدمر الشتاء عليه بالدمار، وانحط عليه من الجوانب بكل إعصار فيه نار، وحطم جيشه بكل نكباء صرصر، وضرب نبات عسكره بصرة صر طول فيها وما قصر، وهو بذلك الجمع الكثير يسير، لا يحن لأسير ولا يجبر وهن كسير، يسابق البرد ببرده، ويجاري أجرده بجرده ومرده[4]، فجال فيهم الشتاء بحراجف[5] عواصفه، وبث فيهم حواصب قواصفه، وأقام عليهم نائحات صراصره، وحكم فيهم زعازع صنابره، وحل بناديه، وطفق يناديه مهلاً يا مشوم، ورويدا أيها الظلوم الغشوم.

فإلى متى تحرق القلوب بنارك، وتلهب الأكباد بأوامك وأوارك، فإن كنت أحد نفسي جهنم فإني ثاني النفسين، ونحن شيخان اقترنا في استئصال البلاد والعباد فأنحس بقران النحسين، وإن كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريري منك أبرد، أو كان في جرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصماهم وأصمهم، ففي أيامي بعون الله ما هو أصم وأجرد، فوالله لاحابيتك، فخذ ما آتيتك، ووالله لا

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بأمر.

(٢) ثقله : بفتحتين ـــ متاع المسافر وحشمه.

(٣) ورد في بعض النسخ : شاهدت.

(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ويجاري الجرد بجرده ومرجه

(٥) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب.

يحميك يا شيخ من برد ريب المنون ، لواعج جمر مجمرة ولا واهج لهيب في كانون .

ثم كال عليه من حواصل الثلوج ما يقطع الحديد ويفك الزرد ، وأنزل عليه وعلى عساكره من سماء الزمهرير من جبال فيها من برد ، وأرسل عقيبها زوابع سوافيه فحشتها في آذانهم ومآقيهم ، ودستها في خياشيمهم فاستقبلت بها نزع أرواحهم إلى تراقيهم ، وجعلت تلك الريح العقيم (ما تذر من شيء ، أَتَتْ عليه إلا جعلته كالرميم)[1] وأصبحت مشارق الأرض ومغاربها من الثلوج المنقضة ، كأنها بَرّ عرصات القيامة أو بحر صاغه الله من الفضة ، فكانت إذا بزغت الصقعاء ولمع الصقيع تراءى شيء عجب ، سماء من فيروزج وأرض من بلور ما بينها شذور الذهب ، فإن هبت فيما بين ذلك والعياذ بالله نسمة ريح ، على نسمة ذي روح ، أخمدت نفسه ، وجمدته وفرسه ، وكذلك الجمل والجمال ، حتى أتت على مرق[2] وانتهى الشأن إلى أن طابت النار وردا ، وصارت لواردها سلاماً وبردا ، وأما الشمس فإنها ارتجفت ، وجمدت عينها من البرد ونشفت ، وصارت كما قيل :

يوم تود الشمس من برده لو جرّت النار الى قرصها

فكان الرجل إذا تنفس جمدت أنفاسه على سباله ولحيته ، فيصير كأنه فرعون وقد رصع لحيته بحليته ، وإن لفظ من فيه لفظة نخامة عاقدة ، لاتصل إلى الأرض مع ما فيها من الحرارة إلا وهي بندقة جامدة ، فانكشف ستر الحياة عنهم ، وأنشد لسان حال كل منهم :

فيارب إن البرد أصبح كالحاً وأنت بحالي عالم لاتعلـــم
فإن كنت يوماً مدخلي في جهنم ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

فهلك من عسكره الجم الغفير ، وأتى الشتاء على كثير من كبير منهم وصغير ، وشاط منهم أنوف وآذان وسقط ، وانحل عقد نظامهم وانفرط ، ولا زال الشتاء[3]

(١) سورة الذاريات آية ٤٢ .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مرمّق .

(٣) يعتقد أن انخفاض الحرارة الشديدة وما رافقه من سقوط الثلوج على هذه الصورة الشديدة ، في الوقت الذي كان فيه تيمور يقف على رأس قواته على ضفاف سيحون ، كان أمراً غير مألوف ، وتوقفت الطواحين عن طحن الحبوب لتجمد المياه ، وتعطلت صناعة الخبز ،

يهب ويصب عليهم ريحاً وبحارا ، حتى أغرقهم فيها وهم عاجزون حيارى ، ونودي عليهم (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا)[1] وهو مع ذلك لا يلتفت إلى من مات ، ولا يتأسف على ما فات .

ذكر مرسوم أرسله إلى أالله داد ، بت فيه منه الأكباد ، وفَتّ القلوب والأعضاد ، وزاد ما خبله فيه من هموم بأنكاد

وكان تيمور حين مخرجه من سمرقند أرسل الى الله داد بأشباره ، مرسوماً أذهب فيه قراره ، ونفر طائر نومه عن وكر أجفانه وأطاره ، وفَهِم من فحواه بالاشارة ، أنه طالب دماره ، ومؤتم اولاده ومخرب دياره . شد عليه فيه المضائق ، وسَدّ في وجهه الطرق والطرائق ، واقترح عليه فيه بأمور يسهل عندها قطع الجبال ونقل الصخور ، ويعذب عند ادناها شرب البحور ، من أقلها أن يهيىء له بمفرده ، إقامة ليوم قدومه دون غده ، خضيماً يأكله ليله ، وقضيماً يطعمه خيله ، ومن عرض ذلك مائة (ألف)[2] حمل جمل طحيناً خاصه ، وهو مخصوص به لليلة واحدة خاصة ، وأنه مع عساكره الجرارة ، لا يبيت سوى ليلة واحدة بأشباره ، الى غير ذلك .

فلما اطلع الله داد على هذا الكتاب ، وفهم ما تضمنه فحوى هذا الخطاب ، علم أنه قد حَلَّ به العذاب ، فَسُلب وعيه ، وبذل سعيه ، وأخذ في اعداد الطحين ، واجتهد في ادارة الطواحين ، وكانت الطواحين أوقف من حال أديب ، في هذا الزمن العجيب ، ومجاري مياهها أيبس من كَفَّ شحيح ، كُلِّف زمن القحط تذرية الدقيق في الريح ، ودماء الأنهار في مجاري عروق الجبال ناضبة ، ودموع العيون في آماق الغروب غاربة .

فبذل ما كان أعده لكل نائبة وشدة ، وأهان نفائس الأموال واستعان على إجراء الماء بالمال ، واستغاث بأولي النجدة من الرجال ، واستمد المدد ، من كل عدٍّ وتَمَدْ .

وكلما حطم الجند الجليد لاسالة المياه وتشغيل الطواحين ، كانت العواصف الثلجية تهب من جديد ويعود الماء الى التجمد (شهاب ٣٨٢) .

(١) سورة نوح آية ٢٥ .

(٢) أثبتناه من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

واستنهض آراء المشفقين من الأصحاب، واستدفع بهم ما نزل به من مخلب للبلاءات وناب، وقرع لفتح ما ارتج عليه مما لا طاقة له به كل باب.

فاستجابوا دعاءه، وأجابوا صداه ونداءه، وتأوهوا لمضضه، واستطبوا لمرضه، وجمعوا من العَمَلة والفَعَلة الأسود والسرّاحين فعملوا في سوق الأنهار من الأعمال ما يدير الطواحين، وجعلوا يعاندون البرد، ويقطعون في طريق الماء الجمد، فكانوا كالضارب في حديد بارد، والمكابد بتزويق وعظه تليين قلب الجاحد، حتى سهلت حزونه، ورقّ لمكابدتهم فدمعت عيونه وصاروا لا يقطعون من الجليد، مقدار ذراع بالحديد، الا وتهب نسمة يابسة، على تلك الوجوه العابسة، فاذا هب بارد النسيم، قابله الماء بوجه بسيم، فيبرد قلبه عن نارهم، ويصرد لبه عن أوارهم، فيجمد ما فوق ذلك، فتضيق عليهم المسالك، فيرجعون القهقرى، ويمشون كالحبال[1] الى ورا، والله داد مع ذلك يبذل الأموال، وينادي مستغيثاً باللماء يالرجال.

قلت:

فكان كل منهم كالحمار ... يخرج ما أمكنه بالمدار
يوقفه الماء لاجرائه ... وكلما أوقفه البرد دار

الى أن وقع الاتفاق بين الرفاق، أن هذه مسألة تكليف ما لا يطاق، وحين تبين له أمرهم، وتعين عنده عذرهم، قارنه الحظ الحالك، وتيقن أنه لا محالة هالك، وأنه قد وقع في البلاء العريض الطويل، وأن مخدومه ما طلب منه في ذلك المحز الدقيق الا لأمر جليل.

وكان قد بلغه ما وشاه به اضداده، ونقل الى تيمور عنه اعداؤه وحساده، وعلم أن خاطره تغير عليه، وفعله مع محمد جلد مشيد جامعه قد نقل اليه، وكيف قتله شر قتلة، ونهب امواله وأسر أولاده وأهله، وكان متوقعاً من تيمور، أضعاف هذه الشرور، لا يقر له قرار، ولا يسكن له ليل ولا نهار[2] وقد غسل من الحياة يده، وودَّع حياته وأهله وماله وولده، وقد قرب شهر الصيام، وصار بينه وبين تيمور نحو

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: كالحبالى.

(٢) ورد في بعض النسخ (ولا يغفى له ليل ولا يسكن له نهار).

من عشرة ايام، وقد انقطعت الدروب و (ضعف الطالب والمطلوب)[1]

اذا تضايق أمر فانتظر فرجا ... فأضيق الأمر أدناه الى الفرج

ذكر سبب انكسار ذلك الجبار، وانتقاله الى دار البوار، واستقراره في الدرك الأسفل من النار

وجعل تيمور يواصل التسيار، حتى وصل الى كورة تدعى أترار[2]، ولما كان بظاهره من البرد آمنا، أراد أن يصنع له ما يرد الأبردة عنه باطناً، فأمر أن يستقطر له من عرق الخمر المعمول فيها الأدوية الحارة، والأفاويه والبهارات النافعة غير الضارة، وأبى

(١) سورة الحج اية ٧٣.

(٢) أترار، أو أطرار: مدينة عظيمة وولاية واسعة في أول حدود الترك بما وراء النهر على نهر سيحون قرب فاراب (معجم البلدان) ج ١ ص ٢٨٥.

عبر تيمور سيحون الى مدينة أوترار على الجليد، وحل في أوترار في قصر أحد أتباعه ويدعى الأمير (بردي بك).

اضطر تيمور الى التريث في أوترار، بانتظار انتهاء موجة البرد والصقيع. ولكن تيمور سقط مريضاً بصورة مفاجئة في العاشر من شعبان وبدت أعراض الحمى وانحراف المزاج واضحة عليه، وفي الوقت الذي لا تتحدث فيه المصادر التيمورية عن أسباب اعتلال صحة تيمور، فإنه يبدو أن ضعف الجسم الناجم عن التقدم في السن أضحى لا يُمكّن تيمور من تحمل مشقة السفر والارتحال في سبيل القيام بالحروب، ولا سيما في ظروف مناخية سيئة كالتي صادفها في سيره نحو الشمال لغزو الصين.

ويفيد ابن عربشاه وغيره من مؤرخي الشام ومصر أن السبب المباشر الذي أدى الى وقوع تيمور مريضاً في أوترار هو إكثاره من تجرع الخمر المقطر كعلاج مضاد للبرد بكثرة بعد مزجه بالبهارات والتوابل، وكانت النتيجة أن أصيب كبده وأمعاؤه بالتلهب.

(شهاب ٣٨٣) السخاوي الضوء اللامع ٤٩/٣ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ٢٦٩/١٣، المنهل الصافي ج ١ قسم ٣ ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦.

ويقول القس شيلتبرجر: إن اكتشاف تيمور لعلاقة كانت قائمة بين إحدى زوجاته وأحد قواده ثم فرار هذا القائد ومعه مبالغ من المال سرقها من خزائن الدولة وأمر تيمور بقتل هذه الزوجة قد أصاب تيمور بالحنق مما أدى الى وفاته (شهاب ص ٣٨٣ حاشية ٦).

الله أن تخرج تلك الروح النجسة، إلا على صفات ما اخترعه من الظلم وأسسه، فجعل يتناول من ذلك العرق ويتفوق أفاويقه من غير فرق.

لا يسأل أخبار عسكره وأنباءهم ولا يعبأ بهم ولا يسمع دعاءهم، حتى سقته يد المنية كأس (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم)[1] فانه لم يزل للقضاء معاندا، وللزمان مجاهداً ولنعم الله تعالى جاحدا، ولا شك أنه جاء ناقصاً وتحمل مظالم فراح زائدا، فأثر ذلك العرق في أمعائه وكبده، فتريخ[2] بنيان جسمه، ورتخ أركان جسده، فطلب الأطباء[3]، وعرض عليهم هذا الداء فعالجوه في ذلك البرد، بأن وضعوا على

(١) سورة محمد الآية ١٥.

(٢) تريخ: أي استرخى، وورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فترنخ.

(٣) بذل طبيبه الذي كان يرافقه ويدعى فضل الله التبريزي جهوده لمعالجته، وأخذ يضع أكياس الجليد على رأسه وبطنه، لكن المرض كان يشتد، حتى أخذ في النهاية يتقيأ الدم، ولكن قواه العقلية ظلت بحالة سليمة.

وأدرك تيمور ـــ كما يقول يزدي ـــ أن ساعته قد أزفت، ولذلك أمر أن تجتمع اليه زوجاته وأمراؤه وطلب من الجميع عدم البكاء وإظهار الفزع والحزن عند وفاته، ويورد المؤرخون أربع فقرات من المذكرات التي تنسب كتابتها الى تيمور تصور حاله في أيامه الأخيرة تناولت الفقرتان الأولى والثانية وصيته لأحفاده، فطالبهم بالاتحاد ونبذ الاختلاف وطالب أمراءه بالاخلاص.

وأشارت الفقرة الثالثة الى رغبته بأن يخلفه على حكم سمرقند حفيده بير محمد ابن أكبر أبنائه محمد جهانكير، ويقول يزدي إن تيمور قد أعلن رغبته هذه في ذلك الاجتماع الذي عقده قبيل وفاته على الحاضرين من زوجاته وأحفاده وأمرائه... وجاء في نص الوصية على لسان تيمور قوله وهو يقصد بير محمد « أريد أن يمارس السلطة العليا في سمرقند، وآمركم أن تطيعوه كما أطعتموني، وإنني أطالبكم بأداء اليمين الشرعي ». وقام الحاضرون بالامتثال الى ما طلبه تيمور منهم وهم يجهشون بالبكاء ثم تابع كلامه وهو يرفع عينيه الى السماء « إن حسرتي الوحيدة هي أنني أموت الآن دون أن أشاهد ولدي شاه رخ ولكن الله هو الذي أراد ذلك ».

وأما الفقرة الرابعة المذكورة فقد استعطف فيها تيمور أحفاده ليعملوا على تنفيذ القواعد والتنظيمات التي سار عليها خلال حكمه (شهاب ٣٨٤).

بطنه وجبينه[1] الجمد، فانقطع ثلاث ليال، وعكم[2] أحمال الانتقال، الى دار الخزي والنكال، وتفتت كبده، ولم ينفعه ماله وولده، وصار يتقيأ دماً، ويأكل يديه حسرة وندما.

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمة لاتنفع

وجَرَّعه ساقي المنية أمرّ كأس، وآمن حينئذ بما كان جاحده، فلم ينفعه إيمانه لما رأى البأس، فاستغاث فلم يجد له مغيث، ونودي عليه اخرجي ايتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، ظالمة أثيمة، وابشري بحميم وغساق، ومجاورة الفساق، فلو تراه وهو يغط غطيط البكر[3] المخنوق، ويخمد لونه ويزبد شدقاه كالبعير المشنوق، ولو ترى ملائكة العذاب وقد أظهروا استبشارهم وأخنوا على الظالمين ليخربوا ديارهم ويطفئوا نارهم، ويهدموا منارهم (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)[4]. ولو ترى نساءَه وحاشيته وهم حواليه يجأرون، وأعوانه وجنده وقد ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون)[5].

ثم انهم أحضروا من جهنم المسوح، وسلوا سلّ السفود من الصوف المبلول تلك الروح، فانتقل الى لعنة الله وعقابه، واستقر في اليم رجزه[6]، وعذابه وذلك في ليلة الأربعاء[7] سابع عشر شعبان ذي الأنوار سنة سبع وثمانمائة بنواحي أترار ورفع الله

(١) ورد في بعض النسخ: جنبيه.

(٢) عكم المتاع: شده.

(٣) البكر: بالفتح ـــ الفتى من الابل.

(٤) سورة الأنفال الآية ٥٠.

(٥) سورة الأنعام آية ٩٢.

(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: زجره.

(٧) لفظ تيمور أنفاسه الأخيرة ليلة الأربعاء ١٧ شعبان ٨٠٧هـ ـــ ١٨ شباط ١٣٠٥م، وكان بعض رجال الدين حوله يقومون بتلاوة بعض آيات القرآن.

اهتم أحفاد تيمور وأمراؤه الذين كانوا حوله عند وفاته بتجهيزه وتكفينه، ثم وضع في صندوق خشبي مساء اليوم التالي ١٨ شعبان ـــ ١٩ شباط. وصلي عليه بعد صلاة ←

تعالى برحمته عن العباد العذاب المهين (فقطع دابر القوم الذين ظلموا. والحمد لله رب العالمين)[1].

قلت :

الدهـــر دولاب يدور ... فيه السرور مع الشرور
بينا الفتى فوق السما ... واذا به تحت الصخور
كم من شموس في سما ... فلك العلاء لها يدور
لما استوت في عزها ... زالت وأكسفها الفتور
وملوك دنيـــا أضرمت ... من نار عدواها البحور
ملكوا البلاد وأهلهـــا ... ماضي الأوامر والأمور
أغراهم الدهر الخئو ... ن وغرّ بالله الغرور
ضحك الزمان بثغره ... لهم وقد ملكوا الثغور
فغدوا ذئاباً في الأذى ... وغدوا أسوداً في الشرور
غنّـى لهم فتـراقصوا ... مثل الشخوص بلا شعور
وحكوا على بابـاتهم ... طيف الخيال اذا يدور
وتـوهموا أن الزمـان ... مطاوع غير النفـور
أو أن ما نالوه من ... دنيا يفور ولا يغور
فتواثبـوا وتضاربـوا ... وتكالبـوا شبـه النمور
وتلاكـزوا وتلاحـزوا ... وتناجزوا الضرب الهصور
وتناحـروا وتدابـروا ... وتناقروا نقر النسور
هذا وان يتصالحوا ... يتصافحوا ميناً وزرو
فتهافتـوا في نارهـا ... متصورين النـار نور

العشاء، وحُمل على محفة وخرجت به من أوترار مباشرة وعلى عجل متجهة الى سمرقند فبلغتها بعد أربعة أيام فقط، ودفن في مقبرته التي أقامها لنفسه في جوار قبر حفيده محمد سلطان، وقبر الشيخ بركة أحد رجال الدين وكان مقربا من تيمور في حياته، وتحرك بعد آونة قصيرة موكب زوجات تيمور اللاتي كن برفقته من أوترار نحو سمرقند، بعد أن نبذت فكرة متابعة الحملة على الصين أخيراً.

(١) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

بينـا هم في عزهـم ... والدهـر مكـار غيـور
انـقضَّ فيهم صرفـه ... كالصقر في دقل الطيور
أمسوا وكل منهم ... كاللحم يُلقى للصقـور
لا مُلك ردَّ يَدَ الردى ... عنهم ولا ملك ودور
كلا ولا جيش ولا ... ولـد ولامـدد نصور
ثم امحت آثارهـم ... محو الحيا نقش السطور
لم يبق منهم دهرهـم ... شيئاً سوى ذكر يدور
ناهـيك منهم فتنـة ... كالأبحر الظلمـا تمور
الأعـرج الدجـال من ... قصم الجماجم والظهـور
داخ البـلاد ودارهـا ... ونـوائب الدنيـا تدور
أملى له اللـه الحليم ... فزاد عدواً في فجـور
وأمـده مستدرجـاً ... اباه في شيء يبـور
ليراه في امضائـه ... حكماً[1] أيعدل أم يجور
فاجتاح كل الخلق من ... عرب ومن عجم ولور
ومحا الهدى، وغدا الردى ... بحسامه الباغـي يمور
أفنى الملوك وكل ذي ... شرف وذي علم وقور
وسعى على إطفاء نور ... اللـه والديـن الطهـور
بفروع جنكيز خان ذا ... ك الظالم النحس[2] الكفور
فأباح إهراق الدمـا ... من كل صَبَّار شَكور
وأحـل سبي المحصنـا ... ت المؤمنات من الخدور
ورمى على النار الصغا ... ر كأنهم فيها بخور
وأضاف في هذا الى ... فعل الزنى شرب الخمور
طوراً يرى نكث العهو ... د وتارة نقض النذور
وعدا على السادات من ... أهـل الصيانـة والوقـور

(١) ورد في بعض النسخ : أمرا .
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : النجس .

من كل ذئب صائل منهم ومن كلب عقور
فتكوا وقد بتكوا القلو ب وبعد ما هتكوا الستور
وشووا جباهـــا طالما سجدت لذي الرب الغفور
وكووا جُنُوباً قد جفت طيب المضاجع والظهور
واستخلصوا الأموال من أيـدي البرايا بالفجـور
وسقوهم كأس السمو م وجرعوا كأس الحرور
واستأسروا آل النبـي المصطفى لطهر الطهور
باعوهـم من مشركـي الأتراك في اقصى الكفور
وكـذاك واحـد أمّـه من كل مقلات نذور
وجروا على هذي الجرا ئم واستمر لهم مرور
ما بين إيـران وتـو ران البلاد لهم عبـور
وامتد ذاك من الخطا أخذاً الى أقصى القطور
لما انتهى افساده وتكاملت تلك الشرور
هجـم القضاء لأخـذه ولكـل تكميـل قصور
حذفته أيدي الموت من تلك القصور الى القبور
وتبـدلت منـه الكـرا مة بالمذلـة والعشـور
ومضى الى دار النكا ل بما تحمل من وقور
وتفـرقت تلك الجمـو ع وهدّ ما شاد الدثور
أبـقت عليـه فعالـه لعناً على مر العصور
وتخلـدت آثـار ما آذى على كرّ الدهور
فانظر أخي ثم افتكر في ذا المساء وذا البكور
لافرق عند الموت بين شكور فضل أو كفور
أيـن الذيـن وجوههـم كانت تلألأ كالزبـور
أهـل السعـادة والحجـا وذوو السيـادة والوقـور
المطفئـو بدر السمـا والمخجلو فيض البحـور
كانوا عظاماً في الصدو ر وهم صدور في البدور

طحن الردى تلك العظا م وفَتَّ هاتيك الصدور
وسفتهم ريح الفنـا سَفي الرمال يد الدَبُور
أين البنون ومـن غدا للقـلب أفراحاً ونـور
كانوا إذا رفع الحجـا ب وزحزحت عنهم ستور
تلقى الدنا قد أشرفت كالشمس في سجف الخدور
من كل ظبى أحـور أو ظبيـة تزرى بحور
نشر الجمـال عليهم ثوب الدلال على حبور
وَفَـدتهم مهـج الـورى من شر أحداث الدهور
كانوا إذا سكنوا مكا نا حركوه من السرور
كانوا على وجه الدنا حدقاً وللأحـداق نور
وحدائقـاً لرياضهـا وعلى حدائقهـا زهـور
بينا هم في سُكرهـم قد مازج الدَّل الغُرُور
والعمـر غض والزمـا ن مُسلّمٌ لهم الأمـور
وإذا بساقي الموت فا جأهم بكاسات الثبور
فسقـى ريـاض حيـاتهم قدحاً أعاد الكُلّ بُور
تركـوا فسيح قصورهـم رغماً الى ضيق القبور
وسقـوا كئـوس فراقهـم صبراً لكل شجٍ غيور
من شَقَّ حُزناً جيبـه ولفقدهـم[1] دقّ الصدور
لو كان ينفعه الرشا أو كان يجديه النذور
لَفَدَاهُـم ووقَاهُـم ورعاهم رعـى الحَـذُور[2]
سكنـوا الثرى فتـغيرت تلك المحاسن والشعـور
ورعاهـم دود السـبلى وفراهـم فري الجزور
أمسوا رميماً في الثرى وثووا الى يوم النشور
يسعـى المحب مخاطبـاً أجداثهـم يومـاً يزور

(١) ورد في بعض النسخ : ولبعدهم .
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الخدور .

يَنعي ويندب نائحاً ... قبراً تناوَشَهُ الدُّثُور
ويمرّغ الخدين في ... ترب يراها كالذرور
يدعو فليس يجيبه ... إلا صدى صُمِّ الصخور
بينا تراه زائرا ... وإذا به أمسى مزور
هذا بتقدير الإلـ ... ـه وحكم فعال صبور
دنياك جسر فاعتبر ... واحرص على زاد العبور
واطمح الى اللبّ الهَني ... فجميع ما فيها قشور
لو لم تَكُ الدنيا وما ... فيها هباءً خَيْتَعُور
ما كان يزوى بِرُّهَا ... عن كل صَبَّار شكور
كلا ولا انقادت لمن ... قد صار مختالا فخور
هذا وغالب من عَتَا ... في أرضها عرج وَعَور
خُلِقوا لِحقّ فانثنوا ... عنه الى مَينٍ ورور
يارب ثبتنا على ... ما ترتضيه من الأمور
واغفر لنا ما قد علمـ ... ـت من الخطايا ياغفور
واختم لنا بسعادة ... نكفي بها شر الغرور
وامنن لنا بتجارة ... من باب فضلك لن تبور
وأدم سحائب رحمة ... تهمى على بدر البدور
خير الأنام محمد ... الشافع الزاكي الطَهور
والآل والصحب الكرام ... وتابعيهم ياشكور

فصل في ذكر ما وقع بعد وفاة تيمور من حوادث وأمور، وما ظهر من سرور وشرور

وكان لأَلله داد أحد الخلان، يدعى سعادات نائب مدينة أندكان، من ذوي النباهة والشهرة، وهو أحد الأمراء الذين توجهوا لعمارة باش خمرة، فأرسل قاصداً لأَلله داد، انه ارتفعت مادة الفساد، وأن تيمور ترك تبعة الممالك وتوجه بتبعاته الى

درك[1] مالك[2]، فوصل القاصد بهذا السرور رابع عشر شهر رمضان من العام المذكور.

ففرج عن أَلله داد هَمّه، وأزاح عنه غمه فكأنه استأنف له الحياة، أو ردّ راحلته التي عليها طعامه وشرابه بعد أن أضلها في فلاة، وسيأتي حكاية أَلله داد وأمره، وما جرى له بعد ذلك الى آخر عمره.

ذكر من ساعده البخت، واستولى بعد تيمور على التخت

فلما قضى تيمور نحبه، وأزال الله عن العالم كربه[3]، لم يكن معه في أجناده من أقاربه وأولاده وأحفاده[4] سوى خليل سلطان بن أميران شاه حفيده، وسوى سلطان حسين ابن أخته الذي هرب الى السلطان في الشام عند وروده.

فأرادوا كتم هذه القضية، وأن لا يشعر بها أحد من البرية، فشاعت وراعت: وعلى رغمهم ذاعت، فاضطربوا واضطرموا، واصطدموا واصطلموا، فاطلع الناس كلهم على ذلك وفهموا، وعلموا أنه قطع دابر القوم الذين ظلموا، فجفلت العساكر واحتفلوا[5]، وحملوا عظامه والى سمرقند قفلوا.

وساعد خليل سلطان البخت، وخلا له الجو فاستولى على التخت، وكان أبوه أميران شاه، متولى ملك أذربيجان وما والاه، وعنده ولداه عمر وأبو بكر، وبينهم وبين ما وراء النهر من الأطواد والأشجار مائة سياج وألف سَكر، وكان أبو بكر هذا في الجغتاي من الفوارس، والضاربين بالبيض الهام والقوانس.

يُذكر أنه كان يوقف بقرة، أو ينيخ بكرة، ويضربها بالسيف ضربة لا ضربتين، فيجعلها قطعتين مفصولتين.

---

(١) ورد في بعض النسخ: دار.
(٢) مالك: خازن جهنم.
(٣) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: وانكشف عن العالم كربه.
(٤) وردت في إحدى النسخ.
(٥) احتفلوا: اجتمعوا واحتشدوا. وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وأجفلوا. وجفلت العساكر أسرعت.

وأميران شاه هذا قتله قرا يوسف بعد تيمور واستخلص منه ممالك أذربيجان وولده عمر قتله أخوه أبو بكر وأبو بكر قتله ايدكو متولي كرمان، ومصافاتهم مذكورة، وحكاياتهم مشهورة.

وشاه رخ كان في هراة وممالك خراسان، وبير عمر كان في ولايات فارس وتلك البلدان، وتيمور كان جعل ولي عهده محمد سلطان، وهو وإن كان من أحفاده، لكنه قدمه على أولاده، لما لاح له من فلاحه، وظهور رشده وصلاحه، فعانده القضاء فيما يروم، ومات كما ذُكر في آق شهر من بلاد الروم.

وكان له أخ يدعى بير محمد، فجعله تيمور ولي عهده من بعد، فلما هجم عليه رائد الموت، وأهاب بروحه الخبيثة بأزعج صوت، كان مستغرقاً في بحار غفلته، مسترجياً إرجاء مهلته، فذبحه اعتباطا، وسام عسكره اختباطا، وكان إذ ذاك وكل من أولاده وأحفاده بعيد الدار، مستقر القرار، آمناً من البوار، فارغاً من الدمار، وهم كتيمور غافلون وبيرمحمد في قندهار[1]، وهي بين حدّى خراسان والهند وبينه وبين ما وراء النهر سباسب وقفار.

فلم يكن أقرب الى دار الملك الذي أنشأه، وهي سمرقند سوى خليل سلطان بن أميران شاه، مع أن قطان[2] الشتاء ونَدَّافه، كان قد بسط على فراش الأرض لحافه وندف عليه من أقطان الثلوج ما غطى وجه العالم وأطرافه، وطَمَّ ظهره وأكتافه، فلم يقدر أحد من أولئك الحشرات أن يخرج رأسه عن اللحاف، أو يُضحك ثغر زهرة أنملة في كِمّ كمّ خوفاً من جاني النسيم أن يبادرها باختطاف الاقتطاف، فضلاً عن أن يتمطى في فراش أهبة الى حركة سفر فتمتد يده نحو بطش أو رجله نحو طواف، فاستولى خليل سلطان على ذلك المغنم البارد من غير منازع وعديل، واستبدل الملك بل العالم من جهنم الكوثر السلسبيل، ونادى لسان السلطنة في رقعتها نعم البديل، بدلت عن بغيض بحبيب وعن عدو بخليل.

وتمكن من العساكر وسائر الأمراء، وخلاصة الجند وأساطين الزعماء، واحتوى على تلك الأمم، وطوائف الرءوس من العرب والعجم، وأدخل عُنُق الجميع فى ربقة

(١) من مدن أفغانستان حالياً.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : أقطان.

المتابعة وفتح لهم في أسواق الصداقة حوانيت الصلاة فعاملوه بعقود المبايعة، ولم يمكن أحداً منهم الخروج عن الدخول في الطاعة، والتخلف عن المبادرة الى مبايعته في ذلك اليوم ولا ساعة، فأطلق لهم البشرة، وأحسن معهم العشرة، وكان يوسفي[1] الخَلق، محمدي الخُلق[2]، خليلي الرفق، اسماعيلي[3] الصدق، جمع حروف الملاحة، وحاز صنوف الصباحة، نقش محاسنه كاتب الصنع[4] بقلم الكاف والنون، على أحسن ما يكون من الحركات والسكون، فأول ما مشق على لوح الجمال قد ألف قدّه القويم، فباء له كل من فاء عن لام عذاره متقوساً في خدمته كالدال والجيم، وحسَّن لكل راء ما فيه من زين، وما شين سين ثغره وميم فمه مذ فاها بخلف ولا مين، فاستقفى بوابله كل قاف واستكفى بنائله كل كاف، وأمطر من غين كفه العين فصاد من الجند كل ذي لام وباء،ودال بذلك على كل من باء عن وعده، ورجع عن عهده وفاء، ففدت الواقيات مهجته، ورقت من عين الحوادث بهجته وعوذت منه الأرداف، بالطور والأحقاف، وحمت نون حاجبه وفاه وطرفه وطرته وردفه بـ (حم عسق)[5] وفتحت له الملوك بالثناء فاها وخفضت لارتفاعه خدودها معوذة له وقالت يس طه[6].

ذكر خلاص العساكر من البند، وقفولهم مع عظامه الى سمرقند

ولما ذبح قصَّاب الفناء تيمور ونحره، جزره كالجزور فجعل يخور كالثور وبقره، ثم أراد أن يصليه من نار الجحيم حفره، فاستغاث بخليله فأجاره وأخره، وقال لا تعجل عليه وحمله في محفة بعد العجلة وصبره، وألوى راجعاً الى سمرقند، وكان قد انحل نهر

(١) إشارة إلى جمال النبي يوسف عليه السلام (سورة يوسف الآية ٣١).

(٢) إشارة إلى أخلاق النبي محمد ﷺ التي ذكرها القرآن « وإنك لعلى خلقٍ عظيم » سورة القلم الآية ٤ .

(٣) إشارة إلى النبي اسماعيل عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم في سورة مريم الآية ٥٤ « واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ».

(٤) ورد في بعض النسخ : القدرة.

(٥) مطلع سورة الشورى في القرآن الكريم.

(٦) مطلع سورة (يس) ومطلع سورة (طه).

خجند، وطالب الشتاء قد أدرك ثاره، وبرد قلبه وسكنت الحرارة.

قلت:

ورق للعالم قلب النسيم وأقبل الدهر بوجه بسيم

ثم هجم جيش الربيع المنصور، فانهزم جند البرد فولى وهو مكسور.

ذكر ما أضمره وزراء تيمور، وأخفاه كل منهم في التامور

وكان في أفلاك ذلك العسكر سيارات نجوم بهم سماؤه تزهر، وبآرائهم يقتدى، وبروائهم[1] يستضا.

قلت:

من كل منتجب للأمر منتخب كالشمس رأياً وكالضرغام إقداما

قد هذبتهم الأمور، وشذبتهم بلايا تيمور، واستفتح بهم المغالق، واستوسع بصدماتهم المضايق، وتخلص بحملاتهم من شدة كل مارق، وتوصل بعزمهم الى نيل المآرب، وتوسل بعزيمتهم الى كنوز المطالب.

فكان هو البدر وهم الهالة، وهو الفاعل وهم الآلة، وهو الروح وهم الحواس، وهم الأعضاء وهو الراس.

فلما كُوّرت شمس مواكبهم[2]، وانتثرت كنس كواكبهم، ورحل زُحلهم، وخاب أملهم، قلت:

وعوض الكون الدجى بالضحى وبدّل المريخ بالمشتري

أجال كل منهم قداح فكره، وتدبر في ذلك الحادث وعاقبة أمره، واستصغر خليل سلطان وعلم أن سيأتيه موج المنازعة من كل مكان، وأنه لا يصفو له ورد الملك من مكدّر، ولا هواه من مغبّر، وأقل الأشياء أن يقول له رسول أكابر أقاربه كبر كبر، فأعدّ لكل شدّة شدّة، ولكل غُدّة[3] عدّة، ولكل خَزّة فَزة، ولكل جَزة جمزة[4]،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وبرؤيتهم.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مراكبهم.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عدة.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولكل حزة حزة.

ولكل بؤس لبسا، ولكل سهم ترسا، ولكل نائبة نابا، ولكل بائقة بابا، ولكل خطب خطابا، ولكل خطاب جوابا، ولكل حرب حرابا، ولكل أمر أمرا، ولكل غدر عُذرا[1]، ولكل أزمة حزمة[2]، ولكل نصب نصبة، ولكل كسرة جزمة.

ولكن شكيمة البرد كانت ردّت جماح كل جموح، وصفيحة الجمد قدّت جناح كل سَبُّوح[3]، فما وسع كلا منهم إلا الاطاعة، والانقياد لأمر خليل سلطان بالسمع والطاعة، واستمروا معه على القفول، مضمرين لخليل ما أضمره للحبيب[4] عبد الله بن أبي سلول، وكان أحدهم يدعى برندق[5]، فرام الى التحصن بقلعة المخالفة التسلق، فقال لخليل سلطان إن اقتضت الآراء أن أتقدم، وأمهد لك الأمور الى حين تقدم، فأكون رائد دولتك، وقائد سلطنتك، فأشيد القواعد، وآبشر الصادر والوارد، فيكون كل مستعدا للملاقاة ومهيأ أسباب الموافاة، فأذن له، وأمامه أرسله، فوصل الى سيحون وقد عقد عليه جسر بالمراكب وهيئت أسباب عبوره لكل راجل وراكب، فعبره برندق بجماعته، ثم أمر بقطعه من ساعته، وأعلن العصيان، وقصد سمرقند مجاهراً بالطغيان.

فكشرت أسوارها في وجهه أنيابها
وأسبلت عصمتها ببابها حجابها
وأسدلت على جبين منعه نقابها[6]

فاستدرك فارطه، وسلك في مسألة منطقه بحث المغالطة، ووصل خليل سلطان الى الجسر فوجد عقده قد انحل، ونظامه قد اختل، فلم يكترث ببرندق وما فعل،

(١) كما وردت في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ولكل أزمة حزماً، وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: ولكل حزمة حرنة.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: صبوح.
(٤) أي ما أضمر عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: بزندق.
(٦) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق:

وأرخت عصمتها على بابها حجابها
وسدلت على جبين تمنعها نقابها

بل عقده مرة ثانية ودخل، وولى وراء سيحون من البلاد، متوليها أولاً وكان يدعى خدايداد، وهو من أكبر أعدائه[1] ، ومن رفقاء تيمور ونظرائه، ومنسوباً الى السلطان حسين، وهو في تلك البلاد بمنزلة الرأس والعين، فلم يسع خليل سلطان إلا مسالمته، وإقراره في بلاده ومهادنته، إذ أموره كانت في أوائلها، ففوض اليه أمرها والقلوب في غوائلها.

(١) تم إعلام أبناء تيمور وأحفاده وغيرهم من حكام أقاليم الدول المختلفة بنبأ وفاته، وبتفاصيل وصيته التي تقضي بتسليم مقاليد الحكم الى الأمير بير محمد بن جهانكير.

ولكن كثرة الأمراء من أبناء وأحفاد تيمور الذين وصل عددهم إلى المائة عند وفاته، ساعد عقب هذه الوفاة وغياب سلطة تيمور القوية التي كانت تهيمن على الجميع، على ظهور المطامع والطموحات الشخصية عند بعض هؤلاء الأمراء. وكان لكل أمير منهم حاشية كبيرة تدعي الدفاع عن مصالحه. وبينما كان لبعض هؤلاء الأمراء إقطاعه الخاص الذي يتولى حكمه منذ أن عينه تيمور عليه، فان البعض الآخر منهم كالأمير خليل سلطان بن ميرانشاه والأمير حسين سلطان بن طغى شاه بنت تيمور، لم تكن لهم مثل هذه الاقطاعات. ولكن كانت تحت إمرة هذين الحفيدين عنده وفاة تيمور، قوات عسكرية كبيرة هي جزء من الحملة العسكرية التي كان تيمور قد عزم على المسير بها إلى الصين. وكانت قوات خليل سلطان تتجمع حول مدينة طاشقند، بينما كانت قوات حسين سلطان تقف بالقرب من ياسي وصبران قريباً من سيحون.

ولذلك فقد ظهرت بوادر الانقسام والرغبة في الخروج على وصية تيمور عند هذين الحفيدين. وكان تيمور يحقد على حفيده خليل لإقدامه على الزواج من امرأة فارسية، وصفت بأنها من عامة الشعب تدعى (شاد ملك)، ولذلك لم يخصص له جدّه منطقة معينة كما فعل مع بقية أحفاده ليتولى حكمها. وربما كان حرمان سلطان حسين من منطقة خاصة به أيضاً، لخروجه على تيمور عند حصار دمشق عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م، وانضمامه إلى الأعداء، مما أغضب جدّه عليه وجعله يأمر بمعاقبته عندما ألقي القبض عليه، وظل تيمور معرضاً عن مخاطبته مدة من الزمن.

وبدت أول مظاهر المعارضة من جانب سلطان حسين الذي وصفه يزدي بالخبث وحب الفتنة، عندما أرسل بعض أتباعه إلى سمرقند لدراسة الأوضاع فيها، وليهيؤ له الجو المناسب، منذ أن علم بمرض جده، وأنه يحتضر على فراش الموت. ولم يلبث أن أخذ يتقدم بقواته من مواقع نزولها حول ياسي وصبران باتجاه أوترار. وكان قد بلغ صحراء جوكلك في ضواحي تلك المدينة (أوترار)، عندما لفظ تيمور أنفاسه الأخيرة. ولما علم

بوفاة جدّه وبعزم زوجاته على العودة إلى سمرقند، بعد طرح فكرة متابعة الحملة على الصين جانباً، أسرع بالتحرك من هناك نحو العاصمة.

وكانت حركة سلطان حسين سبباً لأن يرسل الأمراء والقواد الموجودون في أوترار إلى خليل سلطان في طاشقند، يخبرونه بما أقدم عليه حسين، كما بعثوا إلى حاكم سمرقند الذي كان تيمور قد عيّنه قبل خروجه، يوصونه بالحذر والاحتراز. ويقول بعض المؤرخين الفرس إن محاولة حسين الاستئثار بالسلطة في سمرقند لنفسه، دفعت القواد الملتفين في طاشقند حول خليل إلى مبايعته كخليفة لجده في رمضان من ذلك العام (٨٠٧ هـ = آذار ١٤٠٥).

وعلى الرغم من إعلان خليل بأنه سوف يحكم نائباً عن ابن عمه بير محمد حاكم غزنة، وصاحب الحق بخلافة تيمور حسب وصيته، فان خطوة خليل باستيلائه على الحكم لم تلق موافقة زوجات تيمور وأحفاده الآخرين كألغ بيك وأخيه إبراهيم ابني شاه رخ، واللذان كانا قد خرجا مع الجيش للاشتراك في حملة الصين. وكان موكب هؤلاء قد تحرك يريد العودة إلى العاصمة عندما وصلتهم رسالة من خليل الذي ظل في طاشقند، يبرر لهم ماأقدم عليه، ويعلمهم أن ما فعله لم يكن إلا من أجل استقرار الحكم والقضاء على الفتن، وبيّن لهم أن المصلحة تقتضي منهم موافقته على ما فعل. وعقد الأحفاد والخواتين (زوجات تيمور) ومن معهم من القواد، إجتماعاً في مكان قريب من سمرقند، درسوا فيه رسالة خليل، وبعد التشاور تم الاتفاق على ضرورة التمسك بوصية تيمور، ورفض أي تغيير فيها مها كانت المبررات، وأن على خليل أن يعلن إذعانه لما جاء في الوصية، بالتراجع عما أقدم عليه. وأرسلوا يعلمونه بما إتفقوا عليه. ولم يفلح تبادل الرسائل بين الجانبين في حل الخلافات بينهما، وأخذت بعض القوات التي كانت محتشدة على ضفاف سيحون تعبر النهر عائدةً إلى ما وراء النهر، لتلتحق بموكب الأحفاد والخواتين. وعمد بعض القواد إلى تحطيم الجسور على النهر لمنع قوات خليل من استخدامها لعبور سيحون والوصول إلى سمرقند. ولما حاول موكب الأحفاد والخواتين الدخول إلى سمرقند، وجد أبوابها موصدة في وجهه، لأن حاكم العاصمة قد أعلن انضمامه إلى خليل، مما اضطر الموكب إلى متابعة السير إلى بخارى، حيث استقبلهم حاكمها استقبالاً طيبا في رمضان ٨٠٧هـ = آذار ١٤٠٥ م. وعمد حاكم بخارى إلى اتخاذ إجراءات الدفاع والتحصين استعداداً للقتال المنتظر مع قوات خليل. وكان خليل في الحادية والعشرين من العمر عند وفاة تيمور. وقد ساعده قربه من جدّه عند وفاته على التصرف في الوقت الذي كان فيه أبناء تيمور

واحفاده ، يحكمون في مناطقهم البعيدة . وكانت له شخصية محببة . ودفعت أخلاقه الحميدة وطلعته الجميلة عدداً من أمراء تيمور وقواده إلى التحمس له ، فضلاً عن أن تأييد الرعية — كما أشار إلى ذلك كل من ابن عربشاه وميرخوند وغيرهما ـ ويصفه بوفا بأنه كان رجلاً كريماً إنسانياً ، وأن الأمراء الملتفين حوله كانوا يعاملونه خلال الزحف شمالاً للاغارة على الصين قبيل وفاة تيمور باحترام زائد ، على أنه الحاكم المرشح لخلافة جدّه .

وتمكن خليل من الوصول إلى سمرقند بسهولة . واستقبله حاكم المدينة أرغون شاه وكبراء الدولة في ظاهر العاصمة ، وكانوا يلبسون الثياب السوداء حداداً على تيمور . وتسلم خليل من أرغون شاه مفاتيح العاصمة ، وجلس على العرش في ١٦ رمضان = ١٨ آذار . وباشر تصريف أمور الدولة على أنه نائب عن ابن عمه بير محمد ، الذي كانت مناشير الدولة تصدر باسمه . وزار خليل قبر جدّه . وتقبل أمام القبر العزاء من الأمراء والقواد وأعيان الدولة . وتليت أمام القبر أيضاً قصائد الرثاء ، ووزعت الصدقات على الفقراء ، كما أُجزلت الجوائز للأمراء تألفاً لقلوبهم . وأدرك خليل أن إقبال الناس على تأييده مرهون بمقدار ما يبذله من مال . فأكبَّ على ثروات جدّه وكنوزه التي جمعها خلال حروبه الماضية . وأخذ يغدق منها بسخاء بلغ حد الإسراف . ومع ذلك فان الأوضاع لم تستقر ، وسرعان ما ثار اثنان من قواد المناطق الشمالية فيما وراء سيحون هما (خدايداد) و (الله داد) ، وتقدما بقواتهما جنوباً حتى ضواحي سمرقند ، في شوال (نيسان) فنهبوها . وعلى الرغم من نجاح خليل في الإيقاع بين القائدين ، مما اضطرهما إلى الانسحاب ثانية إلى سيحون ، فان هذه المنطقة استمرت فيما بعد منطلقاً للثوار للقيام بغارات على ما وراء النهر من وقت لآخر . وأضحت معظم المدن الواقعة على سيحون بين سغناق وطاشقند في قبضة الثوار .

وكان شاخ رخ بن تيمور في هيرات قد أرسل إلى سمرقند بعض أتباعه لدراسة الموقف عن كثب ، عندما بلغه نبأ وفاة أبيه . وأعلن له حكام خراسان الغربية وسيستان ومازندران خضوعهم . وقام باتخاذ بعض إجراءات الدفاع في عاصمته هيرات ، عندما علم بجلوس خليل على العرش في سمرقند ، وبحصار قواته لولدي شاه رخ ألغ بيك وابراهيم في بخارى . وتقدم في الوقت نفسه (رمضان = آذار) إلى الشمال حتى ضفاف جيحون . وأرسل من هناك إلى خليل في سمرقند رسالة ودية يقترح عليه الاتفاق وحل الاختلاف بصورة سلمية . واستجاب خليل لطلب عمه ، وسمح لالغ بيك وابراهيم بالخروج من بخارى مع أتباعهما وأموالهما سالمين وأما الخواتين فقد عدن إلى سمرقند . وتم الاتفاق أيضاً على أن يرسل خليل لابن عمه بير محمد بعض مبالغ من الأموال ، وعلى أن يكتفي خليل

ذكر وصول خليل سلطان ، بما ناله من سلطان الى الأوطان

ثم توجه الى سمرقند فاستقبله كبراؤها ، وخرج اليه نائبها وزعماؤها ، ووفد عليه نواب البلاد ، منغمسين في السواد ، لا بسين أثواب الحداد ، وجاء الأكابر والعظام ، معظمين هاتيك العظام ، ومهنئين خليل سلطان بالسلامة ، ونيل سرير الزعامة .

قلت :

ووجـــه كل قد غدا مثـل الربيـع القـادم
وعين سحب قد بكت وثغـر زهـر باسم

وجعلوا يقدمون التقادم السنية ، والحمولات البهية ، وهو يقابل كلا منهم بما يليق

بحكم ما وراء النهر حتى نهر جيحون ، على أن يترك ما تبقى من امبرطورية تيمور إلى عمه شاه رخ ، الذي عاد بعد ذلك إلى هيرات ، في آخر ذي الحجة ٨٠٧ هـ (آخر حزيران ١٤٠٥ م) ويُنظر إلى تصرف شاه رخ وإقراره لخليل بالاحتفاظ بعرش سمرقند له ، على أنه مخالفة منه لوصية أبيه تيمور ، وموافقة على إبعاد بير محمد الموصى له بعرش سمرقند عن الوصول إلى حقه . ومهما يكن من أمر فإن كلاً من خليل وشاه رخ ظل يمارس مع الآخر سياسة الحذر ، فقام خليل بعد ثلاث سنوات (في صفر ٨١٠ هـ = تموز ١٤٠٧ م) بتحصين ترمذ الواقعة على نهر جيحون ، فاضطر عمه إلى بناء حصن جديد مقابل هذه المدينة ، التي تقع على خط الحدود الفاصل بين أملاك الجانبين .

وفي الوقت الذي كان فيه خليل منهمكاً بتوجيه الحملات ضد الثوار في شمال ما وراء النهر ، تحرك من الجنوب من مدينة (قندهار) بير محمد بن محمد جهانكير ، صاحب الحق الأصلي في وراثة تيمور . ويبدو أن اتفاق شاه رخ مع خليل لم يعجبه ، فقدم على رأس قواته من قندهار يريد عرش سمرقند . ودارت بينه — وهو في الطريق — وبين خليل مراسلات حاول كل منهما أن يثبت حقه للآخر بوراثة عرش جدّه . ولما ينته الجدال بالمراسلة الذي استمر زهاء عام إلى حسم الخلاف ، فقد عبرت قوات خليل جيحون إلى بلخ وكانت بقيادة سلطان حسين — وكان حسين قد عاد من عصيانه ومطالبته بالعرش لنفسه وانضم إلى خليل — لاعتراض تقدم بير محمد . وحلا لسلطان حسين أن يعود للعصيان على خليل ، فترك القتال وعبر النهر بقواته إلى الشمال . ولما هزمته قوات خليل بالقرب من كيش (شهري سبز) أجبر على الفرار إلى خاله شاه رخ في هيرات (شهاب ٣٨٧ — ٣٨٩).

بحشمته، وينزله في منزلته، وقال لبرندق لا تثريب، وقابله مقابلة الخليل الحبيب، ومهد لهم بساط المباسطة، وسلم اليه مسألة المغالطة، وحين ثبتت أوتاده اقتلعه، وألقاه على غفلة في فم أسد المنية فابتلعه، ثم أشلى على دياره كلاب النهاب، وشهاب الالتهاب، فمزق أديمها، وهتك حريمها، ومحا حديثها وقديمها.

ذكر مواراة ذلك الخبث، والقائه في قعر الجدث

ثم إنه أول ما اشتغل بمواراة جده، وتنجيز أمره وإلقائه في حفرة لحده، فوضعه في تابوت من أبنوس وحمله الرءوس على الرؤوس، ومشى في تشييع جنازته الملوك والجنود، حاسري الرؤوس لابسي الثياب السود، ومعهم طوائف الأمراء والأعيان، وأنزلوه على حفيده محمد سلطان، في مدرسة حفيده المذكور، بالقرب من مكان يسمى روح آباد وهو موضع مشهور.

فكان هناك على أثاف، في سرداب معلوم غير خاف، وأقام عليه شرائط العزاء، من إقراء الختمات والربعات والدعاء، وتفريق الصدقات، وإطعام الأطعمة والحلاوات، وسنم قبره، ونجز أمره، ونشر على قبره أقمشته، وعلق على الجدران أسلحته وأمتعته، كل ذلك ما بين مكلل ومرصع، ومزركش ومصنع أدنى شيء من ذلك يقوم بخراج إقليم، وحبة من كدس تلك الجواهر تفوت التقويم، وعلق نجوم قناديل الذهب والفضة في سماء غواشيها، وبسط على مهادها فرش الحرير والديباج الى أطرافها وحواشيها.

ومن جملة هذه القناديل قنديل من ذهب زنته أربعة آلاف مثقال، رطل واحد بالسمرقندي وبالدمشقي عشرة أرطال.

ثم رتب على حفرته القراء والخدمة، وأرصد على المدرسة البوابين والقومة وقدّر لهم الادارات، من المسانهات[1] والمياومات والمشاهرات، ثم نقله بعد ذلك بمدة الى تابوت من فولاذ، صنعه رجل من شيزار ماهر في صنعته أستاذ، وقبره في مكانه المشهور، تنقل اليه النذور، وتطلب عنده الحاجات، ويبتهل عنده بالدعوات، وتخضع الملوك إذا مرت به إعظاماً، وربما تنزل عن مراكبها إجلالاً له وإكراما.

(١) المسانهات: الوظائف السنوية.

فصل في اعتدال الزمان، وأخبار خليل سلطان

ولما أخذت تيمور الصيحة بالحق فصار غثا، وقعد خليل سلطان على التخت وقام الشتاء بعد أن كان جثا، مد الشعراء ألسنتهم للزمان بالمدح ولخليل سلطان بالتهنئة ولتيمور بالرثا، فسمع الشتاء وغنى صوته وأجاز، ورفع عن العالم في نهوضه الكلاكل والأعجاز.

فابتهج الكون بورود الربيع، وشكر الروض للسحاب ما أسداه اليه من حسن الصنيع، ورفع على الروابي من الشقائق أعلامه، ونصب مما زهَّره[1] خيام الصنع من أزهار الأشجار خيامه، ونور الحدق بأنوار الحدائق، واستنطق بتسبيح الخالق، من خطباء الأطيار على منابر الأغصان في جوامع الرياض ما استنصت بلغاته كل ناطق، من كل مغرب في ديوان الفصاحة رائق، ومعجب بأسرار البلاغة فائق، فرقصت الأشجار، لغناء الأطيار، وصفقت الأنهار، واعتدل الليل والنهار، واكتسى البسيط الأغبر خلع السندس المزهر، وتبدلت الأغصان من قطنى الثلوج، كل ثوب بأصباغ القدرة مزهر وبدمقس الأزهار منسوج، وكل قباء صار مزهرا في كل دف أغن لكل طائر وفُرُوج، وبسط الكون على المكان لإقادم قدوم خليل سلطان، شقق الورود والريحان.

(**فصل**) ولما فرغ خليل سلطان من ذلك شرع في تمهيد الممالك وتسليك لمسالك وعَلم أنه لا يتقيد به إنسان، إلا بقيد الاحسان، ولا يجتمع له البال، إلا بتفريق المال، فعقد القلب على فك طلسمات الختوم وحل الرموز، وصرف الموانع والتوابع عن تلك المطالب والكنوز، وقوى العزيمة على فتح الخبايا وصيد عصافير القلوب ببذر حبات الهبات تحت شباك العطايا، ففرق ما كان شتت جده في جمعه شمل البرايا، وثقل الكواهل بتخفيف ما أثقل ظهر غيره بالمآثم والخطايا، وأوسق أحمال الآمال، وربوع الأطماع بالأموال وأمطر أيادي يمينه بالنوال.

ففاض الخير من صوب الشمال، وملأ الأفواه والمسامع والمقل من الناس، بما أفرغ من حواصل الكنوز والصناديق على أغتام الجند والأكياس، فنثر أغصان الدوح عند

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مما أظهره.

ورود الربيع أصناف أزهاره، فكأنه أنامل كفه المنتظمة في نثار درهمه ودیناره، وجاد السحاب بدردره وأمطاره، فضاهى جودَ جُوده الهامي على العالم وأقطاره، فقيد الناس كلهم بهذا القيد، ونحوا صراف بذله معربين له بالاطاعة فترك عمرو وزيد.

ذكر من أظهر العناد والمراء، وتشبث بذيل المخالفة والعصيان من الأمراء والوزراء

غير أن بعض تلك القواد، وزعماء الوزراء والأجناد أعلن ما كان أسره، ووضع المضمر من العصيان موضع المظهر، فأول من شهر سيف العصيان، وفوق سهام العدوان، وشرع بمخالفة الرديني، خدايداد الحسيني، متولى ما وراء نهر سيحان، وأطراف تركستان.

فوجد من كان قد عزم على نفض يده من عقد الطاعة، إماماً يقتدى به في البغي ومفارقة الجماعة، لا سيما وقد كان صواغ الربيع قد أذاب بجمراته سبائك الجمد والثلوج، ورصع بما أخرجه من ذلك ديباجة الأرض وروضات الجنات وأرباض المروج، واستمعت أموات الحشرات صيحة الرعود بالحق فقالت ذلك يوم الخروج.

فاقتفى خدايداد، في العصيان والعناد، شيخ نور الدين، وكان عند نور الدين من المتقدمين، وذوي الآراء والتمكين، فانخزل جهارا، وسار ليلا ونهارا، فوصل الى خدايداد، وقوى منه الظهر والأعضاد، وشاركه في التمرد والفساد.

ثم بعده فرط نظام الطاعة شاه ملك، وأخذ في طريق المخالفة وهو منهمك، وخرج من سمرقند وهو يصرخ، وقطع جيحون ووصل الى شاه رخ، وكان نظير شيخ نور الدين، وذا رأي مكين، وفكر رصين، فلم يكترث خليل سلطان بالعاصي وأكرم من لم يعص، وعمم بتاج إنعامه كل رأس وما خص.

ذكر أخبار أالله داد صاحب أشبارة، وإخلائه إياها وقصده دياره، وما صنعه في تدبير الملك وأثاره قولاً وفعلاً وإشارة، إلى أن أدرك في ذلك دماره وبواره

ثم إن الله داد جمع أخصاءه ليلة ورود الخبر اليه، وشاورهم فيما يصنع وما يبني

اموره عليه، فاتفقت كلمتهم واجتمعت مشورتهم على قصد دياره، وإخلائه أشباره، فإنهم كانوا في ذلك المكان كالفسيق في شهر رمضان، والزنديق بين قُراء القرآن.

فلما طوى الجو ملاءته المسكية، ونشر على المكان مروطه الكافورية، وألقى ثعبان الفجر من فيه على هذا السقف المرفوع خرزته المضيه، حضر الى خدمة الله داد، أمراء الجيش على عادتهم ورءوس الأجناد، من الترك والخراسانيين والهنود والعراقيين. فاختلى بأفاضلهم، ومداره مقاولهم، ونشر لهم من هذه القضية طيها، وطلب من آرائهم فيها رشدها وغيها، واستكتمهم أمرها، لئلا يستنشى المغول نشرها، وأنى لعين الشمس في الصحو الاستتار؟ وكيف يخفى على ذي عينين النهار؟ فكل من فوض الأمر الى مرسومه، وطرح قصة هذه القضية في جيب مكتومه، فاستدعى من أولئك الرفاق، أن يكونوا معه فيما يراه على طبق الوفاق، فأجابوه الى سؤاله، وربطوا أفعالهم بأقواله، فأكَّد ذلك بطلب أيمانهم أن إسرارهم في ذلك كإعلانهم، فشرع كل في المخالفة، أنه ليس في موافقته مخالفة، وأنه مهما رآه الله داد امتثله، وما أمر به فعله.

وحين أمن غائلة مخالفتهم وعصيانهم، وحصل له اليسار بربطه أعناقهم بأيمانهم، قال: أي جماعة الخير، وقيتم الضر وكفيتم الضير، أرى أن أكون في صلاة هذا الأمر إمامكم، فأتقدم بجماعتي الى سمرقند أمامكم فأمهد الأمور لكم، وأرسل الى بلدكم هذا بدلكم، وأيم الله لا يأخذني قرار ولا هدو، ولا أترككم مضغة لضاغم في ثغر العدو، فإن رأيتم أن تضبطوا بحسن الاتفاق أموركم، وتحموا قريحة ورد قلعتكم من سورة شارب العدو وسُؤركم، فلن أمهلكم إلا بقدر ما أقطع نهر خجند، وأصل الى سمرقند، فأمهلوني ريثما أصل، وبخليل سلطان أتصل.

فتبعوا مراده، واقتفوا ما أراده، وعاهدوه أن لا يختلفوا من بعده، ولا يحلوا بعد ارتحاله من رقابهم حبل عهده، فَأَمَّر عليهم رأس جنود العراق، وكان هو أكبر الرفاق بالاتفاق، وفرز لكل مَسلحة في أسوارها[1] من كل سالح جزءاً مقسوماً، وصار زعيم أولئك السالحين كالنبي في أمته مع أنه كان يدعى معصوماً.

فصل

ثم أمر الله داد بتنجيز الأمور، وخرج سابع عشر رمضان المذكور، ولم يلتفت إلى

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وقرر لكل مسلحة في آسراها.

برد وحرّ، وكان قد استوطن أشبارة واستقر، ونقل اليها حريمه وأولاده، وبذلك أمر حاشيته وأجناده، فاقتلع الكل معه كبيرا وصغيرا، ولم يدع بها مما يتعلق به فتيلا ولا نقيرا، فساروا تارة دبيباً وحيناً زحفا، وطورا تسومهم الأرض من ثلجها خسفا، وآونة تسقط السماء عليهم كسفا، فأدركهم العيد المرموق، في مكان يدعى قولا نجوق، من أبرد البلاد، كأنه ينبوع ريح عاد.

قلت:

إذا احتاجت جهنم زمهريرا تنشق منه أنفاس الهجير

ذكر ورود مكتوبين الى أَلله داد، من خليل سلطان وخدايداد، تخالفت معانيهما وتصادمت[1] فحاويهما

فورد عليه مرسوم من خليل سلطان، يذكر فيه ما حصل لجده من حادث الزمان، وأنه استولى على سريره، وأطاعه من الملوك كل كبير القدر وصغيره، وأن الأمور بحمد الله مستقيمة، وقواعد الملك على عادتها القديمة مقيمة[2]، فلا يحدث أمراً، ولا يخرج من بحر مدينته برا، وليسدك بمكانه، وليتثبت بأشبارة مع طوائف جنده وأعوانه، وليطيب خاطر الجزء والكل، فإنه عقب ذلك يرسل اليهم بدل الكل من الكل.

فتحير الله داد وتفكر، وحاسب نفسه هل يربح في سفره ذلك أو يخسر، ففكر وقدر (فَقُتل كيف قدر[3]) فبينما هو في أمره يعيد ويبدي، ويلحم في شقة أفكاره ويسدي، وإذا بقاصد خدايداد (الحسيني[4]) ورد عليه، يستحثه على الخروج من أشبارة والوصول سريعاً اليه، فوجد لخروجه من أشبارة عند خليل سلطان مندوحة،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وتصارمت.

(٢) أثبتنا ما ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق، وقد ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ هـ : قيمة وورد في إحدى النسخ : قويمة.

(٣) سورة المدثر الآية ١٩.

(٤) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

وعاش فنام وهو مغمض العينين بعد أن مات وعيناه مفتوحة، فطوى بساط تردده، وتوجه ببسط أمله نحو مقصده.

ولكن كان بينه وبين المراد، خرط القَتَاد[1]، والموانع التي ذكرها طالب الوصول الى سعاد، مع زيادة نهر سيحون وخدايداد، فواصل التأويب والاساد، حتى وصل الى خدايداد، فابتهج برؤيته، واستنجح مقصوده بطلعته.

ثم قطعا نهر خجند، وقصدوا ضواحي سمرقند، ووصلا على حين غفلة وفترة الى مكان يسمى تيزك، وقد شهرا للعدوان الحسام وشرعا للفتك النيزك[2]، فاحتاطا على جشار تيمور فنهباه، وتغلبا على ما وصلا اليه من نقد وجنس فسلباه، وأكثرا هنالك شراً وفسادا، وأشبهافي ذلك تسعة رهط[3] ثمودا وعادا.

وكانت هذه أول شرارة شر وبدعة سقطت من سقط الزند، وبسطت يدها بالفتن بعد قبض تيمور ممالك سمرقند، لأن أهلها كانوا قد أمنوا الشرور، ووقوع الفتن في حياة تيمور، فحين دهمهم أولئك المفترون، أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، وذلك في شوال سنة سبع، وهو العام الذي خَلَا فيه من تيمور الربع، وما أمكن السلطان خليل، تدارك هذا الخطب الجليل.

ذكر من خلفه أَلله داد بأشبارة من الطوائف وما وقع بعده بينهم من التناكر والتخالف

وأما أمر من خلفه أَلله داد، في أشبارة من طوائف الأجناد، فإنهم خافوا من المغول حلول حينهم، فتحزبوا واختلف الأحزاب من بينهم، فمنهم فرقة قال قائلهم: أنا على عهدي قوي فلا أخون وأمين، وقد استمسكت يدي بعروة عهد مكين، وارتبطت

(١) القتاد : شجر له شوك.

(٢) النيزك : الرمح القصير.

(٣) من قول الله تعالى في سورة النمل الآية ٤٨ : « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ».

بحبل حلف فلا أصير من أهل الشمال باليمين، وأدنى ذلك أن نصبر حتى يصل من ألله داد رسول أو كتاب، وننظر ما يبين فيه من سلوك سنة فنميز بصائب نظرنا الخطأ في من ذلك الصواب، فإن وافق ذلك مرادنا امتثلنا ما يقول، واتبعنا في ذلك الكتاب والرسول، وتوجهنا في تلك الساعة، سالكين السنة مع الجماعة، وإن جالحنا[1] في كلامه بخطاب أجلح، عدلنا الى الاعتزال ومال كل منا في مصلحة نفسه الى القول بوجوب رعاية الأصلح.

ومنهم شيعة مالت إلى رفض تلك الدارة، والمبادرة إلى الخروج من أشبارة، وانتقلوا من تكرار هذه المجادلة الى القتال، وقطع رأس أحد رؤوس الخراسانيين في مصاف النزال.

ومنهم طائفة أهمتهم أنفسهم فلو يلبثوا إلا عشية أوضحاها، ثم تحملوا وخرجوا من المدينة وتركوا الدار تنعى من بناها، فلم يسع الباقين إلا اتباعهم في الخروج، لأن مقاماتهم من أول الزمان هناك كانت كبنيان القصور على الثلوج، فتحملوا بقضهم وقضيضهم، وتجهزوا بصحيحهم ومريضهم.

وتركوا البلد بما فيه من غلات ومستغلات، ونعم وخيرات، وأموال وأقمشة، ونفائس مدهشة، ولم يبق فيه من تلك الأمم المسجونة، سوى ما عجزوا عن حمله من أموال مشحونة، وسوى امرأة واحدة مجنونة، ولحقوا بألله داد، وهو عند خدايداد، فلم يعنف واحداً منهم بما فعل، واعتذر اليهم بأن خدايداد منعه أن يتوجه الى سمرقند ويجهز لهم البدل، وأمرهم بالاقامة معه مستوفزين، وأن يكونوا لفرصة التوجه الى سمرقند إذا لاحت منتهزين.

ذكر ما تم لألله داد مع خدايداد وكيف ختله وخلبه[2] واسترق عقله وسلبه

ثم إن خدايداد، تحقق بوقوع هذا الفساد، وتأكد العداوة بين خليل سلطان وألله

(١) المجالحة: المجاهرة بالأمر والمكاشفة بالعداوة والمكابرة.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ختله وخلبه.

داد، فركن اليه بعض الركون، وجعل يستشيره فيما يصير من أمره وما يكون، وكان عند خدايداد طائفة من مماليك الأجناد، وتخلفوا من العساكر في تلك البلاد، وقد ضيق عليهم المسالك، وأراد أن ينقلهم من مالك الى مالك فلم ينعم له ألله داد بذلك، وقال: إن عادة الأكياس، استجلاب خواطر الناس خصوصاً في مبادىء الأمور، وحدوث أوائل الشرور، فلا تنفر عنك الخلق وعاملهم أولاً بالاحسان والملق.

وأي فائدة من قتل هؤلاء وتمزيق أديمهم، سوى نفي الصداقة وتأكد العداوة بيننا وبين مخاديمهم، وربما يكون في خاطر أحد من مخاديمهم نفرة من خليل سلطان، ويروم لذلك ظهراً وملجأ يلوذ به من رفيق ومكان، فتلجئه الضرورة الى أن يقصد ممالك تركستان، فإذا آذيته في متعلقيه أنى يبقى له اليك ركون واطمئنان؟ وأقل ما تفعل مع هؤلاء يا إنسان، إمساك بمعروف أو تسريح باحسان، ومخاديم هؤلاء لنا رفقاء، ولخليل سلطان أصدقاء، فإن زرعت معهم الجميل، ملكت كل رقيق وجليل، وألقيت العداوة بين من عاداك من صديق وخليل.

فلما سمع كلامه، ألقى الى يده من ذلك الأمر زمامه، فأشار عليه، بسراحهم وإحسان اليهم في غدوهم ورواحهم، فزاد في نجاحهم، وراش محصوص[1] جناحهم وصرَّفهم بالعز في طريق مراحهم، فدارت بالسعد أفلاكهم، واجتمعت بهم أملاكهم ملاكهم.

ذكر ورود كتاب من خليل، فيه لفظ رقيق لحل أمر جليل

ثم إن وافد خليل سلطان وفد على ألله داد، يطلب منه السعي في لَمّ الشعث فيما وقع بينه وبين خدايداد، وأن يستعطف خاطره إلى الرضا، ويستقبل المودة ويعفو عما مضى، ومهما طلبه يتكفل به، ويعدّ قربه من أفضل قربه، ويكون هو السفير بينهما، وتقر بالصلح عينهما[2]، فتوجه ألله داد، الى خدايداد، أبلغه هذه الرسالة، وبيَّن له ما في هذا القول من رقيقة وجلالة[3].

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مقصوص.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ويقر بالصلح عنهما.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وجزالة.

وسبب العداوة التي كانت بين خليل سلطان، وخدايداد على ما ذكر أن خليل سلطان، كان في أوائل الزمان، مجاوراً لخدايداد، في تلك البلاد، وكان جده جعله ناظراً عليه، وفوض أمور تربيته اليه، وكان كزاً جافياً، وجلفا جاسيا، فكان يعامله بالفظاظة، ويقابله بالكثافة والغلاظة.

وكان خليل سلطان لطيف الذات، ظريف الصفات، نسيم أخلاقه لا يحمل من خدايداد زعازعه، وبرد مزاجه اللطيف لرقة حاشيته، لايثبت لمجاذبة المشاقة والمنازعة، فتولد من تلك القساوة بينهما العداوة، وسعت بينهما الوشاة، الى أن دس له مهلكاً فسقاه فكأنه أحسه، فتدارك نفسه، وتعاطى علاجه، وما يصلح مزاجه، فقضى الزمان أن نصل من تلك الداهية، فنجا منها وليتها كانت القاضية، وبقى فيه من ذلك أرج أورثه العرج، فصارت العداوة الخاصة عامة، وغدت هذه الفعلة لهذا المعلول علة تامة.

(فصل)

ثم إن أالله داد، حلف لخدايداد، الأيمان الغلاظ الشداد، وأكّد هذه الأيمان، بأن استصحب معه القرآن، وأشار اليه، ووضع يده عليه، وزاد تأكيداً بأيمان الطلاق، وبالالتزامات والنذور والعتاق، أنه لا يقبض عن طاعته يدا، ولا يستحيل عليه أبدا، وأنه إن توجه الى سمرقند يجهد في رأب ما انصدع، وردّ ما انفدع[1] ورتق ما بين الجانبين انفتق، ورقع ما في خواطرهما من الشحناء والعداوة انخرق، وأن يجهز له تومان إحدى نساء تيمور.

وحاصل الأمر أن تكفل بحسم مواد الشرور، وإصلاح الأمور، وإن عجز عن رفع الشنان، ومحو سطور العدوان، فإنه لا يستحيل عن مصادقة خدايداد في السر والاعلان، وصار يتملق ويترقق، ويتوصل بتمويهات زخارفه الى مجاري فكره ويتسلق ويشدد أيماناً ترجف القلوب وتصدع، بالله الواحد ويثنى بالطلاق الثلاث من زوجاته

(١) ورد في بعض النسخ: اندفع.

الأربع، وكان مخيمهم على ساحل سيحون ممتدا، وهو عن شاه رخية[1] نحو من بريدين بُعدا.

فعبر سهم ختله الى سويداء قلبه بمكر ودخل، وغربله إذ طحن معه ناعماً ما زرعه بيمينه في ساحله ونخل، إلى أن سمح باطلاقه، بعد تأكيد عهده وميثاقه، فرجع أالله داد الى وثاقه، واجتمع بحاشيته ورفاقه، وكانوا في شاه رخية، وأخبرهم بهذه القضية، وكان قد هيأ قبلَ ذلك أمره، وأخذ من كل جهة أسلحته وحذره، ثم إنه شمر الذيل، وقطع سيحون بالمراكب تحت جنح الليل.

ذكر لحوق أالله داد بخليل سلطان، وحلوله مكرما مُعَزَّزاً في الأوطان

وحين حصل على هذا الجانب، ولم يبق له في ذلك الجانب حاضر ولا غائب أمر في الحال، بعكم الأحمال، وشد الأثقال، وأخذ الأهبة، قبل النهبة، فأفرغوا عليهم سوابغ السلاح، وأذن بصلاة الرحيل قبل الفلاح[2] وقدَّم ضعفة أهله والأثقال أمامه، ونقض بهذا الأذان شروط الاقامة، وطير الى خليل سلطان يخبره بهذه الأخبار، وما جرى بينه وبين خدايداد وكان وصار، ويستمدّه باستقبال المدد، وارسال العَدَد (والعُدد)[3] لاحتمال أن خدايداد الأبله، يتفطن لغائلة هذه الفعلة فيخطر بباله ردّهم، ويرسل وراءهم من يصدّهم.

ثم ساروا كالسهم الصائب، وصاروا كالنجم الثاقب، فما أصبح لهم الصباح، إلا وقد ظهر لهم من السعد فلاح، وجازوا كل قاتم الأعماق خاوي المخترق، وقطعوا على أنوال المسير مما أسدته مطاياهم من مزهر الرياض ألوان الشفق، فواصلوا بالسير سراهم، فساروا نهارهم أجمع حتى غشيهم مساهم، وحين أخذ منهم اللغوب، وكَلَّ الراكب والمركوب، وسدلت عليهم عنقاء الظلام الجناح، عدل بهم الى بعض

(١) شاه رخية كانت تعرف باسم بناكت ثم خربها جنكيز خان ثم في أيام شاه رخ ابن تيمور أمر بتجديدها فسميت به شاه رخية، وكان بناؤها في عهده سنة ٨١٨ هـ (راجع بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٢٥).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الصباح.

(٣) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

وسبب العداوة التي كانت بين خليل سلطان، وخدايداد على ما ذكر أن خليل سلطان، كان في أوائل الزمان، مجاوراً لخدايداد، في تلك البلاد، وكان جده جعله ناظراً عليه، وفوض أمور تربيته اليه، وكان كزاً جافياً، وجلفا جاسيا، فكان يعامله بالفظاظة، ويقابله بالكثافة والغلاظة.

وكان خليل سلطان لطيف الذات، ظريف الصفات، نسيم أخلاقه لا يحمل من خدايداد زعازعه، وبرد مزاجه اللطيف لرقة حاشيته، لايثبت لمجاذبة المشاقة والمنازعة، فتولد من تلك القساوة بينهما العداوة، وسعت بينهما الوشاة، الى أن دس له مهلكاً فسقاه فكأنه أحسه، فتدارك نفسه، وتعاطى علاجه، وما يصلح مزاجه، فقضى الزمان أن نصل من تلك الداهية، فنجا منها وليتها كانت القاضية، وبقى فيه من ذلك أرج أورثه العرج، فصارت العداوة الخاصة عامة، وغدت هذه الفعلة لهذا المعلول علة تامة.

(فصل)

ثم إن أالله داد، حلف لخدايداد، الأيمان الغلاظ الشداد، وأكّد هذه الأيمان، بأن استصحب معه القرآن، وأشار اليه، ووضع يده عليه، وزاد تأكيداً بأيمان الطلاق، وبالالتزامات والنذور والعتاق، أنه لا يقبض عن طاعته يدا، ولا يستحيل عليه أبدا، وأنه إن توجه الى سمرقند يجهد في رأب ما انصدع، وردّ ما انفدع[1] ورتق ما بين الجانبين انفتق، ورقع ما في خواطرهما من الشحناء والعداوة انخرق، وأن يجهز له تومان إحدى نساء تيمور.

وحاصل الأمر أن تكفل بحسم مواد الشرور، وإصلاح الأمور، وإن عجز عن رفع الشنان، ومحو سطور العدوان، فإنه لا يستحيل عن مصادقة خدايداد في السر والاعلان، وصار يتملق ويترقق، ويتوصل بتمويهات زخارفه الى مجاري فكره ويتسلق ويشدد أيماناً ترجف القلوب وتصدع، بالله الواحد ويثنى بالطلاق الثلاث من زوجاته

(١) ورد في بعض النسخ: اندفع.

الأربع، وكان مخيمهم على ساحل سيحون ممتدا، وهو عن شاه رخية[1] نحو من بريدين بُعدا.

فعبر سهم ختله الى سويداء قلبه بمكر ودخل، وغربله إذ طحن معه ناعماً ما زرعه بيمينه في ساحله ونخل، إلى أن سمح باطلاقه، بعد تأكيد عهده وميثاقه، فرجع أالله داد الى وثاقه، واجتمع بحاشيته ورفاقه، وكانوا في شاه رخية، وأخبرهم بهذه القضية، وكان قد هيأ قبل ذلك أمره، وأخذ من كل جهة أسلحته وحذره، ثم إنه شمر الذيل، وقطع سيحون بالمراكب تحت جنح الليل.

ذكر لحوق أالله داد بخليل سلطان، وحلوله مكرما مُعَزَّزاً في الأوطان

وحين حصل على هذا الجانب، ولم يبق له في ذلك الجانب حاضر ولا غائب أمر في الحال، بعكم الأحمال، وشد الأثقال، وأخذ الأهبة، قبل النهبة، فأفرغوا عليهم سوابغ السلاح، وأذن بصلاة الرحيل قبل الفلاح[2] وقدَّم ضعفة أهله والأثقال أمامه، ونقض بهذا الأذان شروط الاقامة، وطير الى خليل سلطان يخبره بهذه الأخبار، وما جرى بينه وبين خدايداد وكان وصار، ويستمدّه باستقبال المدد، وارسال العَدَد (والعُدد)[3] لاحتمال أن خدايداد الأبله، يتفطن لغائلة هذه الفعلة فيخطر بباله ردّهم، ويرسل وراءهم من يصدّهم.

ثم ساروا كالسهم الصائب، وصاروا كالنجم الثاقب، فما أصبح لهم الصباح، إلا وقد ظهر لهم من السعد فلاح، وجازوا كل قاتم الأعماق خاوي المخترق، وقطعوا على أنوال المسير مما أسدته مطاياهم من مزهر الرياض ألوان الشفق، فواصلوا بالسير سراهم، فساروا نهارهم أجمع حتى غشيهم مساهم، وحين أخذ منهم اللغوب، وكَلَّ الراكب والمركوب، وسدلت عليهم عنقاء الظلام الجناح، عدل بهم الى بعض

(١) شاه رخية كانت تعرف باسم بناكت ثم خربها جنكيز خان ثم في أيام شاه رخ ابن تيمور أمر بتجديدها فسميت به شاه رخية، وكان بناؤها في عهده سنة ٨١٨ هـ (راجع بلدان الخلافة الشرقية ص ٥٢٥).

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الصباح.

(٣) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

البطاح، فحط عنه واستراح، ورسم أن (لا)[1] توقد نار، ولا يطمع أحد في طعم النوم بقرار، ولا يُشام في جفن طرف سيف ولا سيف طرف، ثم التهموا ما يسدّ الرمق وصلوا صلاة الخوف، فعبدوا الله على حرف، وأمهلوا ريثما قطعت الدواب العليق، ثم أمر فحملوا وركبوا متن الطريق.

ذكر تنبّه خدايداد، بأن أُلله داد خبل عقله بأنكال وأنكاد

ثم إن خدايداد تنبّه من رقدته، وارعوى من ليلته، وعلم أن أُلله داد خلبه نهاره ذلك وسحره، وكشف شمس عقله ولعب به في دست حلفه وقمره، فعضّ كما يعضّ الظالم على يديه، وعبى في الحال عسكراً جرارا وأنفذه اليه، فأسرعوا وراءه والتمسوا لقاءه، فلم يروا له عيناً ولا أثرا، ولاروا عنه من أحد حديثاً ولا خبراً، فلم يزالوا في طلبه حائرين دائرين، ثم غلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

ووصل أُلله داد الى مقصده، فوجد وظيفة الوزارة شاغرة فاستولى عليها بمفرده، إذ قبل دخوله كان شيخ نور الدين قد خرج، وشاه ملك وكل من رام العصيان كان قد دبّ ودرج، فابتهج بقدومه خليل سلطان، وقدمه كما كان، على سائر الوزراء والأركان، فتمكن أُلله داد كيف شاء، وتصرف في معاني الملك ببديع بيانه إخباراً وإنشاء، وتعاطى في الحال تمهيد الأمور، وتجهيز السرايا وحفظ الثغور، فتراجع أمر الناس وانضبط، وانتظم عقد الملك بعدما انفرط، واستقر حال الناس، وتمكنت القواعد على الأساس.

وكان هو وبزندق[2] وأرغون شاه وآخر يدعى كُجوك[3] يدبرون مصالح المملكة، ويسلكون بكل أحد مسلكه، ولكن أُلله داد هو الدستور الأعظم، والمشار اليه المفخم، وعليه مدار القبض والبسط، ونظام عقود الحل والربط، واستمر شيخ نور

(١) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق، ولا توجد في طبعتي القاهرة ١٢٨٥ هـ و ١٩٧٩.

(٢) في طبعة القاهرة ١٩٧٩ هـ : برندق، وقد أثبتنا ما ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : كجول.

الدين وخدايداد، يغيران على البلاد، ويزيدان في الشر والفساد، واستوليا على أطراف تركستان، وممالك تلك البلدان، منها سيرام وتاشكند، وأندكان وخجند، وشاه رخية وأترار وسغناق، وغير ذلك مما في تلك الأكناف والآفاق، فكانوا يقطعون سيحون، ويتوجهون الى ممالك ما وراء النهر ويغيرون، فتارة يتوجه اليهم خليل سلطان، وتارة يجهز لهم طوائف من الجند والأعوان، وعلى كل تقدير فإنهما كانا لا يثبتان، وينهزمان، وسيأتي ذكر ذلك كما كان.

ذكر ما وقع في توران، بعد موته من حوادث الزمان

وأما المغول، فإنه لما اتصل بهم خبر وفاة [1] ذلك المخذول، وكان بلغهم أنه قد صوب أحجار كيده الى هشم تلك الثغور، وفوق نبال قصده الى خرق تلك البطون والنحور، لم يشكوا في أن ذلك شرك مكيدة، وأحبولة مصيدة، فلم يقر لهم قرار، وتنادوا الفرار الفرار، وتشتتوا في البلاد، وتشبثوا بأذيال القلاع ورؤوس الأطواد، ولجئوا الى الحصون والجروف، وتماوتوا في قعر المغارات والكهوف، وكذلك كل ذي يمين من أهل الدشت والشمال، توزعوا في الأحقاف والرمال، وصار أهل المشرق والخطا والى حدود الصين ومن في ذلك الوجه يسرحون (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا اليه وهم يجمحون)[2]. والحق أنه كان في هيبته وعتوه، قد عرج إلى أن أهلك العالم شرقاً وغرباً بالأرج، وصار كما قيل:

تكاد قسيّه من غير رام ... تمكن في قلوبهم النبالا
تكاد سيوفه من غير سل ... تجد الى رقابهم استلالا
تكاد سوابق حملته تغنى ... عن الأقدار صونا وابتذالا

فلما ترادف هذا الخبر، وتكرر سمرقند[3] هذا السكر، واشتهر إسناده حتى ترقى من الآحاد الى التواتر، وتقرر هذا الحق عند كل أحد فلم يسع فيه جحود ولا تناكر، تراجع فؤاد كل الى جوفه، وتبدل أمناً من بعد خوفه، وتنادوا يا للثارات، وشرعوا في

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) سورة التوبة الآية ٥٧.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : بسمرقند. والقند: عسل قصب السكر.

شَنِّ الغارات، وقصد كل مستحق استرجاع حقه وكل مسترق لمسترق استفكاك رقه، فأول من نهض من الشرق المغول، وقصدوا أشبارة وآسي كول، وامتدوا في تلك البلاد، حتى جاوروا خدايداد، فهادنهم وصافاهم، وشرط لهم ردّ ما أخذه تيمور من مأواهم، وأن يكونوا يداً واحدة على من ناواهم، وأحسن كل منهم مع الآخر الجوار، وأطمأنت بواسطة هذا الصلح تلك الديار.

ذكر نهوض ايدكو بالتتار، وقصده ما وراء النهر وتلك الديار

ثم نهض من جهة الشمال ايدكو بعساكر كالرمال، وتوجه بحزم وجزم الى ممالك خوارزم، وكان نائبها يدعى موسيكا، فلما أحسَّ بالتتار، وخاف على نفسه البوار، أخذ أهله ومتعلقيه وسار، وذلك بعد أن هجمت التتار الرومية المضافة الى أرغون شاه، وعبروا جيحون وهو جمد. ورجع أرغون شاه الى مأواه، فوصل ايدكو الى خوارزم واستولى عليها، واستطرد بخيله بخارى فنهب ما حواليها.

ثم رجع إلى خوارزم وقد أذكى في الجغتاي اللهيب، وأنكى وولى من جهته في خوارزم وولاياتها شخصاً يدعى آنكا، فتمهدت أيضاً تلك الأماكن، واطمأنت الظواعن والسواكن، بواسطة أن خليل سلطان، قابل كل من أساء اليه بالاحسان، وصار يسترضي كل ساخط، ويستدني بمكارمه كل شاحط، ويصطاد النفوس بالنفائس، ويفترس الأسود بالفوارس، فأحبه الأجانب والأباعد، ورغب فيه كل صادر وارد، غير أن شيخ نور الدين، وخدايداد، تماديا في الفساد، ولجا في العناد، وخربا ما تجوذب بين الطرفين من البلاد.

ذكر بيرمحمد حفيد تيمور ووصيه، وما جرى بينه وبين خليله ووليه

ثم إن بير محمد ابن عم خليل سلطان، وهو الذي عهد اليه تيمور، كان بعد فوت[1] أخيه محمد سلطان، خرج من قندهار، وقصد سمرقند بعسكر جرار وأرسل الى خليل سلطان، وسائر الأكابر من الوزراء والأعيان، بأنه هو ولي العهد، وخليفة

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : موت.

جده تيمور من بعده، والسرير حقه فأنى يُغْصَبُه؟ والملك ملكه فكيف يسلبه؟ فكل منهم جاوبه، بما يليق بما[1] خاطبه.

وأما خليل سلطان فتصدى للمعارضة، وقابل كل مسألة من الخطاب بما ينافيها من المعاكسة والمناقضة، وقال: لا تخلو مسألتنا يا فلان، من أن الملك في هذا الزمان، إما أن يكون بالانتساب، أو يظفر به بطريق الاكتساب، فإن كانت الأولى، فثم من هو أحق به مني ومنك وأولى، وذلك أبي أميران شاه، وعمي شاه رخ أعني أخاه، فيكون بينهما بالسوية نصفين، فمالَكَ كلام مع وجود هذين، وأنا أولى أن أكون صاحبه، فأرعى جوانبه، وأسلك مذاهبه، إما بأن يقطع كل منهما عنى المشاغبة، ويترك لي ماله فيه ولاية المطالبة، ويقنع بما هو فيه من مملكته ويحفظ جانبه، وإما بأن يجعلني خليفته في سلطانه فأصون نصيبه ونائبه، وإن كانت الثانية فكلامك لا يستقيم، لأن الملك كما زعموا عقيم، ومن قبلي وقبلك قيل، في الأقاويل:

صونوا جيادكم واجلوا سلاحكم وشمروا إنها أيام من غلبا

وإن زعمت أن جدك عهد اليك، أو عوَّل في وصيته لك وعليك، فهو من أين استولى إلا بطريق التغلب، وأنى حصل له ملك وملك إلا بالاغتصاب والتألب؟ وعلى تقدير التسليم وأن أمر وصيته مستقيم، فإنه كان في حياته قسَّم بلاده، ووزع عليها أولاده وأحفاده، فولى والدي ممالك أذربيجان، وقرر عمي في ولايات خراسان، وابن عمي بير عمر في عراق العجم وتلك الديار، وولاك أنت من جملة ذلك قندهار، وجعلك وَصيَّه كما رسم وأشار، وتحمل هو المظالم وانتقل، فأين نصيبي أنا من هذا النفل[2] فاجعلوا حصتي من ذلك ما استوليت عليه، وليقنع كل منكم بما تقرر فيه وفوض اليه، ومع هذا إن تابعك أبي وعمي تابعتك، أو صادقاك على الوصية وبايعاك بايعتك، وإن سلكنا في ذلك طريق الحق، فالملك صيد والأولى به من حاز فيه قصب السبق، وإن الله أزاح علله إذ شبثني بأسبابه، وأباحه[3] لي مباحاً ومن سبقت يده الى مباح فهو أولى به.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وخاطبه.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الثقل، والنفل بفتحتين : الغنيمة.

(٣) ورد في بعض النسخ وأتاحه.

هذا وإن كلا من مدرسي فقه الملك تابعني، ومن له في عقود السلطنة شركة ترك المضاربة وطاوعني، وعدَّ عقد توليتي مرابحة ولما وقف على سيرى ألقى إلي السَلم وبايعني.

وأما الوزراء والأعيان فأجابوه بما لا طائل فيه، سوى ما تمجه أذن مستمعيه، غير أن الخواجة عبد الأول وهو صدر صدور العلماء، والمتصرف في رؤساء ما وراء النهر من السادات والكبراء، والمنفذ سهام أحكامه في جميع الأمراء والزعماء، أجاب فأجاد، وأصاب وأفاد، واختصر واقتصر، وهصر من بير محمد وخليل سلطان انتصر.

فقال في جوابه، مجاريه في خطابه: نعم أنت ولي العهد، وخليفة الأمير تيمور من بعد، ولكن ما صادف طالعك سعد، ولو ساعدك البخت، كنت قريباً من التخت، فالأولى بحالك أن تقنع بمالك ومالك، وتبقى على خيلك ورجالك، وتضبط ما في يدك من ممالك، وأن أبيت إلا طلب الثما، ولم تقنع بما قسم الله لك وقضى، وخرجت من مملكتك الى هذا الفضاء، فإنك تقع في العناء، وتخرج ولايتك من يدك فتصير مذبذبا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ذكر تجهيز خليل سلطان سلطان حسين لمناصرته وخروجه عن خليل سلطان وقبضه على أمرائه ومخالفته

ثم إن خليل سلطان لم يقنع بدقائق هذه الأقوال، وأردفها بحقائق الأفعال، وأمر بتجهيز جند مجند، الى استقبال بير محمد، وأضافهم الى ابن عمة والده السلطان حسين، وعين فيهم من أمراء الجغتاي كل رأس وعين، وضم اليه الظهور والأعضاد، ومنهم كجوك وأرغون شاه وأالله داد، فساروا سابغي العُدة، كاملي العِدة وذلك في سنة سبع منتصف ذي القعدة، فعبروا جيحون إلى بلخ وخيموا في ضواحيها، وانبثوا في أقطارها ونواحيها.

وبينما هم مرفهو الحال، فارغو البال، قريروالعين، تمارض السلطان حسين، ثم إنه دعا الأمراء، ليقرر معهم فيما هو بصدده الآراء، وقد أكمن لهم كميناً، وأرصد لهم

الرجال شمالا ويمينا، وحين ولجوا خيسه، ودخلوا كيسه، وثب عليهم وثوب الليث على الفريسة، وأغرى بهم أسوده فوقعوا فيهم وقوع الجياع على الهريسة، ثم نادى من معه من الرفاق: ضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق.

وكان كما ذكر ذا طيش وشجاعة، وتهور ورقاعة، وصولة وجولة، يسبق فعله قوله، فأهريق في تلك الساعة، دم واحد من تلك الجماعة، يدعى خواجة يوسف وكان في حياة تيمور، نائب الغيبة بسمرقند وهو أمير مشهور، ففي الحال قتل، والى الدار الآخرة نقل، ثم استقل لنفسه بدعوى السلطنة، ودعا الخلائق من هاهنا ومن هنه، فدهشت أولئك الرءوس، وعلموا أنه قد حَلَّ بهم النقم والبؤس.

ذكر خداع أالله داد سلطان حسين وتلافيه تلافه بالمكر والمين

غير أن الله داد ثبت جأشه المزءود[1]، واستحضر تلك الساعة عقله المفقود، فابتدر سلطان حسين مناديا، واستثبته في أمرهم مناجياً، وقال له بعبارة فصيحة: إنّ لي اليك نصيحة، ثم استخلاه وقال: أنا كنت مترقباَ منك هذه الفعال، ومترصداً منك إظهار ما أنت بصدده، ومن أين لخليل سلطان أن يحتوي على الملك بمفرده.

غير أن هيبة مولانا كانت باسطة، ولم يكن بينه وبين الملوك واسطة مباسطة، ولو كان عندي من ذلك أدنى شعور، لرتبت المصالح على ما تقتضيه الأوامر الكريمة والأمور، ثم إن الخاطر الكريم يشهد بصدق هذا الحديث وإني عبدك من قديم وسَلّ من كان من المماليك والأجناد، الذين كانوا محصورين في أسر خدايداد، من خلصهم من حبائل أسره، وأنقذهم من ضرام ضره، وأطفأ عنهم ماالتهب من شرار شره، إذ لولا أنا لكان أبادهم، وأيتم أولادهم، وفجع بهم طريفهم وتلادهم، فإنك إن تَسلْهم يخبروك، وعلى حقيقة الأمر وجلية الحال يظهروك، وربما أخبروك بذلك لما أتوك، ومع هذا اسْتَفْتِ قلبك وإن أفتوك وأفتوك.

ولا زال يطفىء بماء خزعبلاته شواظ تفرعنه ولهيبه، ويذكي في خياشم رعونته عنبر

١) المزءود: المذعور.

احتياله متمسكاً بمسكنة[1] وطيبة، ويرمي عن قوس ختله الى سويداء خيالاته[2] نبال مكر أنفذت فيه نصال القضاء والقدر لأنها كانت مصيبه، فأشرب مكره، وتبع أمره، وجعله ظهره، واستقدح في أموره فكره.

ثم إنه بعد أن امتنّ عليه باستبقائه، استشاره في قتل رفقائه، فقال له: لا شك أن خليل سلطان، ملك الناس بالانعام والاحسان، وهو وإن كان في الشجاعة، قاصر اليد قليل البضاعة، لكن استعبد أبطال الرجال، بحسن الخلق وبذل الأموال، غير أن المال بمعرض الفناء والزوال، وأنت بحمد الله مآثرك مشهورة، ومنازل منازلاتك (لإبطال)[3] الأبطال معمورة، ورايات كسرك قرون الأقران على جبين الكباش منشورة، ورءوس مناطحاتك ثيران الوغى على قرون الزمان أبدا منصورة.

قلت:

فكم لزرت شجاعا في البراز فمذ رأى محياك ولى ضارطا وجرى
(مذ كنت رأساً وعينا في الحروب أرى في رأسك الفتح بل في عينك الظفرا)[4]

وأنا أعلم أن عامة الجند سيبتهج بطلعتك، ويرقص فؤاده لحصول سكونه فرحاً بحركتك، فإنه لا بد لهم من رأس يسوسهم، وضابط همام تصان بتدبيره نفائسهم ونفوسهم، وقرم كالليث الخادر والسيل الهامر، بل كالبحر الغامر، منصور إن دعا وإن دعى فناصر، موصوف بما قال الشاعر:

أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا رأى[5] إلا للشجاع المُدَبِّر

وبما قال:

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

وهل ثم في هذا العصر موصوف بهذه الصفات إلا أنت، وما النجدة والكرم والحسب والنسب إلا راحل حيث ما رحلت، وساكن أينما سكنت، ولو حدَّث شاه

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: بمسكه وطيبه.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: اختبالاته.
(٣) لم ترد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(٤) لم ترد في بعض النسخ.
(٥) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: ولا عزم إلا للشجاع المدبر.

ملك وشيخ نور الدين، أن وراءهما منك الحصن الحصين، لأسندا اليك رواية ذلك السند السديد، ولأويا من جنابك العالي إلى ركن شديد.

وحاصل الأمر أنك مولى الكل وجميعهم لك عبيد، وإذا كان الأمر كذلك فقد ملكتهم، فسواء عندك أبقيت عليهم أو أبدتهم، ولكن الابقاء أولى، ولازالت العبيد تترقب مراحم المولى، فإن اقتضى الرأي السعيد، أن نكون كلنا موثقين في الحديد، مع زيادة قيد أيمان أكيد، فرأيه أعلى، واتباع ما يقتضيه أحرى وأولى، فاقتفى رأيه، واتخذه علماً لأموره ورأيه، فاستتبعه لحينه، وقال اسلك ورايه.

ذكر أخذ سلطان حسين على الأمراء الميثاق، ومشيه على خليل سلطان وهم معه في الايثاق

ثم إنه أحضر الأمراء، وهم في قبضة سطوته أسراء، وقد ناوح كل من متعلقيهم مهب ناحية، وتوجه الى دار كل المخبرون فقامت عليهم النائحة والناعية، وأوثقهم بقيدي الحديد والأيمان، أن يكونوا معه في السراء والضراء على خليل سلطان، فَمدَّ كل منهم الى القيد رجله والى اليمين يده، وعاهده على ما يختار وأن يقدم له نفسه وأهله وماله وولده، فحين استوثق منهم، أزاح بالأماني السوء عنهم، وتركهم موثقين في البند، ونكص قاصداً سمرقند، وأرسل الى خليل سلطان يخبره بما دبّ من أمره ودرج، فليستعد لمبارزته فهاهو قد عبر جيحون وخرج، وأنه هو أيضاً طالب من ملك خاله حصته ومنازع خليل سلطان في السرير منصته.

تبريز خليل سلطان من سمرقنده لملاقاة سلطان حسين بطوائف جنده، ورجوع سلطان حسين مما يرومه بخفي حُنين

فاستعد له خليل سلطان، وخرج من سمرقند لاستقباله في أسرع زمان، ثم إن السلطان حسين أحضر أللّه داد، ومن معه من الشياطين المقرنين في الأصفاد، واستأنف عليهم العهود، وأكد عليهم قيود العقود، وأحل كلا منهم محله، وأجاز عقده وحله، وخلع عليه وأجازه، واحترم حرم حقيقته ومجازه، وبشّ بأنعامه إلى متعلقيهم وهش، وسار بهم حتى وصل إلى مدينة الكش.

وأللّه داد كان، قبل ذلك بزمان، أرسل الى خليل سلطان، يخبره بوقوع هذا الهمّ، وما جرى عليهم من شرور وما تم، ثم قال له: إن فألك سعيد، وأمرك حميد، فانهض برأي رشيد، وعزم سديد، وجَنان[1] حديد، فإن ضدك مصيد، والله تعالى ناصرك قريباً غير بعيد، فلا تخف (من كيد مكيد)[2]، وإن كنت طفلا فإنك فتى شبت أهواء القلوب بنسمات محبتك فصرت شيخ السلطنة وكل الأنام لك مريد.

فوصل خليل سلطان، إلى ذلك المكان، فعبى السلطان حسين جيشه، واستعمل تهوره وطيشه، وجعل أللّه داد على الميمنة، ورفيقيه على الميسرة، ولما تراءى الجمعان، وتدانى الزحفان، وحقت الحقائق، وسدت المضايق، وتعادت الأسود والفرانق[3]، بادر كل منهم من مكانه، وقصد كل من أللّه داد وأقرانه، عساكر خليل سلطانه، فتخبطت عساكر السلطان حسين، وسلب ثوب عزه فنبذ بالعراء ملتحفاً من ظنونه ثوبي خيبة ومين[4] ودهمه من البلاء ما أنساه سلبه فرجع بخفي حنين، ومر على وجهه قاطع الفلاة، حتى وصل ابن خاله شاه رخ صاحب هراة، فلم تطل له عنده مدة، فاما سقاه مهلكاً وإما مات حتف أنفه عنده، فكان ذلك آخر العهد بسلطان حسين، ورجع خليل سلطان الى دار ملكه قرير العين.

بقية ما جرى لبير محمد مما قصده من فرح وهمٍّ وكيف آل ذلك الى وبال وحزن فنقص وما تم[5]

ثم إن بير محمد تمادى في خروجه، واستمر يرتع في روض الطلب ومروجه، وتكررت بينهما دروس المراسلة، وتحررت مسائلهما[6] بعد مطاولة المقاولة، أن ينزلوا منازل المنازلة، ويحلوا بروج المقابلة والمقاتلة، وكان متولى أمور ديوانه، ومشيد قواعد

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وجناحي.
(٢) لا توجد في بعض النسخ.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الغرانق.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وحين.
(٥) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فنقض وما تم.
(٦) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مسائلها.

ملكه وسلطانه، شخصاً يدعى بير علي تاز، حامي حقيقة باب الملك وحارس المجاز، سرة بطحاء مملكته، وقطب سماء دائرته، وقدوة علماء عوالمه، وقوة خوافي عسكره وقوادمه.

فجرد من عساكر قندهار، كل طود لو مال على الفند هار[1] وتوجه بعزم أمضى من البتار، وحزم أنفذ من الخطار، قائداً ذلك الخضم الهدَّار والسيل الثرثار، والغمام المدرار، حتى وصل الى جيحون فوقف منه التيار، ثم أمر ذلك البحر العجاج، أن يركب من جيحون الأثباج، ويصادم منه ملاطم الأمواج، فمرج الله البحرين (هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج[2]) فمخروا منه بسفنهم النحر، وجاوزوه مجاوزة بني اسرائيل البحر، وسار بذلك الأخشب، حتى أرسى على ضواحي نخشب.

ذكر مقابلة العساكر الخليلية، جنود قندهار بصدق نية، والقائهم بهزيمتهم اياهم في شرّ بلية

وكان قبل ذلك خليل سلطان، قد نجز أمره كما كان، ونفث أعطار مندل الايثار، وقوى العزائم على الملوك بالاستحضار، ليجنوا من أشجار الجرايات وثمار الادرار، ما يستعدون به لملاقاة شياطين قندهار، فلبى دعوته العام والخاص، وكل بناء من عفاريت الجنود وغواص.

واجتمع من أعيان أولئك الأعوان، كل مطيع مقتطف ثمر إحسان ذلك البستان من إنس وجان، وجاء ذلك البحر أفواج أمواج العساكر من كل مكان، وهم بين رؤس الجغتاي والجتا، كل فرعون من بلاد تركستان قد علا وعتا وفوارس فارس والعراق ورستمدار، وجان قربانية خراسان والهنود والتتار، ومن كان تيمور، أعده لمضايق الأمور، ولم يفارقه في سفر ولا حضر، وأرصده لكل نائبة من خير وشر.

فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون

فاستأنف عليهم فواتح الفتوح، واستنخب منهم لما دهاه كل صديق نصوح،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : على قندهار هار، والفند بالكسر الجبل العظيم.
(٢) سورة فاطر الآية ١٢.

وأسبغ عليهم من دروع عطاياه السابغات، وضاعف على قامة أملهم من خلع انعامه المضاعفات، ففتحت عليهم الأرض خزائنها، وصبت عليهم من معادنها، وفلزاتها ظاهرها وكامنها، فصار كل راجل منهم وفارس، وقد تجلى فيما تحلى به من تلك النفائس، يزري بحسن هيبته على مخدرات العرائس.

فساروا ونسمات النصر من أنفسهم فائحة، ولمعات الفتح من بوارق بيارقهم لائحة، والسبع المثاني لأبواب النجح والفتوح في وجوههم فاتحة، ولا زال ذلك الراسي يرسي[1] ويمشي، حتى حط على ضواحي قرشي، هي المدينة المذكورة، فاستقرت تلك العساكر المنصورة، وذلك يوم الأحد مستهل شهر رمضان، سنة ثمانمائة وثمان، فبات كل من ذينك البحرين وقد ضم ذيله، وكف عن التبذر والتبدد سيله، وحفظ من الأغيار رحله وخيله، وأحيا في معتكف المراقبة الى الصباح ليله.

قلت:

إلى أن بدا لمع الضيا في ظلامه يلوح كموج الماء من سجف طحلب

ولما سَلَّ الفجر صارمه الفضي وأبرز إبريز ترسه، ومسح على لوح الجو ما طرسه مسوّد الليل من دخان نقشه، تهيأ كل من أولئك الأطواد للاصطدام، واشتعلت في قلوب تلك القبائل نار الحمية للاصطلاء والاصطدام، فعبى كل عسكره، ما بين ميمنة وميسرة، ومقدمة ومؤخرة، ثم تدانوا وتكانوا، وتعاونوا وتعانوا وتراجزوا وتغانوا، وتعانقوا وتهانوا، وتناجزوا، وتفانوا، والتقت الرجال بالرجال والخيل بالخيل، وارتفع ظلام القتام على رؤس الأسنة فرأوا في صلاة الظهر نجوم الليل، وجرى في ذلك القسطل[2] من كل قناة عيون السيل.

ثم عند منتصف النهار، انكشف الغبار، عن أن طود قندهار هار، وسعد أولئك الكبار بار، وعليهم غبار العثار ثار، وخبرهم بالانكسار سار، وصيت خليل سلطان الى الأقطار طار، والى الآفاق بالانتصار صار، فولى بير محمد وعلى رأسه بحر الدمار مار، وفي قلبه زناد البوار وار، حتى كأن في قلبه جمر الغضا والغار غار، أو في

(١) ورد في بعض النسخ: يمسي.
(٢) القسطل: الغبار.

كبده نار لهيب المرخ[1] والعفار فار، وجندلت رجاله، وأبطلت أبطاله، ونهبت أثقاله، وتحولت أحواله، وسبى حريمه وعبيده وسلب طريفه وتليده، وتشبث هو بأذيال الهزيمة، وعلم أن إيابه سالماً نصف الغنيمة، كما قيل:

إيابك سالماً نصف الغنيمة وكل الغنم في النفس السليمة

ورجع خليل سلطان، وقد استنار به الكون والمكان، واستقرت[2] دولته، واستطارت صولته، وشكر الله المليك، وأتم صيام رمضان في مكان يسمى جكدليك.

ذكر خروج عسكر العراق على خليل سلطان، ومجاهرتهم بالخروج وقصدهم الأوطان

ثم في ليلة غرة شوال، خرج من العراقيين الرءوس والأبطال، ومعهم حريمهم وأتباعهم، وأولادهم، وأشياعهم، وكبيرهم شخص يدعى حاجي باشا، وهم جارون تحت أمره كيفما شا، وكانوا ذوي صولة وجولة، وصحبتهم السلطان علاء الدولة، ابن السلطان أحمد البغدادي لصلبه، وكان قد وقع في أسر تيمور فرهنه[3] في سجن محنته وكربه فأفرج عنه خليل سلطان، وجعله عنده ذا مكانة ومكان، فبينا الناس مشغولون بأمور العيد، رفع أيديهم أولئك الصناديد، وكأنه كان تقدم لهم بذلك مواعيد.

فخرجوا تحت جنح الليل وشمروا نحو عرائس العراق الذيل، وطلقوا مخدّرات ما وراء النهر ومالوا عنها كل الميل، لأنهم كانوا قد سمعوا أن دار العراق أنزلت بانيها، ومياه أنهر سلطنتها عادت الى مجاريها، فلم يقف أحد أمامهم ولا مشى خلفهم، ولا قدر على أن يربط عن السير رجلهم وكفّهم، فقطعوا جيحون ووصلوا الى خراسان، فتصدى لهم كل من سمع بهم من كل مكان، فانفرط نظامهم لعدم اتفاقهم،

(١) المرخ: شجر سريع الورى.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وأسفرت.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فسجنه.

فتقطعوا في البلاد قبل وصولهم الى عراقهم، وأين إيران من توران، ودجلة من جيحان، فَعيَّد خليل سلطان في ذلك المكان، ثم ألوى راجعاً الى الأوطان.

ذكر ما فعله بير محمد بعد انكساره، وما صنعه بعد وصوله الى قندهاره

ولما وصل بير محمد الى قندهار، واستقرت به الدار، وتلملمت أموره، وحامت حول قصوره صقوره، ودارت من سيارات عسكره بدورِه بدورُه، تسعرت سمومه وحروره، وتطاير شراره وشروره، فتأرق وقرق، وتحرق أسفاً قلبه وتخرق، وتمزق غيظاً أديمه وتفرق، وكان ذا حماقة، وقلة لباقة، فطير أجنحة مراسيمه، إلى سكان أقاليمه، واستنهض على خليل سلطان كل حبيب صحيح الود وكليمه، واستطبَّ لجريح قلبه كل قريح الطعن والضرب وكل لديغ القلب وسليمه.

فلبوا دعوته بالاطاعة، وأجابوا نداءه بالسمع والطاعة، ثم سالت الأودية والجبال، بالخيل والرجال، وأرسل الى خليل يقول، ضمن كتاب مع رسول: إن أول مصافنا كان فلتة فتمت، وشرارة تسوهل في إطفائها فالتهبت وطمت، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، وتحذرت ما استحقرت، واستكبرت ما استصغرت، لانتصرت وما انكسرت، ولعثرت على مرادي وما عثرت، ولكن أضعت الحزامة، فحرمت السلامة، وتناولت أمرك برءوس الأنامل فأكلت يدي ندامة، مع أن صليبة[1] جندك، وقوة ظهرك وعضدك، ونبال نبالتك وساعد سعدك، وغضب غضبك، ورمح رشدك، وحدّ صارمك، وصرامة حدك، إنما كان رءوس العراق، وما حصل لك منهم من الاتفاق، وأما الآن فقد وقع منهم نفاق، واتفق لك منهم عدم اتفاق، وظهر تباعد وشقاق، ففت لذلك كبدك، واختل فكرك وجندك، وهأنا قد جئتك بجدّ جديد، وبالحد والحديد، فاستعد للقاء، وتيقن عدم البقاء، فإن الحرب كما علمت سجال، وكما أديل لك علينا بالأمس فإن غداً لنا عليك يدال.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: صلابة.

ذكر توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان ثاني كرّة، وما حصل عليه في ذلك من كرّة وفرّة، وتوليته الدبر كما بدا أول مرة

ثم توجه بتلك الجنود والأعوان، وقطع جيحون ووصل الى مكان يسمى حصار شادمان، فتوجه اليه خليل سلطان، ومعه من عساكر الرجال والفرسان، وجراد الجيش وقمله وضفادعه ما يجري من الدم الطوفان، فمرَّ بتلك الأطواد والبحار، وسرى وهو ما بين رأس وسار، حتى وافى جنود قندهار، وكان كما ذكر من قبل، قد قدح في حُراق أحشاء العساكر القندهارية من خوف نار الخليل زناد النبل، فكانوا ملسوعين والملسوع يخاف من جرّ الحبل، فقبل أن يزعق النفير ويضرب الطبل، نفر من كل فرقة منهم طائفة، وتنادوا (أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة)[1].

فألبس بير محمد خلعة الخلع، ولم يكن له بها طوق فأقلع الى القلعة القلع، وأوصد الأبواب وأحكم الأسوار، واستعد في حصار شادمان للحصار، فأحاط به من العساكر كل جارح وكاسر، ودار عليه من بني يافث كل سام وحام، وَجَدَّ في المحاصرة منهم كل طاعن وضارب ورام، فتندم بير محمد على ما قصد في ذلك وتعمد، وتذكر ما قال له أول مرة، الخواجه عبد الأول، لكنه اعتذر، بالقضاء والقدر، فرماه القضاء بسهم جواب، أجاد فيه وأصاب، وقال:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فانعكس منه كل رأي وفال، وتغير عليه كل أمر وحال، وذهب عنه منعطفاً ما بيده من ملك ومال، ونفر عنه كل أسد أصلى للحرب ناراً حامية لما سطا على (كل)[2] حام وصال، ورجع عنه لسوء تدبيره كل ذي قرابة حين لمع له بالأماني الكاذبة كل سراب وآل، وتمزقت شقق تدبيره على منوال تفكيره سدى ولُحمة فلم يبق له من دون الله وال.

(١) سورة النجم الآية: ٥٧ ــ ٥٨.

(٢) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

ذكر ما صنعه بير محمد من حيلة، عادت عليه بأفكاره الوبيلة، لأن جدواها كانت قليلة

ولما عدم حوله، أخذ في إعمال الحيلة، فاستدعى عدّة مضبوطة، من الجلود المخطوطة[1] المجادة الدباغ، المصبوغة بألوان الأصباغ، ثم فصلها لبوسا، لكل بُوسى، وسمر عليها المرايا المصقولة، وبعض صفاح معمولة، وَمَوَّهَها وأحكمها بالمسامير، وأحضر من سوقة بلده رءوس الجماهير، واستكثر الرعاع والهمج الجموع، ثم أحضر تلك الدلاص والدروع، ووزع على تلك الرءوس والظهور هاتيك النطوع، فصار كلما صارت الشمس بازغة، أصعد الى الأسوار، وخارج البلد تلك الأسود وعليهم تلك الدروع السابغة.

فإذا رآهم الناظر من بعيد، توهمهم رجالاً ولم يعلم أنهم بندق العيد، وإذا تراءى ذلك الهباء، والخيثعور الذي ملأ الفضاء، كان (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء)[2]. واستمر على ذلك مدة يقاسي المعاناة ويعاني الشدة، وكان الذي (تعاطى)[3] هذا المكر الجلي، دستور مملكته أعني بير علي، ومع ذلك كله لم تنفعه هذه الحيلة، وعادت عليه أفكاره الوخيمة، ووساوسه الوبيلة، وانكشف سره، وانهتك ستره، فضاق ذرعاً وقصر منه باع المجال، ومد بنقص عَدَده وعُدده وزاده الدهر النكال.

ذكر اعتراف بير محمد أنه ظلم، وطلبه الصلح والقائه السلم

فبسط بساط التضرع، وطلب وسائط التشفع، وعلم أنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، فناشد خليل سلطان الله والرحم، وقال معنى ما قلت:

يعطي الكريم ولا يمل من العطا والعفو شيمته إذا وقع الخطا

فأجاب خليل سلطان مقاصده، وتأكدت من الطرفين معاقدة المعاهدة، بأن لا

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: المخطوطة، والحط: صقل الجلد ونقشه.

(٢) سورة النور، الآية ٣٩.

(٣) لا توجد في بعض النسخ.

يقصد أحد منهم بلاد صاحبه، وإذا كان الله تعالى رفعه فلا يضع من جانبه، ويسلم اليه ما في يده، ويبقى على الود والصداقة في يومه وغده، ثم تحالفا أن لا يتخالفا، وتواثقا أن يتوافقا، وتصادقا أن يتصادقا، وتفارقا على أن يترافقا، وتوافقا على أن لا يتنافقا، وراقبا الال[1] والذمة، وراعيا القرابة والحرمة، وانشمر كل عن صاحبه بما معه من فئة. وذلك سنة تسع وثمانمائة.

ذكر مخالفة ونكد، وقعت بين بير علي وبير محمد، أزاحت ثوب الحياة عنهما، وأراحت مخالفيهما منهما

ولما وصل بير محمد الى وطنه، واستقر بين خدمه[2] وسكنه، خرج عليه بير علي تاز، واستقل بدعوى الملك وامتاز، ثم قبض عليه وكبله، ثم إنه خذله وجدّله، وشرع يقول، وهو يصول ويجول: أمور الدنيا اضطربت، وأشراط الساعة اقتربت، وهذه دولة الدجالين، وأوان تغلّب الكذابين والمحتالين، مضى تيمور وهو الدجال الأعرج، وهذا زمان الدجال الأقرع، وسيأتي بعد هذا الدجال الأعور[3].

(١) الإل. العهد والقرابة (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة..).

(٢) ورد في بعض النسخ: خدنه.

(٣) يقول الرسول ﷺ: (ما بين خلق آدم الى قيام الساعة: خلق أكبر من الدجال). وفي رواية (أمر أكبر من الدجال) أخرجه أبو داود، وإسناده صحيح. يقول العلامة علي القاري في « المرقاة شرح المشكاة » ٥: ١٩٥ (قد تبين لنا بأخبار الصادق المصدوق صلوات الله تعالى وسلامه عليه أن الدجال يبعث معه من المشتبهات ويفيض على يديه من التمويهات: ما يسلب عن ذوي العقول عقولهم، ويخطف من ذوي الأبصار أبصارهم، فمن ذلك تسخير الشياطين له، ومجيئه بجنة ونار، وإحياء الميت على ما يدعيه وتقويته على من يريد إضلاله تارة بالمطر والعشب وتارة بالأزمة والجدب، ثم لاخفاء إنه أسحر الناس، فلم يستقم لنا تأويل هذا القول إلا أن نقول: أنه يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم حتى يخيل اليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة: اسفار بلا ظلام، وصباح بلا مساء، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه، وان الشمس لا تطوي عنهم ضياءها، فيبقون في حيرة والتباس من امتداد الزمان، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل والنهار..).

وإن كان أحد يجزع من قرع باب السلطنة فأنا أقرع، فلم يجب أحد من الرءوس والأذناب سؤاله، ولا أنعم له بما أقر عينه وأنعم باله، إذ لم يوجد في تناول هذا الأمر المحظور أمر مبيح[1]، ولم يكن لذلك الوغد[2] في سهام الملك غير المنيح والسفيح، فدعا أرباب ممالكها تضرعاً وخيفة، فكشَّر كل في وجهه أنيابه وجاذبه هذه الجيفة، فلم يبق له قرار ولا ثبات، فسلَّ يده ومدَّ رجله صوب صاحب هراة، فبمجرد وقوعه عنده في شرك الاقتناص، قبض عليه وأجرى عليه أحكام القصاص، وَصَفَتْ له ممالك قندهار، من غير مضارب ولا مضار، واستراح خليل سلطان أيضاً من الأنكاد والمضار.

ذكر ما وقع من حوادث الزمان في غيبة خليل سلطان

وفي هذه السنة بادرت بالهجوم، تتار الروم، وواصلوا العزم، وقطعوا جيحون بالرجل وهو جمد من خوارزم، وقصدوا بلادهم، فتصدى لهم من كل جانب من شتتهم وأبادهم، وحصل لهم من عدم الاتفاق، ما حصل لعساكر العراق، وأيضاً في غيبة السلطان خليل، واشتغاله بهذا السفر الطويل، اغتنم الفرصة خدايداد وشيخ نور الدين، فتوجهوا إلى سمرقند مطمئنين، وأخنوا عليها، ونهبوا ما حواليها، فتحصنت منهم، وترفعت عنهم، فنهبوا خارجها ورجعوا، ونحو بلادهم انقلعوا.

ذكر تجريد خليل سلطان الأجناد، وتوجهه الى شيخ نور الدين وخدايداد

ولما رجع خليل الى سمرقنده، أراح طوائف عسكره وجنده، ثم دعا أصحابه، ووجَّه نحوهما ركابه، وهيأ أنصاره وأطلابه[3]، وسار بتلك القبائل المضطرمة، والأسود

وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: ذكر الدجال بين ظهراني الناس، فقال: (إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافئة) أخرجه مسلم.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: إذ لم يوجد في تناول هذا الأمر المحظور من مبيح.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الوعد.

(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: وجعل دأبهما ودأبه.

الحوادر والفحول المغتلمة، واستمر ذلك الطود الركون بين حركة وسكون، حتى وصل إلى سيحون، وحين شرع ذلك الطور، والنار ذات النور، على نهر سيحون في العبور، رأيت البحر المسجور، فأذعن له شاه رخية وخجند، وتحصنت منه تاشكند، فتوجه لحصارها، وعزم على هدم أحجارها، فبعد أن حاصرها مدة، وأذاقها لباس الجوع والشدة، لجأت إلى طلب الأمان، وسلمت اليه قياد الاذعان، فأجاب سؤالها، ورقح بالصلح حالها، ثم قفى آثارهما، طالباً دمارهما.

ذكر ايقاد شيخ نور الدين وخدايداد، ناراً للخليل ليحرقاه، فأطفأها الله تعالى ووقاه

وكان خدايداد وشيخ نور الدين يحومان حول الحمى، ويترقبان من فرص النهب والسلب معانى عسى ولعلما، فتوجه وراءهما، ورام لقاءهما، فجعلا يرحلان بمرأى منه ومسمع، وينزلان بمأمل فيهما ومطمع، وجعل يقتفيهما[1] في كل منزل، فإذا رَحَلا يتبع قفاهما[2] وينزل، وكان خليل سلطان معتمداً على عسكره، مستيقناً بحلول نصره وظفره.

فكأنه في بعض الليالي غفل عن التحرس، وكان لهم في جيشه من دأبه التجسس والتحسس، فَخَيَّبه الظن وخانه، وحطَّ على مكان يسمى شرابخانه، وكان قد تقدم على الثقل، فطار جاسوسهما اليهما بما فعل، فأقبلا كالسيل، وَبَيَّتاه بالليل، فجرح[3] من عسكره جماعة، وكأنما قامت القيامة في تلك الساعة، ثم تركاه وردّا، وفرَّا عنه ونذّا، وتشتتا في المهامِهْ والموامي، ومن أين للسلطان اقتناص الحرامي؟ فَكَفَّ عنهما عنان الطلب، وقصد بالسلامة دياره وانقلب.

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: وجعل يعقبهما.

(٢) ورد في بعض النسخ: قفارهما.

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فخرج. وفي المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: فحرج.

ذكر مفارقة شيخ نور الدين خدايداد، وتقاسمهما تلك البلاد

ولما كانت مودة خدايداد وشيخ نور الدين كالجرة الفخار، وأساس ما بينهما من الصداقة كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار، اختلفا وما ائتلفا، وتجاذبا شقة الشقاق، ونفق في تبايعهما بضائع النفاق (ولم يعلم أحد من راق، وظن أنه الفراق)[1] فقهقر شيخ نور الدين نحو سغناق، واستولى على تلك الأطراف والآفاق.

ذكر رجوع شيخ نور الدين الى الاعتذار، والتنصل عند خليله مما كان منه وصار

ثم أرسل شيخ نور الدين الى خليل سلطان، واعتذر عما صدر منه من العصيان، وطلب منه أن يقابل إساءته بالاحسان، ويرجع اليه عوائد صدقاته كما كان، فأجابه إلى سؤاله وأسبل على سوءة جرمه ذيل النسيان، وأرسل إليه امرأة جدّه تُومان.

(**فصل**) ولم يزل على الوفاق، وشق شقة الشقاق، مرتبقاً ربقة الرفاق[2]، حتى وقع خليل سلطان في الرباق، وصفا لشاه رخ (ملك)[3] سمرقند وراق، توجه اليه شاه ملك مظهراً الصلح ومضمراً النفاق، واستنزله بالمكر من قلعة سغناق، بعد أن أحكما العهد والميثاق، ووقع بينهما الاتفاق، أن يتلاقيا ركبانا، ويتباثا الأشواق، بعد السلام والاستلام[4] والعناق.

وكان في جماعة شاه ملك شخص يدعى أُرغوداق، ثم أقبل شاه ملك بجماعته، ونزل شيخ نور الدين من قلعته، وسار شاه ملك وحده، من غير عدة وعدة، وتعانق هو وذلك المغرور، وبثّه ما نابه في غيبته من أمور، وسرور وشرور، فأكد عليه الميثاق

(١) لا توجد في بعض النسخ.
(٢) ورد في بعض النسخ: الوفاق.
(٣) لا توجد في بعض النسخ.
(٤) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: الاستسلام.

والعهد، ووصى كل منهما ما يفعل الآخر من بعد، ثم ودعه وانصرف واتصل بجماعته ووقف، وسارع كل من جماعته بمفرده، إلى مصافحة شيخ نور الدين وتقبيل يده، حتى أفضت النوبة الى أرغوداق، فتوجه بما أضمره من الخداع والنفاق، وكان في الشجاعة أسداً، وكالفيل قوة وجسدا، فوصل اليه، وقبّل يديه، ثم التزمه عناقا، وأحكمه اعتناقا، فاقتلعه من سرجه، وأهبط نجمه من برجه، وقطع رأسه، وفَجع به ناسه.

ولما سمع بذلك شاه رخ طفق يندب ويصرخ، ولعن شاه ملك ونهره، وضرب أرغوداق وشهره، لكن ما أمكنه وصل ما قطعاه، ولا غرس ما قلعاه، كما قيل:

ـــ وليس لما تطوى المنية ناشر ـــ

واستمر مدة لا ينظر اليهما، ثم بعد ذلك رضي عليهما، واستمر خدايداد متشبثاً بأذيال العناد، مشركاً[1] بين العتو والفساد، غير مُسلم الى الصلح القياد، الى أن أباره الدهر وأباد، وسنذكر كيف جاد بإعدامه وأجاد.

ذكر أمر خليل سلطان ببناء ترمذ التي خربها جنكير خان، وتجهيزه العساكر لهذا الشأن

ثم في شهر صفر سنة عشر وثمانمائة، أرسل خليل سلطان من الجنود فئة، وأضافهم الى أَلله داد، وضم اليهم من رءوس الأجناد الياس خواجة وابن قماري منصور، وتوكل قرقرا ودولت تيمور، الى ترمذ مع آخرين، ليعمروها فاستمروا سائرين، حتى وصلوا الى ترمذ، فجمعوا في الحال احتياجاتهم من الأحجار والأخشاب والقرمد، ثم تقاسمت تلك الرءوس أبدانها، وعلوا عن أن يتسوروا قلة أسوارها وحيطانها، وجعلوا يعملون ولا يلبثون، ويبنون بكل ريع منها آية يعبثون، وتركوا بالنهار أكلاً وبالليل نوماً، فأتموا بنيانها في نحو خمسة عشر يوما، وحين ميزوا محلاتها وفرزوا دروبها وطرقاتها، ورفعوا أعلام مساجدها ومناراتها وبينوا[2] مواضع أسواقها وأبياتها، أمروا الباقين من ذرية النازحين عنها من أهلها، وكل من رحل من خراب

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: مشتركاً.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وبنوا.

وَعَرها الى عمران سهلها ، أن يرجعوا اليها ، ويخيموا عليها ، وكان أولئك المساكين ، قد استوطنوا منها البساتين ، وبنوا فيها أسواقهم وبيوتهم ، وجمعوا فيها أسباب معايشهم وقوتهم ، واستمر ذلك من وقت جنكير خان ، الى وقت تيمور كوركان ، فكانوا في وطنهم آمنين ، وعن حركات الانزعاج والتقلقل ساكنين .

فلما مات تيمور ، وحدث شرور وأمور ، أراد خليل سلطان أن يصونهم ، فأرسل من شيد حصونهم ، وكانت الجديدة عن العتيقة نحواً من فرسخ ، فصارت العتيقة أحصن من الجديدة وأرسخ ، لا سيما وقد علا البانون منارها ، ونهر جيحون يصافح أقدام طود حمل[1] أسوارها ، بخلاف الجديدة ، فان قصور مساكنها غير مشيدة ، وهي عن النهر بعيدة فلما نادوا الناس أن ادخلوا إلى دار قراركم ، فكأنهم كتبوا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ، فلم يثقل الله داد عليهم ، ولا كرب في ذلك ولا التفت إليهم ، ولم يظهر في ذلك عنادا ، ولكنه حشر فنادى ، أن كل من سبقت يده من أهل البلد ، إلى شيىء من هذه الأماكن والعمائر الجدد ، فهو له من غير منازع ، ولا ممانع ولا مدافع .

ثم أمر بانتقال الخبازين والقصابين ، والطباخين والسمانين ، وميز لهم منزلهم ومأواهم ، ولم يتعرض لمن سواهم ، فجعلوا يبيعون على العساكر ويشترون ، ويربحون في ذلك ولا يخسرون ، فاختل نظام سائر الجمع ، إذ الانسان مدني بالطبع ، فألجأهم الاضطرار ، أن يتبعوهم بالاختيار ، فتفقد ما يليق به أحوال كل من كبيرهم وصغيرهم ، وقرر على ما اقتضته أوامره قواعد أمورهم[2] ، ثم جمع رءوس جنده ، وقفل إلى سمرقنده .

ذكر ما فعله شاه رخ من جهة خراسان ، في مقابلة ما فعله خليل سلطان

ولما سمع شاه رخ بما فعله خليل سلطان ، جَهَّزَ طائفة من عساكر خراسان ، وجعل يمد ذلك السحاب المنجاب ، من بحر أمر أمير يُدعى مرزاب ، وهو أخو جهان شاه ، الذي كان تيمور على محاصرة قلعة دمشق ولَّاه ، وأمر رءوس تلك

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : جبل .

(٢) ورد في بعض النسخ : أجورهم .

الجنود ، أن يبنوا قلعة تسمى حصن الهنود ، وهي من أقصى بلاد خراسان ، يفصل بينها وبين ترمذ نهر جيحان ، ففعلت من البناء العساكر الخراسانية ، نحو ما أعربت عنه العساكر الخليلية السلطانية ، وفي أثناء مدة البناء ، تراسل الله داد ومرزاب وتصافيا ، وتواصلا بالاحتشام والاحترام وتهاديا .

إشارة إلى ما حدث في أقاليم إيران ، وما جرى من سيول الدماء عند نضوب ذلك الطوفان

ثم إن السلطان أحمد وقرا يوسف رجعا إلى العراق ، ووقع بينهما على سياسة الملك الاتفاق ، واستقر السلطان أحمد في بغداد ، ووثب قرا يوسف على الجغتاي بالعناد ، ليستخلص منهم (ما استولوا عليه من)[1] بلاد ، وكتب الفتح على راياته آيات نصر من الله ، فاستخلص ممالك أذربيجان بعد أن أباد طوائفهم وقتل أميران شاه .

ومد عنان الكلام ، في استيفاء هذا المقام ، يخرجنا عما نحن بصدده من المرام (إلى أن وقع بينهما الشقاق ، وتخبطت أذربيجان والعراق ، ثم قتل قرا يوسف السلطان أحمد باشارة بسطام ، وذلك في شهور سنة ثلاث عشرة وثمانمائة من هجرة النبي عليه السلام[2])

وأما عراق العجم ، فانها كانت أحصن أجم ، فاستقل بدعوى الملك متوليها بير عمر ، فنهض عليه ذو قرابة له يدعى اسكندر ، فقابله[3] وكسره ، ثم قبض عليه وهصره ، واستقل بدعواه ، فتوجه إليه شاه رخ صاحب هراه ، فقبض عليه وأباده ، وفجع به أهله وأولاده ، واستصفى بلاده ، فخلصت لشاه رخ ممالك العجم كلها ، وانثال إلى خزائنه من أموالها وابلها وطلها ، من غير أن يعاني في ذلك نصبا ، أو يقاسي في تحصيله تعباً ووصبا .

مع أن مملكته كانت أوسط الممالك ، فلم يتطرق له أحد بسوء لذلك ، وأنه كان حسن الجوار قليل الحركة ، وأبوه قد حسم عنه بقتله ملوك العجم مادة

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) لا توجد في بعض النسخ .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : فقاتله .

(كل[1]) شر وهلكه ، فثبت في مكانه بين أسود شمخت ونبت ، وكبت ماله من أعداء بماله من أصدقاء وثبت ، فاهتزت أراضي دولته بنبات الثبات وربت ، وكأن عيون السَّعد كانت تراقبه ، وعرائس الملك تناجيه وتخاطبه ، بقوله :

نزه فؤادك عن سوانا والقنا فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

ذكر خروج الناس من الحصر ، وطلبهم أوطانهم مما وراء النهر

وفي أثناء هذه الحالات ، قصد الناس من سمرقند التبدد والشتات ، وطلب كل غريب وطنه ، وتحرك يبغي سكنه وقطنه ، إما باجازة واحتا ، وإما بهزيمة واختفا ، فأول من استجاز من أهل الشام ورام المسير : شهاب الدين أحمد بن الشهيد لوزير ، ثم تفرقت الطوائف عجماً وعرباً وتبددوا في الآفاق شرقا وغربا ، ووقع في سمرقند القحط وغلاء الأسعار ، ولم يرخص بين الناس سوى الدرهم والدينار ، ثم حصل بعد ذلك الرفاهية ، واجتمع للناس الرخاء والامنية ، وطاب الزمان ، وحصل الأمان ، وذهب المقت ، وصفا الوقت :

ـــ وعند صفو الليالي يحدث الكدر ـــ

.كر ما أثار الزمان الغدار ، من دمار وبوار ، ألقى به الخليل في النار

وكان خليل سلطان ، تزوَّج بشاد ملك زوج سيف الدين الأمير ، وملكه سلطان هواها فكان فيه كالأسير ، فمال بكل جوانحه إليها ، بحيث أنه قصر نظره عليها ، وصارت محبته كل يوم تزداد ، وأنست قصته قضية قيس وليلى وشيرين وفرهاد ، فكان كما قيل :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاهاكي تزول صبابتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يهدا الذي به إلى أن يرى الروحين يجتمعان

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .

واستمر ذلك إلى أن ران هواها على قلبه ، وأخذ بمجامع لبه ، وربط جوارحه ، وحل جوانحه ، وفصل قميصاً واسعاً فكانا يلبسانه ، واتحدا فصار ينطق بلسانها وتنطق بلسانه ، وصارا ينشدان ، وإلى حالهما يرشدان :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

بل كانت القضية بالعكس :

قلت :

إنما كان بروح نفخت مذ براها ربها في بدنين

فكان لا يصدر أمراً إلا عن رأيها ، ولا يستضيء في سياسة الملك إلا بآرائها[1] فسلمها قياده ، واتبع مرادها مراده وهذا من غاية البله والعته ، وكيف يفلح من ملك قياده امرأة[2] وكان لها خادم قديم ، ليس من بني الأحرار ولا بكريم ، بل كان من أطراف الناس ، يبيع في أول أمره البز والكرباس ، يدعى بابا ترمش ، بطرف معمش ، ووجه منمش ، وصورة قبيحة ، وسيرة غير مليحة ، وكان يتقاضى حوائجها ويدخل عليها ، قبل وصول خليل سلطان إليها .

فلما وصلت مخدومته إلى ما وصلت ، وحصلت لها المرتبة التي لغيرها ما حصلت ، ارتفعت درجة خدمها ، وزادت حشمة حشمها ، فاستفاد بابا ترمش من إضافته إليها التعظيم ، وبحسب كرامة المخدوم يحصل للخادم التكريم ، فصار يرأس جماعتها ويسوسهم ، وبمجالستها تحلى بخلعة (هم القوم لا يشقى جليسهم) ثم ترقى حتى صار عليه مدار أمرها ، ثم تخطت قدمه إلى التكلم في أسباب الملك وغيرها ، ثم تدرج إلى فصل المحاكمات الديوانية ، وإجراء القضايا السلطانية ، ثم ترفع إلى التولية والعزل ، وتعاطي ذلك على سبيل الجد لا الهزل[3] ، وانتهى في ذلك ، فصار دستور الممالك ، ولم يقدر أحد على رد كلمته ، لحدة شوكته بقوة مخدومته ، فبسط يده ولسانه كما اختار ، وامتثل كل أحد ما أمر به وأشار ، واستطال على ألله داد وأرغون شاه ، فصار يبرم ما ينقضانه وينقض ما أبرماه ، وبلغ في قلة الأدب إلى أن

١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : إلا بنور ذكائها .
٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : امرأته .
٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : على سبيل الجد والهزل .

كان يمد رجله بحضرتهما ، ولا يقوم بذرة من واجب حرمتهما ، ثم حجز أن لا تفصل قضية إلا بمشورته ، وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو يتوجه إلى حضرته .

ومن حين نبغ ، إلى أن بلغ ما بلغ ، كان نحواً من ثلاث سنين ، وعفاريت الجغتاي وجنهم لابثون (معه[1]) في العذاب المهين ، فحصل لألله داد وأرغون شاه من هذا التدرج ، غاية التضرر ونهاية التحرج ، وبلغا الغاية في الاهانة والنكاية ، وأعضل داؤهما ، وأعجز دواؤهما ، واستلذا ذهاب العيش وزواله ، على البقاء في هذه الحالة .

ذكر ما افتكره ألله داد ، ودبره في مراسلة خدايداد

ثم إن ألله داد استعمل فكره ، ولكن أخطأت استه الحفرة ، فطبخ قدراً فانقلبت عليه ، ونسج كدود القز شبكة حتفه بيديه .

قلت :

إذا انعكس الزمان على لبيب يُحسن رأيه ما كان قبحا
يعاني كل أمر ليس يعنى ويفسد ما رآه الناس صلحا

فلم يجدا لتبريد الأكباد ، إلا مراسلة خدايداد ، فجليا عليه صورة هذه البلية ، وأخبراه بها عن وضوح وجلية ، وأشارا عليه أن يتوجه بأمل فسيح ، ويقصد بعساكره سمرقند وخاطره مستريح ، فنهض من ساعته ، وتوجه بجيشه وجماعته ، ودب دبيب الدبى ، فوصل إلى مكان يدعى أُوراتبا ، فلما سمع بذلك خليل سلطان ، أرسل إلى الجنود والأعوان ، وتعجب من وقاحته ، وتعوذ من كلاحته ، وجهز ألله داد وأرغون شاه ، مع العساكر الجرارة للملاقاة .

فسارا حتى دانياه ، فقابلاه وما قاتلاه ، ثم أرسلا إلى خليل سلطان ، يستدعيان المدد ويقولان : إن هذا الرجل بلغ من ملاحاته ، وشدة دعارته وقلة مبالاته ، أنه لم يتزعزع من مناخه ، ولا دخل ريح هيبتنا في صماخه ، فأمدهما بباقي العسكر ، وجعل يتشوف لما يكون من الخبر ، فأرسلا أيضاً أن هذا ، قد آذى ، وزاد فسادا ،

(١) لا توجد في بعض النسخ .

وجارى في عدوانه ثمودا وعادا ، فأمدّنا بنفسك ، وأدركنا بحدسك وحسك ، فان هيبتك أقوى ، وطلعتك أضوى ، وما ارتكب هذه الجرأة ، ولا أقدم على هذه الجيئة ، إلا وقد أضمر شراً كبيراً ، وطوى في باطنه قاراً وقيراً ، فأدركنا بباقي المقاتلة ، فان هذه المرة تكون الفاصلة .

فخرج خليل سلطان بقلب مطمئن ، وخاطر عن حلول الحوادث مستكن ، وأمل فسح ، وصدر منشرح ،معجباً بشبابه ، مغرماً بأصحابه ، متمايلاً بين أحبابه ، متهاديا بين أترابه ، في شرذمة قليلة ، وطائفة نبيلة ، أبعد ما عنده نزول هم ، وأشرد ما لديه حلول نكد وغم ، يُفدّيه الكمال ، وينادِيه لسان الجمال[1] بقوله :

تِه دلالا فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا

فوصل بتلك العصابة السلطانية ، إلى قصبة تسمى سلطانية ، فأرسل ألله داد ، إلى خدايداد أن الركاب السلطاني ، خرج من سمرقند في اليوم الفلاني ، وفي الساعة الفلانية ، يحل كورة سلطانية .

ذكر ما قصده خدايداد من الكيد ، ووقوع خليل سلطان في قنص الصيد

فقصد خدايداد المخاتلة ، وترك ثقله مقابل المقاتلة ، ونبذ العساكر وراء ظهره ، وتأبط شر شرارة ، وهراوة هره ، واستصحب من أبطال القتال ، ورجال النضال والنزال ، طائفة ، جاسرة غير خائفة .

رَزان إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدّوا قليل إذا عُدّوا

والتحف ذيل الليل ، ولطأ بظهر الخيل ، واستطرق إلى مطلوبه طريقاً عوجاً ، واستقود إلى مقصوده قوّاد الدجى ، كما قيل :

لا تلق إلا بليل من تواصله فالشمس نمامة والليل قواد

حتى وصل إلى سلطانية ، وهي قصبة أنشأها تيمور ، ولم يكن لأحد به شعور ،

(١) ورد في بعض النسخ : لسان الحال .

فلم يفجأ خليل سلطان ، إلا وقد جاءه موج البلاء من كل مكان ، فنهض كل من معه من الأصحاب ، وأخذوا في الحرب والطعن والضراب ، وقاتلوا قتال الموت ، وأيقنوا حلول الفوت ، فعضت عليهم الحرب العضوض ، وطرحتهم ما بين مهشوم وموقوذ ومرضوض ، فقتل حقيرهم وجليلهم ، ووقع في نار عدوهم حبيبهم وخليلهم ، ثم رجع خدايداد إلى معسكره ، فائزاً بنجحه مستبشراً بظفره .

(**فصل**) ثم إن خدايداد حلف لخليل سلطان ، بأشد ما يكون وأبلغ من أنواع الأيمان أنه لا يقصده بأذى ، ولا يرمي في عين معيشته بخيال قذى ، ولا يؤذيه بقول ولا عمل ، ولا يسلط عليه من يؤذيه بمكر ودخل ، وسيرى نتيجة ما حلف ، وأن الله تعالى عفا عما سلف .

(**فصل**) ثم التمس منه أن يرسل إلى أالله داد ، فمن دونه من الأجناد ، أن يستسلموا لخدايداد ، وأرسل خدايداد أيضاً إلى الناس ، بأني قد استوليت منكم على الراس ، فان أطعتموني أطعته ، وإن لم تصلوني قطعته .

ولما وقع خليل سلطان بهذا الكرب ، تصور أن هذا سهم غرب ، ثم ظهر له مكان ذلك المكمن ، وتحقق كيف أخذ في المأمن ، وعلم من أين صُبَّ ذلك البلاء عليه ، وأنى أخذ من ذلك الجانب الذى يأمن إليه ، فقال بلسان الحال :

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ولا بينه ودّ ولا نتعارف
فما سامنا خسفاً ولا شفنا أذى من الناس إلا من نودّ ونألف[1]

ثم أرسل إلى سائر الأمراء، ورؤساء الجيش والوزراء ، أن يستسلموا لخدايداد ولا ينازعوه ، ولا يدافعوه فيما يريد ولا يمانعوه ، فاستسلم الكل إليه ، واستقبل ذراه وسلم عليه ، فاستولى على تلك الجنود المجندة ، وتحصن من غوائل المخاتلة بالرماح المسددة والسيوف المهندة ، وقدم جنود جند وخجند ، وأغتام تركستان وطغام أوزجند ، وآخر من سوى أولئك وتقدم إلى سمرقند ، ولم يلتفت إلى أالله داد فمن دونه ، وتحقق أالله داد أن صفقته في ذلك مغبونه ، فسلخ الزمان عنه ما كان ألبسه من ثوب عز وسلب ، وفرّ من بين يديه ما كان فيه من جاه ومال وذهب ، وكان قيام ذلك الحشر ، في سنة ثمانمائة واثنتى عشر .

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ونعرف .

ذكر ما جرى من الفساد بسمرقند عند قدوم خدايداد

فوصل خدايداد الى سمرقند ودخل ، فتغيرت تلك الرسوم والدول ، وكأنه ظهر اختلاف الملل والنحل ، وكان له ابن يدعى أالله داد ، فدعاه بالسلطان على رءوس الاشهاد ، وتفحص عن مكامن الخزائن ، ونقب في أطوادها عن الفلزات والمعادن ، ونقر عن مضمرات الضمار وبحث عن الخبايا والدفائن ، وتغيرت الأوضاع ، وتبدلت بالفظاظة رقاق الطباع ، وصاروا كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

وتنكرت الصفات حتى كأنما تحولت الذوات ، أو بدلت الأرض غير الأرض والسموات :

وتنكرت أرض الغوير فلم يكن ذاك الغوير ولا النقا ذاك النقا

ذكر بلوغ هذه الأمور شاه رخ بن تيمور ، وتلافيه تلك الحوادث وحسمه مادة هذه العوابث

ولما اتصل بشاه رخ هذا الخبر عبس وبسر ، وتضجر وزمجر ، وازور (وازبأر ، وكشر)[1] واكفهر ، وتغير وجهه وتمعر واستغاث وتقلق ، وولول واسترجع وحولق[2] ، وتحرق وتنكد وتأوه وأنشد :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم طير بطائق مراسيمه كل مطير ، الى أطراف ممالكه بجمع العسكر ، وأمر شاه ملك ، أن يسير غير مرتبك ، ويستديم السير ، ويسابق بعتاقه عتاق الطير ، فيتدارك ما انفرط من النظام ، ويطارد عن ورد المملكة الاغتام الطغام ، فلا يدع رائدهم أن يحل ، ويعاجل مستعجل قدرهم أن يمل .

(١) من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وحوقل .

فسار[1] شاه ملك في الحال، بعساكره في المدد كالجبال، وفي العدد كالرمال، ثم اتبعه شاه رخ بسائر الأساورة، وكواسر الأكاسرة، وسار لا يلوي على أحد، ولا يسكن في حركته الى طالع ولا رصد، فحين وصلوا جيحون وعبروه، غطوا وجهه وستروه، فانبسط ذلك السيل على وجه الماء، فكأن البحر غطى بالغمام المتراكب وغرق في بحر الحياء.

(**فصل**) ولما قطع البحر تلك الأطواد، واتصل الخبر بخدايداد، تيقن أنه لا طاقة لدبابه[2] وقروده، بذئاب جنود شاه رخ وأسوده، وأن جُلّ عساكره يفرّ عنه ويسلمه، أو يقبض عليه ولشاه رخ يسلمه، فأسرع في تنجيز مآربه، وبادر الى تجهيز مطالبه، وأخذ ما وصلت يده اليه من أموال، وأوسق ما بلغت طاقته من نفائس وأحمال، واستصحب خليل سلطان، وتوجه الى أندكان، وأودع أللّه داد وأرغون شاه وبابا ترمش في القلعة، وأنف أن يستصحب أحداً منهم معه، وترك شاد ملك أيضاً في المدينة، بفراق خليلها رهينة، وبسلب ما كانت فيه من العز مهينة.

ذكر ما جرى بسمرقند بعد خروج الجنود الجندية وقبل وصول الشواهين الشاه رخية

ثم لما رحل خدايداد وانفصل، ولم يكن أحد من جهة شاه رخ وصل، وما كان للناس، ظهر ولا راس، أراد أللّه داد وأرغون شاه، أن يتوجها إلى شاه رخ ويستقبلاه، فرفع خواجة عبد الأول عليهما يده، وأقام لمنعهما عن الخروج من القلعة رصده، واستعان بشطار المدينة، وكان أللّه داد قبل ذلك أنكاه نكاية أورثته ضغينة.

ـــ من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً ـــ

فلم يختلف في رياسته اثنان، ولا انتطح فيما يأمرهم به عنزان، وصارت إشارته الآمرة الناهية، وجداول مراسيمه فيما بين الناس جارية، وأوامره المطاعة في تلك الأيام الخالية.

(١) أثبتنا ما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق، وقد ورد في طبعتي القاهرة ١٢٨٥ هـ و ١٩٧٩ م : فصار.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : ذبابه.

ـــ والعلم يرفع كل من لم يرفع ـــ[1]

ولم يزل خواجه عبد الأول يسوس الرعية، ويوصي على أللّه داد ورفيقيه ومن معهم ويشدد مضايق القضية، إلى أن طلعت طلائع شاه ملك وأعقبتها العساكر الشاه رخية.

ذكر بدور (بُدور)[2] الدولة الشاه رخية، في سماء ممالك ما وراء النهر بعد غروب شمس النوبة الخليلية

فخرج أهل المدينة لاستقباله، مستبشرين برؤية جبين هلاله، فنزل كل أحد في منزلته، ووضع كلا من الناس في مرتبته، ثم قبض على أللّه داد ورفيقيه وعاقبهم بأنواع العقاب، وصنف في تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم أنواع العذاب، ثم قتلهم صبراً ونقلهم من الدنيا إلى الأخرى، إلا بابا ترمش فإنهم عاقبوه، وبأنواع العذاب ألهبوه، ففي بعض الأيام، وقد أنكت فيه من العذاب الآلام، أخذ الموكلين عليه ليطلعهم على قضية، أو يذهب بهم الى خبية، فمروا به وهو في قيد وثيق، على حوض ماء عريض عميق، فاستل من قراب أيديهم عضب يده الدلق، ورمى بنفسه (وزج)[3] في ذلك الماء على غفلة فغرق.

(**فصل**) ثم إن شاه رخ زار أباه، وأقام شرائط عزاه، وجدد ترتيب القراء على تربته والقومة، واستأنف معالم المرتبين في ذلك والخدمة، ونقل الى خزائنه جل ما كان على حفرته، من أقمشته وأمتعته وأسلحته، وعفر بيادر الخزائن، وحفر تخوم تلك الكمائن، وشرع في تمهيد القواعد، وترتيب مراتب الأقارب والأباعد.

(**فصل**) وقبضوا على شاد ملك وأهانوها، وشانوها ابتذالاً لمن صانوها، وعصبوها بالعذاب عصب السَّلَمة، وهزوها لاستخراج الأموال منها هزات أعوان الظلمة، ثم بعد ذلك الابتذال، واستخلاصهم منها أنواع الأموال، حزموها وشددوا

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : العلم يرفع بيتاً لا عماد له.

(٢) أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق. ولا توجد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م.

(٣) لا توجد في بعض النسخ. وفي طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وزخّ.

منها الوثاق، وشهروها منادين عليها في الأسواق، واستقرت على شاه رخ الأمور، وارتفعت صدور وانقصمت ظهور، وعلا إنسان وانحط انسان، فسبحان من هو كل يوم في شان، عَزَّ شانه، وتعالى سلطانه، يُغيِّر الدول، ويقلب الأحوال، ولا يعتري سلطانه تغير ولا انتقال.

ذكر ما قصده خدايداد من إتمام النكد والفساد وكيف آل ذلك الى النكال الى أن جرى عليه الوبال

وأما خدايداد فحين حَلَّ في مكانه، وخلا بخليل سلطانه في أندكانه، جدد معه عهوده ومواثقه، أنه آمنه مكره وبوائقه، وذكر أن ذلك النكال والنكاد، إنما فعله معه أرغون شاه وأللّه داد، مع إحسانه اليهم، واسبال ذيل إنعامه عليهم، وأنهم كافئوه مكافأة التمساح، وقابلوا بإفساده منهم الاصلاح.

ثم قال: اذكر صنيعك معي أولاً وظاهراً وانظر ما أفعله معك باطناً وآخراً، وسأفعل معك ما يتحقق به خلوص الطوية، وصدق النية، بحيث يذهب الكدر ويبقى الصفا، وينمحي الجفا ويثبت الوفا، ونعيش باقي عمرنا متصافين، وفي رياض الهنا متوافيين متكافئين (فنمحو بما نكتب[1] في ألواح صدورنا من المحبة والشفقة مساطير الأساطير المكتتبة في باب الحمامة المطوقة)[2] وسأردك إن شاء الله تعالى إلى دار عزتك، وأجتهد في تحصيل ما يعيدك الى نشاطك وهزتك، ثم خطب باسمه في أندكان، وأمر بذلك في أطراف تركستان.

تتمة ما جرى من خليل وخدايداد من المعاقدات، وتأكيد العهود والمودات، إلى أن أدركهما هادم اللذات

ثم تأكدت[3] بينهما وثائق الأيمان، وذهب خدايداد يستمد المغول لخليل

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : نكبت .
(٢) لا توجد في بعض النسخ .
(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وأكدا .

سلطان، وترك خليل سلطان بأندكان، وكان المغول، لما بلغهم موت تيمور المخذول، سلبوا قرارهم، وأخلوا ديارهم، ولجأوا الى الحصون، وتشبثوا بأذيال كل كهف مصون، كما ذكر أولاً، فلما تحققوا موته، واستثبتوا فوته، تنادوا بالأمن والأمان، وجاوروا خدايداد في ذلك المكان، وأرسلوا يهنئون خليل سلطان، وبعثوا اليه هدايا سنية، وتحفا فاخرة ملوكية، من جملتها كرسي من ذهب، أفرغه صائغه في قالب العجب، فأكرم خليل سلطان رسلهم، وأعظم نزلهم، وأجمل معهم جواراً وأجراً، وجازاهم بكل حسنة عشراً:

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ولا زالت خلع المودة بينهم تنتسج، ووجوه المكارمة والمحاشمة يوماً فيوماً تبتهج حتى عرى له ما عرى، وجرى عليه من بحر القضاء والقدر ما جرى، فساعة وصول خدايداد اليهم قبضوا عليه وأرسلوا الى خليل سلطان ينهون صورة الحال اليه.

وقالوا: تعلم ما بيننا وبينك من خالص الوداد، وإنا عالمون بما وقع بينك وبين خدايداد، وأنه كان السبب في تبددك، وخروج ملكك من يدك وقد جاء يستمدنا لك، فارسم لنا ما بدا لك، فإن رسمت قتلناه وإن أشرت أمددناه، وفي الجملة مهما أمرتنا به امتثلناه.

فأرسل يقول: قد علمتم كيف آذاني، ومزق عرضي وأخزاني، وأخرجني من ملكي وسلطاني، وغرّبني عن أهلي وإخواني، وأذلني إذ رأسني[1] بمفارقة حبي وأوطاني، والان فقد جعلني ترساً، يتقي بي الحوادث والبأسا، وقد عرفتم كيف يريد أن يتصرف، وعلى كل حال فالعارف لا يُعرّف، ومع هذا مهما رأيتم في ذلك من المصلحة فافعلوه، ففي الحال قطعوا رأسه واليه أرسلوه.

ذكر عود خليل سلطان من ممالك أندكان، وقصده عمه شاه رخ، ولعبه بالنفس مع ذلك بالرخ

واستمر خليل سلطان، في ذلك المكان، وأطراف تركستان، يرسل بالفارسي

(١) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : داسني .

الأشعار الفراقية، وينشىء في حبيبته ما ينسي القصائد الزيدونية[1]، ويذكر ما هو فيه من الغربة، وما جرى عليه من الفراق والكربة، فيصدع بذلك القلوب ويفتت الأكباد، إلى أن ملَّ المقام في تلك البلاد، فنفض منها ذيله وضم رجله وخيله، وقصد عمه، وركب الطريق وأمّه، فأكرم عمه مثواه، ولم يذكر له أخبار ما أنشاه، وضم إليه حبيبته، ولَمّ الى خليل خليلته، وقرر قاعدة ذلك الاقليم وشيده، وولى فيه أولوغ بك ولده.

وقفل الى خراسان، مستصحباً معه خليل سلطان، ثم ولاه ممالك الري، فلم يقم بها إلا أدنى شي، وانتقل إلى رحمة الله، وكأن عمه دسَّ له شيئاً فسقاه، فدفن بمدينة الري، وطوى نشر ذلك الحاتم أي طي، وحين وقعت شاد ملك في هذا الخطب الجليل، واشتعلت أحشاؤها بنار الخليل، قالت: لا ذقت فقدك، ولا عشت بعدك، وأنَّت ورنَّت، وأنشدت وغنّت:

كنت السواد لمقلتـــي ... فبكى[2] عليك الناظـــر
من شاء[3] بعدك فليمت ... فعليك كنت أحـــاذر

ثم أخذت خنجراً فوضعته في لبتها، واتكأت عليه بقوتها، فنفذ من قفاها، وأحرقت بنارها كل من رآها، فدفنا في قبر واحد، وأمسى لسان حالهما ينشد:

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وصفا لشاه رخ ممالك ما وراء النهر وخراسان، وخوارزم وجرجان، وعراق العجم ومازندران، وقندهار والهند وكرمان، وجميع بلاد العجم والى حدود أذربيجان، والى يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة، ونسأل الله تعالى حسن العاقبة بمنّه ولطفه، والحمد لله رب العالمين، (وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم)[4].

(فصل) في صفات تيمور البديعة وما جُبل عليه من سجية وطبيعة

وكان تيمور طويل النجاد، رفيع العماد، ذا قامة شاهقة، كأنه من بقايا

(١) إشارة للشاعر الأندلسي ابن زيدون.
(٢) وردت في بعض النسخ: فبقى.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: عاش.
(٤) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

العمالقة، عظيم الجبهة والراس، شديد القوة والباس، عجيب الكون، أبيض اللون، مشربا بحمرة، غير مشوب بسمرة، فخيم الأطراف، عريض الأكتاف، غليظ الأصابع، سميك الأكارع، مستكمل البنية، مسترسل اللحية، أشل، أعرج اليمناوين، عيناه كشمعتين غير زهراوين، جهير الصوت، لا يهاب الموت، قد ناهز الثمانين، وهو مع ذلك بجأش مكين، وبدن مستمسك متين، صلباً شهما، كأنه صخرة صما.

لا يحب المزاح والكذب، ولا يستميله اللهو واللعب، يعجبه الصدق، ولو كان فيه ما يسوءه، ولا يأسى على ما فات ولا يفرح بما يجيئه، وكان نقش خاتمه (راستي رستي)، يعني صدقت نجوت، وميسم دوابه وسُرة[1] سكته على الدرهم والدينار ثلاث حلق[2] هكذا.

O
O O

لا يجري غالباً في مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك دم، ولا من سبي ونهب وغارة وهتك حرم، مقداماً شجاعاً مهيباً مطاعا، يحب الشجعان والأبطال، ويستفتح بهم أقفال الأهوال، ويفترس بهم أسود الرجال، ويستهدم بهم وبصدماتهم[3] قلل الجبال، ذا أفكار مصيبة، وفراسات عجيبة، وسعد فائق، وجد موافق، وعزم بالثبات ناطق، ولدى الخطوب صادق.

قلت:

فكم قدحت آراؤه زند فتنة ... حمته لدى البأسا وأورت قبائلا

محجاجاً دراكا للمحة (واللمزة)[4]، مرتاضاً مستيقظاً للرمزة، لا يخفى عليه تلبيس ملبس، ولا يتمشى عليه تدليس مدلس، يفرق بين المحق والمبطل بفراسته،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: ورسيم.
(٢) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق ومن طبعة القاهرة ١٩٧٩ م.
(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: ويستهدم بصدماتهم.
(٤) أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته، يكاد يهدي بأفكاره النجم الثاقب، ويستتبع بآراء فراسته سهم كل كوكب صائب.

قلت:

يشاهد أعقاب الأمور بعقله كما شاهد المحسوس بالعين ناظر

إذا أمر بأمر أو أشار بشيء لا يردّ عنه، ولا يثنى عنان عزيمته عن شيء منه، لئلا ينسب الى قلة الثبات، وركاكة الرأي والحركات.

قلت:

إذا قال قولاً أو أشار إشارة ترى أمره في النص قاطعاً

وكان يقال له في ألقابه صاحب قران الأقاليم السبعة وقهرمان الماء والطين، وقاهر الملوك والسلاطين.

يحكى أن قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكي قاضي القضاة بمصر كان صاحب التاريخ العجيب، والسالك فيه الأسلوب الغريب، على من ذكر لي من رآه، واطلع على لفظه ومعناه، من الأذكياء المهرة، والأدباء البررة، مع أني لم أره، وكان قد قدم الشام، مع عساكر الاسلام، وحين ولت العساكر الأدبار، أنشبته في مخاليب تيمور الأقدار، قال له في بعض مجالسه، وقد أنِس بتوانسه: بالله يا مولانا الأمير ناولني يدك وهي مفتاح فتوح الدنيا حتى أتشرف بتقبيلها.

وقال له أيضاً لما أراد أن يستصحبه معه، وقد سرد عليه شيئاً من تواريخ ملوك الغرب وكان تيمور مغرماً باقراء التواريخ واستماعها، فأعجبه ذلك غاية الاعجاب، (ورغب منه في الاستصحاب)[1] يا مولانا الأمير مصر خرجت[2] عن أن يتولى فيها نائب غيرك، أو أن يجري فيها غير أمرك، ولي فيك عوض عن طريفي وتلادي، وأهلي وأولادي، ووطني وبلادي، وأصحابي وأخداني، وأقاربي وخلاني، وملوك الناس، وعن كل ظهر وراس، بل وعن كل الورى، إذ كل الصيد في جوف الفرا، وما أتأسف ولا أتلهف، إلا على ما مضى من عمري، وانقضى من عصري، كيف تقضّى ذلك في غير خدمتك، ولم تكتحل عيني بنور طلعتك؟ ولكن القضاء جاز، وسأستبدل

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: حرجت.

الحقيقة بالمجاز، وما أولاني أن أكرر على لساني، قوله:

جزاك الله عن ذا السعي خيراً ولكن جئت في الزمن الأخير

فلأستأنفن في ذراك عمراً ثانياً، ولأعدن الزمان بابعادي عن عدوتك عاديا، ولأتداركن ما مضى من عمري، بصرف ما بقي في خدمتك، والتشبث بغرزك، ولأحسبن ذلك أعز أوقاتي، وأعلى مقاماتي، وأشرف حالاتي.

ولكن ما يقصم ظهري، إلا كتبي التي أفنيتُ فيها عمري، وصرفت جواهر علومي في تصنيفها، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي في ترصيفها، وذكرت فيها تاريخ الدنيا من بدئها، وسير الملوك شرقيها وغربيها، ولئن ظفرت بها لأجعلنك واسطة عقدهم، وخلاصة نقدهم، ولأطرزن بسيرك خلع دهرهم، ولأصيرن دولتك هلال جبين عصرهم (إذ أنت أبو المقاحم، والبازغ بدر نصره في شرق الغرب من دياجير الملاحم، والمكاشف به على لسان كل ولي، والمشار اليه في الزوايج والجفر المنسوب الى أمير المؤمنين علي، وصاحب القرآن المنتظر في آخر الزمان)[1].

وهي[2] في القاهرة فلو حصلتُ عليها ما فارقت ركابك، ولا هجرت أعتابك، والحمد لله الذي رزقني من يعرف قيمتي، ويحرز خدمتي، ولا يضيع حرمتي مع كلام فصيح صادع، بديع بليغ خالب خادع (فاهتزت فرحاً أعطافه، وتراقصت مرحاً أطرافه)[3] وأعجبه ذلك وأغراه ميله الى كتب التواريخ والسير، واستهواه حبه معرفة أحوال الملوك الذي ذكر، حتى شده عما خلبه، بسحر هذا البيان البديع وسلبه.

ثم إنه استوصفه بلاد الغرب وممالكها، واستوضحه أوضاعها ومسالكها، وقراها ودروبها، وقبائلها وشعوبها، كما هو دأبه وشأنه، والقصد في ذلك امتحانه، لأنه لم يكن محتاجاً ذلك، إذ في خزائن تصوره (صور)[4] جميع الممالك، وإنما أراد بذلك

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) ورد في العبارات تقديم وتأخير، وقد أثبت الترتيب الوارد في النسخة المطبوعة بالقاهرة ١٢٨٥هـ.

(٣) لا توجد في بعض النسخ.

(٤) لا توجد في بعض النسخ.

معرفة مقدار علمه، وكيفية إبداء نصحه له وكتمه، فأملى كل ذلك من طرف لسانه، كأنه يشاهده وهوجالس في مكانه، وشرح تلك الأمور، كما في خاطر تيمور. ثم قال له: كيف تذكرني وتختنصر مع الملوك الأكابر؟ ولم ننل في النسب تلك المفاخر، وما نحن من يعاسيب النحل فأنى تعبينا مع الفحل؟ فقال: أفعالكما البديعة أوصلتكما الى تلك المنزلة الرفيعة فأعجبه هذا الكلام، وقال لجماعته: اقتدوا به فإنه إمام.

ثم أخذ تيمور يخبر القاضي بما وقع في بلاده، وما جرى بين ملوك الغرب وأجناده، ولا زال يذكر له أخبار الناس حتى سرد عليه أخبار متعلقيه وأولاده، حتى تحير القاضي من إملائه، وقال: إن الشيطان ليوحي الى أوليائه.

ثم إن تيمور عاهد القاضي أن يتوجه الى القاهرة، ويأخذ أهله وأولاده وكتبه الزاهرة، ولا يلبث أكثر من مسافة الطريق، ويرجع اليه بأمل فسيح وعهد نبيل الأماني وثيق، فتجهز الى صفد، واستراح من ذلك النكد.

(**فصل**) وكان تيمور محباً للعلماء، مقرباً للسادات والشرفاء، يعز العلماء والفضلاء اعزازاً تاماً، ويقدمهم على كل أحد تقديماً عاماً، وينزل كلاً منهم منزلته، ويعرف له إكرامه وحرمته، وينبسط اليهم انبساطاً ممزوجاً بهيبته، ويبحث معهم بحثاً مندرجاً فيه الانصاف والحشمة، لطفه مندمج في قهره، وعنفه مندرج في بره.

متفرق الطعمين مجتمع القوى فكأنـــــــه السراء والضراء

وقيل:

مرّ المذاق على أعدائه بشع حلو الفكاهة للأصحاب كالعسل[1]

وكان مغرماً بأرباب الصناعات والحرف، أي صناعة كانت إذا كان لها خطر وشرف، يبغض بطبعه المضحكين والشعراء، ويقرب المنجمين والأطباء، ويأخذ بقولهم، ويصغي الى كلامهم، ملازماً للعب بالشطرنج لكونه منقحاً للفكر، وكانت علت همته عن الشطرنج الصغير، فكان يلاعب بالشطرنج الكبير، ورقعته عشرة في إحدى عشرة، وفيه من الزوائد جملان وزرافتان وطليعتان ودبابتان ووزير، وأشياء غير هذه وسيأتي وضعه.

(١) لا توجد في بعض النسخ.

والشطرنج الصغير بالنسبة الى الكبير كَلَا شيء، مواظباً لاقراء التواريخ وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسير الملوك وأخبار من مضى من الأنام، سفراً وحضراً، كل ذلك بالفارسي، ومما تكررت قراءتها عليه، وطنت نغماتها على أذنيه، قبض ذمام ذلك وملكه، حتى صارت له ملكة، بحيث ان قارىء ذلك إذا خبط، رده الى الصواب من الغلط، وذلك لأن التكرار، يفقه الحمار.

وكان أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب ولا يعرف شيئاً من العربية، ويعرف من اللغات: الفارسية والتركية والمغولية، حسب لا غير.

وكان معتقداً للقواعد الجنكيزخانية، وهي كفروع الفقه من الملة الاسلامية، وممشياً لها على الطريقة المحمدية، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدشت والخطا وتركستان وأولئك الطغام، كلهم يمشون قواعد الملعون جنكيز خان على قواعد الاسلام[1].

ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين محمد البزازي[2] رحمه الله، ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري أبقاه الله، وغيرهما من العلماء الأعلام، وأئمة الاسلام، بكفر تيمور وبكفر من يقدم القواعد الجنكيزخانية على الشريعة الاسلامية، ومن جهات أخرى أيضاً.

(١) نقل المؤلف عن بعض علماء عصره تكفير تيمور. وهذا القول لا يمكن الحكم به على شخص بقول خصومه فقط، والحقيقة أنه بدرت أعمال منه تدل على إسلامه، من ذلك ما حكاه المؤلف أنه صلى الجمعة في مسجد دمشق.
وكذلك ما حكاه عنه المؤرخ العلامة ابن خلدون في مقابلته له عندما قدم له مصحفاً، فبادر قائماً ووضعه على رأسه (راجع التعريف بابن خلدون ص ٣٧٧ تحقيق محمد بن تاويت الطنجي).
أما موقف تيمور من الياصا (قواعد جنكيز) فقد قال في ذلك الدكتور أحمد الساداتي مترجم (تاريخ بخارى) لابن فامبري: إن قواعد الياصا الأساسية لا ينكرها الاسلام في أغلبها (تاريخ بخارى ص ٢١٥) ولا يمكن الجزم بقوله هذا لانا لم نطلع على هذه الياصا ولعل الدكتور يريد أن تلك القواعد سياسية وعسكرية لا تتعرض لأي عقائد بل هي في كيفية إدارة البلاد في نظر التتار. (الدكتور علي محمد عمر ــ عجائب المقدور ــ ص ٣٢٠).

(٢) ورد في بعض النسخ البزاري، والصواب ما أثبتناه كما ورد في بعض النسخ والضوء اللامع.

وقيل أن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية ، وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الاسلامية ، وما أظن لذلك صحة فإن ذلك عندهم قد صار كالملة الصريحة ، والاعتقادات الصحيحة ، ولواتفق أنه يجمع مرازبه وموابذه في دسكرة ، ويغلق أبوابها ويطلع عليهم من منظرة ، ويفتح عليهم شيئاً من هذا الباب ، لحاصوا حيصة الحمر الى الأبواب .

(**فصل**) وكان فريد الطور ، بعيد الغور ، لا يدرك لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك في طود تدبيره سهل ولا وعر ، وقد أقعد في ممالكه نواميسه ، وأقام في سائر الممالك جواسيسه ، وهم ما بين أمير كأطلاميش أحد أعوانه ، وفقيه فقير كمسعود الكمججاني[1] عين أصحاب ديوانه ، وكان ذلك في القاهرة المعزية ، وهذا بدمشق أحد الصوفية بالسميساطية[2] ، وما بين متسبب وتاجر ، ومصارع شرير وبهلوان فاجر ، ومكد وصنائعي ، ومنجم وطبائعي ، وقلندري قوال ، وحيدري جوال ، وبحري سباح ، وبري سياح ، وسقاء ظريف ، وحذاء لطيف ، وسعلاة دلالة ، وشيخة محتالة ، كدلة المحتالة ، ومن مرت به التجارب ، وضرب أكباد الابل مشارق ومغارب ، وبلغ فيما هو بصدده من المكر والاحتيال ، منزلة الكمال ، وألف بلطيف ختله ودهاءه بين الماء والنار والهدى والضلال ، وجاوز في الحيل والكيد ، ساسان وأبازيد ، وألزم في حكمته وجدله ابن سينا ، وأسكت في منطقه اليونانيين إذ عكس عليهم القضايا ، فجمع بين المتنافيين ، وألف بين المتعاديين .

قلت :

فاق من قاد للعدا كل جيش بكلام ثنى البعيد قريبا
مزج النقل في القياد بعقل فهدى عاشقاً وأهدى حبيبا

فكانوا ينهون إليه حوادث الأطراف وأخبارهم ، ويكتبون إليه ما قدموا وآثارهم ،

(١) وردت في بعض النسخ : الكحجاني .
(٢) وردت في بعض النسخ : الشميصاتية ، والصواب ما أثبت من الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ٢ ص ١٥١ . والسميساطية ، بمهملات مصغرة ـــ نسبة للسميساطي علي بن محمد بن يحيى السلمي المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ويذكرون (لديه)[1] أوزانهم وأسعارهم[2] ، ويصفون منازلهم وأمصارهم ، ويصورون سهولهم وأوعارهم ، ويخطون بيوتهم وديارهم ، ويبينون مدى ذلك بعدا وقربا ، ومافي ذلك ضيقاً ورحبا ، وجهات وأقطاراً شرقاً وغرباً ، وأسامي الأمصار والقرى ، وألقاب المنازل والذرا ، وأهل كل مكان ورؤساءه ، وأمراءه وكبراءه ، وفضلاءه وشرفاءه ، وأغنياءه وفقراءه ، واسم كل ولقبه ، وشهرته ونسبه ، وحرفته وسببه ، فكان يطالع بفكره ذلك ، ويتصرف بتفكيره في سائر الممالك .

وكان اذا حل ببلد ، واجتمع به من أعيانها أحد ، شرع يسأله عن فلان ، وفلان ، وما جرى لفلان في الوقت الفلاني مما زانه من أمر وشان ، وإلام آلت تلك الواقعة ، وكيف فعل فلان وفلان فيما كان بينهما من المنازعة ، فيهت ذلك الرجل ناظراً ، ويظن أن تيمور كان في تلك الحالة حاضراً .

وكان كثيراً ما يطرح عليهم أغاليط المسائل ، ويحكي صور مباحثات جرت لهم ورسائل ، فيتصورون أن له في ذلك العلم قدمه ، أو كان منه للعلماء خدمة ، ولذلك تصور بعض الناس ، أن ذلك الوسواس الخناس ، كان مقيماً بالسلاوية ، وبعض بالغ حتى قال : إنه رآه في فقراء السميساطية[3] .

(**فصل**) ومما يحكى عن فراسته ، أنه لما نزل على سيواس ، وقد حصنها منه أولو النجدة والباس ، قال لعسكره : اعملوا الحيلة ، إنا فاتحو هذه في ثماني عشرة ليلة ، فكان كذلك فلاشك أن ذلك الأعرج ، كان ملهماً أو مستدرج ، وكان ذا مغالطات ، وحركات لها مغاورات ، اذا دهمه أمر يتعاطى دفعه وهو مظهر أنه راغب فيه ، وربما يظهر الرغبة عن شيىء وهو مريد حصوله ومشتهيه ، وقد مر نظائر هذا كله .

فمن مغالطاته أنه إذا كان له في مكان رَوم ، أو أراد أن ينزل بساحة قوم ، قصد الإخفاء والتعمية ، وطلب الإيهام[4] والتورية ، وبحر عسكره لا يخلو من تمساح

(١) لا توجد في بعض النسخ وقد أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ .
(٢) وردت في بعض النسخ : أشعارهم .
(٣) وردت في بعض النسخ الشميساطية والصواب ما أثبتناه .
(٤) ورد في بعض النسخ : الابهام .

متجسس ، أوسرطان متحسس ، ولو لم يكن لأحد في عسكره عين ، فان بزوغ العين ، لايخفى على ذي عين ، فانه يجمع أركان دولته ، وأعيان مملكته ، وذوي آرائه[1] ومشورته ، بحيث إنه لا يتخلف منهم أحد ، ولا يجزي مولود عن والد ولا والد عن ولد ، ثم يظهر لهم خفية أموره ، ويطلب منهم المشورة في جهة مسيره ، ويطلق لهم عنان الكلام ، ويقول : لاتثريب على من خاض في ذلك من خاص الأنام ، ناظر في أعقاب الأمور ما بين يوم وعام ، فليتكلم كل ولا حرج ، فسواء هوى إلى حضيض الخطأ أو إلى أوج الصواب عرج . فإن أخطأ فلا نقصان ، وإن أصاب فله أجران .

فيبذل كل جهده ويعاني في ذلك وكده وكده ، ويبدي في ذلك ما أدى إليه اجتهاده ، ويتصور أن ذلك يوافقه مراده ، فتتفق الآراء ، على ناحية من الأنحاء ، ثم يفض ذلك المجلس ، ويجتمع بأخصائه ويجلس ، كسليمان شاه وقماري وسيف الدين ، وألله داد وشاه ملك وشيخ نور الدين ، ويمخضون القضية مخضاً غير ذلك ، ويبحثون فيها بحثاً دقيق المسالك ، فيقع آخر الأمر الاتفاق ، على التوجه إلى بعض الآفاق .

ثم يدعو رائدهم ، وسائقهم في ذلك وقائدهم ، ويأمرهم بالتوجه إليه ، فيتصدّعون على ما عول في ذلك عليه ، وحين يقوض الظلام خيامه ، وينشر رائد الصبح أعلامه ، ويضرب الكوس للرحيل ، ويأخذ الناس في التحميل ، ويتوجه الناس إلى الجهة التي أمرهم بالمسير إليها ، ووقع الاتفاق عليها دعا حاشيته بعد ما حملوا وأخذوا في المسرى ، وأمرهم أن يمتازوا ويرحلوا إلى جهة أخرى ، لم يكن أبداها لأحد من الجماعة ، إلا في تلك الساعة ، ولولا الضرورة لما أفشاها ، ولا أعاد سريرتها لأحد ولا أبداها ، فيضرب الناس ضرباً ويضرب ضربا ، ويأخذ العساكر شرقاً ويأخذ غربا ، فتضطرب تلك الأطواد وتختبط ، وتنفرط عقود نظامهم فلا تكاد تنضبط ، وتنحل قوائم مواشيها عن المسير وترتبط ، ويموج بعض الناس في بعض ، وينعكسون سماء في أرض وطولاً في عرض ، ويتوله كل أحد ويتدله ، ولايدري إلى أين يتوجه ، فان كان في عسكره ربيئة ، أو من يراقب ذهابه ومجيئه .

(١) ورد في بعض النسخ : أمرائه .

فبمجرد ما رأى تحميلهم ، وشاهد تحويلهم ورحيلهم ، طار إلى مخدومه ، وأظهر له ما في معلومه ، من توجه العساكر الى الجهة التي اتفقوا عليها ، وأنه شاهدهم بعينه وقد توجهوا إليها ، فيأخذ حذره أهل ذلك الجانب ، وتطمئن سائر الجوانب من النوائب ، فلم يشعر إلا وقد دمر على الجانب الذي قصده وحطمه ، ونبذه من نار العذاب الموقدة في السعير والحطمة .

وكم كان له من دهاء ، وفكر[1] خفي وذكاء ، ومن جملة ذلك أنه لما كان بالشام ، وقد قابلته عساكر إسلام ، أشاع أن سوار أساورته تخلخل ، وتأخر قليلا إلى وراء وتحلحل ، وأذاع أنه أعوز خيله ورجله الزاد ، وأنه صائب صوب بغداد ، ثم أسفرت القضية ، عن أن انهزمت العساكر المصرية ، وكان قصده بذلك تثبيت جاشهم ، واستقرار رؤسائهم وأوباشهم ، وأن يكز كل منهم على أزم ، فيربض في مكانه ولا ينهزم ، فيحيط بالكل كيده ، ويصير المجموع صيده .

ومما يحكى من شدة عزمه ، وثباته على ما يقصده وحزمه ، وحلول نقمته ممن يعارضه ، ويعاكسه فيما يرسم ويناقضه ، أنه لما توجه بالجنود ، الى بلاد الهنود ، بلغ إلى قلعة شاهقة ، أقراط الدراري بآذان مراميها عالقة ، ورجوم النجوم الخارقة[2] ، تتعلم الإصابة من رشاقة سهامها الراشقة ، كأن بهرام في مهواه أحد سواطيرها ، وكيوان في مسراه خادم نواطيرها ، والشمس في استوائها غرة جبينها ، وقطرات السحاب في الانسكاب تترشح من قعر معينها ، وشقة الشفق الحمراء ، على آذان مراميها ، وأنوف أبدانها سرادق ، وكريات نجوم القبة الخضراء لعيون مكاحلها وأفواه مدافعها طابات وبنادق .

فيها من الهنود طائفة ، ثابتة الجنان غير خائفة ، جهزت أهلها وما تخاف عليه إلى الاماكن المعجزة ، وثبتت هي في تلك القلعة حافظة لها متحرزة ، مع أنها شرذمة قليلة ، وطائفة ذليلة ، لاخير عندهم ولا مير ، ولا فائدة سوى الضرر والضير ، ولا للقتال عليها سبيل ، ولاحواليها لأحد مبيت ولا مقيل ، بل هي مطلة على المقاتلة مستمكنة[3] من المقاتلة ، فأبى أن يجاوزها ، دون أن يناحرها بالحصار ويناجزها

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مكر .
(٢) وردت في بعض النسخ : الصائبة .
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : مستمسكة .

(واللبيب العاقل ، ما يترك لخصمه وراءه معاقل[1]) فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد ، ويصب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد فكان كل يوم يقتل من عسكره ما لا يحصى والقلعة تزداد بذلك إباء واستعصا ، وهو يأبى الرحيل عنها ، إلا ان يصل إلى غرضه منها .

ففي بعض أيام المحاصرة مطروا ، وبواسطة المطر انحصروا ، وصار يحثهم على القتال ، وركب لينظر ماذا يصنعون في تلك الحال ، فلم يرتضِ أفعالهم لما عكست أوحالهم أحوالهم فدعا منهم رءوس الأمراء ، وزعماء العسكر والكبراء ، وأخذ يمزق أديم عصمتهم بشفار شتمه ، ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمّه ، ونفخ الشيطان في خيشومه ، فألهب فيهم نيران غضبه وشومه ، وقال يالئام ، وأكلة الحرام ، تتقلبون في نعمائي ، وتتوانون عن أعدائي ، جعل الله نعمتي عليكم وبالاً ، وألبسكم بكفرانها خيبة ونكالا .

يا فاجري الذمم ، وكافري النعم ، وساقطي الهمم ، ومستوجبي النقم ، ألم تطئوا أعناق الملوك بأقدام إقدامي ، وتطيروا إلى آفاق الدنيا بأجنحة إحساني واكرامي ، وتفتحوا مغلقات الفتوح بحسام صولتي ، وتسرحوا في متنزهات الأقاليم سوائم تحكمكم بترعية دولتي ؟ بي ملكتم مشارق الأرض ومغاربها ، وأذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها :

ألم أك ناراً يصطليها عدوكم ... وحرزاً لما ألجأتم من ورائيا
وباسط خير فيكم بيمينه ... وقابض شر عنكم بشماليا

ولا زال يهمهم ويغمغم ، ويهذرم ويبرطم ، وهم مطرقون لا يحيرون جواباً ولا يملكون منه خطابا ، ثم ازداد حنقاً ، وكاد أن يموت خنقاً ، فاخترط السيف بيده اليسرى ، وهمز[2] به على قمم أولئك الأسرى ، وهم أن يجعل رقابهم قرابة ، ويسقى من دمائهم فرنده وذبابه ، وهم على تلك الحال في الخزي والإذلال ، باذلوا نفوسهم ، ناكسوا رؤوسهم .

ثم تراجع وتماسك ، وملك نفسه قليلا أو تمالك ، فأغمد عن تشريقهم

(١) أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق .
(٢) وردت في بعض النسخ : وهم .

حسامه ، ولم يلق لأمره قبلة ولا دبرة فغلف غربه وشامه ، ثم نزل عن مركبه ، واستدعى الشطرنج الكبير ليلعب به ، وكان عنده شخص يدعى محمد قاوجين ، هو لديه ذو مكان مكين ، ومقام أمين ، مقدم على كل الوزراء ، ومبجل دون سائر الأمراء ، مسموع القول ، مقبول الرأي ، ميمون النقيبة ، محبوب الشكل ، فتشفعوا إليه ، وعولوا في حل هذا الإشكال عليه ، وقالوا ساعدنا ولو بلفظة ، وراقبنا ولو بلحظة ، واعمل معنا ، بهذا المعنى :

قلت :

ساعد بجاهك من يغشاك مفتقراً ... فالجود بالجاه فوق الجود بالمال

وبما قيل :

وأهون ما يعطي الصديق صديقه ... من الهين الميسور أن يتكلما

وبما قيل :

وإن امرءاً قد ضنّ عني بمنطق ... يسد به من خلتي لضنين

فأجابهم والتزم ، أن يرده عما تأزم به وأزم ، وراقب مجال المقال ، وراعى فرص المجال ، وأخذت أفكار تيمور ، تفور في أمور القلعة وتغور ، وجعل يستضوي أضواءهم ، ويستوري آراءهم ، ولا يسع كلاً منهم إلا القبول لما يستصوبه رأيه ويقول .

ففي بعض الأحايين ، اتفق أن قال محمد قاوجين ، وقد زلّ به القضاء ، وأحاطت به نوازل البلاء : أطال الله بقاء مولانا الأمير ، وفتح بمفاتيح آرائه ورياياته حصن كل أمر عسير : هب أنا فتحنا هذه القلعة ، بعد أن أصيب منا جانب من اهل النجدة والمنعة ، هل يفي هذا بذا ، أو يوازن هذا النفع بهذا الأذى ، فما احتفل بخطابه ، ولا اشتغل بجوابه ، بل استدعى شخصاً من المرقدارية فظاً قبيح المنظر ذا حالة زرية ، يدعى هراملك ، ذا عرق سهك ، ووجه بالسواد سدك ، أوسخ من في المطبخ ، وأسنخ من في المسلخ ، لعاب الكلب طهور عند عرقه ، وعصارة القير حليب بالنسبة إلى مرقه .

فعندما حضر لديه ، ووقع نظره عليه ، أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت وبخلقان هراملك فخلعت ، ثم ألبس كلاً ثياب صاحبه ، وشد وسطه بحياصته ، ودعا

دواوين محمد ومباشريه ، وضابطي ناطقه وصامته وكاتبيه ، ثم نظر ماله من ناطق وصامت ، وذائب وجامد ، وملك وعقار ، وأهل وديار ، وحشم وخدم ، من عرب وعجم ، وأوقاف وإقطاع ، وبساتين وضياع ، ومماليك وأتباع ، وخيل وجمال ، وأحمال وأثقال ، حتى زوجاته وسراريه ، وعبيده وجواريه ، فأنعم بذلك على ذلك الوسخ ، وأمسى نهار وجود محمد قاوجين وهو من ليل تلك النعمة منسلخ .

ثم قال تيمور : أقسم بالله وآياته ، وكلماته وصفاته ، وأرضه وسماواته ، وكل نبي ومعجزاته ، وولي وكراماته ، وبرأس نفسه وذاته ، لئن آكل محمدا قاوجين أحد أو شاربه ، أو ماشاه (أو صاحبه[1]) أو صادقه أو صافاه ، أو آوى إليه أو آواه ، أو راجعني في أمره ، أو شفع عندي فيه أو اشتغل بعذره ، لأجعلنه مثله ، ولأصيرنه مثله ، ثم طرده وأخرجه ، وقد سلبه نعمته وأحرجه .

فصار مسلوب النعم ، قد حلت به نوائب النقم ، وسحبوه بالوَلَق[2] ، ورأى نعمته على أقل الخلق ، واتصل غيره بالحِلق وقطع منه الحَلَق ، ففلقت حبة قلبه أي فلق ، واستمر على ذلك ، في عيش مر وعمر حالك ، وحاشى أن تشبه قصته قضية كعب بن مالك[3] ، فكان يستحلي مرارة الموت ، ويستبطىء إشارة الفوت ، وكل لحظة من هذا الحيف ، أشد عليه من ألف ضربة بالسيف ، فلما مات تيمور أحياه ، ورد عليه خليل سلطان ما سلبه جده إياه .

(**فصل**) وكان من أبهته وعظمته ، وشدة شكيمته ، وعتوه وحرمته ، أن ملوك الأطراف ، وسلاطين الأكناف ، مع استقلالهم بالخطبة ، واستبدادهم بالسّكة ، وانفرادهم بالزعامة والرياسة ، وقيامهم بأمور الإيالة والسياسة كالشيخ إبراهيم ملك

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الحلق .

(٣) قصة كعب بن مالك حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك مع صديقيه تراجع القصة كاملة في كتب الحديث (باب التوبة) وكتب التفسير في سورة التوبة الآية رقم ١١٦ ، ١١٧ (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) .

ممالك شروان ، وخواجه علي بن المؤيد الطوسي سلطان ولايات خراسان ، واسفنديار الرومي وابن قرمان (ويعقوب بن علي شاه حاكم كرمان وحاكم منتشا وطهرتن أمير أرزنجان[1]) وسلاطين فارس وأذربيجان ، وملوك الدشت والخطا وتركستان ، ومرازبة بلخشان ومراجيح مازندران .

وعلى الجملة فالمطيع من ملوك إيران وتوران كانوا إذا قدموا عليه ، وتقدموا بالهدايا والتقادم إليه ، يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة ، نحواً من مدّ البصر من سرادقاته قائمين بشرائط الأدب والحرمة ، فاذا أراد منهم واحداً ، أرسل إليه من الفراشين أو نحوهم قاصداً ، فيهيب ذلك القاصد وهو يعدو كالبريد ، وينادي ذلك الواحد باسمه يا فلان من مكان بعيد ، فينهض في الحال من مجثاه ، مجيباً بلبيك لبيك دعواه ، ويعدو نحوه متعثراً في أذياله ، متلقياً ما برزت به مراسيمه بقبوله وإقباله ، مطرقاً رأس التذلل والخضوع ، مصغياً بآذان الخنوع والخشوع مفتخراً على أضرابه ، لكونه أهَّله ودعاه واعتنى به .

وقيل : كان أناس من جماعته يلعبون بالنرد فافترقوا فرقتين ، واختلفوا في نقش الكعبتين ، فقال أحد اللاعبين : ورأس الأمير تيمور كذا وكذا كان نقش الكعبتين ، فرفع يده خصمه ولطمه ، وسبه ولعنه وشتمه ، كأنه ذبح يحيى أو زكريا نشر ، أو كفر بمحمد أو قدم موسى على أبي البشر ، وقال : يا ابن الفاعلة ، والغاسل ابن الغاسلة ، بلغ من انتهاكك الحرم ، أن تذكر الأمير تيمور بشفة وفم ، وأنى لك أن تجعل خدك مواطىء مداسه ؟ فضلاً عن أن تحلف براسه ، إنه لأجلّ من أن يتفوه مثلي ومثلك باسمه ، أو يتلفظ بشيىء من حدوده ورسمه ، وإنه لأعظم من كيخسرو وكيكاوس وكيقباد ، الذين ملكوا المشارق والمغارب وأفخم من بختنصر وشداد .

وقيل : إنه قصد في بعض الأوقات الاصطياد ، وأرسل يمنة ويسرة على العادة طوائف الجيش والأجناد ، ورسم أن يخرج مشاة تلك الرقاع ، ورجالةً هاتيك القرى والبقاع ، فيمتدوا في الوهد واليفاع[2] ، وحين تلتئم على الوحوش حلقة الكيد ،

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : ورجالة هاتيك القرى والأصقاع فيمتدوا في الوهد والبقاع .

ويصح أن يتنازع فعلا رمى وأصمى كلا من عمرو وزيد ، لا يشير أحد بضربة ولا طعنة ولا رمية إلى صيد ، بيد أنهم يردون أوابد بتلك البيداء إلى بهرة ذلك البيد ، فامتثل كل ما به أمر ، وحين صار كالبنيان المرصوص وصف تلك الأحزاب والزمر ، وأحاطت صافات تلك الكواسر بالوحوش إحاطة النجوم بالقمر ، ماجت بحار الوحوش في ذلك البر ، ولم تجد لها من دردور تلك السيول الهامرة من مخرج ولا معبر ، فدارت ومارت ، وحارت وخارت ، وثارت وبارت ، واستجارت بعد ما جأرت ، واستكانت بعد ما زأرت ، وانطوت أرضها التي طالما عليها انتشرت ، وطرزت خلع أعلامها بأعلام (واذا الوحوش حشرت[1])

فبينما هي على تلك الحال ، في أشد ما يكون من الأهوال ، أمر بأن تضرب الطبول من كل الجهات ، وينفخ في صور المزامير والبوقات ، فدق الكوس وزعق النفير ، وامتلأت الدنيا من الشهيق والزفير ، ورجت الأرض رجا ، ومارت الأقطار هرجاً ومرجاً ، وحين سمعت السباع صوت الطبول ، ورأت الوحوش هذا الأمر المهول ، سقطت قواها ، وتقطعت كلاها ، وجثت وما انبعثت ، ثم تقاربت وتلامت ، وتقارنت وتضامت ، وتصورت أن القيامة قد قامت ، فأخذ بعضها بعنق بعض ونامت ، فعانق الثور منها اللبوة ، وضاجع الأسد فيها الظبية ، واختفى سرحان ، بين الغزلان ، واستجار الثعلب ، ببنات الأزنب ، ولاذ بالأروى النعام والأزنب بالعقاب ، وعاذ الضب بالنون واليربوع بالغراب .

فعند ذلك أمر الأطفال من أولاده ، وأولاد الأمراء وأحفاده ، أن يرموا ويصموا ، ويفنوا مهما أرادوا ولا يطنوا ، وجعل ينظر إليهم ، ويتفرج عليهم ، ويزهزه لأفعالهم ، ويقهقه على أحوالهم ، ويجرئهم على الإقدام والنضال ، ويشجعهم بذلك على صيد الأبطال ، وجعلت حواشي الجيش تنجز على ما أصموا ، وتجهز على ما أنموا ، وصار ذلك المفسد يترنم وينشد :

صيد الملوك أرانب وثعالب فاذا ركبت فصيدى الأبطال

(**فصل**) وكان يحمل إليه البلخش من بلخشان ، والفيروزج من نيسابور ، وكارون ومعادن خراسان ، والياقوت من الهند ، والماس منها ومن السند ، واللؤلؤ من

(١) سورة التكوير : الآية رقم ٤ .

هرمز والقطيف والحسا ، واليشم والمسك وغيره من الخطا ، ومن سائر الأقطار ، خالص الفضة ومصفى النضار .

(**فصل**) وأنشأ في سمرقند بساتين عديدة ، وقصوراً شوامخ مشيدة ، كل له ترتيب غريب ، ووضع أنيق عجيب ، أحكم أساسها ، وطعم بأفخر الفواكه غراسها ، سمى أحدها بستان إرم والآخر زينة الدنيا ، والآخر جنة الفردوس والآخر بستان الشمال والآخر الجنة العليا ، ثم إنه هدم مصرا ، وبنى في كل بستان منها قصرا ، وصور في بعض هذه القصور مجالسه وأشكال صورته تارة ضاحكة وأخرى عابسة ، وهيئات مواقعاته ، وصور محاضراته ، ومجالس صحبته مع الملوك والأمراء ، والسادات والعلماء والكبراء ، ومثول السلاطين بين يديه ، ووفودها بالخدمات من سائر الأقطار اليه ، وحلق مصايده ، وكمائن مكايده ، ووقائع الهند والدشت والعجم ، وصورة انتصاره وكيف انكسر عدوه وانهزم ، وصورة أولاده وأحفاده ، وأمرائه وأجناده ، ومجالس عشرته ، وكاسات خمرته ، وسقاة كاسه ، ومطربي إيناسه ، وتغزلات مقاماته ، ومقامات تغزلاته ، وحظايا حضرته ، وخواتين عصمته .

الى غير ذلك ، مما وقع له من صورة حادثة في الممالك ، مدى عمره المتقارب المتدارك ، كل ذلك كما وقع ووجد ، ولم ينقص من ذلك شيئاً ولم يزد ، وقصد بذلك الافادة ، لمن كان في عالم الغيب عن أحواله بالشهادة ، فكان اذا توجه الى مكان ، وخلت سمرقند من الظلمة وأعوان الشيطان ، تخلو تلك البساتين ، فيتوجه اليها أهل المدينة الأغنياء والمساكين ، فلا يوجد أعجب متنزهاً منها ولا أحسن ، ولا أوفق مرتفقاً ولا آمن .

وأما ثمارها الطيبة فإنها مسبلة ، بحيث إنه لا يباع منها قنطار بخردلة ، وأنشأ في ضواحي سمرقند ومعاملاتها[1] قصبات ، سماهن بأسماء كبار البلدان والأمهات ، كمصر ودمشق وبغداد ، وسلطانية وشيزار عرائس البلاد ، وأنشأ بستاناً في ضواحي سمرقند على طريق الكشف ، وبنى به قصراً سماه تخت قراجا ، يحكى أن بعض مشيدي عمارته ضاع له فرس واستمرت ترعى في البستان ستة أشهر حتى وجدوها .

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وأطرافها .

(**فصل**)

نساؤه : الملكة الكبرى وهي أقدم وأكمل ، والملكة الصغرى وهي أحسن وأجمل ، وهما من بنات ملوك الخطا ، وتومان بنت الأمير موسى أمير نخشب المار ذكره في أول الكتاب ، وجلبان كانت كالبدر عند الكمال ، وكالشمس قبل الزوال ، قتلها في حياته لشيء بلغه عنها ، وكان غير واقع ، وإنما فعل ذلك معها لأنه قيل إن صدقاً وإن كذبا ، وأظنها كانت من الحظايا .

وأما السراري (والحظايا)[1] فأكثر من أن يحصين فالملكتان ، المذكورتان سمّتهما شاد ملك خوفاً منها على خليلها ، وتومان أرسل خليل سلطان الى شيخ نور الدين بسغناق كما مر ، وبعده جاءت الى سمرقند ، وسمعت أنها عزمت في يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة على الحج ، والله أعلم .

(**فصل**)

(أولاده لصلبه) المتخلفون من بعده : أميران شاه قتله قرا يوسف كما ذكر ، وشاه رخ وهو المتملك في يومنا هذا ، وبنت تدعى سلطان بخت سليمان شاه ، كانت مترجلة لا تحب الرجال ، وذلك لما أفسدها النساء البغداديات لما قدمن سمرقند ، ولها تواريخ سوء .

(أحفاده) أغلبهم انقرض ، إلا أولاد شاه رخ ، وأمثلهم أولوغ بك حاكم سمرقند ، وإبراهيم سلطان حاكم شيراز ، وباي سنقر حاكم كرمان ، ماتا كلاهما في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، وجوكي وهو الذي مشى على اسكندر بن قرا يوسف وشتت شمله بعد موت قرايلوك ، وذلك في شهور سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، ثم مات في أواخرها .

(**فصل**)

أمراؤه ووزراؤه لا يحصون ، وأشهرهم من ذكر في هذا الكتاب (وما مات إلا عن الطبقة الثالثة ممن أنشأه من الأمراء والوزراء ، كذا أخبرني شيخي علاء الدين البخاري رحمه الله تعالى)[2] .

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) لا توجد في بعض النسخ .

دوواينه : الخواجه محمود بن الشهاب الهروي ، ومسعود السمناني ، ومحمد الساغرجي ، وتاج الدين السلماني ، وعلاء الدولة ، وأحمد الطوسي ، وغيرهم .

منشيء ديوانه : وهو عبارة عن كاتب السر مولانا شمس الدين قاضي زمانه ، وفاضل إبانه ، فارسياً وعربياً ، صرف أخبار الانشاء كيف شاء ، كان قلمه في فتح أقاليمه ، أنفذ من سنان مخدومه ، ولما مات تيمور احتجب ، وطوى بساط الأدب ، فقيل له : ضحكت البشرة ألا تباشر ، وصفت العشرة فهلا تعاشر ؟ فقال : ذهب الذي كان يعرف قيمتي ، فأنا لا أذهب في خدمة الأحداث حرمتي .

إمامه : عبد الجبار بن النعمان المعتزلي .

صدور مملكته : مولانا قطب الدين ، والخواجه عبد الملك ، وابن عمه (الخواجه)[1] عبد الأول ، وغيرهم .

قارىء قصصه وتواريخه : مولانا عبيد .

أطباؤه : فضل الله ، وجمال الدين رئيس الطب بالشام كان ، وغيرهما ، وكان دائماً يستعمل معاجين الأحجار ، وفي سِنّه تلك يجتني باكورة الأبكار .

منجموه : لا يحضرني أسماؤهم .

(**فصل**) حصل في أيام استيلائه بسمرقند من الفقهاء مولانا عبد الملك ، وهو من أولاد صاحب الهداية ، كان يلقي الدرس ويعلم الشطرنج والنرد وينظم الشعر في حالة واحدة ، ونعمان الدين الخوارزمي أبو عبد الجبار المذكور ، كان يقال له النعمان الثاني ، وكان أعمى ، والخواجه عبد الأول ابن عم مولانا عبد الملك ، انتهت اليه الرياسة في ما وراء النهر بعد ابن عمه ، ومولانا عصام الدين بن عبد الملك انتهت اليه الرياسة في يومنا هذا بعد ابن عمه عبد الأول .

ومن المحققين سعد الدين التفتازاني[2] ، توفي في المحرم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بسمرقند ، والسيد الشريف محمد الجرجاني توفي بشيراز .

ومن المحدثين : الشيخ شمس الدين محمد بن الجزري[3] ، كان أخذه من الروم وكان

(١) لا توجد في بعض النسخ .

(٢) له ترجمة في مجلة (الهداية الاسلامية) بقلم الاستاذ محمد علي النجار ، ثم تذييل لهذه الترجمة بقلم الاستاذ محمد الطاهر بن عاشور رحمهم الله .

(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الجوزي والصواب ما أثبتناه وكما ورد في الضوء اللامع .

قد هرب اليها من مصر بعد توجهه من بلاده الشام قبل الفتنة، توفي بشيراز.

والخواجه الكبير المفسر الحافظ المحدث محمد الزاهد البخاري، فسرَّ القرآن الكريم في مائة مجلد، توفي بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة.

ومن القراء: هما ومولانا فخر الدين.

ومن حفاظ القرآن المجودين قراءة وصوتا: عبد اللطيف الدامغاني، ومولانا أسد(الدين)[1]، والشريف الحافظ الحسيني، ومحمود المحرق الخوارزمي، وجمال الدين أحمد الخوارزمي، وعبد القادر المراغي الاستاذ في علم الأدوار.

ومن الوعاظ والمتكلمين: مولانا أحمد بن شمس الأئمة السرائي، كان يُقال له ملك الكلام عربياً وفارسياً وتركياً، وكان أعجوبةالزمان، ومولانا أحمد الترمذي، ومولانا منصور القاغاني.

ومن الكتاب المجودين: السيد الخطاط ابن بندكير، وعبد القادر المذكور، وتاج الدين السلماني، وغيرهم.

ومن المنجمين أناس برعوا، لا أعرف من أسمائهم غير مولانا أحمد الطبيب النحاس المستخرج، قال لي: استخرجت من زايجة الطالع الى مائتي سنة، وكان هذا الكلام في سنة ثمان وثمانمائة.

ومن الصواغين: الحاج علي الشيرازي، والحاج محمد الحافظ الشيرازي، وغيرهما.

ومن الحكاكين طائفة جمة، وأمثلهم ألتون، وكان آية في فنه ينقش الفصوص ويحفر اليشم والعقيق، بخط أحسن من ياقوت.

ومن الشطرنجيين محمد بن عقيل الخيمي، وزين اليزدي، وغيرهما، وعلّامة ذلك علاء الدين التبريزي الفقيه المحدث، كان يحط لزين اليزدي بيدقا ويغلبه، ولابن عقيل فرسا ويركبه.

ولقد دوخ تيمور الأقاليم شرقاً وغربا، وقمر في دست مصافاته كل سلطان وكل شاه مات عنده جداً أو لعبا وكان يقول له: أنت في ملك الشطرنج فريد، كما أني في سياسة الملك وحيد، وكل مني ومن مولانا علي شيخ في فنه ذو كرامات لم يوجد له نديد، (ولي)[2] وله في لعب الشطرنج وعلم مناصيبه شرح، وما كان أحد يقدر

(١) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

أن ينتج ولاد فكره في لعبه معه من غير طرح، وكان فقيهاً شافعياً، محدثاً أريحيا، حسن البهجة، صادق اللهجة.

حكى لي أنه رأى أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه في المنام، وأنه ناوله الشطرنج في كيس فلم يغلبه بعد ذلك أحد من الأنام، ومن أوصافه في لعبه أنه كان لا يتفكر، وبمجرد ما يلعب خصمه بعد التفكر والتأمل الطويل ينقل من غير أن يتدبر، وكان يلعب على الغائب مع خصمين، ويعلم مع الطرح لمن هو في جهته على الجهتين، وكان يلعب هو والأمير بالشطرنج الكبير.

ورأيت عنده شطرنجاً مدوراً وشطرنجاً طويلا، والشطرنج الكبير فيه من الزوائد ما مرَّ ذكره، وهذه صورته:

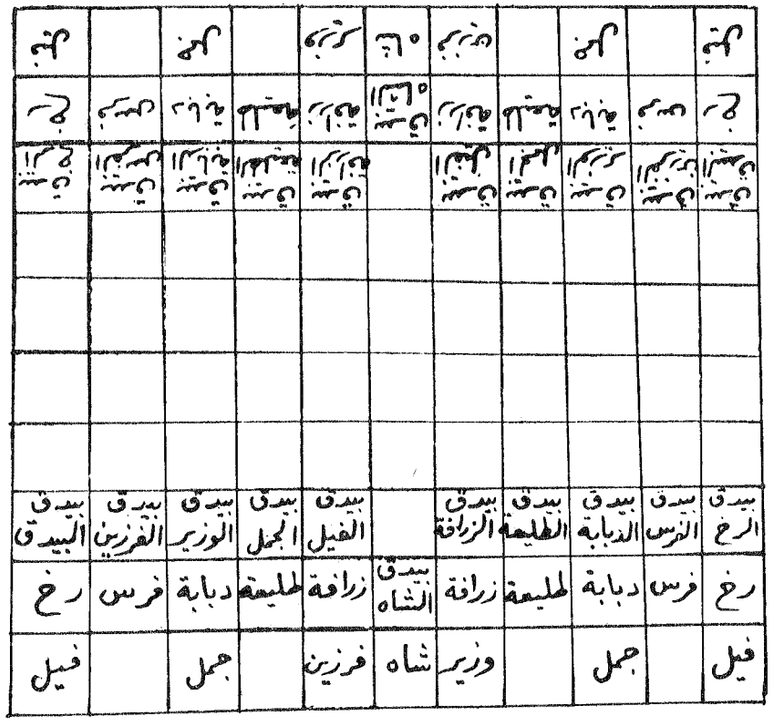

وضع الشطرنج الكبير

وطريقة تعلمه بالفعل أقوى، وليس في شرحه بالقول كثير جدوى.

ومن المطربين عبد القادر المراغي المذكور، وولده صفي الدين، وختنه نسرين، وقطب المواصيلي، وأردشير الجنكي وغيرهم.

ومن النقاشين كثير، وأعلاهم عبد الحي البغدادي، وكان ماهراً في فنه.

ومن البحرية شهاب الدين أحمد الزردكاش.

ومن نقاشي الزجاج والنحاس وغيرهم ما لا يحصى، وهؤلاء كل منهم كان علّامة دهره وأعجوبة عصره، ولو رصعت حلي الألفاظ بجواهر أوصاف هؤلاء الأعيان، لملأت الأكوان من فرائد الجمان وقلائد العقيان، وهؤلاء من حضرني ذكره ممن أعرفه، وأما من لا أعرفه أو أعرفه ولا يحضرني ذكره فأكثر من أن يحصى، وأغزر من أن يستقصى.

وحاصل الأمر أن تيمور كان جنى على كل حي، وجبى الى سمرقند ثمرات كل شيء، فكان بها من أهل كل فن عجيب، وأسلوب من الصنائع غريب، من هو على جبين الفضل شامة، وبرز على أقرانه فصار في فنه علامة.

(فصل)

وكان في سمرقند إنسان، يسمى الشيخ العريان، فقير أدهمي، بشكل بهي وعزم سمي، قيل: إن عمره على ما هو فيهم شائع، وبين أكابرهم وكبارهم[1] ذائع، ثلاثمائة وخمسون سنة، مع أن قامته مستوية وهيئته حسنة، كان المشايخ الهرمون، والأكابر المعمرون، يقولون: لقد كنا ونحن أطفال، نرى هذا الرجل على هذا الحال، وكذلك نروي عن آبائنا الأكرمين، ومشايخنا الأقدمين، ناقلين ذلك كذلك عن آبائهم والمعمرين من كبرائهم، وكان أطلس وله قوة ناهضة وحده، من رآه يتصور أنه لم يبلغ أشده، لم يكن للكبر، بوجهه تجعيد ولا أثر.

وكان الأمراء والكبراء، والأعيان والصلحاء، والفضلاء والرؤساء، يترددون إلى زاويته، ويتبركون بطلعته، ويلتمسون بركة دعوته، وفي سمرقند مسجد يسمى مسجد الرباط، يهب لمن يدخله الانشراح والانبساط والروح والنشاط.

(قيل: ان)[2] أحد فعلته كان ولياً، يسمى الشيخ زكريا، هو مُعْتَقَد تلك

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: وأصاغرهم.

(٢) لا توجد في بعض النسخ.

البلاد، ومزاره في كل مكان مشهور على (رأس)[1] طود من الأطواد، وقبره يستجاب عنده الدعا، وهو عن سمرقند نحو يوم في المدى، وهو بالكرامات موصوف، وفي كرخ هذه المقامات معروف، وهو في ربوة ذات قرار، فيها جنات تجري من تحتها الأنهار، محفوف باليمن والأنس، كأنه اقتطع من حظيرة القدس.

يحكى أنه لما كان، فاعلاً في ذلك البنيان، وقع[2] في جبهته نقطة من الطين، فرأى ذلك أحد من المباشرين، واستمر ذلك الطين على هذه الحال، نحواً من ثلاث ليال، فلما أرادوا وضع المحراب، وقع الاختلاف في الخطأ والصواب، وكثر في ذلك الصخب والاضطراب، فقال الشيخ زكريا: ضعوا المحراب على هذه الفقرة ولا تعدلوا عنها يمنة ولا يسرة.

فقال ذلك المباشر، لمن في ذلك المكان حاضر، يا للعجيبة، والقضية الغريبة، رجل لم يغسل وجهه ثلاثة أيام (يرشد الناس الى معالم الاسلام فقال ذلك العابد الزاهد: أو رجل هو من لم يتم ثلاثة أيام)[3] بوضوء واحد، ولكن تعال أيها الجاحد، قف مكانك، وثبت جنانك، ولا تكن ممن أنكر وتولى، وانظر إلى عروس الكعبة كيف تجلى[4]، فنظر ذلك الذي أنكر، فإذا الكعبة أمامه تتبختر، ثم التفتوا الى الشيخ ففقدوه، وطلبوه أرضاً وسماءً فلم يجدوه.

وهذا المسجد فيه شيء عجب، عدة اسطوانات من خشب، من جملتها سارية شمخت ارتفاعاً، نحو من خمسة عشر ذراعا، وغلظ جسمها وبدنها، فلا يقدر الرجل (على أن)[5] يحتضنها، وباقي السواري بها قد حطن، قيل: إنها شجرة قطن، ولها خاصية عجيبة ظريفة غريبة: من كان به وجع الضرس يضع عليه مقدار حبة من خشب ذلك البرس، فإنه ينفعه، ويسكن في الحال وجعه، جربته فصح، ويُسأل من يَدَّعي رؤية سمرقند عما رأى فيها من العجائب، وشاهده من علامات الطرائف

(١) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

(٢) ورد في إحدى النسخ: وقطع.

(٣) أثبتناها في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ ومن المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق، ولم ترد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م.

(٤) ورد في بعض النسخ: وهي تجلى.

(٥) لم ترد في بعض النسخ.

والغرائب، فإن أخبر برؤية هذه السارية الفائقة، كانت رؤياه صادقة، واعتدّ له بصدق الكلام، وإلا كانت رؤيته أضغاث أحلام.

(فصل)

سمرقند ليس فيها كيل ولا صاع يُصان، ولا يجري على جنس المكيلات فيها بالكيل حُسبان، وإنما معرفة حساب ذلك عندهم بالميزان، ورطل سمرقند أربعون أوقية، كل أوقية بالمثاقيل مائة، فيكون رطلهم أربعة آلاف مثقال، كل مثقال درهم ونصف من غير زيادة ولا إخلال، فعلى هذا رطلهم بالدمشقي عشرة أرطال.

حكى لي مولانا محمود الحافظ المحرق الخوارزمي، ولقب بالمحرق لأن سهام ترجيعاته كانت تصيب حبات الحشاشات إذ ترمى، ويفوق رَنَّات أوتارها نحو آذان القلوب فَتَصمى ولا تنمى، فإن سَدَعت من القلوب حجراً، تطاير من اقتداحها في الأرواح شررا، فيحرق برناته الأرواح، ويشعل[1] بنغماته الأشباح.

قال استصحبني تيمور في بعض أسفاره، فكنت ملازم خدمته في ليله ونهاره، فنزلت عساكره على حصن تحاصره، وضرب خيمته على مكان عال، ليشرف منه على القتال، ويتفرج في صنع الرجال، ففي بعض الزمان، حضرت عنده أنا ورجلان، وكان قد حصل له حمى، أورثته كرباً وغما، وكانت سماء النزال ذات حبُك واحتباك، ورماح القتال في التواء واشتباك.

فأراد أن يطالع أحوالهم، ويشاهد أفعالهم، وأفرطت شهوته في ذلك الى العيمة: فقال: احملوني الى باب الخيمة، فدخل ذلك الرجلان تحت إبطيه، وأوقفاه بباب الخيمة وأنا بين يديه، فجعل يشاهد حربهم، ويتميز طعنهم وضربهم، ثم أراد أن يأمرهم بشيء، فقال لي: يا محمود إلي: فأسرعت إلى يده، ودخلت تحت عضده، فأرسل أحد الرجلين إلى عسكره يأمرهم بما عن (له)[2] من عَجره وبُجره فكأنه لم ير عليلا، ولم يرو غليلا، فقال لنا دعاني، وعلى الأرض ضعاني، فوضعاه فسقط كأنه رمَّة بالية، أو لحمة على بارية، ثم أرسل ذلك الرجل الآخر اليهم، وأمرهم بما اقتضته آراؤه وأكد عليهم، فبقيت أنا وهو وحدنا، ولم يبق أحد عندنا، فقال لي: يا مولانا محمود، انظر الى ضعف بنيتي، وقلة حيلتي، لايد لي تقبض، ولا رجل

(١) ورد في بعض النسخ: ويشغل.

(٢) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق

تركض، لو رماني الناس هلكتُ، ولو تركوني وحالي ارتبكت، لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً، ولا أجلبُ خيراً ولا أدفع شراً.

ثم تأمل كيف سخَّر الله تعالى لي العباد، ويسر لي فتح مغلقات البلاد، وملأ برُعبي الخافقين، وأطار هيبتي في المغربين والمشرقين، وأذلّ لي الملوك والجبابرة، وأهان بين يدي كل الأكاسرة والقياصرة، وهل هذه الأفعال إلا أفعاله، وهذه الأعمال إلا أعماله؟ ومن هو أنا غير سطيح ذي فاقة، لا باب لي في الدخول إلا هذه الأفعال ولا طاقة، ثم بكى وأبكاني، حتى ملأت بالدموع أردانى، فانظر الى هذا الوبر كيف سلك بهذا القول مسلك القائلين بالجبر، وأنشدوا فيه (بالفارسي بيتين وهما)[1]:

ينم تنى ملك جهانرا كرفت — حشم كُشا قدرت يزدان ببين
باي نه وتخت بزيّر قدم — دست نه وملك بزير نكين

ترجمته فقلت دوبيت:

قد أظهر قُدرة بخافي حكمه — من ملك شقى الدنا في قسمه
لا كف له والملك في خاتمه — لا رجل له والتخت موطىء قدمه

(فصل)

وأما عساكره وطرائق سلوكهم، فإنهم على دين ملوكهم، كانوا استدرجوا من حيث لا يعلمون، ورزقوا من حيث لا يحتسبون، مُسَخَّراً لهم خفيات الدفائن، مفتوحاً عليهم خبيَّات[2] الخزائن، ميسراً لهم مكامن المطالب والمعادن، كل طرف منهم قد جال وسطا، وصار بطرق اللوم أهدى من القطا، قد دربوا الأمور، وجربوا أحوال الدهور، وقاسوا معاصر[3] العصور، وكابدوا المكايد، وعالجوا الشدائد، ومارسوا الأشياء، وذاقوا الناس والدنيا، وعرفوا مداخل كل مأزق ومخارجه، وأدركوا مداركه ومعارجه، لا يدهيهم داهية، ولا يطغيهم طاغية، ربما يمرون بقفراء ويجيزون بمهمه صحراء:

لا يفزع الأرنب أهـــوالها — ولا ترى الضبّ بها ينجحر

فيقف بعضهم ثم تراه، ينظر إلى أرض ذلك المكان وثراه، ثم يقول: ليس هذا

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: جنيات.

(٣) ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: وقاسوا مضايق العصور.

الثرى، من هذا البرى[1]، ثم ينزل عن دابته، ويأخذ من ذلك التراب ويَشمّه، ثم يلتفت إلى جهاته الأربع فيقصد منها جانباً ويؤُمّه، ثم لا يزال يسير بمن معه من الأعوان، حتى يصلوا إلى مكان، فيحفروه ويخرجوا كمين الدفائن، وما في ذلك (المكان)[2] من المغلات والخزائن.

وكذلك إذا وصلوا الى عمائر، أو مروا على مقابر، يتوجهون الى الخبء كأنهم وضعوه بأيديهم، أو أوحت شياطينهم ذلك اليهم، وربما يجيئون الى مقام، مر على ساكنه فيه أيام، ومضى عليه فيه شهور وأعوام (وفيه شيء مطمور، لم يكن لصاحبه وساكنه به شعور)[3] فبمجرد دخولهم اليه، يفتح ذلك عليهم ويطلعون عليه، وحين يطلع ساكنه على ذلك يأكل ندامة وحسرة يديه.

وكان لهم درايات في دهرهم عجيبة، وسهام آراء[4] في عمرهم مصيبة، وكانوا يحملون البقر ويركبونها، ويسرجون الحُمُر ويلجمونها، ويسابقون على ذلك أصحاب الخيل العراب إلى (إحراز)[5] قصبات المغانم فيسبقونها ويطعمون الجمل، لحم الكلب والحمل، ويعتاضون عن شعير الفرس، بالقمح والأرز والدخن والزبيب والعدس، وربما أعوزهم ذلك في السفر، فأطعموا دوابهم لحاء[6] الشجر.

حكى (لي)[7] القاضي برهان الدين ابراهيم بن القوشة الحنفي المذكور رحمه الله تعالى، أن قازان والتتار، لما قدموا هذه الديار، خرج من له قوة الفرار فاراً من الشرور، كما فعلوا في قضية تيمور، ومن جملتها تاجر بالصالحية، كان في عيشة رخية، وله أموال وافرة وفية، جمع ماله من صامت المال، ووضعه في قدرة فوال، ثم عمد إلى بركة ماء فحفرها، ووضع تلك القدرة تحتها وطمرها، ثم ردها إلى مبانيها،

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الثرى. والبرى : التراب.
(٢) لا توجد في بعض النسخ.
(٣) لا توجد في بعض النسخ.
(٤) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : وسهام رايات.
(٥) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ، وورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : إلى اذان قصبات المغانم.
(٦) اللحاء: قشر الشجر.
(٧) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

وأعاد مياهها الى مجاريها، وحين استتب الوثوب، وقدمت الدواب للركوب، قالت له إمرأته[1] : نسينا قُرطيّ[2]، وأخاف أن يحدث عليهما في الطريق شيء[3]، فانظر لهما مكانا، وحصل لنا بذلك أمانا، فقال : أما الان، فلا مكان، ثم أخذهما ووضعهما في سقف سقيفة، على خشبة لطيفة.

ثم ركبا، وتركا الديار وذهبا، فلما حلَّ بدمشق التتار، نزل منهم فرقة في تلك الدار، فجعلوا يأكلون ويشربون، وهم في خوضهم يلعبون، فبينا هم بعض الأيام في النشاط، قرض الفأر أحد تلك الأقراط، فتدحرجت لؤلؤته وسقطت على البلاط، فتبادرت الجماعة اليها جارية، كأنهم يتسابقون الى قُرطي مارية، فسبقت الجماعة، ودخلت البلَّاعة، فكشفوا عن وجه الأرض ستر خدرها، فوجدوا الأموال كما هي في قدرها، فأخذوها واللؤلؤة وأخرجوها وقصدوا باقي القرطين واقتسموها.

وجماعة تيمور أيضاً كذا كانت، وكل معضلة من القضايا إذا وصلت اليهم هانت[4]، وكل منهم كان على دين ملكه في فنه الى غايته عرج، فإن كنت محدثا عن أحوالهم وأخبارهم فحدث عن البحر ولا حرج.

(فصل)

يحكى أن واحدا منهم من أهل الذكاء والكيد، أراد في فصل الشتاء التنزه فقصد الصيد، فأخرج مركوبه وهو بقرة، فشدَّ عليها سرجه وهو خشبة مكسرة، غرزه قضيب مدور، وحزامه حبل مبتر، وتجمل بلباسه وهو جلد فروة منهوش، وبتاجه وهو طرطور من لبد منقوش، وشدَّ كنانته وهي جلود ممزقة، مشدودة بحبل وعليها خروق ملزقة، سهامها قد التوت، وحنيتها قد استوت، ومعه بازي قد نتف القرناص ريشه، وقلع عن حقل بدنه زرع خوافيه وحشيشه.

ثم ركب جواده، وحمل بازيه وقصد اصطياده، فرأى جماعة من البط، على ساحل غدير حط، فرفع يده بالبازي ساعة، حتى عاين تلك الجماعة، ثم وضع يده بخفض، وأرسل البازي على الأرض، فصار يحجل رويدا، وقد أضمر للبط كيدا، إذ

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : قالت له أمه.
(٢) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : قرطين.
(٣) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : وشين.
(٤) وردت في بعض النسخ : هامت.

لم يكن له قوة الطيران، ولا جناح به يُستعان، فوصل الى الطير بسكون، وهي آمن ما تكون، لأنها ما تتوقع البلاء، إلا من جهة السماء، فدخل بينها فما نفرت منه، ولا هربت عنه، فلم تشعر إلا وقد وثب على واحدة وفَلَذَها، فأدركه صاحبه وأخذها.

ولما رحلوا عن دمشق، وقد مشقوا أوراق نعمها من أغصان وجودها أي مَشق، كان مع بعضهم بقرة نهبها وحَمَّلها ما أخذه من الأموال التي سلبها، وأركبها أسيرة؛ وسار بها مدة يسيرة، فبعد سيرها يومين أو ثلاثة قلقت، ونادت بلسان حالها أنها ما لهذا خلقت، فلما لم تجد مشكيا مما شكت، توكلت على الله وبركت، فأنزلوا الراكبة عنها وصاحوا عليها فلم تقم، فحلوا أحمالها وضربوها فلم تتحرك، فأوجعوها ضرباً، وأشبعوها لعنا وسبا، وتلك المباركة باركة، فأدموها وهم يضربونها، إلى أن كادوا يهلكونها، فمن شاحط بمقدمها، ومن جاذب بمؤخرها، ومن متعلق بقرنها، ومن متشبث بأذنها، وهي جاثمة مشبهة فيل أبرهة[1]، فعجزوا عنها، وأيسوا منها.

فبينا هم على ذلك، وقد ضَاقت عليهم المسالك، وإذا بشيخ كوسج، كأنه شجرة عوسج، قد سلك المشارق والمغارب، ومرت به أنواع التجارب، وقاسى برد الأمور وحرّها، وذاق حلوها ومُرَّها، وعرف خيرها وشرها، مرَّ بهم وهم في كربهم، فلما رآهم أسارى، عاجزين حيارى، سكارى وما هم بسكارى، قال تنحوا عنها أي جنة، ثم دنا منها دنو الراقي من ذي جنة، وأخذ كفا من تراب، أنعم من عيش الشباب، ثم قبض على قرنها، وصبه في أذنها، ثم هز رأسها في مناخها، حتى وصل التراب إلى صماخها، فوثبت قائمة، وهي من ذلك الرغام راغمة، وجعلت تنفض راسها، وزادت اضطرابها وشماسها، وطلبت المسير، وكادت تطير، فأعادوا عليها أحمالها، وزادوا أثقالها، فصارت تلك البليها تعدو ولا يقدر عليها.

(**فصل**) وكان في عسكره من الترك عبدة الأصنام، وعباد النار من المجوس الأعجام، وكهنة وسحرة، وظلمة وكفرة، فالمشركون يحملون أصنامهم، والكهان يسجعون[2] كلامهم، ويأكلون الميتة والدم المسفوح، ولا يفرقون بين مخنوق

(١) تراجع قصة فيل أبرهة في تفسير سورة الفيل في القرآن الكريم (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل..).

(٢) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : يشجعون كلا منهم.

ومذبوح، وناس حزاءون، وزواجر خراصون، ينظرون في ألواح الضان، ويحكمون بما يرون فيها على أحوال كل مكان، وما حدث في كل بقعة، من الأقاليم السبعة، من الأمان والخوف، والعدل والحيف، والرخص والغلاء، والسقم والشفاء، وسائر ما يكون، فلا يكادون يخطئون.

ولهم أيام وشهور وأعوام، كل عام منسوب الى حيوان، يحسبون ما مضى من السنين، فلا يتأتى فيها زيادة ولا نقصان.

وفي الخطا لهم خط يسمى دلبرجين، رأيت حروفه أحداً وأربعين، وسبب زيادته أنهم يعدون التفاخيم والامالات حروفا، وكذلك البين بينات، فتتولد الزوائد، وكل حرف زائد، وأما الجغتاي فلهم قلم يسمى أويغور[1]، وهو بالقلم المغولي مشهور، وعدته أربعة عشر حرفاً وهذه مقطعاته:

(١) الأويغور *OUIGOUR = UYGUR* : يطلق هذا اللفظ على قوم من الأتراك يدينون بالمسيحية والبوذية والمانوية، وهم بصفة عامة أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدناً، وكذلك يطلق على المنطقة التي يسكنوها، والواقعة شمال شرقي تركستان وشمال نهر تارين. أهم مدنهم تورفان، وقره شهر. وكان لهم خطٌ خاص بهم، أخذه المغول عنهم عندما اختلطوا بهم، ودونوا به كتاباتهم. (راجع عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ص ١٦ ، وفؤاد عبد المعطي الصياد : مؤرخ المغول الكبير ص ٣ ، بسام الجابي : مجلة البصائر ١٣٩/٢).

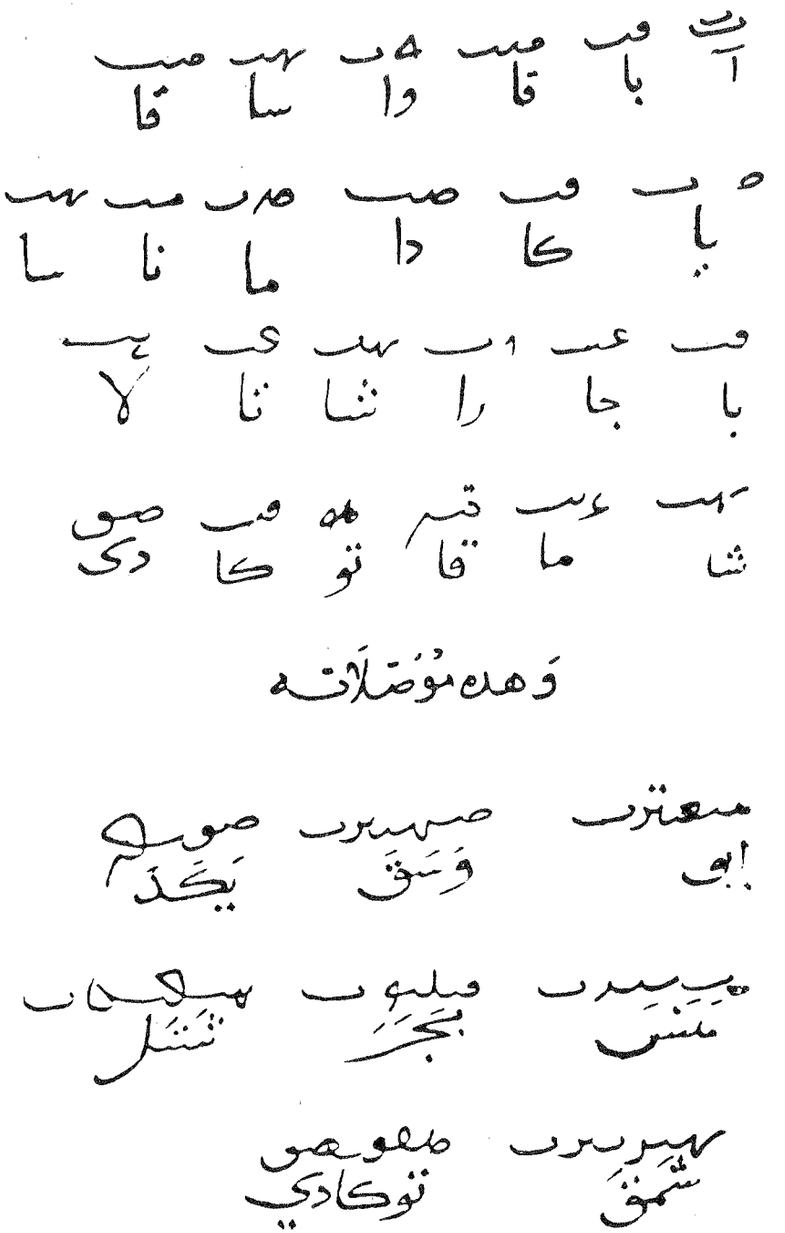

رسم القلم الموغولي

وسبب نقصانه وانحصاره في هذا العدد، أن حروف الحلق يكتبونها على هيئة واحدة، وكذلك تلفظهم بها، ومثل هذه الحروف المتقاربة في المخرج مثل الباء والفاء، ومثل الزاي والسين والصاد، ومثل التاء والدال والطاء، وبهذا الخط يكتبون تواقيعهم ومراسيمهم، ومناشيرهم ومكاتيبهم، ودفاترهم ومخاتيمهم، وتواريخهم وأشعارهم، وقصصهم وأخبارهم، وسجلاتهم وأسفارهم، وجميع ما يتعلق بالأمور الديوانية[1]، والتوراة الجنكيزخانية، والماهر في هذا الخط لا يبور بينهم، لأنه مفتاح الرزق عندهم.

(**فصل**) وكما كان فيهم من جُبل على الفظاظة، والقسوة والغلاظة، ومن هو قليل الرحمة بل وعديم الاسلام، كفرة فجرة أوغاد أنذال طغام أغتام، قد اتخذوه من دون الله هادياً ونصيرا، واستكبروا به في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً، استجرَّهم كُفرهم وحبهم إياه، إلى أنه لو ادّعى النبوة أو الالهية لصدقوه في دعواه، كل منهم يتقرب الى الله تعالى ببره، ينذر له إذا وقع في شدة ويفي بنذره، واستمر على اعتقاده الباطل وكفره، مدة حياته وبعد موته، ينقل النذور ويقرب القربان الى قبره، وكان قد ترقى معه في المصاحبة، حتى وصل إلى مقام المراقبة.

قيل: إنه كان في سفر، فرأى واحداً من العسكر، كأن الكرى عطف رقبته، أو السرى أمال شقته[2]، أو على حال لا يتوجه عليه فيها لوم ولا عتب، فضلاً عن أن يترتب عليه ضرب أو سب، فقال تيمور: ترى ما ثم أحد قاطع، يقطع رأس هذا الفاعل الصانع؟ ولم يزد على هذا الكلام، فسمعه واحد من أولئك الكفرة اللئام، إسمه دولت تيمور، وهو أمير كبير مشهور، قد ألبسه الله ثوب النقمة، ولم يُشمه شيئاً من روائح الرحمة، ففي الحال سل رأسه من بين كتفيه، وحمله الى تيمور ووضعه بين يديه، فقال تيمور: ويلك، ما هذا الأمر الأفظع؟ فقال: هذا الرأس الذي أشرت أن يقطع، فأعجبته هذه العبارة، وابتهج بأن أمره يمتثل بأدنى إشارة.

كان فيهم الظرفاء والأدباء، والأذكياء والشعراء، ومنهم في الفضل أعلام وعلماء، وفيهم المحقق، والباحث في العلوم والمدقق، ومن شارك في كل العلوم وبحث فيها بحثاً شافياً من طريقي المنطوق والمفهوم، ويقرر مذهب الصوفية وإحياء العلوم.

---

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الدنيوية.

(٢) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : شفته.

ومع هذا فبعضهم يمضي على مقتضى ما علمه، وكان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وبعضهم كان مع رقة الحاشية، واللطافة الفاشية[1]، والعلم الوافي، والظرف الشافي، والجمال الفائق، والكمال الشائق، والكلام الرائق، قلبه أقسى من الحجر، وفعله أنكى من ضرب الصارم (الذكر)[2]، يقولون من قول خير البرية، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وإذا وقع مسلم في مخاليبهم، أو ابتلى غريب بتعذيبهم، صنف ذلك العالم المحقق، والحبر المدقق، في استخراج المال (منه)[3] أنواع العذاب، وأصناف العقاب، واستحضر في فنون تعذيبه كتباً ومسائل، وسرد في علوم تثريبه خطبا ورسائل، فيصير ذلك المسكين يتكوى، ويستغيث ويتلوى، ويستجير بالله وآياته، ويستشفع بكل ما في أرضه وسمواته، من ملك ونبي، وصديق وولي، وذلك المليح يضحك ويتظارف، ويتمايل ويتلاطف، وينشد لطائف الأشعار، ويتمثل بطرائف النوادر والأخبار، وربما تحرق وبكى، وتأوه لما يفعل بذلك من التعذيب وانتكى، وصار كبعض قضاة الاسلام، المستولى على مال الأيتام، يخطب ويبكي، وفعله في قلوب المسلمين يُنكي.

ولما كانوا في دمشق دخلوا الى بيت واحد من الأعيان بزقاق العجم، وإذا هو مملوء من النفائس والخيرات والنعم:

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام

فقبضوا على صاحب ذلك المنزل وربطوه، وبأنواع العذاب والعقاب عذبوه، ثم أحكموا رجليه شداً وعلقوه، واستخرجوا النفائس، واستجلبوا من حسانها العرائس، وأحضروا لذيذات المطاعم والمشارب، وقضوا من التفكه والتنعم مالهم من مآرب، وجعلوا يأكلون ويشربون، ويلهون ويطربون، وإذا تحرك في واحد منهم الخبث أو ثمل وأخذه في سكره العبث، عمد إلى ذلك المسكين، وهو في شدة النكاد، فسقاه الماء والملح، وسففه الكلس والرماد، وكان فيهم عالم متقشف، عن تناول المسكرات متعفف، كما قيل:

(١) أثبتناها كما وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق. وفي طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: الغاشية.

(٢) لا توجد في بعض النسخ.

(٣) لا توجد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

عجبت من شيخي ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب من فضة ويسرق الفضة إن نالها

فكانوا إذا أرادوا القدح المزعفر، أحضروا له السكر المكرر، ووضعوه له في صيني الخوافق، وصبوا عليه الماء الرائق، فيسكرون هم بالأقداح القوادح، ويسكر ذلك الفاسق المحروم من الروائح، ثم يتوجه الى صاحب المنزل، ويضحك عليه وهو في أشد ما يكون من العذاب ويسخر منه ويهزل، ثم يتمايل على صوت المثاني والمثالث، ويتناول من تلك المآكل والمشارب، ويقول بَشِّر مال البخيل بحادث أو وارث.

وكان في عسكره كثير من النساء يلجن معامع الهيجاء، ووقائع البأساء، ويقابلن الرجال، ويقاتلن أشد القتال، ويصنعن أبلغ ما يصنع الفحول من الرجال في النزال، من طعن بالرمح وضرب بالسيف ورشق بالنبال، وإذا كانت إحداهن حاملاً وأخذها وهم سائرون الطلق، تنحت عن الطريق واعتزلت الخلق، ونزلت عن دابتها ووضعت حملها، ولَفَّتْه وركبت دابتها وأخذتْه ولحقت أهلها.

وكان في عسكره ناس ولدوا في السفر، وبلغوا وتزوجوا وجاءهم الأولاد ولم يسكنوا الحضر.

وكان في عسكره ناس صلحاء عباد، ورعون زهاد، أجواد أمجاد، لهم في الخيرات أوراد، وفي وردها إصدار وإيراد، دأبهم خلاص مأسور، أو جبر مكسور، أو إطفاء حريق، أو إنقاذ غريق، أو اصطناع معروف، أو إغاثة ملهوف مهما أمكنهم، ووصلت اليه يدهم، إما بقوة وأيد، وإما بنوع خديعة وكيد، وإما باستيهاب واستشفاع أو تعويض وابتداع، وكانوا سائرين معه بالاضطرار، أو دائرين معه لهذه المعاني بالاختيار.

حكى لي مولانا جمال الدين أحمد الخوارزمي أحد القراء المشهورين المجودين، وكان إمام محمد سلطان في حياته، وإمام مدرسته بعد وفاته، ثم خطيب بروسا وبها أدركته المنية، سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، رحمه الله تعالى قال:

كنت في سمرقند في مدرسة محمد سلطان، أعلم مماليكه وأولاد الأمراء القرآن، فأرسل اليه جده الظلوم، وهو متوجه الى بلاد الروم، أن يتوجه اليه، ويفد هو والأمير سيف الدين عليه، فامتثل ما به أمر، وأخذ في إعداد أهبة السفر، وقال لي: هيىء

مرافقك، واقطع علائقك، وخذ أهبة سفرك، واعمل مصلحة رهطك ونفرك، ووافقنا في المرافقة، فإن من حسن المرافقة الموافقة، فاستعفيته من الذهاب، وفتحت له في سد خوخة السفر كل باب، وقلت له: يا مولاي أنا رجل من أهل القرآن والفاقة، مالي بفتح باب السفر من طاقة، لأني ضعيف البنيان، رخو الأركان لا جَلَد لي على الحركة، وإن كان في صحبة مولانا الأمير كل خير وبركة، خصوصاً على هذا السفر البعيد الشقة الكثير المشقة، ومع كوني ليس لي على ذلك من طاقة، لاجمل لي في مناخ السفر ولا ناقة.

وأما أنتم فالسفر عليكم حتم لازم، وحق ملازم، لا يسعكم فيه التخلف، ولا يفسح لكم فيه المطل والتسوف، فلم يعفني، وتعلل لي بعلل عللني فيها ولم يشفني، فلم أر بداً من الاستعداد، وتحصيل الرفيق والزاد.

ثم سرنا حتى وافينا جده، وقد ركب في الجادة جِده، وجَده، ورأينا من تلك العساكر، بحاراً لا أول لها ولا آخر، إن انفرط أحد من سلك جماعته، أو ضلَّ معتزلاً عن سنن سُنَّته[1]، لا يصل إليهم بالسرج والشمع، (ولا)[2] يهتدي إلى سنة جماعته إلا إن كان يوم الجمع.

فبينا أنا معهم أسير، وقد وهن مني العظم الكسير، وأثر في التعب، وأخذ مني النصب والوصب، ومللت السرى، وعدمت الكرى، نفضت يدي من الرفيق، وأخذت على فجوة من الطريق، فلما أن خلوت، هينمتُ بالقرآن العظيم وتلوت، ثم استهواني الذوق والشوق، فحلقت بمراشيق حلقي إلى فوق، وكان صوته أطيب من رقيق المقطوع على رخيم الموصول، وألذ من جمع شمول، على كأس شمول، بنسيم الشمال معلول، وبرضاب الحبيب مشمول.

قال: وإذا برجلين ضعيفين، كالعود البالي نحيفين، أشعثين أصفرين، ذوي طمرين أغبرين، بصرا بي عن جنب، وعَلِقا بي علوق الوتد بالطنب، فجعلا يراقبان أحوالي، ويستمعان أقوالي[3]، فلما زمت زمزمتي، وكففت هينمتي، وكتمت في

(١) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ. وقد ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: سفينته.

(٢) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق.

(٣) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: لأقوالي.

خزانة صدري جواهر كلماتي، وختمت بطابع دعائي زواهر آياتي، بكيا لمناجاتي وأمَّنا على دعواتي، ثم أقبلا نحوي وسلما، واهتزا لما سمعاه من تلاوتي وترنما، وقالا: أحيا الله قلبك كما أحييت قلوبنا ومحوت بما سطرت في ألواح صدورنا، بحسن تلاوتك ذنوبنا.

ثم إنهما آنساني بالخطاب، وجارياني بالسؤال والجواب، وإذا هما من صميم الجغتاي، وخالص عسكر تيمور، ومن ضئضىء التتار وسنخ الفتن والشرور، ثم سألاني عن نجاري ووجاري، وعن رفيقي في هذا السفر وجاري، فأخبرتهما عن مولدي ومحتدي، ومسقط رأسي من بلدي، وأني من أهل القرآن، وأني مع محمد سلطان.

فقالا لي: يا سيدنا الشيخ إنما جئنا اليك لتحسن الينا، وإنا سائلوك عن شيء فلا تجد فيه علينا، فقلت (قولًا)[1] وطولاً، فلن تجداني ملولا، فقالا: يا مولانا هذا شيء يعنينا، وإن كان قد عنانا، وكل من اشتغل بما لايعنيه، فقد ترك ما يُعَنِّيه، ووقع فيما يعنيه، ومن لم يعرف الخير من الشر وقع فيه.

فبالله يا سيدنا قل: من أين تأكل؟ فقلت على خوان محمد سلطان، فقالا: مأكول هذا العسكر حلال، أم حرام ووبال؟ فقلت: الغالب عليه الحرام، بل كله والله مظالم وآثام، لأنه من الثارات والنهب، والغارات والغصب، والاختلاسات والسلب.

فقالا: والله يا إمام، لقد أسأنا الأدب إذ واجهناك بهذا الكلام، ولكن أنتم أهل العلم، شيمتكم العفو عن الجاني والحلم وأنتم أولى بجبر الكسير وفك الأسير، وتيسير العسير، فقابل منا هذا الفحص بالصفح ولا تعامل هذا الالحاف باللفح.

فقلت: سلا ولا تسلسلا، فقالا نسألك بالله الذي اصطفاك لخزن كلامه، الذي تعبد به عباده وبين لهم فيه معالم حلاله وحرامه، لا تؤاخذنا بما تهجمنا عليك به، فإن الشيخ المرشد كالوالد الشفوق[2] لا يؤاخذ ولده بقلة أدبه، فقلت: كلا سَلَا ما شئتما، وسَلسَلا مهما أردتما.

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) أثبتنا ما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ، وقد ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: الشفيق.

فقالا : يا سيدنا أما كان لك مندوحة عن مرافقة هؤلاء اللئام ، والتعفف بالحلال استغناءً عن الحرام ؟

فقلت : إني دخلت فيهم وأنا مضطر ، وخرجت معهم وأنا كاره مجبر ، وأكرهني محمد سلطان ، وحاياني بما حباني من الاحسان ، فصحبتهم وعين ذاتي من كُحل الراحة مرها ، وحملتني فرسي في سفري كرها ووضعتني كرها ، فقالا : أرأيتك لو امتنعت عن الخروج أكانوا يريقون دمك ويأسرون أولادك ويسبون حُرمك ؟ فقلت : لا والله ، وحاشا لله ، فقالا : أكانوا يحبسونك ، ويضربونك وفي مقام المصادرة يجلسونك ؟

فقلت : أنا أمنع جنابا ، من أن يسوموني خسفاً وعذابا ، لأني حافظ القرآن ، والقرآن حافظي من هذا الخسران ، قالا : فغاية فعلهم معك ، إذا رأوا تعززك وتمنعك ، أنهم كانوا يشتمونك ، ويعمدون الى معلومك فيقطعونك ، ويسخطون عليك ، ويمنعون برهم الواصل اليك ، فقلت : ولا كانوا أيضاً يفعلون كذا ، وتعززي وتمنعي ما يحط من مكانتي عندهم الى هذا الأذى ، ولكنهم حَايوني فاستحيت ، وخادعوني فانخدعت وليتني أبيت .

فقالا : لا يصلح هذا لك عذراً وحجة ، ولا يسلك بك إلى صحة الاعتذار بين يدي الله تعالى سواء المحجة ، فهلا جلست في مكانك واشتغلت بتلاوة قرآنك ، ومطالعة علمك ومباحثة إخوانك ، وفَرَّغْتَ بدنك عن الكلال ، وملأت بطنك من الحلال ، واحتميت في حمى دينك عن هؤلاء اللئام ، واسترحت من الاضطرار الى تناول الحرام ، مع أنا سمعنا من أمثالكم ، ما قد ضرب في أمثالكم (أهل القرآن وقاصته ، أهل الله وخاصته) وأنهم عتقاؤه بين خلقه ، وببركاتهم أَدَرَّ سحاب رزقه . وإن السلاطين ملوك الناس أجمعين ، وإنكم أنتم ملوك الملوك والسلاطين ، وإذا أعتقكم الله أعفاكم الناس ، وصرتم لانسان العالم بمنزلة القلب والكبد والراس ، ولم يبق لأحد عليكم سلطة ، ثم ألقيتم أنتم أنفسكم بأيديكم الى هذه الورطة ، وتهافتم على التهالك تهافت الفراش على النار ، وتشبثتم مع كونكم قادرين على الخلاص بأذيال القسر[1] والاضطرار ، فكيف يصحّ هذا الاعتذار ؟ وأنى ينجيكم هذا العذر من عذاب الملك الجبار ؟ وهل صرتم إلا كما قيل :

(١) ورد في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ : الضر .

معاشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

فقلت : أما إذ حررتما القضية ، فكلنا في هذه المصيبة سوية .

« بي مثل ما بك يا حمامة فاندبي »

وقيل :

بي مثل ما بك يا حمام البان أنا بالقدود وأنت بالأغصان

فبكيا وانتحبا ، وتأوها والتهبا ، وتنفسا الصعدا ، وقالا : أين ما بين قصتنا وقصتك في المدى ؟ فَوربّ الخافقين ، إن بين القصتين لبُعد المشرقين ، ولكن ما للمقال مجال ، وما كل ما يعلم يُقال ، وأين السر من الاعلان ؟ وإن الحيطان لها آذان . فقلت : هذا أيضاً ليس بحجة ، فلا تعدلا عن سواء المحجة .

فقالا : نحن المضطرون جبراً ، المأخوذون قهراً وقسراً ، وإنا مكتوبون في الديوان ، مضافون الى واحد من أعيان الأعوان ، إذا ورد علينا مرسوم بالبروز ، في يوم عيد مثلاً أو نوروز ، ويكون الخروج وقت الظهر ، وتأخر منا واحد الى وقت العصر ، لم يكن له جزاء فيما ارتكبه ، إلا الصلب أو ضرب الرقبة ، فضلاً عن ضرب وشتم وشناعة ، أو زفع[1] عدل أو تقديم شفاعة ، وأين أنت عن قعود ما أو تخلف ، أو استتار بذيل توار أو توقف ؟ فنحن مدى الدهر لمثل هذا مستوفزون ، وعن مثل ما جرى على أضرابنا من هذا البلاء متحرزون ، مصيخون أبداً لما أشار وما أمر ، عاملون بمقتضى « رحم الله من رأى العبرة في غيره فاعتبر » .

(و)[2] يا ليتنا أمكننا التحويل عن مملكته ، والرحيل عن إقليم ولايته وسلطنته ، وكيف لنا بذلك وهي مسقط رأسنا ومحل أناسنا ، ومحط إيناسنا ، وإيلاف رحلتنا ، ومزدرعات معيشتنا ، ومدرج آبائنا ، ومخرج أبنائنا ، ومقام قبائلنا وعشائرنا ، ومثابة قاطننا وغابرنا ، ولو غاب من هوام قبائلنا جُدجُد فضلاً عن بلبل أو هُدهُد ، لجحف الباقين سيل الظلم والحيف ، ولتحكم في رقاب سائرنا صائل الموت بالسيف .

وأما إذا برزنا ، وعزمنا على المسير معه وتجهزنا ، فنسأل كم سنة يغيب ، وأي جهة يريد ذلك المريد المريب ، فنأخذ أهبتنا لذلك المقدار ، وكل منا ابن عم للآخر وجار ،

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق : دفع .

(٢) أثبتناها من طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ والمخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق .

وله جرابه فيه سويقه، ومعه كلفة نفسه وفرسه وعليقه، يصوم مدى الدهر ويفطر على ما يسد الرمق، ويلبس ما يستر العورة من رث الثياب والخلق، كل ذلك من زرع أيدينا وكدّنا، وما بذلنا فيه من عرق جبيننا، والحلال غاية جهدنا، لا نتعرض لمال أحد ولا لعرضه، ولا نقف في طريق إبرامه ولا نقضه، ولا لأحد عندنا نشب، ولا بيننا وبين أحد علاقة ولا سبب، ولكن يا مولانا البلاء الطام، والمصاب العام.

ثم رقصا رءوسهما يميناً وشمالاً، وارتعدت فرائصهما هيبة وجلالاً، وابيضت شفاههما، واسودت جباههما، وأخذا في البكاء والعويل، وانتحبا الانتحاب العريض الطويل، فوالله لقد ذابت نفسي لديهما، واستصغرت كبار المشايخ بالنسبة اليهما، وتفكرت فيما هما فيه من شدة الأمر، وعلمت أنهما القابضان بكفيهما على الجمر، ثم تأوهت آها بعد آه، وقلت بالله يا إخوتاه، وما هذا البلاء الطام والمصاب العام الذي ذكرتماه؟ قالا: خيولنا ومواشينا، وحوامل مهادنا وغواشينا، نرفق بها في التحميل، وما نركبها إلا وقت الاعياء في الرحيل، وأمر قضيمها قصم ظهرنا، وأعجز أمرنا، واضطرنا الى الخوض في دماء المسلمين وأموالهم، وألجأنا الى رعي زرعهم وتحمل وبالهم.

وما ندري كيف المخلص، وأنى ننجو من ذا المقنص؟ فبالله يا سيدنا الشيخ هل تجد لنا في هذا الأمر الغالي رخصة؟ أو هل من قطرة برود تطفىء هذه الحرارة وتسكن شرق[1] هذه الغصّة؟

فقلت: لا والله إلا عناية الله، وأيم الله لقد أشبعتماني شراً، وجرعتماني صبراً ومقراً، وأسقيتماني نكداً وضرا، وكان هموم ما بي، من نُصبي وعذابي، تكفيني، إلى يوم تكفيني، فقد زدتماني بلاءً على بلائي، وعناءً على عنائي، فبالله من أنتما، وما أسماؤكما، وفي أي قطر أرضكما وسماؤكما، ومع من أنتما؟ فَحُييتما ما حَييتما، فخبراني، ولا تحيراني، لأجيء كل وقت اليكما، وأفوز بالسلام عليكما.

فقالا: يا مولانا، الحمد لله الذي برؤيتك حبانا، إن معرفتنا لا تجديك شيئاً ولا تُبرك، وعدم المعرفة بنا لا يؤذيك ولا يضرك، والغالب على ظننا يا مولانا، أنك بعد اليوم لن ترانا، وإن قُدّر اجتماع فنحن نسعى على رؤوسنا اليك، وخليفتنا الله والسلام عليك.

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: شوق.

ثم ودعاني وما وقفا، وأودعاني أليم الفراق وانصرفا.

وهذا من البحر قطرة، ومن الطود ذرة، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يصون عن الزلل أقوالنا، وعن الخطل والخلل أفعالنا وأحوالنا[1] بمنه وكرمه.

آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) بعد هذا ورد في النسخة المطبوعة عام ١٢٨٥هـ: « وحسبنا الله ونعم الوكيل » والمثبت هنا عبارة المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٩٧٩ م.

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أدّب عبده أحمد فأحسن تأديبه، وخصه إذ ربّاه يتيماً وأنشأه غريباً بكل يتيمة وغريبة، وأظهر له في بيان بديع المعاني منهج كل فن وأسلوبه، فأعجب أهل زمانه إذ أعجزهم بما آتاهم به من كل أعجوبة.

أحمده حمداً تفتقت في رياض آلائه أنوار فصاحته، وأشكره شكراً تعبقت في رياض نعمائه أزهار بلاغته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة طابقَ خبرها الواقع والاعتقاد، وأسندت الى حقيقة الصدق فصارت حقيقة الاسناد، فتمنطق الايمان بأقوالها، وتعلق الاسلام بأفعالها.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أنشأ أخبار بعثته على التوحيد وقصر فصل رسالته على وصل الاخلاص بالتعبيد، صلى الله عليه صلاة باقية بقاء إعجازه، موصولة بطنب الاطناب وصل فصيح الكلام بايجازه، وعلى آله وأصحابه شموس سماء الفصاحة، وبدور أفلاك البلاغة، وسلّم تسليما كثيراً.

أما بعد، فيقول العبد المفتقر الى مولاه المعترف بتقصيره وخطاياه، المغترف من بحار كرمه وعطاياه، الراجي في حدائق المغفرة ثمرة العفو مما جناه، أحمد بن محمد بن عبد الله، الحنفي مذهباً، العجمي لقباً (الأنصاري نسباً)[1] الدمشقي مولداً، السني معتقداً، عَامَله الله بما كان أهله، وحفظ عليه دينه وعقله.

لما كانت الدنيا دار انقلاب، ومحل تغير واضطراب، قُدِّمتْ على الأخرى للاكتساب، إما لجزيل الثواب، وإما لوبيل العقاب، وكان سيرها سريع الاحتثاث، وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، أردت أن يخلد لي ذكر، ويجول لي في خواطر الآخرين فكر، لعل رحمة تتبعني أو دعاء صالحاً ينفعني، فناداني لسان الحال، لا خيل عندك تهديها ولا مال، وأما الأولاد فليت صالحهم كفاني شره، ووازن في حياتي نفعه وضره.

(١) وردت في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ.

فلم يبقَ إلا علم ينفع، أو إفادة ترفع، وقد صنف العلماء في كل فن من العلوم ما بلغوا فيه الغاية، وتدرجوا في تقريره وتحريره من البداية الى النهاية، وعينوا معانيه متوناً وشروحاً، وبينوا فحاويه خفاءً ووضوحاً، مع أن دروس العلوم قد درست، وحدائق رياضها ذبلت ويبست، وصار الكلام فيها عياً، والمستوى في تحقيقها وتدقيقها نَياً، ولم يبق لطالب العلم به انتفاع، إلا أنه (إذا)[1] احتاج الى القوت عَرَض كُتبه لتباع.

غير أن بعض كبراء العصر، ورؤساء الدهر، وبقايا الأكياس، متشوفون لتواريخ الناس، ومتطلعون لمعرفة أحوال من ساس، من ذنب وراس، ومُستشرِقون[2] لسالف الأخبار، كيف كان أمر الناس فيه وصار.

ولم يكن فيمن مضى، من هذه الأمة وانقضى، من متغلبيها وبغاتها، ومتمرديها وطغاتها، مسلمها وكافرها، مقسطها وجائرها، عاتيها ومواتيها، مصادقها ومعاديها، صالحها وطالحها، سانحها وبارحها، غابرها ودارجها، عابرها وخارجها، مثل تيمور الأعرج، ولا أعبر منه في العتو ولا أخرج، سيره كلها عبر، وكل عبرة منها (فيها)[3] سير، أموره أظهر من أن تخفى، وما أضرمه من فتائل الفتن شرقاً وغربا من أن يطفأ.

فقصدت ما ذكرته، وذكرت ما قصدته، وتوخيت الافادة والاعتبار، لا التفاخر والاشتهار، فاعترضتني نوائب الخطوب، وكشرت دون مرامي أنياب القطوب، وجبهتني يد الردع، وصدمتني قارعة المنع، بأن أكبر الكبائر، في هذا الدهر الدائر، أدب أديب، أو فضل أريب، أو علم عالم لا سيما غريب، لقد كُرِه الأديب والفقيه، كراهية التحريم لا التنزيه، وقد تقرر هذا في الأذهان ورسخ، ولهم الذنب إذ يداهم أَوكَتَا وفُوهُم نفخ، ثم ذكرتني شاني، وخاطبتني بلساني، وقالت:

أتصرف غَضَّ العمر في طلب العلا فَتُظمىء أكباداً وتسهر أعْيُنَا

(١) لا توجد في بعض النسخ.

(٢) أثبتناها من المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ، وقد ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: ومتشوفون.

(٣) لا توجد في بعض النسخ.

تُقاسي صروف الدهر فقراً وغربة ... وبُعداً عن الأوطان للقلب موهنا
وعيلة أطفال ضعاف كأنهم ... جوازل زغب أنهكتها يد الضنى
ففي مثل تلك الحال ما كنت ضائعاً ... وكنت بنفس فقرها واسع الغنى
إلى أن حباك الله فضلاً ورفعة ... وحزت فنوناً من علوم لها سنا
فصرت عزيزاً في البرايا مكرماً ... وطار إلى الآفاق من صيتك الثنا
وقد سل فوق الرأس سيف مشيبه ... وهل بعد هذا غير معترك الفنا
أتخشى ضياعاً بعد ذلك وعيلة ... فترهب من فقر وترغب في الدنا
فتبذل وجهاً طالما صنت ماءه ... لك الله لا تفعل وكن متمكنا
وهل في الورى من يُرتجى لملمة ... وإن قيل من للمكرمات يقل أنا
فصن عن جميع الخلق نفسك واتكل ... على الله مولى لم يزل بك محسنا

فما ثم ذو فضل بصدر منشرح، فحط عنك واسترح، فتضاعفت الحال تشتيتاً، وزاد الكبد تفتيتاً، وارتبكتُ في عزمين، واشتبكت بين هَمَّين، بين أن أسكت فأضيع، أو أن أقول فلا يُسمع. فَقَدَّمت رجلاً وأخرت أخرى، واستنهضت جواد فكري كراً وفراً، فقواني صدق النية فيما هممت، وخلوص الطوية على ما عزمت، وجمعت من بال متفرق، وَأَلَّفت من فكر متمزق، من قضايا تيمور الطويلة العريضة نبذة، وجبذتُ بكف[1] الأفكار من قوس حكاياته جبذة، نَثلتُ في بيانها من بديع المعاني الجعبة، وسللت وقد صرفت نحو مشرق المنطق سنان الكلام عضبه وشحذت غربه، فجاءت بحمد الله تعالى ظريفة المعاني كاملتها، لطيفة المباني فاضلتها.

قلت في مرآة الأدب:

بألفاظ ألحاظ تشير إلى النهى ... تَعلَّم فنون السحر كيف تكون

حوت رقة الجزل ودقته، ورياقة الغزل ورقته، ولطافة الأدباء، وظرافة الشعراء، وفصاحة البلغاء، وبلاغة الفصحاء، وحقائق الحكماء، ودقائق العلماء، مع الأمثال الفائقة، والاستشهادات اللائقة، والاستطرادات الرائقة، والتشبيهات الغريبة

(١) في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: بكتف.

والاستعارات العجيبة، ونوافث السحرة من علماء البيان، ونوادر المهرة من أرباب الديوان.

ومزجت جليل التحمس فيها برقيق التغزل، ونسجت جديد الجد بمعتق التهزل، وطرزت خلع ذلك كله بأعلام الآيات الشريفة، ونقوش الأحاديث الكريمة المنيفة، أصبت بكل ذلك محز القصد، وطبقت بحسامه مفصل الضرب.

قلت في مرآة الأدب.

كأن النهى قد كان عني ناعساً ... فمر على أذنيه ما أتلفظ
فذاق لهذا الشهد صدق حلاوة ... ففتح عينيه وجا يتلمظ

فمن أراد التنزه في التواريخ فعليه بمداومة تكرارها، ومن قصد التَفَكُّه في رياض الانشاء فليقتطف بهى[1] أزهارها، ومن سلك طرائق الأدب فَلْيَجْنِ من حدائقها جَنِى ثمارها، ومن رام التسلق الى ذروة العلوم فليتشبث بأذيال أستارها، ومن طلب الاعتبار بتقلبات الزمان فليتأمل حقائق أخبارها، ومن اعتنى بسياسة الملك فليتدبر دقائق أسرارها.

مع أني لو أوفها حقها في التهذيب، ولم تنل استحقاقها في حسن الترتيب والتشذيب، لأن الكلام كالدُرِّ المنتظم، والدَرِّ المنسجم، لا بد أن يتعانق لفظه ومعناه أولاً وآخراً، وتتطابق عبارته وفحواه باطناً وظاهراً، وإلا اختل نظمه واعتل فهمه، وانحطت منزلته، وسقطت من سلم الفصاحة درجته.

وهذا يحتاج الى بحر ذهن صاف، ومعدن علم بكفالة ما يتم به عقود جواهره واف، وذوق أحلى من العسل، وفكر أمضى من الأسل، ويحتاج كما قيل إلى حاضر من التوفيق، ومعاون صالح من النية، فإن غروب الألسنة ربما جاوزت الى ما يثبت على القائلين الحجة، ومن لي بذلك، وأنى يتيسَّر لي سلوك هذه المسالك.

وكنت طالما أُفوّق سهم النظر في بيداء التأمل نحو قنص معنى دقيق، وأصوّب غواص الفكر في دأماء التدبر إلى جوهرة قصد رقيق، حتى إذا قلت فاز القنَّاص، وحاز الغواص، وإذابقاطع الشواغل، قطع بترس الحوادث على سهم خاطري

(١) في طبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ: فليقتطف من بهى أزهارها.

الطريق، وبتمساح الهموم التهم غواص فكري فإذا هو في بحر الغموم غريق، فتستدّ في وجه قصدي[1] المسالك وأصير من نهار أزهر الى ليل حالك[2].

قلت:

فأنى أنتقي للنظم دُرا ولم تظفر يدي منه بوَدْعَه

لكن لما كان الشروع ملزماً، وإتمام ما شرعت فيه متحتماً، لم أر بداً من الحام ما أسديته، وإصماء ما أنميته، فصرت في وعورة أقع وأقوم، وفي بحوره أغطس وأعوم، إن راق راكد الخاطر، أو حمى الفكر الفاتر، وتذكرت من الكلام أوائله، ألحقت بكل منه ما شاكله، وإذا أزعجه من الزمان الجفا، تكدر منه ما صفا، وتبلدت الأفكار، وتولدت الأخطار، وتساوى عند بصر البصيرة الليل والنهار، قلت:

أكمل كل سطر بعد شهر وأبني كل بيت بعد عام

فلا أضع المحمول إلا وقد حمل الموضوع، ولا أذكر الخبر إلا وقد نسي المبدأ، قلت مضمناً:

والفكر كالبحر يبدي لي جواهره مع الصفا ويخفيها مع الكدر

فتنخرم القاعدة، ويختلط رأس المال والفائدة، فقل لي: أنى ينتظم لي قال؟ وقد انفرط نظام الحال، هذا وإن الكلام له مقامات ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات.

قلت قديماً مترجماً:

ما استوى في موقف إفصاح منطيق ولو قد سحبا سحب سحبان وأصمى الأصمعي
فافتكر فيما ترى في منزل أعيا الورى هل ترى تبت تحاذي قيل يا أرض ابلعي

وأين من يوفي المقامات حقها، ويعطي كل مستحق منها مستحقها؟.

ولقد سلكت في هذا الكتاب مسلك أبناء العصر وطريقة أولاد الدهر فإن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولو أخذت فيه أخذ العرب العرباء وألبسته في ألفاظه

(١) كما ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق وطبعة القاهرة ١٢٨٥ هـ، وقد ورد في طبعة القاهرة ١٩٧٩ م: وقصده.

(٢) قال الأستاذ خير الدين الزركلي رحمه الله: في ترجمة ابن عرب شاه في (كتاب الاعلام): في شعره العربي ركة.

ومعانيه ثوب الاستعصاء والإباء، فأبرزت ما قصدته من المعاني الجزلة العجيبة، في قوالب فحلة غريبة، لما التفت أحد اليه، ولا عُوّل لقصور الهمم والأفهام عليه ولما كانت المجازات المشهورة خيراً من الحقائق المهجورة، والغلط المستعمل أولى من الصواب المهمل، أبرزتها في إشارات رشيقة، وعبارات رقيقة، وعملت في بعض المواضع بقوله:

عمداً كسوت مرهبا مغثمرا ولو أشاء حكته محبرا

وقد قيل:

إذا أحسست في لفظي قصوراً وخطى والبراعة والبيان
فلا ترتب لفهمي إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان

ثم إن بين هذا الكتاب، وبين ما صنفه قبله ذوو الآداب، لبوناً مديداً، وأمداً بعيداً، بوجوه، منها: أن زمانهم كان بالرفاهية يساعد، وأنا في عصر لا ساعد لي فيه ولا مساعد.

ومنها: أن وقتهم كان فيه من يرى الفضل وأهله، ويحل كلا منهم محله، من الملوك والأكابر، وذوي الفضل والمآثر، وأرباب المناصب والمفاخر، وأقل من فيهم كان يحب السماع، ويميل الى الفضل والأدب بالطباع، فكان الفضل فضيلة، والأدب خصلة جميلة.

وأما الآن فقد انقلب بأهله الزمان، فصار حامل الفضل والأدب من رهطه، والمنتظم من العلم في سِلْكِهِ وسِمْطِه، كأنه سارق عملته تحت إبطه.

ومنها: أن الأفهام كانت مدركة، وكانت لذلك قريحة المتكلم متحركة، فلقد صارت الأفهام جامدة، والقرائح خامدة، ونارها هامدة.

ومنها: أن غالب ما صنف أخبار كاذبة، وسهام أغراض غير صائبة، لأنه لا واقع يطابقه، ولا خارج يوافقه، فعمد مصنفه الى ما عقدته مخيلته، وتوهمته مفكرته، فألف حسبما أراد، وأسس على مقتضى اختياره ما شداه وشاد.

وأما هذا الكتاب فأخباره صادقة، وكلماته بالصدق ناطقة، إذ هي في الواقع للخارج مطابقة، فأبداها منشيء الخاطر وأعاد، على طبق ما أريد منه ووفق ما أراد. وليتني في هذا وهذا كفافا، من خيرها وشرها معافى.

ولئن ساعد الزمان بترفيه الحال، وخلا من سكان الهموم ربع البال، لأتتبّعَنّ آثاره، ولأسترنّ بقدر الامكان عُواره، ولأبذلن الجهد في ترقيحه، وإصلاحه وتنقيحه، وإلا فالصفح مأمول، والعذر عند خيار الناس مقبول، والمسئول من صدقات ذوي الأدب، البالغين في البلاغة أعلى الرتب، أن يسبلوا ذيل الاغضاء عليه، وينظروا بعين الافادة والاستفادة اليه، ويقيلوا العثار، ويقبلوا الأعذار، فيشدوا أسره، ويجبروا كسره، ويرقعوا خلله، ويحققوا أمله، راجين من لطف الله ما أرجوه منهم، لعل الله سبحانه أن يعفو عني وعنهم، مع أنا كلنا في الهوى سوا، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى.

الحمد لله حمداً يملأ أركان الأمكنة، ويعطر خياشيم الأزمنة، وصلى الله على سيدنا محمد صلاة تبلغ قائلها مأمنه، وتحله بشفاعته في جنة الفردوس الأعلى مسكنه، وعلى آله وأصحابه الذين استمعوا القول فاتبعوا أحسنه.

ونستغفر الله من حصائد الألسنة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم[1].

تم[2] بحمد الله وعونه وحسن توفيقه بتاريخ نهار الثلاثاء مستهل شهر ربيع الأول من شهور سنة إحدى وأربعين وثمانمائة.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

١) بعد هذا الكلام ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢) خاتمة مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٧٤ والتي أشار إليها محقق طبعة القاهرة ١٩٧٩ بالرمز (أ).

ملاحق الكتاب

ولئن ساعد الزمان بترفيه الحال، وخلا من سكان الهموم ربع البال، لأتتبّعنّ آثاره، ولأسترنّ بقدر الامكان عُواره، ولأبذلن الجهد في ترقيحه، وإصلاحه وتنقيحه، وإلا فالصفح مأمول، والعذر عند خيار الناس مقبول، والمسئول من صدقات ذوي الأدب، البالغين في البلاغة أعلى الرتب، أن يسبلوا ذيل الاغضاء عليه، وينظروا بعين الافادة والاستفادة اليه، ويقيلوا العثار، ويقبلوا الأعذار، فيشدوا أسره، ويجبروا كسره، ويرقعوا خلله، ويحققوا أمله، راجين من لطف الله ما أرجوه منهم، لعل الله سبحانه أن يعفو عني وعنهم، مع أنا كلنا في الهوى سوا، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى.

الحمد لله حمداً يملأ أركان الأمكنة، ويعطر خياشيم الأزمنة، وصلى الله على سيدنا محمد صلاة تبلغ قائلها مأمنه، وتحله بشفاعته في جنة الفردوس الأعلى مسكنه، وعلى آله وأصحابه الذين استمعوا القول فاتبعوا أحسنه.

ونستغفر الله من حصائد الألسنة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم[1].

تم[2] بحمد الله وعونه وحسن توفيقه بتاريخ نهار الثلاثاء مستهل شهر ربيع الأول من شهور سنة إحدى وأربعين وثمانمائة.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

١) بعد هذا الكلام ورد في المخطوطة القديمة للظاهرية بدمشق: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢) خاتمة مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٧٤ والتي أشار إليها محقق طبعة القاهرة ١٩٧٩ بالرمز (أ).

ملاحق الكتاب

الملحق الأول* :

الأمير تيمور
٧٦٥هـ = ١٣٦٣م ــ ٨٠٧هـ = ١٤٠٥م

ينتمي تيمور بك (الذي يعرف في أوربا باسم تامرلان أو تامرلنك) إلى فرع (كركن) من بيت (برلاس). وأول ما رأى النور تيمور كان في مساء الثلاثاء الخامس من شعبان عام ٧٣٦هـ = ١٣٣٥م في قرية من قرى كش تعرف لفرط إخضرار نبتها باسم شهر سبز (أي المدينة الخضراء)[١] وقد أطلق اسمها من بعد ذلك على المدينة كلها. وكان أبوه تورغاي[٢] (طير الدج) شيخاً لقبيلة برلاس. وعلى هذا ندبه الأمير قزغان على إقليم كش ونخشب. وبقي تورغاي تابعا وفيا لأميره حتى وفاته. وكان الشاب تيمور، وهو الذي ظهرت شجاعته وفروسيته منذ حداثته. قد أنشأه أبوه لا على التمسك بسنن الاسلام القويمة فحسب، بل وأشرب فيه كذلك مشاعره السياسية التي كانت تهدف إلى تقويض أركان الدولة المغولية. وحتى حين نضن بثقتنا في قول مداهن ظاهر التملق وهو المؤرخ شرف الدين فلا نزال مع ذلك نجد ما يؤكد أن تيمور كان منذ شبابه الباكر وأطماعه تلهبه ومشاعره تتوق به نحو عظمة مستقبله. فهو يقول في سيرته «أخذت منذ الثانية عشرة من عمري أستوعب كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة. كما حملت نفسي على الاباء والرزانة بإزاء من حولي، وحين بلغت الثامنة عشرة كنت شديد الاعتزاز بما بلغته من المهارة في الصيد

---

* نصوص عن تيمور مختارة من كتاب تاريخ بخارى تأليف أرمينوس فامبري (Arminius Vimbéry) ترجمة الدكتور أحمد محمود الساداتي .

(١) يذكر بابر في سيرته (بابرنامه) أن جدران الدور وشرفاتها في هذا البلد كان يغطيها في الربيع النباتات المتعرشة اليانعة وغيرها من صنوف النبات الأخرى (المترجم).

(٢) وليس تارغاري كما ذكره وايل Weil. Geschichichte der Khalifen vol II p. 21

والعاب الفروسية. كما كنت أمضي وقتي في قراءة القرآن الكريم ولعب الشطرنج وهوايات أخرى مختلفة[1]، ولا عجب إذن أن نجد أباه يُقَدِّر فيه الرجولة حين بلغ العشرين من عمره فيخصه بحصن (أول) ليتقرب هو من بعد ذلك بدوره إلى زعيم يرى أنه يستطيع تحت لوائه أن يتخذ طريقه الى المعارك والمخاطر التي كان يتوق الى خوضها بكل جوارحه. وكان هذا الزعيم هو الأمير قزغان سالف الذكر. وكان تيمور قد أوفد اليه في مهمة عام ١٣٥٦. وأعجب هذا بالشاب إعجاباً شديداً حتى زوجه بحفيدته أولجاي تركان خاتون ابنة ولده صلاخان، وصحبه معه قائد الألف (بيكباشي) في حربه الثانية مع حسين كرت بخراسان. وفاز هذا الأمير في حربه هذه. لكنه سرعان ما اغتيل من بعد ذلك. ما لبث تيمور أن فقد أباه فركبه بذلك غم مزدوج. ولم يكن أمامه عندئذٍ إلا أن يتحالف مع الأمير حسين حفيد قزغان المقتول فيحاولا معاً الانتقام من قتلة ولي نعمته. على أن المعارك التي وقعت بسبب ذلك لم تنته إلا إلى زيادة الفوضى ببلاد ما وراء النهر إلى درجة عظيمة.

حتى رأينا تغلق تيمور أمير أولوس إذ ذاك، وقد ظهر له أنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لحماية مصالح أسرته من الدمار التام، يسير جيشاً كبيراً أكثره من الجته[2]، من المالق إلى سمرقند وقد عزم على تقوية عرش آبائه بطرد الحكام الثائرين من الأمراء.

---

(١) عنوان هذا الكتاب هو « توزوكات تيمور » أي مراسيم تيمور (توزوك في التركية تعني مرسوم أو قانون، والألف والتاء هي علامة الجمع في العربية) وبهذا فهو يبدو لأول وهلة مجموعة من القوانين أشبه بياصا جنكيز. ولما كان تيمور يروي فيه كذلك تفاصيل حياته العجيبة ويوضح بواعث أهم فعاله، فيمكن كذلك وصف هذا الكتاب، باطمئنان، بأنه سيرته. وأول نسخة منه أحضرها الماجور دافي Davy من الهند إلى أوربا وتقع في ٤٤٠ صفحة بحجم الثمن، وهي بالفارسية نقلا عن الأصل بطبيعة الحال. أما الأصل الجغتائي فقد وجد في مكتبة جعفر حاكم اليمن. وقد ترجم الأصل إلى الفارسية أولا، ثم نقله من بعد ذلك إلى الانجليزية س. ستيورات C. Stewart عام ١٨٣٠ (انظر كتاب مرخام Markham).

(٢) « الجته وليس غته كما رسمها وايل خطأ »: هو علم كان يعرف به كل عرق كان يقطن حدود منغوليا. ولم يبق منهم اليوم إلا البروت. ولا يزال هؤلاء المغول يعرفون حتى اليوم في آسيا الوسطى باسم جته مغول أو مغول الحدود، نسبة إلى كلمة جته التركية بمعنى الحد.

وأدَّى ظهور هذا الأمير بينهم إلى أن عاد فريق من الثوار الى طاعته في حين هرب فريق آخر إلى خراسان، ومن بينهم حاجي سيف الدين برلاس (وهو الذي صار شيخاً على قبيلته بعد وفاة تورغاي). أما الشاب تيمور فقد قصد إلى بلاط الجغتائيين فرحبوا به وأقروه على ولاية كش.

وظل الهدوء يخيم في الظاهر على بلاد ما وراء النهر ما بقى تغلق تيمور بها.

حتى إذا ما غادرها إلى المشرق عاد الزعماء المشاغبون إلى العصيان من جديد حتى اضطر إلى إخضاعهم مرة أخرى بقوة السلاح. وبقى فاتح آسيا، فيما بعد، على ولائه له. وحين ظهر تغلق، على رأس جيشه، في سمرقند وأقام إبنه الياس خوجه نائباً له عليها، اختار تيمور، بوصفه أخلص أتباعه، ليقيم الى جوار ابنه ناصحاً له. ولنا أن ندرك هنا في يسر أن تيمور، وهو الذي جعل سلوكه هنا على الدوام رهناً بسياسة تنظيم كل الوسائل لتحقيق هدف بعيد له، لم يكن ليرضى على الخصوص بمنصبه كمؤدب لأمير مغولي، فبدأ من فوره بمنازعة وزير ذلك الأمير، ليغادر من بعد ذلك بلاط سمرقند في السر وينطلق في نفر من أتباعه إلى الصحراء التي تمتد فيما بين خانية بخارى وخيوه الحالية وبحر الخزر. وكانت هذه هي الفترة التي كان عليه أن يواجه فيها أقسى المحن، في مجال مغامراته، مواجهة شريد عليه أن يصبر على كل ما يلاقيه من أخطار ومتاعب في قفار موحشة.

ويحكي تيمور ببساطة محببة في سيرته أن زوجته الوفية أولجاي ومعها الأمير حسن، وكانا قد التقيا به في الصحراء، ظلوا جميعاً يضربون في الفلاة شهراً بأكمله لا يجدون طعاماً أو شراباً أكثر أوقاتهم حتى وقعوا آخر الأمر أسارى أحد التركمان. وكيف حبس هذا التركماني زوجته المحبوبة في حظيرة مليئة بالحشرات. ولا مراء في أن هذه كانت تجربة قاسية لهذا الرجل الذي كان على نصف آسيا أن تخضع يوماً لسلطانه.

وفي نار تلك المحنة صُهِرَ تيمور (ومعناه الحديد) فخرج منها أساسا بتلك العزيمة الصلبة التي هيأت له ذلك المستقبل اللامع. وما إن تمكن هو وأصحابه من الهرب من الأسر حتى ذهب إلى كش في السر، فجمع من حوله بعض رفاقه القدامى في السلاح وأصحابه السابقين، فتجول بهم قليلا حول شاطىء جيحون ثم أغاروا جميعاً على سيستان، ليصادفه من بعد ذلك التوفيق هناك حينا ما ويتخلى عنه حينا

آخر، فتراه يستولي يوما على حصن من حصون البلوجين ليردوه عنه من بعد في يوم آخر. وأصيب تيمور في إحدى وقائعه هذه بجرح في ساقه تخلف عنه عرجه طول حياته، ومن ثم أطلق عليه الفرس اسم تيمورلنك أي تيمور الأعرج[1]. وفيما كان يقعد بإصابته هذه استطاع رفيقه حسين أن يستولي على بلخ، فتبعه تيمور إلى هناك. وزاد عدد رجاله إلى خمسمائة وألف فرأى أنه قادر بهم على الوقوف في وجه القوات التي بعث بها الياس خوجه لتطارده. ووقع أول لقاء بين الطرفين عام ٧٦٥هـ ـــ ١٣٦٣م عند الشاطىء الأيسر لجيحون بالقرب من كندز، وانجلى عن انتصار تيمور انتصاراً كاملاً على قوات تزيد خمسة أضعاف قواته، وانسحاب رجال الياس خوجه إلى الجانب الآخر من النهر. وما لبث تيمور على أثر ذلك أن انطلق يطارد الجته بلا هوادة، كما أخرج الجغتائيين جميعاً من بلاد ما وراء النهر. وساعده على تحقيق هدفه هذا بسهولة موت تغلق تيمور إذ ذاك، وكان ابنه بدوره قد عبر سيحون وذهب إلى المالق ليستولي على عرش أبيه. وما إن ترك آخر أمراء المغول أراضي بلاد ما وراء النهر حتى دخل تيمور مدينة سمرقند فاستقبله أهلها استقبالاً حافلاً، وفيها لحقت به زوجته إبان الاحتفالات التي تلت ذلك، وكانت حتى ذلك الوقت تعيش متسترة. هكذا بات تيمور وبيده مقاليد الأمور كلها وقد صار سيد بلاده. وكان في مقدوره أن يستولي على عرش سمرقند من فوره لولا أن رأى أن هناك من المصاعب، ما لابد له من أن يتغلب عليه أولا، ومن الأعداء من لا مناص له من استمالتهم إلى صفه كذلك، قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه هذا. وبدا له أن حقد شائيه عليه لا بد يزداد إذا ما اتخذ لنفسه لقب السلطنة، فحسم هذا الأمر بأن عزم على أن يقيم عضواً من أعضاء الأسرة الحاكمة نفسها على عرش الجغتائيين الذي تركه الياس خوجه بلا وريث، فدعى القرلتاي ونصب قابيلشاد سلطاناً لينصرف من بعد يزيد من فوره في قوته ونفوذه ويسير قدما في خططه لتحقيق أطماعه.

كان من المتوقع أن الجته سوف لا يرضون بإخراجهم من بلاد ما وراء النهر.

(١) إن دعوى العالم العربي أحمد بن عربشاه، وهي المبنية على الحقد، بأن تيمور كان أصلا من رعاة الغنم فضبط وهو يسرق بعضا منها وأصيب بضربة سببت له العرج طول حياته، قد وجدت من يصدقها بين أعداء الغازي التتري الذين تمكنت عداوتهم له في أنفسهم. (المؤلف)

والواقع أن تيمور لم يكد يقضي عطلة الشتاء في سمرقند حتى سمع بغارات هؤلاء البدو يقودهم الياس خواجه، فطير الخبر من فوره إلى صديقه الأمير حسين الذي سار إليه بقوة كبيرة. وأقام تيمور مضاربه بين جيناس وطشقند، في حين عبر حسين سيحون والتقى بالعدو وجها لوجه. وأفلح الجناح الأيمن وعليه تيمور أن يرد العدو، في حين كاد الجناح الأيسر وعليه الأمير حسين أن يُغلب على أمره، لولا أن تمكن تيمور بعبقريته الحربية وهمته من أن يحول دون الهزيمة القاضية. وأدى هذا الحادث إلى وقوع جدال عنيف بين القائدين كان بداية نزاع انتهى بعد بضع سنوات من القتال إلى سقوط الأمير حسين وانفراد تيمور بالسلطان كله. وقد اضطر الجيشان المؤتلفان إلى الانسحاب من قتال الجته بعد أن خسر ألفي قتيل في حربهما معهم. هنالك تراجع حسين إلى قصبته سالي سراي على الجانب المقابل من جيحون، في حين عاد تيمور إلى قارشي. أما الجته فقد تقدموا دون عائق صوب الجنوب فحاصروا سمرقند، ولولا أن تفشى الوباء في دوابهم حتى اضطروا إلى النكوص على أعقابهم، وهم يحملون متاعهم بأنفسهم، لأعملوا السلب والنهب في المدينة، على رسم المغول بلا مراء.

ولو كان قد أتيح القيام بهجوم مشترك عند ذاك على هؤلاء الجته لكسرت شوكة المغول لأمد طويل إن لم يكن إلى الأبد. ولكن وقوع الانقسام بين الزميلين السابقين قد نتج عنه هوة سحيقة وجد تيمور نفسه مضطراً معها إلى محاربة حسين ومراقبة تحركات الجته في الشمال بعين يقظة في الوقت نفسه. وبرغم ما كان حسين يستطيع أن يجنده من قوات تفوق قوات خصمه، إذ كانت أملاكه أعظم من أملاك تيمور وأتباعه أكثر عدداً، إلا أن الشواهد تدل على أنه كان يقدر خطورة خصمه. فقد انطلق أول الأمر يخادعه في الدس والوقيعة بالسر، حتى إذا ما تبين له أن تيمور ليس بالرجل الذي يسهل الايقاع في شراكه، سيَّر إليه آخر الأمر فرقاً من جيشه وعليها قائده الأمير موسى لتعبر جيحون وتهاجمه، ورد الأمير موسى على كل حال، ليزحف عند ذلك حسين من سالي سراي ويعبر جيحون بجيشه كله ويقيم مضاربه عند الشاطىء الآخر من النهر بموضع يدعى بتيك جكجك.

وهالَ تيمور تفوق عدوه البالغ عليه في العدد، فارتدَّ أولاً إلى قارشي ثم إلى بخارى من بعد ذلك حتى يستوثق من مدى ما سوف يمده به حلفاؤه هناك من العون. على أنه مالبث آخر الأمر أن أيقن بأن عونهم له يكفيه في دفع العدو، فاستقر رأيه

عندئذ على أن يتحاشى قتاله ببلاد ما وراء النهر في ذلك الوقت وأن يتجنب طلبه له وذلك بالخروج إلى غزو خراسان. هنالك زحف حسين من فوره الى بخارى، وكان أهلها جميعاً من التاجيك الذين يُعرفون على الدوام بجبنهم. وتقدم هؤلاء للقاء عدوهم، وبرغم ما كانوا عليه من حسن التسلح فسرعان ما أحاط بهم فرسان حسين ودحروهم في أول لقاء، فلم يكن هناك من بعد ذلك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تدفعهم إلى الاشتباك مع عدوهم من جديد. وبهذا صار لخصم تيمور بلاد ما وراء النهر كلها تقريباً، في حين أمضى تيمور نفسه الشتاء يعدّ العدة ـــ نشيطاً ـــ للمعركة التالية، لنجده من بعد ذلك يظهر في الربيع عند جيحون في طريقه إلى طشقند في قوة متناهية في الصغر ولكن أفرادها من خيرة الجند الذين استطاعوا في مجموعة من العمليات الجريئة (وفيها برز ابنه الشجاع جهانكير في صورة رائعة) أن يشقوا طريقهم وسط جيش الأعداء عند قارشي وسمرقند. وكان تيمور يهدف من وراء ذهابه إلى طشقند أن يستحث حليفه هناك ـــ كيخسرو ـــ وكان من بيت جلاير، على مساعدته مساعدة جدية. وكتب له التوفيق في مسعاه هذا حتى زفَّ كيخسرو ابنته إلى ابن تيمور، وأمده بقوات استطاع بها أن يهزم خصمه ويرد قواته عبر جيحون، ثم يطارده من بعد ذلك حتى سيحون[1].

كان في انتصار تيمور هذا الكفاية ليلقن خصمه درساً قاسياً في حكمة التمسك بأهداب السلم. فضلاً عن أن تحالفه مع بيت جلاير. وهو من اتباع الجته، قد ملأ قلب حسين برعب لا يقوم على غير أساس. هنالك بادر حسين بعرض الصلح على تيمور فتقبل عرضه بقبول حسن ورحب به. ذلك أنه هو نفسه لم يكن ليرتاح لرؤية الجته يزجون بأنفسهم في شئون بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوها بقوة السلاح، أو لأن نفسه ـــ كما يقول مؤرخوه ـــ قد طارت شعاعا عند رؤيته المؤمنين يقتل بعضهم بعضاً أو يسرق بعضهم البعض الآخر. وأياً ما كان واقع الأمر فإن الصلح لم يعقد

(١) كان جيش حسين يبلغ اثنى عشر ألف مقاتل، وكان يحتمي بحصن قارشي، وقد هاجمه تيمور في ثلاثة وأربعين ومائتين من الرجال فحسب. وقد عبر هؤلاء الأبطال خندق الحصن في جنح الليل على قطعة من الخشب لا تتسع إلا لفرد واحد، ثم تقدموا وتيمور على رأسهم فتسلقوا الأسوار وقتلوا الحراس ثم نجحوا من بعد ذلك في طرد الحامية منه.

بين الطرفين فحسب، بل إن تيمور قد بادر كذلك بعبور جيحون وأعان حسين على إخضاع أحد عماله الخارجين عليه في بلخشان. ولم تزل الرابطة تقوى بين الأميرين حتى رأيناهما يسيران معا لغزو كابل، وكان حسين يبغي ضمها إلى ملكه. ومع هذا فإن السلام لم يدم بينهما طويلاً. ذلك أن تيمور لم يكد يغادر بلخشان ليدفع غزواً للجته هددوا به مجرى سيحون الأعلى (وقد نجح في ذلك) حتى انطلق حسين ينفخ في الناس فتحرش بتيمور من جديد واضطره إلى حربه. وفي هذه المرة لم يزحف تيمور على بلخ بمفرده، فقد انضم إليه أتباع حسين السابقين دفعهم الى ذلك ـــ على حد قول شرف الدين ـــ أنهم كانوا قد ضاقوا ذرعا بدسائس أميرهم التي لا تنتهي، أو لأنهم ـــ وهو الغالب ـــ قد أغراهم صعود نجم تيمور المتزايد.

وبرغم ذلك كله فقد قاوم حسين عدوه في إصرار بالغ فلم يستسلم له إلا حين سقطت بلخ آخر معاقله. هنالك انحدر من أسوارها إلى معسكر عدوه وتضرع إليه أن يبقي على حياته، وقد أعلن إليه ـــ على حد قول ميرخوند ـــ عزمه على السير إلى البيت الحرام ليذرف هناك دموع الندم ويستغفر ربه عما اقترفه من ذنوب كثيرة. وأبى على تيمور كرمه إلا أن يعفو عن أخي زوجته المحبوبة، غير أن من حوله لم يقروه على ذلك لفرط ما كان قد لحقهم من الاهانات على يديه حتى صمموا على قتله. ولم يجد إلحاح تيمور الكثير عليهم شيئاً، فاضطرَّ آخر الأمر إلى أن يُسلم الأمر إليهم مَنْ كان رفيقاً له في شبابه وصديقا، ثم غريماً فاشلاً من بعد ذلك فأنزل من برج كان قد لجأ إليه آخر لحظة وسيق الى الموت عام ٧٧١هـ ـــ ١٣٦٩م.

بهذا أصبح تيمور ولا منافس له. فقد تم له بحد السيف إبعاد كل أعدائه الخارجين عليه عند حدوده الشرقية بما فيهم الجته. وعلى هذا فقد جرى في خاطره ـــ بحق ـــ أن الوقت قد حان لينهى ذلك الحكم الاسمى الذي كانت تمارسه تلك الدمية التي كانت مجرد سلطان صوري، وأن يضع على مفرقه تاج بلاد ما وراء النهر الذي كسبه بشق النفس. وكما تظاهر نادر[1]، من بعد ذلك ببضعة قرون، بقدر من القصد والحياء الشرقي المصطنع قبل أن يتقلد التاج ـــ وهو الذي كانت سيرته أشبه بسيرة تيمور ـــ فكذلك لم يرض تيمور لنفسه أن يرق إلى أرفع منصب دون تثبيت

(١) هو نادر الافشاوي شاه إيران الذي خلف الصفويين. (المترجم).

القرلتاي له في ذلك. وضم هذا المجلس، حين عقده ببلخ لهذا الغرض. أعيان الدولة الجغتائية السابقة مع أقران تيمور في السلاح ورفاقه في شبابه. ومعهم شائقوه السابقون. ويذكر المؤرخ، من بين هذه الأسماء البارزة، الأمير شيخ محمد بايان، من بيت سولدز والأمير الجايتو[1]، والأمير كيخسرو من بيت ختلان، والأمير داود من قبيلة دوغلات، والأمير سربغاي من بيت جلاير والأمير جاكو من قبيلة برلاس. والأمير زنده هشم وغيرهم من المشهورين[2]. وعلى الرسم التركي القديم أجلس تيمور على لباد أبيض بمكان مرتفع. وبعد أن حمد الله وأثنى على نَبِيِّهِ واعِظَهُ السيد بركة. نودي به أميراً على بلاد ما وراء النهر في العاشر من رمضان عام ٧٧١هـ = ٨ إبريل ١٣٦٩م. هنالك فرَّق تيمور العطايا الفاخرة في أتباعه الذين كان قد كسبهم لصفه برفقه وتسامحه. وفي كثيرين كذلك ممن كانوا يعادونه.

حتى إذا ما تم له تثبيت سلطانه على هذا الجانب من جيحون، عبر النهر إلى سمرقند فاتخذها حاضرة له. وظلت هذه المدينة، منذ ذلك الوقت حتى وفاته، منتجعه ومستراحه بعد متاعب الحروب العديدة التي خاض غمارها. وإليها كانت تُحمل الأسلاب العظيمة والأموال الطائلة التي سقطت بأيديه في بلاد آسيا المختلفة العديدة. أول ما اتَّجه إليه تيمور بعد أن أمسك بأعنَّة الحكم هو محاولة إقرار الأمور من جديد في ذلك الاقليم الذي كانت تعمه الفوضى. وكان تيمور برغم غيرته الاسلامية البالغة، يعجب أشد الاعجاب بمجموعة قوانين جنكيز. وهذه — وهي نتاج توراني سياسي بارع — كانت بلا مراء أصلح لأحوال الشعوب التركية التترية من تلك القوانين السامية الخالصة المستمدة من القرآن والسنة. ومن هنا نستطيع أن ندرك بسهولة كيف حرص تيمور حرصا بالغا على التمسك بالياصا تمسكا شديدا وأصرَّ عليها برغم معارضة شيوخ المسلمين في ذلك[3]. كما نقل بأمانة كل قوانين

(١) لا أستطيع أن أعلل قراءة دولا كروا Petit de la Croix لهذا الاسم أنه أولا جي ايتو.

(٢) كان من بين هؤلاء زندة هشم أمير شبورغان، وكان قد ثار مرات عديدة في وجه تيمور ولكنه أخضعه، وبلغ بما لقيه من المعاملة الكريمة إلى أن صار من أخلص أتباعه.

(٣) يتهم ابن عربشاه بوجه خاص تيمور بدون حق بأنه جعل الياصا فوق القرآن. فالمعروف أن التشريعات الاسلامية تصلح لحكومة دينية أكثر مما تصلح لحكومة عسكرية، فلا مجال لها بذلك مع الياصا في الغالب (المؤلف) هذا القول يجانب الصواب، وكان الأحرى بالمؤلف ←

الفاتح المغولية الخاصة بالنظم العسكرية في البلاد واحتفظ بالرتب العسكرية المغولية كرتبة تومان أغاسى (قائد عشرة الآلاف) ويوزباشي (قائد المائة) وأونباشي (قائد العشرة).

أما نظام الحكومة فقد بقى على حاله اللهم إلا قوانين المكوس فقد عُدِّلت على وجه يوائم إلى حد ما ما نص عليه الشرع الاسلامي. وأما القواعد التي كان يجري على أساسها منح الرتب فقد اقتبست هي ومراسم البلاط إلى درجة كبيرة مما كان الحال يجري عليه عند الأسر الحاكمة الأولى وعلى رأسها السلاجقة والخوارزمشاهية. فعن الخوارزمشاهية أخذت رتبة بكلربكي — أي أمير الأمراء — وهي تعادل في العصر الحديث رتبة المشير، وشارتها علم أحمر طويل. أما رتبة تومان أغاسي. فشارتها « التوك » وهو رمح طويل بطرفه ذيل حصان، ورتبة يوزباشي، وشارتها طبلتان من طبول الموسيقى يحملها تابعه[1] على جانبي سرجه. وكان الموظفون المدنيون يُلزمون — أثناء اضطلاعهم بواجباتهم — بمعاملة الأهلين بالعدل والانصاف مع رعاية مصالح التجارة كذلك.

وكان على القواد أن يحرصوا بدقة على سلامة رجالهم. وكان على كل فارس أن يجهز بفرسين قويين وقوس وجعبة مليئة بالسهام وسيف ومنشار وفأس من فؤوس الحرب وخيوط مع عشر من المسال. وكانت الخيام تعد في الميدان بحيث تتسع الواحدة منها لثمانية عشر رجلاً. ويفرض كذلك في كل ضابط أن يكون ملما بقواعد أساسية يُعيِّنها للتكتيكات الحربية. ولا يزال هذا النظام يلزم به اليوم كل فارس أوزبكي أو قائد تركماني في تعليمه[2].

أما الجندي العادي يلزم بالطاعة التامة لرؤسائه. وكان عليه أن يندفع بحماس في

أن يرجع أولا إلى تاريخ الفتوحات الاسلامية التي دَوَّخ بها العرب بنظمهم الفرس والروم. ومع هذا فقواعد الياصا الأساسية لا ينكرها الاسلام في أغلبها. والمعروف كذلك أن الاسلام، وهو دين وحكم ومدنية، قد أبقى على كثير من النظم التي وجدها بالبلاد التي فتحها وأخذ بها. (المترجم).

(١) لا تزال هذه الرسوم تقوم حتى اليوم. ولا يظهر أي فرد من بين كبار أصحاب الرتب من الأوزبك بالميدان أو يسرح إلا ويتقدمه تابعه بدق طبوله.

(٢) جرى الرسم على أنه حين كان يعطى البدوي الشاب خيمة خاصة به أي حين يبلغ ←

القتال، على أن يعامل عدوه بلطف إذا ما استسلم إليه واسترحمه. وفي الجملة كان الجندي التيموري أبعد ما يكون عما وصفه به أعداء تيمور بأنه كان مجرد غول شرس. وعلى ما ورد في توزوكات تيمور لم تكن الادارة المدنية لهذه البلاد أقل إحكاما ونظاما عن الادارة العسكرية. فكان على رأس هذه الادارة ديوان بيكي (كبير الحجاب) يعاونه أرزبيكي (الحاجب) وأربعة من الحجاب. وكان أحد هؤلاء الوزراء يوكل به شئون الخراج والمكوس والشرطة. أما الثاني فكان يناط به أمر مدفوعات الجند وتموينهم، في حين كان يختص الثالث بسجلات وإحصائيات الجيش والمواريث، والرابع بنفقات البلاط السلطاني. وكان كبار الموظفين يوكل بهم تنفيذ القوانين وجمع الخراج في رفق بالناس ما وسعهم ذلك. والمفروض أن استخدام السوط كان ممنوعاً منعاً باتاً، حتى لنرى تيمور يقول: إن الحاكم الذي يهاب الناس سوطه أكثر من شخصيته غير جدير بمنصبه.

ولم تكن إعادة تنظيم حكومة بلاد ما وراء النهر بالأمر اليسير، وهي التي مضى عليها أكثر من قرن في فوضى شاملة. وكان من الطبيعي أن يجري هذا الاصلاح بالتدريج. على أن تيمور كان قد اتجه منذ البداية إلى إشباع نهمه من الفتوح، وهدف إلى مد حدوده كما هدف في الوقت نفسه إلى إقرار الأمور الداخلية في دولته. وقد اضطر أول الأمر بطبيعة الحال إلى أن يكفي نفسه خطر أشد أعدائه وهم الجته، وكانوا لا يزالون ولهم نفوذهم في موطنهم القديم حتى لم يكن ليستبعد منهم أبدا أن يقدموا على غزو بلاد ما وراء النهر من جديد. وبادرهم تيمور نفسه بالهجوم، فما إن ظهر بينهم عام ٧٧٢هـ = ١٣٧٠م حتى استسلموا له طواعية، ليعود من بعد ذلك إلى سمرقند. وما غدا كبك تيمور أميرهم الجديد أن شق عصا الطاعة من جديد على كل حال. وبرغم أن الجيش الذي بعثت به سمرقند كان قد أفلح في قمع هذه الفتنة، إلا أن تيمور لم يقنع بنصر قائده حتى خاض بنفسه غمار حرب جديدة مع أعدائه القدماء، فاجتاح منازلهم وأعمل السلب والحريق فيها يمينا وشمالا، ثم عاد آخر الأمر إلى موطنه محملاً بالغنائم وفي ركابه عدد عظيم من الأسرى.

رشده، كان يمثل أولا أمام جمعية من أعيان القوم فيختبرونه في المسائل التي تتعلق بالعقيدة والآداب وتربية الماشية أو الفروسية أو يلقي هو بحديث في ذلك كله.

وما إن انقضى على ذلك أربع سنوات حتى جمع قمر الدين أمير الجته جيشا كبيرا من جديد عند كوك تبه، فخرج إليه تيمور في جيش كثيف بدوره، ودارت الدائرة على الجته، وفرَّ قمر الدين من الميدان تاركاً متاعه وحريمه وفيهم ابنته الحسناء دلشاد أغا، فوقع ذلك كله بأيدي الفاتح المنتصر. وبنى تيمور بهذه الابنة على أمل أن تؤدي تلك المصاهرة إلى إنضمام عدوه له. ولكنه لم يبلغ بذلك ما كان يرمي اليه وهو ضم القسم الشرقي من دولة جغتاي السابقة إليه، حتى وقعت حرب خامسة هُزم فيها قمر الدين هزيمة حاسمة اضطر على إثرها إلى الفرار من هذه البلاد إلى غير رجعة. وقد وقع ذلك آخر عام ٧٧٨هـ ـــ ١٣٧٦م.

وفيما كانت الحوادث تجري بما سبق ذكره كان بطلنا يتجه بتفكيره كذلك الى ناحية أخرى هي خوارزم. فسلك بإزائها سياسة عدائية أدت إلى وقوع الحرب معها. فقد ادعى بغير حق[١] أن كت وخيووك[٢]، بل وبالحقيقة كل خوارزم كانت فيما مضى جزءاً قائما بذاته في أملاك الجغتائيين الموروثة، وعلى هذا فإن أميرها حسين صوفي ـــ كان من قبيلة قنغرات ـــ يلزم بدفع الخراج له. وأوفد تيمور الى هذا الأمير أول الأمر تواجي[٣] علقمة ليؤكد له باسمه صحة دعواه هذه. ولكن حسين ردَّ عليه بأنه إنما استولى على هذا الاقليم بسيفه، فهو بهذا لن يتخلى عنه إلا بقوة السلاح. ولم يعوق تيمور عند ذاك عن غزو خوارزم لفوره إلا توسط الشيخ جلال الدين، وكان من أعيان كش، في محاولة جديدة لحل هذه المسألة سلميا. وفشل الشيخ في وساطته هذه على كل حال كما فشلت وساطة له من قبل، ليزحف عند ذلك تيمور إلى خوارزم في ربيع عام ٧٧٣هـ ـــ ١٣٧١م بجيش كبير. ووفد إليه

---

(١) أخطأ كُتَّاب سير تيمور ومعهم وايل في كتابه عن تاريخ الخلافة، ثاني ص ٢٣، في اعتبار خوارزم من بين أملاك الجغتائيين. ذلك أن خانية خيوه كانت في زمن المغول تعد جزءاً قائماً بذاته في ملك جوجي.

(٢) كانت خيوه تعرف في القديم باسم خيووك، وهو لفظ من أصل تركي كان غير معروف زمن السلاجقة.

(٣) هو في الأصل تباجي (وليس تويجي كما قرأه هامر وغيره خطأ) وهو لقب العامل المنوط به شئون التعبئة، وهو مشتق من المصدر التركي تبمك ـــ أن يجد.

ـــ وهو على أهبة الرحيل ـــ رُسل أمير هراة الجديد لتعلن ولاءها باسم هذا الأمير وتقدم إليه. فيما قدمت من الهدايا، فرس الحرب ذائع الصيت كنغ أوغلان (الرفيق الأسمر) الذي تغنى بذكره الكُتَّاب الشرقيون. وسلك تيمور في زحفه طريق بخارى ثم عبر الصحراء عند كت (قريباً من هزاراسب). وقد استولى على هذا المكان بعد حصار شديد، ثم انطلق من بعد ذلك إلى خوارزم، حصن حسين صوفي، وبرغم دفاع كيخسرو أمير ختلان فقد سقط ذلك الموضع بعد معركة في السهل هُزِم فيها الخوارزميون. ومات حسين إبان الحصار فسارع أخوه يوسف إلى طلب الصلح وقد راقه في الغالب أنْ طَلَبَ تيمور يد ابنة أخيه الأميرة الجميلة سيوين[1] لابنه جهانكير، وذلك تدعيماً لما قام بينهما من تحالف. وأجاب يوسف خصمه إلى ما طلب عن رضا وسرور، وبهذا صار في مقدور تيمور أن يستدير عائدا إلى وطنه وهو قرير العين بما حقق من نتائج ومكاسب. على أنه لم يكد يشرع في العودة حتى رأينا يوسف، بتشجيع من الغادر كيخسرو، لا يرفض الوفاء بوعده بخصوص المصاهرة فحسب، بل يثور كذلك في وجه تيمور. هنالك اضطر تيمور الى حربه مرة ثانية عام ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م، وانتهت هذه الحرب بانتصار تيمور كذلك.

وتبع ذلك أن زُفَّتْ الأميرة آخر الأمر إلى إبنه، وقد أتت معها بأثاث فاخر، واحتفل بالزفاف في سمرقند احتفالا فخما. ولكن الأجل لم يطل بالأمير جهانكير من بعد ذلك إلا عامين، كما لم تستمر الهدنة بدورها بين الفريقين إلا قليلاً. هنالك اضطر تيمور إلى أن يخوض غمار حرب ثالثة ثم رابعة مع خوارزم. وفي المعركة الرابعة نادى يوسف بفكرة غريبة مفادها أن يتبارز هو وتيمور على انفراد فيوفر بذلك وقوع الصدام بين الجيشين، فكتب في ذلك إلى خصمه يتساءل إلى متى تظل الدنيا كلها تغرق في الآلام والبؤس بسبب رجلين، وان من صالح الانسانية ومصلحة بلديهما بالتالي أن يتلاقيا وجهاً لوجه منفردين ويجربا حظهما معا، على حد قول القائل:

حين تخضب سيوفنا بالدماء
فالسعيد من سوف يكتب له البقاء

(١) وتنطق في التركية الحديثة ـــ سويون ـــ بالامالة، ومعناها الجميل أو اللطيف.

وقد سُرَّ تيمور بهذا الاقتراح أيما سرور، وبرغم معارضة سيف الدين برلاس[1] له في تعريض حياته للخطر. فقد كان أول من برز للقاء خصمه وأخذ يناديه بصوت عال ليخرج إليه. لكن يوسف لم يظهر له أثر إذ ركبه الذعر والوجل وندم على اقتراحه. وآثر يوسف القتال بجنده في المعركة فهزم، ومات بحصن خوارزم عام ٧٨١هـ = ١٣٧٩م في نفس الوقت الذي كان فيه تيمور يحاصره. ووقع بأيدي الفاتح هناك كنوز طائلة نقلها إلى كش. وحمل معه كذلك كثيرا من مهرة الصناع وأرباب الحرف وعدداً كبيراً من العلماء، كما شيد هناك قصراً تذكارياً لانتصاراته هذه. ثم أمضى الشتاء من بعد ذلك في حاضرته طلبا للراحة من عناء العمل وأخذ في الاستجمام والاستمتاع بها.

وبرغم أن خصوم تيمور وصهره الأمير حسين والجته المبعدين عند حدوده الشمالية قد تتطلب منه إخضاعهم همة بالغة واستنفد جهوداً طائلة، فقد كان عليه مع ذلك أن يتحمل مزيداً من المشاق حتى تَمَّ له إخضاع أعدائه في خوارزم الغربية، ذلك أن الأخوين الصوفيين كانا، إلى جانب مواردهما الكثيرة، يستطيعان الاعتماد على عون خانات القبجاق لهما، وبالخصوص على عون حكام « القبيلة الذهبية » وهو الاسم الذي كانت تعرف به دولة جوجي عادة. وكان حكام خوارزم قد تحالفوا مع حكام سراي على تيمور منذ زمن طويل، فكان في سقوط الخوارزميين النذير الأكبر لحلفائهم. ولم يكن تيمور، بعد أن عاد مظفراً من خوارزم وقد باتت آسيا الوسطى كلها تخضع لسلطانه، ليعسر عليه أن يدرك آخر الأمر أن هذه البلاد التي تقع على شواطىء سيحون وجيحون غدت لا تكفي أطماعه، وأنه قد بات وفي مكنته أن يترسم في يسر خُطا جنكيز الذي كان يرى فيه مثلا أعلى في الحرب. وما يمنع هذا المحارب، وها هو ذا الحظ يحالفه في كل خطاه، أن يطمح إلى دور « فاتح العالم » وهو الذي أخضع كل توران له. ولو كان ذيوع عبقريته الحربية لم يؤلب عليه أعداؤه وحساده، فإنه لم يكن على كل حال ليعدم سببا يبرر به اعتداءاته، حتى لتراه في ترجمة حياته لا يفتأ يردد قول الشاعر « إذا كان هناك رب واحد فحسب فكذلك يجب أن لا يكون هناك إلا سلطان واحد ». وما تكون الدنيا بأسرها بالقياس إلى

(١) نسى تيمور نفسه عند ذلك لفرط تحمسه حتى شتم في ذلك الشيخ سيف الدين برلاس وعنفه على اعتراضه إذ عد ذلك تطاولا منه عليه وشكاً في شجاعته.

طموح أمير عظيم! بل إننا لنجده كذلك يقول في سيرته « في كل إقليم يسود العسف والظلم، يصبح من واجب كل أمير كائناً مَنْ كان أن يقتلع أرباب الفتن ويغزو هذا الاقليم وذلك لصالح السلام العام والأمن. وعلى كل أمير مظفر أن يُخلِّص الناس من الذين يستبدون بهم، وهذا هو الذي دفعني إلى فتح خراسان وإلى تخليص ممالك فارس والعراق والشام (دمشق) من الفوضى التي كانت تسودها ». وما كان تيمور ليبلغ درجة غزاة العالم لولا ما كان له من عبقرية عسكرية لا تنكر إلى جانب مواهبه الشخصية العالية. هذا بالاضافة إلى ما تهيأ له من جيش ثابت حسن التدريب، أفراده على الطاعة العمياء وقواده على أعلى درجات الكفاية. وكان أكثر الجند الذين ساروا تحت راياته ممن أنفسهم الذين كانوا معه من أول حياته فخاضوا معه مغامراته الخطرة يوم كانت الأيام تتقلب عليه.

وكان قوادهم من أمثال جهانكير برلاس وسيف الدين برلاس وآقبغا وعثمان عباس ومحمد سلطان شاه وقمارى وتبان بهادر وأوروس بغا وبير حسين برلاس وحمزة ابن الأمير موسى ومحمد فرعان وسريك أتكه ومظفر أوجقرا، ممن برهنوا على ما لهم من كفاية حربية سواء حين كانوا يحاربون في صفه أو حين كانوا يناصبونه العداء، على أن أهم طرفين مَهَّدا له بلوغ غايته هما:

أولاً: حالة الفوضى التي كانت تسود آسيا.

ثانياً: الروح الحربية القوية التي كانت تسود تركستان.

هذا وكانت آخر آثار الوحدة القومية قد اختفت هناك بانهيار قوة المغول وتفكك ذلك الاقليم كله إلى إمارات عدة أصحابها أبعد ما يكون عن أن تقوم الألفة بينهم. متحاربون فيما بينهم بأشد قسوة وعداء. وفي مثل هذه الأحوال كان ليد قوية مثل يد تيمور، يظاهرها روح جسور وطالع سعيد، أن تأمل في بناء تلك الدولة التي امتدت من نهر ارتش (بسيبريا) إلى الكنج ومن صحراء جوبي إلى بحر مرمرة.

لقد أحطنا إحاطة تامة بفعال تيمور في موطنه إذ كانت هذه على اتصال مباشر بموضوعنا في الأكثر. أما حروبه الخارجية فسوف نتعرض لها بغير تطويل، وإن كانت هي في حد ذاتها جديرة بالتفصيل بوصفها قوام أزهر حقبة في تاريخ بلاد ما وراء النهر. ذلك أن المنهج الذي التزمناه في كتابنا هذا يجعلنا نكتفي بأن نحصي نتائج هذه الحروب دون أن نتعرض لتفصيل وقائعها وحوادثها. وهذه ــ على كل حال ــ

تضمها مؤلفات هي اليوم في متناول أيدي الشعوب الأوروبية منذ زمن طويل[١].

كانت أولى فتوحات تيمور، فيما وراء حدود آسيا الوسطى. هي عند الشمال، في بلاد خلفاء جوجي. ويمكن أن يقال إن أصحاب هذه البلاد قد جلبوا على أنفسهم سيف الغازي بتلك الفتنة العمياء التي أدت إلى قيام الحرب الأهلية فيما بينهم.

فقد حدث أن لاذ بتيمور عام ٧٧٧هـ ــ ١٢٧٥م، وهو في حربه مع الجته، الأمير تختمش[٢] بعد أن طرده عن عرش آبائه هناك الأمير المخوف أوروس خان. وصادف اضطراب الأمور في هذا الاقليم هوى في نفس تيمور ولاءم أغراضه أتم ملاءمة، فاستقبل تختمش بحفاوة بالغة وصَحِبَهُ معه الى سمرقند بعد أن غمره بهداياه، ثم عهد إليه من بعد ذلك بحكومة أترار وسربان، وهما ولايتان في تركستان الحالية،

(١) من بين سير تيمور التي غدت في متناول القراء الأوربيين ما يأتي:
أولاً: الترجمة الفرنسية للكتاب الفارسي الذي ألفه شرف الدين يزدي. وبرغم تحيز المؤلف الظاهر لهذا الغازي التتري فإن كتابه يحوي أوسع التفصيلات عن حياة تيمور وفعاله، وقد نقله إلى الفرنسية نقلا غير دقيق لسوء الحظ Petis de la Croix ونشره عام ١٧٧٢.
ثانياً: الترجمة الانجليزية لرواية ميرخوند عن حياة تيمور، وقد قام بها دافيد بريس D. Price ونشرها عام ١٨٢١ في كتابه Mohammedan History وليست كتابة ميرخوند في ذلك إلا صورة لما ورد عند شرف الدين على كل حال.
ثالثاً: هامر في كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية Hammer, History of the Ottoman Empire.
رابعاً: مالكولم في كتابه عن تاريخ الفرس Malcolm. History of Persia.
خامساً: وايل في كتابه عن الخلافة العباسية في مصر Khalifate of the Abbasides in Egypt.
سادساً وأخيراً: دوهرت بيلوت في المكتبة الشرقية Dherbelot, Bibliothéque Orientale.

(٢) وليس توقتمش كما ذكره كثيرون ممن سبقوني، نقلاً عن الرسم العربي والفارسي الخاطىء. وتختمش لفظ جغتائي حديث يقابل لفظ منغكو القديم ــ ومعناه الخالد أو الباقي ــ هذا وكان ممن صحبوني في رحلتي بأواسط آسيا حاج من خوقند دفعت به تقواه إلى أن يبدل اسم إبنه، وهو تختا، باللفظ العربي المقابل له وهو (باق).

فصار بذلك في وضع يستطيع به أن يدفع عن نفسه خصمه القديم، وكان قد سير في أثره ابنه الأكبر توختمش كايا بجيش ليطارده. ولم يحالف الحظ تختمش على كل حال، فقد أصيب بالهزيمة بعد محاولتين فاشلتين له، واضطر على أثر ذلك الى أن يلوذ بتيمور للمرة الثالثة فَقِدِم إليه جريحاً ممزق الثياب. هنالك رأى تيمور أن واجب الضيافة يقضي عليه أن يسير إلى حرب أوروس خان بنفسه. على أن البرد والرطوبة في الصحراء الموحشة مَنَعا لقاء الجيشين حتى اضطرا أن يقيما أشهراً متواجهين دون أن يستطيعا القيام بأي حركة.

وخرج تيمور إلى خصمه في الربيع التالي عام ٧٧٨هـ ـــ ١٣٧٦م، إكراماً لضيفه، فواتته الظروف هذه المرة وتم له القضاء على أوروس خان وابنه توختمش كايا. وبهذا لم يعد ينافس تختمش إلا تيمور ملك ابن أوروس الأصغر. ومن الواضح أن هذا الأمير لم يكن ليستطيع أن يقف أمام جيوش أعدائه المتحدة، وقد هزمه تيمور بالفعل عند قراتال وأسره ثم قتله. هنالك ثَبَّت تختمش أقدامه من جديد في بلاده ثم انطلق من بعد ذلك بقواته فاستولى على كل خانية القبجاق وأخضع الماماي ثم اندفع من بعد ذلك في داخل روسيا حتى بلغ موسكو، فأحرقها عام ٧٨٦هـ ـــ ١٣٨٤م وتركها رمادا. وأسكره ما أحرز من نجاح فتناسى أيادي تيمور السابقة عليه وأراد أن يجعل من نفسه فاتحا للعالم، فغزا عام ٧٨٩هـ ـــ ١٣٨٧م شواطىء قزوين الغربية وأسرع من هناك فهاجم تيمور نفسه[1] وكان منهمكاً إذ ذاك في فتح إقليم أذربيجان. هنالك أسرع ميرانشاه بن تيمور فعبر نهر كور إليه وَرَدَّ مقدمة جيشه. وحين رأى تيمور خصمه يرتد في ذعر بالغ آثر أن يعالج المسألة ببساطة ورضى بالصلح معه على القول المأثور « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها »[2].

ولم يعمد تيمور إلى ذلك إلَّا ليرتقب فرصة تواتيه من بعد ذلك يُنفِّس فيها عن استيائه، وقد واتته هذه من بعد ذلك بعامين. ففي شتاء عام

(١) يشير هامر ـــ بورجشتال في كتابه عن تاريخ القبيلة الذهبية ص ٣٤٠ إلى أن السبب لقيام العداء بين تختمش وتيمور هو مقتل الأمير حسن حفيد قزغان (وليس اسغان) وهو أمير من بيت جغتاي، وينسى هامر وجنابي الذي نقل عنه أن الأمير قزغان لم يكن جغتائيا على الاطلاق بل وهو تركي عدو للمغول.

(٢) أخطأ المؤلف حين حسب هذا الأثر من آي الذكر الحكيم (المترجم).

٧٩١هـ ـــ ١٣٨٩م، والثلج يغطي الأرض بطبقة كثيفة تغوص فيها أطراف الخيل، بارح تيمور سمرقند ليلتقي بتختمش، وكان قد هاجم حدوده الشمالية، فهزمه شر هزيمة عند شواطىء سيحون، ثم أنزل به من بعد ذلك ضربة أخرى في الربيع التالي عند الشاطىء الأقصى لذلك النهر. ولم تُطفىء هاتان الواقعتان من ظمأ تيمور للانتقام، فخرج من جديد شتاء عام ٧٩٣هـ ـــ ١٣٩١م على رأس جيش كبير تام الاعداد ليهاجم تختمش في بلاده نفسها.

ولاقت الخيول النَّصَب بسيرها ومناوراتها طوال شهور ستة عبر سهوب جنوب سيبيريا الجرداء. ولم يكن سير الجيش فوق هذه الأراضي شديدة الانبساط تامة الاستواء، في مشقته ونصبه دون الحملات المشهورة عبر الجبال العالية[1]، وظل هؤلاء الجند وقد نال منهم الجوع والتعب يذرعون الأرض كلها طلباً لعدوهم حتى التقوا به آخر الأمر في شهر مايو عند شواطىء ياييك (أورال) الخضراء. هنالك قامت عدة مناوشات مثيرة بين الفرسان من الفريقين. وتحارب الجيشان آخر الأمر معا بشجاعة لثلاثة أيام ركب فيها الفريقان الهول حتى غَدَرَ بتختمش رجاله في النهاية فَهُزِم ولجأ إلى الفرار. وقد جَدَّ تيمور في أثره بداخل روسيا حتى قيل إنه بلغ في مطاردته له مدينة موسكو.

وأدرك أهل هذه المدينة، كما يلاحظ جيبون بحق، أن حماية أيقونة العذراء المعجزة لهم لن تفيدهم في كثير، فذهبوا ـــ في حذر وفطنة ـــ يتوددون إلى بطل بلاد ما وراء النهر. وعاد تيمور إلى وطنه بعد هذه الحملة التي استغرقت أحد عشر شهراً، ومعه عدد كبير من الأسرى (وفيهم أسرة خصمه ونساؤه) وكل كنوز الشمال وجواهره، فخوراً بأنه قد أصبح ينطوي تحت لوائه قسمان من أهم أقسام مملكة جنكيز خان السابقة، فلم يبق منها ما هو خارج عن سلطانه إلا القسم الثالث وهو الذي يحوي إيران والعراق وجزءاً من الهند. وها هو ذا قد اطمأن كل الاطمئنان إلى استقرار

(١) لم يكن على جيش تيمور أن يواجه جوا بالغ القسوة فحسب، بل كان عليه كذلك أن يقاسي الجوع والحرمان من كل وسائل الراحة. فقد أُنْقِصَت جراية الجندي في اليوم الواحد إلى فنجان واحد من الحساء الحمصي، وقد اضطر تيمور آخر الأمر إلى وقف زحفه وأخذ ينظم حملات للصيد على نطاق واسع أفادت إلى حد ما في تلطيف حدة الجوع وعاونت بذلك على معاودة الزحف من جديد.

الأحوال عند حدوده الشمالية، وبهذا رأى أن قد آنَ الأوان ليُوجَّه كل اهتمامه صوب الغرب.

كان تيمور قد بدأ فعلاً في فتح الأقاليم التي تتكلم الفارسية (أي خراسان وإيران) قبل أن يتم إخضاع تختمش بوقت طويل، فقد سير ابنه ميرانشاه ميرزا عام ٧٨٢هـ ــ ١٣٨٠م وبصحبته نفر من القواد الأكفاء لفتح خراسان ثم لحق به هو بنفسه بعد قليل سالكاً الطريق الذي مهده له ابنه المقدام. وهناك كان على الغازي الكبير أن يواجه أسرتين حاكمتين منفصلتين ففي الشمال كانت تحكم أسرة سربدار[1]، وكان قد قام بينها وبين تيمور نوع من الصداقة كانت تحيط به المتاعب والضيق. وقد استسلم أفرادها له دون مقاومة. أما الجنوب فقد كان يحكمه أسرة كرت (الذي ذكرناه من قبل) وكان قد سبق لتيمور حربها في شبابه. ولم ترَ هذه أن تحسم الأمر مع تيمور سلماً. فقد آثر عميدها غياث الدين بير علي على أن يعتمد على سيفه دون شهامة تيمور ورحابة صدره. فانطلق بهمة يدافع عن أراضيه التي كانت تمتد إذ ذاك من جبال الهندكوش في الشرق ومرغاب في الشمال حتى الاقليم الصحراوي عند شاهرود.

على أن جهوده كلها باءت بالفشل. فقد سقطت حاضرته هراة بعد مقاومة عنيفة، أما المدن الأخرى مثل كبوشان وطوس ونيسابور وسيزاور، وهي جميعاً من مراكز العلوم والفنون المشهورة فقد فتحت أبوابها للغزاة إذ آثر أهلها أن يجعل تيمور منها مراكز لحامياته على أن يحيلها الدمار إلى خرائب. وهكذا استسلم للغازي بلاد الأفغان وبلوخستان وسيستان فضلاً عن خراسان، وبهذا وجد نفسه عام

(١) هذه الأسرة، التي استولت على خراسان الشمالية الشرقية بعد سقوط المغول، كان أفرادها قد قدموا من العراق. وهم نسل من يدعى شهاب الدين الذي ينتسب من ناحية أبيه إلى الامام الحسين ومن ناحية أمه إلى خالد البرمكي، وكان لشهاب الدين هذا خمسة أبناء هم: أمير الدين وعبد الرزاق ووسيط الدين وناصر الدين وشمس الدين. ولم يقم حكم هذه الأسرة بخراسان إلا لمدة خمسة وثلاثين عاما. واشتهر من بين أعضائها: ١ ــ عبد الرزاق وحكم عاماً واحداً وشهرين، ٢ ــ مسعود وحكم سبعة أعوام، ٣ ــ شمس الدين، ٤ ــ توغان تيمور. ٥ ــ كساب حيدر، ٦ ــ يحيى كرتي، ٧ ــ حسن دامغاني. وأخيرا مؤيد عبد الرزاق الذي استسلم لتيمور طواعية.

٧٨٨هـ ــ ١٣٨٦م وقد أصبح مطلق اليدين، ليتجه من بعد ذلك إلى العراق وبلاد فارس الأصلية.

كان يحكم إذ ذاك بمناطق إيران سالفة الذكر أسرتان منفصلتان، فالأجزاء الجنوبية، وهي فارس وأصفهان كان يحكمها آل المظفر، في حين كان الالخانيون يسيطرون على العراق وأذربيجان وأدت بشاه شجاع ــ عميد الأسرة الأولى ــ حكمته إلى ان يجنب أبناء الأراضي الجنوبية المرفهين لقاء جنود بلاد ما وراء النهر الأشداء فاستسلم لتيمور من تلقاء نفسه. وقوّى من رباط السلم بين الفريقين زفاف ابنة شاه شجاع إلى الأمير بير محمد، ابن جهانكير الراحل. أما السلطان أحمد، ابن الشيخ عويس جلاير، فلم يرض بما ذهب إليه شاه شجاع، إذ وَقَرَ في ذهنه أن فرسان الأكراد ومحاربي أذربيجان كفيلون بالوقوف في وجه هجوم قوات تيمور فأقبل على الحرب. وانهالت عليه الضربات منذ البداية حتى اضطر إلى ترك عاصمته القوية الحصينة سلطانية إلى بغداد، في حين عبر عدوه المنتصر نهر أراكس فجثا تحت قدميه كل القوقاز الشرقي بضربة واحدة ودخل مدن نخجوان وأريوان وتفليس وشروان فاتحا.

واضطرت جيلان بدورها إلى الخضوع برغم مناعة موقعها وبرغم ما كان يحيط بها من مستنقعات عميقة وأحراش فطرية كثيفة، كما حمد تهيرس أمير أرمينية، بعد سقوط حصنه وان المشهور، لسلطان الشرق الأقصى المهاب أن تركه على بلاده تابعا له.

كانت أسرة القرة قيونلو (الخروف الأسود) أصفهان البلد الثائر، هما وحدهما اللذان تعرضا لسخط الفاتح التتري في هذه الحملة، فقد فقدت هذه الأسرة أقوى حصنين لها وهما: حصن أخلاط وحصن عادل جواز.

أما أصفهان فقد أهلك تيمور من أهلها سبعين ألفا لقتلهم ثلاثة آلاف من جنده غدراً[1]. وملأت هذه المذبحة الشنيعة بالرعب نفس زين الدين ابن الشاه شجاع حتى عدل عما كان ينويه من خلع نير الخضوع لتيمور الذي كان قد ارتضاه

(١) لقد نهض إذ ذاك حداد، كما فعل كاوه في القديم، وكان كاوه حدادا حمل لواء الثورة في فارس القديمة، وتشتهر في تاريخ ايران رايته التي تعرف باسم درفش كاويان (المترجم) يستحث أهل أصفهان على الثورة ومباغتة الحامية التيمورية. ونتج عن ذلك أن أقام تيمور أهراما من رءوس سبعين ألفا من السكان رمزاً لانتقامه منهم.

من قبل. كذلك قدم آل المظفر بدورهم إلى شيزار فأعلنوا خضوعهم لتيمور الذي عاد من بعد ذلك إلى سمرقند مظفرا عام ٧٩١هـ ــ ١٣٨٩م فركن إلى الاستجمام والراحة بعد النَّصَب، فطفق يقيم الحفلات ويعقد مجالس السمر ويخرج للصيد تجديداً لقواه واستعدادا لفعال جديدة يضطلع بها، وقطع عليه استجمامه هذا حربه مع تختمش التي فصلنا أمرها من قبل. وعاد من هذه الحملة ليضطلع بما يعرف بحرب « السنوات الخمس » في الغرب وهي التي رام بها القضاء على الاضطرابات السائدة هناك، إذ ذاك، وليجني ــ في الحقيقة ــ ثمار كل حروبه السابقة بإخضاع إيران والعراق إخضاعاً تاماً.

فما إن أبِلَ من مرض قصير كان قد ألَمَّ به عام ٧٩٤هـ ــ ١٣٩٢م حتى عبر جيحون عند آمويه على رأس جيش عرمرم حسن التدريب فزحف على طول حدود إيران الشمالية حتى بلغ استراباد لتأديب الثوار في مازندران، ولم تستسلم له آمل إلا بعد قتال عنيف. وهذه المدينة ــ وهي أهم موضع في مناطق إيران الجبلية ــ كانت مركز الحشاشين الغلاظ المتعصبين. وقد نزل بأبطالها جزاء دفاعهم الجسور عنها مذبحة بشعة يعجز عن وصفها حتى قلم المؤرخ الشرقي.

ومن اليسير كل اليسر أن ندرك كيف خَيَّمَ سكون الموت على ذلك المكان بعد نزول هذه الكارثة به، وهاجم تيمور من بعد ذلك بأسلحته المخضبة بالدماء لورستان خووزستان عبر همذان وبروجرد ودزفول. وما إن استولى على قلعة سفيد (القلعة البيضاء)، ذلك الحصن الجبلي القوى، حتى انطلق يهاجم شاه منصور المظفري بعنفه المعتاد. وكان هذا الأمير قد استطاع في غيبة تيمور أن يُوحِّد إمارات آل المظفر الخمس تحت لوائه ويُعدّ له جيشاً قوياً. ومع هذا فإن ذلك كله لم يكن ليقف في وجه ذلك التتري ــ والنصر يغمره ــ فوقعت بين الفريقين معركة عنيفة عند بتيلة انقض فيها شاه منصور على رأس فرسانه، في ضراوة الأسود، على صفوف التركستانيين الحاشدة فحطم كل ما صادفه من عوائق، حتى وصل إلى مكان تيمور نفسه.

ودقَّ مركز تيمور[1] . إذ لم يكن يحيط به أكثر من أربعة عشر من الجند أو خمسة

(١) يقول شرف الدين إن شاه منصور كان قد اقترب من تيمور حتى وجَّه إليه ثلاث ضربات ←

عشر . لولا أن أسرع حفيده شاه رخ ميرزا فجمع من حوله زمرة من الجند المرتدّ وألقى بنفسه في طريق العدو . وقطع رأس شاه منصور في مبارزة واحدة ثم ألقى بها من بعد ذلك تحت أقدام جَدِّه محييا كالعادة بقوله (فلتطأ حوافر فرسك رءوس أعدائك على الدوام). وما لبث العدو أن نزلت به الهزيمة الحاسمة ، وفيها هلك آل المظفر جميعاً إلا إثنين منهم ، كانت أعينهم قد سُمِلَت من قبل ، فحُملا إلى سمرقند . وقد وقع بأيدي تيمور متاع شاه منصور كله . وما أن فرق البلاد المفتوحة بين قواده حتى عاود زحفه عام ٧٩٥هـ ــ ١٣٩٣م ليخضع العراق العربي من جديد .

ولم يستطع الايلخاني أحمد جلاير أن يُجنِّب بلاده في هذه المرة شر الدمار . ذلك أن (تيمور) بعد أن استعاد أذربيجان وتم له إخضاع بلاد الكرد ، عبر دجلة في قارب السلطان نفسه واستسلمت له بغداد دون إطلاق سهم واحد . ولم يستطع سلطانها الطريد أن ينجو من سهل كربلاء ، ذي الذكريات الأليمة[1] ، إلا بفضل فرسه العربي التي مرَّت به كالبرق الخاطف تاركاً من ورائه نساءه وأولاده ليسقطوا جميعاً أسرى بأيدي الغازي .

وهكذا سقطت مدينة الخلافة للمرة الثالثة بيد فاتح تتري بعد قتال خفيف إلى حد ما . وبرغم ما أبدته المواقع القوية الأخرى في الجزيرة وماردين وديار بكر وتكريت من مقاومة زائدة فان رايات هذا الغازي المنتصر ما غدت أن اجتاحت مظفرة كل أرمينية وبلاد الكرج . على أن أصداء الفرح بالنصر ما غدا أن قطع رجيعها بوادي منك كول (الألف بحيرة) اللطيف وصول الأنباء بأن تختمش ، وهو الذي نزلت به الهزيمة من قبل ذلك بسنين ، قد ظهر من جديد ــ وكأنه المارد ــ فأخذ يتهدد القوقاز بالغزو من ناحية دربند ، فكان على الأيدي عند ذلك أن تطرح الكؤوس المترعة جانباً مرة أخرى لتمسك بالسيوف المخضبة بالدماء من جديد . ولقد آثر تيمور

من سيفه وقعت على خوذته ، وقد حاول تيمور أن يرفع عن نفسه هذا الهجوم المفاجىء لولا أن حامل حربته كان بعيدا عنه .. ولم يتمكن من النجاة دون إصابات تذكر إلا بفضل حامل ترسه عادل آق وحارسه الخاص قماري .

(١) يشير المؤلف بذلك إلى وقعة مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب (المترجم) .

على كل حال أن ينتظر في هدوء حتى يبدأه عدوه بالهجوم ، وفي رأيه (أنه من الأجدى أن تنتظر حتى يسقط الطير بنفسه في الشباك بدلا من أن تجرى وراءه .. أن الديك العجوز لا يخاف جوارح الطير . وإذا كانت الجرادة تكبر حتى تصير أجنحتها مصبوغة باللون الأحمر فانها عند ذاك تستطيع أن ترد هجمات العصفور عليها ضربة بضربة). وارتفعت راية تيمور منتصرة آخر الأمر عند شواطىء بحر الخزر الغربية ، كما انتصرت عند شواطئه الشرقية من قبل . وأصيب تختمش بالهزيمة وفر هارباً إلى الصحراء عند الجنوب من سيبريا . وانطلق خصمه من بعد ذلك يطارده في روسيا حتى بلغ موسكو فانتهبها ، ثم ترك عليها كوورجوك بن أوروس خان ليحكمها بوصفه تابعا له ، ثم عاد من بعد ذلك إلى بلاد الكرج ليضيف انتصاراً جديداً في قائمة انتصاراته التي كان يحتفل بها هناك .

هكذا تم لذلك المغامر السابق بهضاب تركستان الاستيلاء على آسيا الشمالية والغربية بالتدريج ، وازدان تاجه بأكثر من مملكة واحدة غنية لها تاريخ قديم . أما جنده ، وهم الذين قدموا من شواطىء ايسيكول وجيحون وسيحون ومعهم فرسان الصحراوات الواسعة الشجعان ، فقد حملوا معهم إلى سمرقند كل ما أمكنهم من متاع آسيا الغربية وكنوزها وجواهرها .

هذا كما قَدِمَ السفراء إلى تيمور من كل حدب وصوب ليعلنوا له خضوع عواهلهم له ويلقون بهداياهم عند أقدام فاتح العالم . ومع هذا كله فان طموح تيمور لم يكن ليعترف بحدود ، وظمأه للحرب لم يتلطف أو يسكن . وعاد تيمور آخر الأمر إلى وطنه عام ٧٩٩هـ ــ ١٣٩٦م بعد غيبة دامت خمس سنوات فاستقبل هناك استقبالاً حافلاً . فقد خرج لاستقباله عند ضفاف جيحون زوجاته وبناته وحفيداته في حاشية ملكية فخمة ، فنثر الذهب والجواهر بين يديه على الرسم القومي[1] وأهدين إليه ألفا من الخيول المسومة والبغال . وقصد الغازي الكبير لدى وصوله ضريح أبيه في كش فقرأ الفاتحة . وتعهد المنشآت التي كان يجرى العمل فيها أثناء

(١) لا تزال بقايا هذا الرسم عند العثمانيين اليوم ، إذ تنثر العملة الفضية أمام السلطان في موكب الاحتفال بالعيدين . وكذلك تنثر العملة الذهبية والفضية عندما يدخل العريس غرفة عروسه لأول مرة فتتقدم لاستقباله .

غيابه ، ثم دخل آخر الأمر سمرقند في أبهة لم يسبق لها مثيل . وفضلاً عن العروس الجميلة التي كسبها في ميدان المعركة ، فان هذا المحارب الشيخ ، الذي كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره ، اتخذ لنفسه زوجة جديدة شابة هي الأميرة توكل خانيم[1] . وأهداها ذلك القصر الصيفي الجميل المعروف باسم دلكشا (أي فاتح القلوب) ومضى على تيمور بسمرقند حِينٌ من الدهر كان وقفاً على الحفلات والمسرات . ولم تكن فتنة البهجة والسرور إلا لتثير في نفس تيمور ــ في الغالب ــ شوقاً للاضطلاع بالحرب من جديد فما آن فرغ ــ ابان لبثه بعاصمته ــ من تقسيم ما فتح من أرضين بين أبنائه حتى امتطى فرسه مرة أخرى ليقود جنده إلى مناطق جديدة أمعن في البعد .

فلا يزال أمامه أن يفتح الهند في الجنوب وبلاد الروم في أقصى الغرب ليستطيع من بعد ذلك أن يرى نفسه جديراً بلقب فاتح العالم (جهانكير). وكانت الهند على الدوام في نظر المسلم الآسيوي رمزاً للثراء البالغ في حين كانت بلاد الروم رمزاً للقوة . فأنّى لتيمور أن يهدأ باله إذن قبل أن يضيف هذين القطرين إلى قائمة فتوحاته . ولما كان أول هدفيه هو أن يمتلك شبه الجزيرة التي تقع بين السند والكنج ، فقد تقدَّمه حفيده بير محمد ، ببعض الوقت بطريق هراة فضرب الحصار حول الملتان . وكان تيمور قد عقد العزم على أن يكون الزحف الذي يقوده مهيباً ذا أبهة . فتقدم بطريق بلخ عبر مرتفعات الهندكوش الثلجية ، وكافح رياح هذه المناطق الثلجية ليصطلي من بعد ذلك بنار الحرب مع سكان هذه الجبال الجسورين . ولم ينل ذلك كله من عزيمة هذا الغازي شيئا ، فتدلى وجنده بالحبال وعبروا بها المنحدرات شديدة الميل والجرف الهاوية حتى رَوَّعَ خصومهم بفعلتهم هذه . واخترق تيمور من بعد ذلك كابل إلى الهند عبر الممر المشهور الذي هزم عنده من بعد ذلك بأربعمائة وأربعين عاماً جيش دولة أوربية عظمى بأيدي أحفاد رجال الجبال الأشداء هؤلاء[2] .

(١) خانيم ــ أي زوجة الخان ــ وقد حُرِّف هذا اللفظ إلى كلمة « هانم » الشائعة ، وبيكيم ــ أي زوجة البك ــ وقد حُرِّف بدوره كذلك إلى « بيجوم » (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف بذلك دولة بريطانيا حين حاولت بعد استيلائها على الهند أن تبسط سلطانها بالقوة على بلاد الأفغان بدعوى حماية حدودها الهندية من خطر نفوذ روسيا ←

وعبر تيمور السند في الأيام الأولى من القرن التاسع الهجري ، ثم واصل سيره إلى دهلى قصبة السلطان محمود[1] بعد أن انضم إليه حفيده عند ستلج (رافد السند). ورأى ذلك الغازي أن يتخفف من حشود الأسرى الذين كانوا يسيرون في ركابه فيعوقون من حركته فأمر بقتل مائة ألف من هؤلاء التعساء[2] . ودعى كل فرد في الجيش إلى المشاركة في تنفيذ هذا الأمر القاسي .

ويصف المؤرخ مبلغ الفزع الذي استولى على العالِم الوادع نصير الدين إذ كان عليه أن يقتل بيده خمسة عشر من رقيقه الهندي . وعمد تيمور إلى التظاهر بالتراخي في الهجوم حتى يحمل بذلك عدوه على مبادأته بالحرب . ونجح في خطته هذه حتى وقع الهنود في الشرك الذي أعده لهم فنزلت بهم الهزيمة شاملة . ووقع بأيدي الفاتح التتري مدينة دهلي ، تلك المدينة التجارية الغنية على نهر الكنج[3] بكل كنوزها وسكانها الذين اشتهروا ببراعتهم في كثير من الفنون الدقيقة . ولقيت مدينة ميترا المقدسة[4] نفس المصير ، ونزل بها أشد الذعر بعباد وشنو التعساء ، فلم يغنهم ذلك فتيلاً فحطمت أقدس معابدهم وكسرت أصنامهم . وتقدم تيمور من بعد ذلك حتى منابع الكنج وهو يعمل القتل والدمار بكل ما يصادفه في طريقه ، لينطلق من بعد هذه المذابح العنيفة يستمتع بصيد النمور ووحيد القرن ، ثم رجع آخر الأمر إلى سمرقند في إبريل من عام ٨٠١هـ — ١٣٩٩م ومعه عدد كبير من الفيلة ومهرة الصناع والأسرى من كل صنف .

المتزايدبآسيا الوسطى إذ ذاك وقد أنزل رجال القبائل الأفغانية بالبريطانيين ضربات قاصمة في معارك متكررة وعلموهم ببسالتهم وضراوتهم في القتال كيف يحترمون مشيئة الأحرار (المترجم). انظر في ذاك أيضا: حاضر العالم الاسلامي ثاني ص ٢٩٩ — ٣٠٠ (تعليقات الأمير شكيب أرسلان ١٣٥٢هـ).

(١) هو السلطان محمود تغلق (المترجم).

(٢) عمد تيمور إلى ذلك حين علم بشيوع الفرح بين الأسرى على أثر مباغتة بعض قوات دهلى لبعض حملاته الاستكشافية ، فخاف أن يركن هؤلاء إلى تهديد مؤخرته وتخريب خطوطه والمعركة دائرة مع عدوه : محفوظات تيمور ص ٦٣٦ (المترجم).

(٣) أخطأ المؤلف فذكر السند بدل الكنج (المترجم).

(٤) هي مدينة بنارس (المترجم).

لم تكن حملة تيمور الهندية إلا مجرد عمل عسكري باهر ، لا أهداف له ، وغارة للحصول على الأسلاب ، على ما فعله سلفه المغولي من قبل وما انتهجه نادر من بعد . ولقد ادخر القدر العبقري بابرميرزا ليغرس آخر الأمر راية التيموريين على شواطىء السند والكنج من بعد ذلك بقرن من الزمان . وعلى أية حال فقد أدى هذا النصر المؤقت إلى ازدياد شهرة تيمور وذيوع صيته . ودفعه طموحه — الذي لا يعرف حدودا — من بعد ذلك ليجرب حظه مع أمير الغرب (الروم) القوي .

لم يتغيب تيمور طويلاً عن مسرح فعاله الباهرة السابقة في الغرب ومع هذا فان بناء حكومته الذي كان قد أقامه هناك — في غمرة النصر — قد تعرض إبان ذلك لبعض هزات عنيفة . وحدث أن أدت حكومة ابنه ميرانشاه[1] بتقاعسها إلى قيام الاضطرابات والثورة في أذربيجان ، كما مات في الوقت نفسه حليف قوي لتيمور وجار له في هذه الجهات ، فأذمعه ذلك كله في إضافة أراض جديدة عند حدود هذه الدولة القوية . لهذا خرج من عاصمته بعد أن استراح بها فترة قصيرة ليزحف من جديد على آسيا الغربية . ولئن لم يتعرض لابنه بشيء جزاء إهماله فقد ساق إلى الموت جميع خلصائه ومستشاريه . ثم أسرع من بعد ذلك ، بطريق هراة وقزوين — إلى أراكس ليكسر شوكة ملك جورجين أمير الكرج الثائر . ولجأ هذا الأمير إلى الاحتماء بالصخور الوعرة والحصون فلم يجده ذلك فتيلاً ، إذ هُزِم جيشه في كل مكان وسقطت حصونه وعاصمته .

واستطاع تيمور آخر الأمر بعد معركة قصيرة حامية أن يقيم مضاربه بوادي قره باغ اللطيف ، وكان على جنوده أبناء سهوب تركستان الأشداء أن ينالوا قسطهم من الراحة ، بعد هذه الأسفار المضنية ، قبل أن يخرجوا إلى ما عزم عليه قائدهم العظيم من مهاجمة قرينه التركي بايزيد سلطان العثمانيين . ذلك أن قوة وريث بلاد الروم هذا كانت بمثابة شوكة في جانب تيمور ، فضلاً عن أن بايزيد كان قد تحالف مع أسرة

---

(١) يروي كلافيجو أن ميرانشاه أمر يوما بهدم دور كثيرة ومساجد وغيرها من المنشآت ، ذلك أنه — على حد قوله — « بوصفه ابن أعظم رجل في الدنيا لا بد وأن يشتهر بشيء ، ففعل ذلك لكي يذكره الناس على الأقل بأنه دمر هذا أو ذاك من المنشآت » ولعل هذا التتري مدعي البطولة كان يعاني من الهذيان . ويحاول مؤرخوه على كل حال أن يبرروا سلوكه هذا بأنه أصيب بخلل في قواه العقلية على أثر سقوطه من فوق فرسه .

قراقيونلو التركمانية ، وكان تيمور يحقد على هؤلاء أشد الحقد ، إذ كان يرى نفسه بوصفه صاحب السلطان المطلق على قبائل الترك ، أحق بأن يدين الناس له بالولاء من أتباع السلاجقة السابقين[1] هؤلاء .

وقعت بين العاهلين التركيين اللذين كانا يحكمان آسيا الشرقية وآسيا الغربية حرب ضروس ترك لنا عنها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على السواء تفصيلات تثير الرعب والاشمئزاز في النفوس[2] . وقد انتهت هذه في صالح الفاتح التتري . فلقد بدأ تيمور بدعوة فرج سلطان مصر ليقدم له تفسيراً عما ارتكبه أبوه حين قتل العلامة الشيخ ساوه رسول تيمور إليه ودفع الابن ثمن جرم أبيه غالياً إذ اجتاح هؤلاء التتار إقليم سورية ونهبوا مدنها العامرة ودمروها . وباستيلاء تيمور على سورية قضى على كل تحالف ممكن بين العثمانيين والعرب . هنالك استدار تيمور لحرب بايزيد ، وهو الذي يكاد يدانيه في القوة والشهرة ، وأصم أذنيه عن كل ما نصحه به مستشاروه ايثاراً للمودة ، اعتماداً منه على ما كان يشعر به من أنه ندّ لخصمه وتحقيراً لشأنه . ولم يكن تيمور بحاجة إلى من يحرضه على قتال خصمه هذا ، فتقدم في ربيع عام ٨٠٥هـ ــ ١٤٠٢م من سيواس بطريق قره شهر إلى أنقرة حيث شهدت وِدْيانها معركة دموية عنيفة جرت بين الجيشين . وانتهت هذه المعركة بدحر العثمانيين دحراً تاما ووقوع بايزيد نفسه ونسائه في الأسر . وبهذا النصر الحاسم الرائع سقطت آسيا الصغرى كلها بأيدي تيمور ليزحف من بعد ذلك إلى ازمير . ولولا البحر لواصل زحفه وسقط على أوربا نفسها .

---

(١) لم يكن ذلك وقفا على أيام تيمور فحسب ، إذ لا يزال التركي بالشرق الأدنى يقول في وقتنا هذا بقرابته لاخوانه في الشرق الأقصى . كما أن التركماني البسيط يعرف تماما أن بني جلدته يقيمون كذلك حول ديار بكر . ولا تزال التقاليد والخرافات الشرقية أكثر قوة وأشد رواجا من حكايات كليو (اله التاريخ) .

(٢) من بين الجرائم البشعة التي وقعت عند احتلال سيواس ما يرويه دوكاس وشالكونديلاس Ducas, Chalcondylas بأن (تيمور) قد أمر بفرسان النصارى ، الذين كانوا في خدمة بايزيد ووقعوا في الأسر ، بأن يسيروا في عشرات فيلقى بهم في حفرة ويدفنون أحياء . أما أهل المدينة من المسلمين فقد قطعت رءوسهم جميعاً بعد أن كان تيمور قد وعدهم بالابقاء عليهم .

ولم تكن خططه في الشرق الأقصى لتسمح له على كل حال باطالة إقامته في الغرب . فما أن تمَّ لجموعه أعمال السلب والنهب وإنزال الدمار التام بهذه البلاد المفتوحة حتى استدار بهم فدخل سمرقند عام ٨٠٧هـ ــ ١٤٠٤م دخول الظافر للمرة التاسعة . وعلى الرسم المعهود أقيمت الاحتفالات وأفراح الزواج وحلقات اللهو والسمر هناك . ولم يشهد هذا كله وفود البلاد الآسيوية فحسب بل شاركهم في ذلك كذلك سفير أعظم ملوك أوربا إستمساكاً بالمسيحية ، هو الفارس دون روى جونز الردو كلافيجو مبعوث هنري الثامن ملك الإسبان ، وكان قد وَفَدَ على رأس بعثة صداقة إلى تيمور .

وسنرى في الفصل الثاني أن التتار كانوا يمارسون لهوهم بنفس النشاط الذي كان لهم في حروبهم . فمن أتيح له أن يشاهد تيمور وهو يَتصدَّر هذه الحفلات تحيط به حاشيته المشهورة ، لم يكن ليصدق في يُسر ان ذلك العاهل هو نفسه ذلك المحارب الجبار المعروف . ولم يكن تيمور في سِنّه المتقدمة هذه يقضي عطلته الخاصة إلا في اختيار الأماكن التي سيتجه إليها في غزواته المقبلة ، واعداد العدة ليتوج بأكاليل جديدة من الغار . وفيما كان تيمور يستقبل سفراء الدول المختلفة لقى سفير الصين بفتور ظاهر .

والغالب أن (تيمور) ــ وهو العظيم فاتح نصف آسيا ــ لم يستطع أن يُخفي سخطه حين دعاه رسول حاكم كمبالو هذا ليدفع إليه ما عليه من اتاوة سنوية معلومة . فلم تهدأ كبرياؤه الجريحة حتى عزم على حربه . وسار ذلك الجندي الشيخ في قوة صغيرة ، ولكنها كاملة الإعداد ، والشتاء على أشده ، ليهاجم (إمبراطورية الصين وافرة الزهور)، فغادر سمرقند في الرابع من يناير عام ٨٠٧هـ ــ١٤٠٥م وهو يعاني من برد أصابه بسبب قسوة الجو ، فلم يأبه به ، وعبر سيحون المتجمد ونزل عند أترار في شهر فبراير . هنالك اشتدت العلة عليه حتى أعلن طبيبه مولانا فضل الله أن حالته قد باتت ميئوساً منها . وقد ظل تيمور ، وهو الذي واجه الموت مئات المرات ، محتفظا بشجاعته ورباطة جأشه حتى اللحظات الأخيرة في حياته .

والتف حول فراشه أبناؤه وأحفاده ورفاقه القدامى يبكون بمرارة ساعة فراق زعيمهم ، وهو يطلب إليهم أن يستمسكوا بالشجاعة ويوصيهم بالاتحاد والتآلف ، والطاعة لبير محمد الذي رسمه خليفة له . وحين سألوه عما إذا كان يريد استدعاء

ميرزا خليل سلطان وغيره من كبار الأمراء اعتذر لهم بأنه لن يعيش إلا لحظات قليلة أبدى أسفه إذ لن يمكنه الموت أبداً من رؤية ولده المحبوب شاه رخ ميرزا . وسرعان ما أخذت قواه على إثر ذلك تنهار . وأشار ـــ وهو في النزع الأخير ـــ برغبته في أن يقوم على غسله الملا هيبة الله وأن يقرأ القرآن على فراشه . وقضى أول مساء السابع من شعبان عام ٨٠٧هـ ـــ ١٤٠٥م ، ونقل جثمانه إلى سمرقند فووري في نفس الضريح الفخم الذي كان قد أقامه لشيخه المحبوب السيد بركة . وكان هذا الشيخ هو أول من تنبأ له في شبابه بعظمته المقبلة . وهكذا رقدا معاً جنباً إلى جنب في قبر واحد[1] . وكان تيمور عند موته في الحادية والسبعين من عمره . وقد قضى أكثر من نصف هذه المده حاكما مطلقا على بلاد ما وراء النهر ، كما صار صاحب النفوذ الأكبر في العالم الإسلامي الشرقي كله . وهو يقارن ـــ بحق ـــ بطموحه وعبقريته الحربية وقوة إرادته ، بقيصر والاسكندر وجنكيز . وما اتسمت به حروبه من إغراق في سفك الدماء قد بعث الرعب في نفوس معاصريه من الآسيويين حتى لا نملك هنا إلا أن ننصف مؤرخه العربي أحمد بن عربشاه بعض الشيء ، برغم اشتهاره بعدائه الشديد للغازي التتري ، وذلك في حديثه الذي أجراه على لسان الشتاء ، وفيه يصف توقف هذا المحارب المحنك إبان تقدمه عبر الوديان الثلجية بآسيا الوسطى حيث يقول (مهلا يا شوم ورويدك أيها المظلوم الغشوم ، فإلى متى تحرق القلوب بنارك ، وتلهب الأكباد بأوامك وأوارك ، فإن كنت أجد نفسي جهنم فاني أنا ثاني النفسين ، ونحن شيخان اقترنا في إستئصال البلاد والعباد ، فانحس بقران النحسين ، وإن كنت بردت النفوس وبردت الأنفاس فنفحات زمهريري منك أبرد ، أو كان في جرائدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصماهم وأصمهم ففي أيامي بعون الله ما هو أصم وأجرد ، فو الله لا حابيتك فخذ ما آتيتك ، والله لا يحميك يا شيخ من برد ريب المنون لواعج حرة مجمرة ولا واهج لهيب في كانون[2] .

(١) في وصف هذا البناء الذي يعرف اليوم باسم « تربتي تيمور » ، انظر كتابي travels in Central Asia p. 358 .

(٢) عجائب المقدور في أخبار تيمور لأحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن عربشاه ، المطبعة العثمانية ، القاهرة ١٣٠٥هـ ، ص ١٦٢ (المترجم) .

وها نحن قد فرغنا من تاريخ حياة تيمور وفعاله على ما فصلناه ، في حدود منهجنا في هذا الكتاب ، لنحاول في الفصل التالى من بعد ذلك أن نرسم صورة عامة لبلاط تيمور وحضارته . ذلك أن حكومة تيمور كانت في الواقع قد بلغت غاية المجد بذلك الاقليم الصغير فيما وراء جيحون وغمرت بالنور تاريخ الشعوب التركية . ولاتزال تقاليد قبائل كثيرة منهم تتلألأ في بقية من هذه الأنوار . ولم يعد في الواقع لهذه الأقاليم فيما وراء جيحون وسيحون بموت تيمور أي دور في التاريخ العام . فقد كان هو آخر قائد قاد مئات الألوف من محاربي الترك والتتار ، من أبناء شعوب آسيا الوسطى ، إلى آسيا الغربية .

شخصية تيمور ــ بلاطه وحاضرته[1]

يصف أصدقاء الفاتح العظيم ابن « المدينة الخضراء » بأنه كان مثال الجمال في الرجال، في حين يقول عنه أعداؤه إنه صاحب عاهة قبيح المنظر حقيره. وعلى ما هو متواتر بين بني قومه حتى اليوم: كان تيمور في الأرجح متوسط القامة، متين البناء، قوي البنية. وقد ظل محتفظاً بقوته ونشاطه كاملين حتى تقدمت به السن برغم ما عاشه من حياة غير مستقرة قضى أكثرها مضطلعا بالحروب وشئونها.

وكان منتصب القامة حتى لا يكاد الناظر إليه يدرك ما كان به من عرج، أما صوته فكان جهورياً حتى ليطغى على ضجيج القتال في المعارك ويتجاوز أسماع من حوله إلى كثيرين ممن وراءهم. وما كان يعاني منه وحده هو ضعف بالبصر حتى لم يستطع ــ وهو في السبعين من عمره ــ أن يتعرف على الرسل الاسبان بسمرقند حتى قربوهم من مجلسه. وكانت ملامح تيمور مغولية خالصة، ولم يكن امتزاج الجنس التركي بالعناصر الايرانية[2] واختلاطه بها يجري ــ حتى زمن تيمور ــ على نطاق

(١) ما نفصله هنا عن بلاط تيمور وعاصمته هو نقل في الغالب عن كتاب كلافيجو الذي سبقت الاشارة اليه. وقد قام السيد مركهام Markham سكرتير الجمعية الجغرافية الانجليزية العالم، بخدمة طيبة حين ترجم هذه المذكرات عن الاسبانية. وكان كلافيجو لماحا، فكانت مذكراته بذلك مما يعتمد عليها باطمئنان.

(٢) لم تكن تجارة الرقيق مع ايران قد تطورت في المحل الأول كما هي عليه الآن. ذلك أن شراء الرقيق من الفرس الشيعيين لم يرخص به إلا بفتوى الملا شمس الدين التي صدرت بعد وفاة تيمور بخمسين عاماً. وكان امتزاج الشعبين بذلك نادرا. ثم إن الترك ببلاد ما وراء النهر كانوا يؤثرون في الغالب أن يصهروا إلى بني جلدتهم من المغول والأوريغور دون التاجيك الذين كانوا يوصمون إذ ذاك بالجبن ويشتهرون به.

واسع. وعلى هذا فقد أخطأ كاتب سيرة تيمور إذ يضفي عليه من سمات الجمال الايراني حين يصوره كبطل، فهو يصف الفاتح التتري بأنه ذو لحية طويلة نضر البشرة، رقيق الجلد. والواقع أن « تيمور » لم يكن له من مظهر الايرانيين أو أهل آسيا الغربية إلا ثيابه.

كانت الازياء الشائعة إذ ذاك ببلاد جيحون، كعموم أحوالهم الاجتماعية، خليطاً عجيباً تتمثل فيه الرسوم والعادات البوذية والاسلامية، فنجد أن « تيمور » كان يظهر في المناسبات الرسمية بنفس الثياب الحريرية الناعمة الهفهافة، التي لا تزال تروج بين سكان آسيا الوسطى حتى اليوم، والتي كانت إذ ذاك الزي الذائع في آسيا الاسلامية. أما غطاء رأسه فكان على كل حال مأخوذاً عن الزي الصيني أو المغولي، فلم يتخذ تيمور في الواقع العمامة الاسلامية، كما أشاع ذلك عنه شرف الدين في فخر، فكانت قلنسوته من الفراء مخروطية الشكل يعلوها ياقوتة على هيئة الكمثرى يحيط بها الجواهر والماس. كذلك كان تيمور يقلد المغول في التزيين بالأقراط الطويلة، ولم يكن بحال ما يكره الزينة والبهرج أبدا، وكان كلفا بذلك إلى درجة تلفت النظر. على أنه كان في حروبه الطويلة يلزم نفسه بالتقشف الشديد حتى كان يبدو بين جنده مثالا للبساطة الاسبرطية. وثمة تناقض آخر ملحوظ كنت تراه في أظهر نواحي خلقه. فتعاليم الاسلام والصوفية الدقيقة التي غرسها فيه أبوه وشيوخه في شبابه كان يلتزمها في الحرب على الدوام إلى جانب طبيعته الثائرة وأطماعه التي لا حَدَّ لها.

وكانت هذه الناحية الأخيرة هي التي تسيطر عليه كما توحي به الظواهر حتى رُوي أنه كان ينادي بأن الحكومة لا تقوم إلا بحد السيف[1]. ومع هذا كله فليس من اليسير أن تغلب صفات الوحشية والقسوة عند ذلك الرجل الذي أمر جنده وهم ينهبون أصفهان ألا يتعرضوا بسوء للحي الذي كان يسكنه العلماء، والذي كان يشارك فلاسفة هراة وحلب محاوراتهم الشرعية، ويبذل العطاء الوفير لمن كان منهم على خلاف معه في الرأي. ولقد رأيناه يسعى جهده لكسب العالِمَين المشهورين: شمس

(١) هذا المعنى قد أجراه على لسانه مؤرخه الفارسي بالعبارة الفارسية الآتية: « ملكرا إكر قرار خواهي كرد، تيغرا، بيقرار بايدكرد ».

الدين الفناري ومحمد الجزري إلى صَفِّه فبذل لهما العطايا في ذلك وبالغ في استرضائهما برغم ما كان يعلمه من شدة عدائهما له. وكانا قد وقعا في أسره ببلاط عدو له. كذلك كان يعتبر أن أعظم كَسْب خرج به من البلاد التي فتحها هو حصوله على هؤلاء الصناع وأهل الفنون من أبناء تلك الأصقاع الذين ألحقهم بخدمته. ويُروى عنه كذلك أنه أمر ذات مرة بنقل مكتبة بأكملها على متون البغال من بروصه إلى سمرقند[1].

إن أولئك الذين يقرنون « تيمور » بجنكيز في صفاته فيقولون عنه إنه كان مثله مجرد متوحش وظالم مستبد، إنما يخطئون في ذلك خطأ مزدوجاً. ذلك أن تيمور كان جنديا آسيويا قديراً استغل انتصاراته على الرسم الذي كان شائعاً في عصره وبلده، بل إن ضروب القسوة والدمار التي شنع بها عليه أعداؤه إنما كان قد ارتكبها وأمر بها ليثأر لبعض ضرر لحق به. وإن كان قد تغالى في ذلك بلا جدال. فقد أنزل بأصفهان وشيراز ما أنزل انتقاماً لمقتل أحد جنوده غدراً. هذا كما كان على سكان دمشق ـــ ورثة الأمويين القدماء ـــ أن يُكفِّروا عن استشهاد أسرة الحسين، وكانت قصة هذه المأساة قد ملأت تيمور بالسخط والحنق. وهناك كثير من المذابح التي قيل بوقوعها، منها ما انطلق أعداؤه يهولون في تصويرها، ومنها ما نجهل جهلا تاما حقيقة الباعث عليها. ومهما يكن من شيء فنحن لا نستطيع أن نتجاهل ما اقترفه تيمور في آسيا الغربية من أعمال التدمير والتخريب على نطاق واسع حتى أتت هذه الجموع التركية المغولية الجديدة في اجتياحها لهذا الاقليم على كثير من بقايا الحضارة الاسلامية التي كان المغول قد كفوا أيديهم عنها مع شغفهم بالتخريب. ولئن كنا نسلم لابن عربشاه ببعض الحق في حملته على تيمور، إلا أننا حين نبعد عن الهوى في حكمنا عليه نقول: إن تيمور إنما يقع اللوم عليه لا بوصفه مخربا قد عاث في الأرض فساداً، وإنما لمجرد استغلاله حقوق الفتح استغلالاً جائراً عنيفا. وكان تيمور على محبة بالغة لبلاده، شأنه في ذلك شأن كل الغزاة من أبناء القبائل التركية والعربية على السواء، فلا عجب إذن حين نراه يُصر إصراراً شديداً على أن ينتقل بقوة الاسلام

(١) المشهور المعروف أن « تيمور » بعد أن دخل في جدل عنيف مع العلامة شرف الدين قاضي حلب شمله وأتباعه (وكانوا عشرين ألف نفس) بعطفه وغمرهم جميعاً بالهدايا.

العربية السياسية وما بقى من فروع الحضارة الاسلامية إلى ثرى سهوب تركستان المتعفنة.

ولا حاجة بنا الى القول بأن نشاط تيمور الرائع، مع مثل هذه المقاصد التي كانت تثير من حماسه، كان له كله أبلغ تأثير على كل أحوال آسيا الوسطى، ولم يبلغ بلاط كمبالو أو غزنة أو بخارى بل ولا بلاط أية دولة في القديم ما بلغه بلاط تيمور من الأبهة والثراء. وما وصف به شرف الدين حفلات تيمور وأعياده، وما كانت عليه من البذخ والاسراف، لا يعدّ شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الصورة الزاهية التي رسمها لبلاد الامبراطور التتري ذلك الفارسي المسيحي (دون روي جونز الزرو) كلافيجو. فلقد رأى ذلك النبيل من ذلك كثيراً بل لقد شاهد هناك كل شيء. ولا أدل عما حباه به تيمور من العطف من مقالته لرجال دولته وهم يحيطون به في الحفل الرسمي لاستقباله: « هاهو ذا السفير الذي أوفده إليَّ ابني ملك اسبانيا الذي يعيش في أدنى الأرض والذي يُعدّ أعظم ملوك الفرنجة. حقاً إن هؤلاء الفرنجة أمة عظيمة. واني لَأودّ أن أبعث بتمنياتي إلى إبني ملك اسبانيا ».

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نركن إلى حديث هذا النبيل الاسباني عن بلاط سمرقند ونَتَتبَّع وصْفَهُ للخصائص والرسوم والاحتفالات التي كانت تشيع هناك إذ ذاك.

في بلاط تيمور كانت تتمثل نماذج من مختلف رسوم وعادات شتى البلاد والقبائل التي قام على أنقاضها عرشه. فثياب الحرير وكساوي الديباج والمخمل قد أُقتبست من الأزياء العربية أو الاسلامية. أما لباس السيدات بالبلاط، ويتميز بطيلسان مرتفع يعرف باسم « شيوكله » فيذكر بما كان نظيره رائجا في خوارزم وإيران القديمة. وهو كساء طويل من الحرير الأحمر تُزينه شرائط الذهب وله حبكة عند الرقبة، وليس له أكمام وينسدل على الجسد فَضْفاضاً في ثنايا تنتهي بذيل طويل يحتاج في الغالب إلى خمسة عشر شخصا يحملونه وبه يسيرون. وكانت السيدات يسدلن على وجوههن نقابا، وكن عند السفر يستخدمون ضربا من مسحوق الزنك يصون الوجه من التراب ويحفظه من التعرض للأنظار. أما غطاء الرأس فكان على هيئة خوذة من قماش أحمر تُزينها اللآلىء واليواقيت والزمرد، وتنتهي بزركشة حول طرفها الأعلى حيث تبرز منه

ريشات بيضاء على ميل. وبعض هذا الريش كان يتدلى إلى ما فوق العينين[1]، فتضفي خفقاته عند السير مزيداً من الفتنة على طلعة صاحبته. وسيدات بلاط تيمور العديدات كن يرزحن تحت جواهر نصف آسيا وأثمن ما عند جوهريي الملتان وأصفهان وغنجة ودمشق وبروصة والبندقية. ولم يكن الرجال دونهم في البهرج بسيوفهم المرصعة بالحجارة الكريمة ومناطقهم وجماناتهم الفاخرة. وكانت صحاف الذهب والفضة في مقادير عظيمة هناك بما لا يكاد يُصدِّقُه العقل. ويصف كلافيجو علبة ضخمة ذهبية للجواهر شاهدها في إحدى الخيام لها غطاء مستو تحوطه بروج مصغرة مطلية بالميناء الزرقاء والخضراء ترصعها مختلف الحجارة الكريمة واللآلىء. وفَتْحة هذه العلبة على هيئة الباب، وبداخلها رَفّ عليه صف من الكؤوس تعلوها ست كرات من الذهب مرصعة باللآلىء والحجارة الكريمة.

وكان إلى جانب هذه العلبة مائدة، علوها قبضتان، مصنوعة من الذهب المسبوك وحافتها من الجوهر، وعليها زمردة نقية طولها أربع قبضات (!!) وتغطي سطحها كله. وكان أمام هذه المائدة شجرة ذهبية على صورة شجرة السنديان جزعها كساق الرجل في استدارته، وفروعها تحمل أوراق السنديان ذهبية تمتد في كل صوب. وتتدلى منها ــ بدل الثمار ــ اليواقيت والزمرد والعقيق والزفير والجواهر النادرة العديدة. وتقف على أفنائها الطيور المنقوشة بالميناء في مختلف الألوان. وكان أمراء البيت المالك يتناولون طعامهم على الدوام في آنية ضخمة « كنجات »، وكان أعضاء الأسرة المالكة يتعاطون الشراب فيما بينهم في كؤوس كبيرة من الذهب. وإذا عرفنا أن الحفلات الكبرى، تلك التي كان يشهدها ألوف عديدة من المدعوين كان يُقَدَّم الشراب في طاسات ذهبية فوق صحاف من ذهب، لأمكننا بذلك أن نتصور بعض الشيء مدى ما كان عليه قصر تيمور وديوانه من الثراء والأبهة البالغة.

ومرجعنا هذا الذي زار بلاط تيمور ــ وهو في أوج عظمته ــ لا يجد من الألفاظ ما يُعينه في وصف كل ما رآه من أعاجيب في تلك الحفلات التي كانت

(١) لا تزال بقايا هذا الزي يشاهد في غطاء الرأس الحديث أو بالأحرى زينة الرأس الحديثة التي تستخدمها سيدات الطبقة الراقية من التركان.

تقام في مضارب وادي (كان كل)[1] المحبوب بظاهر سمرتند. وقد كان الترك منذ زمن موغل في القدم يُفَضِّلون سكنى الخيام في الهواء.

ويرون أن أنسب فرصة لاظهار ما هم عليه من الثراء والأبهة، هي في إعداد هذه المنازل المتنقلة إعداداً فخما. ومن السهل أن ندرك أن تيمور بوصفه أعظم من عرفه الترك وأكثرهم جاها على الاطلاق، كان بطبيعة الحال يَبزّ قومه جميعاً بزينة مضاربه. ومن يَطَّلع على موقع عاصمة تيمور اللطيف يُمكنه أن يتصور في يُسر مدى المتعة التي يستمتع بها المرء حين يُتاح له قضاء عطلة في معسكر، يبعد ميلين إلى الشمال الشرقي من المدينة، في سهل ترويه قنوات متعددة ويقع على مقربة من زرفشان، وهذا النوع من المعسكرات كان يضم في الغالب ما يقرب من عشرة آلاف من الخيام أو خمسة عشر ألفا. ولا ينزل به رجال البلاط فحسب بل وكذلك كل الشعب على اختلاف طبقاته. وبه كانت تُقام محال تجارية أنيقة ومصانع يمارس فيها الصناع حرفهم. بل إنك لتجد فيه كذلك الحمامات المؤقتة وبها المياه الساخنة. وأول خيام تضرب هناك هي خيام الأسرة المالكة، وتتوسط في الغالب المعسكر الذي كان ينتشر على هيئة المروحة. وتتفرع الخيام الأخرى عن تلك المجموعة الوسطى. وكان لكل أسرة ولكل وزير ولكل تومان أغاسي (متصرف) مكانه المخصص له، فمنهم من كان ينزل ناحية اليمين أو ناحية الشمال أو في الصف الأول أو الثاني أو الثالث، كُلٌّ حسب مكانته في نظام محكم لا تعرف الفوضى طريقها اليه، حتى كان يبدو (وادي كان كل) الجميل هذا، في وقت قصير مذهلاً والأعلام الملونة العديدة ترفرف فوق خيامه، وكأنه حوض من الأزهار الفاتنة يداعبها النسيم.

أما الخيام فكان الغالب فيها ما هو على هيئة الناقوس وهو الذي لا يزال يشيع في تلك الأقاليم حتى اليوم. وكنت تجد هناك كذلك خيام إبراهيم العربية المستطيلة

(١) ذكرها بني دي لاكروا خطأ، شايه كاول، وهي كلمة فارسية معناها منجم الزهر (المؤلف) صححها بكسر الجاف كما حققها الأستاذ بفريدج وزوجته انيته بفريدج في تعليقاتها على برنابجه. ويذكرها بابر في سيرته بأن فيها كان يصنع أفخر أصناف الورق في وقته. والمعروف أن صناعة الورق التي عرفها المسلمون أولا في سمرقند، وعنهم أخذها الأوربيون (المترجم).

وخيام فارس الفاخرة التي تعرف باسم « سرا برده » (قصور الستائر)[1] وهي في الغالب التي أثارت إعجاب فارس قشتالة بخاصة : وهذه الخيام مربعة الشكل طول ضلعها مائة قدم وارتفاعها بطول ثلاثة رماح .

وكان للسرادق الرئيسي سقف على هيئة القبة يستند إلى سبعة قوائم زرقاء مذهبة في استدارة رسغ الرجل ويلفها جميعاً نسيج من الحرير نُصِبَ على هيئة الرواق . وإلى جانب هذه كانت أروقة ذات عُمد على جوانب السرادق كله . وكان بكل واحد منها ستة أعمدة . وقد استخدم في عقد هذا البناء كله ما يزيد على الخمسمائة من الجدائل قرمزية اللون . أما الأسجاف الخارجية له فكانت من حرير مخطط بالأسود والأصفر والأبيض . كما فرشت أرض السرادق ببساط أحمر مشغول بالذهب وبه زخارف أخرى من الحرير . وأثمن توشية فيه تجدها تتوسط الجناح الجانبي منه . وكان بأركانه الأربعة نسور كبيرة قد نَشَرت أجنحتها . وكانت القوائم عند هذه الأركان تُحَلِّيها كرة وصولجان تراها بالقائم الأوسط أكبر حجما . وكان هذا السرادق يبدو للرائي من بعيد وكأنه القلعة . وكان يحجبه بعد ذلك كله سور عال ملون في بعض أجزائه وتزينه الشرفات أو الأبراج الصغيرة . وإلى جانب هذا السرادق كانت هناك خيام أخرى لا تَقِلّ في روعتها وفخامتها عنه ، وبها كانت تنزل السلطانة وكبار الأميرات . وكان بعضها يغطيه سجف من الحرير الأصفر أو القرنفلي اللون مُوشَّى بالذهب وقد عُقدت بأثمن أنواع الديباج . وكانت مداخل الخيام في الغالب رحبة حتى ليستطيع الفارس أن ينفذ منها وهو على فرسه . وكان لها كذلك نوافذ يسدل عليها نسيج من سندس سميك حين تُفْتح . وعلى جانبيها ستائر أخرى من الحرير تُستخدم لتمنع عنها أشعة الشمس . وأثمن ما كان حول الخيام ـــ وهو لا يزال يشاهد حتى اليوم ـــ هو الأبسطة ، التي تُسدل على الأبواب ، وحِبال هذه الخيام . وكانت البسط تُوشَّى بوشي الذهب والفضة العجيب (جلب تيمور واحداً منها معه من بروصه وكان عليه صور للقديس بطرس والقديس بولس) أما الحِبَال فكانت تُحبك بعرى من الذهب السميك والفضة تحليها نقوش عربية من الحجارة الكريمة .

وهذه الخيام ، التي يُذكِّرنا وصفها بما ورد في قصص ألف ليلة وليلة ، كانت

(١) يذكر كلافيجو هذه الخيام باسم Zalaparda .

مسرح الحفلات الكبرى والسَّمَر . ولئن لم يصل إلينا أي تفصيل تتري لما كان يتناوله القوم من أصناف الطعام إلا أننا نستطيع أن نقول ـــ اعتماداً على ما وصل إلينا من أخبار قليلة في هذا الشأن ـــ إن أحب ألوان الطعام عند القوم كانت في الغالب شواء الضأن ولحم الخيل والأرز (وكان يطهى على الطريقة المعروفة اليوم تماما) والشطائر وفطائر الفاكهة والحلوى المصنوعة من السكر . وأعظم هذه الأطعمة كان في الغالب فَخذْ فَرَسْ يُقطَّع ويُغطَّى بالدهن . وكان يُقدم في العادة في صحفة من الذهب أو الفضة . أما أصناف الشواء الأخرى العادية فكانت تُقدَّم على خوان من الجلد[1] ، ويتولى تقطيعها إلى شرائح ندل مدربون . ولا تمتد إليها الأيدي عادة حتى يفرغ السلطان من تناول الشريحة الأولى منها . ويختم الطعام في الصيف بالفاكهة وخاصة القاوون والعنب . ويأتي من بعد ذلك دور الشراب على المعتاد في آسيا الشرقية . ويَتصدَّر مجلسه الأمير بنفسه ، إذ لا تعقد مجالس السمر ، خاصة أو عامة ، دون ترخيص منه . وأحَبّ المشروبات عند القوم كان نبيذ العنب وخمير الشعير (البوظة) وخمير لبن الخيل[2] . وكان نبيذ العنب أفضلها جميعاً . وكان يدور به على الحاضرين في المجلس سقاة يجثون على ركبة واحدة في كل مرة عندما يُقدِّمون الكأس لشاربها على صفحة بيد ، ويمسكون بمنشفة في اليد الأخرى أو منديل ليحولوا به دون سقوط بعض الشراب على ثياب متعاطيه وهو يتناوله . وما إن تدور كؤوس النبيذ على الحاضرين دورات قليلة على هذا الرسم حتى ترى القوم يَتَخَلَّون عن وقارهم بالتدريج لينطلقوا عند ذلك يتخاطفون دنان الشراب . ومن كان منهم يتصدى ليشرب نخب تيمور كان عليه أن يشرب إبريقه دفعة واحدة .

وكان القوم يستهدفون بشرابهم هذا إلى أن يثملوا ، وهو ما يزال يفعلونه حتى اليوم .

(١) استبدل القوم في العصور الحديثة هذا الخوان الجلدي بنسيج من الجوت الروسي الملون اللامع ، وهو عند الأثرياء من الحرير وله سجف « شراريب » طويلة ، ويسمى دستور خوان ، وكلمة دستور معناها احتفال . وخان : المائدة .

(٢) ازداد اقبال المسلمين على المشروبات الروحية في عهد الحكم المغولي . وكان تعاطيها شائعا بين الطبقات العليا من الخوارزميين . كما كان الادمان عليها شائعا بين الجنكيزيين والتيموريين . وقد أشار بابر في سيرته إلى انتشار هذه الرذيلة ، وكان اكتشاف الطباق نعمة جزيلة لهؤلاء السكارى الآسيويين .

وقد بلغ معاصرو تيمور وخلفائه بفنى الافراط في الشراب والأكل درجة لم يبلغها غيرهم. ومَنْ كان منهم يسقط على الأرض بتأثير الشراب أو يرتكب حماقة كبرى وهو في سكره، كانت فعلته هذه تُحمل على انسجامه في مجال اللهو والسرور. ومَنْ كان له جَلَدٌ على الشراب كان يوصف بالبطولة كالمحارب سواء بسواء. ومقياس الكمال عند التتار كان يقتضي المبالغة في كل شيء. فلم يكن يكتمل الطعام إلا أن يحوي شواء فَرَس كامل ومعه أباريق النبيذ وفيرة في عددها، ضخمة في حجومها.

وهذه الدنان أو الجفان (وكان الواحد منها يسع ما يقرب من ثلاثة جالونات على رواية كلافيجو) كانت تُصفّ في صفين على هيئة طريق يمتد حتى سرادق تيمور، فضلاً عن آنية أخرى مثلها كانت تُفرَّق في أماكن متعددة بمدينة الخيام وعليها مظلة تظللها. وكانت هذه تملأ على فترات بالنبيذ أو القشدة مع السكر ليستمتع بها أكبر عدد من الناس. ويمكننا أن نتصور بسهولة أن مثل هذه المناسبات لم يكن ينقصها وجود المشعوذين والمهرجين والراقصين على الحبال. وكان أكثرهم يقدم من كشمير والهند. على أن الواقفين عموما على عادات المسلمين والآسيويين لا بد أن تتملكهم الدهشة والعجب حين يعلمون أنه كان هناك من السيدات من كُنَّ يُقِمْنَ مآدب عامة يحضرها الرجال بل والسفراء المسيحيون كذلك. وقد وصف لنا السفير الاسباني حفلاً أقامته الأميرة هانزادة زوج ميرانشاه. وكانت سيدة بدينة في الأربعين من عمرها[1]. وقد دعت الى هذا الحفل عدداً كبيرا من الضيوف، وفيه طغت فتنة الجمال التتري على مفعول الشراب، وانبرى الفرسان القدماء ومعهم غلمان عين فقاموا بدور السقاة. وثمة مأدبة أخرى كبيرة أقامتها سيدة البلاط — أي زوجة تيمور الأولى — في مجموعة من الخيام كان يحجبها عن العيان بسط منشورة زخرفها من النقوش العربية وشعاراتها من الذهب والفضة. وفي هذه المأدبة روعيت التقاليد في خدمة السيدات بأدق صورة، فكان أحد السقاة يحمل الدنّ في حين كان زميل آخر له يحمل الكأس والصحفة من تحته. وكان على الساقي أن يجثو ثلاث مرات على ركبته

(١) عاشت هذه السيدة بمعزل عن زوجها بدعوى أنه حاول في إحدى المرات قتلها وهو ثمل، وذلك على رواية كلافيجو، ويبدو أن « تيمور » كان كثير العطف على زوجة ابنه هذه، وكان لها مكانة مرموقة بالبلاط.

قبل أن يتقدم إلى الواحدة منهن. وكان عليه كذلك أن يلف يده بمنشفة فلا تلمس يده الأميرات على الاطلاق. على أن هذه الدقة لم تمنع الجنس اللطيف في بلاط تيمور من أن يغادر سيداته الموائد وهُنَّ في حالة سكر ملحوظ. على ما يفعل سيدات الطبقة الراقية في فارس اليوم[1].

وتحكي الرواية الكثير عما كان يجري من استعراض أصحاب القوى والألعاب الرياضية الأخرى التي كانت تدخل في برامج الحفلات بوادي (كان كل). ولقد جمع تيمور كنوزاً وثروات طائلة من مختلف أجزاء آسيا. ولدينا من الأدلة ما لا يقبل الشك بأنه لم يكن يتردد في الانفاق منها في وجهين:

الأول: وهو خاص بالحفلات الباذخة التي كان يقيمها والتي وصفناها فيما سبق.

والثاني: في إقامة المنشآت الفخمة التي رام بها تزيين حاضرته هي ومسقط رأسه.

ولقد حرص تيمور على أن يخلد ذكر كل نصر باهر أحرزه وكل حادث قد وقع له بتذكار من المنشآت. وجلب لذلك مئات من البنائين من الهند وأمهر رجال المعمار من شيزار وأصفهان ودمشق، فعبروا جميعا جيحون ليقيموا من المنشآت ما يشهد بأن آسيا الاسلامية لا يزال بها من الفنانين ما هم محل إعجابنا اليوم برغم ما تعرضت له تلك الأصقاع من غارات جموع التتار على مدى قرنين من الزمان، وأن ذلك الغازي الذي ما فتىء يوصف بالوحشية والعنف، لم يكن خلواً من تذوقه للجمال مع سلامة في الذوق.

ولقد أمر تيمور بإقامة منشآت كثيرة في أجزاء مختلفة من دولته، من بينها مسجد تبريز وقصر في شيراز ومدرسة في بغداد وضريح على قبر الولي المشهور أحمد اليسوي بمدينة تركستان. وأجمل هذه المنشآت التي يتجلى فيها ذوق تيمور الرفيع ما أقيم بكِش وسمرقند.

والأولى — أي كِش — وهي موطنه الأصلي. بها مدافن أسرته وفيها أقام ضريحا ضم قبر أبيه وقبر ابنه الأكبر جهانكير ومسجداً له ساحة خارجية يُرتِّل فيها الشيوخ القرآن ليل نهار ويَهَبُون ثوابه لأرواح الراحلين.

(١) آثار الكاتب الماهر غير المتعمق كونت جوبيلو غضب شاه فارس الحالي قبل الثورة عليه حين تعرض لسيرة سيدات فارس بأوربا تعرضا غير لائق وذلك في كتابه عن ديانات آسيا الوسطى. Count Gobileau, Religions of Central Asia.

ولقد بدأ تيمور يعنى بمدينة كِش عناية خاصة منذ أول حياته السياسية حتى جعل منها بالفعل قصبة آسيا الوسطى الثقافية، وصارت تشتهر باسم قبة العلم والأدب. وكان يجلب إليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة والأساتذة من بخارى وفرغانة. وإن في إقامته لقصر آق سراي الجميل لدليل كاف على ما اتجه إليه تفكيره يوماً ما لاتخاذ هذه المدينة حاضرة له. وقد استغرقت إقامة هذا القصر سنوات عشر، وقام على بنائه معماريون خُلِّص من الفرس التزموا في عمارته الطراز القومي (أو بعبارة أدق الطراز الاسلامي في غرب آسيا) حتى رسموا على واجهته الرئيسية شعار الشمس والأسد، فزينوا بذلك مقام الفاتح التوراني بشارات الملوك الايرانيين[1].

وكانت شرفة المدخل فيه (وهي التي تعرف في الفارسية باسم بيش طاق، أي طاق المدخل). هي أهم ما يتميز به هذا القصر على الرسم الشائع في منشآت ذلك العصر. وهي ترتفع فوق البناء على هيئة طاق أو نصف قبة، بها تجاويف كثيرة غريبة الشكل يكسوها الآجر المصقول وزخارفها من الفسيفساء على هيئة الأزهار والنقوش العربية. وكل هذا الآجر المصقول من صنع قاشان، ولا يزال يعرف حتى اليوم باسم قاشي[2]. وقد استخدم كذلك في تزيين الجدران الداخلية. ولا بد أن الغرف العلياكانت كذلك على زينة مفرطة، إذ كانت زخارفها من النقوش العربية زرقاء ومذهبة، وأرضيتها من بلاط مختلف ألوانه يتلاءم معها. وكانت غرف القصر جميعا على نسق واحد، وكان جناح الحرم آية في الروعة والبهاء. وكانت قاعته الكبرى تُفْتح على بستان كبير ظليل تجري فيه جداول لطيفة ينساب ماؤها بين أحواض الزهور.

واستطاعت سمرقند بجمال موقعها أن تتغلب بمضي الزمن على إغراء كِش حتى صارت قصبة تيمور. وسرعان ما أخذت من بعد ذلك تزداد رقعة وأبهة وأهمية. ولم تكن مساحتها — على رواية السفير الاسباني — لتزيد على مساحة اشبيلية. وهو

(١) كانت شارة تيمور ثلاث حلقات ٥٥٥ مع شعار « رستي راستي » أي « العدل قوة » وكان الظن أن هذه الحلقات الثلاث إنما تشير الى أن سلطانه يشمل مناطق ثلاثا هي الجنوب والغرب والشمال. لكن الواقع أن هذه الحلقات مأخوذة عن شارات إيران القديمة حتى لتشاهد على قبور الساسانيين بوصفها رمزا للقوة والوحدة.

(٢) لا تزال قاشان أشهر مكان بايران كلها لصناعة الاجر وإن كانت تجارته قد ركدت إلى حد كبير، ذلك أن أحوال الشرق الحالية لا تشجع على إقامة الأبنية الفخمة.

— على كل حال — إنما يقصد بذلك القلعة والحصن أي ما كان منها يقع بداخل السور[1].

على أن جمال سمرقند وروعتها إنما يتجليان — خارج السور — في بساتينها الرائعة التي تمتد إلى مسافة أميال خمسة أو ستة أو ما يزيد على ذلك وتتناثر فيها الدور الخاصة الأنيقة والقصور السلطانية. وكان بها كذلك طريق يمتد شرقا من بوابة الفيروز (دروازه فيروزي) حتى قصر دلكشا (شارح القلب) الصيفي.

ومدخل هذا القصر الضخم كان يغطيه الآجر الأزرق والمُذهَّب حتى ليراه الناظر من بعيد وهو يتلألأ في الأفق. وكان رجال الحرس السلطاني يملأون الساحة الأولى فيه وهم في أكمل زينة وأتم سلاح. وقد قدَّم الزائر الاسباني إلى الساحة الثانية في قافلة قوامها ستة من الفيلة عليها هوادج جميلة. وكان تيمور يجلس أخيراً في الساحة الثالثة على بساط من الحرير مطرز. وفي هذه الساحة كان يستقبل زائريه. وكان يتوسط كل ساحة فسقية (على ما يشاهد بفارس حتى اليوم) تظللها أشجار الدردار والحور، وبها نافورة تتقاذف فواراتها الكرات الحمراء والذهبية.

ويقع عند الجنوب قصر باغ بهشت (روضة الجنة) ويشتهر بعمارته الجميلة ومغانيه اللطيفة، ويقرر شرف الدين أنه قد بُنِيَ كله من رخام تبريز الأبيض، وأنه كان يقوم على ربوة صناعية يحيط بها خندق عميق مليء بالماء وعليه قناطر تصل الى المنتزه، كما كانت تقوم عند جوانبه دار للوحوش أو السباع. وقدأهدى تيمور هذا القصر إلى حفيدته ابنة ميرانشاه وكان لها عنده مكانة مرموقة. وكان يقضي أغلب أوقات فراغه معها هناك حتى عُرف هذا القصر باسم الخلوة. كذلك كان يقع في هذا القسم من المدينة قصر باغ جناران (روضة الحور). وقد عرف بهذا الاسم إذ كانت تحوطه طرق جميلة يقوم شجر الحور على جوانبها. وهذا القصر كان يقوم بدوره على ربوة صناعية تتوسط البستان. وكانت أبنيته متقاطعة متعامدة، وقد اضطلع فنانو

(١) ومع ذلك فإني أرى تقدير كلافيجو دون الواقع بكثير. وحتى حين أقصد بالقلعة الجزء المسكون من سمرقند وليس القصر، فإن المدينة مع آثارها، التي لا تزال قائمة حتى اليوم، كانت على وجه اليقين أكبر من إشبيلية. ومبلغ ما أذكره هو أني قطعت مسافة طويلة من بوابة بخارى فمررت بحدائق ومدافن الضواحي قبل أن أصل الى داخل المدينة.

الشام بنقشه، كما زُينت جدرانه الداخلية بالتصاوير وملئت غَرفه بأثاث ضخم من الفضة وفرش وموائد غير ذلك، ومعها أدوات للزينة غريبة الشكل والحلي الثمينة من كل نوع. وثمة قصران آخران وصل إلينا وصفهما، وهما قصر باغ شمال (روضة الشمال) وقصر باغ نو (الروضة الجديدة). وكلاهما بناء مربع الشكل طول ضلعه خمسمائة وألف من الياردات، وبه تماثيل جميلة من الرخام، وأرضيته مرصعة بالآبنوس والعاج.

وعلى هدى القليل مما بقى من آثار سمرقند في ذلك العهد، نستطيع أن نقول: إن ما وصف به المؤرخون هذه الأماكن لا يحمل على المبالغة في الغالب. فالمسجد الذي بناه السلطان خدابنده بمدينة سلطانية قبل ذلك بقرن لا يمكن أن يرقى إلى جامع تيمور الذي يعرف بمسجد الشاه والذي لايزال يسمو شامخاً فوق الآثار القديمة بمدينة سمرقند الحديثة.

ويذكر بابر في سيرته أن باب هذا المسجد كانت تعلوه آية قرآنية ضخمة الكتابة حتى كانت تطالع النظارة وهم على بعد ميلين منها[1]. ومن منشآت هذا الطراز الأخرى، التي يرجع الفضل في إقامتها إلى بذخ تيمور: ذلك المسجد الكبير الذي يقوم بميدان الشاه في أصفهان والأضرحة التي توجد في قُمْ ومشهد. ولئن كان فن العمارة قد ظل يواصل ازدهاره ـــ إلى حد ما ـــ بأواسط آسيا في عهد شاه رخ وميرزا حسين بيقرا من خلفاء تيمور، وهو ما ترى دليلا عليه من خرائب المصلى بهراة ومسجد الأميرة جوهر الأنيق في مشهد، إلا أنه ما من شك في أن هذا الفن كان قد بلغ ذروة كماله في عهد تيمور « البربري المتوحش ».

وما يقال عن ازدهار العمارة عند تيمور يصدق كذلك على الصناعة في هذا الاقليم. فقد أرغم تيمور على الهجرة إلى سمرقند أمهر النساجين من دمشق، وغَزّالي القطن الممتازين من حلب، وصانعي الأقمشة في أنقرة، والصياغ في تركيا وبلاد الكرج، وبالجملة كل العمال المهرة في كل فن، حتى كنت ترى كل القوميات والعقائد الآسيوية ممثلة في تلك المدينة. وقد قرر كلافيجو عدد سكان سمرقند (وكان

(١) يذكر بابر في وصفه لسمرقند بسيرته أن هذه الآية هي « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » (المترجم).

كثير منهم يقطنون الكهوف أو يعيشون تحت الأشجار بسبب أزمة المساكن الشديدة) بما لا يقل عن مائة وخمسين ألف شخص، وهو تقدير صحيح في الغالب. فلا عجب إذن أن صارت سمرقند بذلك أعظم سوق لتجارة آسيا كلها، وقد ازدهرت حركة التجارة بها ازدهاراً عظيماً، فحملت قوافل الهند إلى سمرقند التوابل وكل طريف ولطيف من نسيجها، وصَدَّرت الصين إليها الحرير والخزف والمسك والعقيق والحجارة الكريمة.

كذلك كان يَرِدُ إليها، من القسم الشمالي من دولة تيمور المترامية الأطراف، مقادير كبيرة من الفراء الثمين عبر الصحراء. ومنتجات المناطق المختلفة هذه جميعا كانت تعاد تعبئتها في أسواق سمرقند، فلا تُصَدَّر من جديد إلى أهم مدن آسيا فحسب بل وإلى أوربا نفسها سالكة طريقين مختلفين:

فمنفذ التجارة الأولى الكبير كان بطريق خوارزم واستراباد ثم نشنى نوفجورود وموسكو حتى تصل الى أيدي تجار الاتحاد التجاري لمدن ألمانيا الهانزية.

أما المنفذ الثاني فكان بطريق قزوين وتبريز وطرابزون حيث كان يتلقفها تجار البندقية وجنوة وبيزا وينقلونها إلى أوربا. وكانت المواصلات داخل كل البلاد الخاضعة لتيمور حرة مفتوحة على التمام حتى أوقات الحروب والفتن. طالما أشاد السفراء بذلك إذ سافروا في كل المنطقة الواقعة بين طرابزون وسمرقند وعبر أجزاء من مناطق العدو ومعهم الكثير من المتاع تحمله البغال في أمان تام، فلم تصادفهم في طريقهم مضايقات بالكاد. وكانت رحلتهم هذه عقب معركة أنقرة في الوقت الذي بلغت فيه الفوضى غايتها بآسيا الغربية.

وإلى تيمور يُرد الفضل في إشاعة الاهتمام الجدي بالحركة العقلية والعلمية بالبلاد حتى بلغ بذلك العنصر التركي درجة من العزة لم يعرفها من قبل. والواقع أن تاريخ الترك في آسيا الوسطى إنما يبدأ بتيمور. ذلك أن أمراء خوارزم والسلاجقة، برغم أنهم أصلا من الترك، إلا أنهم كانوا يميلون كل الميل إلى الثقافة الايرانية وثقافة العالم الاسلامي العربي. فلم يهتموا إلا قليلاً بنشر النفوذ التركي والأفكار التركية، على غرار ما يفعله الآن آل قاجار الترك الذين يحكمون في فارس[1].

(١) أي وقت تأليف هذا الكتاب (المترجم).

هذا ويمثل تيمور بشخصه انتصار الترك على النظم المغولية الصينية. وقد كان على الدوام يتوق ليثبت ـــ عن حق ـــ سيادة العنصر التركي. وبرغم ما كان يزدحم به بلاطه من العلماء والفنانين من غير الترك، فإن اللغة التركية كانت اللسان الرسمي الوحيد السائد. كما كانت الأبجدية الأويغورية هي التي يكتب بها برغم كراهية المسلمين المتعصبين لها بوصفها من بقايا المسيحية والوثنية.

كان تيمور يكتب في أسلوب تركي رصين فصيح على ما يشاهد في «توزوكاته» التي غالباً ما أشرنا إليها فيما سبق. وهو لم يكن كلفاً باستخدام العبارات الفخمة أو الاغراق في التشبيهات التي كان يولع بها كبار الأدباء والكتاب الرسميون في عصره. وهذا الذي كان نصف آسيا يرتعد منه فرقا كان يبدأ كتاباته السياسية بهذه العبارة « من تنكري قولي تيمور »[1] أي « يقول عبد الله تيمور أن ..) فما أعظم التباين بينه وبين خانات بخارى المتأخرين وأمرائها المفلسين الذين كانت ألقابهم تبلغ عند كتابتها ياردة في الطول.

وبرغم الحروب المستمرة التي خاضها ذلك الفاتح الكبير، وبرغم المتاعب المتلاحقة التي تعرض لها، شهدت بلاده قبيل نهاية حكمه نهضة عقلية لا تنكر في ميداني الدين والعلم. فالتاريخ يخبرنا عن علوي من أسرة زين العابدين هو الصوفي السيد الهمداني الذي ذرع العالم المتحضر أكثر من ثلاث مرات كان يعظ الناس فيها ويهديهم. وقد مات هذا العالم بختلان على ضفاف جيحون عام ٧٨٦هـ ـــ ١٣٨٤م، وترك مؤلفات عديدة في مواضيع أخلاقية وصوفية. وثمة صوفي آخر كبير هو خواجه بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية.

وقد عاش في عهد تيمور ومات عام ٨٩١هـ ـــ ١٣٨٨م وهو يُعدّ إلى اليوم أعظم أولياء بخارى حتى يقال إن مَنْ يحج ثلاث مرات إلى ضريحه ـــ وهو يقع على

(١) أحب أن أصحح هنا خطأ وقعت فيه ببحثي : Uigurische Sprachmonumente p. 17 حين نسبت إلى الأمير تيمور الكتابة الأويغورية عند شواطىء الدنيبر والتي يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠هـ ـــ ١٣٠٧م، وهي الآن في حوزة المكتبة الامبراطورية بمدينة فينا، فصاحبها في الحقيقة هو تيمور تغلق من بيت جوجى لا تيمورلنك، وقد كانت الأويغورية هي لسان القبيلة الذهبية الرسمي كذلك.

بعد ميل من المدينة ـــ فكأنه قد حج مرة واحدة إلى البيت الحرام. وجدير بالذكر، من بين الكتاب المشتغلين بالعلوم الدنيوية، الشاعر لطف الله النيسابوري. وكان شاعر الأمير ميرانشاه ومادحه الخاص. ولم يكن هذا الشاعر ليحسد على منصبه عند هذا الأمير الذي اشتهر بخلاعته وإدمانه على الشراب. وقد احتال على كل حال في عرض بعض من بدائع شعره على هذا الأمير التافه الذي كان عليه أن ينشد القريض في مدحه. وكان هذا الشاعر موضع تقدير بالغ من تيمور. ومات عام ٧٨٦هـ ـــ ١٣٨٤م. كذلك نذكر الشيخ كمال الدين الخجندي، ولم تكن قصائده تقل في روعتها عن غزليات سميه ومعاصره كمال الدين الأصفهاني، وحين استولى تختمش على بلد هذا الشاعر أرغمه على الهجرة إلى عاصمته على الفولغا[1]، ولكنه ما لبث أن لبّى دعوة السلطان حسين الايلخاني له بعد ذلك بأربع سنوات وسار الى تبريز. وقد بنى له هذا السلطان هناك خانقاه جميلة تكريما له، ومات بها عام ٨٩٣هـ ـــ ١٣٨٠م. وقضى كذلك بسمرقند بعد عام من ذلك التاريخ العلامة التفتازاني. وقد ولد هذا العالم بالعراق عام ٧٢٢هـ، ونشر شرحاً على الريحاني وهو في السادسة عشرة من عمره. وعاش هذا العالم في توفيق بِهَراة وجام وسرخس وسمرقند وغجديوان وتركستان وخوارزم. وكان نابغة في علم الأصول والفقه والنحو والتفسير على السواء، ويقال ان مؤلفاته وأبحاثه التي كتبها تزيد في عددها على سنى عمره بكثير، كذلك كان الشاعر أحمد الكرماني مؤلف « تيمورنامه »، وهي سيرة تيمور نظما، يعيش عند الفاتح الكبير ولا كلفة بينهما حتى كان يسمح له بأن يسخر منه على وجه كان يستحق عليه اليوم الموت .. عند أكثر أمراء آسيا أنصاف المتحضرين[2]. كذلك

(١) يقول في بيت له (نقلا عن تاريخ سيد راقم ص ٩٢ :
أكر سراي دلبران سراي بيار باده كي فارغ شوم زهر دوسراي).
أي لو كانت سرايا قصرا للجمال، فهات الشراب حتى أهجر الدارين الدنيا والآخرة من أجلك (وكانت سراي هي عاصمة تختمش) (المترجم). ومن أراد تفصيلا عن ذلك الشاعر فلينظر : Geschiche Persischer Redekuenste p. 255.

(٢) كان تيمور ذات يوم في الحمام ومعه الكرماني وبعض أصحاب المجون، وتطرق الحديث بينهم الى قِيَم الرجال. هنالك سأل تيمور الشاعر عما عساه يدفعه حقا إذ عرض (أي تيمور) للبيع. فأجاب الكرماني بأنه لا يشتريه بأكثر ما يعادل أربعين مليماً، وحين ←

كان تيمور يشمل بعطفه ورعايته عددا ملحوظا من العلماء والشعراء من غير الترك. بل إن كل الذين حملهم بالكثير نظير هجرتهم هذه التي أجبروا عليها قسراً، فالعلماء من أمثال معه من مختلف البلاد الآسيوية إلى بلاد ما وراء النهر كانوا يعوضون الجزري، صاحب أعظم قاموس عربي، صارت لهم مناصب مرموقة في البلاط. أما العلماء المعلمون الذين قدموا من نيسابور ومرو وخوارزم وبغداد فقد بذلت لهم وظائف مجزية في مدارس بخارى وسمرقند وكش، تزيد على مناصبهم التي تركوها.

ويتميز عهد تيمور الزاهر على الخصوص بإقامة المدارس الكثيرة وإجراء الأرزاق عليها. ولا تزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار بخارى اليوم. ولقد جعل تيمور من نفسه مثالاً يُحتذى من بعده في ذلك، وأخذ في الغالب فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء والنبلاء يتنافسون فيما بينهم في بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء وإجراء الأرزاق عليها. حتى لا نجد مناصا من أن نسلك النهضة الفكرية في آسيا الوسطى — بطريق غير مباشر على الأقل — ضمن الخدمات التي أداها تيمور لبلاده[1].

احتج تيمور عليه في ذلك بأن المبلغ هو ثمن لافتة البيع وحدها، أجابه الكرماني بأن هذا هو ما يقصده تماما ذلك أنه هو نفسه لا يساوي شيئاً.

(١) نقلا عن الدكتور علي محمد عمر في عجائب المقدور في نوائب تيمور — طبعة القاهرة ١٩٧٩.

الملحق الثاني* :

تيمور وهو تمرلنك بن طرغاي الحفظاي الأعرج وهو اللنك بلغتهم فعرف بتمر اللنك، ثم خفف فقيل تمرلنك. تغلب على سلطانهم المتصل نسبه بعظيم القان إلى حفظاي واسمه محمود وكان ابتداء ملكه أنه لما انقرضت دولة بني جنكيزخان وتلاشت في جميع النواحي، ظهر في أعقاب بني حفظاي بين كش وسمرقند تيمور هذا وتغلب على ملكهم محمود بعد أن كان أتابكه، وتزوج أمه بعد مهلك أبيه واستبد عليه وكان في عصره أمير لبخارى يعرف بحسن من أكابر المغل وآخر بخوارزم من قبل ملوك سراي أهل التخت يعرف بالحاج حسن الصوفي وهو من كبار التتر فنبذ إليهم تيمور العهد وزحف إلى بُخارى فملكها من يد حسن، ثم زحف إلى خوارزم وتحرش بها وهلك حسن في خلال ذلك وولى أخوه يوسف فملكها تيمور من يده وخربها في حصار طويل، ثم كلف بعمارتها وتشييد ما خرب منها وانتظم له ملك ما وراء النهر ونزل بُخارى ثم انتقل إلى سمرقند ثم زحف إلى خراسان وطال تحرشه بها، وحروبه مع صاحبها، شاه ولي إلى أن مَلَكَها عليه سنة أربع وثمانين وسبعمائة ونجا شاه ولي في قلة إلى تبريز، وبها أحمد بن أويس بن حسن صاحب العراق وأذربيجان إلى أن زحف عليهم تيمور سنة ثمان وثمانين فهلك شاه ولي في حروبه عليها، وملكها تيمور ثم زحف إلى أصبهان فأتوه طاعة ممرضه وحالفه في قومه كبير من أهل نسبه يُعرف بقمر الدين وأمده طقتمش صاحب التخت لصراى، فكَرَّ راجعاً إليه وشُغِلَ بحروبه إلى أن محى أثره، واشتغل بسلطان المغل وزاحم

* نقلا عن السخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع المجلد الثالث ص ٤٦.

طقتمش مراراً حتى أوهن أمره ، ثم رجع إلى أصفهان سنة أربع وتسعين فملكها ثم سار إلى فارس وبها أعقاب بني المظفر اليزدي المتغلبين عليها بعد هلاك بني هولاكو فملكها من أيديهم آخر سنة أربع وتسعين ، ثم زحف إلى بغداد سنة خمس فاجفل عليها أحمد بن أويس المتغلب عليها بعد بني هولاكو وألحقه بالشام ، واستولى تيمور على بغداد والجزيرة وديار بكر إلى الفرات ، واتصلت أخباره بالظاهر برقوق ملك مصر فاستعد للقائه وجمع ونزل عسكر حلب بالقرب من الفرات ونزل تيمور بالرها وأخذها ونهبها وبلغه زحف طقتمش في جموع المغل ووصوله إلى الأبواب فأحجم وتأخر إلى قلاع الأكراد وأطراف بلاد الروم وأناخ على قراباغ باش أذربيجان والأبواب ، ورجع طقتمش صاحب التخت إلى صراى ، ثم سار إليه تيمور أول سنة سبع وتسعين وغلبه على ملكه وأخرجه من سائر أعماله ، فلحق ببلغادر ورجع سائر المغل الذين كانوا معه إلى تيمور فأصبحت أممُ المغل والتتر كلها في حملته وصاروا تحت لوائه ، والملك لله فلما بلغه موت الظاهر برقوق فرح وأعطى من بَشَّره بذلك خمسة عشر ألف دينار وتهيأ للمسير إلى بلاد الشام ، فجاء إلى بغداد فأخذها ثانياً لأنها كانت استرجعت من نائبه بها وهرب منها أحمد بن أويس فلحق بالشام ، ثم قصد تيمور سيواس في آخر سنة اثنتين وثمانمائة فحاصرها مدة ولم يأخذها ، ثم إلى عينتاب فأجفل أهل القرى بين يديه وجفل أهل البلاد الحلبية واجتمع عساكر الممالك الشامية بحلب ، ووصل تيمور إلى مرج دابق وجهز رسولا إلى حلب فأمر سودون النائب بقتله ، ثم نزل في يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة ثلاث على حلب ونازلها وحاصرها فخرج النواب بالعساكر إلى ظاهرها من جهة الشمال ما بين نابلي وبانقوسا وتقاتلوا يوم الخميس والجمعة فلما كان يوم السبت حادي عشر الشهر المذكور ركب تيمور وجمع وحشد الفيلة تقاد بين يديه وهي فيما قيل ثمانية وثلاثون ، وكان قد دخل بلاد الشام في جموع وأمم لا يعلمها إلا الله من ترك وتركمان وعجم وأكراد وتتار ، وزحف على حلب فانهزم المسلمون من بين أيديهم وجعلوا يلقون أنفسهم من الأسوار والخنادق والتتار في أثرهم يقتلونهم ويأسرونهم إلى أن دخلوا حلب عنوة بالسيف فلجأ النساء والأطفال إلى الجوامع والمساجد فلم يَفِد ذلك شيئاً واستحر القتل والأسر في أهل حلب من التتار فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وقُتل خلق كثير من الأطفال تحت حوافر الخيل وعلى الطرقات ، وأحرقوا المدينة وكانت

وقعة فظيعة ، ثم في يوم الثلاثاء رابع عشره تسلم قلعتها بالأمان وصعد إليها في اليوم الذي يليه ، وجلس في إيوانها وطلب القضاة والعلماء للسلام عليه فامتثلوا أمره وجاءوا إليه في ليلة الخميس ، فلم يكرمهم وجعل يتعنتهم بالسؤال وكان آخر ما سألهم عنه أن قال : ما تقولون في معاوية ويزيد ؟ هل يجوز لعنهما أم لا ؟ وعن قتال على ومعاوية فأجابه القاضي علم الدين القفصي المالكي بأن علياً اجتهد وأصاب فله أجران ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فتغيظ من ذلك ثم أجاب الشرف أبو البركات موسى الأنصاري الشافعي بأن معاوية لا يجوز لعنه لأنه صحابي فقال تمرلنك ما حدّ الصحابي ؟ فأجابه القاضي شرف الدين أنه كل من رأى النبي ﷺ فقال تمرلنك فاليهود والنصارى رأوا النبي ﷺ فأجاب بأنَّ ذلك بشرط كون الرائي مسلماً ، وأجاب القاضي شرف الدين بأنه رأى حاشية على بعض الكتب أنه يجوز لعن يزيد ، فتغيظ لذلك وذلك بعد أن وعد بالعفو ثم أمر بالانصراف وذلك في الثلث الأول من ليلة الخميس المسفرة عن سادس عشر فانصرفوا ثم أن تمرلنك حضر إلى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام فجرى له مع القضاة بعض ما اتفق أولاً واستمر به إلى قريب طلوع الفجر ، ثم توجه إلى قاعة السلطان الكائنة بالقلعة وأمر بطلب دراهم ممن هو بالقلعة من الحلبيين فكُتبت أسماء الناس وقبض عليهم وعوقبوا بأنواع من العذاب ، بحيث لم يَسْلم من العقوبة الا القليل ونهبوا القلعة وأخذوا من الأموال والأقمشة ما أذهل التتار ولم يظفروا في مملكة بمثله ، وأقام التتار بحلب يعاقبون ويأخذون الأموال إلى يوم السبت مستهل أو ثاني ربيع الآخر ، ثم رحل إلى جهة دمشق وترك بحلب طائفة من التتار بالقلعة وبالمدينة ، وأمر على القلعة الأمير موسى ، وكان فيه لطف على ما قيل وإحسان معروف ، وحبس من كان في القلعة من الأعيان بها تحت أيدي التتار ولم يسلم من ذلك إلا من هرب .

فوصل تمر إلى دمشق وكان قد وصل إليها الناصر فرج بعساكر الديار المصرية لدفع التتار ، وحصل بينهم قتال أياما . ثم إن العسكر المصري وقع الخلف بينهم في الباطن وداخلهم الفشل فانكسروا وولوا راجعين إلى جهة مصر ، واقتفى التتار آثارهم يسلبون من قَدِروا عليه أو لَحِقوه ، ورجع السلطان إلى مصر وأخذ تمرلنك دمشق ، وفعل بها أعظم ما فعله بحلب ، فقصد من بالقلعة ، أن يمتنع منه فأخذ بالأخشاب

والتراب والحجارة وبني برجين قبالة القلعة من ناحية جسر الزلابية ، فأذعنوا حينئذ ونزلوا فتسلمها ونهب المدينة وخربها خراباً فاحشاً ، لم نسمع بمثله . ولم يصل التتار أيام هولاكو إلى قريب مما فعل بها التتار أيام تيمور ، واستمر بدمشق إلى العشر الثاني من شعبان ، ثم رجع إلى ناحية حلب قاصداً بلاده ، فلما قرب منها أمر من كان من التتار بها بالرحيل وان يصحبوا من بالقلعة من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الانصاري والكمال عمر بن العديم وجماعة معهم ، وأخذ بقيَّتهم إلى جهة بلاده فمنهم من هرب في أثناء الطريق ومنهم من استمر معهم عجزاً ورحل التتار كما أمرهم تمرلنك من حلب في العشر الثاني من شعبان وأسروا جميع من صادفوا في طريقهم من النساء والصبيان بعد أن أحرقوا حلب مرة ثانية وهدموا أبراج القلعة وسور المدينة وخربوا المساجد والجوامع والمدارس وقتلوا وسبوا وأسروا واستحلوا الدماء والفروج وقال الشعراء في ذلك قصائد شبه الرثاء والتوجع ونحو ذلك ، ولما رجع إلى جهة بلاده أناخ على قراباغ إلى السنة الثانية وهي سنة أربع فجمع وحشد وقصد بلاد الروم فجمع سلطانها أبو يزيد عسكره وتقدم كل من الفريقين إلى الآخر فحصلت مقتلة عظيمة انكسر فيها صاحب الروم وأُسر وتفرق شمل عسكر الروم فأخذ تمرلنك ما يلي أطراف الشام من بلاد الروم وأخذ برصا وهي كرسي مملكة الروم ثم رجع إلى بلاده ومعه أبو يزيد صاحب الروم معتقلاً فتوفى في اعتقاله من السنة واستمر تمرلنك في بلاد العجم ، ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها ، ثم جرى بينه وبين الناصر فرج مراسلات وصلح وأهدى كل منهما للآخر ، وكان شيخاً طوالا مهولا طويل اللحية حسن الوجه أعرج شديد العرج سلب رجله في أوائل أمره ومع ذلك يصلّي عن قيام ، مهاباً بطلاً شجاعاً جباراً ظلوماً غشوماً فتاكاً سفاكاً للدماء مقداماً على ذلك أفنى في مدة ولايته من الأمم مالا يحصيهم الا الله ووصل إلى أطراف الهند وخرب بلدانا كثيرة يفوتها الحصر ، جهير الصوت يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج ، وله فيها يد طولى ومهارة زائدة وزاد فيها جملاً وبغلاً وجعل رقعته عشرة في أحد عشر بحيث لم يكن يلاعبه فيه الا أفراد ، يقرب العلماء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ، ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه فكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب وما أخرب البلاد الا بذلك فانه كان من أطاعه من أول وهلة أمِنْ ومن خالفه أدنى مخالفة وهى ، ذا فكر صائب ومكائد

في الحرب عجيبة وفراسة قَلَّ أن تخطىء عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعه ، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفراً أو حضراً مغرى بمن له معرفة بصناعة ما إذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة حاذقا باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة ، ويعتمد قواعد جنكز خان ويجعلها أصلاً . ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع أن شعائر الإسلام في بلاده ظاهرة ، وله جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها ، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها ، ويكاتبونه بجميع ما يروم فلا يتوجه إلى جهة الا وهو على بصيرة من أمرها ، وبلغ من دهائه أنه كان إذا أراد قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا إلى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني إلى الجهة الفلانية ، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرها ، ويأمن غيرها ، فإذا ضرب النفير وأصبحوا سائرين ذات الشمال عرج بهم ذات اليمين ، فإلى أن يصل الخبر الثاني داهم هو الجهة التي يريد وأهلها غافلون . مات وهو متوجه لأخذ بلاد الخطا[1] على مدينة أترار في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وأرَّخه المقريزي في التي تليها وأظنه غلطاً . ولم يكن معه من بنيه وأحفاده سوى حفيده خليل بن ميران شاه وحسين ابن أخته فاتفق رأيهم على استقرار الحفيد المذكور عوضه بسمرقند مع وجود أبيه وعمه شاه‌رخ بهراة ووجود بير عمر في فارس ، وكان تيمور قد جعل أولاً ولي عهده حفيده محمد سلطان فمات على أقشهر من بلاد الروم في سنة خمس وثمانمائة ، فعهد إلى أخيه بير محمد وأبعده فصار ولي العهد وهو بفارس ، فلما مات تيمور واستولى حفيده خليل على الخزائن ، وتمكن من الأمراء والعساكر ، بذل لهم الأموال العظيمة حتى دخلوا تحت طاعته وسار فلما قارب سمرقند تلقاه من بها وعليهم ثياب الحداد وهم يبكون ومعهم التقادم فقبلها منهم ، ودخلها وجثة جدّه تيمور في تابوت أبنوس وجميع الملوك والأمراء مشاة مكشوفة رؤوسهم وعليهم ثياب الحداد ، حتى دفنوه وأقاموا عليه العزاء أياماً ولعله قارب الثمانين فانه قال للقاضي شرف الدين الأنصاري وغيره كم سنكم فقال له الشرف سني الآن سبعة وخمسون سنة وأجابه غيره بنحو ذلك ، فقال أنا أصلح أن

(١) ذكر من أرخ سيرته أن توجهه لبلاد الخطا كان في زفير الشتاء وبرد تلك الناحية قال فكان يستعين بشرب روح الخمر فتفتت كبده واحترقت .

أكون والدكم . وبالجملة فكانت له همة عالية وتطلع إلى الملك ، وكان مغري بغزو المسلمين وترك الكفار ، وصنع ذلك في بلاد الروم ثم في بلاد الهند ، وأنشأ بظاهر سمرقند عدة بساتين وقصور عجيبة فكانت من أعظم النزه ، وبنى عدة قصبات سماها بأسماء البلاد الكبار كحمص ودمشق وبغداد وشيراز ، وكان يجمع العلماء ويأمرهم بالمناظرة ويسألهم ويعنتهم بالمسائل ، ولما مات كان له من الاولاد ميران شاه وشاه رخ وبنت اسمها سلطان تخت ، ومن الزوجات ثلاث ، ومن السراري شيء كثير ، وأخباره مطولة وقد أفردها بعض من أخذت عنه بالتأليف ، والقدر الذي اقتصرت عليه هنا اعتمدت فيه ابن خطيب الناصرية وشيخنا ، وترجمته في عقود المقريزي نحو كراستين .

الملحق الثالث* :

تمر وقيل تيمور ـــ كلاهما يجوز ـــ ابن ايتمش قنلغ بن زنكي بن سيبا ابن طارم طر بن طغربك بن قليج بن سنقور بن كنجك بن طغر سبوقا الطاغية تيمور كوركان ، ومعناه باللغة العجمية صهر الملوك ولد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بقرية تسمى خواجا ابغار من عمل كش أحد مداين ما وراء النهر ، وبُعد هده البلدة عن سمرقند يوم واحد يقال أنه رؤى ليلة ولد كأن شيئا يشبه الخوذة تراءى طائراً في جو السماء ثم وقع إلى الأرض في فضاء فتطاير منه شَرر حتى ملأ الأرض ، وقيل أنه لما خرج من بطن أمه وُجِدَتْ كفَّاه مملوءتين دماً فزجروا أنه تسفك على يديه الدماء ، وقيل ان والده كان إسكافا وقيل بل كان أميرا عند السلطان حسين صاحب مدينة بلخ ، وكان أحد أركان دولته ، وان أمه من ذرية جنكيزخان ، وقيل إن أول ما عرف من حاله أنه كان يتَجرَّم ، فسرق في بعض الليالي غنمة وحملها ليمر بها فانتبه الراعي ورماه بسهم فأصاب كتفه ثم ردفه بآخر فلم يُصبه ثم بآخر فأصاب فخذه وعمل عليه الجرح الثاني حتى عرج منه ، ولهذا يسمى تمرلنك فان لنك باللغة العجمية أعرج ، ثم أخذ في التجرّم وقطع الطريق وصحبه في تجرمه جماعة عدتهم أربعون رجلاً . وكان تيمور يقول لهم في تلك الأيام لابدّ أن أملك الأرض وأقتل ملوك الدنيا ، فيسخر منه بعضهم ويصدقه البعض لما يروه من شدة حزمه وشجاعته ، قال ابن حجر : كان من أتباع طقتمش خان آخر الملوك من ذرية جنكزخان ، فلما مات وقرر في السلطنة ولده محمود استقر تيمور أتابك وكان أعرج وهو اللنك بلغتهم فعرف بتمراللنك ثم خُفِّف وقيل تمرلنك ، وتزوج أم محمود وصار هو المتكلم في المملكة

---

* نقلا عن شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المجلد السابع ص ٦٢ ـــ ٦٧ .

وكانت همته عالية ويتطلع إلى المُلك ، فأول ما جمع عسكراً ونازل صاحب بخارى فانتزعها من يد أميرها حسن المغلى ثم نازل خوارزم فاتفق وفاة أميرها حسن المغلى واستقر أخوه يوسف وانتزعها اللنك أيضاً ولم يزل إلى أن انتظم له مُلك ما وراء النهر ثم سار إلى سمرقند وتملكها ، ثم زحف إلى خراسان وملكها ثم ملك هراة ثم ملك طبرستان وجرجان بعد حروب طويلة سنة أربع وثمانين ، فلجأ صاحبها شاه وتعلق بأحمد بن أويس صاحب العراق فتوجه اللنك إليهم فنازلهم بتبريز وأذربيجان فهلك شاه في الحصار ، وملكها اللنك ، ثم ملك أصبهان وفي غضون ذلك خالف عليه أمير من جماعته يقال له قمر الدين وأعانه طقتمش خان صاحب صراي ، فرجع إليهم ولم يزل يحاربهم إلى أن أبادهم واستقل بمملكة المغل وعاد إلى أصبهان سنة أربع وتسعين فملكها ثم تحول إلى فارس وفيها أعيان بني المظفر اليزدي فملكها ، ثم رجع إلى بغداد سنة خمس وتسعين فنازلها إلى أن غلب عليها وَفَرَّ أحمد بن أويس صاحبها إلى الشام ، واتصلت مملكة اللنك بعد بغداد بالجزيرة وديار بكر فبلغته أخباره الظاهر برقوق ، فاستعد له وخرج بالعساكر إلى حلب فرجع إلى أذربيجان ، فنزل بقراباغ فبلغه رجوع طقتمش إلى صراي فسار خلفه ونازله إلى أن غلبه على ملكه في سنة سبع وتسعين ففر إلى بلغار وانضم عسكر المغل إلى اللنك فاجتمع معه فرسان التتار والمغل وغيرهم ثم رجع إلى بغداد وكان أحمد فَرَّ منها ثم عاد إليها فنازلها إلى أن ملكها ، وهرب أحمد ثانيا وسار إلى أن وصل سيواس فملكها ، ثم حاصر بهنسا مدة وبلغ ذلك أهل حلب ومن حولها فانجفلوا ونازل حلب في ربيع الأول فملكها وفعل فيها الأفاعيل الشنيعة ، ثم تحول الى دمشق في ربيع الآخر أي سنة ثلاث وثمانمائة وسار حتى أناخ على ظاهر دمشق من داريا إلى قطنا والحولة وما يلي تلك البلاد ، ثم احتاط بالمدينة وانتشرت عساكره في ظواهرها تتخطف الهاربين وقال صاحب المنهل الصافي وصار تيمور يلقى من ظفر به تحت أرجل الفيلة حتى خرج إليه أعيان المدينة بعد أن أعياه أمرهم يطلبون منه الأمان ، فأوقفهم[٢] ساعة ثم أجلسهم وقدم إليهم طعاماً واخلع عليهم واكرمهم ونادى في المدينة بالأمان والاطمئنان وان لا يعتدي أحد على أحد فاتفق أن بعض عسكره نهب شيئا من السوق فشنقه وصلبه برأس سوق

(١) من قوله « فأوقفهم » الى « الاطمئنان » غير موجود في الأصل .

البزوريين ، فمشى ذلك على الشاميين وفتحوا أبواب المدينة فوزعت الأموال التي كان فرضها عليهم لأجل الأمان على الحارات وجعلوا دار الذهب هي المستخرج ، ونزل تيمور بالقصر الابلق من الميدان ثم تحول منه إلى دار وهدمه وحرقه ، وعبر المدينة من باب الصغير حتى صلى الجمعة بجامع بني أمية وقدم القاضي الحنفى محمود بن الكشك للخطبة والصلاة ثم جرت مناظرة بين إمامهم عبد الجبار وفقهاء دمشق وهو يُترجم عن تيمور بأشياء منها وقائع على بن أبي طالب رضى الله عنه مع معاوية وما وقع ليزيد بن معاوية مع الحسين وان ذلك كله كان بمعاونة أهل دمشق له ، فان كانوا استحلُّوه فهم كفار والا فهم عصاة بغاة وإثم هؤلاء على أولئك فأجابوه بأجوبة قَبِلَ بعضها وَرَدَّ البعض ثم قام من الجامع وَجَدَّ في حصار القلعة حتى أعياه أمرها ، ولم يكن بها يومئذ الا نفر يسير جدا ، ونصب عليها عدة مناجيق ، وعَمَّر تجاهها قلعة عظيمة من خشب ، فرمى مَنْ بالقلعة على القلعة التي عَمَّرها بسهم فيه نار فاحترقت عن آخرها ، فأنشأ قلعة أخرى ثم سَلَّموها له بعد أربعين يوما بالامان . ولما أخذ تيمور قلعة دمشق أباح لمن معه النهب والسلب والقتل والاحراق ، فهجموا على المدينة ولم يَدَعُوا بها شيئا قَدروا عليه وطرحوا على أهلها أنواع العذاب وسبوا النساء والأولاد ، وفجروا بالنساء جهارا ولا زالوا على ذلك أياما . وألقوا النار في المباني حتى احترقت بأسرها ، ورحل عنها يوم السبت ثالث شعبان سنة ثلاث وثمانمائة ، ثم اجتاز بحلب وفعل بأهلها ما قدر عليه ، ثم على الرها وماردين ثم على بغداد وحصرها أيضاً حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر من السنة ، ووضع السيف في أهلها وألزم جميع من معه أن يأتي كل واحد منهم برأسين من رؤس أهلها ، فوقع القتل حتى سالت الدماء انهارا وقد أتوه بما التزموه فبنى من هذه الرؤوس مائة وعشرين مأذنة . ثم جمع أموالها وأمتعتها وسار إلى قراباغ فجعلها خراباً بلقعا .

ثم قال ابن حجر : فلما كان سنة أربع وثمانمائة قصد بلاد الروم فغلب عليها وأسر صاحبها أي بايزيد بن عثمان ومات معه في الاعتقال ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها ، وكان مغرى بقتل المسلمين وغزوهم وترك الكفار . وكان شيخا طوالا شكلا مهولا طويل اللحية حسن الوجه بطلا شجاعا جبارا ظلوما غشوماً سفاكاً للدماء مقداماً على ذلك ، وكان أعرج سلت رجله في أوائل أمره ، وكان يصلي

عن قيام، وكان جهوري الصوت يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى وزاد فيها جملا وبغلا وجعل رقعته عشرة في أحد عشر، وكان ماهراً فيه لا يلاعبه فيه الا الأفراد، وكانت يقرب العلماء والصلحاء والشجعان والأشراف وينزلهم منازلهم، ولكن من خالف أمره أدنى مخالفة استباح دمه، وكانت هيبته لا تدانى بهذا السبب، وما أخرب البلاد إلا بذلك وكان من أطاعه في أول وهلة أمِنْ، ومن خالفه أدنى مخالفة وَهَن وكان له فكر صائب ومكايد في الحرب وفراسة قَلَّ أن تُخطىء، وكان عارفا بالتواريخ لادمانه على سماعها لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفرا ولا حضرا، وكان مغرى بمن له صناعة ما إذا كان حاذقا فيها. وكان أمياً لا يحسن الكتابة وكان حاذقا باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة وكان يُقَدِّم قواعد جنكيزخان ويجعلها أصلا، ولذلك أفتى جمعاً جماً بكفره مع أن شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة. وكان له جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها، وكانوا ينهون اليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من أمرها، وبلغ من دهائه أنه كان إذا قصد جهة جمع أكابر الدولة وتشاوروا الى أن يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني الى الجهة الفلانية، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فيأخذ أهل تلك الجهة المذكورة حذرها ويأنس غيرها، فإذا ضرب بالنفير وأصبحوا سائرين ذات الشمال، عرج بهم ذات اليمين، فلا يصل الخبر الثاني الا ودَهَم الجهة التي يريد وأهلها غافلون. وكان أنشأ بظاهر سمرقند بساتين وقصوراً عجيبة وكانت من أعظم النزه وبنى عدة قصاب سماها بأسماء البلاد الكبار كحمص ودمشق وبغداد وشيزار انتهى. وقال في المنهل وكان يستعمل المركبات والمعاجين ليستعين بها على افتضاض الأبكار، وخرج من سمرقند في شهر رجب أي من هذه السنة قاصدا بلاد الصين والخطا وقد اشتد البرد حتى نزل على سيحون وهو جامد فعبره ومَرَّ سائراً واشتد عليه وعلى من معه من الرياح والثلج، وهلكت دوابهم وتساقط الناس هلكى ومع ذلك فلا يَرِقّ لأحد ولا يبالي بما نزل بالناس بل يَجدّ في السير، فلما وصل الى مدينة أترار أمر أن يستقطر له من الخمر حتى يستعمله بأدوية حارة وأفاوية لدفع البرد وتقوية الحرارة، وشرع يتناوله ولا يسأل عن أخبار عسكره وما هم فيه الى أن أثَّرت حرارة ذلك في كبده وأمعائه فالتهب مزاجه حتى ضعف بدنه وهو يتَجلَّد ويسير السير السريع وأطباؤه يعالجونه بتدبير

مزاجه إلى أن صاروا يضعون الثلج على بطنه لِعِظَم ما به من التَلهُّب وهو مطروح مدة ثلاثة أيام فَتَلِفَتْ كبده وصار يضطرب ولونه يحمر الى أن هلك في يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان وهو نازل بضواحي أترار، ولم يكن معه من أولاده سوى حفيده خليل بن أميران شاه بن تيمور فملك خزائن جده وتسلطن، وعاد الى سمرقند برمة جده الى أن دفنه على حفيده محمد سلطان بمدرسته وعلق بقبته قناديل الذهب من جملتها قنديل زنته عشرة أرطال دمشقية، وتُقْصَد تربته بالنذور للتبرك من البلاد البعيدة لا تقبَّل الله ممن يفعل ذلك، وإذا مَرَّ على هذه المدرسة أمير أو جليل خضع ونزل عن فرسه إجلالا لقبره لما له في صدورهم من الهيبة، وتوفي عن نيف وثمانين سنة وخَلَّف من الأولاد أميران شاه، والقان معين الدين شاه رخ صاحب هراة، وبنتا يقال لها سلطان بخت وعدة أحفاد انتهى باختصار.